

من الشرق والغرب

# الفتوحات العربية الكبرى

بمقام  
جنون باموت هاروت

تدوين وتعليق  
غيتري صمان



« على الزمن ألا يمحو الماضي من تاريخ الإنسانية ، وعلينا  
ألا ننكر على الأعمال العظيمة الرائعة حقها في الشهرة »

هيودتس





## تقدمة العرب

عندما صدر هذا الكتاب في لندن قبل زهاء شهرين أو ثلاثة تساءلنا نحن الذين عرفنا مؤلفه جلوب عندما كان في بلدنا الحبيب الاردن ، يعمل رئيسا لأركان جيشنا وينفذ عن طريق مركزه هذا مخطط بلاده الاستعماري في الوطن العربي كله - عما قصده جلوب من كتابه . وقلنا لأنفسنا ترى هل مل جلوب من كثرة ما شوهه قولا وعملا في تاريخنا الحديث فأراد أن ينتقل الآن الى تاريخنا القديم يعمل فيه معاول الهدم والتشويه ، لينفث سموم حقده الاسود على الشعب الذي مل الاعييه الاستعمارية وحيله الماكرة في تنفيذ مخطط بلاده . فأخرجه من بلادنا شبه مطرود مما حمله حقدا أسود على كل ما هو عربي ، بالاضافة الى ما كان يحمله في الماضي من عواطف عدائية للعرب بسبب تأثره بسياسة بلاده الاستعمارية .

وصدر الكتاب . وطلعت صحف الغرب تلقاه بالاطراء والتقريظ فجلوب في نظرها خير كبير في الشئون العربية بل لعله أعظم هؤلاء الخبراء فلقد صرم زهاء ثلاثين عاما أو يزيد من عمره ، يجوب الصحاري العربية وينتقل بينها مختلطا ببدوها ومتحكما في حضرها وناشرا سلطان بلاده على ربوعها . وقد تعلم اللغة العربية ولاسيما لهجات البدو منها فأجادها وعاش مع العرب في خيامهم يشاركهم طعامهم . وينام نومهم ملتحفا السماء ومقترشا الغبراء ثم بعد أن عاد الى بلاده متقاعدا مطرودا جعلت منه الدوائر المسئولة خبيرا تشاوره في كل ما يمت الى البلاد العربية بصلة . وصيرت منه الصحافة اخصائيا ترجع اليه في كل مشكلة تتعلق بالعرب ، تسأله الرأي والتعليق . واغتنم هو بدوره هذه الفرصة فأخذ ينشر المقالات تلو المقالات ، ويصدر الكتاب تلو الكتاب وكلها عن تجاربه واختباراته في الوطن العربي . وما مر به من خواطر وذكريات راعى فيها جانب التضليل وتشويه الحقائق ليحجى ما يسرده معبرا عن حقده الاسود ومنسجما مع سياسات بلاده الاستعمارية وغاياتها .

ولكن عندما صدر هذا الكتاب . وقرأنا عنه في صحافة الغرب ما

قرأناه من اطراء وتقريظ وثناء، خيل الينا - وان كنا لانعرف عن جلوب أنه مؤرخ أو بحاث أو متعمق في دراسة التاريخ الاسلامي - أنه قد يكون في كتابه هذا قد بحث تاريخ العرب من الزاوية العسكرية • وحلل أحداث هذا التاريخ ووقائعها وفسرها على ضوء معلوماته العسكرية وخبرته بالبلاد التي وقعت فيها هذه الاحداث • وقلنا لعل جلوب قد عثر في بعض الكتب الرومانية أو البيزنطية على أشياء نجهلها أدرجها في كتابه وربط بينها وبين روايات التاريخ العربي ليخرج لنا من كل ذلك بشيء جديد وتوقعنا بعد ما قرأنا من تقريظ لهذا الكتاب أن نجد فيه منحنى جديدا في قراءة التاريخ العربي مستمدا من الوقائع العسكرية ، وقائما على أساس المفاهيم في فنون الحرب ، من سوقية وتعبوية •

ووصل الكتاب الينا فقرأناه • وكلما أوغلنا في قراءته رأينا العجب العجيب فالكتاب مستمد في وقائع من كتب التاريخ والسير العربية ليس الا ، كسيرة ابن هشام وتواريخ الطبرى والبلاذرى والخضرى • وكل ما فيه من جدة هو الربط بين الاحداث وصوغ قصتها على أساس الاتساق الزمنى • مع بعض الاستنتاجات والآراء الخاصة التي لا تتطلب خبرة « جنرال » عسكرى ، أو عالم بفنون الحرب وخططها وانما يمكن أن يصل اليها كل باحث يتوخى فهم الاحداث وتفسيرها •

ولكن أهم ما فى الكتاب هى المحاولة البازرة فى كل ناحية من نواحيه للتشويه والتضليل ورسم الصور الزائفة التي تشكك القارئ فى الشخصيات العربية العظيمة ابتداء من النبى صلى الله عليه وسلم وانتهاء بصغار القادة ، عبورا بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وخالد وأبى عبيدة وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص وغيرهم • وقد استند فى عمليات التشويه هذه على ذكاء نادر فى فن التضليل ، وعلى روايات ابتكرها من خياله ، أو وجد أثرا منها فى بعض الكتب الصغرى التي وضعها الشعوبيون فى مختلف العصور • تنفيذاً لغايات لا تقل فى مكرها عن الغايات التي ساورت المؤلف وهو يضع كتابه هذا •

ولقد اتضح لنا من قراءة الكتاب ناحية كانت كما أعتقد خافية على الجميع من الذين عرفوا جلوب أثناء عمله فى بلادنا • وهى تشييعه لليهود والصهيونية تشييعا كاملا لا شك فيه ولا لبس ولا غموض • وانى أقول ان هذه الناحية كانت خفية على الجميع ذلك لان جلوب كان يتظاهر بحب العرب حبا شخصيا قويا جعل الكثيرين يخدعون به ، فيعتقدون رغم ايمانهم بأن جلوب ينفذ سياسة بلاده الاجتماعية فى وطننا وان

اخلاصه لهذه السياسة هو الذى يدفعه أحيانا الى الظهور بمظهر المؤيد لليهود ، يعتقدون انه لو ترك وشأنه لعواطفه الشخصية لكان مع العرب ضد اليهود قلبا وقالبا . ولكن لا حيلة له ، فهو منفذ للسياسة الاستعمارية التى وضعتها فى الاردن حاكما بأمره ، رغم وجود الحكم الوهمى فيه .

لكن كتابه هذا أزال ذلك القناع الزائف الذى وضعه جلوب على وجهه والذى خدع به الكثيرين من سليمى النية من العرب . فهو يظهر فى كتابه مؤيدا لليهود ككل التأييد وان لم يعلن تأييده هذا صراحة . فهو مثلا يروى قصص اجلاء النبی لليهود من يثرب ( المدينة المنورة ) ومن خيبر كبنى النضير وبنى قريظة وبنى القينقاع دون أن يذكر الاسباب التى دفعت النبی الى اتخاذ هذه الخطوات ، ومنها ، نقضهم لعهودهم معه وخياناتهم لاتفاقاتهم ومحاولتهم طعن المسلمين فى ظهورهم ابان غزوة الاحزاب وحصار المدينة أو اثناء معركة أحد . على الرغم من وجود اتفاقات معقودة بينهم وبين النبی . أو سعيهم الى اغتيال الرسول ، وما شابه ذلك من الخيانات التى تستحق أكثر من عقوبة الطرد والاجلاء عن الديار لانها تشابه ما قام به رجال « الطابور الخامس » ابان الحرب الكونية الاخيرة . ولا ريب فى أن تجاهل جلوب الحديث عن كل هذه الامور واكتفاء بالحديث عن اخراج النبی لليهود من ديارهم ، انما هو عمل مقصود لاثبات العرب بمظهر المضطهدين لليهود ، وتصوير النبی صلى الله عليه وسلم على أنه هتلر آخر .

وفكرت طويلا . . هل أنقل هذا الكتاب بما فيه من تضليل وتشويه للتاريخ العربى الى العربية أو لا أنقله . ووصلت الى نتيجة واحدة . وهى أن نقله ضرورة قومية . وضرورة دينية أيضا . فاغفاله وتجاهله أمر لايجوز اطلاقا اذ أنه طبع ووزع فى كل مكان فى العالم الناطق بالانجليزية وقراؤه كثر ، اذ أن جلوب كما قلت يعتبر خبيرا فذا فى الشئون العربية عند الغربيين ، وسيحمل هؤلاء القراء كل ما قاله على محمل التصديق والثقة . ناهيك عن أن أجيالا ستنقض وسيعتبر هذا الكتاب بعداهم رجما من المراجع لان أحدا لم ينبر فى حينه للرد عليه .

وقلت لنفسى أيضا ان كثيرين من العرب قد يقرءونه فيصدق بعضهم على الاقل ما جاء فيه ، كما قد ينبرى عربى فيترجمه ترجمة أمينة دون أن يعلق أو يرد عليه ردا علميا صحيحا . وبذلك يكون المؤلف قد حقق الغاية التى توخاها من وضع كتابه . وهكذا تم العزم على تعريب هذا الكتاب . وتوزيع ترجمته على أوسع نطاق ممكن . مع الرد عليه حيث يقتضى الرد ،

وتصحيح ما فيه من أخطاء وتشويه حيث يتحتم التصحيح ، وتقرر أن يصدر عن دارين للنشر • الدار القومية في القاهرة والمكتب التجارى فى بيروت وكلى أمل أن نونق فى ترجمة الردود والتعليقات والتصحيحات الى اللغة الانجليزية لتنتشر مع الاصل الانجليزى • وبذلك تتحقق الغاية الكاملة من الرد عليه • وبذلك أيضا يتاح المجال لكل قارئ من قراء الكتاب ليرى الحقيقة التى حاول المؤلف اخفاءها بذكاء وبراعة • ويحكم على ضوء تفكيره ووعيه على صحتها أو زيفها ، كما نحفظ للأجيال القادمة من القراء وثيقة تبين أن هذا الكتاب قد صدر وصدر الرد عليه احقاقا للحق والحقيقة •

وقد راعيت فى التعريب الامانة كل الامانة لأبين لكل قارئ - قديكون لايزال مخدوعا بجلوب حقيقة هذا الرجل الذى عاش بين ظهرانينا قرابة ثلاثين عاما ، كان فيها المنفذ لسياسة الاستعمار البريطانى فى بلادنا • والمخطط أحيانا لهذه السياسة • وسيكون هذا الدور الذى مثله على مسرحنا موضوع كتاب خاص أعتمزم وضعه فى حلقة « أعمدة الاستعمار البريطانى السبعة فى الوطن العربى » ، وهى الحلقة التى أصدرت منها أول كتاب عن « عبد الله فيلبى » وسأبضع عما قريب باذن الله بالكتاب الثانى وعنوانه « أسطورة لورنس » •

وكلى أمل أن أكون قد حققت الغاية التى توخيتها من تعريب هذا الكتاب الطريف برغم ما فيه من تشويه ، والمهم كل الاهمية برغم كل ما فيه من تضليل •

القاهرة فى ١٥/٦/١٩٦٣

خبرى حماد

« أبرز العرب أنفسهم منذ أيام محمد ، على صعيد  
عالمى ، بفضل قوتهم العسكرية وتفوقهم العلمى • ولهذا  
لا يقل تفهم شئونهم ضرورة ان لم يزد عن تفهم أى شعب  
من الشعوب التى ازدهرت منذ أن سارت الامبراطورية  
الرومانية فى طريق الانحلال » •

سيمون أوكلى ••• تاريخ العرب

\*\*\*

« قد نعجز عن الفهم ••• الا اذا كنا راغبين فى أن  
نضع نصب اعياننا حقيقتين اضافيتين اولاهما ما فى  
الطبيعة البشرية من تشابه أساسى على مر الدهور  
وثانيتهما ما فى الأجواء الانسانية من اختلاف وافتقار  
الى التماثل ••• ولازيب فى أن هاتين الحقيقتين توضحان  
ما يبدو عند أصحاب الشخصيات المثلى من ايمان ذاتى  
موموق وما يصدر عن الجماهير من لامبالاة يشير اليها  
عدم نفاذ التعاليم الدينية لديها بعيدا الى الاعماق الا  
فيما ندر ••• »

جى • جى • كولتون - صورة جلوية للمصور الوسطى



# مقدمة

بعثت قبل أيام الى رئيس تحرير احدى الصحف بمقال عن بلد عربى ضمنته صورة جانبية سريعة عن تاريخ هذا البلد فى فقسرتين أو ثلاث فقرات . انتقلت منها الى شرح أوضاعه على النحو الذى هم عليه اليوم . وقد رد رئيس التحرير المقال الى مرفقا اياه بمذكرة قصيرة قال فيها انه على استعداد لنشره اذا حذفت منه مقدمته التاريخية . وأنهى مذكرته قائلا : « لم يعد الناس يهتمون اليوم بالتاريخ وكل ما يودون معرفته هو رأيك فى الوضع السياسى اليوم » . واذا ما حكمنا على الامور على ضوءه الاخطاء المفجعة التى ارتكبناها فى الشرق الاوسط فى السنوات الاخيرة ، تبين لنا ان هذا الرأى لا يحمل هذا الصحفى وحده ، وانما يسود على اوسع نطاق ممكن . وتشترك فيه حكومتنا مع الرأى العام فى بلادنا .

ولعل من الغريب كل الغرابة ، ان يكون هذا هو الواقع فى عصر يكثُر من الحديث عن علم النفس ، وينفق الكثير من الاموال فى اعداد اطباء التحليل النفسى وتمكينهم من أداء تجاربهم . ولا يقتصر تأكيد الخبراء المستمر فى هذا الميدان على أهمية خصائص آبائنا واسلافنا التى قد نكون ورثناها عنهم . وانما يتعداها الى الأوضاع التى نشأنا فيها والتى أحاطت بطفولتنا وصبا . وكثيرا ما سمعنا أن الظروف التى عشناها فى الأيام الاولى من حياتنا تؤثر على عقليتنا ما تبقى من هذه الحياة . واذا صح ما سمعناه فان مما يثير الدهشة حقا أن نرفض تطبيق هذه الاعتبارات نفسها على الامم الاخرى وأن نرفض دراسة تاريخها . فى الوقت الذى نبذل فيه كل جهد لتفهم الاسباب التى تدعوها الى سلوك ما تسلكه اليوم .

ولو كان للتاريخ من معنى . فان هذا المعنى يجب أن يتناول وبشكل تأكيد تطور الجنس البشرى منذ أيامه الاولى حتى أوضاعه الراهنة . ولضمان فهم هذه العملية وادراكها يجب أن يتوافر فيها عنصر الاستمرار والاتصال . ولو حصرنّا أنفسنا فى تسليط أضوائنا الكاشفة على بلد أو بلدين ، وعلى عهد أو عهدين ، وقعت فيهما الاحداث بشكل يتفق مع أهوائنا وعقائدها وتركنا ما يتبقى من سير تطورها يقيع فى غياهب الظلمات ، فان الصورة

التي سنحصل عليها . ستخلو حتما من كل انسجام وتناسق ، ويظل موضوع التطور البشرى كله ، وكأنه لا معنى له . وهى حقيقة يحس بها طلاب المدارس . والاكتفاء بتعلم فترة قصيرة من التاريخ الرومانى ينتهى بالامبراطور أوغسطس، ثم القفز منها الى تاريخ انجلترا ابتداء بعام ١٠٦٦م انكار لفكرة التطور البشرى المستمر كلها . ومع ذلك فان الاغلبية الغالبة من أبناء بريطانيا والولايات المتحدة لم تسمح قط الا فيما ندر شيئا عن امبراطورية البيزنطيين أو الفتوحات العربية . ولكننى أرى ان القصة التي سأسردها فى هذا الكتاب تنطوى على مفتاح من المفاتيح الرئيسية لتفهم العالم المعاصر الذى عاد المسلمون يلعبون فيه دورا أساسيا بارزا .

ولقد واجه مؤرخو الفتوحات العربية الاولى مشاكل عدة من النوع الذى يقطع الانفاس حله . فعندما اندفع العرب فى القرن السابع للميلاد من جزيرتهم ليقمروا امبراطورية . كانوا لا يزالون بوجه عام خامات غير مصقولة ، تجهل القراءة والكتابة . ولما كان جل اهتمامهم منصرفا الى العمل ؛ فقد فاتهم أن يدونوا ما عملوه بل لم يكلفوا أنفسهم عناء تدوينه . وكان أبناء الجزيرة العربية ، هم وحدهم الذين قاموا بهذه الفتوحات العظيمة الاولى ؛ وكان جلهم من أبناء البادية الرحل . أما الشعوب التي فتحو بلادها فكانت فى غالبيتها غير عربية . وكان معظمها وارثا لحضارات عربية تليدة وظل أبناء الجزيرة يحتلون مركز الصدارة فى الامبراطورية العظيمة التي أقاموها طيلة المائة عام الاولى بعد الفتوحات (١) . ولكن مع انقضاء هذه المدة ، فقد المحتلون العرب الاصليون مكانتهم بتأثير أحد عاملين اما عامل الإقامة فى البلاد المحتلة والتزاوج مع أهلها المتباينى الاجناس ، والضياع وسط هذه الشعوب المختلفة أو عامل البقاء على حياة البادية فى الجزيرة العربية وما يتبع هذه الحياة من جمود ، ومن عزلة عن مراكز النشاط والحيوية فى الامبراطورية التي أقاموها .

فلقد انتقل السلطان الى الخلافة العباسية فى عام (٧٥٠) ميلادية . أى بعد مائة وثمانية عشر عاما من وفاة محمد . ومنذ ذلك التاريخ . وبعد

---

(١) اعتقد ان تحديد هذه المدة بمائة عام خطأ تاريخى وقع ليه المؤلف فالمعروف ان عهد الفتوحات العربية بدأ بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى سنة (٦٣٢) ميلادية . والمعروف ان السيطرة العربية على الامبراطورية الاسلامية ظلت قائمة بشكل كامل حتى بداية عهد الخليفة العباسى المأمون فى عام (٨١٣) ميلادية عندما شرع الامام فى التدخل فى شئون الامبراطورية وتبين من هذا ان السيطرة العربية المطلقة ظلت قائمة (١٨١) عاما لا مائة عام كما قال المؤلف . ( العرب )



نقل العاصمة الى بغداد ، اكتسبت الامبراطورية طابع الشعوبية ولم يعد أساسها القومية العربية وانما الاسلام . ولم يظهر المؤرخون ( العرب ) الكبار الا بعد نحو قرنين من وفاة النبي وبعد أن تحولت السيطرة في الامبراطورية الاسلامية من أيدي العرب الى أيدي الشعوبيين .

ومن هنا نستطيع انقول بأن وجهات نظر هؤلاء المؤرخين كانت اسلامية أكثر منها عربية . ويضاف الى هذا أن أيا من المؤرخين لم يكن من أصل عربي صميم . وقد نشأوا في بلاد مختلفة فبعضهم من المغرب وبعضهم من الاندلس وبعضهم الثالث من فارس . ولم يكن بينهم مؤرخ واحد من العرب البداة الذين جاءوا من الجزيرة العربية وحققوا تلك الفتوحات العظيمة . ومن هنا يتبين أن مؤرخي العصر العباسي ، لم يكونوا على اطلاع صحيح على الحياة البدوية التي عاشها الفاتحون الاول . كما انهم لم يكونوا كثيرى العناية بالعمليات العسكرية . ولم يكونوا يهتمون أيضا بالغ الاهتمام بالتواريخ والارقام والحقائق ، وهى المظاهر التي يعتبرها المؤرخون اليوم شيئا حيويا . وكانوا يكتفون في وصف معركة من المعارك الحربية بالقول بأن « مشيئة الله أرادت أن يهزم الكفرة » وكثيرا ما افتقرت التواريخ التي أوردوها الى الدقة . وكان الواحد منهم يختلف عن الآخر ، في تحديد تاريخ معركة من المعارك بنحو عامين على الأقل . وكثيرا ما لف الغموض والابهام تقديراتهم للقتات المتجارية . وعلى الرغم من ميلهم الى اعطاء الارقام القريبة من الصحيحة بالنسبة الى قوات المسلمين ، الا أنهم كانوا ميالين كل الميل الى المبالغة في تقدير قوة أعدائهم (١) .

وبالاضافة الى افتقار هؤلاء المؤرخين الى الاهتمام بالعمليات العسكرية فانهم دونوا تواريخهم ، وقد حرموا من ضرورة وجود خرائط عسكرية تشرح هذه المعارك . فبالنسبة اليينا نحن ألفنا النظر الى الخرائط

---

(١) ليس ثمة من شك في أن هذه الحملة التي يشنها جلرب على المؤرخين العرب مستمدة من وحى ما يحس به الغربيون من كراهية عامة للعرب ولو كان في حملته هذه موضوعيا ينحو المنحى العلمى لاورد على ما قاله الأدلة والشواهد ، دون أن يكتفى بالاحكام العامة التي تجعل كتابه مفتقرا الى الثقل العلمى . ولربما اندفع الى حملته هذه برغبته في ارضاء قرائه الذين يعرف انهم يستمرئون كل حملة على العرب بالنظر الى جدول الكراهية المتأصلة في اعماقهم منذ أيام الحروب الصليبية متجاوبا في الوقت نفسه مع حزازاته الشخصية التي لا بد وان تكون قد تضاعفت بعد خروجه من الوطن العربى على النحو الذى خرج فيه .

منذ نعومة أظفارنا وتعودنا تصور المواقع المتصلة بمختلف الاماكن • نرى من المتعذر علينا أن نتصور كيف يمكن للمرء أن يتابع الحديث عن معركة من المعارك دون أن تكون هناك خريطة يتابع عليها هذا الحديث • ومن الواضح حقا ان المؤرخين العرب لم يكونوا على فهم صحيح بالمعارك والحملات الحربية التي يتحدثون عنها • وكل مابقى هنالك اسم موقع هنا أو موقع هناك • تناقلته القصص والروايات القديمة • وما زال قيد الاستعمال حتى يومنا هذا متيحاً المجال للمؤرخ المعاصر العثور على أثر أو علامة تصل به الى الحقيقة •

وأرى لزاما على أن أورد هنا نقطة أخرى تتعلق بالسجلات العربية الاولى فلم يكن المؤرخون وناقلو السير واضحين كل الوضوح في ترديد أسماء مصادرهم أو في الرجوع بهذه المصادر الى أولئك الذين شهدوا هذه الاحداث التي يدونونها هم عند وقوعها • وكان المؤرخ يحس بعد أن يسرد قائمة بأسماء مصادرهم أن مهمته قد انتهت • فلا يقوم بأية محاولة أخرى للتحثبت مما اذا كانت الاحداث التي يصفها ويسردها قد وقعت حقا • وعندما تكون هناك روايتان عن حادث واحد ، أو مجموعة من الروايات المتناقضة ، يكتفى المؤرخ بسردها كلها • سائدا كل رواية منها الى مصادرهم ومراجعها • وتاركا للقارئ نفسه مهمة الخروج بالرواية الصحيحة من هذه الروايات المتضاربة •

وقد سارت هذه المتاعب الموروثة من الماضي جنبا الى جنب مع متاعب لا تقل عنها أهمية نشأت في العصور الحديثة • فلقد كانت العربية تعلم منذ قرون في انجلترا ، وهذه هي الصعوبة الاولى وكأنها احدى اللغات الميتة • وقد قام المستشرقون الاوربيون بمهمة عظيمة بترجمتهم كتب الادب العربية القديمة الى الانجليزية ؛ وان كانوا قد ركزوا عملهم على النواحي الدينية والسياسية والعلمية في المخطوطات الباقية دون أى تركيز على النواحي العسكرية • ولم تكن الفرصة لتتاح الا نادرا للعسكريين المحترفين لتعلم لغة من اللغات الميتة مع ما فى هذه اللغة من صعوبة •

اما الصعوبة الثانية فهي أن الجزيرة العربية كانت حتى الخمسين سنة الاخيرة منيعة الاختراق الا لاكثر المكتشفين جراً ومخاطرة، وهكذا كان من المستحيل بالنسبة الى المؤرخ الغربى أن يدرس على الطبيعة مواقع هذه المعارك • أو يطلع بنفسه على طراز العرب الذين خاض أمثالهم تلك المعارك التي أدت الى هذه الفتوحات العظيمة •

اما الصعوبة الثالثة فهي ان أوروبا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات

الاسلامية كوارث رهيبة • ولم يكن ثمة مسيحي يود أن يذكره الناس بها وليس المؤرخون الا بشرا • ولذا تثبط عزائمهم اذا لم يجدوا من يقرأ لهم فلقد كتب سيمون أوكلي ، وهو أحد المؤرخين الانجليز الاوائل الذين ارجخوا الفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة وهو رهن السجن في كمبودج وفاء لدين عليه • ولم يكن دخله من بيع كتبه كافيا لتمكينه من اعادة امرته • ولقد كتبت الوف الكتب منذ عصر النهضة عن تاريخ الامبراطورية الرومانية • أما عدد الكتب ذات المستوى الطيب عن الفتوحات العربية فى اللغة الانجليزية فلا يعدو أصابع اليد الواحدة • وليس غريبا والحالة هذه اذا ما ارتكبنا هذا العدد الضخم من الاخطاء الجذرية فى سياستنا نحو العرب • طالما أن موقفنا منهم يرتكز على مثل هذا الاساس الواهى من المعرفة •

ولكن اذا كان مؤرخ الفتوحات العربية يمارس عمله أمام مثل هذا العدد الكبير من المتاعب فانه أيضا يحبى بنعمة من النعم الممتازة • فما زال هناك بعض البداية فى قلب الجزيرة العربية ، يعيشون على النحو الذى كان يعيش فيه أسلافهم فى القرن السابع الميلادى دون أى تعديل أو تغيير (١) • ولا ريب فى أن مثل هذا الوضع فريد فى نوعه فى العالم وهناك بالطبع أجناس بشرية غير متحضرة وبدائية لم يطرأ على نمط حياتها أى تبدل منذ الوف السنين • ولكن هذه الاجناس لا تمثل شعوبا لعبت دورا قياديا فى تاريخ الحضارة العالمية كالدور الذى لعبه العرب •

ترى ألا يكون من الانباء المثيرة كل الاثارة لو عثر فى احدى الجزر الضائعة على جماعة من الجمهوريين الرومان ، يعيشون اليوم على النحو الذى كان يعيش فيه اسلافهم فى أيام ماريوس وصولا ، أو بومبى وقيصر ؟ ومع هذا فان مثل هذا المجتمع موجود فى الواقع فى قلب الجزيرة العربية • اذا ما زالت القبائل هناك تعيش على النحو الذى كان يعيش فيه أبناء قبيلتي هوازن وبكر ، فى القرن السابع •

\*\*\*

---

(١) ان هذه النخمة التى يشير اليها المؤلف • هى فى الواقع ادانة قاطعة على نظام الحكم السعودى الذى يسود الجزيرة العربية • فلقد عمل هذا النظام على الرغم من مئات اللآيين من الجنيحات التى يدرها الزيت فى كل هام على هذه البلاد ، على ابقاء اهلها يعيشون فى اوضاع القرن السابع اى قبل الف ولتسائة عام لان هذا النظام يلفقه على لهو الملك والامراء ومبازلهم ولا يابه لاحوال الشعب • (العرب)

وكان الحماس الدينى هو الحائز على الفتوحات العربية ولكن أثر مائراً على الاندفاع العائفى الاول من خفوت تدريجى . آخذت طبيعته الامبراطورية الجديدة فى التبدل . وقد تحولت من دولة دينية ثيوقراطية مثالية الى امبراطورية علمانية ، ما لبثت أن لجأت الى سياسات القوة للدفاع عن نفسها ولتوسيع حدودها وسيطرتها ، واستغرقت عملية التحول هذه عدداً من السنوات . ولقد كان هدفى من هذا الكتاب بصورة عامة أن أعرض عصر الحماس الدينى . وكل أمل فى أن أتمكن فى كتاب آخر من الحديث عن قصة الامبراطورية العربية كدولة عظمى فى ظل الخلافة الاموية ومستهل عهد الخلافة العباسية . ويبدو أن خلافة معاوية تمثل عهد الانتقال من نظام يقوم على الاساس الدينى الى نظام سياسى علمى بصورة رئيسية . وعلى الرغم من أن الحكومة فى هذا العهد كانت تستوحى أعمالها على الغالب من حوافز دنيوية الا أن الروح الدينية الصادقة كانت لا تزال سائدة أوساط الجنود والشعب ولهذا فقد أثرت انتهاء كتابى هذا بوفاة معاوية .

ولقد سبق لى أن أوضحت فى هذه المقدمة أن العسكريين المحترفين ماكانوا يجدون الفرصة لتعلم لغة صعبة مينة . وائى لأبدو بهذا الاعتراف وكأنى قد حكمت على هذا الكتاب بالموت سلفاً . ولكن سلسلة بارزة من الاحداث المتزامنة شجعتنى على كتابته ، وأول هذه الاحداث اننى تعلمت العربية لا كلغة مينة ، بل بالعيش مع الشعب الذى يتكلمها الى الحد الذى جعلنى أنطقها بنفس السهولة التى أنطق بها الانجليزية . أما الثانى فهو اننى قدت بالفعل ولمدة ثلاثين عاماً جنوداً جمعوا من نفس تلك القبائل التى قام أبناؤها بتلك الفتوحات العربية العظيمة ، والتى لم يطرأ عليها أى تبدل منذ ثلاثة عشر قرناً . يضاف الى هذا اننى خضت مع هؤلاء الجنود عمليات عسكرية فى نفس تلك المناطق التى حاربت فيها الجيوش العربية القديمة .

وتحتل بعض المعالم الطبيعية فى أى بلاد كالجبال والمضايق والانهار والصحارى ، أهمية كبرى بالنسبة الى العمليات العسكرية ؛ ومع ذلك ؛ فمن الممكن أن يعيش المرء حياته كلها على مقربة منها دون أن يوليها أهمية بارزة . ولكن عندما يجد المرء نفسه خائضاً فى عمليات عسكرية على نفس هذه الاراضى . فان تلك المعالم الطبيعية ذات الاهمية الاستراتيجية ، سرعان ما تقفز أمام عينيه . وعندما يقرأ المرء بعد مروه بهذه التجارب وصفا للحملات العسكرية القديمة التى دارت فوق تلك الاراضى فانه يدرك على الفور كل ما كان ينتويه القادة العسكريون

الاولئ الذين قادوا تلك الحملات • وكانت هذه هي الطريقة التي قفزت بها الفتوحات العربية القديمة فجأة أمامي لتحتل جماع تفكيرى •

وانى طبقا لمعرفتى لا أعتقد أن مؤلفا سبقنى سواء آكان عربيا أم أوربيا تمكن من اخراج قصة معقولة وواضحة للفتوحات العربية التي وقعت فى العشرين سنة الاولى بعد وفاة محمد • وكلئ أمل فى أن تكون ظروفئ المواتية التي شرحتها قد حققت لئ النجاح فى تحقيق هذه الغاية • ومن سوء الحظ ( طبعا ! ) ان المزايا الهائلة التي أتاحت لئ لحسن طالعئ لن تتكرر لائ كاتب آخر باللغة الانجليزية • ولم يكن أى قائد عسكري بريطانى قد حارب حتى نشوب الحرب الكونية الاولى على أرض هذه البلاد • وقد لا تتاح هذه الفرصة لائ قائد بريطانى فى المستقبل أبدا ( ١ ) • يضاف الى هذا ان استقلال هذه البلاد أدى الى عدم احتمال تولى أى ضابط بريطانى قيادة القوات العربية فى هذه المناطق فى المستقبل • وأخيرا فان تصنييع الجزيرة العربية سيؤدى قريبا الى اختفاء الطريقة البدوية فى الحياة • وهئ الطريقة التي احتفظت الجزيرة بها ألوف السنين وكانها « متحجرة » مطمورة فى الارض •

واعتمادا على هذه الظروف المواتية لا على معرفتى وعلمئ ، أجد نفسئ مضطرا الى المغامرة باصدار هذا المؤلف الى القراء متحدثا عن حقبة من أكثر الحقب أهمية فى التاريخ وهئ حقبة الفتوحات العربية العظيمة • ويسن دود سنت دونستان

جون باجوت جلوب

ميفيلد — سيسكس

---

( ١ ) يكاد جلوب يفصح نفسه فى مقدمته • ويفصح نياته الاستعمارية والدور الذى كان يؤديه فى المنطقة العربية • فهو يعتبر أن من سوء حظ بريطانيا طبعا أن آيا من رجالها لن يحتل فى المنطقة المركز الذى احتله هو • وهو لا يود أن يجرم بأن أى قائد بريطانى لن يحارب فى المستقبل على أراضئها ، لان أحلام الامبراطورية مازالت تراوده ومعنيئ هو أو من هم على شاكلته بالعودة الى المنطقة وقيادة الجيوش العربية فيها • ولكننا نود أن نجزم لجلوب ونؤكد له انه لن يعود لا هو ولا غيره من أعمدة الاستعمار البريطانى الى أرضنا العربية التى طهرها وسيطر عليها شعبنا العربئ من مخلفاته وملائه • ونود أن نشترك معه فى قوله بأن ما أتبع له لن يتاح لغيره أبدا لان هذه هئ ارادة الشعب العربئ •

( العرب )



# إيضاح للمؤلف

لجأت في أسماء المواقع في معظم الحالات الى اللفظ العربي للاسم  
اما بالنسبة الى المواقع المعروفة الى القراء الانجليز فقد استعملت الاسم  
الشائع المعروف عندهم ، كأسماء القاهرة مثلا ودمشق والقدس ودجلة  
والفرات . وقد أطلقت على استمبول أحيانا اسم القسطنطينية وأحيانا  
أخرى اسم بيزنطية .

وتحتاج بعض الاسماء العربية الشخصية الى بعض الايضاح فالعرب  
يلجئون الى طريقة غريبة تثير البلبلة والحيرة . وهى تسمية الشخص  
باسم أبوته لولده الاكبر ويبدو أن هذه العادة كانت أكثر شيوعا في القرن  
السابع للميلاد منها فى وقتنا هذا حتى ان الاسم الاول الشخصى للرجل  
كثيرا ما ينسى ولا يذكر أبدا وكثيرا ما تتضمن الكنية اسم الولد الاكبر  
الذى يكون قد مات فى طفولته ، وهكذا فقد يكنى الرجل طفيلة القسم  
الاكبر من حياته باسم «أبى القاسم» مع أن «القاسم» ولده الاكبر توفى  
فى الشهر الاول من عمره ولم يسبق لأحد أن رآه أو سمع باسمه . ويفسر  
هذا المألوف الغريب تسمية عدد كبير من الاشخاص فى كتابنا هذا ،  
باسم أبى فلان . وهناك نقطة أخرى وهى أن عبارة «أبو» تصبح «أبى»  
فى حالات الجر أما الابناء الآخرون لأبى القاسم والذين قد يعيشون  
فيكونون بأسماء فلان « ابن أبى القاسم » .

وعند تدوين الكلمات والاسماء العربية راعيت تهجنتها بحيث يتمكن  
القارئ الانجليزى من لفظها فى صورتها العربية الصحيحة . وتكتب  
العربية بحروف تختلف عن حروفنا ولهذا يصعب أحيانا نقل الاسماء  
العربية الى الحروف الانجليزية عن طريق وضع الحرف الانجليزى محل  
ما يعادله من لفظ عربى . وليست لبعض الحروف العربية حروف  
انجليزية تماثلها . وقد راعيت على الغالب حذف ال التعريف العربية من  
اول الاسماء مع العلم أنها تسبق جميع أسماء الاماكن والاشخاص .

وقد حاولت بكل ما لدى من جهد أن أحصل على قصتى من مصادرها

العربية الأصلية مباشرة . ولعل أهم هذه المصادر تاريخ الطبرى الذى يسمى كثيرا «بليقى» العرب (١) . ولكن سرده للحملات الحربية لا يتسم دائما بالوضوح . ولا أعرف ان هناك ترجمة انجليزية كاملة لتاريخ الطبرى . وقد أفدت كذلك من عدد من الترجمات الاربوية الرائعة لبعض الآثار العربية ولا سيما فى الانجليزية والفرنسية ولم الجأ الى مضايقة القارئ بالاكثار من الهوامش والشروح والاشارة الى مصادر كل واقعة أو حكم . وقد لا أزعج ان كتابى هذا مؤلف علمى دقيق . ولكننى أجرو فأقول اننى حاولت تطبيق القواعد العلمية المعروفة على الحقائق الواقعة وأن أفسر النصوص التاريخية على صعيد التجارب العملية التى مرت بها .

### \*\*\*

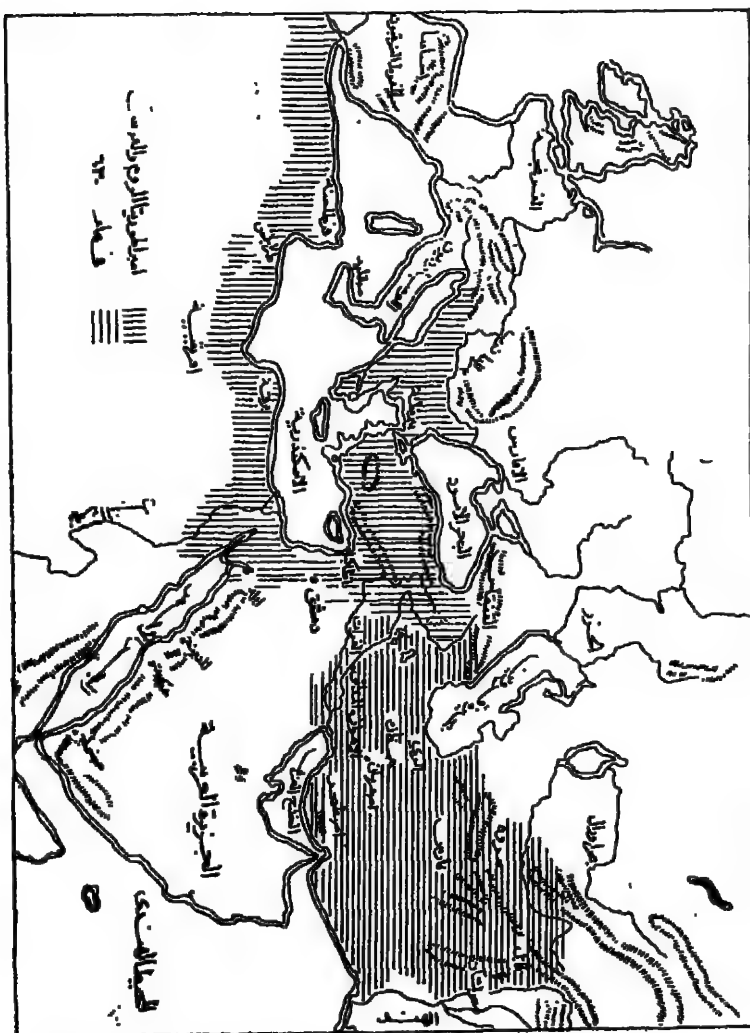
وأود أن أتقدم قبل ختام ايضاحى هذا بالشكر العميق الى أمين مكتبة معهد الدراسات الشرقية والافريقية فى جامعة لندن المستر جى . دى . بيرسون . والى نائبه المستر . آر. جى هوى . اللذين لولا مساعدتهما القيمة لى لما صدر هذا الكتاب . وأود أن أتقدم بالشكر أيضا الى أمين المكتبة العامة فى معهد تونبريدج ويلز المستر آر جى . بيرد ، وكذلك الى الاستاذ أى . جى اربرى أستاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج على المساعدات القيمة . ولا سيما تلك التى قدمها الى الاخير لايضاح بعض النقاط الغامضة فى العربية التى كانت خافية على .

---

(١) تيتوس ليفى (من ٥٩ قبل الميلاد الى ١٧ بعد الميلاد) مؤرخ رومانى مشهور ولد فى بادوا من أسرة طيبة ودرس دراسة عالية متخصصة فى أدب الاغريق والمنطق والفلسفة . كان من مؤيدى الحرب الجمهورى اثناء الحرب الاهلية ورفض التملق للامبراطور أوغسطس على الرغم من المحاولات التى بذلها هذا لاجتذابه متنبئا له بسقوط الامبراطورية الرومانية مات فى مزرعته فى اكتيوم . أشهر كتبه التاريخ المعروف باسمه والذى اعتمده مكيا فى كتابه «مطاحاته» التى تمت بتعريبها ولا تعتبر حقائقه التاريخية صادقة دائما على الرغم من وفرة المصادر التى اعتمدها .

(المرب)







# الجاهلية

« وقد اغشى الله عن أمة هذا الجهل فيبشر الآن  
جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا • لأنه قد عين  
يوما فيه يدين العالم بالعدل » •

أعمال الرسل - الفصل السابع عشر - الآية الثلاثون

\*\*\*

« علينا لكي نترك طبيعة ما أحدثه محمد من  
تبدلات ، وطبيعة نتائجها ، أن نفهم تلهما كاملا حقيقة  
الأوضاع التي وجدها قائمة عند ظهوره في بلاده العربية  
وفي امبراطوريتي الرومان والفرس المجاورتين لبلاده ،  
وهما الامبراطوريتان اللتان احتلت قوات خلفائه  
المنتصرة ثانيتهما احتلالا كاملا ، واحتلت أجزاء كبيرة  
من أولاهما » •

اي • اي • فريمان - تاريخ العرب •



كانت الجزيرة العربية تحتل في مستهل القرن السابع للميلاد ،  
مركزا في السياسات العالمية ، لا يختلف عن المركز الذي تحتله اليوم .  
وكان ما ندعوه اليوم بالشرق الاوسط ، موضع التنازع آنذاك ، كما هو  
اليوم بين كتلتين دوليتين ، احدهما شرقية والاخرى غربية . وكانت  
امبراطورية البيزنطيين الرومانية - الاغريقية تمثل كتلة الغرب ، بينما  
كانت فارس تمثل كتلة الشرق . وكانت أعالي دجلة والفرات تمثل  
بصورة عامة الحدود الفاصلة بين الكتلتين . وكان العرب يسكنون على  
مقربة منهما الى الجنوب ، وعلى اتصال مباشر بالكتلتين . وكانت التجزئة  
والفرقة تسودان العرب آنذاك كما تسودانهم اليوم . وكان هؤلاء يحاولون  
كما يحاولون اليوم الافادة من التنافس القائم بين الدولتين الكبيرتين في  
حين يسعون هم الى البقاء على الحياد (١) .

ويعود النزاع بين رومة وفارس الى عدة قرون خلت . فقبل ثلاثة  
وخمسين عاما من ميلاد المسيح منى كراسوس القائد الروماني - وكان على  
رأس عشرة فيالق رومانية - بهزيمة شنيعة في « قرهى » ، وكانت هذه  
الهزيمة كارثة ، لم يخف أثرها الا بعد ثلاثة وثلاثين عاما ، عندما تمكنت  
دبلوماسية الامبراطور أوغسطس من اقناع ملك البارثيين باعادة النسر  
الرومانية التي سلبها المنتصرون وأذلوا كل الاذلال . وتمكن الجندي  
الامبراطور تراجان في عام ١١٥ هيلادية ، من الزحف على رأس جيوشه  
الرومانية الظافرة ، عبر سهول العراق حتى وصل بها الى مياه الخليج  
العربي ، حيث تطلع الى مياهه ، متمنيا لو عاد الى شبيبته كالاسكندر  
المقدوني ليواصل زحفه الموفق الى الهند .

ولكن هنا على سهول العراق المحرقة ، أصيب الامبراطور الروماني  
جولياني في السادس والعشرين من حزيران ( يونيو ) عام ٣٦٣ للميلاد  
بجراح مميتة في معركة يائسة خاضها مع الفرس ، واضطرت رومة وهي  
صاغرة الى عقد صلح ، وافقت بموجبه على التنازل عن خمس مقاطعات من

---

(١) يشوه المؤلف هنا صورة الحياد العربي فيحاول ان يرسمه على شكل انتهاز  
يهدف الى استغلال التنافس القائم بين الشرق والغرب والافادة منه ، بينما الحقيقة ان  
هذا الحياد نابع من فكرة اصيلة توأمتها الايمان بالسلام العالي ، والايمان بالا شأن  
للغرب بهذا النزاع المذهبي والمصلحي بين الشرق والغرب . ( العرب )

امبراطوريتها الى العدو المنتصر . وما أوردته هنا ليس الا لمحة خاطفة من هذا الصراع الذى طال بين الدولتين . اذ استمرت المنافسة الحادة على اشدها مدة خمسة قرون ، بين حرب باردة وأخرى ساخنة ، وبين مد وجزر ، يتقلب فيهما التيار أحيانا الى مصلحة هذه ، ليعود فينقلب بعد حين الى مصلحة تلك ، وأخيرا وفى عام ٤٧٥ للميلاد ، سلم روميولس أوغستولوس ، آخر أباطرة الرومان فى الغرب ، مظاهر الابهة الرومانية الى البرابرة . مقدما اوروبية الغربية بأسرها فريسة لهم . وظلت منذ ذلك التاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية فى بيزنطة وحدها ، تحتل أعباء الصراع مع الفرس ، وهو الصراع الذى استنزف من رومة طيلة خمسة قرون كاملة مواردها كلها ، وهى فى عنفوان قوتها وسلطانها .

وارتقى جوستينيان بعد نحو من خمسين عاما من زوال الامبراطورية الغربية ، عرش بيزنطة ، واشتبك وهو محجج فى حرب من تلك الحروب التى لا نهاية لها مع فارس ، ليبتاع بعد خمس سنوات من الاشتباكات غير الحاسمة فى عام ٥٣٢ للميلاد هدنة مهروزة ، دفع ثمنها جزية كبيرة . وقد وقع هذا الاتفاق عن الجانب الفارسى كسرى أنوشروان ، الذى كان قبل عامين ليس الا ، قد ارتقى عرش فارس . وقد أطلق عليه الموقعون على الاتفاق اسما متحذلقا هو اسم « الصلح الازلى » .

وسأوضح غما قريب ان كلتا الامبراطوريتين كانت قد عقدت أحلافًا مع الامراء العرب المقيمين على حدودهما الجنوبية . ولم يستسغ الغزاة العرب الذين دأبوا على السلب والنهب ، مذاق هذا « الصلح الازلى » حتما ، ولم يمض طويل عهد حتى كان خالد بن غسان أمير الغساسنة الحليف لبيزنطة ، يسارع الى خرقه بغزوه مملكة المنذر فى الحيرة التابعة للفرس .

وثار كسرى لنقض العهد ، وهرع الى السلاح يجعله يحكم بينه وبين أعدائه ، وزحفت جيوشه لتحتاج الامبراطورية البيزنطية ، فاحتلت مدينتى حلب وحمص ونهبتها . واضطر البيزنطيون الى شراء الصلح من جديد بعد أن تنازلوا عن جميع المدن التى احتلتها جيوش كسرى . لكن توقف العمليات الحربية لم يخفف الا قليلا من غلواء التنافس بين الشرق والغرب ، وتابع الفريقان السعى لتحقيق أطماعهما المشتركة ، بأساليب نعرفها اليوم حق المعرفة ، تضم الدسائس وحرب الدعاية والتنافس التجارى .

ومات كسرى أنوشروان فى عام ٥٧٩ للميلاد ليخلفه ولده هرمز



الرايع ، الذى ما لبث ان خلع عن العرش فى عام ٥٩٠ ليعخلفه عليه كسرى ابرويز . وثار الجيش الفارسى على الملك الغاصب الجديد ، واضطر هذا الى الفرار ناجيا بحياته الى سوريا حيث استنجد بعدوه ومنافسه الامبراطور موريس البيزنطى . وتمكن كسرى ابرويز بمساعدة الجيش البيزنطى من استعادة العرش ، واصبح الامبراطوران حليفين لفترة قصيرة ، ساد فيها السلام العالم المعروف آنذاك .

لكن فترة الهدوء هذه لم تطل . ففى سنة ٦٠٢ ميلادية ، أعلن الجيش البيزنطى بدوره العصيان ، وخلع امبراطوره موريس . وسرعان ما هب كسرى ابرويز يعلن استعداده للثأر لحليفه الامبراطور الذى كان قد نصره فى محنته الماثلة . وزحف كسرى بجيوشه على الاراضى البيزنطية التى اجتاحتها ونهبها ودمرها ، دون أن يلقى مقاومة وظلت جيوش فارس تحتل مدة خمسة وعشرين عاما ، امارات مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى التابعة لبيزنطة . وكان العصاة قد ذبحوا الامبراطور موريس بعد الفتنة . وقدر لحليفته «فوقاء» وهو ضابط فظ كان معروفا بادامانه شرب الخمر ، أن ينزل بسبعة الامبراطورية عن طريق عهره وفجوره وغلظته الى الحضيض .

وأخيرا أعلن هرقل نجل الحاكم البيزنطى فى افريقيا الثورة فى عام ٦١٠ ، وراح يبحر على رأس أسطول ضخم يحمل جيشا كبيرا الى العاصمة ليحتلها . وجر «فوقاء» الشريد من العرش جرا ، ليلقى العذاب والموت ، وأعلن هرقل نفسه امبراطورا ، هلى الشعب له ، وصفق معربا عن فرحه بانقاذه من الطاغية .

وكان كسرى ابرويز ، قد تظاهر بالرغبة فى الثأر لمصرع موريس صاحب الفضل عليه ، متدعيا بهذه الحجة لاحتلال ما احتله من اراضى الامبراطورية البيزنطية ، وها هو ذا هرقل يحقق له الآن هذه الغاية . وسرعان ما حشرت الجهود المضاعفة التى بذلها ملك الفرس الآن لتثديد قبضته على الاراضى البيزنطية التى يحتلها ، كذب المبررات التى تذرع بها لتفطية مطامحه العسكرية واخفائها اذ راح فى عام ٦١٣ للميلاد ، وقبل أن يتمكن هرقل من اعادة الامن الى ربوع الامبراطورية الداهلة ، يحتل دمشق ليتبعها فى عام ٦١٤ بالقدس ، وليحمل منها الى بلاده خشبة الصليب المقدسة التى شهدت صلب المسيح . وغزا كسرى فى عام ٦١٦ مصر وآسيا الصغرى فى وقت واحد ووصلت جيوشه الى مقربة من أسوار بيزنطة .

(وبينما كانت هذه الأحداث العظيمة ، تهز أركان أكبر امبراطوريتين



فى العالم ، كان هناك طفل يتيم ، يدب على معارج الحياة والنمو فى بلدة صحراوية نائية من بلاد الجزيرة العربية . فى العشرين من آب ( أغسطس ) عام ٥٧٠ للميلاد ولد محمد فى مكة . وكان الامبراطور جوستينيان قد مات قبل ولادته بخمس سنوات ، بينما قدر لكسرى انوشروان ان يعيش حتى كان محمد قد بلغ التاسعة من عمره . وفى عام ٦١٢ طلع محمد النبى العربى برسالته ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش فارس تحتل عدة مقاطعات بيزنطية .

### الحرب الباردة :

وبينما كان التنافس مستمرا على هذا النحو بين بيزنطة وفارس، ليتخذ شكل الحرب والسلام فترات متراوحة على حدودهما ، كانت مظاهر البغضاء التى لا تنتهى بينهما ، تمتد على شكل حرب باردة الى الجنوب ، باتجاه الجزيرة العربية وشرق افريقيا . وقد اتخذ التنافس بينهما هنا شكل سباق تجارى من ناحية ، وشكل صراع على مناطق النفوذ تتخلله بعض الحروب الموضعية الصغيرة والمعاهدات السلمية من ناحية اخرى .

وكانت أهمية الجزيرة العربية ونفوذها آنذاك مستمدين كما هما اليوم من موقعها الجغرافى كفاصل بين المحيط الهندى وجنوب آسيا وبين البحر الابيض المتوسط وأوروبا . وكانت التجارة مع الشرق لا تقل فى أهميتها بالنسبة الى الامبراطورية البيزنطية فى القرنين السادس والسابع عن أهميتها اليوم وفى القرن العشرين بالنسبة الى أوروبا الغربية . وكانت هذه التجارة تسير هينة سهلة ، أو صعبة تقوم أمامها العوائق تبعا للدولة التى تسيطر بنفوذها على الجزيرة العربية والبحر الأحمر .

وكان المرشد البحرى الاغريقى هيبالوس قد اكتشف منذ عام ٤٥٠ بعد الميلاد سر الرياح الموسمية ، وسارت التجارة منذ ذلك التاريخ وباستمرار نشطة بين الهند وبين الامبراطورية الرومانية ، اذ اخذت السفن تبحر مباشرة من بومباى أو من سواحل الهند الجنوبية . ولقد روى بلىنى (١) فى عام ٧٧ بعد الميلاد ، أن باخرة أبحرت الى الهند

---

(١) غالوس بينيوس سيكوندوس ( بلىنى الكبير ٢٣ ق م - ٧٩ ب . م ) كاتب رومانى فى التاريخ الطبعى . عمل فى أماكن عدة فى افريقيا وألمانيا واليونان وتابع دراساته الى آخر أيام حياته . واشتهر امره بأنه اعظم علماء مصر . يعتبر مؤلف «التاريخ الطبعى» من اعظم الكتب القديمة فى الموضوع .  
( العرب )

فوصلتها في مدة لا يكاد يصدقها العقل وهي خمسة عشر يوما . ولكن معظم البحارة ، كانوا يتجنبون الملاحة في البحر الأحمر ، لأن مياهه كانت في الغالب تحت سيطرة القرصان ، ولأن سواحه كانت تفتقر الى الموانئ الصالحة ، وعسيرة على الملاحة بسبب الصخور المرجانية المنتشرة فيها . ولهذا كانت البواخر كلها أو معظمها تفرغ شحناتها التجارية في عدن أو على الساحل اليمني ، لتفيد في عودتها السريعة الى الهند من هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي .

وكانت قوافل الابل تحمل هذه الشحنات التجارية من طرف الجزيرة الجنوبية الى ميناء أيلة ( العقبة ) ، في شمال البحر الأحمر ، على طول الساحل الشرقي لهذا البحر . ومن أيلة كانت القوافل تنفرغ فبعضها يتجه الى دمشق شمالا ، وبعضها الآخر الى غزة ومصر غربا ، ومنها تنتشر السلع الى عالم البحر الأبيض المتوسط ، وقد أدت تجارة الشرق هذه منذ أقدم العصور الى قيام ممالك متحضرة في جنوب الجزيرة العربية والى ازدهارها ، كممالك العيينيين والسبئيين والحميريين . وتحدثنا التوراة عن ملكة سبأ التي زارت سليمان و « أسرت اليه بكل ما في قواها » . وكانت التهم بتولد الغرام اللاهب بين الملكين قد انتشرت وذاع أمرها . لكن السبب في الزيارة ، كما أرى ، لم يكن الغرام ، وإنما التجارة ؛ لأن سليمان كان قد وسع ملكه فشمع شرق الاردن من العقبة الى دمشق ، وبات في وضع يمكنه من التدخل في طرق قوافل سبأ التجارية . ولا ريب في أن سبب رحلة الملكة يعود الى رغبتها في الحصول على وعد من سليمان بعدم اعتراض طريق هذه القوافل .

وقبل قرنين من ميلاد السيد المسيح ، كانت هناك قبيلة عربية تدعى الأنباط يبدو أنها عملت أيضا في هذه التجارة المربحة . ولا ريب في أن السبئيين كانوا قد بدعوا في الانحلال آنذاك ، أو أنهم شرعوا يصلون بالقوافل الى مرقى « العسلا » و « تيمة » في الحجاز ، حيث يسلمون البضائع التي يحملونها الى تجار الشمال . وقد وصلت دولة الأنباط بعاصمتها الوردية الحمراء والاسطورية في البتراء الواقعة في الاردن الحديث قمة ازدهارها في القرن الاول للميلاد ، وفرض ملوكها سلطانهم شمالا حتى حدود دمشق . ويحدثنا بولس الرسول في الآية الثلاثين من الفصل الحادى عشر من رسالته الثانية الى أهل كورنث ، كيف « كان الحاكم بدمشق تحت أمرة أرتاس الملك يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض على » مما أدى الى أن يدلى الرسول « من كوة في السور في

# طرق التجارة في القرن السابع



زنبيل لينجو من يديه » . ولم يكن ارتاس الا الاسم الاغريقي  
« للهارث » ملك الأنباط ، واحتل الامبراطور الروماني تراجان في عام  
( ١٠٦ ) للميلاد البتراء عاصمة الأنباط ، بعد أن حطم مملكتها ، وحول  
ارضها ( شرق الاردن الحديث ) الى امارة العرب الرومانية وأدت  
هذه الكارثة التي حلت بالأنباط ، الى اختفاء تجارهم وقوافلهم من  
الميدان .

وشيد ملوك العرب في الجنوب في القرون الثلاثة الأولى للميلاد  
امبراطورية عسكرية ، وراح الملك أسعد أبو القرب يغزو العراق في  
عام ( ٢٠٦ ) بعد الميلاد بجيش لجب ، هزم به الفرس متوغلا في مملكتهم .  
وبالطبع لم يكن هذا ممكنا ، لولا أن فارس كانت في ذلك الحين تمزقها  
الحروب الأهلية (١) . ومع ذلك فالواضح أن هذا الملك العربي أصبح  
بلا منازع الحاكم المطلق للجزيرة العربية .

ويبدو أن جميع القبائل العربية قد خضعت لسلطان ملوك  
الجنوب في اليمن وظلت خاضعة له حتى عام ( ٥٢٢ ) للميلاد ، عندما  
غزا الاحباش أرض اليمن كما سنرى بعد قليل . ويظهر من هذا كله ،  
أن العرب لقرون طويلة قبل محمد ، شهدوا دولا عدة ، لها شأنها  
في القوة والحضارة ، وأن لم تصل الى نفس المنزلة التي وصلت اليها  
فارس ورومه .

ومن المعتقد أن سد مأرب العظيم الذي كان يؤمن الرى لقسم  
كبير من الأراضي في جنوب الجزيرة العربية « قد انهيار في عام ( ٤٥٠ )  
أو حوالي هذا التاريخ . وادى انهيار السد الى ازيمات اقتصادية  
ضخمة ، مما حمل عددا من القبائل الى الهجرة شمالا وأسفر عن نقل  
العاصمة من مأرب الى صنعاء ، عاصمة اليمن اليوم . واختفى اسم  
السبئيين منذ ذلك التاريخ ليحل محله اسم الحميريين .

---

(١) لا أدري كيف يسمح جلوب لنفسه وهو يزعم أنه يضع تاريخا للشوكلات  
الاسلامية أن يطلع بمنزل هذا الحكم العام الذي لا يتيم عليه الدليل أو البرهان . فالمعروف  
أن العرب كانوا من خيرة المحاربين ، وقد هزموا الفرس في الجاهلية أكثر من مرة ولعل  
معركة ذي قار التي انتصر فيها بنو شيبان على الفرس خير دليل على ما نقول وإذا كانت  
قبيلة واحدة انضم اليها بعض الاحلاف من القبائل الاخرى المجاورة قد تمكنت من هزم  
الفرس في « ذي قار » يصعب عليهم وكانت الجزيرة العربية كلها متحدة في ظل ملك اليمن  
كما يعترف المؤلف ، أن يهزموا الفرس ؟ نتيجة لا ريب في أن جلوب لم يشأ أن يضعها  
نصب عينيه .

( العرب )

وعلى كل حال فانه مهما كانت الأوضاع الاقتصادية أو الأوضاع السياسية الداخلية التي سادت مملكة الجنوب العربى ، فان هذه المملكة لعبت دورا بارزا فى الحرب الباردة بين البيزنطيين والفرس . فلقد كانت المستودع الرئيسى للتجارة الوافدة من الشرق ، وكانت المستقر الذى تصل اليه السفن القادمة من الهند .

وكانت اليهودية والمسيحية آنذاك تسيران فى طريق الانتشار . فلقد ضمت نجران فى الجنوب العربى مجتمعا مسيحيا مزدهرا له كاتدرائيته وله مطرانه . وتقول الاساطير ان ذا نواس ملك الحميريين فى صنعاء ، تحول الى اليهودية فى مطلع القرن السادس . وراح مدفوعا بالحماس الدينى المألوف عند من يتحول الى دين جديد يلذبح نصارى نجران . ويقال ان أحد هؤلاء الضحايا تمكن من الفرار والوصول الى بيزنطة ، حاملا معه نسخة محروقة من الانجيل ، وناشد امبراطور البيزنطيين التدخل لحماية اخوانه النصارى . ولم يكن فى وسع الامبراطور ان يبعث بحملة عسكرية أو بحرية الى الجنوب العربى ، فراح يسلمه رسالة الى امير الحبشة المسيحى ، يحثه فيها على أداء واجبه فى انقاذ بنى دينه .

وكانت الحبشة تطمع فى الجزيرة العربية وتنشهاها منذ امد طويل . ويحدثنا التاريخ عن محاولات بدأتها منذ القرن الرابع لفرض نفوذها وسلطانها على هذه البلاد وكان بينها اقامة أسطول بحرى ، حاول السيطرة على مضيق باب المندب . وتشجع الاحباش الآن برسالة الامبراطور . واعتمدوا على ما زودهم به من ستمائة مركب لنقل الجنود (١) ، فراحوا يفتزون الجنوب العربى فى عام ( ٥٢٢ ) للميلاد وخلعوا ذا نواس عن عرشه ليقيموا بدله حكما حبشيا مباشرا فى البلاد .

وهكذا ينسب المؤرخون تدخل الاحباش فى البلاد العربية الى

---

(١) لا يحاول المؤلف هنا ان يشرح لنا كيف تمكن امبراطور بيزنطة من اىصال هذه المراكب الستمائة الى امير الحبشة ، واكتفى بان روى الرواية التى لم يبتكرها وانما جاءت فى بعض كتب التاريخ دون ان يناقشها . مع العلم انه لم يكن ثمة سبيل للاتصال البحرى بين بيزنطة والحبشة . وهناك من يقول انها نقلت من طريق النيل ولكن وجود منطقة الشلالات تستبعد هذا الاحتمال . وهناك من يقول انها نقلت من غزة الى ابله ( خليج العقبة ) على ظهور الجمال ثم مغرت فى البحر ولكنها فرضية اخرى مستبعدة . ولعل هذه المهفوة من المؤلف تبين الحقيقة العلمية للكتاب . (الحرب)

الدوافع الدينية ولكننى لا استبعد على اى حال أن تكون سياسات القوة وتوازن القوى ، قد لعبت دورا فى هذا التدخل . اذ المعروف أن الفرس كانوا يحاولون نشر نفوذهم جنوبا على الساحل العربى فى منطقة الخليج وعمان . وكانت الدولتان الشرقية والغربية تحاولان فى الحقيقة تمهيد الطريق أمامهما للسيطرة على طرق التجارة الشرقية . وكانت الحبشة النصرانية حليفة لبيزنطة ، واذا ما أصبح الأقباش مسيطرين سيطرة وطيدة الاقدام على الجنوب العربى ، فإن التجارة بين الهند وبيزنطة تصبح فى مأمن . ولكن هذه التقلبات السياسية قد أدت الى افتقار كبار التجار الحميريين . ولهذا فاننا نرى تجارة القوافل تنتقل فى هذه الآونة الى أبهى تجار مكة ؛ وهى مدينة كانت منذ أمد طويل محطة استراحة على الطريق التجارى الرئيسى .

\* \* \*

### الحلفاء العرب :

كانت هذه هى الصراعات العسكرية والتجارية والسياسية التى تدور فى الجنوب العربى فى القرن الذى شهد مولد محمد . أما فى الشمال فقد كان العرب فى غصون ذلك يلعبون دورا أكثر نشاطا وحيوية فى الحربين الباردة والساخنة بين بيزنطة وفارس .

تتألف الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية من شبه جزيرة تقوم الى الجنوب من خط يمتد من رأس الخليج العربى الى ايلة ( العقبة ) ومن مثلث يكون هذا الخط قاعدته وتقوم مدينة حلب فى رأسه . وكل هذه المنطقة صحراوية الطبيعة . ويتألف المثلث الشمالى من سهول فسيحة دوارة ، أما القسم الجنوبى فيتألف من هضبة عظيمة تمتد من قمم جبال الحجاز لتأخذ فى الانحدار بصورة متدرجة حتى تصل الخليج العربى . وتقوم داخل هذه المنطقة صحراوان من الكثبان الرملية صفراهما تسمى صحراء النفود فى الشمال وكبراهما تسمى الربع الخالى فى الجنوب . وتنتشر فى شبه الجزيرة الواسعة هذه ، الواحات والمدن الصغيرة والقرى ، ولكن القسم الأكبر منها يتألف من مراعى قسيحة تجول فيها القبائل البدوية الرحل ( ١ ) . وكانت الإبل هى الوسيلة الوحيدة للمواصلات عبر الصحراء .

---

( ١ ) أطلقت معان كثيرة على اسم البدو . أما فى هذا الكتاب فيعنى تعبير البدو قبائل البادية الرحل التى تعيش على رعاية الإبل . ( العرب )

وكان العرب محتكرى هذا الحيوان النافع . وهكذا لم يكن فى وسع البيزنطيين أو جيوش الفرس أن تجوز الصحراء وتعبسرها ، أو أن تجرى أى اتصال بينها إلا الى الشمال الشرقى من حلب حيث تنتهى حدود الصحراء . وهنا كانت تقوم حدود ثابتة بين الفريقين تمتد من نهر الفرات الى القفقاس . وقد يكون البحر عقبة أمام أولئك الذين لا يملكون السفن . ولكنه بالنسبة الى الشعوب التى آلفت الملاحة ، طريق لتجارة والحرب فى آن واحد . وكان العرب على ظهور ابلهم ، ملاحى هذه الصحراء ، بينما كان الفرس والبيزنطيون من رجال البر لا يملكون السفن .

وانتشرت على الحدود الفارسية - البيزنطية الممتدة من الفرات الى القفقاس سلسلة ضخمة من القلاع ، ولكن كلتا الامبراطوريتين كانت مكشوفة من ناحية الجزيرة العربية ، الاولى على خط الفرات الذى يضم ما يسمى اليوم بالعراق والثانية على خط الحدود من دمشق الى ايلة ( العقبة الحديثة ) .

وقد احتفظت الدولتان بجزنة وفارس بدولتين عربيتين تابعتين لهما لحماية جناحيهما الجنوبيين المكشوفين . ففى الغرب كان ملوك الفساسنة حلفاء للامبراطور البيزنطى ، بينما كان ملوك اللخمين العرب على الفرات يتولون حماية الجناح الجنوبى لامبراطورية الفرس . وكان امراء الاسرتين العربيتين يحتلون منسلة رفيعة فى الامبراطوريتين اللتين يتبعونهما ، فكان الامير الفسانى يحتل منزلة الشريف الرومانى فى بلاط بيزنطة ، وكان الحاكم اللخمى يحتل منزلة الامير الاقطاعى فى ظل العرش الفارسى ( ١ ) .

وقد شغلت الاسرتان العربيتان المتنافستان نفسيهما فى حروب صحراوية دائمة ، وكانتا تتبادلان الغزوات . وقد سبق لنا ان راينا ان « التسلم الازلى » بين جوستينيان وكسرى انوشروان ، قد ائتهى قبل اوانه فى عام ٥٣٢ ميلادية اثر هجوم شنه الفساسنة على منافسيهم اللخمين .

---

(١) اعتقد أن جلوب وهو يكتب هذه الفقرة ، كان يرى أمامه صورة الملوك والامراء العرب ، الذين اقامهم الاستعمار البريطانى فى المنطقة أو دعاهم فى القرن العشرين لخدمة اهدافه . وكان يرى فى هؤلاء الملوك والامراء صورة مجسدة لامراء لخم وفسان . حقا ان التاريخ يعيد نفسه . وكما تحرر العرب وانتهى عهد الاباع من لخم وفسان ، فسيتمردون مما قريب وينتهى عهد الاباع من الملوك والامراء . ( العرب )





وبالغت أسيرة اللخمين أوج قوتها في أواسط القرن السادس أيام المنذر الثاني ، وعندما عقد « الصلح الأزلي » بين ييزنطة وفارس في عام ( ٥٣٢ ) ميلادية دفع الامبراطور جوستنيان التعويضات النقدية المباشرة الى المنذر بالإضافة الى ما دفعه الى كسرى . ولكن المنذر ما لبث أن وقع أسيرا في أيدي الرومان ، الذين أبعدوه الى صقلية حيث لقي حتفه فيها . وكان قد خلفه على عرش الحيرة النعمان الخامس .

وسبق لنا أن ذكرنا أن الاحباش قضوا على دولة الحميريين في الجنوب العربي في عام ٥٢٢ ميلادية بتحريض من الامبراطور البيزنطي . ولكن عرب اليمن مالبثوا بعد خمسين عاما من حكم الاحباش أن ملوا هذا الحكم . وقام وفد من الحميريين في عام ٥٧٣ أو ٥٧٤ ، بزيارة الحيرة عاصمة اللخمين ليشتكو الى النعمان من ظلم الاحباش . واستصحب النعمان الوفد لمقابلة كسرى . ولم يتردد الفرس في استغلال الفرصة ، لاكتساب الشهرة عن طريق الاشتراك في « حرب التحرير » (١) وأوفدوا قوة الى الجنوب العربي تولت طرد الاحباش . واختار كسرى بعد فترة من الاضطراب نائبا له في الجنوب العربي في عام ٥٩٧ ، وأصبح الجنوب الذي ساطق عليه منذ الآن اسم اليمن مستعمرة فارسية . وكان محمد النبي المنتظر ، قد بلغ في ذلك الحين السابعة والعشرين من عمره .

ووقع نزاع في عام ٦٠٥ بين النعمان وكسرى ، الذي قضى على مملكة اللخمين ولكن عرب الفرات والخليج ظلوا منذ ذلك التاريخ في حالة تشبه العصيان على الفرس حتى جاء المسلمون في الفتح الاسلامي (٢) وأدت هذه الأوضاع الى ضعف النفوذ الفارسي الذي كان

---

(١) اختلف مع المؤلف في تحديد الدافع الى ارسال قوة فارسية الى اليمن لطرد الاحباش منها . فلم تكن الغاية مطلقا الاشتراك في حرب التحرير ، وانما كانت ، اخراج الاحباش وهم حلفاء الروم من اليمن التي تبدأ منها طرق التجارة بين الشرق والغرب ، واضعاف نفوذ الروم ، امداء الفرس في كل مكان .

(٢) تجاهل المؤلف هنا كل التجاهل معركة ذي قار ، مع ان تواريخ العرب كلها تجمع على انها من أبرز أيام العرب في الجاهلية ، اذ انتصرت قوات العرب لصرا مينا على الفرس . ولا ريب في ان هذا النصر ، اضعف شوكة الفرس في نظر العرب ، وازال منهم حالة القوة ، مما شجع العرب بعد نحو من أربعين عاما على مهاجمة امبراطورية الفرس وازالتها من عالم الوجود . يضاف الى هذا ان المؤلف وقع في خطأ تاريخي ضخم . فهو يصور أن مملكة الحيرة قد ازيلت من الوجود بعد نزاع كسرى والنعمان ولم تعد ابداً =

• قد بلغ في مرحلة من المراحل درجة الحكم الاستعماري في الخليج وعمان واليمن ، وقامت القبائل العربية الشائرة في جنوب الفرات ، بعد أن حرمت من حكامها العرب ، بقطع طرق المواصلات بين فارس وبين مستعمراتها في الجنوب العربي (١) .

وقد ألف العرب بعد ظهور الاسلام ، أن يطلقوا على الفترة التي سبقت رسالة محمد اسم الجاهلية ؛ ولا يمكن تطبيق هذا التعبير تطبيقاً عادلاً الا على الصعيد الديني . فلقد كان بعض العرب قد تثقفوا على صعيد الثقافة والسياسة ، قبل ظهور الاسلام بأمد طويل ، وكانوا قادرين على أداء دورهم في حقول الدبلوماسية والسلام والحرب مع الدول العظمى في أيامهم (٢) .

\* \* \*

### العوامل الدينية :

ووقفت الامبراطورية الرومانية لأول مرة في عام ٣٣٠ ميلادية ، موقف التسامح ، رسمياً من المسيحية ، التي باتت في عام ٣٧٥ الدين الرسمي للدولة . وبدأ في هذه الفترة بالضبط تحول العرب على حدود سوريا الصحراوية الى النصرانية . واعترف الامبراطور جوستنيان في عام ٥٢٩ بالحادث الرابع الفسائي اميراً قبلياً برتبة شريف روماني ، مع العلم أن نحواً من مائتي عام كانت قد انقضت على ظهور الاسرة الفسائية ، وكان الفساسنة وجميع غرب الحدود السورية قد تحولوا قبل ذلك التاريخ الى النصرانية .

---

بينما الحقيقة أن الروال كان مؤقناً وان دولة اللخمين عادت الى الوجود بعد الصلح بينهم وبين الفرس وكانت جيوش الفتح الاسلامي هي التي قضت على دولة اللخمين القضاء النهائي .

(١) ليس ثمة من دليل تاريخي مطلقاً يؤيد وجهة نظر المؤلف في أن الفرس قد استعمروا الجنوب العربي . وكل ما في الامر انه على اثر المساعدة التي تلقاها الحميرون من الفرس لطرد الاجاش من بلادهم ، حاول الفرس استعمال اليمن وحكمه ، ولكن ايامهم فيه كانت معدودة ، ولذا لا يمكن القول بأن الجنوب العربي كان في وقت من الاوقات مستعمرة فارسية .

(٢) يبدو أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم حقيقة مايعنيه التعبير العربي من الجاهلية . فالجهل لا يقتصر على الناحية الدينية مطلقاً وانما يتعداها الى النواحي السياسية والاجتماعية . ولقد جاء الاسلام فأنار الطريق للعرب لاني شئون دينهم فحسب ، بل في شئون دنياهم أيضاً ، ومن هنا يتبين لنا مايعنيه بعض المفكرين العرب ، عندما يصفون العصر الذي سبق الولة العربية الماصرة ، بالجاهلية الثانية .

( العرب )

ومزقت الخلافات والانشقاقات في القرنين الخامس والسادس ، وهدم أعقبهما من قرون ، الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية . وبينما كانت الخلافات السابقة منحصرة في محاولة تحديد طبيعة الثالوث المقدس ، أخذت الهرطقات الجديدة تتركز على تحليل العقيدة المتعلقة بتجسد اللاقنوم الثاني وعلى التعبير عنها في الاصطلاحات الفنية المألوفة لدى الفلسفة الاغريقية . ولا ريب في أن المنافسات الحادة التي استغزتها هذه المناقشات التي أولع الاغريق بعقولهم الذكية والماكرة بها ، كانت من الاسباب الرئيسية التي أدت الى هذه السرعة الهائلة التي تمت بها الفتوحات العربية (١) .

وراح القديس نسطور يبشر في عام (٤٢٠) للميلاد برأى جديد في موضوع تجسيد اللاقنوم الثاني ، ولكن المجمع المقدس الذي عقد في مدينة افيزوس في عام ٤٣١ استنكر هذا الرأي وحمل عليه أشد الحملات . وتلت ذلك حملة اضطهاد رهيب ، واضطر عدد كبير من النساطرة الى اللجوء الى فارس ، حيث حظوا برعاية الشاهنشاه وكريم ضيافته . وبالطبع كان هؤلاء النساطرة أكثر ثقافة من الفرس ولا سيما في علم الطب وارتقى بعضهم أعلى المناصب في بلاط الشاه الذي تظاهر بالعطف عليهم نظرا لما عانوه من احن وظلم على يد غريمه امبراطور بيزنطة . وكان النساطرة من أنشط المبشرين بالنصرانية وقد تمكنوا من تحويل كثيرين من عرب الفرات والخليج الى المسيحية .

ولم يكد النساطرة يطردون من الامبراطورية ، حتى ظهرت فيها هرطقة جديدة فقد خرج في بيزنطة راهب يدعى يوتيشر ، أخذ يبشر بأن العنصر البشري في المسيح يتألف من الجسد بعقله وروحه ، ولكن عندما حلت فيه الروح القدس ، امتصت الروح البشرية منه ليصبح جزءا منها . وأعلن المجمع المقدس الذي عقد في كلدونيا في عام ٤٥١ تحريم تعاليم هذا الراهب . وقد أطلق على الهرطقة الجديدة اسم « الطبيعة الواحدة » ومعناه ان للمسيح طبيعة واحدة ، وهي الطبيعة الالهية . وتؤمن الكنيسة الارثوذكسية ان هذه الطبيعة جماع من الطبيعتين الالهية والانسانية .

---

(١) قد يكون هذا السبب الذي ذكره المؤلف ، من الاسباب الثانوية لسرعة الفتح الاسلامي ولكنه ليس من الاسباب الرئيسية كما يدعى المؤلف ، مدفوعا بالرغبة الواضحة في الانتقاص من شأن العبقرية العسكرية العربية . ومظهرا أن سبب هذه السرعة ، هو مجرد انقسام الرومان داخليا . ولو كان هذا السبب رئيسيا كما يدعى جلوب ، لتمكن الفرس مثلا من تحطيم الامبراطورية الرومانية في الحقب الاخيرة التي سبقت الاسلام ، لكن غرض المؤلف واضح .

( العرب )

ويبدو ان جميع أتباع الكنيسة في مصر قد تحولوا الى المذهب الجديد كما تحول اليه أيضا غالبية الناس في فلسطين وسوريا ولأسيما من الفساسنة . وأفراد القبائل البدوية . وشرع جهاز الحكم في الامبراطورية البيزنطية ، يعمل بشدة وعنف على اضطهاد أتباع المذهب الجديد الذي كانوا حوالى عام (٥٤٠) ميلادية فى حالة ثورة تقريبا فى كل مكان .

وهكذا فى الوقت الذى كان فيه كسرى القرس قد أثار عدااء حلفائه من العرب وسخطهم ، عن طريق اضطهاد النعمان ملك الحيرة كان الامبراطور البيزنطى أيضا قد دفع بالفساسنة الى موقف المعارضة عن طريق اضطهادهم كأتباع مذهب « الطبيعة الواحدة » . واتبعت الكنيسة الحبشية أيضا نفس المذهب ، كما اتبعته على الغالب كنيسة نجران التى أشرنا اليها فيما سبق . واعتقل أمير الفساسنة فى عام ٥٨١ ، واقتيد أسيرا الى القسطنطينية . وشق أولاده عصا الطاعة ، ولكن جيوش الروم تمكنت من اخضاع ثورتهم ، وسحب الرومان اعترافهم بالاسرة الفسانية الحاكمة ، كما منعوا عنها الجرايات والمساعدات . وظل عرب الحدود البيزنطية منذ ذلك التاريخ فى حالة عصيان وشبه ثورة ضد القسطنطينية ، تماما كما كانت حالة اخوانهم عرب الفرات ضد القرس . وكان محمد نبى المستقبل قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، عندما تحول العرب من حماة الحدود البيزنطية الى موقف العداء .

وعلى الرغم من الجوار الذى كان قائما بين الاغريق والعرب فى سوريا الا أن فجوة هائلة كانت تفصل بين العقليتين . ولقد كان الاغريق دائما من الفلاسفة ورجال الخيال وأصحاب النظريات الفكرية . أما العرب فكانوا على النقيض من ذلك رجالا عمليين لا يعنى التفكير الادراكى لهم شيئا كبيرا . وكانت عبقريتهم تتمثل فى الفعل لا فى القول وفى العمل لا فى الخيال . وبينما كان الاغريق غارقين فى محاولاتهم تعريف طبيعة الله ، كان العرب أكثر اهتماما بمعرفة ما يريد الله منهم أن يفعلوا . وكانت اليهودية والمسيحية فى الواقع ديانتين عمليتين فى البداية ، تعنيان بالطريقة التى يطيع فيها الانسان ارادة الله ، وذلك لان كلتا الديانتين نشأت بين القبائل السامية والفلاحين الذين يمتون الى أصل واحد مع العرب . ولكن المسيحية لم تصل الى العرب عن طريق اليهود الذين طردهم تيتوس الرومانى من القدس فى عام ٧٠ للميلاد (١) ، وانما وصدتهم بعد

---

(١) الصواب عام ٧١ ميلادية . وهى السنة التى يؤرخ اليهود فيها خراب هيكل

( العرب )

عدة قرون متسللة اليهم عن طريق خبث الاغريق ، وبراعتهم العقلية ولا ريب في أن نصرانية الاناجيل ، كانت تستهوى العرب كما استهوت صيادى بحيرة طبريا ، ولكن النصرانية التي وصلت اليهم في القرنين الخامس والسادس لم تكن تلك العقيدة البسيطة التي بشر بها المسيح على الجبل . أما الاسلام فكان من الناحية الأخرى ، عقيدة واضحة ومستقيمة في عمليتها ، ومتحررة من كل ما في الفلسفات من خبث ودهاء . فلا بدع ان استهوت هذه العقيدة عقول العرب البسطاء ، الذين رأوا فيها أساسا مرضيا للحياة ، يفوق تلك العقائد المتزمتة والمماحكة التي نشرها الاغريق . وكثيرا ما أطلق على الاسلام تعبير « هرطقة مسيحية » ولكن الهرطقات تكون دائما ردود فعل مفرقة في العنف لسوء التصرف في الاصل (١) . ومن هنا قد يكون الاسلام احتجاجا عنيفا ضد الحقيقة الواقعة . وهي ان الرسالة الحقيقية للمسيحية كانت قد غرقت في تعقيدات التزمت الاغريقي .



وكانت هناك عدة جاليات يهودية أقامت في الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي ، بالإضافة الى المسيحيين . وكانت الجماعات اليهودية التي تعيش في حوضى دجلة والفرات منذ أيام سبى بابل ، تحظى بالتسامح الدينى فى ظل ملوك الفرس . وسبق لنا أن رأينا أحد ملوك الحميريين فى اليمن يتحول الى اليهودية فيضطهد نصارى نجران . وظل عدد كبير من اليهود يعيش فى اليمن حتى عام ١٩٤٨ عندما هبط هذا العدد كثيرا اثر هجرتهم الى فلسطين المحتلة .

وكانت هناك فى القرن السادس بالإضافة الى يهود اليمن ، عدة جاليات يهودية تقيم فى شمال الحجاز ولا سيما فى تيمه وفدك وخيبر ويثرب ( المدينة المنورة ) . ولم تتوافر الأدلة الواضحة على المكان الذى جاء منه هؤلاء اليهود ، وهل كانوا يهودا من العبرانيين أو عربا دانوا باليهودية (٢) . ولكننا عندما نشرع فى التعرف اليهم فى حياة محمد ، نرى أن لغتهم كانت العربية وأنهم كانوا منظمين فى قبائل تماما كالقبائل العربية .

---

(١) لاادري من أين جاء جلوب بهذه التسمية . وقد تكون إحدى شطحات الخيال .  
(٢) يقول المرحوم الخضرى في محاضراته ان اليهودية جاءت الى الحجاز مع اسرائيليين فارقوا الشام اثر اضطهادهم هناك . ويضيف ان بعض القبائل العربية قد تهودت على أيدي هؤلاء الوافدين . ومن هنا انتشرت اليهودية . (المغرب)

الديانات في الجزيرة العربية  
قبل الاسلام



## عبادة الأصنام :

لم يعرف الا القليل عن ديانة العرب القديمة ، وذلك لان المؤرخين ، المسلمين لم يروا فيها شيئا يستحق التسجيل . ويبدو ان العرب كانوا يعبدون في الاصل نصبا حجرية وأشجارا على الرغم من أن هذه الاشياء المقدسة لم تكتسب قداستها الا من الاعتبار ، لا من واقعها ، أى من اعتبارها . المستقر الذى تأوى اليه بعض الارواح .

ويبدو أن عبادة الاصنام المنحوتة ، جاءت تطورا متأخرا . فعبادة الاصنام الحجرية المنحوتة فى شكل مخلوقات يشربة ، كانت الى حد ما ، انحرافا فاصدا نقل الى الاشياء المادية الاحترام والتوقير اللذين كانا يوجهان فى يوم ما الى الارواح النقية الصافية . ومن المحتمل أن تكون الاصنام المنحوتة قد نقلت كما تشير التقاليد من سوريا حيث كانت تماثيل آلهه الاغريق والرومان منتشرة فيها ، ولا ريب ، قبل انتشار المسيحية .

وكان العرب البدائيون يعتقدون ان فى مكنتهم الحصول على البركة عن طريق تقبيل شئ مقدس أو لمسه أو دلكه بأصابعهم . وما زال أبناء القبائل حتى يومنا هذا يقومون بلمس أضرحة الاولياء المحليين عند زيارتهم لها بأيديهم أو تقبيلها بشفاهم ، ثم يمسحون وجوههم بأيديهم طلبا للبركة .

ومن المحتمل أيضا أن تكون هذه الاصنام المنحوتة ، مخلفات عصر قديم من عصور «الطواطم» . حيث كانت كل قبيلة تضع لنفسها شعارا (طوطما) تستمد رموزه من الطبيعة ، أو تربطه بالاقوال المتناقلة عن أسلافها . وكثيرا ما ارتبطت الاصنام بمكان مقدس ، لتكون الروح الامينة الحارسة لينبوع من الينابيع أو مجموعة من الآبار . وكانوا يعتبرون الصنم الاله أو الروح الذى يتولى حراسة القبيلة طيلة اقامتها الى جانب هذا ينبوع أو تلك البئر . ولكن عند ماتسبب الحروب أو المجاعات أو تزايد السكان ، هجرة القبيلة الى مناطق أخرى للرعى ، فان القبيلة الجديدة التى تحل محلها تجعل من أرواح الآبار المحلية أو الاشجار أو الصخور الآلهة الخاصة بها .

وكانت جماعات بنى صخر فى شرق الاردن حتى الحقبة الثانية أو الثالثة من القرن الحالى ، اذا ما مرت بآبار (باير) (١) فى وسط الصحراء

---

(١) مكان فى صحراء الاردن ، فيه معتقل صحراوى ، كثيرا ما استخدمه جلوب وغيره . من حكام الاردن سجنوا بنفون اليه الاحرار للتكيل بهم . ( العرب )

تتولى ذبح بعير من أباعرها تكريما لضريح جد القبيلة «أسد» ، الذى يقال انه موجود فى هذا المكان ولا ريب أن هذه الآبار موجودة منذ ألوف السنين . ومن المحتمل أن تكون هى التى أشار إليها سفر العسدر فى التوراة فى الآية السادسة عشرة من الفصل الحادى والعشرين اذ قال : «ورحلوا من ثم الى البئر وهى البئر التى قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى اعطيهم ماء . . بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها اشراف الشعب » . تكن قبيلة بنى صخر لم تغد الى شرق الاردن الا منذ نحو من ثلاثة قرون . ومن هذا يبدو أن أسد ، الذى يرجع تاريخه الى ما قبل الاسلام لم يكن الا الروح المقيمة فى هذه الآبار ، ثم بنى الضريح الذى يستعقل هذه الروح بعد قرون طويلة ، ليرمز الى جد بنى صخر ، عندما احتلت القبيلة هذه المنطقة وسنرى بعد قليل كيف أن مكة نفسها انتقلت من قبيلة الى أخرى ، بطريقة لا تختلف عن هذه كثيرا .

ويبدو أن عبادة الاجرام السماوية التى انتقلت من الكلدانيين فى العراق ، قد اختلطت فى هذه الآونة بعبادة هذه الارواح الممثلة للسيول والصخور والاشجار . ولا ريب فى أن وفرة عدد من كانوا يسمون «بعبد شمس» فى العهود التى سبقت الاسلام ، تقوم دليلا على صحة هذه الحقيقة .

وكان الشعر هو أعظم ماتميز به العرب فى العهود التى سبقت الاسلام . ولما كانوا محرومين من التأثيرات الروحية ، ومفتقرين الى الايمان بالحياة الثانية ، فان جل اشعارهم كانت تتناول موضوعات الحرب والفخر والنساء والخمر . . فقد جاء فى ديوان الحماسة .

ان شواء ونشوة (١)	وخيب البازل الامون
يجشمها المرء فى الهوى	مسافة الفائط البطين
والبيض يرفلن كالدمى	فى الربط والمذهب المصون
والكثر والخفض آمننا	وشرع المـزهر الحنون
من لذة العيش والفتى	للدهر والدهر ذو فنون
والعسر كاليسر والفنى	كالعدم والحى للمنون

(١) اخطأ نيكولسون المستشرق المعروف بعض الاخطاء فى ترجمة هذه الابيان الى الانجليزية فذكر الخمر مثلا . وقد استعدها من النشوة . مع أن معنى النشوة هنا الجمر وهى والخبى ضرب من سـر الابل . كما قال ان الانسان هو حماقة الدهر او الزمـ مع أن القصد كما يبدو فى البيت أن الانسان هو ملك الدهر يتصرف فيه كيف يشاء .

( العرب )



ويقال أن الكعبة في مكة كانت تضم في عصر الجاهلية نحواً من (٣٦٠) صنماً ، ومن أشهر هذه الأصنام العزى واللات ومناة ، وثلاثتها من الآلهات، وهبل وهو كبير الأصنام المذكورة ، ويقال أنه جاء من سوريا . وقد تصلق الروايات التي قيلت في هذا الصدد . إذ عثر في كتابات الأنباط في البتراء في شرق الأردن والتي يعود عهدها إلى عدة قرون خلت على اسم «هبل» بين الآثار المكتوبة .

ولكن على الرغم من أن العرب كانوا يصيدون كما يبدو ، أو ييجلون عدداً كبيراً من الأوثان والأصنام قبل ظهور الإسلام ، إلا أنهم كانوا على علم كما يبدو بفكرة «الله» كالمهيمن المطلق على السكون . واني لأرى أن من واجبتنا أن نحذر من الاستنتاج بأن العرب كانوا قوماً من المتوحشين الجهلة لأنهم عبدوا الأصنام والأوثان . فلقد بات الدقيق الذي كانوا يعتنقونه صحيحاً في مجاهل التاريخ ، بحيث أصبح من العسير علينا أن نشرح حقيقة ما عناء هذا الدين لهم . ولقد رأينا أن اجلال الأصنام في التاريخ سار جنباً إلى جنب مع المقاييس الرفيعة للثقافة والفكر . ولقد رأينا رومة في عهودها الذهبية في أيام أوغسطس والأباطرة الانطونيين ، تعيش في عصر الوثنية وذلك بعد قرون طويلة ، من الأفكار الرفيعة التي جاء بها افلاطون وسقراط .

\*\*\*

### والخلاصة . . .

لا يمكن مطلقاً أن يتكون لدينا الانطباع بأن العرب في عهود ما قبل الإسلام كانوا قبائل متوحشة تعيش على النهب والسلب . فلقد كانت الجزيرة العربية ، تقع كما تقع اليوم بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ، وكانت أهم طرق التجارة العالمية التي لم يتغير حالها منذ الأزل تمر عبرها أو حولها . وقد أدى هذا الموقع السوقي الهام إلى نتيجتين أولاهما أن التجار العرب ، وكثيرون منهم من الأغنياء والناجحين ، كانوا يؤمون أسواق فارس وسوريا ومصر ، وكانوا يؤلفون ولا ريب مجتمعاً مختلطاً يسوده الرخاء والثراء ، أما النتيجة الثانية فهي أن دولاً عربية غنية ومتحضرة نمت وازدهرت قبل قرون طويلة من ظهور الإسلام على الطرق التي تسير فيها تجارة الشرق . ومن هذه الدول دولة سبأ في الجنوب العربي والانباط في شرق الأردن ، والغساسنة في سوريا واللخمين في الحيرة . وكان أمراء الدولتين الأخيرتين يعرفون حق المعرفة بلاطات القياصرة والأكاسرة .

ومن الصحيح أن يقال ان الجزء الاكبر من داخل الجزيرة العربية ، كان يتألف من سهوب شبه صحراوية يضطر ساكنوها الى كسب قوتهم اليومي كقبائل رحل من انتجاع الكلأ للابل والماعز والاعنام التي يربونها . وتجعل حياة البدو التي تتطلب الترحال الدائم المستمر من العلم وحتى من مجرد القراءة والكتابة ، أمرا يكاد يشبه المستحيل . ولم تفتح ثقافة الشعوب الغربية الطريق أمام توفير العلم للجميع الا في عصرنا هذا . فقبل نحو من مائتي عام كان الفلاحون وأهل الارياف في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا ، وهي أكثر بلاد العالم حضارة آنذاك ، أميين ويؤمنون بالحرافات والاشباح ، فلا بدع ان عاشت الثقافة والهمجية في القرون القديمة جنبا الى جنب في بلاد واحدة .

وكانت المسيحية واليهودية منتشرتين الى حد كبير بين العرب في حقل الدين وكان بين المؤمنين بهما عدد من القبائل البدوية التي يدين بعضها بالنصرانية اسما على الاقل . أما الغالبية فكانت لاتزال تعبد ارواحا لا عد لها ولا حصر ، تقيم في الصخور ومسائل المياه والاشجار وتقدم تقديسها الى حد ما الى الشمس والقمر والنجوم ولكنها تعترف في الوقت نفسه وبطريقة يشوبها بعض الغموض بوجود ديان سماوى أعظم يهيمن على الكون .

وقدر لهذا الشعب المتميز بالقسوة والتعود على شظف العيش ، وعلى اثاره الفتن والذي يضم مجموعة من العقائد الدينية المختلفة وتسوده الغربة والتجزئة نتيجة فروق شاسعة على الصعدان الثقافية ، أن يخلق تيارا عاصفا من المحاربين الملتهمين حماسة والمتقين حيوية وإيمانا والذين شاء لهم قضاؤهم أن يبدلوا تاريخ العالم بأسره . وقدر لهذا التفجر البركاني أن يتزامن مع عهد من الضعف المتزايد والاضطراب في كل من امبراطوريتي فارس وبيزنطة . وقد نجمت هذه الحالة من الاجهاد التي أصابت الدولتين الكبيرتين من الدمار الذي لحق بكليتهما من جراء الحروب التي لانهاية لها والتي شنتها الواحدة منهما على الاخرى ، تماما كما حدث اليوم بالنسبة الى الدول الكبرى في أوروبا . أما بالنسبة الى بيزنطة ، فقد تزايد هذا الضعف الخارجى ثمرة للفتن التي أثارها الخلافات والاضطهادات الدينية .

## تواريخ بارزة

( سنلحق قائمة عامة بالتواريخ في نهاية الكتاب )

بعد الميلاد

٥٢٢	• • • • •	احتلال الاحباش لليمن
٥٧٠	• • • • •	مولد محمد
٥٧٤	• • •	طرد الاحباش من اليمن بمساعدة الفرس
٥٨١	•	الامبراطورية البيزنطية تقضى على دولة الغساسنة
		كسرى ابرويز يغزو الامبراطورية البيزنطية ليثأر
٦٠٢	• • • • •	للامبراطور موريس
٦٠٢	• • • • •	القضاء على دولة المناذرة
٦١٠	• • • • •	هرقل يصبح امبراطورا
٦١٦	• • • • •	كسرى يحتل مصر وآسيا الصغرى

\*\*\*

## قائمة الملوك

التاريخ	التاريخ (الارتقاء)	أباطرة القسطنطينية
ب • م	ب • م	
	٥٢٧	جوستنيان
٥٧٩	٥٦٥	جوستنيان الثاني
٥٩٠	٥٧٤	طيبيريوس
	٥٨٢	موريس
	٦٠٢	فوقا
	٦١٠	هرقل



# قريش

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • ألم  
يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ،  
ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »

( القرآن الكريم - سورة الفيل )

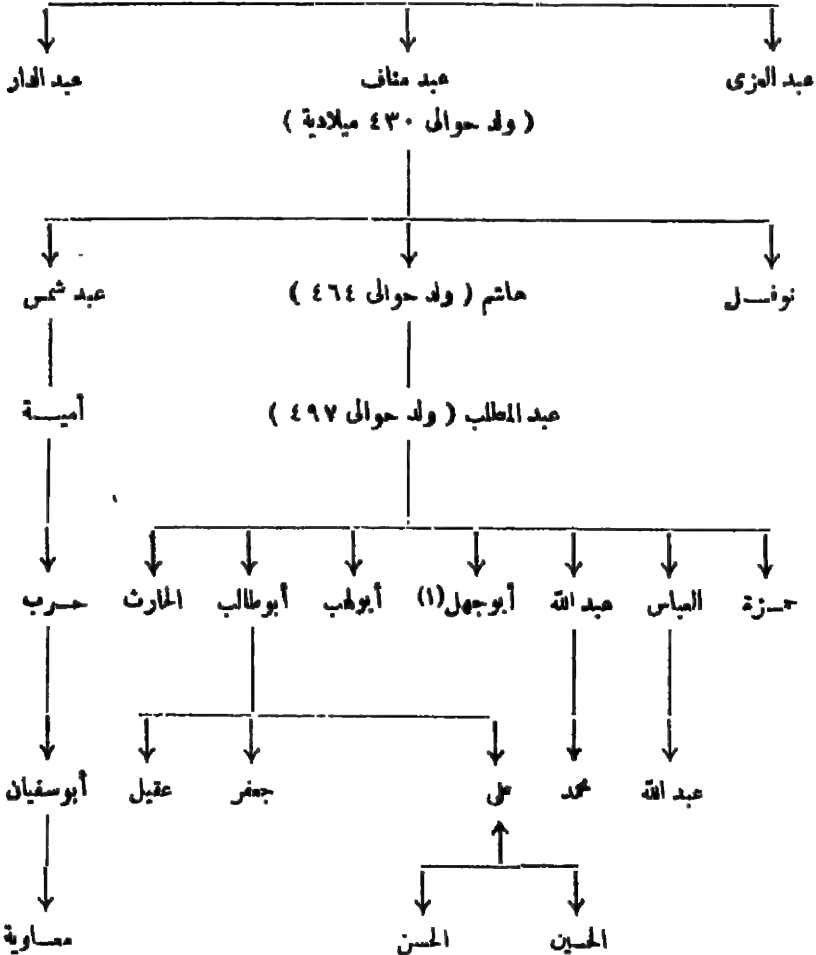
« لا يلاف قريش أيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ،  
فليعبثوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم  
من خوف » •

( القرآن الكريم - سورة قريش )



## نسب قریش

قصى (ولد حوالى ٤٠٠ ميلادية)



(١) أخطأ المؤلف خطأ كبيرا إذ جعل أبا جهل من أبناء عبد المطلب مع أن أبا جهل واسمه عمرو بن هشام من بنى عبد الدار لا من بنى هاشم بن عبد مناف . وهذا خطأ يظهر حقيقة قيمة الكتاب من الناحية التاريخية والعلمية . ( الحرب )

رأينا في الفصل السابق كيف أن تجارة الشرق والتوابل ، ظلت تمر طيلة نحو من ألف عام قبل القرن السادس للهجرة من الجنوب العربي حيث تحملها السفن الى الشمال عن طريق القوافل التي تبدأ مسيرها من مملكتي سبأ وحميز الى مصر وسوريا فرومة وبيزنطية . وكانت مكة تقع تقريبا في منتصف الطريق بين مملكة الجنوب العربي وبين مراكز التوزيع على البحر الابيض المتوسط في مصر وغزة وسوريا . وكانت طرق القوافل تنفرع من مكة أيضا الى الشمال الشرقي باتجاه الجرعة ( القطيف المحاصرة ) (١) الواقعة على الخليج ومنها باتجاه الشمال الى الحيرة على الفرات متجنية صحراء الربع الخالي وصحراء النفوذ . ويتبين من هذا أن مكة ظلت قرونا طويلة ، مركزا مهما من مراكز القوافل .

وكانت تضم منذ أقدم العصور بناء الكعبة التي كان يؤمها أبناؤها القبائل الدانية والقاصية من كل فج عميق لأداء الحج ، نظرا لما تحتله من مكانة القداسة في عيونهم . ويبدو أن بئر مكة وكعبتها أضحتا منذ عام (١٠٠) قبل الميلاد ، في رعاية قبيلة عربية تدعى بنى جرهم . ومن المحتمل أن تكون هذه القبيلة قد أخرجت من أرضها في القرن الثالث للميلاد أمام الهجرات المألوفة نحو الشمال الناجمة عن الفاقة التي أحاطت بدولة سبأ وأن تكون قبيلة خزاعة ، وهي فرع من قبائل الأزد التي هاجرت من اليمن نحو الشمال قد حلت محلها .

وكانت هناك قبائل عدنانية من نسل اسماعيل بن ابراهيم قد أقامت في شمال الحجاز ، وكانت بينها قبيلة قريش (٢) . ويقال ان فهر زعيم قريش بنى في عام ٢٣٥ للميلاد بامرأة من خزاعة ، هي ابنة شيخها

---

(١) اختلف مع المؤلف في اعتباره القطيف اسما حديثا . فالقطيف اسم قديم وقد اوردته البلاذري في أكثر من مكان من كتابه « فتوح البلدان » كما اوردته ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » . ونقل الاستاذ الخضري الاسم نفسه في كتابه . (العرب)

(٢) يتفق المؤرخون العرب على تقسيم الجنس العربي الأصلي الى مجموعتين اولاهما شمالية والثانية جنوبية . ويرد أصل المجموعة الشمالية الى اسماعيل بن ابراهيم ويقال انها نشأت فيما يؤلف الآن شمال الحجاز وجنوب الاردن . وتتألف المجموعة الثانية من تلك القبائل التي هاجرت شمالا من اليمن الى اواسط الجزيرة العربية حيث تم الاختلاط بين المجموعتين وكانت قريش تنتمي الى المجموعة الشمالية . ( المؤلف )



الذى كان يتولى سدانة الكعبة ، وعاد قصى وهو من ذرية فهر فتزوج فى عام ٤٢٠ ميلادية بابنة رئيس خزاعة • ويسدو أن الخزاعى أعجب كثيرا بصهره قصى فأسلمه مفاتيح الكعبة ، وانا به عنه فى سدانتها وخدمتها • ولما توفى الرئيس الخزاعى ، أراد قصى أن ينقل هذا الشرف أصالة الى نفسه لا وكالة عن خزاعة ، ولكن رجال القبيلة عارضوه فيما أرادوه ، ومع ذلك فقد تمكن قصى الذى أعد للأمر عدته • واستنجد بأبناء قبيلته من قريش ، من تحقيق ما أراد • ودارت رحى معركة عنيفة فى عام ( ٤٤٠ ) ميلادية هزمت فيها خزاعة ، وأصبح قصى سادن الكعبة وحارسها ، فى حين تحولت خزاعة الى مركز ثانوى •

ويبدو أن قصيا هذا ، كان رجلا بارزا فى شخصيته وذكائه • اذ لم يكد يسيطر على مكة سيطرة كاملة حتى شرع ينظم أمره فيها • ولم تكن هناك حتى هذا التاريخ أية أبنية فى المدينة باستثناء بناء الكعبة والمصلى أما العرب فكانوا يقيمون فى خيام فى الوديان المحيطة بشعابها • وقد أصدر قصى أمره الى قريش ببناء البيوت حول المصلى • وكانت القبائل العربية هنا تسير على السنة القمرية ، نظرا لسهولة هذا الحساب بالنسبة الى الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة لقدرتهم على تمييز الدورة القمرية فى مراحلها المختلفة • لكن السنة القمرية تقل أحد عشر يوما وجزءا من اليوم عن السنة الشمسية • وهكذا فإن موسم الحج الى الكعبة المحدد فى الشهر الاخير من السنة القمرية يرتد كل سنة أحد عشر يوما الى الوراء تقريبا وبذلك يطوف جميع فصول السنة الشمسية وأيامها مرة كل ثلاث وثلاثين سنة • ولما كان قصى قد أدرك أن الحريف هو أفضل فصل لأداء موسم الحج ، فقد أفلح فى اقناع العرب بقبول ضم شهر ثالث عشر الى السنة القمرية مرة كل ثلاث سنوات • وكانت هذه المحاولة جريئة للتوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية ، وان كان هذا التوفيق لا يتم على نحو دقيق تماما • (ولكن النبى محمدا لامر نجعله ، وهو من احفاد قصى ، أمر بالغاء هذا الشهر الاضافى ، مما أدى الى بقاء فرق الأحد عشر يوما وكسور اليوم بين السنتين الشمسية والقمرية منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا • لكن الحادث يوضح لنا على أى حال ما اتصف به قصى من ذكاء وإقدام) •

أما وقد انتهى الزعيم من تحديد الموسم السنوى للحج ، فقد شرع فى تنظيم الترتيبات السنوية الخاصة به • وكانت الواجبات المرتبطة بالحج مثلثة الشكل ، فهى تشمل سدانة الكعبة ، وتأمين الغذاء للحجاج طيلة أيام الفروض الدينية الثلاثة ، وتأمين السقاية والماء لهم ، وهو عمل

كان يعتبر شاقا الى حد ما ، ويبدو أنه قرر أن الشرف الرفيع الذى تحظى به قريش من سدانة الكعبة ، يجعل من المحتوم عليها ، أن تتولى رفادة الحجيج وسقايتهم بلا مقابل طيلة الايام الثلاثة . وليؤمن هذه النتيجة فرض قصى ضريبة على أهله من قريش بدلا من أن يفرض رسوما على الحجيج .

وقد يتساءل المرء ، كيف كان بالامكان إيجاد الموارد الكافية لمثل هذا الانفاق الضخم . لكن أسواقا تجارية كانت تعقد فى موسم الحج فى مكة وفى الشعاب المجاورة لها . فعندما كانت القوافل تمضى الى سورية ومصر محملة ببضائع الشرق ومنتجاته كانت تثوب من هناك الى مكة مثقلة بما تحمله من بضائع تطلق عليها اليوم اسم السلع الاستهلاكية ، مصنوعة فى منطقة البحر الابيض المتوسط . وفى وسعنا أن نفترض أن قريشا حافظت على مكانتها عن طريق التجارة التى تحملها هذه القوافل وبيع سلعها الى الحجيج فى هذه الاسواق المحلية . ومن هنا يظهر أن خدمة الحجيج المجانية ، على الرغم من ظاهرها الورع التقى ، كانت حافزا فى الوقت نفسه على تنشيط تجارة قريش عن طريق زيادة عدد المتعاملين معها . وأرى لزما على أن أذكر إجراءين آخرين ابتدعهما قصى أولهما انشاء مجلس لشيوخ قريش شيد له مقرا على مقربة من الكعبة . وثانيهما العادة التى جرى عليها وهى أن يسلم الى قائد أية حملة عسكرية تبعث بها القبيلة ، رمحا يعقد هو بنفسه على رأسه قطعة بيضاء من القماش لتكون راية القبيلة ، يلتف حولها المحاربون . وقد قدر لبعض هذه العادات التى استنتها هذا الرجل المتفوق اللامع لابناء عشيرته انصاف العراة المقيمين فى أكوأخهم الطينية حول هذه البئر الصحراوية ، فى منطقة مجدبة وغير ذات زرع من الجزيرة العربية ، أن تعمر قرونا طويلة ، كطقوس مبهجلة فى امبراطورية تعتبر من أعظم ما شهده العالم من امبراطوريات .

وقد غدا قصى رجلا له مكانته المرموقة ، عن طريق هذا التنظيم الفعال فى الميدانين الدينى والتجارى ، وطارت شهرته الى أقاصى الشمال والجنوب . يحملها تجار القوافل ، والى صحارى الجزيرة العربية ينقلها الحاج من أبناء القبائل الذين كانوا يفدون الى الكعبة المقدسة من كل فج عميق .

وتوفى قصى حوالى عام ٤٥٠ أو ٤٦٠ ميلادية مخلقا مركزه المرموق الى أكبر أولاده عبد الدار . وتبدو الاهمية التى كان قصى يعلقها على التزاماته الدينية فى الأسماء التى اختارها لاولاده وهى عبد الدار أى خادم الدار والمعنى بالدار «الكعبة» . وعبد مناف وعبد العزى ، ومناف والعزى صنمان.

من أصنام الكعبة • وانجب عبد مناف عددا من الاولاد ومنهم عبد شمس ، ونوفل وهاشم • واستعرت الاحقاد والغيرة بين ذرية عبد الدار وذرية عبد مناف ، مما أدى الى تجزئة مسئوليات القبيلة بين الاخرتين • واحتفظ آل عبد الدار بسدانة الكعبة والحق في عقد الراية أيام الحروب ، وتسمى اللواء وكذلك بالندوة في حين كان من نصيب آل عبد مناف الحق في سقاية الحجاج ورفادتهم •

وكان هاشم أبرز أبناء عبد مناف • وكان إخوه عبد شمس قد تولى الحق الوراثي في قيادة قريش في حروبها ، بينما كان هاشم الذي اثرى من تجارة القوافل قد اكتسب الشهرة وذوب الصيت بجوده وبالع كرمه في رفاة الحجيج القادمين من مختلف أطراف الجزيرة العربية • وبني هاشم أثناء رحلاته التجارية بامرأة من يثرب وهي بلدة تقع على بعد نحو من مائتين وخمسين ميلا الى الشمال من مكة • وكانت سلمة التي تزوجها هاشم من قبيلة بني النجار التي تقيم على مقربة من البلدة وقد امتازت بشخصيتها البارزة وقد وضعت في عام ٤٩٧ غلاما أسماه أبوه «عبد المطلب» وقد تولى عن أبيه ، بعد بلوغه سن الرشد مسئوليات رفاة الحجيج وسقايتهم في مكة •

وسرعان ما ذاع صيت عبد المطلب في كل مكان ، حتى بن صيت والده هاشم ، وكاد يضارع شهرة جده قصي • وكان بنو عبد الدار قد هروا في المنزلة الى الرتبة الثانية وان كان حرب بن أمية ، حفيد عبد شمس قد حاول منافسة عبد المطلب في مكانته وشهرته • لكن محاولاته باءت بالفشل ولكن قدر لهذه المنافسة التي قامت بين هاتين العشيرتين العربيتين وما قام بينهما من حزازات أن تهز العالم المتحضر بعد نحو من قرن من الزمان • ولكن من الواجب أن نلاحظ هنا أن قريشا لم تعد تدين لرئيس واحد ، فلقد كان لكل عشيرة رئيسها ، وكان لكل واحدة منها في بعض الحالات ، وإيجياتها الخاصة بها وامتيازاتها • ولقد نمت المنافسة بصورة خاصة بين ذرية هاشم وذرية أمية •

وقد تحدثنا في الفصل الاول عن احتلال الاحباش للجنوب العربي في عام ٥٢٢ • وكان قد سبق لتجران في أيام الوثنية ان ضمنت كعبة ، يحج اليها الناس • فلما تحولت نجران الى النصرانية ، تحولت هذه الكعبة الى كاتدرائية • وتقول الاساطير ان ابرهة ، نائب ملك الحبشة في اليمن ، اراد بدافع تعلقه بالنصرانية أن يدمر كعبة قريش في مكة ، ليلتحول الحجيج من أبناء القبائل العربية الى نجران النصرانية • ومهما

كانت دوافع ابرهة ، وسواء اكانت دينية أم استعمارية فانه زحف على مكة فى عام ٥٧٠ ووصل الى نقطة لا تبعد الا بضعة أميال عن المدينة • وكانت قريش أضعف أو أجبن من أن تقف أمام الجيش الحبشى ، ومضى عبد المطلب على رأس وفد لمفاوضة ابرهة • وأعلن الجيش للوفد انه لا يقصد تدمير المدينة ولكنه يريد أن يدمر الكعبة الوثنية ، وهو طلب رفض المكيون باصرار الازعان له •

وعاد الوفد الى المدينة ، وقلوب أفراده مثقلة بالهموم والاعباء • ونصح عبد المطلب أفراد شعبه بأن يجلوأ عن مساكنهم وأن يلجأوا الى الكهوف القائمة فى الجبال القريبة ويقال انه قبل أن يغادر المدينة أمسك بقضبان الكعبة وراح يصلى الى الله طالبا حماية بيته • ويستحيل علينا هنا أن نقرر ما اذا كان دعاؤه يحمل حقا هذا المعنى من الوحدانية ، أو أن المؤرخين المسلمين اللاحقين هم الذين نسبوا اليه دعاءه لكن الصورة كلها تعكس على أى حال اخلاص أهل مكة لكعبتهم • اذ أثروا أن يهجروا مدينتهم ودورهم لجيش العدو على أن يوافقوا على هدم الكعبة التى يقدسونها •

ويبدو فى غضون ذلك ان الجدرى قد انتشر بسرعة بين رجال الجيش الحبشى ونسى الجنود هدف الحملة ، وتخلي ابرهة عن هدفه فى هدم الكعبة ، وشرع الجيش فى عملية انسحاب هى أقرب الى الهزيمة ، ليموت ابرهة بعد وصوله الى صنعاء • وكان الاحباش قد جاءوا معهم بفيل الى مكة ، ولهذا فقد أطلق على عام ٥٧٠ ، منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا اسم عام الفيل الذى ورد فى صفحات القرآن أيضا (١) •

### \*\*\*

وشهد عام ٥٧٠ حادثا آخر أكثر أهمية من الكارثة التى أحقت بالجيش الحبشى • فعفى العشرين من أغسطس ( ٢ ) من تلك السنة ولد محمد نبي الاسلام المنتظر فى مكة • وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب قد توفى قبل بضعة أشهر من ولادته • أما أمة أمته فهى من

(١) تقول رواية سيرة ابن هشام أن الجدرى والحصبة قد انتشرا بين الاحباش •

(٢) يقول المرحوم الخضرى فى تاريخه ان الرسول ولد صبيحة الاثنين التاسع من ربيع الاول لاول عام من حادثة الفيل ، وهو الموافق العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ ميلادية • اما المؤلف فقد استقى روايته من برسيغال فى كتابه « العرب قبل الاسلام » •  
( العرب )

خريطة مكة

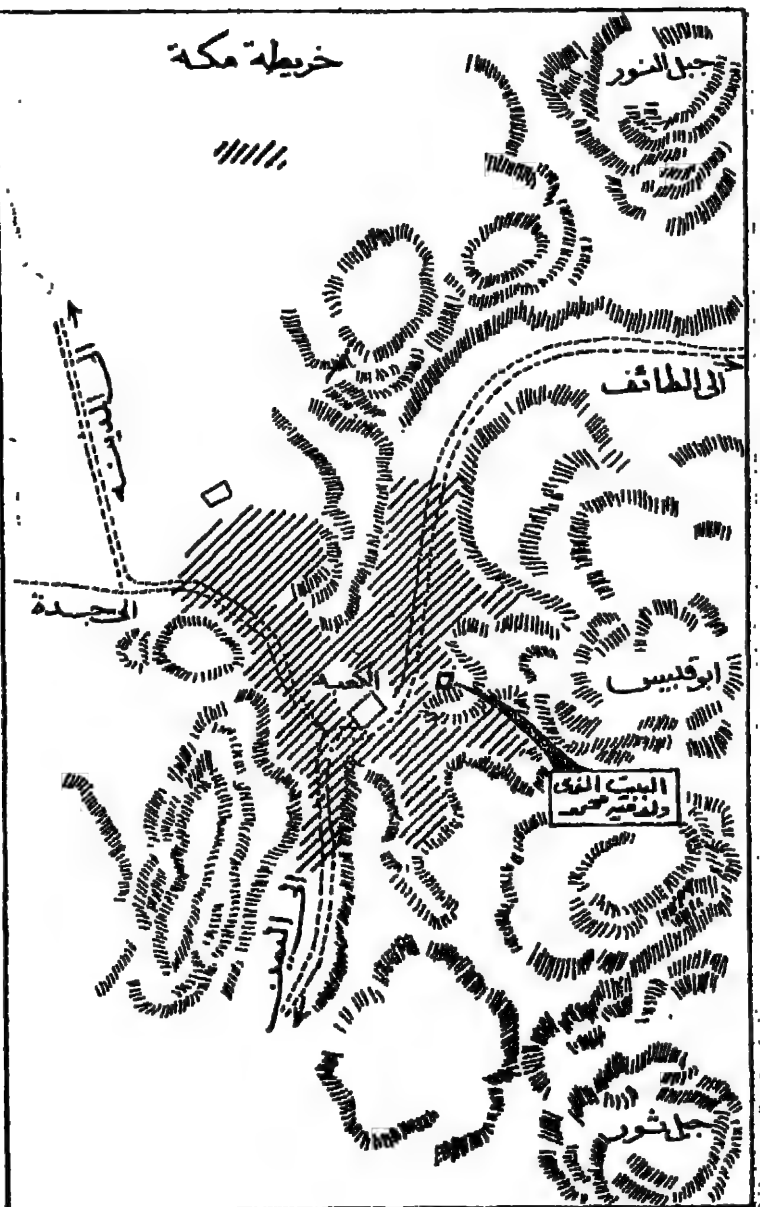
جبل النور

الى الطائف

ابوقليس

البيت المقدس  
ولفقيه محمد

جبل ثور



عشيرة زهرة التي كان جدّها أخا لقصى الشهير . ولما كان الطفل يتيم الأب ، فقد احتضنه جده عيد المطلب ، شيخ العشيرة الوقور وكان قد جاوز الآن السبعين من عمره . وكانت عادة قريش قد جرت على التماس الأمراض لأولادهم في البادية عند نساء القبائل المجاورة ، ليستنشقوا هواء البادية النقي الصافي مما في المدن من عفونات وغبار . وهكذا عهد برضاة محمد الى امرأة من بنى سعد النازلين على مقربة من مكة .

وعاد الطفل الى أمه في مكة وكان في السادسة من عمره (١) ولكن لم تمض قرابة سنة حتى توفيت بعد أن تركته يتيم الأبوين ، وإن كانت هناك أمة لجده تسمى أم أيمن ظلت تعنى به وترعاه . ونقله عبد المطلب الى داره وغدا شديد التعلق به ، وكثيرا ما كان يداعبه ويلهو معه . ولكن جده ما لبث أن توفي وهو في الثالثة من عمره ، وعاد مستقبل الطفل من جديد عرضة للاقدار ، وإن كان الزعيم المحتضر قد أوصى وهو على فراش الموت ، بحفيده الى غناية ولده أبي طالب عم محمد .

وهكذا أصيبت حياة الطفل من جديد بانهقلاب كلي . ولكن المشاعر القبلية كانت أقوى بكثير من أن تسمح باهمال طفل أو التخلي عنه ، وإن كانت هذه التبدلات المستمرة في المكان الذي يعيش فيه الطفل قد ولدت لديه مشاعر من عدم الاستقرار والاحساس بالوحدة ، مما يخلق عادة عند ذوى هذه المشاعر مزاجا دائم التأمل كثير التفكير . ولكن الحامي الجديد الذي تولى رعايته كان على أى حال لطيفا كل اللطف ، وكان ذا شخصية نبيلة ، وسرعان ما غدا شديد التعلق بمحمد ، واستصحبه معه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، في إحدى رحلاته طلبا للتجارة الى سورية ، وهى رحلات كان يعتمد عليها تجار مكة فى كسب أودهم .

وإذا ما استثنينا هذه الرحلة ، فإن الحياة ظلت على وتيرة واحدة . بالنسبة الى محمد الفتى ، الذى كان يعيش كواحد من أسرة عمه . لكن أبا طالب على الرغم من لطفه وكرمه لم يكن بالرجل الثرى . وكان عند أولاده آخذنا فى التزايد هما استنزف موارده وأنضبها . ولم تكن لمحمد موارد خاصة ولذا فكان يقنع بأن يكسب ما يستطيع اما عن طريق بعض الصفقات التجارية أو عن طريق رعاية الماشية . وظل فى فتوته يتميز بطابع الهدوء والتحفظ والجدية والوقار ، وكلها صفات قد تكون ناجمة عن

---

(١) تقول جميع السير وكتب التاريخ ان محمدا ماد من البادية وهو في الرابعة

( من عمره )

أوضاع يتمه ، وعما عاناه في طفولته من رزايا • واقترح عليه عمه أبو طالب عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره أن يستصحب إحدى القوافل المسافرة الى سورية • وكانت هناك أرملة ثرية موفورة الحال من قریش تدعى خديجة تتعهد شئونها بنفسها ، وتقوم على تصريف مشروعاتها التجارية التي تشمل الاشتراك في تجارة القوافل • وكانت خديجة في حاجة الى وكيل أمين موثوق به ليصحب رجالها في القافلة المسافرة الى الشمال وليشرف على بيع بضائعها وعلى شراء شحنات من البضائع السورية بما يتجمع من عملية البيع الأولى ، لبيعها في مكة • وقد تمكن أبو طالب من تعيين ابن أخيه في هذا المنصب ، ولانسيما وأن محمداً نال شهرة عظيمة بما عرف عنه من صدق وأمانة •

ومن المحتمل أن تكون هذه الرحلة قد استفزت تفكير الشاب الكثير التأمل • ويبدو ان العملية نجحت كل النجاح من الناحية المالية ، مما أَرْضَى خديجة كل الرضى وجعلها تعجب بوكيلها الجديد • ولم تمض بضعة أسابيع على عودته من رحلته حتى كانت توفد اليه من يقترح عليه الزواج بها • ويقال انها كانت في ذلك الحين في الأربعين من عمرها في حين كان محمد في الخامس والعشرين • واذا ما استثنينا فارق السن فان الزواج كان مرضياً للفريقين من جميع النواحي • فلقد كان خويلد والد خديجة من وجوه مكة ويزمت في نسيبه أيضاً الى قصي • وقبل محمد الاقتراح وتم الزفاف •

وعلى الرغم من فارق السن فلقد كان الزواج موفقاً كل التوفيق وحملت خديجة لمحمد بولدين توفيا في سن الطفولة وبأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وقد يثير حملها لستة أولاد الشك في الرواية التي تقول بأن خديجة كانت في الأربعين من عمرها عندما بنى بها محمد ، ومن المحتمل أن تكون جاهلة لحقيقة سنها كما هي الحال بالنسبة الى كثيرات من بنات القبائل العربية حتى يومنا هذا •

وحزر ثراء خديجة زوجها محمداً من العوز ، فأتاح له المجال لاحتلال مركز اجتماعي مرموق في مجتمع مكة الذي كان يقدر الثراء (١) • لكنها واصلت على أي حال ادارة أعمالها التجارية بنفسها وبذلك حررتة من

---

(١) لم يكن المركز المرموق الذي احتله محمد في مجتمع مكة بفضل ثروة خديجة وانما كان بفضل أخلاقه التي أجمع المؤرخون على أنها ضمت صدق الحديث والامانة حتى سموه بالأمين والامتناع عن الشر وعن حياة اللهو ، والوقار • (المعرب )

المتاعب المالية ليجد الوقت الكافي لاشباع رغباته فى الوحدة والتأمل وهى رغبات ازدادت قوة مع نضوج سنه • وعلى الرغم من أن محمدا كان موزونا ومتحفظا ، صموتا ميالا الى الهدوء ، الا انه كان يحس بالراحة الى العشرة الطيبة فتتفرج أساريره فى مثل هذه الحالات ويغدو انسانا سمحا رقيق المعشر ميالا الى المزاح البرى •

وعندما أحس محمد بالاستقرار فى حياته شرع - مدفوعا بحبه لعمه أبى طالب الذى احتضنه ورعاه - يحاول التخفيف من ضائقتهم وعرض على عمه أن يهون عليه بعض نفقاته ، وأن يحتضن أحد أولاده ليتولى الانفاق عليه • • ووقع الاختيار آنذاك على على ، وكان فى السادسة من عمره فنشأ فى كنف ابن عمه محمد وكأنه أحد أولاده •

وكان لخديجة عبد يدعى زيد بن حارثة ، وهو ينتمى الى قبيلة أضره (١) العربية المسيحية التى كانت تقيم فى جنوب سورية فسرقه بعض اللصوص وهو طفل ثم باعوه عبدا فى أسواق مكة الى أن وصل أخيرا الى يد خديجة • وقد أولع محمد ولعا شديدا بهذا الخادم وتعلق به فانتدبته خديجة ليتولى خدمته الشخصية • ولم يمض طويل وقت حتى كان والد زيد الذى ظل يبحث عنه السنوات الطوال قد وصل الى مكة متقييا أثر ولده فعرض على خديجة مبلغا كبيرا من المال يفتدى به حريه ولده من الرق • واستدعى محمد زيدا أمام أبيه وخيره بين اللحاق بأبيه فى الشام أو البقاء معه فى مكة ، ولكن الشاب كان قد تعلق بمحمد تعلقا شديدا فى حين لم يكن يعرف أباه الذى فارقه وهو طفل • واختار زيد البقاء مع محمد • وسر محمد بهذا الوفاء النادر لفقد الفتى من يده الى الكعبة حيث أعلن فى حرما عتقه له وتبنيه إياه •

وعلى الرغم من أن أوثنان الكعبة كانت موضع العبادة الرسمية فى مكة الا ان كثيرين من أهلها كانوا قد فقدوا إيمانهم بمثل هذه العبادة الفطرية الجاهلة • ولقد سبق لنا أن بينا ان عددا كبيرا من العرب كان قد اعتنق النصرانية وان الجاليات النصرانية كانت منتشرة فى كل مكان • ولم تخل قريش نفسها من رجال تحولوا الى النصرانية وكان ورقة بن نوفل وهو ابن عم لخديجة من أولئك الباحثين عن ديانة روحية أعمق من

---

(١) أجمع مؤرخو العرب على أن زيدا من بنى كلب لا من بنى أضره كما يقول المؤلف.

ولذا كان يسمى زيد بن حارثة الكلبى •



ديانة قريش ، ويقال ان رجلا آخر يدعى زيد بن الطفيل (١) وهو من قريش ، وقد توفى في هذا الوقت تقريبا ، اثر على محمد الشاب في تطلعاته وبحثه عن الله . .

واقترب عام (٦١٠) ميلادية وكان محمد قد بلغ الاربعين من عمره وازداد ميله الى الوحدة والتأمل . وكان يهرب من طرقات مكة المحرقة المغبرة ويلجأ الى كهوف الجبال القريبة من الوادى العتيق الذى تقبع فيه المدينة ليقتضى فيها أحيانا أياما متوالية . وتسرح أفكار الرجل متأملا فى هذه القمم الجرداء الداكنة التى يراها أمامه من فتحات الكهوف والتى لا تظهر عليها نامة حياة ، ولا تفصلها بعضها عن بعض الا شعاب عميقة ضيقة من الاخايد والوديان الجافة وتعود فتتركز على فلسفة الحياة الاخرى التى كان قد سمع نثقا عنها من اليهود والنصارى ، وعلى وجود اله واحد أحد ، قوى صمد عنده الجنة السرمدية والحياة السعيدة الأزلية يمنحها للمؤمنين من عباده ، وعنده جحيم جهنم بما فيها من عذاب لا نهاية له ينزله بالكفرة وغير الصالحين . وكان يعود الى بيته وقد أثقلته هذه الافكار فيبوح بها الى زوجته الوفية خديجة التى مابرح يجد عندها المستقر والمراح والحث والتشجيع وقد مزجت فى رعايتها له بين حب الزوج وحنان الام .

وألّف محمد اللجوء الى الغار فى الجبال فى فترات معينة من شهر رمضان طلبا للتأمل والتعبد والتفكير والتهجد . وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته اذ نزل عليه جبريل رأس الملائكة . . وروى محمد . . قائلا : وجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال . . اقرأ ، قلت ما اقرأ . . ثم غشيتني حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ ، قلت ماذا اقرأ ، وعاد فغشيتني حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ . . قلت ما اقرأ ، فقال : «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم» . .

وقرأ محمد ما قاله الملاك ، وانتهت الرؤيا وهب من نومه فزعا ويكاد عقله يضطرم . . ويمضى محمد فيقول : « وخيل الى أن اذهب الى الجبل وأقذف بنفسى منه لأستريح . . فإذا ما كنت فى الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : ( يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ) فرفعت

---

(١) زيد بن عمرو بن نفيل المدونى . . لا زيد بن الطفيل . . . وهو الاسم الذى اوردته البلاذرى في « فتوح البلدان » وابن هشام في سيرته ( العرب )

رأسى الى السماء أنظر فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء .

وهزته هذه الرؤيا وعاد محمد الى بيته وأتى خديجة ليروى على سماعها كل ما وقع له فقالت : أبشر يا بن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده انى لارجو أن تكون نبى هذه الأمة (١) ، وكانت خديجة أولى المؤمنين برسالة محمد . وكان ابن عمه على بن أبى طالب ثانى من آمن وكان فى العاشرة من عمره ليتبعه ابن محمد بالتبني زيد بن حارثة .

وكان بين تجار مكة المعتبرين تاجر يدعى عبد الله أو عتيق ، أبو بكر بن أبى قحافة وينتمى الى فرع من فروع قريش . وكان أبو بكر من الرجال المحبوبين ذوى المنزلة لما عرف عنه من خلق طيب ودماثة وكرم . وكان يصغر محمدا بسنتين وجاء ترتيبه الرابع بين من آمنوا برسالته . ولا ريب فى أن مما يقيم الدليل على صدق محمد واخلاصه أن يكون المؤمنون به الأوائل زوجته ولديه بالتبني وصديقه الحميم اذ ان هؤلاء الاربعة كانوا على اتصال وثيق به فى كل يوم بحيث كانوا أعرف الناس بمدى صدقه .

ولم يرب عدد من آمن بالرسالة فى أيامها الاولى على حفنة من الناس ، نذكر منهم عثمان بن عفان من خلفاء المستقبل والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وهى أسماء قدر لها بعد بضع سنوات أن تصبح مدوية معروفة فى العالم المتحضر بأسره ، وكانوا جميعا من قريش فلقد كان عثمان من بنى أميه الذين يذكر القارئ ولا شك انهم كانوا يناقسون بنى هاشم على الزعامة فى قريش . أما الزبير فكان من أقارب خديجة ومن الذين يتصل نسبهم بنسب محمد أما سعد فكان قريبا لمحمد عن طريق أمه .

وظلت الدعوة فردية ثلاث سنوات صدر الامر بعدها لمحمد بأن يجهر بدعوته الى الدين . وكان محمد فى الثالثة والاربعين عندما انتهى تروده وخرج الى ساحة المدينة التى تقوم الكعبة فى وسطها يدعو الى دينه متحديا المشركين من عبدة الأوثان (٢) . وكانت خطوط دعوته متناهية فى

---

(١) يقول المؤلف انه نقل هذه الرواية من ترجمة الاستاذ جيوم لرواية ابن اسحق وقد قارنتها مع رواية ابن هشام فوجدتها قريبة منها كل القرب . واذا كان قد وقع بعض التحريف فى اللفظ وهو قليل نادر فانما مصدره ترجمة رواية جيوم . (الحرب)

(٢) كانت إنجلترا لا تزال فى ذلك الحين وثنية . فقد هبط القديس أوغسطين =

بساطتها فهو يقول للناس ان هناك الها واحدا وان الاوثان شرك لا نفع منها ولا ضرر ويجب أن تزال ، وانه رسول الله جاء مبشرا ونذيرا ، وأن يوم الحساب قريب حيث يخرج الناس من قبورهم اشتاتا فيمضى منهم الى فراديس النعيم الصالحون المؤمنون ، ويمضى الى غياهب الجحيم الاشرار المشركون حيث يصلون سعيها الى ابد الآبدين •

وذكر محمد ليعزز أقواله ان الوحي الالهى يهبط عليه مباشرة • وقال ان جبريل كان ينزل عليه بسور القرآن متحدنا اليه كما يتحدث الرجل للرجل وقيل أيضا ان الوحي كان يهبط عليه أحيانا على شكل صوت داخل يوحى له بما يقول •

وسرعان ما تمكن القريبون منه من تمييز علائم الرسالة فيه • فلقد كان يبدو قبل مجيء الوحي بلحظات متوتر الاعصاب قلقها تنتابه حمى وبرداء ولا ينقصم عنه التنزيل الا وجبينه يتفصد عرقا وقد أضيف الى القرآن فصل جديد • ولم يكن هذا هو المألوف الدائم لنزول الوحي • فكثيرا ما جاءه على شكل احياء ابان حياته العادية •

• وكان مذهب ابراهيم الاساس فى تعاليم الرسول الجديدة • وكان يقول ان الرسالة الصافية النقية التى نزلت على ابراهيم تعرضت لتشويه اليهود الذين أفسدوها وجاء عيسى بن مريم رسولا من عند الله ليظهر الدين مما أدخله اليهود عليه من هرطقة وتشويه • وقد آمن محمد بطهارة العذراء وميلاد عيسى وقال ان المسيح من روح الله وانه جاء رسولا يدعو الى رسالة ابراهيم النقية الصافية • ولكنه يعود فيقول ان المسيحيين أيضا شوهوا العقيدة الصافية كما فعل اليهود من قبل ، فجاء هو رسولا من الله الى الناس جميعا يدعوهم الى الدين النقي الصافى •

ومن هنا يظهر ان النبى لم يدع الى دين جديد لا علاقة له بالديانات الاخرى وانما دعا الى الدين الذى بشر به من قبل ابراهيم وموسى وعيسى • وقد روى كثيرا من القصص التى رواها العهد القديم وان كانت رواياته تختلف أحيانا عنها فى التفاصيل على الاقل ، ولما كان المعروف ان محمدا لا يقرأ ولا يكتب فمن المحتمل انه سمع هذه القصص وأعاد تلاوتها معتمدا

---

= ارض انجلترا في عام ٥٩٧ لمعمل على تحويلها الى المسيحية اى قبل ستة عشر عاما من بداية رسالة محمد •  
( المؤلف )

على ذاكرته (١) . ويمكن القول ان تعاليمه كانت تحمل شبيهاً من طابع العهد القديم . فمثلا هناك آيات في القرآن تأمر المؤمنين بأن يحاربوا الكفرة والمشركين ، وفي الامكان مقارنة معانيها بما ورد في العهد القديم عندما صور الرب «يهوه» وهو يأمر بإبادة العمالة (٢) . ويبدو ان اطلاع محمد على اليهودية لم يكن أوسع من اطلاعه على النصرانية فقد آمن مثلاً بأن عقيدة التثليث تتألف من الله والمسيح والعذراء (٣) .

وكان يقول ان القرآن كلام الله أنزله عليه . وكثيراً ما تسبق الآيات والأوامر والنواهي بكلمة «قل» وهي الامر الالهى لمحمد بأن يقول ويتكلم . وكثيراً ما يجيئه الوحي محذراً اياه مما قد يثيره المشركون من مسائل واعتراضات أو ما قد يثيره المؤمنون من أسئلة فيبين له طريق الرد عليها . . كما جاء في سورة المائدة «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات» أو كما جاء في سورة يونس «قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ، واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ، يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت .» .

وكان أقوى حافز دفع العرب الى فتوحاتهم العظيمة وعد الله لهم بأن كل من يستشهد في الحرب ضد الكفرة يروح الى فراديس النعيم فوراً . يضاف الى هذا ان الوصف المسهب للجنة بما فيها من جداول وأنهار . وماء عذب سلسبيل وثمار تتشهاها الانفس والاعين وما فيها من حور عين عذارى أبكار في منتهى الجمال وفي شباب دائم كان مغرياً للبداءة الحفاة ، العراة والجفاة ، الذين ألفوا شظف العيش والذين كانت حياتهم صراعاً لا ينتهي مع الطبيعة وما فيها من مشاق لا تطاق . وتسرد جميع كتب المسلمين ما كان يسود المسلمين الاوائل من رغبة عارمة في الوصول الى النعيم المقيم عن طريق الاستشهاد . وحتى في عام ١٩٢٠ كانت هتافات الوهابيين وهم يقذفون بأنفسهم في اتون المعركة على أعدائهم . . الجنة يامسلمين الجنة . . يا حواري الجنة . . جينا . . ونحن في الطريق .

وأخذ الاسلام في الانتشار ولكن ببطء ورغم كل ما بذله الرسول

(١) لاستغرب هذه الطريقة في الكتابة من المؤلف الذي لا يؤمن بالاسلام . ولذا فان مناقشة اقواله في هذا الصدد لاتجدي فتيلاً لانه غير مؤمن بالرسالة المحمدية .

(٢) سفر الملوك الاول - الفصل الخامس عشر - الآية الثالثة .

(٣) كذب صراح . فالاسلام لم يؤمن بالتثليث ، ولا يؤمن الا بالواحد الاحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد . . . اما المسيح فهو من روح الله ليس الا . ( العرب )

من جهد • ولم يكن عدد المسلمين قد تجاوز الخمسين حتى بعد أربع سنوات من بدء الرسالة • لكن سخط الكثيرين في مكة اشتد وتعاضم على هذه البدعة • فالمدينة وقریش نفسها مدينتان بالكثير من أهميتهما الى ما يبديه العرب في كل مكان من اجلال لکعبتهم وما فيها من اصنام وأوثان ، وهو اجلال سبق لي أن أشرت اليه عند الحديث عن غزو الاحباش لها في ذلك العام المسمى بعام الفيل • وقد اشتدت المعارضة لمحمد عند قریش عندما راح يعلن لهم • ان آباءهم وأسلافهم يصلون السعير ونار جهنم لاشراکهم بالله • فالمعروف عن العرب انهم يوقرون جدودهم توقيرا شديدا ويجلونهم اجلالا جما • وكثيرا ما سمعت بعض البدو يقولون حتى في أيامنا هذه وهم يحاولون تعزية رفاق لهم أو التسرية عنهم • • « رحم الله أباك وجعل الجنة مثواه » •

ولكن على الرغم من نقمة الكثيرين من القرشيين على تعاليم محمد فان العرف البدوي كان يحميه من غضبهم ونقمتهم • ومن الواجب علينا هنا أن نؤكد عاملا يصعب علينا اليوم فهمه تمام الصعوبة وهو عدم وجود أية حكومة في الحجاز في ذلك الحين أي في القرن السابع للميلاد • ويصعب علينا أن نتصور مجتمعا لا سلطة مهيمنة فيه توجهه ولا قوانين تحكمه ولا شرطة ولا أية وسائل أو اجراءات تفرض العقاب • وكانت الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية بالطبع منظمتين غاية التنظيم على نحو ما نعرف ولكن شيئا من هذا النوع لم يكن موجودا في الجزيرة العربية الا عندما كانت اليمن تابعة اما للاعباش أو للفرس (١) •

وكان الناس في مثل هذه الظروف يجدون الامان والملاجئ في رحاب القبيلة التي ينتمون اليها • وكانت القبيلة تمنع جميع أفرادها وتحميهم من كل اعتداء خارجي ولكن لم يكن هناك أي تعريف محدود للقبيلة • فالقبائل الكبرى التي تعد الواحدة منها عدة ألوف من الناس قد تشتبك في معارك الواحدة منها مع الاخرى في حين قد تشتب المنازعات وأحيانا الحروب وان كان على نطاق أضيق داخل القبيلة الكبرى نفسها بين العشائر والاسر المختلفة • ولم تكن الحماسة التي تضيفها القبيلة أو

---

(١) لا أدري لم هذا الالتكاس من جانب المؤلف ؟ لقد كان للعرب دول في اليمن كدولة حمير وقبلها دولتا سبأ ومعين • وكان لهذه الدول انظمتها أيضا • فلا يجوز أن يقول ان العرب لم يعرفوا التنظيم الا عندما كانوا مستعمرين للاعباش أو الفرس الا اذا أراد ان يطبق قوله على حاضرتنا فيزعم أن العرب لم يعرفوا النظام الا عندما كانوا مستعمرين له ولدولته بريطانيا ...  
( العرب )

العشيرة على أعضائها تعتمد على ما فى أعمالهم من تطابق مع الاخلاق أو نبو عنها • فالقبيلة تحمى ابنها اذا كان قاتلا أو سارقا تماما كما تحميه اذا كان بطلا أو قديسا وهو ما تفعله شركات التأمين عندما تعوض نلى الخسارة الناجمة من حادثة سيارة سواء كان صاحب السيارة المؤمن عليها هو المستول عن الحادث أو ضحيته •

فحيث تنعدم السلطات العامة لا يكون ثمة مجال لعقوبة على جريمة • وجل ما يمكن الحصول عليه من المسء هو التعويض أو اعادة الحق الى صاحبه • وتعين القبيلة أو العشيرة ابنها على ضمان حقوقه على هذا النحو أو على أن ينزل بخصمه ضررا هو عين الضرر الذى أنزله هو به • ويعترف العرب بالحسق فى الثار • العين بالعين والسن بالسن والروح بالروح •

وكان حق الانسان الذى لحق به الاذى فى أن يثار ، ناجما عن عدم وجود أية سلطة عامة قادرة على حمايته •

كان محمد ينتمى الى بنى هاشم • وهم أحد البيوتات التى تضمها قريش والتى تسلسلت عن هاشم • وسواء آكان بنو هاشم مؤيدين لما يقوم به من نشاط أم معارضين له • فقد كان العرف القبلى يفرض عليهم حمايته من التعرض الى أى أذى بدنى أو عنف ، وكذلك حماية مريديّة الشابين على بن أبى طالب وزيد بن حارثة ابن محمد بالتبني • وكان غير هؤلاء من المسلمين القرشيين يلقون الحماية نفسها من البيوتات التى ينتمون اليها • لكن بعض المسلمين كانوا على أى حال من العبيد أو الخدم ولم يكونوا يحظون بأية رعاية قبلية • ونفثت قريش صنوم غلها وحققها فى هؤلاء • ويقال ان قريشا أمسكت ذات يوم بعبد حبشى طويل القامة نحيل العود يدعى بلالا كان قد اعتنق الاسلام فطرحة سيده أرضا فى وهج الشمس وحرارته وقد أثقل صدره بالحجارة الضخمة لتحول بيته وبين الوقوف أملا فى ارغامه على الارتداد عن دينه • وعلى الرغم من العذاب الشديد الذى عاناه من الظأ فقد ظل يهتف « أحد ، أحد ، أحد صمد » متحديا مضطهديه من المشركين • وكان أبو بكر الصديق الرجل الثرى التقى الذى وقف نفسه وروحه لدعوة محمد يستخدم ماله فى شراء العبيد المسلمين من سادتهم المشركين ليعتقهم ومع ذلك فقد ظل عدد من فقراء المسلمين يعابون العذاب والاضطهاد • وعلى الرغم من أن محمدا كان فى منجاة من الاغتيال إلا انه كان يتعرض دائما للعذبة من المزعجات والاهانات • وكانت النسوة المشركات يقلفن الرمنسول بالنفايات من

أسطحة منازلهم ، وأولادهن يلقونه بالأهانات فى الشوارع فى حين تضع امرأة عمه أبى لهب الاشواك على عتبة داره لتلقى بها قدماها عندما يخرج حافيا .

وراح محمد ينصح أتباعه فى عام ٦١٥ ، أى بعد خمس سنوات من نزول الوحى بالهجرة من مكة بعد أن عجز بما عرف عنه من طيبة خلق عن رؤيتهم وهم يعانون ويلات العذاب وصنوف الاضطهاد . وكانت الحبشة المملكة النصرانية قريبة لا يفصلها عن الجزيرة العربية الا البحر الاحمر وتمكن أحد عشر رجلا وأربع من النساء من الخروج من مكة والابحار الى الحبشة وبينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة محمد (١) .

وبدت آمال الدعوة المحمدية فى أسوأ أوضاعها . فلقد انقضت خمس سنوات على الدعوة ولم تحقق الا نجاحا جزئيا اذ لم يتحول الى الاسلام الا حفنة من الناس بعضهم عاد فارتد عنه (٢) فى حين اضطرت غالبية الباقين الى الهجرة من البلاد وبدأ ان محمدا قد ظل وحيدا باستثناء بعض ذوى قرباه من أمثال خديجة وعلى وزيد وصديقه الوفى المخلص أبى بكر . وعلى الرغم من أن مكة شهدت أناسا يبحثون عن عقيدة روحية سامية الا ان معظم هؤلاء كانوا من الفلاسفة الذين ينشدون معرفة الله لانفسهم ، وكان محمد قد أثار معارضة قريش له بهذه الحملة العنيفة التى شنّها على الاوثان القائمة فى الحرم المكى ، وبالتأكيداته التتوالية من أن اسلاف قريش يصلون نار جهنم وان الذين يتكرون دعوته من المواطنين ويرفضون رسالته سيصلون العذاب الدائم . وقد أدت معارضتهم هذه وسخطهم الى النقمة على الحركة كلها . أو ليس ثمة من مجال لتفاهم أو ترضية ؟ لو انه خفف من غلواء هجومه على عقيدتهم فلربما تمكن من أن يقود أهله وأبناء مدينته بأساليب المهادنة التدريجية الى طريق البحث عن اله واحد .

ولا يقضى الناس فى أجواء الجزيرة العربية الحارة وقتنا طويلا داخل بيوتهم . وكانت باحة الكعبة المكان الذى يلتئم فيه شمل أهل مكة

---

(١) تؤكد كتب التاريخ العربى أن عدد الذين هاجروا الى الحبشة كانوا ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة وعددا من الاطفال ويمثلون جميع بطون قريش .  
( العرب )

(٢) لم يرد فى كتب السير أو التاريخ العربى أى ذكر لمسلمين أولدوا عن الاسلام فى هذه الآونة ولا أدرى من أين جاء جلوب بهذه الرواية الغريبة التى لا أصل لها فى كتب العرب .

ويعقدون اجتماعاتهم • فالبسط تنشر على الارض ويجلس شيوخ القبيلة فى حلقات يتذاكرون شئون اليوم • وعندما تشتد الهاجرة تنقل البسط الى ظل الكعبة أو ظلال البيوت المجاورة • وكانوا لا يفتحون ندوة قصي الا فى الحالات النادرة وعندما يتساقط المطر أو تهب الزواجع الرملية ولم يكن فى هذه القاعة التى تطل على ساحة الكعبة أى فراش أو أثاث • وانما هى مجرد بناء من الحجر المقسوى بالطين والمسقوف بالاغصان والاخشاب والتراب •

وكان وجوه مكة وشيوخها يجلسون ذات يوم فى العراء على مقربة من الكعبة عندما اقترب منهم محمّد واقتعد مجلسه معهم ، وبعد صمت قصير بدأ النّبي يتلو على مسامعهم سورة النّجم ، فيحدثهم عن الوحي والتنزيل وكيف وقف الملك جبريل على بعد خطوتين منه ثم حدثهم عن زيارة الملك الثانية « عند سدره المنتهى » ثم مضى يقول : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى • أفرأيتم اللات والعزى • ومناة الثالثة الاخرى • الكم الذّكر وله الانثى ، تلك اذا قسمة ضيزى » ورأى سادة قريش الرسول وهو يشهد لهذه الالهة الثلاث ثم رأوه فى نهاية السورة وهو يسجد فى صلاته فسجدوا معه جميعا وأخلوا يصلون معه(١) •

ولا ريب فى أن هذا الحادث يقيم الدليل على أن أهل مكة كانوا يعترفون بصورة عامة بوجود اله عظيم واحد • ولكنهم كانوا يرون أن آلهتهم المحلية هذه هى سبيل للوساطة عنده • وكانوا يقولون انهم على استعداد لاتّباع النّبي فى عبادة الله شريطة أن يكون على استعداد للاعتراف

---

(١) لاادرى من أين جاء جلوب بهذه القصة المخلقة التى يظهر اختلافا جليا واضحا في وقوعه عند هذا الحد من السورة الكريمة دون أن يكملها ثم انتقله لجة الى حادث السجود وهو يود أن يظهر وكأن الرسول قد سجد لاصنام الكعبة ... حقا انه اختلاق معيب .. فبعد الآيات الكريمة التى أوردها جلوب ووقف عندها تضي السورة الكريمة قاتلة .. « ان هى الا اسمله سميتوها أنتم وآبؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى • أم للانسان مامنى • فله الآخرة والاولى ... » الى أن تصل السورة الكريمة الى نهايتها .. « فاسجدوا لله وامبدوا » وهنا سجد الرسول لله تعالى لا لاولئان الكعبة كما يحاول جلوب أن يقول .. ومن هنا يظهر اختلاق القصة كلها •



بدور آلهتهم الصغرى • وسرعان ما وقعت مهادنة آنية وتوقفت حملات العذاب والاضطهاد (١) •

ولكن الرسول ما فتىء ان عاد الى داره وشعر بضميره يعذبه فهل من الحق أن يهادن الشرك حتى ولو كانت غايته انقاذ اتباعه من الاضطهاد ؟ وظهر له جبريل من جديد وأخذ يعاتبه • وأحس بالالام والخوف من الله • انه لا يرضى عن تراجعهم وقرر أن يتراجع عن موقفه السابق وأن يواجه من جديد غضب قومه • وعاد الى القوم فأكمل على مسامعهم السورة على النحو الذى يبدو فى القرآن • وأثار هذا التراجع سخط أهل مكة واستفزهم فعادوا الى اضطهاد المسلمين(٢) •

واستدعى القرشيون فى سورة غضبهم أبا طالب وناشدوه أن يتخلى عن نصرته ابن أخيه وأن يتراجع عما تفرضه عليه التقاليد القبلية وأن يسمح لهم بمحاسبة محمد • ورد الرجل الشيخ عليهم مهددا ثم بعث فى طلب ابن أخيه سرا اليه بمخاوفه وقلقه ولم يكن أبو طالب من المسلمين ، ولكن لم يكن فى وسعه أن يسحب حمايته لابن أخيه وهى الحماية التى تفرضها عليه التقاليد القبلية لا سيما وأنه يحبه حبا جما • أولا يمكن لمحمد أن يفعل شيئا ليساعده وذلك بسلوكه سلوكا يحمل طابع التهادن والتفاهم ؟ ولكن النبى عانى كثيرا فى قرارة ضميره منذ المحاولة السابقة فرد على عمه قائلا : « لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر ما تركته » • ثم انخرط مجهشا بالبكاء • وقد تأثر عمه العجوز من بكائه واستدعاه الى جانبه مؤكدا له أن فى وسعه أن يمضى فى دعوته كما يشاء فهو لن يتخلى عنه •

وبينما كانت أوضاع المسلمين على هذا النحو من السوء تحول

---

(١) هناك ناحية اخرى تكذب هذه القصة • وهى القصة التى اوردتها جميع كتب السيرة والتاريخ الاسلامى عن مجيء أبى طالب الى النبى ( صلم ) بعد أن هددته قريش إذ قال له • يا ابن اخى ان قومك جامونى وقالوا لى كذا وكذا فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى مالا أطيعك فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف من نصرته والقيام معه فقال : والله يامم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته • ثم استعبر ويكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : اقبل يا ابن اخى ، فلما اقبل عليه قال له « اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا » • ( العرب )

(٢) هذه هى تكملة القصة المختلفة التى لم أجد لها اثرا فى كتب السيرة ، وأنا أعتقد ان جلوب قد نقلها من بعض الكتب الغربية وحتى لو صح هذا الاعتقاد فان جلوب هو المولود لانه لم يثبت من صحتها من الكتب التاريخية • (المغرب)

شخصان الى الاسلام فأدى اسلامهما الى تحسن الوضع مؤقتا وأولهما حمزة عم النبي ، وهو محارب معروف مشهور بالفتوة والنجدة وقوة البنية وقد فرض مهابته على الناس ، ونايسهما عمر بن الخطاب من بيت آخر من بيوت قريش وكان معروفا بحدة الطبع كما كان حتى لحظة اسلامه من أشد أعداء الدعوة المحمدية .

وتروى القصة ان عمر مضى ذات يسوم الى دار شقيقة له متزوجة وعندما دخل من الباب الخارجى سمع صوتا يقرأ شيئا لا يعرفه . واقتحم عمر الغرفة فرأى صهره وشقيقته يجلسان معا فبادرهما قائلا وهو غاضب «ما هذا الصوت الذى سمعته ؟» فرد الاثنان معا «لاشىء» مع انهما كانا يتلوان فى الحقيقة سورة «طه» من القرآن . وانبرى يوجه اليهما السباب، وقد استشاط غضبه فضرب صهره وركله بقدميه ثم لطم شقيقته على وجهها . وفجأة رأى الدماء تنزف من أنفها وفمها وسرعان ما هدا غضبه وراح يقول لهما بهدوء وحسان انه يود أن يرى ما كانا يقرأانه وانه تأثر بالغ التأثير بما سمعه منهما . وأمسك صهره بيده ومضى به الى محمد الذى تقبل اسلامه ولم يمض عشرون عاما على هذا الحادث حتى كان عمر ابن الخطاب قد غدا أعظم حاكم فى العالم .

وعلى الرغم من ان اسلام هذين الرجلين قد شجع النبي الا انه فى الوقت نفسه حفز كبراء قريش على أن يوسعوا من نشاطهم ضد الدعوة الاسلامية . وخافوا أن يؤدى اغتيالهم المسلمين من القرشيين الى منازعات دموية فى المدينة ولا سيما مع بنى هاشم . وقررت قريش مقاطعة بنى هاشم . ويبدو ان كل عشيرة كانت تقيم فى حى خاص بها فى مكة . ويبدو ان بنى هاشم كانوا يحتلون واديا ضيقا يقبع وراء صخور أبى قبيس الشاهقة التى تطل على المدينة . وقد أقام بنو هاشم فى هذا الوادى أو الشعب حيث قاطعتهم قريش بعد أن التزموا فى صحيفة كتبوها بالآل يشتروا شيئا من بنى هاشم أو لا يبيعوهم شيئا ولا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم وأن يتجنبوا الحديث اليهم . ويبدو ان المشاعر القبلية كانت قوية الى الحد الذى دعا بنى هاشم جميعا الى الانحياز الى أبى طالب والاذعان للمقاطعة . على أن يتخلوا عن محمد على الرغم من أن معظمهم لم يكونوا قد آمنوا بدعوته ولم يخرج عليهم الا أحد أعمام الرسول وهو أبو جهل(١) الذى انضم الى قريش وظاهرهم وأوفدت قريش الى الحبشة

(١) أخطأ المؤلف ثالثة فذكر أبا جهل وهو ليس بعم الرسول والمقصود فى الحقيقة

(المعرب)

عنه أبو لهب .

رجلين (١) من رجالها لاقتناع النجاشي برد مهاجري المسلمين الى بلادهم ولكن البعثة منيت بالفشل . وهكذا انقضت السنة السادسة منذ بدء الدعوة والرسول مازال عرضة في كل مكان للزراية والسخرية والاضطهاد من قومه ، في حين كان قسم من أتباعه لا يزالون يقضون حياتهم في المنفى في الحبشة أما الباقيون فمحاصرون في بيوتهم في مكة .

ودامت المقاطعة ثلاث سنوات ولم تؤد في النهاية الا الى تحول المشاعر نحو بنى هاشم والعطف عليهم ولا سيما أن بعض هؤلاء المحاصرين لم يكونوا من المسلمين وان لم تتبدل مشاعرهم تجاه الرسول نفسه فقد تقرر في النهاية الغاء المقاطعة . واصبح محمد ثانية حرا طليقا في الانتقال في المدينة حيث يشاء . وفي هذا الوقت بالذات أعلن النبي ذات صباح انه أسرى به في الليلة الفائتة من مكة الى القدس حيث عرج منها الى السماء والتقى بالانبياء والرسل كآدم وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم حتى وصل الى سدرة المنتهى . وقوبلت هذه الرواية بالسخرية من المشركين من أبناء قريش وبالايمان العميق من أتباعه وفي مقدمتهم أبو بكر .

وفجع الرسول وهو يعاني في دعوته كل هذه الآلام بفجعتين شخصيتين ففي ديسمبر ( كانون الاول ) عام ٦١٩ توفيت شريكة حياته الامينة خديجة ففقد بوفاتها ما كان يلقاه عندها من حب وحنان وعطف وتشجيع . ولم يمض الا شهر واحد على هذه الفجعة حتى كان عمه وحاميه أبو طالب الوقور ينتقل بدوره الى الرفيق الأعلى ، وأحس محمد بهول الفاجعة فلقد ظل هذا العم له نحوا من أربعين عاما بمثابة الوالد الحنون والحامي الأمين . وعلى الرغم من أن أبا طالب لم يقنع برسالة ابن أخيه السماوية الا انه احتمل الوعيد والتهديد والخطر والحسائر المادية في سبيل وقاية محمد من غل أعدائه وحقدهم .

وبدا مركز الرسول واهنا ويائسا في هذه الآونة . فلقد كان نفوذ أبي طالب هو الذي وحد بنى هاشم في الدفاع عن محمد ، وانقضى طويل وقت دون أن يتحول الى الاسلام نفر جديد . والمسلمون مهددون بالفجار غضب قريش في أية لحظة من اللحظات وقد يؤدي هذا التفجر الى ابادة

---

(١) يقول المؤلف ان أحد الرجلين هو عمرو بن العاص الذي فتح مصر فيما بعد وهذا صحيح اما الرجل الثاني ولم يذكره المؤلف فهو عبد الله بن أبي ربيعة .  
( العرب )

المسلمين المنشقين على قريش • وبدأ أن مناعة قريش على الدين الجديد من النوع الذي لا يمكن أن يخرق •

وكانت مدينة الطائف تقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من مكة في واد في سلسلة جبال الحجاز العالية • وتقيم قبيلة ثقيف في هذه البلدة • وراح محمد يرتحل راجلا الى هذه البلدة لا يصحبه الا زيد ولده بالتبني ليدعو أهل البلدة الى الاسلام • وقصد اول ما قصد ثلاثة من رؤساء الطائف • ولكن حديثه اليهم لم يترك أثرا في نفوسهم وانما ردوا عليه ساخرين : « اذا كان لابد لله أن يبعث رسولا أو لم يستطع أن يجد من هو خير منك لحمل رسالته ؟ » وعاد يجرب حظه مع أهل البلدة في شوارعها فهزئوا به وسخروا منه وراحوا أخيرا يرشقونه بالحجارة مما اضطره الى مفاداة البلدة ناجيا بروحه والدماء تنزف من جراحة الكثر ولا معين له الا رفيقه الامين زيد الذي أصيب بدوره بعدة جراح • ولا ريب في أن الرسول شرب في ذلك اليوم كأس الأذى حتى الثمالة ويقال انه هتف بربه شاكيا له أذى الناس وطالبا رحمته وعونه • ولا ريب في أنه عاد مرتعدا الى بيته في مكة • ولم يخرج منه بعد ذلك الا فيما ندر الى الشوارع والاماكن العامة (١) •

وكان موسم الحج قد بات وشيكا وفي مثل هذا الموسم يفد الناس أفواجا من انحاء الجزيرة العربية الى مكة ليحجوا الى كعبتها • ولما يشس من هداية أهله من قريش انصرف يحاول هداية بعض الوافدين من الحجاج • وانتهاز فرصة لقائه بسبعة رجال من يثرب ( المدينة المنورة ) فدعاهم الى الجلوس معه في ناحية ليتحدث اليهم في هدوء عن أمرهم (٢) • وكان أهل يثرب أخواله اذ يذكر القاريء أن جده الاول هاشما كان قد بنى بامرأة من أهل تلك المدينة • وأعرب الرجال السبعة بعد أن استمعوا طويلا اليه عن اقتناعهم بصحة رسالته • هنا سألهم

---

(١) رواية كاذبة مختلفة تجمع على كذبها كل كتب السيرة • فقد روت كلها ان الرسول عندما عاد الى مكة أرسل الى المطعم بن عدي يخبره انه يدخل مكة في جواره ، فاجابه الى ذلك ثم تسلم المطعم وأهل بيته حتى اتوا المسجد ، ثم بعث الى رسول الله أن ادخل ، فدخل رسول الله لطفاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف الى منزله وفي ذلك يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول في رثاء المطعم لما توفي :

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا هيبلك مالى مهل واحرما

(٢) ستة رجال لا سبعة ... بذلك قالت كتب السيرة •

( العرب )

الرسول عما اذا كان ممكنا أن يهاجر الى يثرب ليعيش في حمايتهم (١) . ولكنهم ردوا عليه ردا حذرا وكان أهل المدينة يتفرعون الى قبيلتين هما الأوس والخزرج وكانتا في حالة نزاع مستمر ، ولم يكن قد مضى أربع سنوات على نشوب معركة حامية الوطيس بينهما وهكذا لم تكن الحياة قد استقرت بعد في المدينة وتردد هؤلاء في أن يعصدوا محمدا بحمايتهم .

وقد وقع هذا الحديث مع رجال يثرب في مارس عام ٦٢٠ ميلادية وانقضى عام آخر في حالة من القلق والترقب . وحل موسم الحج أخيرا واجتمع اثنا عشر رجلا من أهل يثرب الى النبي في واد ضيق في الجبال الواقعة الى الشرق من مكة . وقد أعلن هؤلاء إيمانهم بمحمد واقسموا على ألا يعبدوا الا الله والا يطيعوا الا أمر نبيه . وأن يمتنعوا عن نواهيهِ وبينها السلب والزنا وأداء البنات والكذب . كان الرسول يعدهم بأنهم اذا عملوا بهذه الشروط فان مثواهم الجنة في الحياة الاخرى وقد اُسِّميت هذه البيعة ببيعة العقبة (٢) ، وهو اسم الشعب الصغير الذي تم فيه أخذ الموائيق .

ولم يكن كسب اثني عشر رجلا الى الاسلام في بلدة تقع على بعد مائتين وخمسين ميلا عن مكة بالشئ الكثير حقا . ولكن هؤلاء المسلمين الجدد عادوا الى يثرب يلهمهم حماس الايمان وشرعوا يكسبون الى صفوفهم المزيد من المسلمين من رجال الأوس والخزرج . يضاف الى هذا ان حالة الامن في البلدة قد تحسنت . فلقد ارتضت القبيلتان برئيس واحد هو عبد الله بن أبي ووضعتا بذلك حدا لعدائهما المستمر وأوفد النبي مصعب بن عمير من قريش وهو أحد المسلمين الأوائل الى المدينة ليعلم أهلها الدين الحنيف .

(١) هذه رواية كاذبة أخرى . فالرسول كما تجميع كتب السيرة لم يطلب الهجرة الى المدينة ولا سيما في ذلك اللقاء الاول فقد وقع بعد ذلك اللقاء بعام أي في موسم الحج التالي لقاء ثان مع اثني عشر رجلا من أهل المدينة في العقبة يبايعوه على الاسلام ببيعة تسمى في التاريخ ببيعة النساء ، وبعث معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين . وفي العام التالي أقبل مصعب على رأس جمع كبير من المسلمين واجتمعوا في الشعب عند العقبة الى النبي ( ص ) وكان عددهم (٧٣) رجلا وأمرأين . وجاءهم النبي ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو لا يزال على دين قريش . فدعا المسلمون من أهل يثرب النبي الى الهجرة الى المدينة فلم يقبل بها الا بعد أن أخذ عليهم اليهود والمواثيق وبعد أن أكدها (١٢) تقييما من الأوس والخزرج كانوا بمثابة الكفلاء .

(٢) هذه بيعة النساء وليست بيعة العقبة كما أوردنا في الهامش السابق .

( العرب )

وانقضى عام طويل آخر فى مكة • لكن اليأس لم يعرف طريقه الى محمد فقد تركزت أفكاره الآن على يثرب • ولم يقم بأية محاولة جديدة فى مكة فى هذه الآونة للتبشير بديانته جهرا (١) • وهدأت سورة قريش بعض الشيء وانصرفوا من جديد الى أمور تجارتهم وتكديس ثرواتهم •

وحل موسم الحج من جديد فى مارس عام ٦٢٢ • ووفد مصعب من يثرب الى مكة قبل الحج بأيام لينقل الى النبى أنباء النجاح الذى حققه • وتم اعداد اجتماع بين النبى وبين أهل المدينة فى اليوم الاخير من الحج • وكانت طقوس الفريضة قد انتهت • وكان من المقرر أن تنفر قوافل الحجاج خفافا عند الفجر تضرب الصحراء طولا وعرضا عائدا الى بلادها • ووقع الاختيار على نفسه الشعب الصغير نفسه المسمى «بالعقبة» والواقع على بعد نحو من أربعة أميال من مكة وسط الجبال ليكون مكان اللقاء على أن يتم الاجتماع قبل ساعة من منتصف الليل • ووصل النبى راجلا يصحبه عمه العباس • وهنا تتجلى العصبية العائلية من جديد اذ ان العباس الذى كان الرفيق الوحيد لمحمد فى هذه المخاطرة الغريبة كان لايزال من المشركين • وألقى الرجلان على بساط الصحراء فى هدة الليل العميق • ولم تمض هنيهة حتى أخذ أهل يثرب يتوافدون أزواجا أزواجا ليتجنبوا العيون والارصاد • واجتمع ثلاثة وسبعون رجلا فى الوادى المدلهم الذى لا يضيئه الا قمر الصحراء يبعث بشعاعه الغضى • وراح أحدهم يروى فيما بعد قائلا . . . « اخذنا ندب الى المكان كالتقطا لنجتمع الى رسول الله » •

وبعد ان خطب النبى فى القوم دعاهم الى ان يقسموا على الاخلاص له وعلى أن يتولوا حمايته فى يثرب. اذا وفد اليهم • وكان البراء بن معرور وهو من سادة يثرب من أول الذين اقساموا على أن يمتنعوا الرسول وسرعان ما لحق به الرجال الاثنان والسبعون يمرون فرادى بمحمد فى ظلمة الليل فيمسك الواحد منهم يده ويهزها قائلا « ... أنا منك واثنت منى .. » ورد النبى فى النهاية هاتفا «أحارب من حاربتم وأسالم من سالتهم » • واختير اثنا عشر رجلا من صفوة القوم ليكونوا كفلاء على عهد قومهم ، تقليدا كما يظهر ، لحوايرى عيسى بن مريم وكان ثلاثة منهم من الاوس وتسعة من الخزرج • وتفرق المسلمون بهدوء بعد ذلك وعادوا

---

(١) ليس لمة من دليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تقاسم من دمونه او توانى فيها ولكن استجابة قريش لها كانت بطيئة ومن هنا كان العدد القليل من المسلمين الذين أقبلوا على الدين الجديد فى هذه الفترة . ( العرب )

كما جاءوا أزواجاً ، وأطلق على هذه البيعة في التاريخ الاسلامي اسم بيعة العقبة الثانية . وقدر لهؤلاء السبعين بدويًا عربيًا الذين اجتمعوا على مسيل ماء في مكان ناء من ارض العرب ان يغيروا مجرى التاريخ العالمي .

### تواريخ مشهورة

بعد الميلاد

٤٤٠	تم الأمر لقصى في مكة
٤٩٧	ولد عبد المطلب جد النبي
٥٢٢	احتل الأحباش اليمن
٥٧٠	عام الفيل - ولادة النبي
٥٧٨	وفاة عبد المطلب - محمد في رعاية عمه ابي طالب
٥٩٥	زواج محمد بخديجة
٦١٠	نزول الوحي
٦١٥	هجرة المسلمين الى الحبشة
٦١٩	وفاة خديجة
٦٢٢	بيعة العقبة الثانية

### شخصيات مشهورة

جد النبي	عبد المطلب
عم النبي	ابو طالب
زوجة النبي	خديجة
ابن عم النبي نشأ في بيته	علي بن ابي طالب
ابن النبي بالتبني	زيد بن حارثه
صديق النبي	ابو بكر الصديق
شخصيات	عمر بن الخطاب
اسلمت ولعبت	عثمان بن عفان
دور في التاريخ الاسلامي	الزبير بن العوام
	حمزة
	سعد بن ابي وقاص





# دلوالب

« وجد النبي الذي لا كرامة له في عشيرته الولاء  
والاجلال في مدينة الهجرة . واخذ النبي يظهر تكريجيا  
في صورة جديدة . فالنبي المضطهد يتحول الآن الى  
محارب ظافر . واذا فشلت نذر النبي وبشائره في  
اقتناع قريش فان سلطان الفاتح سيمرهم على  
الاقتناع »

فريمان - تاريخ العرب

\* \* \*

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بالرف  
من الملائكة مردفين »

القرآن الكريم - سورة الانفال

\* \* \*

« قد كان لكم آية في فتتين التقتا ، فئة تقاتل في  
سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ،  
والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولى  
الابصار » .

القرآن الكريم - سورة آل عمران



أصدر محمد أمره بعد أيام من بيعة العقبة الثانية إلى اتباعه بالهجرة سرا وفي جماعات صغيرة إلى يثرب . وكانت غالبيتهم من الفقراء ولم يتمكن الا قلة منهم من الحصول على الابل فكان يركب البعير الواحد منهم رجلا . واضطر الكثيرون منهم إلى قطع المسافة التي تقع في (٢٥٠) ميلا راجلين . ولم تنقضى سبعة أسابيع أو ثمانية حتى كان جميع المسلمين قد هاجروا من مكة باستثناء النبي نفسه وابن عمه علي بن أبي طالب وولده بالتبني زيد بن حارثة ورفيقه الأمين أبي بكر الصديق . وارتد عن الاسلام نفر خوفي من أهلهم ، بينما حال هؤلاء دون هجرة نفر آخر (١) . وجدير بنا أن نعترف هنا بأن محمدا أبدى جرأة منقطعة النظير ببقائه في مكة حيث لم يعد يحظى بحماية عمه أبي طالب كبير بنى هاشم الذي انتقل كما رويناه إلى الرفيق الأعلى .

وأدركت قریش خطورة ما وقع من تطور وهالهم أن المسلمين أخذوا يقيمون في يثرب الآن مجتمعا متلاحم الوشائج خارجا على نفوذهم وبعيدا عن متناول أيديهم ، وأنهم شرعوا يكسبون الانصار إلى جانبهم من أبناء القبائل الأخرى الذين قد يتحولون إلى معاداة قریش ، واجتمع كبار القوم في دار الندوة يتشاورون في أمر محمد . ورأى بعضهم أن محمدا هو سبب كل ما يواجهونه من متاعب وإن من الخير لهم لو تخلصوا منه في أسرع وقت ممكن قبل أن يتمكن من اللحاق بأصحابه في يثرب . واعد أبو جهل عم النبي (٢) والذي كان قد خرج على بنى هاشم أبان المقاطعة وكان من أشد خصوم النبي واعدائه خطة لقتل النبي والحلاص منه . واقترح أن تختار كل قبيلة من قریش شابا من فتياتها ، وإن يشترك هؤلاء جميعا في قتله ليتفرق دمه في القبائل كلها فلا يستطيع بنو هاشم حرب القبائل مجتمعة ثارا لمحمد ووصلت أنباء المؤامرة إلى مسامع النبي فخرج من داره إلى أبي بكر ، وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابته إليها ثم هيبا ما يلزم لهذا السفر . وأمر

(١) ليس هناك أي تأكيد لادعاء المؤلف بأن نفرا من المسلمين قد ارتدوا عن الدين

في هذه الآونة .

( العرب )

(٢) يمر جلوب على خطته الكبير في الخلط بين أبي جهل وأبي لهب وتسمية الأول

( العرب )

بعم النبي .

النبي ابن عمه عليا وكان قد بلغ الآن العشرين من عمره بأن يتسجى ببرده وان ينام مكانه لتلا يرتاب أحد في وجوده بيته ٥ وعندما جن الظلام خرج النبي وصاحبه أبو بكر من خوخة لابی بكر في ظهر بيته وراحا يتسلقان الصخور في بطن الجبل المسمى بجبل ثور ، والواقع بأسفل مكة حيث قررا أن يلجئا الى غار هناك يقيمان فيه حتى تهدأ الضجة وتعدل قريش عن طلبهما . وكان أبو بكر قد أعد للامر عدته وأمر ابنته أسماء أن تأتي اليهما بالطعام في كل مساء بعد ان يجن الدجى كما أمر ابنه عبد الله بالبقاء في مكة يتسمع لهما الاخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر واتماما للخطلة امر مولاه بأن يرمى غنمه نهاره مارا بها أمام الغار ليعفى اثر عبد الله وأسماء ، وهما في غضون ذلك راحلتين على استعداد في كل لحظة للسفر . وحمل أبو بكر وهو التاجر الحصيف معه كيسا من النقود أما محمد فلم يحمل معه شيئا لأنه لا يحسب للمال أى حساب . وكان الرجلان من أبناء المدينة ولا علم لهما بالصحراء ودروبها ، ولم يكن من السهل عليهما أن يعرفا طريقهما الى المدينة إلا اذا اتبعا طريق القوافل المالوف ولهذا قرر أبو بكر أن يستأجر دليلا يرشدهما الى الطريق وهو من الذين سبق لهم التعامل مع أبى بكر وان كان من المشركين .

ولم يكد رجال قريش يسمعون بفرار محمد حتى هاجوا وماجوا وبشوا بالرسل في طلبه الى كل مكان وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتا مائة ناقة . وكان في مكنة العائلة البدوية الواحدة ان تعيش على خمس نياق ، ولهذا كانت الجائزة كافية لخمس أسر . ولم يكن المكيون أنفسهم خبراء في الصحراء ومسالكها ومجاهلها بحيث يستطيعون القيام بالبحث عنه بانفسهم . واستمرت ضجة البحث ثلاثة ايام بلياليها . وجاء عبد الله ابن أبى بكر في نهاية اليوم الثالث ينبئهما بأن الطلب في أثرهما قد هدا وان في مكنتهما أن يبادرا بالرحيل فأمره أبوه بأن يأتى بالراحتين في اليوم التالى .

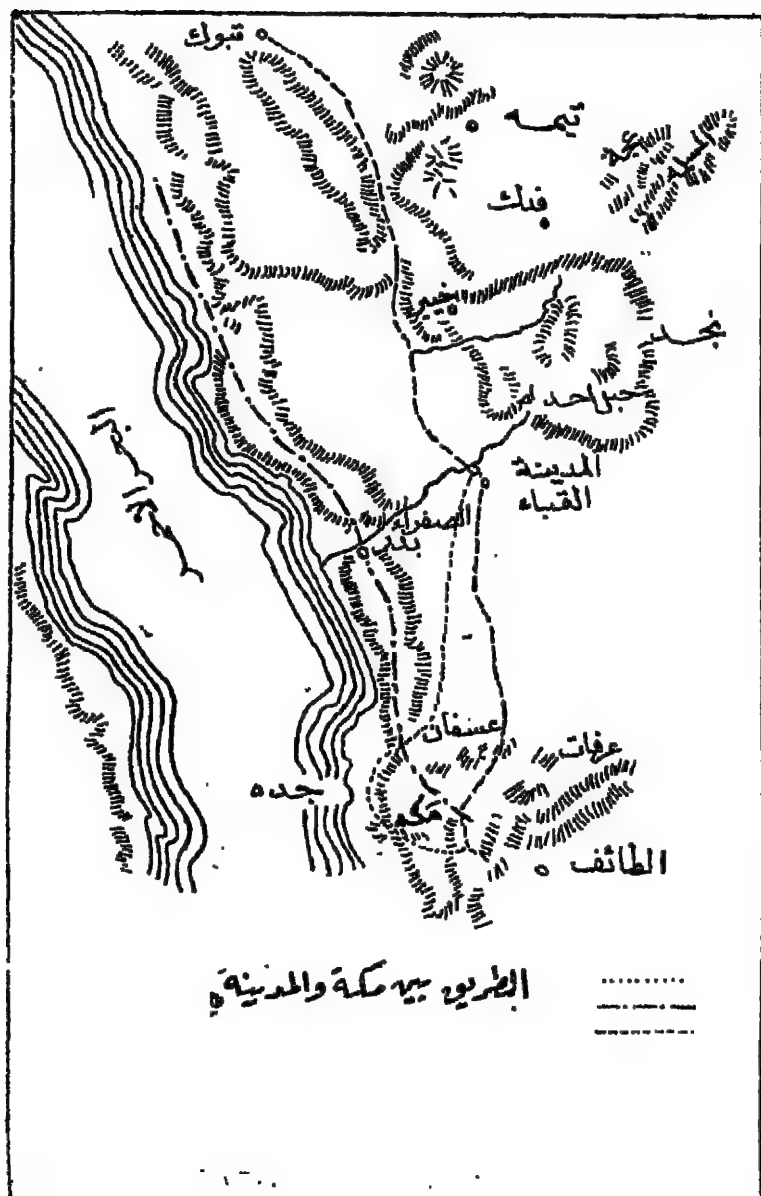
ووصلت ثلاث رواحل فى المساء التالى بعد أن جن الليل الى فتحة الغار وكانت أسماء قد حملت معها بعض الطعام وحزمته الى احدى الرواحل بنطاقها وامتطى الدليل بعيره . وحمل أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة خلفه واستقل النبي البعير الثالث . ومضى الركب فى طريقه يهبط مع الجبل نحو الساحل، وقد سار الدليل فى المقدمة وبعد مسيرة طويلة نحو الغرب تحرك الركب نحو الشمال مع الساحل ليعود من جديد فيقطع طريق القوافل عند عسفان ويتبع طريقا غير مطروق عبر التلال . ويقال ان فارسا

من العرب قد تمكن من اللحاق بالركب • وكان يطارده طمعا فى الجائزة التى رصدتها قريش ولكن النبی ورفيقه تمكنا من اقناعه بعدم افشاء طريقهما الى قريش • على أى حال لم تكد أنباء الطريق التى سلكها الركب تصل الى مسامع قريش حتى كان النبی وصاحبه قد أصبحا فى نجوة من المطاردة •

وكانت أنباء خروج الرسول من مكة قد حقيقته الى المدينة ولم يكن المهاجرون قد عرفوا بأمر اختفائه فى الغار أربعة أيام فلما انتهت المدة التى قدروها لوصوله الى المدينة ولم يكن قد وصل بعد عمهم القلق • وكانوا يخرجون فى كل يوم فيرتقون الجبل الى الجنوب من المدينة يتطلعون بلهفة الى الافق البعيد فى الطريق الداهب الى مكة يحرقهم الشوق الى رؤية الركب • وما كانوا ليعودوا الى المدينة الا فى الهاجرة عندما يشتد وهج الشمس ويكثر السراب قاطعا الرؤية الى مسافات بعيدة • وبعد ظهر الثامن والعشرين من يونيو ( حزيران ) عام ٦٢٢ ميلادية (١) قطع المسافرون المجهدون المرحلة الأخيرة عبر الجبال الصخرية الجرداء التى تغطى سفوحها فى هذا المكان صخور بركانية سوداء لانبات فيها ولا طير ولا عشب ولا شجر •

وعندما اجتازوا أخيرا المضيق امتدت أمامهم مناظر وروى مختلفة كل الاختلاف فبدلا من مكة القاحلة التى الفوها بشعابها الصخرية الجرداء رأوا أمامهم يثرب وقد أحاطتها الآبار والينابيع وأبصروا بواد تقع فيه المدينة وقد اكتظت فيه أشجار النخيل وامتسدت على مرأى البصر الحقول المزروعة الخضراء تبعث الراحة فى النفس والطمأنينة الى البصر بعد أن كاد يعشى من وهج الصحراء • وامتدت فوق ذلك الوادى الواسع مساكن لا عد لها ولا حصر تقع فى مجموعات تقيم فى كل مجموعة منها تكاد تشبه القرية القائمة بنفسها عشيرة من العشائر التى تؤلف أهل المدينة • وقد أحاطت كل منها قريتها بالحصون والقلاع المبنية من الحجر والطين • ولا ريب فى أن هذا الوادى الخصيب يوحى بعد الصخور المحرقة والقمم الجرداء السامقة بالوفرة والامن والطمأنينة والرضا • ومضت القافلة الصغيرة خبيا الى قباء ، الواحة الأولى من واحات يثرب كانت المدينة مأهولة عندما هاجر اليها النبی بقبائل عدة منها العربية ومنها اليهودية • ( أرى من الاسهل التمييز بينها على هذا النحو ، وأن كان من يدعون باليهود قد لا يخرجون عن كونهم عربا تحولوا الى

(١) يجمع مؤرخو العرب على أن وصول النبی الى المدينة كان يوم الجمعة فى الثانى عشر من ربيع الاول المصادف ٢٤ سبتمبر ( ايلول ) عام ٦٢٢ ميلادية .  
( العرب )



اليهودية ) . وكان اليهود ينقسمون الى ثلاث قبائل تعمل الثنتان منها في الزراعة وتعيش على زراعة النخيل والحبوب أما الثالثة فتضم فنيين يعملون في صياغة الذهب والفضة وصناعة الاسلحة . أما العرب فكانوا قبيلتين ، الأوس والخزرج ولم تكن قد انقضت أربع سنوات على توقف الحرب بينهما ليحل محلها السلام وليصبح للقبيلتين رئيس واحد هو عبد الله بن أبي يتولى قيادتهما وزعامتهما معا .

وهكذا كان عبد الله بن أبي عند وصول الرسول أقوى زعيم عربي في واحة يثرب كلها ويبدو ان ابن أبي هذا لم يعترض على مجيء النبي في البداية اذ كان مهاجرا لا حول له ولا طول . وعلى الرغم من أنه ينتمي الى الخزرج فلقد رفض عندما نشبت الحرب بينها وبين الأوس ان يشترك مع قبيلته وظل يعمل من أجل السلام والتفاهم ، ولا ريب في ان الشهرة التي اكتسبها بحياده واعتداله هي التي اقنعت القبيلتين بقبوله رئيسا لهما معا . ولكن عبد الله هذا ما لبث ان وجد نفسه بعد ان اخذ نفوذ النبي في التزايد والقوة وقد انتقل الى مرتبة ثانوية . ومن المحتمل ان تكون الغيرة قد لعبت دورها في نفسه . ولكن الشيء الثابت ان حقدًا خفيا تولد في نفسه على المسلمين وعلى الرغم من أنه تحول الى الاسلام بعد قليل الا ان النبي كثيرا ما ساورته الشكوك فيه وبأنه ينشر الشائعات والدسائس ضد المسلمين . ويبدو ان الاشارات الكثيرة عن المنافقين التي وردت في أوائل السور القرآنية المدنية انما كانت ترمز الى عبد الله ابن أبي ومؤيديه .

ولم تجهر قبائل اليهود بعدائها للنبي منذ بداية الامر ولا سيما أن محمدا كان قد أعلن أن العقيدة التي يبشر بها ويدعو اليها ليست الا ملة ابراهيم حنيفا . وكان المسلمون حتى تلك الساعة يتوجهون في صلاتهم الى القدس ، كما كان النبي ميلا كل الميل الى التواد معهم ولذا فقد عقد معهم اتفاقا يقضى بالتعاون المتبادل .

وعم الفرع المهاجرين بوصول النبي سليما معافي وهو فرح سرعان ما اشترك فيه عرب الأوس والخزرج الذين كان معظمهم لا يزال على الشرك . ولم يكن في وسع اليهود ان يرفضوا ايواء المسلمين في يثرب فحق الجار في المنعة والحماية حق مقدس يفرضه الشرف على جميع القبائل العربية . وانتشرت الانباء السارة بوصول النبي سالما كالبرق بين المهاجرين والأنصار . وهرع الناس من كل فج والفرحة تملو وجوههم يهتفون بصوت واحد . . . . «لقد أقبل . . . . لقد أقبل» وانتقلت هذه العبارة من شفة الى شفة وكأنها الرسالة السحرية .

وعلى الرغم من هذا الاستقبال الودى والسعيد فان الرسول كما يبدو كان على علم بطبيعة وضعه الغريب فى المدينة ولم يكن عدد المهاجرين يربو على السبعين رجلا . أما عدد الانصار من أهل المدينة فكان يزيد على عددهم . وكان معظم المهاجرين لا يملكون شيئا فقد نجوا من بلدهم بجلودهم مخلفين ورائهم كل ما يملكونه . وقد يقع الاحتكاك بسهولة بين الجماعتين ، ورغبة من محمد فى عدم وقوع أى خلاف آخر بين المهاجرين والانصار كتب عهدا بينهم كما كتب عهدا للمجتمع الاسلامى الجديد أكد فيه أن جميع المسلمين يؤلفون جماعة واحدة وان على كل مسلم أن يقف الى جانب أخيه المسلم والانىصر مشركا عليه . وعنى هذا التنظيم الغاء العصبية العائلية والقبلية القوية وان يستعاض عنهما بتضامن يشمل المجتمع الاسلامى كله .

وابتاع أبو بكر بأمواله بعد أيام بستانا من بساتين النخيل على مقربة من وسط الواحة . وبدأ العمل فى بناء المسجد وبناء دار ( لا نعتقد أنها أكثر من مجرد بيت صغير عادى ) يقيم فيها الرسول . وراح المهاجرون والانصار يعملون معا فى بناء المسجد وهم ينشدون وهم يضعون الطوب واحدة فوق أخرى وعلى رأسهم النبى وقد تعالى انشادهم قائلين : اللهم لا عيش الا عيش الآخرة . . . اللهم أرحم الانصار والمهاجرة .

وأراد محمد أن يضرب المثل لرجاله فشرع ينشد معهم ويشترك فى البناء ويتولى على بن أبى طالب قيادة الجمع فى النشيد .

والحداء عند العرب أثناء العمل كأغاني البحر عند الملاحين ، عادة قديمة قدم التاريخ كله . ويبتكر كل واحد من الذين يعملون بيتا ينشده فيرده الآخرون معه وكأنهم أفراد جوقة موسيقية الى أن يقوم آخر فيطلع ببيت جديد ينتقل اليه المنشدون ولا ريب أن كل من رأى جماعات من العمال العرب ينشدون ابان ادائهم العمل يستطيع ان يتخيل أو يتصور هذا المنظر الجميل .

وكان النبى ذا مزاج رقيق ومولعا باطلاق النعوت والاسماء ولذا فقد أطلق على مسلمى المدينة اسم الانصار وعلى لاجئى مكة اسم المهاجرين وقد قدر لهذين الفريقين اللذين لم يرب عدد أفرادهما على بضع مئات أن يؤلفا ولعدة قرون الطبقة الارستقراطية فى الاسلام وان تتردد أسماءهم على كل شفة ولسان فى العالم الذى يضم ملايين المسلمين .



ولم يمض طويل وقت على وصول النبي الى المدينة حتى كان يبني بعائشة ابنة صديقه أبى بكر الذى رافقه فى هجرته من مكة ، وتقول كتب التاريخ العربى : انها كانت فى التاسعة من عمرها عندما تزوجها النبي وكان فى الثالثة والخمسين . وقد تزوج الرسول قبل وفاته بأحدى عشرة امرأة لكن هذه الحقيقة يجب ألا تعزى مطلقا الى ان النبي كان مغرقا فى حياته العاطفية فلقد ظل خمسا وعشرين سنة الزوج الوفى المخلص لامرأة واحدة هى خديجة مع أنها تكبره سنا وانما لأسباب أخرى بعضها سياسى وبعضها شخصى ، فلقد كانت عائشة هى الشابة الوحيدة التى اختارها . أما الباقيات فكن أرامل . وقد اختارهن الرسول كما يبدو لدوافع سياسية لتوثيق الصلات بينه وبين الاسر التى ينتسب اليها . وتظهر الحقيقة الواقعة وهى أن معظم زيجاته قد تمت فى خمسينات حياته ، ان من الدوافع أيضا رغبته فى أن تلد احدهن له ولدا يظل على قيد الحياة اذ من المعروف عنه انه كان مولعا بالاولاد .



وكان النبي قد أظهر طيلة الاثنى عشر عاما التى انصرفت منذ بلده الرسالة فى مكة درجة غير عادية من الصبر والاحتمال لكل ما وجه اليه من أذى وسوء معاملة . . أما الآن فقد تحولت طبيعته تمام التحول . وراح يقول للمسلمين ان الوحي قد أمره بفرض الجهاد على المسلمين ضد المشركين . وكان موقع المدينة من الناحية السوقية (الاستراتيجية) يمكنها من أن تكون قاعدة صالحة للعمليات الحربية ضد مكة .

ولقد سبق لى أن أوضحت ان مكة كانت تعيش فى هذا الوقت بالذات على تجارة القوافل بين اليمن وسوريا أما أهل المدينة فكانوا يعيشون حياة مغامرة تماما لحياة أهل مكة : اذ بينما تقوم المدينة الاخيرة فى واد ضيق تحرقه أشعة الشمس اللاهبة بين سلاسل التلال الصخرية الجرداء من كل نبات ، كانت المدينة تقبع فى منخفض أوسع ترويه مياه الآبار وكان أهلها يعيشون على ما تنتجه حقولهم الخضراء وبساتينهم فى حين كان أهل مكة القاحلة يعيشون على مغامراتهم التجارية التى تمتد الى مسافات بعيدة .

ولقد وقع حادث بعد وصول النبي الى المدينة يشرح لنا شرحا وافيا جهل أهل مكة بالمشئون الزراعية . فالمعروف ان أشجار النخيل على نوعين منها الذكر ومنها الانثى . ويتسلق الزارع فى كل عام الشجرة الذكر فيأخذ منها لقاحها ليطعم به الأشجار الاناث . ولم يكن النبي قد سمع

بهذه العملية من قبل وعندما وصل الى المدينة راح يأمر بمنعها وبالطبع لم تثمر أشجار أولئك الذين أطاعوا أمر الحظر مما دعا النبي الى الغائه والاقرار بعدم معرفته بالشئون الزراعية (١) .

وتتألف السواحل الغربية للجزيرة العربية من سهل ساحلي يضيق عرضا ويتسع طولا وتقوم وراءه سلسلة من الجبال الجرداء ذات القمم العالية تقوم وراءها هضبة نجد الفسيحة الواسعة التي تمتد نحواً من ستمائة وخمسين ميلاً لتتجه شمالاً الى سوريا على طول الطريق الممتد في وكانت قوافل المكيين تتجه شمالاً الى سوريا على طول الطريق الممتد في السهل الساحلي ماراً بين المدينة وساحل البحر الأحمر وهي فجوة لا يتسع عرضها أكثر من ثمانين ميلاً . ومن هنا كان مسلمو المدينة على مرهمي تستطيع القوات الضاربة استخدامه لقطع شريان الحياة التجارى الممتد بين مكة وسوريا .

وكانت الخطط السوقية التي اتبعتها النبي بين عامي ٦٢٣ و ٦٣٠ هي عين الخطط السوقية التي اتبعتها فيصل ولورنس في الحملة بين عامي ١٩١٦ ، ١٩١٨ . فلقد احتفظ الاتراك في الحرب العالمية الاولى بحاميات ضخمة في مكة والمدينة وكانت هذه الحاميات تعتمد في بقائها لا على قوافل الابل بل على الخط الحديدي بين المدينة ودمشق . وقد عزز الامير فيصل ولورنس مواقعهما الى الشمال من المدينة حيث كانا في وضع يمكنهما من قطع شريان حياتها مع سوريا .

لكن عمليات النبي العسكرية لم تبدأ على الفور على أى حال . فلقد انقضت ستة أشهر على الأقل قضاهما محمد في توطين المهاجرين في المدينة وفي تثبيت مكانته الشخصية بين أهلها .

لكن بعض المهاجرين كانوا قد أصبحوا في غضون ذلك في أمس الضيق والحاجة ، وكان بعضهم قد ترك أهله في مكة ولم يكن يجد مكاناً يأوى اليه لينام الا في ساحة المسجد المكشوفة . وكان عدد منهم يعمل لحساب أهل المدينة وإن كانوا كما ذكرنا من قبل يجهلون كل ما يتعلق بالشئون الزراعية . وقد أحس النبي نفسه بما يعاينه اتباعه من ضيق وجوع . وكان في استطاعته بالطبع أن يحيا حياة أسعد ولكنه لم يكن

---

(١) لم ترد هذه القصة الا في كتاب واحد من كتب التاريخ الاسلامي في حين لم نشر اليها كتب السيرة الصحيحة ، مما قد يوحي باختلافها من قبل بعض الشعوبيين الذين تظاهروا بالاسلام ليحاولوا الفساد .  
( العرب )

ليرغب في أن يعيش في رخاء ودعة في حين أن أتباعه يتضورون جوعاً • ولقد ذكرت عائشة بعد سنوات طويلة أن بيت النبي كان يخلو اسبوعاً بعد اسبوع من الحطب اللازم لاشعال النار كما لم تكن هناك حاجة الى اشعال النيران اذ لم يكن في البيت ما يصلح لان يطهى وكان غذاؤه وأهل بيته التمر والماء •

وكان الغزو بالنسبة الى العرب وسيلة طبيعية للخلاص من العوز • ولقد تولت القيام بالغزوات الصغيرة الاولى جماعات صغيرة من المهاجرين • ولم يشترك أهل المدينة في هذه المشروعات لكن أهل مكة والمدينة على السواء لم يكونوا قد ألفوا العمليات الحربية • وهى العمليات التى يقضى فيها البدو الرحل أوقات فراغهم • ولا تعرفها الجماعات التى تعمل فى التجارة أو الزراعة • لكن أيا من الغزوات الاولى لم تحقق نجاحاً مذكوراً فلقد كانت أنباء الحملة تصل الى قريش قبل وقوعها فى حين كانت الانباء التى تصل الى المسلمين اما متأخرة أو مفتقرة الى الدقة • وفى خريف عام ٦٢٣ ميلادية مرت قافلة كبيرة تضم نحواً من ألف بغير حملة بالبضائع التى تملكها قريش ويتولى قيادتها أبو سفيان أحد كبار أعداء النبي فى مكة قاصدة الشمال الى غزة • وقد حاول المسلمون قطع الطريق عليها فى ذهابها ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك •

ولكن بينما كان رجال مكة والمدينة يعيشون فى هاتين المدينتين كانت الصحراء الفسيحة المكشوفة مأهولة بقبائل متفرقة من البدو وتعيش على الرعى • وبدأ النبي يدرك ان مساعدة هؤلاء البدو ضرورية لنجاح حملاته الصحراوية ولذا فقد شرع بصورة تدريجية يقيم علاقات معهم ولا سيما مع قبيلة جهينة التى كانت تقيم آنذاك كما تقيم اليوم بين المدينة والبحر •

وكان من المتوقع فى يناير ( كانون الثانى ) عام ٦٢٤ ميلادية أن تمر قافلة أبى سفيان على مقربة من المدينة فى طريق عودتها من الشمال وقرر النبي أن يضع يده عليها • ولكن خطة النبي سرعان ما عرفت ووصل التحذير الى أبى سفيان وهو على مقربة من الزرقاء ( فى شرق الاردن على بعد ١٠٠ ميل الى الجنوب من دمشق ) فى طريق غودته من سوريا • وسرعان ما أوفد أبو سفيان رجلاً الى مكة يستنفر قريشاً الى حمل السلاح ويطلب اليهم أن يرسلوا قوة للاقائه على مقربة من المدينة تتولى حراسة القافلة وحمايتها من الخطر •

وفي الثامن من يناير (١) (كانون الثاني) عام ٦٢٤ ميلادية خرج محمد على رأس قوة قوامها (٣١٤) رجلا منهم ثمانون من المهاجرين ومائتان وأربعة وثلاثون من الانصار من المدينة لقطع الطريق على القافلة . وكان المسلمون على درجة من الفقر بحيث لم يستطيعوا توفير أكثر من سبعين بعيرا وجوادين لاستخدامهما في الحملة ففي آمامد الصحراء الفسيحة لم يكن في وسع المحاربين أن يقاتلوا راجلين وكان الافتقار الى الحيوانات يحد كثيرا من قدرتهم على الحركة .

وعندما وصل النبي بجيشه الى الصفراء التي تقع على بعد ستين ميلا الى الغرب من المدينة أوفد رجلين من عيونه يستطلعان أحوال الآبار في بدر على طريق القوافل الى سوريا وهي الطريق التي لابد لقافلة أبي سفيان من سلوكها . وسمع الرجلان من بعض النسوة وكن يملأن الجرار من البئر بأن من المتوقع وصول قافلة كبيرة في اليوم التالي فعادا بسرعة الى النبي ينقلان اليه ماسمعاه ليتمكن من نشر قواته قبل الموعد المنتظر .

وبينما كان محمد على بعد خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الشرقي من بدر ينتظر وصول كشافيه وتقريرهما كانت قافلة أبي سفيان على بعد مماثل من الآبار الى الشمال الغربي وكانت تسير ببطء نحوها مصحمة على الوصول اليها للسقاية من مائها . لو واصل الفريقان سيرهما على النحو الذي كانا يسيران فيه آنذاك لالتقي المسلمون بالقافلة المكية على الآبار في اليوم التالي . ولكن أبا سفيان كان قائدا مجربا ومحنكا للقوافل . وكان القلق قد استحوذ عليه اذ لم تصل اليه أنباء من الرجل الذي أوفده ولا عن الحامية التي طلبها من مكة لتتولى حراسته وأيقن ان الساعات الاربع والعشرين القادمة ستكون حرجة كل الحرج وخطرة كل الخطورة . وكانت بدر أقرب نقطة الى المدينة على الطريق التي يسير فيها . فقرر أن يمضي قبل القافلة الى بدر ليستطلع الوضع بنفسه . وعندما وصل الآبار وجد شيخ جهينة القبيلة البدوية التي تقيم في الناحية فسأله عما اذا كان قد رأى غرباء في المنطقة ورد البدوي بالنفي قائلا انه لم ير سوى رجلين على ناقتيهما غادرا المكان قبل قليل بعد أن وردا البئر . وترجل أبو سفيان عن ناقته كما يفعل أي مسافر في الصحراء ومشى حذرا الى البئر متطلعا الى الارض بامعان الى أن عثر على آثار البعيرين

---

(١) يقول الاستاذ الخضرى طبقا لتقويم محمد مختار الحدى ان خروج النبي من المدينة كان في الخامس من مارس ( آذار ) عام ٦٢٤ . ( الحرب )

وهذاه بحثه الى العثور على بعض روئهما ففركه بين أصابعه ووجد بعض نوى التمر فيه وسرعان ماميزه بأنه من أنواع التمر التى يثمرها نخيل المدينة . فلقد كان يعرف أن ليس فى البدو من يطعم بعيره تمرا . وقرر على الفور أن الرجلين لابد وأن يكونا من أهل المدينة وانهما من عيون محمد . الذى لابد وأن يكون قد نصب كمينه على مقربة لاصطياد القافلة . وراح أبو سفيان يمتطى بعيره ليغذ به السير عائدا الى قافلته التى تدب فى طريقها الى بدر ليلقاها قبل أن تصل .

وكان الرسول الذى أوفده أبو سفيان من سورية الى قريش قد وصل الى مكة وان لم يعلم بوصوله محمد أو أبو سفيان . وكان أهل مكة قد فزعوا على أموالهم فراحوا الى سلاحهم ينتصونهم والى ابلهم يركبونهم ليسرعوا الى انقاذ القافلة وخرجت من مكة قوة تضم سبعمائة وخمسين رجلا من راكبي الابل ومائة من الفرسان المدرعين بالزرد (١) وراحت هذه القوة تغذ سيرها على طريق القوافل الى بدر قادمة من الجنوب وهكذا كانت الفئات الثلاث تتقدم الى المكان نفسه والواحدة منها لاتعرف شيئا عن الاخرى .

والتقى أبو سفيان الداهية بقافلته على بعد بضعة أميال الى الشمال من بدر وأمر بتحويل اتجاهها غربا نحو الساحل وأخذ بعد ذلك يتابع السير فى الليل والنهار دون توقف مارا على بعد اثنى عشر ميلا الى الغرب من بدر ومتجها الى الجنوب بأقصى ما أمكنه من سرعة الى أن غدا فى نجوة من الخطر .

وبينما كانت القافلة تغلح فى الافلات من الخطر كانت قوة النبى المؤلفة من ثلثمائة رجل يتناوبون الركوب على السبعين بعيرا التى ترافقهم تتقدم ببطء نحو بدر انتظارا لوصول القافلة الضعيفة الحراسة اذ لم يكن يتولى حراستها أكثر من ثلاثين رجلا يواجهون ثلثمائة محارب من المسلمين ، ولكن قبل أن يصل المسلمون الى بدر قابلوا بعض المسافرين الذين أبلغوهم ان قوة من قريش تضم نحو من ألف رجل هى فى طريقها لانقاذ القافلة . وكان هذا أول نبأ وصل الى النبى عن أن قريشا قد استنفرت رجالها لحماية قافلته المعرضة للخطر . وفزع النبى من هذه الأنباء ولا سيما أنه لم يكن قد عرض ولاء مسلمى المدينة لمحك التجربة

---

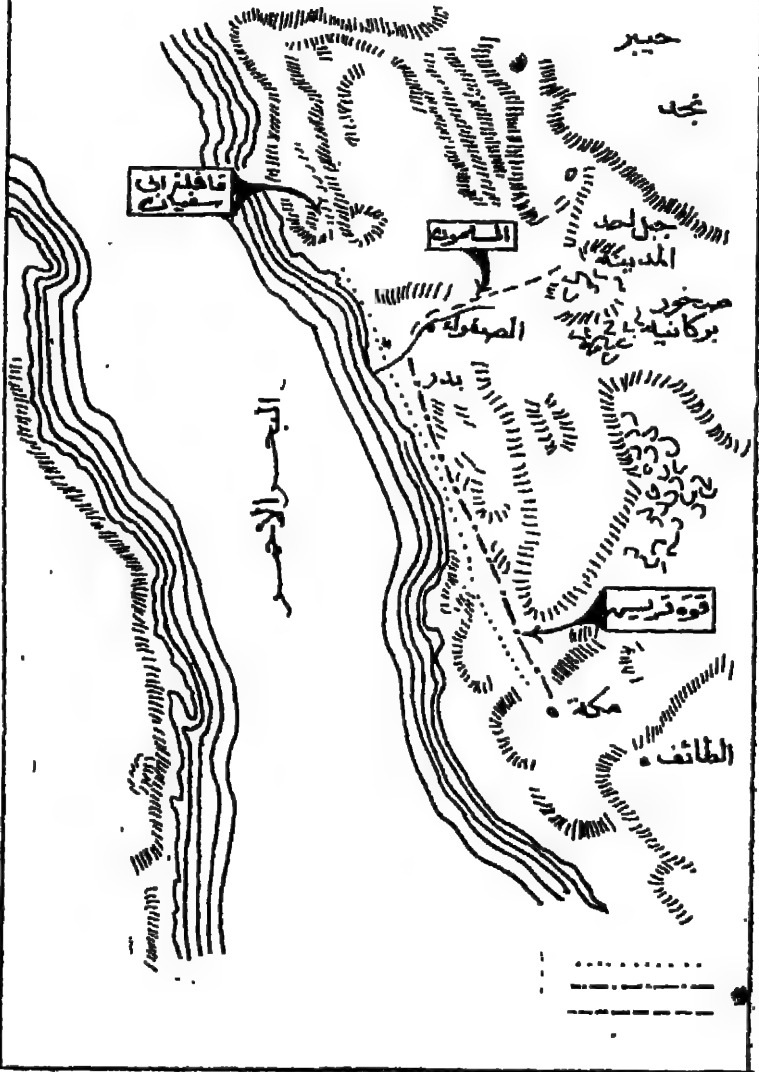
(١) قدرت كتب التاريخ العربى عدد محاربى قريش بألف ما بين فارس وهجنان .  
( العرب )

العملية بعد فعقد مجلسا عسكريا للتشاور فى الامر فأيدوا جميعا رغبتهم فى المضى الى القتال .

وعندما اقترب النبى من بدر أوفد على بن أبى طالب على رأس جماعة من الكشافين لاستطلاع الوضع فلما وصلوا البئر باعثوا رهطا من قريش كان يستقى الماء . وقال لهم هؤلاء ان رفاقهم قد وصلوا فى هذه اللحظة الى مسافة بضعة أميال فقط من البئر وانهم يقيمون على خط وراء التلال الرملية القريبة وهكذا وجد المسلمون أمامهم بدلا من القافلة الكبيرة المغرية بثرواتها العظيمة قوة عسكرية تبلغ ثلاثة أضعافهم . ورابط المسلمون على أقرب بئر من العدو ضامنين لانفسهم السقاية من الماء ، ومانعين الماء عن قريش . وتراعى الجيшان ولم يكن من الحرب بد فى الصباح التالى وكان لا بد للقوة المسلمة الصغيرة من أن تخوض المعركة مع قريش ، وسلمت راية المعركة بالنسبة الى المهاجرين الى مصعب بن عمير الرجل الذى كان النبى قد أوفده الى المدينة قبل سنتين لتعليم مسلميها الدين الحنيف . أما راية الخزرج فقد حملها الحباب بن المنذر فى حين حمل سعد بن معاذ من زعماء الأوس راية قومه .

وانتشر الاضطراب فى غضون ذلك فى معسكر قريش . وقد سبق لى أن أوضحت ما للعصبية القبلية من أثر عند العرب وبينت أن محمدا كان يلقي الحماية وهو فى مكة من بنى هاشم على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا لا يزالون من المشركين . وكان رسول أبى سفيان قد وصل الى مكة ليقول لاهلها ان القافلة قد أضحت فى نجوة من الخطر وانها تغدو السير فى طريقها الى مكة . وأشاد عدد كبير من القرشيين بالتراجع بدلا من أن يسفكوا دماء أبناء عموماتهم من المهاجرين . ولم تكن قوافل مكة التجارية ملكا خاصا للتجار الاثرياء فلقد كان فى وسع كل رجل من أبناء المدينة يستطيع أن يؤمن مبلغا من المال مهما صغر هذا المبلغ ، ان يبعث به مع أحد الموثوق بهم من أصحاب القافلة على أمل استثماره فى صفقة تجارية رابحة . وهكذا فان أى تهديد للقافلة يعنى تعريض كل ما وقره المكيون جميعا من أموال للخطر . أما وقد أصبحت ثروتهم الآن فى مأمن من الخطر فلم يعد هناك أى مبرر للقتال . فالمهاجرون الذين لحقوا بالرسول ينتمون الى جميع عشائر قريش وبطونها . ومن هنا كان تردد القرشيين فى خوض معركة لا ضرورة لها وتسفك فيها دماء اخوانهم وأولاد عموماتهم . لكن الفريق المؤيد للقتال ما لبث أن تغلب على المترددين وذلك بفضل

# موقعة بدر



ما أبداه أبو جهل عم النبي (١) من اصرار ومن حماسة في حديثه ،  
لمحاربة المسلمين .

وهكذا تقدمت قريش الى المعركة وهي موزعة بين الاقبال والاحجام  
كما أن بنى زهرة اخوال النبي رفضوا القتال وعادوا الى مكة . أما نفسية  
المسلمين فكانت على النقيض من ذلك تماما فلقد كان المهاجرون يائسين ،  
تخلوا عن كل مايملكونه في مكة ولا يحملون الا سيوفهم ، يضاف الى هذا  
ان المسلمين تخلوا عن العصبية القبلية والعائلية التي تربطهم بعد أن  
أكد لهم النبي ان المسلمين هم اخوانهم فقط فالخوف من سفك دماء الاقرباء  
وهي النزعة التي كبححت جماح قريش وحدث من اقبالهم على المعركة ، والتي  
لا تزال مهيمنة على عقلية البدو من العرب حتى اليوم لم تكن معروفة  
عند المسلمين الاول ، الذين قيل أن بعضهم قتلوا آباءهم أو اخوانهم اذا  
كانوا من المشركين . يضاف الى هذا أن تعودهم الوقوف في صفوف  
منتظمة خمس مرات في اليوم لاداء فريضة الصلاة مؤتمنين بقائدهم قد  
أوجى الى عقولهم الباطنة بشيء من الانضباط ومن الروح العسكرية المنظمة .  
يضاف الى هذا أن المهاجرين والانصار كانوا تحت تأثير حمية دينية طاغية  
وهم يشهدون قائدهم محمد وسطهم يشترك معهم في القتال (٢) .

وكانت التلال العالية تقوم الى الشمال والشرق من الوادي الذي يضم  
آبار بدر . اما الى الجنوب فتقوم نتوءات صخرية تحد من الرؤية وتضيق  
من نطاق المجال للمناورة في حين كان هناك الى الغرب حيث تنحدر الارض  
باتجاه البحر سلسلة خفيضة من التلال والكثبان الرملية التي تغلق  
الوادي . وتقدم المكيون ثوق هذه الكثبان باتجاه المسلمين الذين وقفوا  
في صفوف أمام الآبار يرفعون راياتهم القبلية الثلاث . وكان أبناء عبد الدار  
وفقا لتقاليد قريش يرفعون رايات المكيين في قلب الجيش وجناحيه .  
وعندما ظهر جيش المكيين من وراء الكثبان دعا النبي ربه طالبا نصرته على  
أعدائه وأعداء رسوله الذين ينكرون رسالته ويحاربون كلمة الله .  
ويبدو لي أن من التشويه للحقيقة عند الحديث عن هذه المعارك

(١) اصرار جديد من المؤلف على جهله وتسميته أبي جهل بعم النبي . مع انه لا تربطه  
به اية رابطة سوى رابطة القرابة في قريش . (المغرب)

(٢) يبدو لي أن المؤلف اراد التأكيد على قوة العصبية القبلية عند قريش ليظهر  
قريشا بمظهر العاثر من القتال المتردد فيه رغبة منه في تقليل أهمية النصر العسكري  
الذي حققه المسلمون في هذه المعركة الفاصلة في التاريخ الاسلامي وان كان لرايه بعض  
الامر لو كان صحيحا . لكن كتب السيرة والتاريخ الاسلامي أكدت ان قريشا اقبلت على  
المعركة بحماسة متقطعة النظر وتصميم على قتال المسلمين . (المغرب)



الاسلامية الاولى أن نتكلم كما تكلم بعض المؤرخين الاوربيين بلغة الجيوش والقادة العسكريين والجنود . فلقد كان من المتوقع في الجزيرة العربية أن يحارب كل رجل في اوقات الطوارئ دفاعا عن قبيلته . أما في الاوقات التي لا أزمات فيها ولا طوارئ فليس ثمة من جنود نظاميين وليس ثمة من تدريب يعتبر ضروريا وكان المقاتلون يحاربون لا في سرايا أو أفواج وإنما في جماعات قبلية أو عشيرية يقود كل جماعة منها رئيس القبيلة أو العشيرة . وكانت المعارك تبدأ في العادة بمبارزات فردية بين أبطال المتحاربين تقف قوات الفريقين موقف التطلع اليها ومشاهدتها . وأخيرا يكر الفريقان في شكل هجوم ويقرر مصير المعركة في اشتباك عنيف ينطوي على عدد كبير من حالات الصراع بالأيدي وكان السيف هو السلاح الرئيسي في القتال ولكن المتحاربين كانوا يلجئون أيضا الى الأسنة والرماح وكانت النبال تؤلف نار التغطية كالمدفعية في يومنا هذا ، وكانوا يستعملون أيضا الحراب والرماح التي تقذف، وهي أسلحة قليل ان المرتزقة من أبناء القبائل البدوية التي كانت قريش تستأجرها لحماية قوافلها يؤثرونها(١) . أما الاسلحة الدفاعية فعالية التكاليف . وكان العرب يستوردونها من البلاد المتقدمة تقنيا كفارس وبيزنطة . وتتألف هذه الاسلحة عادة من خوذ فولاذية ودروع من الزرد مصنوعة من الحديد . لكن العرب بما كانوا عليه من فقر كانوا أعجز من أن يستطيعوا شراء الدروع والاسلحة الدفاعية .

وتقدم من صفوف القرشيين ثلاثة قادة هم شيبه وعتبة والوليد بن عتبة وتحدوا المسلمين أن يخرجوا اليهم ثلاثة لمبارزتهم، فخرجوا اليهم ثلاثة من الانصار ولكن محمدا أمرهم بالعودة وهتف بالمهاجرين طالبا أن يخرج اليهم ثلاثة من بنى هاشم . وتقدم ثلاثة كانوا مدرعين بالدروع أولهم حمزة عم النبي وثانيهم علي بن أبي طالب ابن عمه وربيبه وثالثهم عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه .

واشتبك الشبابان أولا ، علي والوليد ولم تمض لحظات على المبارزة حتى كان الوليد يسقط مضرجا بدماؤه بضربة سيف قاتلة من علي واشتبك حمزة عم النبي مع شيبه فضربه بسيفه ضربة بترته نصفين . أما عبيدة ابن الحارث البطل المسلم الثالث فكان قد أربى على الستين وتقدم منه عتبة فأصابه بسيفه في فخذه وأوقعه على الارض ولكن بعد أن أصيب

---

(١) كانت القبائل البدوية تسخر من قريش وتقول ان رجالها يغشون الخروج الى الصحراء دون حراسة مسلحة من قريش . ( العرب )

بجراح من سيف عبيدة • وهوى المتبارزان على الارض • فتقدم حمزة وعلى وأجهزا على عتبة ثم حملا عبيدة الى صفوف المسلمين حيث توفي متأثرا من جراحه (١) •

وكان النبي قد أصدر أوامره الى المسلمين بأن يثبتوا في مواقعهم حتى تهاجم قريش على أن يحرسوا على جناحيهم نظرا لان صفوف قريش كانت أطول من صفوفهم وذلك تحت حراسة الرماة ، وتقدمت قريش مهاجمة ، لكنها عانت من عدة عوامل ضعف تعبوية ( تكتيكية ) • فلقد ارتفعت الشمس آنذاك في كبد السماء وكانت تواجه المسكين المهاجمين وبينما تقطعت أنفاسهم وهم يخوضون الكثبان الرملية للوصول الى المسلمين كان هؤلاء ثابتين في أماكنهم وقد خلفوا الشمس وراهم • وكان الصباح عاصفا اثر مطرة ليلية شديدة وعندما أصبح الفريقان على وشك الالتحام هبت زوبعة رملية شديدة في وجوه المكين وهتف النبي بحماسة دافقة يقول ان الفا من الملائكة يقودهم جبريل قد هاجموا العدو •

وحمل وطيس القتال وامتلأ المكان بهتافات الحرب وصراخ المتحاربين وصليل السيوف ، وظلت المعركة معلقة في كفة القدر بعضا من وقت دون أن يضعف أحد الفريقين • وكان محمد قد أقام مع أبي بكر في عريش بناء له المسلمون في الليلة الماضية حيث راح يصلى الى الله مبتهلا اليه أن ينصر جنده ويعز دينه • وكان يردد القول بأن خسارة المسلمين تعنى انعدام من يعبد الله • وظل النبي يمد يديه متضرعا الى الله مناشدا اياه نصرته الى أن هوت عبادته من فوق كتفيه دون أن يحس بها • وهنا أمسك به أبو بكر قائلا : كفى يا رسول الله فلا بد أن يصدق الله ما وعده المؤمنين •

وخرج محمد مع أبي بكر من العريش يرقبان المعركة • • وكان يردد وعده للمسلمين بأن كل من استشهد اليوم دفاعا عن دين الله فمأواه الجنة • وكان هناك شاب يقف الى جانب النبي يلهو بأكل حبة من التمر فعندما سمع ماقاله النبي صرخ هاتفا • • أبينى وبين الجنة أن أقتل في المعركة ؟ وانتضى سيفه بعد أن قذف بما يحمله من تمر وهجم على صفوف قريش وظل يعمل فيهم قتلا الى أن استشهد متأثرا بجراحه . هذا هو الايمان المجرد البسيط الذي غمر المسلمين الاوائل •

---

(١) تختلف رواية المؤرخين عن رواية المؤلف • • فلقد ذكرت كتب السيرة أن عبيدة ومتبة اخلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه ثم حمل حمزة وعلى على حبة تقفزا عليه واحملا عبيده وهو جريح الى صفوف المسلمين • ( العرب )

وانحنى النبي على الارض يلتقط حفنة من الحصى وقذف بها في اتجاه العدو مبتهلا الى الله أن يوقع الارتباك في صفوفه . وبدأت قريش تترنح من شدة ضربات المسلمين فازداد هؤلاء حماسة وضراوة في هجومهم وأخذ العدو في التراجع . وكان من المحال أن يتم تراجع منظم من قبل قوات كهذه تفتقر الى نظام . وسرعان ما تحول التراجع الى هزيمة ساحقة . وقتل من قريش تسعة وأربعون وأسر المسلمون منهم عددا مماثلا (١) . وكان أبو جهل أشد أعداء النبي بين القتلى وبعث الرسول مولاة فقطع هذا رأس أبي جهل وعاد به الى النبي ليقدف به أمامه فهتف الرسول فرحا . . . وهذا رأس عدو الله . الحمد لله ولا اله الا الله .

وبلغت حماسة المسلمين حدا ضاريا حتى ان بعضهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب طالب الرسول بقتل الاسرى . لكن النبي أمر بإبقائهم على قيد الحياة طلبا للقدية ، وهو حل أكثر عملية من الذبح ، اذ أن المهاجرين كانوا في أشد حالات الفقر والضعف . وكان العباس عم النبي والذي صاحبه في بيعة العقبة بين الاسرى ولكن النبي أصر على أن يدفع أهله فديته . وأمر الرسول بدفن الموتى ثم عاد على رأس المسلمين تكلل هماماتهم أكاليل النصر الى المدينة .

وجدير بنا أن نذكر هنا ان بعض الاسرى شرعوا وهم ينتظرون الفدية من أهلهم في تعليم أهل المدينة القراءة والكتابة . وجدير بنا أن نذكر أيضا أن تجار مكة كانوا يرون في الكتابة على النقيض من مزارعي المدينة أمرا ضروريا لتصريف أعمالهم .

وكان انتصار بدر حجر الزاوية في التاريخ المبكر للإسلام . فلو قدر للمسلمين أن يهزموا أو لو قدر لمحمد أن يستشهد في هذه المعركة لما ظل الإسلام قائما ولاختفى هذا المذهب الجديد من عالم الوجود ، بدلا من أن يكسب كما كسب بالفعل انصارا جندا . ولم يتردد محمد في أن يعزو هذا النصر على عدد يعد ثلاثة أضعاف قواته الى عون الله وأن يعتبره دليلا ساطعا على هذه النصر الاولية ومن هنا كان قراره في أن يكون انتصاره هذا وسيلة جديدة لتوسيع سلطانه .

وقد سبق لي أن ذكرت شيئا عن وجود قبائل يهودية في المدينة وسبق لي ان بينت أيضا ان النبي اتبع مع هذه القبائل أول وصوله الى المدينة سياسة ودية وعقد نوعا من الاتفاق معها . ولم يكن قد انقضى على

(١) تجمع كتب السيرة على أن عدد الاسرى بلغ سبعين رجلا .

وجوده في المدينة حول كامل عندما نشب الاحتكاك بين المسلمين واليهود فقد رفض هؤلاء الاقرار بنبوّة محمد وراحوا يعربون عن زرايتهم بالمسلمين واستهانتهم بهم . ونشب شجار بعد معركة بدر بين أحد المسلمين وأحد اليهود فقام النبي بحصار بني القينقاع . وهم الذين ينتمي اليهم ذلك اليهودي في الحى الذين يقيمون فيه الى أن استسلموا لحصاره . وخشى اليهود أن يأمر النبي بذبحهم عن بكرة أبيهم إلا أن عبد الله بن أبى الزعيم الأكبر للأوس والخزرج تشفع لهم بقوة عند النبي فعفا عنهم واكتفى بأن يصدر أمره اليهم بالهجرة من المدينة الى سوريا بعد أن وزع مساكنهم وأموالهم على المسلمين . وهكذا ارتحل بنو القينقاع الى سوريا حيث أقاموا في ناحية درعا (١) .

وأثارت غلبة محمد على بني القينقاع واجلاؤهم من المدينة الفزع عند جميع أولئك الذين كانوا يعارضون النبي في المدينة سرا أو علانية . وكان عبد الله بن أبى زعيم الأوس والخزرج قد توقع تضائل شهرته ونفوذه بصورة متدرجة بالنسبة الى شهرة محمد ونفوذه الآخذين في الارتفاع والازدياد . وأدى فزع من تبقى من اليهود الذين كانوا لا يتورعون عن اظهار مخبريتهم بما يقوله النبي عن الوحي الذى ينزل عليه الى أن يسكتوا مرغمين . يضاف الى هذا ان أموال بني القينقاع ومساكنهم كانت نافعة ومفيدة في سد حاجات المهاجرين المادية الذين وجدوا فيها ما أغناهم عن الحاجة المذلة الى العيش على حساب اخوانهم من الانصار وجودهم . وهكذا تجدهم يخطون في الواقع خطوات في طريق الشراء (٢) .

وتعزز سلطان محمد في المدينة بوقوع عدد من الاغتيالات فيها . وكان شديد الحساسية من قصائد الهجو التي يقولها بعضهم فيه والتي ينشرونها بين العرب بصورة مستمرة ولذا فقد حمل على الشعراء حملات عنيفة . وكان قول الشعر وتناقله شفويا من فم الى فم سواء أكان في

---

(١) لم يذكر المؤلف ان بني القينقاع هم الذين نقضوا عهدهم للنبي وانهم هم الذين هددوا المسلمين عندما اعتدى رجل منهم على امرأة من العرب تعديا معيبا فصاحت مستغيثة فلماهاها رجل من المسلمين قام الى اليهودي قتلته فقام اليهود على السلم فقتلوه . ولا ريب في أن افقاله للسبب مقصود ل اظهار المسلمين بمظهر المعتدين . (الحرب)

(٢) يكثر جلوب ، رغبة منه في تشويه التاريخ الاسلامي من الحديث من فقر المهاجرين وغيثهم على حساب الانصار . ولئن كان الانصار قد قدموا العون الى اخوانهم اول هجرتهم فان هذا العون أمر تفرضه الشريعة الاسلامية على المسلمين وليس فيه من منة — يضاف الى هذا ان المهاجرين مالبثوا أن اخذوا يعملون وسرعان ما أصبحوا في غنى عن العون . (العرب)

المديح أم الهجاء أهم وسيلة من وسائل ما نسميه اليوم بالدعاية عند العرب الذين تنتشر الامية بينهم . وعندما قتل اثنان من هؤلاء الشعراء الذين دأبوا على هجاء المسلمين فان من تبقى منهم من ناقدين قد أرغم على السكوت . وكان بين الذين أعتلوا امرأة طعنت وهى نائمة فى فراشها مع أطفالها (١) .

وكان الحادث الذى أثار الناس فى المدينة أكثر من غيره من الاحداث اغتيال كعب بن الاشرف هو رجل ينتمى الى قبيلة طيء وان كانت أمه يهودية من بنى النضير . وقد عاش الرجل مع اخواله من يهود المدينة ونشأ فى كنفهم . وكان كعب بن الاشرف قد نصر محمدا فى بداية الامر ولكنه ما لبث ان ارتد عن نصرته وقد قام بزيارة مكة بعد موقعة بدر ويقال انه شجع القرشيين على حرب المسلمين وتقرر أن يمضى خمسة من المسلمين لاغتياله . وقد مضوا الى بيت كعب بعد أن خيم الدجى ويقال ان النبى قد رافقهم جزءا من الطريق ثم تمنى لهم التوفيق عائدا وحده . وقد استخدس أخ لكعب فى الرضاع وهو من المسلمين لخداع كعب واخراجه من منزله حيث هاجمه المتآمرون . وقطعوه اربا اربا بسيفوفهم . ومثل هذا الحادث أخذ يهود المدينة يعيشون فى رعب دائم (٢) .

---

(١) صورة مشوهة أخرى . فليس فى الموضوع اغتيال مطلقا . وانما هناك عداة لنظام ودين يظهر أحيانا على شكل هجاء مقذغ يعيب نسله المسلمين وامراضهم وليس من الغريب والحالة هذه أن يكون نصيب من يمس الامراض ويقاوم النظام القتل من مؤمن متحمس للعقيدة لكن رواية الاغتيال هذه لم ترد الا فى كتاب أو كتابين من كتب التاريخ القديمة ولعلها لا تخلو من الغرض من الشعبيين . (المغرب)

(٢) يخرج القارئ البريء الذى لا يبرق شيئا من تاريخ الاسلام من هذه القصة التى يروها جلوب بعد أن وضع حقائقها فى الصورة التى يريد بها بالانطباع بأن اليهود كانوا نخبة للمسلمين وان اغتيال - كما شاء ان يسمى القصاص المادى - كعب بن الاشرف عمل بعيد من سنن الاخلاق . ولا ريب فى ان المؤلف يكشف عن خبيثة نفسه فى هذه القصة ويعرض عطفه على اليهود الذين دقعه حبه لهم الى تزييف الوقائع . فالقصة الحقيقية كما تروها جميع كتب التاريخ والسير النبوية هى على النحو التالى :

« كان كعب بن الاشرف يهوديا من طيء م بنى نهبان وأمه من بنى النضير فلما انتصر المسلمون ببدر وارسل الرسول زيد بن حادفة وعبد الله بن رواحة يشيران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش قال كعب : « والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها » ولا يبقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب ابن ابي وداعة السهمى فانزلته امراته واكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الاسعار ويكى اصحاب القلب من قريش الذين اصابوا ببدر فقال : =

ولجأ النبي بالاضافة الى اغتيال أعدائه من الشعراء الى استئجار آخرين يتولون الدفاع عنه . وكان من أشهر هؤلاء حسان بن ثابت وهو شاعر من أهل المدينة (١) ويقال انه عندما نعى اليه أن النبي في حاجة الى خدماته مد لسانه قائلا : « ليس هناك من درع يصمد أمام هذا السلاح » . ويقال ان النبي استوضح منه عن الطريقة التي يمكنه فيها أن يهجو قريشا دون أن يسيء الى النبي وهو منهم فرد الشاعر قائلا : « لا تخش» يارسول الله ففي وسعي أن أستلك من وسطهم كما أستل الشعرة من العجين » .

وكانت قريش في غضون ذلك تعيش في متاعب ومشاق بالغة فلقد كانت حياتها تعتمد على تجارة القوافل وقد أصابها الفزع بعد معركة بدر من إفقاد قافلة أخرى الى سوريا . وأخيرا قررت قريش في سبتمبر عام ٦٢٤ أن توفد قافلة الى الشمال عن طريق نجد بدلا من طريق ساحل البحر الاحمر . ولكن أنباء هزمهم هذا وصلت الى المدينة فأوفد محمد ربيبه زيد بن حارثة على رأس قوة لتهاجم هذه القافلة وتقطع عليها طريقها ونجحت المحاولة تمام النجاح ، واستولى المسلمون على القافلة بكاملها وغنموا غنائم كبيرة من الحرير والدمقس والسلع التجارية واقتسموها بينهم .

وعلى الرغم من أن العداء كان في هذه الفترة قائما بين مدينتي مكة والمدينة الا أن القبائل البدوية التي تعيش في الصحارى المجاورة لعبت دورا هاما في المشاحنات التي قامت بين المدينتين . وكان هؤلاء البدو بتجوالهم المستمر بين المدينتين يؤدون دورا بارزا في نقل الاخبار والمخابرات وهي ضرورة عسكرية كان المسلمون مفتقرين اليها أشد

= طحنت رحا بدر لهلك أهله . ولئيل بدر تستهل وتدمع  
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا ان الملوك تصرع  
كم قد أصيب به رفيق ماجد ذو بهجة تأوى اليه الفسيح

الى آخر القصيدة .. ثم رجع الى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى اذا هم فأرسل له عليه السلام نفرا من الانصار لقتلوه جراء خيائته العهد .

( العرب )

(١) غريب امر جلوب هذا فقد جمل من الشعراء أعداء المسلمين أناسا يدافعون عن عقيدتهم اما الشعراء من المسلمين وبينهم حسان بن ثابت شاعر الرسول فهم اجراء استأجرهم النبي ليدافعوا عنه .. حقا انه عداء ظاهر بجمل جلوب بعيدا من صفوف المؤرخين ويجيز لنا ان نعامله في تعليقاتنا على اقواله بما يستحقه من نقد لاذع

( العرب )

الافتقار في البداية ، يضاف الى هذا ان هذه القوافل كانت تحتل الصحراء المكشوفة وكانت قادرة عن هذا الطريق على حماية القوافل او نهبها وكانت قريش واثقة من انها لو استطاعت ضمان ولاء هؤلاء البداءة فان قوافلها تستطيع ان تنجو من الغزاة المسلمين . اما اذا افاج النبی في كسب ولاء هذه القبائل فان أهل مكة سيصبحون محصورين داخل مدينتهم ويتعرضون للتضور جوعا . وكان المسلمون قد فازوا بصداقة قبيلة جهينة التي تقيم في السهل الساحلي لكن قبيلتي غطفان وبنى سليم المقيمتين الى الشرق من المدينة ظلتا حليفتي قريش . ودفعت هذه الأوضاع المسلمين الى القيام بغزوات صغيرة عدة ضد هاتين القبيلتين لارهابهما واقناعهما بأن صداقة محمد خير لهما من التحالف مع أهل مكة .

وبدا العام الثالث من هجرة المسلمين الى المدينة بداية سيئة ففي يناير ( كانون الثاني ) ٦٢٥ (١) خرجت قريش من مكة بقوة تضم نحو من ثلاثة آلاف رجل وقد صممت على الثأر لهزيمتها في بدر وعلى فتح طريق القوافل أمام تجارتها . وكانت الطريق الى المدينة من ناحية الجنوب تمر عبر جبال جرداء قاحلة وهكذا مرت القوة المكية الى الغرب من المدينة ثم اتجهت الى اليمين لتدخل واديا واسعا الى الشمال من المدينة عند سفح جبل احد الذي تكثر فيه الصخور . وهنا انتشرت القوة القرشية منتظرة من المسلمين أن يبدعوا هجومهم .

ولم يكن القلق الذي اثاره وصول هذه القوة الضخمة التي تبلغ في عددها ثلاثة أضعاف القوة التي خاضت معركة بدر قليلا أو تافها . وكان من رأى محمد وعبد الله بن أبي وعدد من شيوخ المدينة البقاء فيها وعدم الخروج منها للقاء قريش . وكانت كل عشيرة سواء اكانت من الاوس أم الخزرج أم من قبائل اليهود تعيش في حيها الخاص بها حيث تقوم البيوت مجتمعة داخل أسوار تجعلها أشبه ما تكون بالقللاع عصبية على الاقتحام من رجال لا سلاح لهم الا السيوف والسهام . ولما كان الجيش المكي قوة تفتقر الى تنظيم الجيوش وما تحتاج اليه من تموين فانها كانت ولا ريب عاجزة عن فرض حصار طويل على المدينة . لكن الشبان من المسلمين وقد اثلهم انتصار بدر ضجوا مطالبين بالخروج لمقابلة قريش في معركة مكشوفة مما حمل النبي أخيرا على

(١) يختلف هذا التاريخ عن التاريخ الاسلامي فقد كان خروج قريش في الثالث عشر من شوال الذي عاد له تقويم مختار المصري بالتاسع عشر من مارس سنة ١٩٢٥ .  
( العرب )

التسليم برايتهم . وخرج الرسول بعد أداء صلاة الظهر على رأس أتباعه للقتال . وحاول بعض اليهود أن يلحقوا بالقوة الإسلامية كرديف لها يقدم العون ولكن النبي ردهم معلنا أن المسلمين وحدهم أصحاب الحق في الدفاع عن دين الله واتخذت القوة الإسلامية مواقعها في الليل لتشرع في التقدم نحو العدو عند فجر اليوم التالي ، وهنا وفي هذه اللحظة الحرجة انخزل عبد الله بن أبي بنحو من ثلثمائة رجل عائدا إلى المدينة متأثرا بغيرته من سلطان النبي ومن رفضه العمل بمشورته وهى البقاء في المدينة. وهكذا تقدم المسلمون وقد خذلهم ابن أبي وصحبه في هذه اللحظة الشديدة الخطر بنحو من سبعمائة رجل ليحاربوا عددا يعد نحو من ثلاثة آلاف يضضاف إلى هذا أن القوة الإسلامية كانت تفتقر إلى الجنود من أصحاب الدروع إذ لا يزيد عدد المتسربلين بها عندهم على المائة وتفتقر أيضا إلى الجياد بينما حشدت قريش وحلفاؤها نحو من سبعمائة رجل بدروعهم ومن مائتي فارس.

ولم يكن ثمة من شك في أن المسلمين وقد شعروا بقلّة عددهم إزاء العدو ردوا لو حموا ظهورهم بالجبل وبالفعل جعلوا أحدا وراء ظهورهم وخلف جناحهم اليمين بينما ظل جناحهم اليسر مكشوفًا ومعرضًا لهجوم يشنه فرسان العدو واحتاط محمد لهذا الخطر فوضع خمسين شخصا من الرماة لحماية هذا الجناح مصدرا أمره إليهم بالابتعاد عن مواقعهم مهما حدث . إذ أن هذه المواقع تحمي جناح الجيش من فرسان قريش .

وكان أبو سفيان بن حرب بن أمية يتولى قيادة أهل مكة وحرى بنا أن نتذكر هنا أن التنافس كان قويا قبل الإسلام بين بنى أمية وبنى هاشم على البروز والنفوذ ، وأن بنى أمية كانوا يتولون بالورثة قيادة جيوش قريش بينما يتولى بنو هاشم رفادة الحجاج وسقايتهم ولهذا فقد تولى أبو سفيان قيادة الجيش المكي بحق الورثة بينما حمل بنو عبد الدار الراية على مآلوف عاداتهم . وعهد النبي برباية المهاجرين إلى مصعب بن عمير الذي حملها في موقعة بدر والذي يمت إلى بنى عبد الدار أيضا . وأصطف الكيوان يواجهون المسلمين الذين جعلوا جبل أحد في مؤخرتهم ففصلوا بذلك بين المسلمين وبين المدينة .

واشتمل النبي بدرعين من الزرد ثم استل سيفه وهتف بالمسلمين قائلا : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ وخرج من صفوف المسلمين رجل يدعى أبو دجانة فسأل الرسول قائلا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال





أن تضرب به العدو حتى ينحني ، وتسلم أبو دجانة السيف من النبي  
واخذ يختال بين صفوف الجيش قائلا :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل  
الا اقوم الدهر في الكيول (١) أضرب بسيف الله والرسول

وراح النبي يقول وهو يرى أبا دجانة يتبخر في مشيته . . . انها  
لمشية يبغضها الله الا في مثل هذا الوطن .

وكانت قريش قد حملت معها الى المعركة عددا من النسوة  
يحملونهن في هودج ، وهى عادة ظلت قائمة عند بدو نجد حتى بداية  
القرن العشرين . وعندما اقترب الفريقان بعضهما من بعض ، شرعت  
نساء قريش فى إيقاد الحماسة فى صدور رجالهن بقرع الدفوف  
واشاد افانى الحرب وارخاء شعورهن الطويلة . وكان أبو سفيان قد  
استفز حماسة بنى عبد الدار بتعريضهم بأن جنهم كان السبب فى  
هزيمة بدر ، وهنا خرج طلحة بن عبد العزى من صفوف قريش -  
وهو من بنى عبد الدار - يحمل راية قريش ويتحدى المسلمين طالبا  
ان يخرج اليه أحدهم لمبارزته . وخرج اليه على بن أبى طالب وسرعان  
ما ضربه بسيفه ضربة اسقطته مضرجا بدمائه . وخرج أخو طلحة على  
الفور ويدعى عثمان من صفوف قريش ورفع الراية الساقطة بينما  
ارتفع التكبير من صفوف المسلمين . واعاد عثمان تحدى أخيه القتيل  
للبراز فخرج اليه حمزة عم النبي ، وبعد اشتباك قصير هوت راية  
قريش من جديد الى الأرض وعاد حمزة ظافرا الى صفوف المسلمين  
بعد أن صرع خصمه . ولم تأت عشية ذلك النهار حتى كان خمسة  
من بنى عبد الدار قد خروا قتلى فى ميدان المعركة وهم يحملون راية  
قريش .

وكانت فترة المبارزات الفردية قد انتهت الآن وكر المسلمون على  
رجال قريش بعزيمة ومضاء . وحمل عبد حبشى لآل عبد الدار راية  
قريش بعد أن رفعها من الرغام وظل يقاتل حتى قطعت يده فهوى  
على ركبتيه وهو يحمل الراية بينهما الى صدره الى ان قتل مشخشا  
بالجراح وكر المسلمون بعزيمة يؤمنون بأن الاستشهاد فى سبيل الله  
هو سبيلهم السريع الى الجنة . وأخذت صفوف قريش تترنح أمام  
ضربات المسلمين القاصمة وظل أبو دجانة وقد لف منديلا أحمر على لামته  
بضرب بسيف النبي ضربات قاتلات أما حمزة فكان يصول ويجول فى

(١) الكيول آخر الصفوف فى الحرب .

الميدان فتتهوى الرعوس أمام ضرباته يمنة ويسرة . وحاول فرسانه قريش الالتفاف حول جناح المسلمين ولكن رماة المسلمين الخمسين صدوهم على أعقابهم . وظل على بن أبي طالب يواصل الضغط على صفوف العدو وعادت معجزة بدر الى الظهور فالمسلمون لا يقهرون .

وظلت نساء قريش تقودهن هند زوجة أبي سفيان ينشدن ويهزجن وراء الخطوط ويعزفن على الدفوف . . . . وهند تقول :

نحن بنات طارق . . .

الى ان تقول . . .

ان تقبلوا نساءنا ونفرض النمارق  
أو تدبروا نفسارق فراق غير وامق

وفجأة انطلق أبو دجانة يضرب بسيف الرسول يمنة ويسرة فاخترق صفوف قريش حتى وصل الى النسوة فرحن يتبعثرن هنه وهناك ينشدن الخمار .

ولكن الفرور سرعان ما استخف ببعض المسلمين . فقد تاهوا: اعجابا وفخارا وخيل اليهم أنهم حققوا النصر فاقبلوا على النهب (١) . وكانت الحماسة التي رافقت هجومهم قد فرقت صفوفهم وبددتها . ولعل ما هو اسوأ من ذلك ان الرماة الخمسين أو قد تصوروا أن المعركة قد انتهت ، تخلوا عن موقعهم على الجناح الايسر طلبا للنهب . وكان بين البارزين من رجال قريش في ذلك اليوم رجلان قدر لهما أن ينالا شهرة: خالدة كقادة عسكريين للمسلمين وهما خالد بن الوليد وعمر بن العاص . وقد رأى هذان القائدان الفرصة التي اتاحها تخلي الرماة المسلمين عن موقعهم فقادا فرسانهما والتفيا بهم حول الجناح الايسر للمسلمين، ثم اتجها الى اليسار ثانية وهاجما خطوط المسلمين من مؤخرتها (٢) . وكان النبي يرافقه عدد من الصحابة يقومون على حراسته يسير وراء.

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف بهذه الرواية المشوذة فلقد أجمعت كتب السيرة وفي طلبيتها سيرة ابن هشام نقلا عن الزبير بن العوام قوله يصف تحول المعركة : ولقد رأيته أنظر الى هند بنت عتبة وصواحيها مشترات هوارب وما دون أخذهن قليل ولا كثير إذ مالت الرماة الى المسكر حين كشفنا القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيال فأتينا من خلفنا وصرخ صارخ الا ان محمدا قد قتل فاتكفأنا واتكفأ علينا القوم .

(٢) تجمع كتب التاريخ العربي على ان خالد بن الوليد وحده هو الذي قاد فرسان قريش اما عمرو بن العاص فكان قائدا في المعركة .

— العرب —

الصف الزاحف من المسلمين يرقب سير المعركة عند ما داهمته من المؤخرة ثلثة من فرسان قريش اقتحمت طريقها متجهبة الى الامام واستشهد مصعب بن عمير وهوت راية المهاجرين وبوشت المسلمون بهذا الهجوم الصاعق من المؤخرة وتمزقت صفوفهم وتفرقوا شذر مذر وارتفع صوت النذير يقول ان محمدا قد قتل وراح الناجون من المسلمين يولون الادبار لينجوا الى سفوح احد وراهم . وكان المسلمون يعمرون بالرسول في طريق فرارهم فيهتف بهم قائلا : أين تذهبون ؟ .. هودوا انا رسول الله ولكن دون جدوى (١)

وكانت راية قريش لا تزال ملقاة على الثرى منذ قتل المحاربين من بنى عبد الدار واسرعت فتاة شجاعة تدعى عمرة بنت علقمة فرفعت الراية التي التفت حولها قريش بعد ان اعادت تنظيم صفوفها وأخذت تهزج باهازيج العزى وهبل من الاصنام وعادت قريش الى الهجوم على المسلمين . وعندما سمع بعض المسلمين النداء بأن محمدا قد قتل هب رجل منهم يدعى أنس بن النضر فهتف قائلا : « قتل رسول الله ، فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله » ثم استقبل القوم فظل يقاتل يمئة ويسرة حتى قتل . وتقول الروايات ان المسلمين وجدوا بعد المعركة في بدنه سبعين ضربة .

وسرعان ما ضيق العدو الخناق على الفئة القليلة العدد التي تتولى حراسة النبي وانهالت الحجارة والنبال كالامطار على حراس النبي . وأصحاب حجر رسول الله في وجهه فشججه وأصاب شفته وثناياه . ووقعت ضربة على رباطيته فوق هامته ... وهتف النبي يطلب العون بعد ان وقع في الحفرة . وسرعان ما هب خمسة من المسلمين لنجده اذ سمعوه يقول : « من يشري لنا نفسه » . وظل هؤلاء الخمسة يدافعون عن النبي حتى استشهدوا عن آخرهم .

(١) هذه رواية أخرى من روايات المؤلف المشوهة . فلقد دافع المسلمون من النبي دفاع الابطال ولم يروا رواية ان النبي قال لهم هذا القول فلقد روى ابن هشام ان ام معاذة نسيبة بن كعب المازنية قاتلت يوم احد دافعا عن الرسول الى ان أصيبت . وروى ابن اسحاق ان ابادجانه ترس دون رسول الله يقع النبل في ظهره وهو منح عليه حتى كثر قيح النبل . واضاف ان سعد بن ابى وقاص رمى دون رسول الله كما رمى عنه قتادة بن النعمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم كثر من صحابة الرسول ومن هنا تظهر رواية المؤلف المشوهة .

وتمكن فارس مشهور من قريش يدعى ابن قمئة من الوصول الى النبي فضربه بسيفه ولكن طلحة بن عبيد الله من أقارب النبي درا الضربة بيديه فتحطمت أصابعه . ووقع النبي على الأرض والدم ينزف من وجهه بينما واصل ابن قمئة صراخه معانسا قريشا انه قتل محمدا . ومن الغريب أن يفكر المرء اليوم كيف كان من الممكن أن يتغير مجرى التاريخ لو أن ضربة سيف ابن قمئة قد أصابت هدفها قبل ألف وثلاثمائة عام .

وكان نفر من المسلمين قد تحلقوا حول النبي في غضون ذلك ومن المحتمل أن يكون ادعاء ابن قمئة بأنه قتل محمدا قد خفف من عزيمة قريش ودعاهم الى الاسترخاء اذ أن نضالهم كان مع محمد وحده ، واغتنم طلحة بن عبيد الله فرصة هذا الاسترخاء فرفع النبي برغم جراحه من الحفرة التي وقع فيها ، والتف حول النبي أبو بكر وعلى وغيرهما من الصحابة المقربين يحملونه ويدفعون عنه الأذى حتى وصلوا به الى صخور احد حيث أنزلوه مكانا آمينا ، ومضى على يطلب ماء ليمسح به جراح النبي بينما هتف الرسول قائلا : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ !

وهكذا انتهت المعركة وباتت قريش مسيطرة على ميدانها تمام السيطرة ولجأ من تبقى من المسلمين الى شعاب احد يرقبون منها رجال قريش دونهم في سفح الجبل وأصبحت المدينة نفسها مفتقرة الى من يدافع عنها لو أراد المشركون غزوها . لكن المكين اشتغلوا في غضون ذلك في نزع الملابس عن قتلى المسلمين وتشويه جثثهم فلقد قتل نحو من خمسة وسبعين من المسلمين بينما لم تخسر قريش الا عشرين رجلا (١) . وقد حزن الرسول أكثر ما حزن على عمه حمزة . فقد استأجرت هند زوجة أبي سفيان رجلا حبشيا يدعى وحشيا اشتهر بمهارته في قذف الحربة ليقتل حمزة ثارا لوالدها الذي قتله حمزة في موقعة بدر (٢) . وكمن وحشيا لضحيته الذي لا يشق له غبار في

(١) روت كتب السيرة ان شهداء المسلمين بلغوا (٧٠) وإن قتلى قريش كانوا

(٢٢) .

(٢) تؤكد كتب السيرة وفي طليعتها سيرة ابن اسحاق ان حبشيا كان غلاما لرجل يدعى جبير بن مطعم وكان هم هذا ويدعى طمية بن عدي قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش الى احد قال له جبير ان قتلت حمزة هم محمد بمعنى فانت هتيق . ولمضي الرواية وهي على لسان حبشي تقول . . فخرجت مع الناس انظر حمزة وأبصره وليست لي بغية سواء الى ان قتله .

( الحرب )

شجاعته وشدة بأسه حتى لاحت له منه صانعة وهو يبارز قرشياً  
فضربه بحريته فوقعت في ثنيته حتى خرجت من بين رجله وخر صريعاً  
ألتوه . وعثرت هند على الجثة بعد المعركة فثارت لنفسها بجذع أذنيه  
وأنفه وراحت بعد ذلك تفتح بطنه لتنهش من كبده .

- وعندما انتهت قریش من التمثيل بجثث المسلمين وأرادت  
الانصراف تقدم أبو سفيان فأشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته  
ليسمعه المسلمون القابعون فوقه بين صخور الجبل : « أنعمت فعال  
وان الحرب سجال . يوم بيوم . أعل هبل ، ان موعدكم بدر للعام  
المقبل » ، وامتنطى المكيون اثر ذلك ابلهم وراحوا يغادرون المكان وخشع  
النبي أن تكون وجهتهم المدينة وأن يحتلوها بسهولة لعدم وجود قوة  
تدافع عنها ، فأوفد على بن أبي طالب في أثرهم لينقل اليه أخبارهم  
وحركاتهم ، وسرعان ما عاد « على » ليقول ان قریشا اتجهت الى الجنوب  
في طريق مكة وأنها جاوزت المدينة وفرغ المسلمون بعد ذلك لقتلهم  
يدفنونهم . وقيل : ان محمدا غضب غضبا شديدا عندما رأى ما رآه  
من تمثيل قریش بشهداء المسلمين ولا سيما بجثة عمه حمزة وتوعد  
قریشا ان أظهره الله عليها في موقعة من المواقع أن يمثل بثلاثين رجلا  
منهم . ولكن الرسول سرعان ما ندم على قوله وأصدر أمره بتحريم  
المثلة بالأموات .

وبالنظر الى أننا ألفنا فكرة الحرب الجماعية بكل ما فيها من  
قسوة وخشونة ووحشية فان الأساليب العرضية والمتنافرة التي  
يتبعها العرب تبدو لنا غير مفهومة اطلاقا فنحن نرى في الوحشية التي  
أبدتها قریش في التمثيل بجثث قتلى المسلمين شيئا يرمز الى الكراهية  
التي لا تنطفئ ولا تخمد ، ومع ذلك فان قریشا تقاعست عندما بات  
النصر الكامل في متناول يديها عن طريق احتلال المدينة عن هذا العمل  
وعاد رجالها الى بلدتهم مكتفين بتحدى المسلمين للقتال في بدر في العام  
المقبل . ويبدو أن مثل هذا التحدى لمعركة في كل سنة كان شيئا  
تقليديا بالنسبة الى عرب تلك الايام ، فلقد نشبت الحرب قبل سنوات  
عدة بين قریش وهوازن ، عندما كان محمد لا يزال فتى غض الاهاب .  
ودارت خمس معارك سنوية كانت الواحدة منها تقرر في السنة التي  
تسبقها ويتلاقى الفريقان على موعد بالقتال وذلك قبل أن يعقد الصلح  
النهائي بينهما .

وقد استمرت طرق الحرب بين القبائل البدوية في وسط  
الجزيرة العربية على هذا النحو والى حد كبير حتى القرن العشرين .

فلقد كانت هناك قبائل معينة تخوض باستمرار المعارك بعضها ضد بعض دون أن يرغب أحد الفريقين أدنى رغبة في قيام الصلح النهائي بينهما . وكانت أوضاع هذه الحروب التي لا تنتهى تؤمن المواقف الإبداعية الرومانطيقية التي تمكن فتيان العرب وبواسلهم ومغامريهم من أداء أعمال البطولة التي أضفت على شعرهم ذلك الرونق والمجد الذي لا يؤمنه لهم حياتهم الرتيبة التي يعيشونها . وصحيح أن قريشا لم تكن قبيلة بدوية وكانت مصالحها الأساسية معتمدة على التجارة ولكنها عندما تخوض حربا من الحروب كانت تميل الى اتباع العادات الحربية المألوفة في عصرها حتى ولو كانت هذه العادات والتقاليد ناشئة في أجواء بدوية .

لكن المنازعات الدموية كانت تنفذ خلال هذه المشاحنات العارضة والرومانطيقية لتؤدي في أحيان كثيرة الى المزيد من الكراهيات ومن أعمال الانتقام الوحشية ، ومن هنا كان التناقض يبرز كل البروز . فالحروب تدور في صورة عرضية وتتبع فيها أنظمة الغروسية وتخاض المعارك بمواعيد مسبقة تسبقها مبارزات فردية ولكن عندما يصبح من المعروف أن هذا الفارس قد قتل الفارس الآخر اذ لا يعرف في الاشتباكات الدموية من القاتل ومن القتل ، فان حرازات دموية سرعان ما تنشأ لا بين القبيلتين المتقاتلتين فحسب بل وبين أسرتي القاتل والقتيل في كل حادث معين . ولم يكن التمثيل بجثة حمزه ناشئة من تعصب ديني بل من الحقيقة الواقعة وهي أن حمزة قد قتل والد هند في معركة بدر (١) .

وقد استمرت عادات القبائل العربية في القتال كما سبق لى أن اوضحت حتى القرن الحالى . ولكن من الطريف أن نبين أنه في غضون الثلاثة عشر قرنا الماضية كانت الاندفاعات الدينية تنشب من وقت الى آخر وكان آخرها قيام الوهابيين بين عامى ١٩١٢ و ١٩٣٠ ، وكانت هذه التفجرات الزمنية من الحماس الدينى لا تستمر في كل مرة أكثر من ثلاثين عاما تقريبا . وفي هذه الفترات كان المتقاتلون يخرجون جزئيا أو كليا على التقاليد القبلية القديمة وكان أصحاب الدعوة الجديدة يقاتلون بقصد الفوز والكسب . والأساليب التي تتجنب سبل الرحمة حتى وان كانت التقاليد البدوية القبلية لا تسمح بها .

---

(١) سبق لنا أن ذكرنا في هامش سابق الرواية الصحيحة التي أوردها سيرة ابن هشام من مقتل حمزة م النبي .

تصبح مبررة اذا كان القصد منها خدمة الله ، وسنرى في الصفحات المقبلة كيف انه في الوقت الذي كانت فيه قريش والقبائل الاخرى تتبع الاساليب القديمة العرضية كان محمد يقا تل ليفوز ويربح .

\*\*\*

ولم تكن حظوظ العرب في صعود وهبوط وكانها دلو في بئر في الجزيرة العربية وحدها فلقد كانت الامبراطوريتان العظيمتان في ذلك العهد تمران بشرور مماثلة . ولقد سبق لنا ان راينا كيف ان هرقل قد ارتقى عرش القسطنطينية في عام ٦١٠ وكانت أولى الانباء التي استقبلته بعد ارتقاؤه العرش من جبهة فارس فقد جاءه نبأ سقوط انطاكية في أيدي أعدائه واحتلت جيوش كسرى مدينة القدس في عام ٦١٤ كما احتلت مصر في عام ٦١٦ ، واكتسحت جيوش فارسية أخرى آسيا الصغرى ، ووصلت الى ابواب القسطنطينية على مضيق البوسفور ، وترامت أمامها أبراج بيزنطة وأسوارها . وفي غضون ذلك كان شعب من البرابرة يدعى الافارس قد زحف من مناطق روسيا الجنوبية على البلقان فاحتل شبه الجزيرة حتى وصل الى أسوار العاصمة . ورأى هرقل أن الأعداء يحيطون به من كل جانب وان هؤلاء الأعداء أشداء ولا حول له ولا طول على قراهم ففكر في الجلاء عن بيزنطة والرحيل بحكومته الى قرطاجنة في الشمال الافريقي . ولكن البطريك حمله على البقاء وراح يوفد البعثات والسفراء الى كسرى مناشدا اياه السلام ولم ينج من الموت والاغتتيال الا بأعجوبة عندما سعى بنفسه الى لقاء زعيم البرابرة . ورفض كسرى في بداية الامر عروض الامبراطور ولكنه وافق في النهاية على عقد هدنة مقابل جزية سنوية قدرها الف طالن ( وزن قديم ) من الذهب وألف طالن من الفضة وألف رداء من الحرير وألف جواد وألف فتاة من الابدكار . وقد انحنى المؤرخون على هرقل باللوم لانه فشل في الاثنى عشر عاما الاولى من حكمه في طرد الغزاة من اراضيه . لكن بعضهم وجد له العذر في الصراع الداخلي الذي نشأ بينه وبين مجلس الشيوخ على السلطان مما أدى الى استحالة قيام سياسة قومية جريئة . واني لأرى أن المعلومات المتوافرة لنا عن الموضوع اقل من أن تمكنا من الوصول الى حكم سليم فيه .

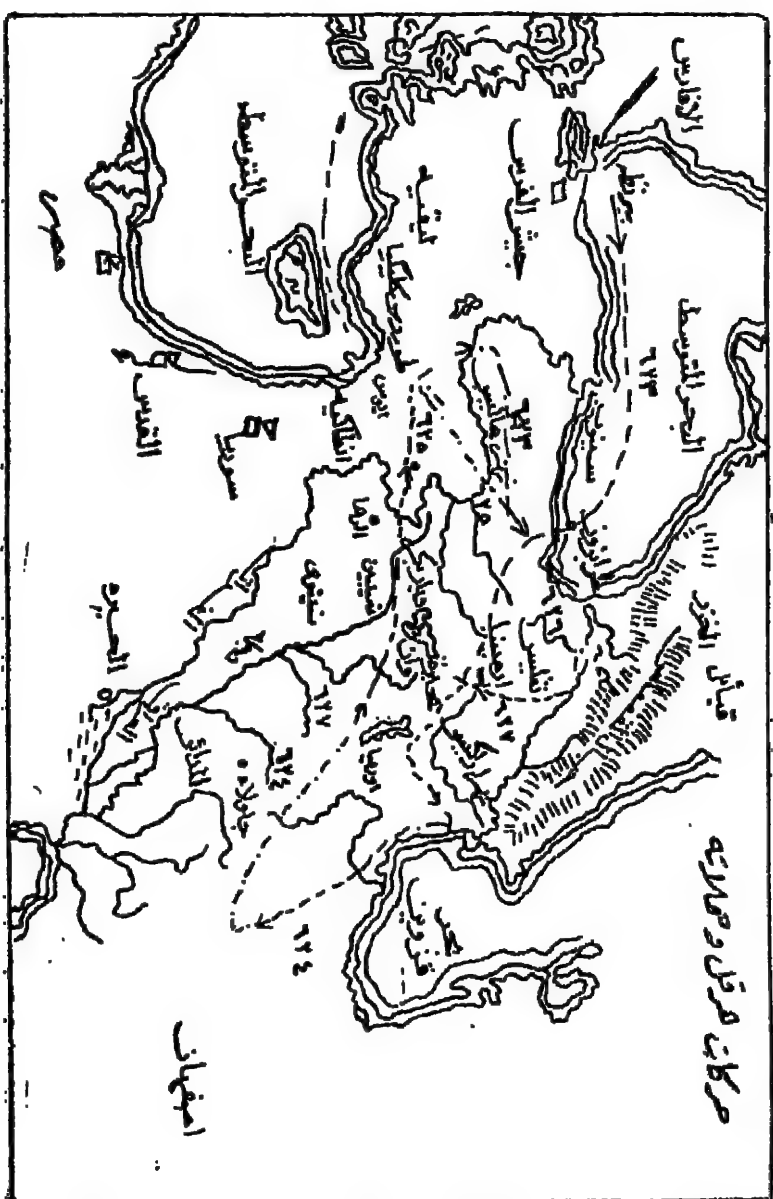
وسلم الامبراطور بعد يومين من عيد الفصح في عام ٦٢٢ مقاليد الامور في القسطنطينية الى البطريك والى مجلس الشيوخ . وعلى الرغم من أن الحصار على المدينة كان شديدا من ناحيتي الشرق والغرب



أى من جانب الفرس والافارس فان البيزنطيين كانوا مسيطرين على البحر وحمل هرقل جيشه على أسطوله ومر به عبر الدردنيل لينزل به على الساحل الشمالى من خليج الاسكندرون حيث سيطر فوراً على المضيق المعروف فى جبال طوروس ببوابة كليكية . وأقام هرقل معسكره على مقربة من أضنة ( إيسوس ) التى كان الاسكندر الأكبر فيها قد قهر جيش « دارا » ملك الفرس قبل نحو من ألف عام . وهزم هرقل جيشاً فارسياً جاء لمحاربته واجتاح كبادوكيا قاطعاً مواصلات الجيش الفارسى المربط أمام القسطنطينية ، وخلف جيشه مربطاً على نهر هاليس ليقضى الشتاء فيها . وعاد فى نهاية عام ٦٢٢ الى القسطنطينية وكان النبى محمد قد غادر فى يونيو ( حزيران ) من العام نفسه مكة مهاجراً الى المدينة .

وأبحر هرقل فى ربيع عام ٦٢٣ من بيزنطة الى البحر الاسود يفود جيشاً مختاراً قوامه خمسة آلاف رجل ونزل هذا الجيش فى طرابيزون ثم زحف جنوباً الى أن التقى بجيشه المربط طيلة الشتاء فى كبادوكيا . وراح يحتاج بعد ذلك أرمينيا الى أن وصل الى نهر أراكسيس حيث قضى الشتاء التالى داخل الامبراطورية الفارسية على سواحل بحر الخزر ( قزوین ) الجنوبية . وكانت معركة بدر قد وقعت آنذاك فى عام ٦٢٤ ويقال ان الامبراطور وصل فى صيف عام ٦٢٤ الى قزوین التى تبعد مائة ميل الى الشمال الغربى من طهران الحالية ، لكن المعلومات الجغرافية عن هذه الحملات ضئيلة وغامضة . ويبدو أن « هرقل » قضى شتاءه الثالث فى بلدة أميده ( ديار بكر الحالية ) وعاد فى عام ٦٢٥ فهزم الفرس من جديد فى كليكية وعاد فى خريف ذلك العام وبعد أن قضى ثلاثة أعوام يشن حملاته داخل الاراضى الفارسية الى سواحل البحر الاسود .

وكان كسرى قد اتفق مع الافارس فى غضون ذلك على ضرورة احتلال القسطنطينية ، واضطر هرقل الى إعادة « ١٢ » ألف رجل الى عاصمته لتعزيز الدفاع عنها . وراحت الامواج المتلاحقة من جيوش البرابرة تقذف بنفسها لمدة عشرة أيام فى صيف عام ٦٢٦ على أسوار القسطنطينية . وكان الافارس قد برعوا فى فنون الحرب فنصبوا الابراج الخشبية على مقربة من الاسوار وعبروا الخنادق والحفر وتمنطقوا بالدروع والزرذد لحمايتهم من الصواريخ البيزنطية . ولكن بعد عشرة أيام من القتال المرير العنيف اضطر الافارس الى الانسحاب تعبئاً مجهدين . وكان هرقل قد أفلح فى غضون ذلك فى مواجهة الحلف بين كسرى والافارس بحلف عقده مع شعب الخزر التركى المقيم على



مصعب الفولجا • واجتمع رئيس هذا الشعب مع هرقل في «تفليس» وقدم الى جيشه نجدة قوامها أربعون ألف رجل .

وزحف هرقل في صيف عام ٦٢٧ جنوبا من جديد عبر أرمينيا وحرز في الاول من ديسمبر ( كانون الاول ) نصرا حاسما على الفرس في «نينوى» • ولم يكتف الفرس بالانسحاب من ضفاف البوسفور بل انسحبوا أيضا من مصر وسوريا وبدأت مملكة الفرس في التفسخ والانحلال . وقام شرويه باغتيال والده كسرى أبرويز في عام ٦٢٨ ميلادية وعمت الفوضى جميع أنحاء المملكة . وتم أخيرا الوصول الى الصلح وعقدت معاهدة بعد ستة وعشرين عاما من القتال والدمار أعادت الحدود بين الامبراطوريتين الى ما كانت عليه في عام ٦٠٢ . وقد لحق الخراب بكلتا الامبراطوريتين وخلت خزائنها من المال وأصاب الدمار أراضيها الغنية وشملت تجارتها وصناعاتها •

ولقد رأيت من الضروري أن أقدم هذا التحليل لسببين أولهما واهمهما : أن مآصبا الدولتين من انهالك في هذه الحروب التي استمرت ستة وعشرين عاما قد فتحت الطريق أمام الفتوحات العربية العظيمة • وثانيهما : ان الخطة السوقية التي اتبعها هرقل في حروبه هذه عاد فحاول تطبيقها ولكن بنتائج مغايرة تماما أدت الى كارثته وذلك ضد الغزو العربي لامبراطوريته .

وقد لا يلام المسلمون اذا رأوا في هذه المذابح المتبادلة الحمقاء بين بيزنطة وفارس قضاء من الله ونصرة لهم ولا سيما انها وقعت في السنوات نفسها التي كان المسلمون فيها يوثقون من وحدتهم وبنون قوتهم قبل أن يخرجوا من حدود الجزيرة العربية لاحتلال الامبراطوريتين العظيمتين بالتين تحيطان بهم والاستيلاء على معالم حضارتهما العريقة •



## تواريخ مشهورة

عيد الفصح عام ٦٢٢	هرقل يبحر من بيزنطة
٢٨ من يونيو (حزيران) ٦٢٢	وصول النبي الى المدينة
يناير (كانون الثاني) ٦٢٤	معركة بدر
يناير (كانون الثاني) ٦٢٥	معركة أحد
صيف عام ٦٢٦	هجوم البرابرة على بيزنطة
أول ديسمبر (كانون الاول) ٦٢٧	معركة نينوى
	اغتيال كسرى ابرويز وعقد الصلح
فبراير (شباط) ٦٢٨	بين بيزنطة وفارس

\*\*\*

## شخصيات مشهورة

ابن عم الرسول وقد نشأ في كنفه	علي بن أبي طالب
ابن الرسول بالتبني	زيد بن حارثة
أصدق صديق للنبي	أبو بكر
زعيم من زعماء المدينة (كبير المنافقين)	عبد الله بن أبي
قائد قریش ضد المسلمين	أبو سفيان
امبراطور بيزنطة	هرقل
ملك الفرس	كسرى

# النصر والوفاء

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا  
ان الله لا يحب المعتدين • واقتلوهم حيث ثقتهموهم  
واخرجوهم من حيث اخرجوكم • »  
سورة البقرة - القرآن الكريم

\*\*\*

« انا فتحنا لك فتحا مبينا • ليغفر لك الله ماتقدم من  
ذنبك وما تاخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا  
مستقيما • وينصرك الله نصرا عزيزا • هو الذي انزل  
السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ،  
ولله جنود السموات والارض وكان الله عليهما حكيما •  
ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار  
خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله  
فوزا عظيما • ويعلمب المنافقين والمنافقات والمشركين  
والمشركات الظانين بالله ظن السوء » •

سورة الفتح - القرآن الكريم

« سواء سميتهموه نبيا او مصلحا أو أى شيء آخر فان  
راعى الابل فى مكة وفاتح المدينة يفوق أى انسان آخر  
عرفه تاريخ الشرق وليس ثمة فى تاريخ العالم رجل  
واحد نستطيع أن نعزو اليه مباشرة آثارا عظيمة كالآثار  
التي تعزى الى هذا الرجل • »

أى • أى • فريمان - فتوحات العرب

\*\*\*

« امامه يجثو اهل البادية واعداؤه يلحسون التراب •  
ملوك ترشيش والجزائر يحملون اليه الهدايا • ملوك  
شبا وسبا يقربون له العطايا »

الزمور الحادى والسبعون - سفر الزمير



أصابته هزيمة «أحد» الدعوة الإسلامية بما يشبه الجزر بعد المد الذي حققه نصر بدر ولما كان النصر في بدر قد عزى إلى نصره الله وعونه للمؤمنين فقد صعب على هؤلاء أن يفهموا لماذا ضنت العناية الإلهية عليهم بالنصرة في أحد • وتوالت الآيات منازلات على النبي • لتعينه في الحفاظ على الروح المعنوية القوية عند المسلمين • وسورة آل عمران في القرآن طافحة باللوم والتثريب على عبد الله بن أبي واتباعه لتخاذلهم وبالوعد للمسلمين بالنصر النهائي والتأكيد لهم بأن الله أراد لهم الانكسار ليبتليهم ويمتحنهم •

ولم يكد المسلمون ينالون قسطا من الراحة من غناء ما ألم بهم في أحد حتى كان محمد يعاود السعى لبسط نفوذه ونشر سلطانه • وغزا المسلمون بنى أسد وهى قبيلة من أشد القبائل بأسا تقيم في نجد على مودة لقريش ونهبوا أهلها وخيلها وقتلوا شيخ بنى لهيان وكان قد أظهر العداء للمسلمين وقطعوا رأسه وحملوها معهم إلى المدينة • ولكن بنى لهيان خطفوا ستة من المسلمين ثارا لشيخهم وقتلوا أربعة منهم ثم باعوا الاثنين الباقين إلى قريش ليقتلها أقرباء قتلى بدر من المشركين (١) ويعتبر هذان وهما زيد وخبيب من الشهداء عند المسلمين ويقال إن أهل مكة عندما شرعوا يجلدون خبيبا بسياطهم بعد أن صلبوه هتف قائلا : « اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا » وعندما شد القرشيون وثاق الرجلين سلمت الرماح إلى أبناء قتلى بدر وطلب إليهم أن يطعنوهما

---

(١) تشويه آخر في الروايات من جانب المؤلف فكتب السيرة تجمع على أن رهطا من غفل والقارة وهما بطنان من خزيمة ( لا لهيان كما يقول المؤلف) قدم على رسول الله ( صلم ) بعد أحد فقالوا يا رسول الله ان فينا اسلما فلو ارسلت معنا نفرا من اصحابك يفتقوننا في ديننا ويقرئونا القرآن ويعلموننا الاسلام فبعث معهم ستة من اصحابه أميرهم مرثد بن أبى مرثد الفتوى فخرجوا معهم حتى اذا كانوا بالرجيع فلدروا بهم فاستصرخوا عليهم هديلا فلم يرع القوم في رجالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد فسحهم فأخذ المسلمون أسياهم ليقاثلوهم فقالت لهم هديل : انا لا تريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه الا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم لقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد ثلاثة فقتل اأحدهم بالطريق والاخران بيما بمكة فقتلا هناك .

( العرب )

بها حتى يموتا • ويظهر تراجع قريش بعد معركة أحد دون استغلال نصرهم والوحشية القاسية في قتل زيد وخبيب بعد صلبهما عفوية العرب في أساليب قتالهم من ناحية وقسوتهم التي لا تعرف الرحمة في الثأر لقتلهم من الناحية الأخرى

ولعل المفارقة العظيمة بين الجانبين في هذه الفترة من سنوات المعارك تبدو واضحة جلية فيما امتاز به المسلمون من نشاط لا حدود له وما اتسمت به قريش من سلبية وجمود • وظل المسلمون يقومون بفزوات وسرايا من هذا النوع ، من قاعدتهم في المدينة وضد القبائل البدوية الحليفة لقريش مستعينين فيها بحلفائهم من البدو ، أما الأفراد الذين يظهرون عداوة شديدا للمسلمين أو للنبي فكان مصيرهم القتل في معظم الحالات وبوسائل من النوع الذي نسميه اليوم بالوسائل الإرهابية (١) • وأودع النبي في هذه الآونة رجلا إلى مكة لاغتتيال أبي سفيان ولكن الخطة لم تنجح (٢) • ومشت الدعوة الإسلامية جنباً إلى جنب مع الاغتيالات ومع الدعاية كمحاولة للتأثير على عقول عدد آخر من الناس • ولعل كون محمد نبيا وحاكما وقائدا عسكريا في آن واحد هو الذي أدى إلى ترابط في وسائل القوة ووسائل الاقناع السياسي والتأثير الديني التي اتبعتها •

وكانت هذه الأعمال تصرف عند الجماعات القديمة ومنها قريش بالطبع من قبل جهات عدة لعدم وجود زعيم واحد لها مما أدى إلى الافتقار إلى التنسيق بين التعاون الكامل والوثيق للدعاية السياسية وبين التهديد باستخدام القوة العسكرية • وهكذا فإن محمداً كان يتمتع بالنسبة إلى

---

(١) يظهر المؤلف في هذه اللهجة حقه الأسود الدفين على الإسلام والمسلمين فهو يتهم المسلمين بأعمال الاغتيال دون أن يشير إلى ما قام به أعداؤهم من أعمال الاغتيال والنفذ بالمسلمين وبينها محاولات عدة لاغتيال النبي نفسه • وهذه الحوادث كثيرة منها غدر أبي براء بالبعثة التي طلب من النبي إيفادها إلى نجد لتعليم النجديين شؤون الدين ومنها قتل عامر بن الطفيل برجلين مسلمين من بني سليم وغدر بني النضير برجلين مسلمين ومحاولة اغتيال الرسول وغير ذلك من الحوادث التي لاحد لها ولا حصر • وإذا ما أخذ المرء كل هذه المحاولات والأعمال الإجرامية بعين الاعتبار تبين له مافي ابتعاد المؤلف عن الموضوعية من تحيز ضد المسلمين كما وجد الجور لثأر المسلمين من القادريين •

( العرب )

(٢) لم أجد في كتب السيرة أي تأييد لهذه الرواية التي جاء بها المؤلف

( العرب )



المكيين بالمزايا نفسها التي يتمتع بها الديكتاتوريون المعاصرون في تعاملهم مع الديموقراطيات القديمة (١) .

وفي امكاننا المضي بهذه المقارنة الى مدى أبعد فلقد كان في مكة المسلمين - كالشيوعيين اليوم - أن يضمّنوا حماسة عظيمة تثيرها العقيدة الجديدة ولاسيما عند الشبان . واضطرت قريش بطريقتها القديمة في الحياة الى أن تلجأ الى موقف الدفاع وبدلاً من أن تكون كمحمد مشتبكة بصورة دائمة في عمل هجومي لا يستقر على حال نراها سلبية جامدة لا نشاط لها الا في الازمات الموسمية الطلثة .

وكان اجلاء بني النضير أهم حادث وقع في السنة التي تلت معركة احد وتعتبر هذه القبيلة ، القبيلة اليهودية الثانية في المدينة وكانت تعيش في قرية منفصلة تحيط بها بساكن النخيل الى الجنوب من المدينة. وقد اذعنّت القبيلة في سبتمبر (أيلول) عام ٦٢٥ وبعد حصار دام خمسة عشر يوماً الى أمر الرسول بالجلء عن بيوتها والهجرة الى سوريا حيث أقامت في أريحا وفي منطقة درعا . وبينما كان بقو القينقاع وهي القبيلة اليهودية الاولى التي أجلاها المسلمون من الصاغة وصناع الاسلحة فان بني النضير كانوا من الفلاحين وتوزع المسلمون دورهم وحدائقهم وحقولهم (٢) .

وهكذا واصل النبي على رغم الهزيمة في أحد بسط نفوذه طيلة العام الذي انقضى بعد هذه الغزوة . وكان بغاراته على البدو يأمل في اقناعهم بأن من الخير لهم لو انضوا الى جانبه بدلاً من جانب قريش وهي جماعة

---

(١) مقارنة سخيفة باطلة . لا وجود لاي مقومات التشابه فيها . فليس أبعد من الاسلام من الديكتاتورية وليس أبعد من تصرفات النبي من أعمال الديكتاتور . فلقد نص الاسلام على أن الامر شورى بينهم وليس أبعد من الشورى من الديكتاتورية . وكان النبي لا يقدم على عمل سياسي أو عسكري الا بعد التشاور مع صحابته الا اذا كان هناك امر صريح من الله عز وجل . وقد رأينا كيف نفذ النبي رأى الاغلبية في معركة احد بالخروج للقاء قريش مع أن رغبته هو كانت في البقاء في المدينة . - العرب -

(٢) تحير واضح سافر لليهود فقد تحدث المؤلف من جلاء بني النضير دين أن يذكر السبب الذي دعا اليه وذلك عن قصد سييء وهو أن يظهر لقرائه ظلم المسلمين لليهود ولو كان منصفاً للذكر السبب الذي اجتمعت عليه كتب السيرة . وهو تأمرهم على حياة النبي عندما مفي اليهم ليحدثهم في أمر مسلمين قتلها بنو عامر حلفاء بني النضير وأرادوا القاء صخرة على راسه وهو متكئ على جدار في أرضهم ليقتلوه لوفاء الله منهم .

( العرب )

تجارية لاتعرف الغارات والغزو وتوخي من اجلاء بنى النضير أضعاف قوة الجماعات غير الموالية له فى المدينة ، وايجاد وسيلة أكثر رخاء ليعيش المهاجرون الذين خلفوا ممتلكاتهم فى مكة .

وبعد انقضاء الحول على « أحد » أى فى يناير عام ٦٢٦ حلت الساعة اللازم لتقبل التحدى الذى كان أبو سفيان قد وجهه الى المسلمين للقاء فى بدر بعد عام - وكانت السنة سنة أمطار شحيحة وهى حالة تجعل الحركة والتنقل متعذرين فى الجزيرة العربية حتى يومنا هذا نظرا لاعتماد الابل والخيول ( وهى وسائل التنقل ) فى غذائها على ما ترعاه من الارض . وأوفدت قريش رجلا الى المدينة ليذيع فيها أن المشركين يقومون باعدادات واسعة لالقاء الذعر فى قلوب المسلمين ومنعهم من المضى الى الموعد المضروب . وكادت المكيدة تحقق نجاحها الا أن تصميم النبى أفلح فى النهاية فى حشد نحو من ألف وخمسمائة رجل للمعركة وهو عدد يقارب ضعف العدد الذى خاض به معركة أحد . وكانت النتيجة ان قريشسا هى التى تخلفت عن الموعد وظل المسلمون يرابطون ثمانية أيام فى بدر دون أية مقاسومة وحققوا نصرا أبيض لم يسفكوا فيه قطرة .

واستمرت سياسة توسيع الغزوات والغارات القبلية طيلة السنة الخامسة للهجرة واتسعت شمالاتها حتى وصلت الى الحدود البيزنطية وكان هدف احدى هذه الغزوات قبيلة صغيرة تسمى « بنى المصطلق » وقد وقع ابانها حادث مؤسف . فلقد ألف الرسول أن يصطحب احدى زوجاته فى هذه الحملات وكانت رفيقته فى هذه الحملة ، زوجته عائشة بنت أبى بكر وفى الليلة الاخيرة من الحملة - وكان الناس قد بدءوا فى الرحيل - خرجت عائشة لبعض حاجتها بعيدا عن المعسكر وعندما عادت الى الرجل افتقدت عقدا كان فى عنقها فرجعت الى المكان الذى كانت فيه فى ظلمة الدجى ، وعندما كانت تبحث عن عقدها الضائع كان الركب قد ارتحل مخلفا اياها وراءه دون أن يحس بها أحد . وحمل الناس هودجها وهم يظنون انها فيه اذ كانت ستائره مسدلة . وعندما عادت الى المعسكر رأت القوم وقد ارتحلوا فتلقت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها متصورة انهم سيفقدونها ويعودون للبحث عنها .

وبينما هى فى نومها مر بالمكان شاب يدعى صفوان كان على بعيره قاصدا المدينة . ولما رآها فى حالها هذه حملها على جملة وأخذ برأسه وانطلق به يقصد الناس . وأثار وصول زوجة النبى على بعير يقوده شخص غريب { الاقاويل وأحاديث الافك } .

وأخذ أعداء النبي يروجون الشائعات بسرعة للظعن في شرفهسا  
والاضرار بسمعتها واثارت في نفس النبي الشكوك . ويقال ان عليا اقترح  
على محمد أن يستخلف عائشة قائلا له ان النساء لكثيرات .

وبعد شهر من القلق نزل الوحي ببراءة عائشة وعاد الانسجام الى  
صفوف المسلمين لكن موقف «علي» أحدث جفاء بينه وبين عائشة قدر له أن  
يتترك آثارا مفعجة بعد وفاة الرسول . وكان من نتائج هذه القضية أيضا  
نزول سورة «النور» التي تشترط وجود الشهود الاربعة لاثبات جريمة  
«الزنا» والتي تفرض عقوبة الحد الشرعي ثمانين جلدة على كل من يطعن في  
«النساء المحصنات دون إقامة الدليل بوجود الشهود الاربعة (١)» .



وساد الذعر قريشا من رؤية نفوذهم يتقلص أمام نفوذ محمد الذي  
يلجأ الى أساليب سياسية يجهلونها فقررت الا أن تضع نهاية للمسلمين  
في المدينة . وحشدت في عام ٦٢٧ قوة لا يقل عددها عن العشرة آلاف  
الى ثلاثة أضعاف ماكان لهم من قوة في معركة أحد . وكان نحو من أربعة  
آلاف من هذه القوة من قريش أماالبقيةفمن قبائل غطفان و«بنى سليم»  
و«بنى كنانة» وهي قبائل حليفة لهم . واثارت أنباء هذاالجيشالضخم  
المتأهب للغزو قلعا كبيرا في المدينة .

وحدث أن ضمت المدينة في هذه الايام فارسيا اعتنق الاسلام اسمه  
«سلمان» وكان هذا الرجل كما يبدو قد مرتجارب علمته شيئا من الاساليب  
الحربية الفنية المتبعة في الامبراطورية الفارسية . وقد اقترح هذا الرجل  
تحصين المدينة بحفر الخندق لدفع الاعداء عنها . ويبدو أن القسم الأكبر  
من محيط المدينة كان محميا بالاسوار والبيوت لكن الجانب الشمالي منها  
كان مكشوقا معرضا للاعداء . وشرعت أيدي المسلمين جميعا في الحفر  
وعلى رأسهم محمد الذي حفر بيديه والتراب يعلوه منشدا مع المسلمين  
والمعول في يديه لاستثارة الحمية في نفوسهم . وتم حفر الخندق في  
سنة أيام أبي في الوقت المناسب قبل وصول العدو اليها لاقتحامها بهجوم  
كاسح .

---

(١) المقصود هنا الآية الكريمة . . «والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة  
شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون»  
(العرب)

وتظهر محافظة العرب على أساليبهم القديمة فى الحرب من الحقيقة الواقعة وهى أن قريشا لم تكثر مطلقا بهذا التطور غير المتوقع الذى وضعته والزراية تنضح فى نظرتها اليه بأنه عمل غير عربى وبعيد عن الشجاعة والشرف . وعسكرت قريش أمام الخندق دون أن تقوم بأية محاولة لشن هجوم عام على المدينة على الرغم من أن عددها كان يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين . واقتحم أربعة من فرسان قريش الخندق مدفوعين بهذا الايثار النموذجى لأعمال البطولة الفردية ووجدوا أنفسهم وسط المدافعين عن المدينة متحدتهم الى مبارزات فردية . وخرج على بن أبى طالب كعادته من صفوف المسلمين فبارز قائدهم وقتله مما أرغم الثلاثة الآخرين على الفرار فوق الخندق .

ولم يكن حلفاء قريش من قبائل البادية يستسيغون طعم الحرب الثابتة وسرعان ما أخذت المؤن تنضب والاحتكاك ينشب بين الأحزاب . وقد أثار الكثير منه رسل محمد الذين أخذوا يبدرون الخلافات سرا فى صفوف المشركين وراحت اهل قريش وجيادها تنفق لنقص المرمى . وعلى الرغم من أن أبا سفيان كان القائد العام للحملة اسميا الا أن الأحزاب اتبعت نظاما غريبا للقيادة وهو اسناد أمرها فى كل يوم الى واحد من رؤسائهم . وعلى الرغم من أن هذا النظام كان ضروريا لتهدئة حوافز الغيرة والحسد بين مختلف القادة الا أن مثل هذا الترتيب جعل أية عمليات منظمة للحصار أمرا مستحيلا .

وكان القلق فى غضون ذلك قد استشرى فى المدينة . وفزع الرسول نفسه من تخاذل بعض أتباعه فشرع يفاوض سرا رؤساء غطفان عارضا عليهم ثلث محصول المدينة فى كل عام من التمر شريطة السحاب غطفان من الحصار والعودة الى أراضيها . وقد قبل شيوخ غطفان هذا العرض ولكن قبل أن يعقد محمد الاتفاق النهائى معهم بعث فى طلب رئيسى الاوس والخزرج ليستشيرهما فى الخطة التى اعتزم تنفيذها . وراح الزعيمان يسألانه : «أهو أمر نحبه فنصنعه أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيء تصنعه لنا ؟» ورد الرسول قائلا : «بل شيء أصنعه لكم . ورد الزعيمان قائلين : «يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالاسلام وعدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهما الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» وكانت هذه احدى حالات كثيرة أثبت فيها المسلمون

أنهم كانوا أكثر تصميمًا على القتال من النبي نفسه (١) .

وبعد انقضاء عشرين يوما من الحصار هبت عاصفة شديدة ذات ليلة باردة على الواحة وأخذت الريح المربدة المزمجرة تعصف بخيام المحاصرين وتطفئ نيرانهم وتكفأ قدورهم بينما ظل المطر ينهمر مدرارا . ولم تكد تنقضى العاصفة حتى استدعى أبو سفيان رجال قريش وزعمائها الى اجتماع عاجل وأبلغهم أنه قرر الرحيل والعودة الى مكة . ولم تكد قريش ترتحل حتى راح حلفاؤهم من البدو يتفرقون بددا نى الصحراء وهكذا ارتفع الحصار وزالت الغمة عن المسلمين .

وبينما كان الاعداء يختفون من ظاهر المدينة عائدين الى مكة انصرف محمد عائدا الى بيته وهو مجهد وبدأ المسلمون فى وضع سلاحهم وفجأة أتى جبريل رسول الله على بغلة عليها رحالة وقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل فما وضعت الملائكة السلاح بعد . ومارجعت الآن الا من طلب القوم . ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة فانى عامد اليهم فملزل بهم . فأمر النبي مؤذنا يؤذن بالناس طالبا اليهم العودة الى سلاحهم والمسير الى بنى قريظة ومضى على ابن أبى طالب يقود الزحف على بنى قريظة وقد حمل راية الرسول ، وهى مقيمة فى قرية مجاورة للمدينة ، وكانت هذه القبيلة آخر قبيلة يهودية ظلت فى واحة المدينة . وقد لا يكون غريبا أن تقف القبيلة موقف العداء من المسلمين الذين كانوا قد أخرجوا اخوانهم اليهود من ديارهم (٢) . وكان وصول قريش على رأس تلك القوة الضخمة الى المدينة قد شجع بنى قريظة على الثار ولذا فقد اتصلوا بقريش وعندما انسحبت قريش فجأة رافعة الحصار عن المدينة ظل اليهود وحدهم يواجهون نقمة المسلمين وسخطهم .

---

(١) سورة أخرى من صور الكراهية التى يحملها المؤلف للرسول . يجوز له وهو يدمى الموضوعية ان يقول هذا القول لمجرد ان النبي رأى رأيا غير ما رأى صحبه ؟ ان هذه القصة على اى حال دليل على دحض اتهام المؤلف للنبي بالديكتاتورية اذ انه عمل برأى انصاره .

(٢) تجاهل المؤلف مسابقة منه لمواقفه الواضحة مع اليهود ادراج الحقيقة التى اجمعت عليها كافة الروايات وهى ان اليهود هم الذين حرضوا قريشا وفطفان على حرب « الاحزاب » وان بنى قريظة تكثت بمبهدا وحلفها للمسلمين عندما وصلت قوات المشركين الكبيرة أمام المدينة وراحت تعمل على طعن المسلمين من خلفهم فهم والحالة هذه خونة وجزاء الخائن القتل ولا سيما فى أيام الحروب ولا ريب فى أن تجاهله هذا يؤيل كل ادعاء له بالموضوعية .

( العرب )

ودام الحصار على بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة • ونزل اليهود أخيرا على حكم النبي دون قيد أو شرط • وكان هؤلاء قد أقاموا فى المدينة منذ عهد طويل حلفاء لاهلها وأصدقاء ووافق الرسول على أن يولى أمرهم حليفهم السابق سعد بن معاذ زعيم الأوس ليقول كلمته فى مصيرهم • وكان سعد من المؤمنين الاوائل من أهل المدينة، وقد حمل راية الخزرج فى موقعة بدر وكان يحضر الآن من جرح أصابه به سهم ابان معركة الخندق • ويبدو أن جرحه هذا قد أحفظ فؤاده على اليهود حلفائه فأعلن قراره وهو يقضى بقتل الرجال وتقسيم الاموال وسبى الذرارى والنساء • ورضى الرسول بحكم سعد بن معاذ وأمر بتنفيذه • وحفرت الخنادق فى الليل فى سوق المدينة ثم بعث اليهم فضربت أعناقهم فى جماعات صغيرة وهم قابعون فى الخنادق ، وقد ربطت أيديهم • وقد عرض عليهم الاسلام قبل تنفيذ حكم الموت فيهم وكان فى مكنتهم عن طريق الشهادة أن يتحولوا من مجرمين حكم عليهم بالموت الى مسلمين لهم من الحقوق مالمسواهم ولكنهم رفضوا ذلك •

\* \* \*

كانت قريش قد بذلت جهدا هائلا فى حشد ألف رجل لحصار المدينة ولذا فقد وصلت مكانة محمد بعد فشل المشروع العظيم الى الاوج وكان مصير بنى قريظة انذارا كافيا للخونة والمارقين •

ورأى النبي فى نومه فى مطلع عام ٦٢٨ انه دخل مكة دون مقاومة وانه أدى فريضة الحج فى كعبتها • وراح يعلن على الفور عزمه على ذلك • ولا تؤدى فريضة الحج الا فى موسمها المحدد له وقت معين من كل عام ، أما العمرة وهى الحج الاصغر ، فيمكن أن تؤدى فى أى وقت من اوقات السنة • وقد ارتأى محمد أن يؤدى العمرة وكان العرب فى الجاهلية قد جروا على اعتبار أربعة أشهر فى السنة من الاشهر الحرم التى لايجوز القتال فيها ولا الغزو • وهكذا قرر الرسول ان يزور مكة فى هذه الفترة من السنة التى تفرض التقاليد الهدنة فيها • ولم يكن من حق قريش من الناحية النظرية أن تعترض سبيله وأن تحول بينه وبين زيارة الكعبة •

وفى فبراير (شباط) عام ٦٢٨ ، أى بعد عام من حصار المدينة خرج النبي يريد مكة معتمرا على رأس ألف وخمسمائة من أتباعه • لكن قريشا لم تقنع بنيات الرسول السلمية • فسارعت تسليح نفسها وتخذلوا معها على طريق المدينة للدفاع عن مكة • ولم يكن المعتمرون من المسلمين يحملون الا السيوف ولم يكونوا فى وضع يمكنهم من خوض القتال ويبدو أن محمدًا

بحركته هذه مع جماعته نصف مسلحين قد ارتضى المغامرة وكانت مغامرة من طراز نادر . وعندما وجد المسلمون طريق مكة مغلقا فى وجوههم انحرفوا ناحية اليمىن ومروا الى الغرب من مواقع العدو واقتربوا من مكة من الطريق المؤدى اليها من ساحل البحر ثم توقفوا عند الحديبية وهى على مسيرة يوم الى الغرب من مكة .

وعندما سمع اهل مكة بأن محمدا قد التف حول جناح مواقعهم الدفاعية تراجعوا مسرعين الى مكة وراحوا يوفدون الرسل لمفاوضته وكان بديل بن ورقاء شيخ خزاعة وهى القبيلة التى كانت تقيم فى مكة قبل قريش أول هؤلاء الرسل . وقد أوضح له النبى أنه جاء لا يريد حربا وانما لزيارة البيت ثم عرض عليه - ليؤكد له نياته السلمية - الماشية التى جاء بها المسلمون ليدبحوها اكراما للبيت العتيق . وتوافد الرسل بعد ذلك على محمد من قريش وقد خلف لنا أحدهم فى تقريره الى قريش عن نتائج بعثته صورة ناطقة عن المكانة التى يحتلها محمد عند صحابته اذ قال ... « لقد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه » . وعندما ندهش من الاسباب التى أدت الى رفعة الاسلام علينا أن نذكر هذه السطور القليلة . وفى وسعنا فقط أن نقدر العوامل المادية التى كانت سببا فى انتصار المكيين أو فى انتصار المسلمين . أما الهالة التى كانت تحيط بشخصية النبى فهى فوق مستوى مداركنا وأفهامنا وان كان هناك ولا ريب فى هذه الشخصية شئ يوحى بهذا الاخلاص الكلى عند اتباعه وهو اىحاء يؤلف أحد الاسباب الرئيسية التى أدت الى نجاح الاسلام . وحرى بنا أن نذكر أن روح الحركة كلها قد تبدلت فور وفاة آخر صحابى من صحابة الرسول .

وعاد رسل مكة الى قريش يحدثون قادتها بما رأوه وسمعوه وأوفد

النبى عثمان بن عفان لمقابلة قادة قريش ، وكان عثمان من المسلمين الاوائل وأحد المهاجرين الاول الى الحبشة . وكان قد تزوج من رقية ابنة النبى فلما توفيها الله بنى بشقيقتها أم كلثوم فصاهر الرسول بذلك مرتين . ولكنه ينتمى الى بنى أمية وهو البطن من قريش الذى يرأسه أبو سفيان . وهكذا كان عثمان قريب أقوى رجل فى قريش وأكثرهم ثراء .

وكانت الحديبية قريبة من مكة ولذا فقد توقع المسلمون عودة عثمان فى غضون بضعة ساعات ، ولكن الساعات مرت متناقلة وعثمان لا يعود ، وفجأة وصل الى محمد نبأ لم نعرف مصنره يقول ان قريشا قتل عثمان .

ولو صح أن قريشاً قد قتلت عثمان متجاهلة بذلك ما تؤمن به من عصبية قبلية نظراً لانتماؤه إلى بنى أمية فإنها بعملها هذا تكون قد قررت القيام بأجراءات حاسمة متطرفة وإن اجراءاتها هذه لابد وإن تكون قد حفزت على حشد قوة ضخمة للهجوم على المسلمين وإبادتهم مرة وإلى الأبد . ولما كان المسلمون يفتقرون إلى السلاح ولا يحملون إلا السيوف فقد وجدوا أنفسهم في وضع غريب وشاذ ، وعندما أخذت الساعات تمر بطيئة مثاقلة دون وصول أية أنباء عن عثمان أدرك جميع الحاضرين خطورة الوضع الذي يواجهونه .

ويبدو أن النبي نفسه فكر في أن الحرب واقعة لا محالة ووقف النبي تحت شجرة من تلك الأشجار الشائكة التي تطلع هنا أو هنالك في هذه الجبال الصخرية الجرداء ودعا جميع الحاضرين إلى بيعته على الموت . ولا ريب في أن عمل النبي هذا يدل دلالة واضحة على إدراكه خطورة الوضع الذي كان فيه . وأخذ المسلمون في جو من التوتر الكبير يمرون بالنبي فيصافحونه مبايعين تماماً كما فعل الحجاج من الانصار قبل سبع سنوات في بيعة العقبة الثانية . وكان المسلمون في هذه اللحظة في غمرة من الايمان الطاغى والحماسة . وبعد سنوات طويلة عندما كانت جيوش المسلمين قد تمكنت من إقامة الامبراطورية الاسلامية العظيمة وكان الرناق السابقون يتحدثون كما يتحدث العسكريون دائماً عن التجارب التي مرت بهم مستعبدين ذكرى أمجاد الأيام الاولى ، كانوا يظهرين دائماً أعمق الاجلال للذين حاربوا في بدر والذين بايعوا النبي في الحديبية . وتظهر هذه الذكريات الطويلة الدائمة مدى القلق الذي أحس به المسلمون في تلك الفترة الطويلة من الانتظار المتلف .

ولجأة ظهر رجل يستقل بعيراً قادماً من ناحية مكة واتجهت الأعين كلها إليه . وكان القادم سهيل بن عمرو وهو مبعوث آخر من المبعوثين الذين أوفدتهم قريش وعندما تبينه النبي من بعيد هتف قائلاً وقد أطمأنت نفسه وسرى عنه . . . « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . وكان سهيل من أبلغ المتكلمين ومن أبرع الدبلوماسيين وأقواهم حجة ومنطقاً . وطال أمر المفاوضات قبل أن يصل مع المسلمين إلى صيغة اتفاق ورفض سهيل إدراج عبارة « محمد رسول الله » في مقدمة العقد وأخيراً تم عقد الاتفاق بين محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو وتقررت الهدنة بين قريش والمسلمين لمدة عشر سنوات وأن يعود المسلمون عن مكة هذا العام دون أداء الحج على أن يسمح لهم بالحج في العام المقبل . ونص الاتفاق على



السماح للطرفين المتعاقدين بعقد الأحلاف مع القبائل التي يريدانها وان اشترط اعادة أى مكى من المدينة اذا ترك مكه قاصدا المدينة دون اذن من وليه .

ولم يكده التوقيع على الاتفاق يتم حتى وصل أبو جندل بن سهيل بن عمرو المفاوض القرشى قادما من مكة طالبا اعتناق الاسلام . وهنا طالب والده بتنفيذ الاتفاق الذى تم توقيعه وراح النبى يأمر الرجل الذى جاء يطلب الاسلام بالعودة الى مكة وهو متألم لامره ، هذا وعندما جىء بالشاب وهو يرسف فى قيوده ليقاد الى مكة . ويقال : ان عمر بن الخطاب النارى المزاج سار الى جانبه وهو يحمل سيفه بيده ويدنيه منه . ويقال : ان عمر قال فيما بعد وهو يذكر الحادث « وكنت أرجو أن يأخذ السيف فيضرب به أباه » . ولكنه ضن بأبيه ونفذ الميثاق .

وتوضح المادة - التى اشترطت فيها قريش على محمد أن يرفض من يأتيه من قريش طالبا الاسلام من غير اذن وليه مع الحادثة التى وقعت لابن سهيل بن عمرو - السبب فى ضعف قريش على الرغم من قوتها المادية الظاهرة ، فمما لا ريب فيه أن قريشا كانت تحس بعدم الولاء فى صفوفها ولا سيما بين الشبان . اذ تعددت الحوادث طيلة سنوات الهجرة الطويلة عن وجود شبان فى صفوف المسلمين ما زال آباؤهم يحاربون الى جانب قريش . ويقال ان ابن عبد الله بن أبى شيخ المنافقين طلب من الرسول السماح له بقتل أبيه ومن هذا يبدو أن العرب باتوا أكثر نزوجا لتقبل هذا الدين التقدمي الجديد الذى كان الشبان على استعداد للترحيب به وقبوله بينما كان كبارهم لا يزالون متمسكين بتقاليد الايام الغابرة .

وقد أصيب كثيرون من المسلمين بخيبة الأمل اثر صلح الحديبية وذلك لرجوعهم عن مكة دون الطواف بالبيت وكانوا يتوقعون الدخول طافرين اليه . وراح عمر بن الخطاب - على مألوف عادته - يعلن سخطه على هذا الصلح قائلا لأبى بكر: «ياأبا بكر أليس برسول الله؟» قال أبو بكر الهادى الوديع بلى ، قال عمر «أولسنا بالمسلمين؟» قال بلى ، قال «أوليسوا بالمشركين؟» قال بلى ، قال «فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟» قال أبو بكر ، وهو هادى . . . . يا عمر الزم غرزه ( أى الزم أمره ) فانى أشهد أنه رسول الله ، ثم انصرف الرسول بالمسلمين قافلا الى المدينة حتى اذا جاءت نهاية اليوم الاول من العودة هبط الوحى على النبى بسورة الفتح التى صورت الصلح على أنه نصر عظيم ومن الصعب علينا نحن ألا نتصور أن المسير الى الحديبية بهذه القوة الصغيرة التى لا سلاح لها الا السيوف لم يكن

خطأ عسكريا خطيرا . ولو كانت قريش أكثر جرأة أو كان لها قائد واحد حازم لكان في إمكانها أن تلحق بالمسلمين هزيمة خطيرة أو أن تزيل للمسلمين من عالم الوجود إذ ان المسلمين الذين اشتروا في المسيرة كانوا مجموعة من اعتنق الاسلام . ولم يكن محمد في الحقيقة قائدا عسكريا ذا مواهب عسكرية بالغة ، ولم يكن يشترك بنفسه في المعارك بل يظل في الصفوف الخلفية لا يشترك في القتال اشتراكا فعليا . ولا ريب في أن هذه الناحية جديرة بالملاحظة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن العادة في تلك الأيام كانت قد جرت على أن يسير القائد على رأس جنوده شخصيا ويحمل الراية الحربية بيديه (١) .

ومن الصحيح أنه استخدم وسائل الاغتيال والقتل أو رتب حوادثهما ولكنه تمكن في الغالب من التأثير تأثيرا مطلقا على اتباعه الأكثر ميلا منه إلى سفك الدماء (٢) . فلقد عاش في مجتمع لا يعرف الرحمة وكان كأي فرد منا وإلى حد كبير ثمرة عصره ومحيطه . لكنه بطبيعته كان ميسالا إلى التأمل وإلى اللين والرفافة لا إلى الشدة ولعل من المفارقات أن هذه الشخصية البعيدة عن العسكرية بطبيعتها قد جاءت بالاسلام دين الجندية والقوة .

(١) لا ريب في أن جلوب دفعه كرهه للاسلام والمسلمين إلى الخروج من الموضوعية تماما مخالفا بذلك حتى الكثيرين من المؤرخين الغربيين الذين اعترفوا بالحقيقة برغم كرههم للاسلام فقد أثير على محمد (صلم) مهارته كقائد عسكري وزعم أنه كان خلوا من المواهب العسكرية لكن الواقع القلبي، إذا تركنا أي اعتبار آخر، يقيم الدليل على سفيه رأى جلوب هذا، فلقد أثبتت الحروب الصغرى التي خاضها النبي أنه كان إلى جانب رسالته النبوية قائدا عسكريا بفطرته إذ استطاع أن يخلق من المسلم نواة جيش قام بعدئذ بفتح عسكري لم يشهد له التاريخ البشري مثيلا. ناهيك عن أن اختلاف الخطط الحربية التي كان النبي يتبعها في كل معركة من المعارك بحسب طبيعة المعركة وأرضها والقوات المشتركة فيها يدل دلالة واضحة لا تقبل الشك ولا الجدل على أن محمدا كان مبتقيا في شئون الحرب كمبتقريه في شئون السياسة، وأنه قاد أمته إلى النصر وإلى العظمة بشكل وقف له التاريخ كله اعجابا .

( العرب )

(٢) عاد المؤلف هنا ثانية إلى ثقت سموه ولقد سبق لي أن أوضحت في هامش سابق كذب هذا الادعاء ولو شئنا تعداد كل من قتلهم المسلمون تبين لنا أن جميع هؤلاء كانوا من أشد أعداء المسلمين ومن أكثرهم تعريضا بهم وبأعراضهم . ناهيك عن أن هذا القصص الذي كان ينزله المسلمون بأعدائهم كان الوسيلة الوحيدة لمقاب المجرمين الذين لا يتورعون عن القتل بالمسلمين ، نظرا لانتشار المجمع العربي آنذاك إلى الحكومات التي تتولى مثل هذا المقاب .

( العرب )

وهكذا كما أزال النبي ما أحس به المسلمون في أحد من خيبة أمل بغزو اليهود من بنى التضيق فانه بعد ستة أسابيع من صلح الحديبية أزال ما لحق بالمسلمين من خيبة أمل ، ورد اليهم معنوياتهم بالسير في حملة في يونيو (تموز) من عام ٦٢٨ على خيبر وهي واحة يهودية تقع على بعد ثمانين ميلا الى الشمال من المدينة (١) . ولقد أبدى اليهود بعض المقاومة ولكن المسلمين تمكنوا من اقتحامها حصنا بعد حصن . ولم يقيم النبي باجلاء اليهود الزارعين هذه المرة وانما أبقاهم على أرضهم اذ أراد الإبقاء على أتباعه الى جانبه في المدينة . ولهذا لم يرغب في أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم دورا في خيبر وأسفرت خطة الرسول هذه عن الإبقاء على اليهود في أراضيهم شريطة أن يدفعوا للمسلمين نصف ثمارها جزية . أما المنقولات والاموال والمجوهرات والابل والماشية ومخزونات التمر والزيت والقمح فقد حملها المسلمون غنيمة لهم وسلبوها (٢) .

(١) مرة أخرى يظهر المؤلف تشييعه الظاهر لليهود فهو لا يذكر السبب الذي حمل النبي (صلم) على القيام بغزوة خيبر مكتفيا بأن يقول انه أراد منها أن تكون وسيلة لرفع معنويات المسلمين بعد خيبة الأمل التي منوا بها في صلح الحديبية. لكن وقائع التاريخ تؤكد وجود أسباب أخرى منها اشتراك يهود خيبر في تحريض قريش على حملة الأحزاب وحصار المدينة، ومنها انهم لم يمتثلوا بمصر يهود المدينة فراحوا يستعدون لحرب يعلنونها على المسلمين . ومنها ان سلام بن مشكم وهو من زعماء يهود خيبر أعلن لقومه ان خطرا يهدد كيان اليهود في شمال الحجاز وان عليهم ان يبادروا لتأليف اتحاد يهودي يجمع يهود خيبر ووادي القرى ولذلك وتيماء ، ثم يرحلون على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية المشتركة. وقد علم النبي بكل ذلك وعلم ما هم عليه من قوة بأس ووفرة مال وسلح. ولم يكن هناك كما يقول الأستاذ محمود الدرة في كتابه « تاريخ العرب المسكوي » أي أمل في ان يعتنقوا الاسلام ولما كان الغرض الذي يرمى اليه النبي جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد وجد ان عليه ان يقضي على هذا الخطر الجديد الذي بدأ يتحمل للانقضاض عليه قبل ان يفكر في غزو بلاد الروم والفرس ، وهو مابداً يفكر به النبي جديداً في هذه الايام كما يظهر من رسالته الى ملوكهم داعياً اياهم الى الاسلام .

( العرب )

(٢) تظهر الطريقة التي يعرض فيها المؤلف الموقف، الحقد الدفين والخروج على الموضوعية ولو كان المؤلف منصفاً بعض الانصاف لما سمي غنائم المسلمين نهبا اذ انها شرمة الحرب ، ولعل المؤلف لم ينس ما فرضته دولته بريطانيا بعد انتصارها وحلفائها على ألمانيا في نهاية الحربين العالميتين من غنائم حربية على الشعب الألماني . كما نعتقد انه لم يكن لينسي مطلقاً ما كانت تبتزّه بلاده من الأراضي التي تحتلها أو تستمرها في افريقية وآسيا .

( العرب )

وكان النبي قد زوج ابنته فاطمة من ابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان قد رباه وكانه ولده وقد وضعت فاطمة ولدين هما الحسن والحسين اللذان قدر لمصيرهما المفجع أن يؤثر تأثيرا عميقا في التاريخ الاسلامي ولكن في هذه الايام المبكرة لم يكن هناك أى تكهن بالمصائب التي ستحل في المستقبل ، ولما كان النبي من أكثر الناس ولوعا بالاطفال فانه كان دائم اللعب مع حفيديه . وكانا حتى في الاوقات التي يؤدي فيها صلاته لا يتورعان عن الطلوع الى ظهره فينزلهما بكل رقة وحنان ويمضى في صلاته وعبادته

### \*\*\*

وتقول الروايات : انه في هذه الفترة في عام ٦٢٨ بعث برسله الى ملك الفرس وامبراطور الروم وحاكم مصر ونجاشي الحبشة يدعوهم الى الاسلام . ويقال: ان كسرى الفرس مزق رسالة النبي وأساء الى حاملها أما هرقل امبراطور الروم فقد تسلم الرسالة بشيء أقل من الغضب سائلا عن هوية مرسلها ، أما المقوقس حاكم مصر فقد تلقى الرسالة بقبول حسن ورد عليها معتذرا عن قبول الاسلام ، ولكنه حمل الرسول هدية الى النبي تضم جوادا جميلا وبغلة وحملا للركوب وجاريتين كانت احدهما مارية القبطية التي ولدت للنبي ابنه ابراهيم وهو الولد الذي توفي في سنى طفولته .

وتقول الروايات بالنسبة الى هرقل : ان أبا سفيان سار بعد صلح الحديبية على رأس قافلة تجارية الى الشام فالقت شرطة الروم القبض عليه في دمشق (١) . وكان هرقل قد أصدر أوامره بأنه راغب في لقاء أى قادم من الحجاز وهكذا نقل أبو سفيان الى القدس ليقابل الامبراطور فيها . وراح الامبراطور يسأله عن تفاصيل ما يقال عن اضطرابات في الحجاز وعن هذا النبي الجديد . ورد أبو سفيان بأن اتباع هذا النبي هم الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وان معارضيه هم ذوو الأسنان والشرف من قومه . ولو صحت هذه الرواية فانها لا تقيم الدليل على أن الامبراطور قد تسلم رسالة من محمد ، فلا بد أن يكون هرقل - وهذا شيء

(١) تقول رواية أبي سفيان نفسه ان لقاء القبض عليه تم في غزة لا في دمشق كما يقول المؤلف . وفي هذا دليل على افتقار المؤلف للدقة التاريخية .

طبيعي - قد تلقى معلومات من مخابرات حكومته عن الحركة الجديدة في  
الحجاز ولا بد أن يكون قد رغب في سؤال أى قادم من مكة عما سمعه  
للحصول على ما يريده من تفصيلات جديدة .

لكن بعض المؤرخين المعاصرين أثاروا بعض الشكوك في موضوع  
الرسائل فليس هناك فيما حفظ عن حياة النبي ما يشير الى أن النبي قد  
تصور أو توقع احتلال سوريا وفارس ولقد أدهشت الانتصارات العظيمة  
التي حققها العرب بعد وفاة النبي ، المسلمين أنفسهم وهي انتصارات  
ما كانت لتتحقق لو أن النبي قد تنبأ بوقوعها لكن مارية القبطية كانت من  
الناحية الأخرى شخصية تاريخية . ولا ريب في أن صورة بدوى بسيط  
حافى القدمين يتحدى ملك الملوك في قصره بفارس ، تعتبر صورة دراماتية  
مسرحية (١) .



(١) لا أدري هل هذا التشكيك في الرسائل ، فلقد اجبعت كتب التاريخ الاسلامي  
على وجود هذه الرسائل ونقلت نصوصها واسماء الذين حملوها ورويت كيف استقبل كل  
منهم في المكان الذي قصده . فقد حمل دحية بن خليفة الكلبي الرسالة الى ملك الروم  
وهذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم :  
السلام على من اتبع الهدى . اما بعد اسلم تسلم يؤتلك الله اجره مريم وان تتول فان  
الم الاكارين عليك » . وتضيف الروايات وهي صحيحة ان قيصر عندما تسلم رسالته  
جمع بطارقه وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فآظفروا كراهة ذلك ولا رأى  
تقويرهم قال انما قلت ماقلت لاخبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد  
الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة  
مؤته كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الامر قبل استفحاله .

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب الى النذر بن الحارث بن شمر الضمالي  
صاحب دمشق وكتب اليه « سلام على من اتبع الهدى وآمن بي واني ادعوك الى أن تؤمن  
بالله وحده لا شريك له يقيى لك ملكك » . ولما وصله الكتاب قال : « من ينزع ملكي  
منى أنا سائر اليه » ولم يسلم .

وبعث عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي بكتاب يدعو فيه الى الاسلام ويطلب  
منه أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجري الحبشة لفعل النجاشي ما طلب منه فأرسل  
جعفرًا وأجاب الى الاسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ومعه كتاب فيه « بسم الله الرحمن  
الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن  
بالله ورسوله وشهد الا اله الا الله واني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان  
حيا . اسلم تسلم فان أبيت فانما عليك الم المجوس » فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك  
رسول الله ( صلى ) قال « مرق الله ملكه » ، ثم كتب كسرى الى باذان عامله على اليمن  
« ابعت الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك فليأتياي به » ولكن أمره لم  
ينفذ .

أراد المسلمون في السنة السابعة للهجرة • أي بعد عام واحد من صلح الحديبية أن ينفذوا الحق الذي نص عليه هذا الصلح وهو الحج إلى مكة • وخرج نحو من ألفين من المسلمين ينتهزون الفرصة لأداء العمرة. وراحت قريش رغبة منها في اجتناب الصدام المسلح مع المسلمين أو خشية منها في أن يتمكن الرسول ببليغ قوله وفصيحه كلمه من هداية عدد جديد من أبنائها وتحويلهم إلى الاسلام تجلو عن مكة جلاء كاملا وتنتشر على سفوح الجبال المطلة على المدينة وقد استبد بها الفضول لرؤية ما سيفعله المسلمون • وظهرت أخيرا طليعة الراكب مطلة من الوادي الضيق الملى بالغبار والذي تسير فيه الطريق المؤدية إلى المدينة • وكان النبي على رأس الراكب وقد أحاط به أبو بكر وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ورهط من صحابته وسار وراءه وسط عاصفة من الرمال نحو ألفين من المسلمين بعضهم يركب الإبل والبعض الآخر يمشي على الأقدام واتجهه النبي فورا إلى الكعبة فلمس الحجر الأسود ثم طاف بالبيت سبع مرات • وكان هذا الطواف من التقاليد التي عرفت قريش في عهد الجاهلية ثم سار عليها الاسلام •

وكان العباس بن عبد المطلب عم النبي قد بقى في مكة ولم يبرحها مع قريش وإن لم يكن قد أشهر اسلامه بعد • وكان قد بعث برسالة سرية إلى ابن أخيه قبل معركة أحد يحذره فيها من نيات قريش • وراح يرحب به. الآن وهو يدخل إلى مكة مبلغا إياه أنه قد أعد له عروسا يبنى بها على الفور محاولا بذلك أن يكسب مودة ابن أخيه الذي بدا له الآن جديرا بالتقرب والود (١) • وقد اختلف المؤرخون في سلوك العباس اختلافًا

---

= وبعث خاطب بن أبي بلتعة إلى القوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذي بعث إلى رسول الله (صلم) «بما رية القبطية» أم إبراهيم فكان بذلك الرحم الذي بين العرب وأهل مصر •

وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هودة بن علي الحنفي وبعث العلام بن الحظرمي إلى النذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزد بين هذه حقائق تروى كتب التاريخ العربي وتروى أسماء خاتمي الرسائل فهل يمكن لمؤرخ يدعى الموضوعية أن ينكرها إلا إذا كان يريد المبالغة ويريد التشكيك في صحة التاريخ الاسلامي !! (المعرب)

(١) يناقض المؤلف نفسه بنفسه فهو يقول قبل قليل بأنه كان على أن يصل إلى النبي منذ أمد طويل مما يظهر إخلاصه له ثم يعود فيحاول تصويره بالإنسان الأنهازى الذي مال إلى التقرب من النبي بعد أن قويت شوكة وأصبح جديرا بالتقرب • أما التفسير الصحيح لسلوك العباس في رأي فهو أن العصية القبلية عنده كانت أقوى من

كثيرا فادعى بعضهم انه كان قد أسلم منذ أمد طويل وانه كان مخلصا في اسلامه ولم يبق كل تلك المدة في مكة متظاهرا بالشرك الا لخدمة مصالح ابن أخيه . ورأى بعضهم انه كان صورة مبكرة لرأى أبرشية برى (The vicar of Bray) (١) متظاهرا بالاخلاص لقريش ومتصلا سرا بالمسلمين . وقد قدر لهذا العربي الذكى ان لم نقل هذا البدوى الماكر أن يكون جد أسرة أضحت من أقوى الاسر الحاكمة في تاريخ العالم ومن هنا تنشأ الصعوبة اليوم في الحكم على شخصيته وسلوكه . فلقد رأى المؤرخون العرب بعد نحو من قرن وبعد أن أصبح أحفاد العباس خلفاء ان مصلحتهم تقضى بأن يصوروه في أحسن صورة .

وكان من أهم النتائج التى حققها اتساع نفوذ محمد وانتشار شهرته الآن تحول عهد من أبرز قادة قريش العسكريين الى الاسلام وفي طليعتهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة . ولقد سبق لنا أن رأينا ان خالدا وعمرا كانا السبب في انتصار قريش في أحد . وذلك بالتفافهما على رأس الفرسان حول جناح المسلمين وقدر لهما أن يصبحا من أعظم قادة المسلمين العسكريين بعد قليل . أما عثمان بن طلحة فكان من أبرز رجالات قريش اذ بيده سدانة الكعبة وهو حق ورائى في آل عبد الدار أبرز بطون قريش ، وهكذا تحول سدان كعبة المشركين الى الاسلام ، وليس ثمة من شك في أن تحول هؤلاء البارزين الى الاسلام وسلوك المسلمين الرائع في مكة في أيام العمرة الثلاثة قد تركا أثرا ملحوظا عند أهل المدينة .

وعلى الرغم من أن خروج العام المنصرم الى الحديبية كان عملا سابقا لأوانه الا أن فكرة النبي في أداء فريضة الحج كانت فكرة رائعة حقا فلقد

---

= ايمانه باصنام الكعبة وان لم يكن قلبه قد امتدى حتى تلك اللحظة بنور الاسلام ، ومن هنا فان مساعدته للنبي كانت ثمرة ارتباطه المائلى به لا ثمرة انتهازية او نفاق كما يحاول المؤلف ان يصوره . ( العرب )

(١) رأى ابراهيم «برى» في انجلترا . . هو وصف يطلق على كل انتهازى متافق لا مبداء له ولا عقيدة ويذى هذا الرجل «سيمون الين» وكان راعيا لكنيسة برى في عهد هنرى الثامن ملك انجلترا . وتمكن من المحافظة على منصبه رفعا عن التقلبات الدينية في انجلترا في تلك الايام طيلة عهد ادوارد السادس ومارى والىصابات من طريق تكيف عقيدته طبقا للعهد الحاكم اى بالتقلب من الكاثوليكية الى البروتستانتية وبالعكس وكانت شخصيته الفكرة التى صورتها قصيدة « في العصر الذهبى أيام شارل الثانى الطيب » وأضحت بعد ذلك مثلا يضرب للانتهازية والظنون العقائدى .

( العرب )

كان من أهم أسباب مقاومة قريش للإسلام اعتقادهم بأن تقبل هذا الدين الجديد سيؤدي إلى الحط من شأن الكعبة ويضع نهاية لمركزها المبجل كمدينة مقدسة ، أما وقد أظهر النبي أنه يحترم هذه الكعبة وأن الإسلام يفرض على أتباعه أداء طقوس الحج القديمة ، فإنه بعلمه هذا أقنع المكيين بأن الإسلام لن يؤدي بأية حالة من الأحوال إلى الحط من شأن مدينتهم وقد تأيد هذا الاجراء بالقول بأن إبراهيم النبي هو الذي بنى الكعبة وأن رسالة محمد هي بعث دين إبراهيم حنيفاً . وكان النبي يقول : ان اليهود والنصارى قد انحرفوا عما في دين إبراهيم الجد من طهر ونقاء كما أن قريشا يجعلها الكعبة مستودعا للاصنام والوثان قد انحرفت أيضا عن دين إبراهيم . لكن شرك قريش لم يؤد على أي حال إلى الانقاص من قداسة الكعبة بيت الله العتيق وكل ما يطلب الآن هو تطهيرها من رجس هذه الوثان . وكانت هذه الأقوال كافية لاقتناع أهل مكة بأن الإسلام لا ينتقص من قدرهم ولا من قدر كعبتهم .

يضاف إلى هذا أن محمداً قد غدا الآن وعلى الرغم من اعتباره رسمياً العدو الأول لمكة صاحب قوة وسلطان يفرضان على العرب في جميع أنحاء الجزيرة احترام صاحبهما، وأخذ القرشيون يتساءلون في قرارة ضمائرهم ترى هل من الحكمة أن يناصبوا العداء أعظم من أنجبته قبيلتهم من رجال؟ وليس ثمة من شك في أنهم كانوا يتابعون بشيء من الحسد والغيرة هذه الوفود وهي تتجه من جميع أنحاء الجزيرة إلى محمد لتعرض عليه احترامها واجلالها . وسرعان ما غدا هذا التحول في الرأي العام في مكة ظاهراً يتسلط على أغلبية الناس فيها .

وأوفد النبي في عام ٦٢٩ عدداً من الحملات العسكرية والغزوات . وكان النصر من نصيب بعضها كما كان الفشل نصيب بعضها الآخر . وقد يكون من الطريف كل الطرافة أن نقارن هذه الأساليب بتلك التي اتبعها الوهابيون في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين . فلقد وضع الوهابيون مخططهم عن سابق عمد واصرار على الأسس نفسها التي اتبعها المسلمون الأول ولم يكن النبي قد وجه أية قوة ضخمة كبيرة لمحاربة قبائل البادية إذ ركز عملياته العسكرية الكبيرة على محاربة قريش أما الحملات على البدو فكانت من النوع الارتجالي ، وتقوم بها قوات صغيرة وبهذا يمكن تفسير نجاح بعضها وفشل بعضها الآخر وإن كان تكررها يحمل طابع الفائدة إذ يقنع القبائل البدوية بالأخلاق لها من هذا الازعاج إلا بالاذعان لارادة محمد .



ويبدو لي أن أساليب الوهابيين التعبوية كانت أكثر كفاية ونشاطا  
 إذ بينما كان ابن سعود يسمح لرجالہ بغزو القبائل غير الوهابية متى  
 شاعت فانه كان يحشد قواته كاملة من وقت الى آخر ليهاجم بها هجوما  
 كاسحا قبيلة كانت ترفض الاذعان له باعثا بما يوجهه اليها من ضربات  
 عنيفة ، الفزع والرعب في قلوب القبائل الاخرى ، مما يدفعها الى  
 الاستسلام له فورا وسنرى فيما بعد كيف ان الخلفاء اتبعوا هذه الاساليب  
 بعد وفاة النبي ، ولا ريب في ان عدم لجوء النبي الى هذه الاساليب يمكن  
 ان يعزى الى أن النبي لم يكن واسع الاهتمام بالشئون العسكرية ولم يكن  
 يوليها الكثير من تفكيره . يضاف الى هذا ان شخصية النبي كانت طاغية  
 بما عرف عنه من قدرة على الاقناع والتأثير بحيث استطاع أن يكسب  
 الانصار دون الحاجة الى اللجوء الى نظام عسكري فعّال . وأصبح من  
 الضروري بعد وفاته اللجوء الى استخدام القوة بصورة أكثر تنظيما وذلك  
 بضبط المسلمين والسيطرة عليهم .

• ومع كل هذه العوامل فقد أعد النبي في شهر سبتمبر (ايلول) عام  
 ٦٢٩ حملة عسكرية كبيرة الاهمية وكثيرة التنظيم وكان القصد منها غزو  
 بعض الاراضي الخاضعة للسيطرة البيزنطية ، وتقول الروايات العربية : ان  
 القصد من الحملة كان الثار لبعض الرسل المسلمين الذين أوفدهم النبي  
 الى المنطقة (١) . وكان الثار دافعا أقسوى في الحروب العربية من الفتح  
 والاحتلال . وكان النبي قد بلغ الواحدة والستين من عمره في هذه الآونة  
 وخطط الشبيب فوديه ولذا لم يرافق أيا من الحملات التي أوفدها في تلك  
 السنة الثامنة للهجرة .

وأقام النبي معسكرا على بعد بضعة أميال الى الشمال من المدينة  
 وأمر المتطوعين من المسلمين بالتجمع فيه وولى زيد بن حارثة ولده بالتبني  
 قيادة الحملة التي ضمت نحو من ثلاثة آلاف رجل . وكانت هذه هي  
 الحملة الاسلامية الاولى على هذا النطاق الضخم التي خرجت الى هدف  
 بعيد عن المدينة . وتطلب اعداد مثل هذه الحملة وقتا طويلا ولذا فان  
 أنباءها بلغت ما يسمى الآن بشرق الاردن قبل تحركها .

(١) تروى كتب السيرة أن شرحبيل بن عمرو أمير القساسنة كان قد قتل الحارث .  
 ابن عمير الأزدي الذي أوفده النبي عليه السلام الى هرقل وان مقتله سبب لما شديدا .  
 للنبي فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله .

ويبدو أن المسلمين وكانوا لا يزالون يعتمدون في نصرهم على النصرة  
 الإلهية وعلى معنوياتهم العالية قد أهملوا إيفاد العيون لرصد حركات  
 العدو وتنقلاته ولم تبلغهم أنباء حشد العدو لقوة عسكرية ضخمة في موآب  
 (الكرنك) من أرض إبلقاء حتى كانوا قد وصلوا إلى معان • وأمر القائد  
 بقوته بالتوقف وانقضى يومان في تقاسم بين قادة المسلمين ليقرروا إما  
 المضى في حملتهم أو الرجوع إلى المدينة • وكان موقف عبد الله بن رواحة  
 وهو أحد المسلمين الأوائل ومن أشد المسلمين حماسة وتعصبا هو الذي  
 قلب الوضع تماما فقد انبرى يقول : « يا قوم والله إن التي تكرهون للتي  
 خرجتم تطلبون الشهادة • وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة  
 وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي آكرمنا الله به فانطلقوا فانما هي إحدى  
 الحسنين أما ظهور وأما شهادة » وصدق الناس ابن رواحة ومضوا على  
 التو في زحفهم للقاء الروم •

واتجه الغزاة شمالا وقد جعلوا سلسلة جبال إبلقاء العالية والطويلة  
 إلى يسارهم بينما انحدرت سفوحها نحو الشرق لتذوب في هذه الآماد  
 الفسيحة من الصحراء وعبر المسلمون هذه السفوح على بعد خمسين ميلا  
 إلى الشمال من معان ليجدوا أنفسهم وجها إلى وجه أمام قوة تبلغ أضعاف  
 أضعافهم جلها من القبائل البدوية الموالية للروم وتعززها كما تقسول  
 الروايات العربية بعض قوات الروم ، ولعلها كانت تؤلف بعض الحاميات  
 الرومانية المرابطة في المنطقة • وهناك على مقربة من قرية مؤتة الصغيرة  
 سهل صغير يقبع بين هذه السلاسل الجبلية المسماة بجبال إبلقاء • وقرر  
 المسلمون أن يخوضوا المعركة في هذا السهل • والتقى الناس واقتتلوا  
 وقاد زيد بن حارثة ، وراية النبي في يده ، هجوم المسلمين مقتحما صفوف  
 الروم حتى قتل برماهم ، وانبرى جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي  
 يحمل الراية من زيد الشهيد ويقتحم صفوف الروم قائلا ...

يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وباردا شرابها  
 والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها  
 على أذ لاقيتها ضاربها

ويبدو أن عرف العرب بأن يحمل القائد نفسه الراية ويخوض بها  
 المعركة لم يكن يصلح للمعارك المنظمة وإن صلح لطراز الحروب العربية •  
 وأطبق العدو على جعفر البطل وسرعان ما وقع مثخنا بالجراح • وتقول  
 الروايات العربية : أن جعفرا أخذ اللواء يمينه فقطعت فأخذه بشماله

فقطعت فاحتضنه بعضده حتى قتل على يد جندي روماني ، وراح عبد الله.  
ابن رواحة يحمل الراية فورا وعندما نظر الى صفوف المسلمين وقد علاها  
الاضطراب اقتحم صفوف العدو وهو يقول :

يا نفس الا تقتلى تمسوتي هذا حمام الموت قد صليت  
وما تمنيت فقد أعطيت ان تفعل فعلهما هديت  
وظل يقاتل ويتقدم حتى قتل وهو ينشد الجنة التي طالما تلهف  
اليها .

وكان خالد بن الوليد وقد تحول أخيرا الى الاسلام يقاتل بين  
المسلمين . وكان أكثر خبرة في القيادة العسكرية من زيد أو جعفر وقد  
يكون أقل تشوقا منهما الى الجنة (١) . وعندما تولى القيادة في هذه اللحظة  
من الانكسار أفلح في أن يسيطر بشخصيته القوية الأسرة على من تبقى  
من المسلمين . وثبت أحد الانصار الراية في الارض فالتف حولها  
المسلمون . وأخذ خالد يتأخر بهم قليلا قليلا مع الاحتفاظ بالنظام حتى  
انسحب من الميدان دون أن يلحق به الروم الذين كانوا قد أجهدوا كل  
الاجهاد (٢) .

ويقوم مسجد الآن في أرض مؤتة وله مئذنتان عاليتان وفي هذا  
المسجد ضريح جعفر بن أبي طالب وكان الضريح مهديا ومهملًا في عشرينات.  
القرن الحالي واني لأعترز كل الاعتزاز لان الجيش العربي الاردني هو الذي  
تولى اصلاح الضريح وبناء مئذنتيه (٣) ومازال أهل مؤتة يعتقدون حتى

(١) محاولة مكررة من المؤلف للتشكيك في صدق اسلام خالد بن الوليد مع ان اى  
تفكير في طبيعة هذا القالد الكبير تجعله أبعد الناس من الزيف ولا سيما أنه لم يكن مرغبا  
على الاسلام لو لم تكن نيته صادقة فيه . مع العلم بأنه كان يحتل منزلة رفيعة في قريش  
بسبب مهارته العسكرية .

#### ( العرب )

(٢) تقول احدى الروايات العربية ان الروم لم يلحقوا بجيش المسلمين لانهم ظنوا  
أن خالدا يخدمهم حتى يرمى بهم في الصحراء .

(٣) دليل واضح واعتراف صريح من المؤلف بالدور الذي كان يؤديه في الاردن  
بتولييه قيادة الجيش العربي الاردني الذي كان يعتبره جلوب جيشه الخاص أو جيش  
بلاد بريطانيا التي تولى خدمة مصالحها ، فهو يعلن اعتزازه . لان الجيش الاردني هو  
الذي بنى المسجد ، وأنا لا أنهم هذا الاعتزاز اذا كان جلوب يعتبر نفسه مجرد قائد  
لهذا الجيش لكن اعتزازه هذا ناجم عن اعتباره الجيش ملكا له ومن هنا نستطيع أن  
نفهم حقيقة الدور الذي اداه جلوب في قيادته لهذا الجيش ابان حرب فلسطين وفي  
جميع المارك العربية التي تلت هذه الحروب الى ان اخرج شباطه الاحرار جلوب من  
قيادته ليعربوا الجيش ويحولوه الى جيش عربي يخدم العروبة ليس الا .

#### ( المغرب )

يومنا هذا ان جيشا من أشباح المسلمين يزحف عند فجر كل يوم من أيام الجمعة عبر السهل متجها الى الشرق حاملا رايته البيضاء ليشن هجوما عنيفا كاسحا على المكان الذي كان يقف فيه جنود الروم .

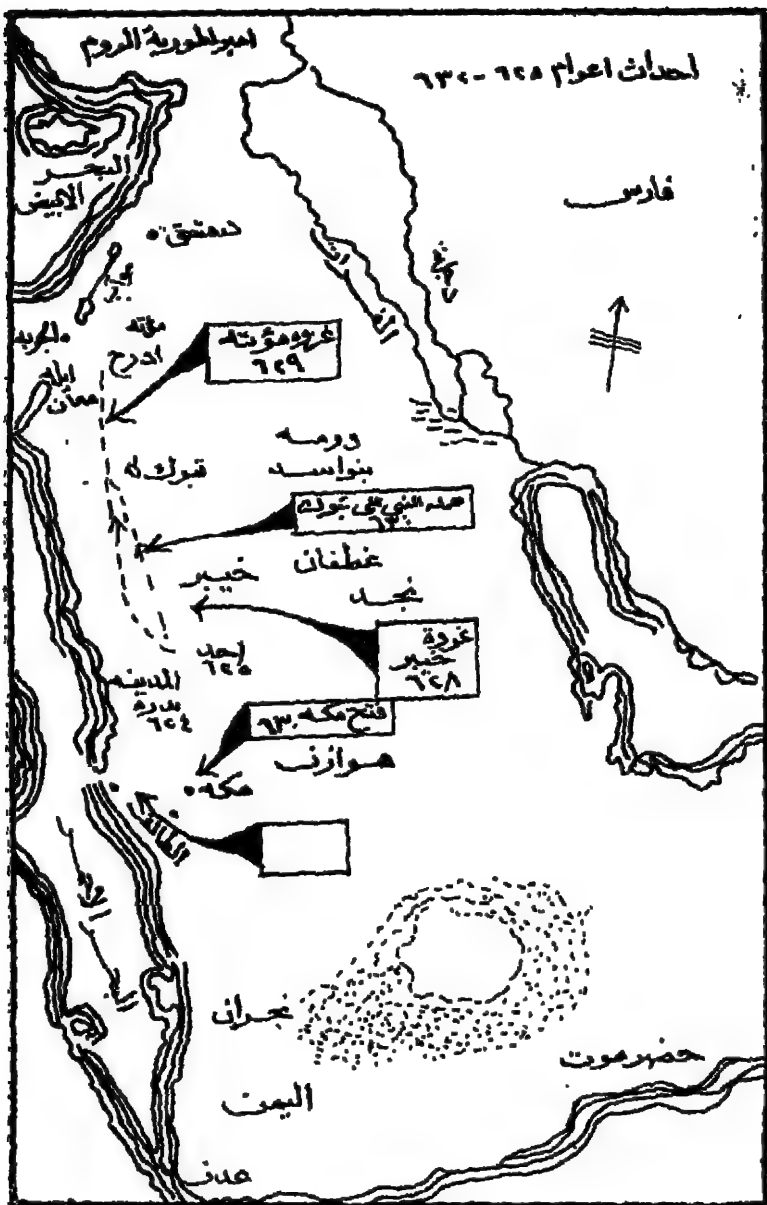
وعندما اقترب المسلمون المتراجعون من المدينة تلقاهم رسول الله والمسلمون في خارجها وأخذ الناس يحثون على الجنود التراب ويقولون « يافرار فررتم في سبيل الله » ولكن محمدا بتلك الابوة الرحيمة التي عرفت عنه والتي كان يحسن استعمالها راح يقول : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله تعالى » . وأسرع النبي الى بيت ابن عمه جعفر حيث احتضن أولاده وعيناه مفرورقتان بالدمع ثم قصد بيت زيد حيث احتضن طفله الصغيرة التي جاءت الى النبي مهرولة وقد أشرق وجهها بالدمع ، وراح النبي يعلن في المسجد في اليوم التالي انه رأى في نومه شهادة مؤتة في فراديس النعيم على سرر من ذهب ، وكان جعفر على هيئة ملاك له جناحان خضبتهما دماء الشهادة . ولعل هذا هو السبب الذي دعا الناس فيما بعد الى تسمية جعفر بالطيار .

وعلى الرغم من نكسة مؤتة فان عددا من القبائل العربية أوفدت رسلها وبعوثها طيلة عام ٦٢٩ تنشد صداقة النبي والتحالف معه .



وكان الرأي العام في مكة قد تحول في هذه الآونة تحولا واضحا الى جانب المسلمين وأدرك النبي ان الوقت قد حان لتوجيه ضربته النهائية الى قريش . وسرعان ما أمنت له القبائل البدوية الذريعة أو المبرر . وكانت هناك قبيلتان احدهما تسمى خزاعة والآخرى بنو بكر تعيشان متجاورتين خارج مكة وبينهما ثارات قديمة منذ عهد الجاهلية . وكانت خزاعة حليفة للنبي بينما كان بنو بكر حلفاء لقريش . وحدث في هذه الآونة أن أرادت بكر الثار من خزاعة فخرج نفر منها لمباغطة أعدائهم على ماء خارج مكة وأوقعوا بالخزاعيين عددا من الاصابات القاتلة . وخرج بديل بن ورقاء أحد شيوخ خزاعة والذي قام بدور الوساطة في الحديبية على رأس وفد من قومه الى المدينة فأخبروا النبي بنقض قريش لعهدا وان غدر بنو بكر حلفاء قريش يعتبر خرقا لمعاهدة الحديبية .

ويبدو أن النبي قرر ان الفرصة جد مواتية للقيام بعمل حاسم ازاء قريش وراح في يناير (كانون الثاني) عام ٦٣٠ يأمر المسلمين بالتأهب للحرب وسيطر العرب على زعماء قريش الذين كانوا يدركون ولا شك



مما بلغ اليه نفوذ محمد وسلطانة وراح أبو سفيان قائدها في معركة أحد ، وأحد كبار أعداء النبي ومعارضيه يسرع الى المدينة ولكن هذا القائد المتفطرس وزعيم قريش لم يستطع مقابلة النبي اذ رفض السماح له بمقابلته واضطر الى أن يرجو أبا بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب الوساطة والشفاعة عند محمد فضمنوا بها عليه وعاد الى مكة مخذولا . مهانا (٩) .

(١) في رواية المؤلف بعض الخطأ فلقد قابل أبو سفيان النبي ( صلم ) ولكنه لم يستمع اليه كما ان سفارة أبي سفيان لم تكن نتيجة علم قريش بما اعترمه النبي اذ حافظ النبي أشد الحفاظ على سرية الحملة ولم يطلع عليها حتى أشد الناس قربا اليه ، وانما كانت نتيجة خوف قريش من النبي بعد نقضها لمهدا في النزاع الذي وقع بين خزاعة وبين بكر . وهذه هي الرواية الصحيحة كما نقلها ابن اسحق وابن هشام .

خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ( صلم ) في المدينة فدخل على ابنته حبيبة زوج النبي فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول (صلم) طوته منه فقال يابنية ما ادري اريقت بي من هذا القراش ام رقيت به عني قالت بل هو فراش رسول الله . وانت رجل مشرك نجس ولم احب أن تجلس على فراش رسول الله (صلم) قال : والله لقد أصابك يابنية بعدى ثم خرج حتى أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب الى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ( صلم ) فقال ما انا بفاعل ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال انا أشفع لكم الى رسول الله ( صلم ) ؟ فوالله لو لم أجد الا للدع لجاهدكم به . ثم خرج الى علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت النبي ( صلم ) وعندها الحسن بن علي غلام يدب بين يديها ، فقال ياعلى انك أمس القوم بي رحما ، وانى قد جئت في حاجة فلا أرجن كما جئت خائبا فاشفع لى الى رسول الله . فقال على : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ( صلم ) على امر ما نستطيع ان نكلمه فيه فالتفت الى فاطمة وقال : يا ابنة محمد هل لك ان تأمرى بنيك هذا فيجيب بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر . قالت : والله ما بلغ بنى ذاك ان يجيب بين الناس وما يجير احد على رسول الله . قال : يا أبا الحسن انى ادري الامور قد اشتدت على فانصحنى قال : والله ما أعلم لك شيئا يفنى منك شيئا ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا قال : لا والله ما اطنه ولكنى لا أجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال : ارحمها الناس انى قد أجزت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك قال جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد على شيئا ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم وقد أشار على بشيء صنعته فوالله ما ادري هل يفنى ذلك شيئا أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك قال أن أجير بين الناس ففعلت قالوا هل أجار ذلك محمد ؟ قال لا : قالوا ويلك ! والله ان زاد الرجل على أن لعب بك فما يفنى منك ما قلت .

( الحرب )

وخرج محمد في عشرة آلاف من المسلمين قاصدا مكة في يناير عام ٦٣٠ . وكان المهاجرون والانصار يسرون خلفه مسيرة رجل واحد ولكن معظم القوة كان من أبناء القبائل (١) وانضم اليه بنو سليم وكانوا لا يزالون معادين له وهو في طريقه الى مكة ومضى الجيش في زحف سريع حتى بلغ «مر الظهران» في خارج مكة ولم تكن قريش قد عرفت بعد بما فعله المسلمون . وأدرك العباس عم النبي . ان النهاية غدت قريبة وحتمية فهجر مكة أخيرا وانضم الى جيش المسلمين الزاحف (٢) .

وجاء أبو سفيان نفسه في تلك الليلة طالبا الاستسلام لمحمد . وهب عمر بن الخطاب يطلب من النبي السماح له بقتله ولكن النبي دعاه بلهجة رقيقة الى الاسلام وراح هذا المحارب العجوز الكبير حتى في موقفه هذا وهو وحيد بين عشرة آلاف مسلم يعترف بوحدانية الله ويظهر بعض الشكوك في رسالة النبي ولكن شكوكه هذه ما قتلت ان زالت عندما راح العباس يقول له بحماسة من أسلم حديثا « ويحك أسلم واشهد ألا اله الا الله وان محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك » . ولم يكن في وسع أبي سفيان أن يناقش فاشهر اسلامه فوراً (٣) .

(١) تروى كتب السيرة ان قوة المسلمين ضمت سبعمائة من قبيلة سليم والفا من مريضة وأربعمائة من بنى غفار وأربعمائة من بنى أسلم ونفرا آخر من تميم وقيس . وأسد .

(٢) يحاول المؤلف مرة أخرى التشكيك في اسلام العباس مع ان السياق التاريخي للقصة يشير الى ان العباس كان على اتصال بالنبي قبل أن يسلم هنا . وهذا الاتصال هو وحده الذي يفسر كيف علم العباس بمسيرة المسلمين الى مكة في الوقت الذي لم تكن قريش تعرف عنها شيئا كما سنرى في الهامش اللاحق وكيف ذهب الى لقاء محمد قبل أن تعرف قريش شيئا عن مجيئه .

(٣) في قصة اسلام أبي سفيان بعض الاخطاء . وأرى ان ارويها كما رواها ابن هشام في سيرته : « لما نزل النبي مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله ( صلم ) مكة عنوة قبل ان ياتوه فيستأمنوه فانه لهلاك قريش الى آخر الدهر . وخرج العباس على بغلة الرسول البيضاء حتى وصل الراء فلعله يجد بعض الخطابة او صاحب لبن او ذا حاجة ياتي مكة فيخبرهم بمكان الرسول ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل ان يدخل عليهم عنوة . وبينما هو في طريقه سمع كلاما تبينه بانه كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وسمع ابا سفيان يقول : « ما رأيت كاليوم نيرانا قط ولا مسكرا وبديل يرد عليه : هذه والله خراة خمستها الحرب ، ويرد أبو سفيان قائلا خراة أقل من أن تكون هذه نيرانا ومسكرا ، وهتف العباس بهما قائلا : ويحك أبا ابا سفيان هذا رسول الله في الناس واسنباخ قريش والله وقال أبو سفيان فما الحيلة ؟ فذاك أبي وأمي . قال العباس والله لئن ظفر بك ليضربن =

وأملى النبي شروطه • وأمر أبا سفيان بالعودة سراعا الى مكة ليعلن  
فى الناس ان من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن  
ومن دخل المسجد (الكعبة) فهو آمن •

وراح جيش المسلمين الذى يضم عشرة آلاف مقاتل يخرج من بطون  
الجبال متجها الى مكة وقرر النبي تقسيم قوته الى أربعة ارتال أولها رتل  
يقوده أبو عبيدة بن الجراح الذى سئسمع عنه كثيرا فيما بعد ويضم  
المهاجرين وبينهم النبي نفسه ليدخل المدينة من شمالها الغربى • والى  
اليسار رتل يقوده الزبير بن العوام ويسير فى خط مواز لخط الرتل  
الاول • أما الرتل الثالث فيقوده سعد بن عبادہ شيخ الخزرج ويدخل من  
الناحية الغربية بينما يقود خالد بن الوليد الرتل الرابع الذى يضم فئات  
من مختلف القبائل ومهمته الالتفاف حول المدينة والدخول اليها من  
الجنوب • وأمر النبي قادة الارتال بشيء من الصرامة بالأا يقاتلوا ولا يسفكوا  
دما • وأقيمت للنبي قبة على أرض مرتفعة تطل على المدينة التى كان النبي  
قد غادرها قبل ثمانى سنوات فرارا من بطش أهلها تحت جنح الظلام  
والتي اختفى منها فى غار ثور القريب منها ثلاثة أيام وهو الغار الذى  
يراه الآن من قبته • أما الآن فهناك ثلاثة آلاف محارب يسرون تحت  
أمرته لاقتحام مدينته التى نشأ فيها والتى تقف الآن جاثية أمام ارادته •

وبعد استراحة قصيرة ركب النبي ناقته القصواء ودخل المدينة الى  
أن جاء البيت قطاف به سبعة على راحلته ثم وقف على باب الكعبة وأمر

---

عنك ، فاركب في عجز هذه البفلة حتى أتى بك رسول الله فاستأمنه لك . فركب  
أبو سفيان خلفه ووجع صاحبه وجاء به الرسول لم يدخل عمر بن الخطاب قائلا : يارسول  
الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير مقد ولا عهد فنعنى فلاضرب عنقه • ورد  
العباس • . يارسول الله انى قد أجرته • وجلس العباس الى رسول الله ( صلعم )  
فاخذ براسه وقال : والله لايناجيه الليلة دونى رجل فلما أكثر عمر في شأنه قال العباس:  
مهلا يامر وقال النبي • . اذهب به يا عباس الى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به • فذهب  
به وبات عنده ولما أصبح غدا به الى رسول الله • . فلما رآه الرسول قال • . ويحك  
يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انه لا اله الا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك  
وما أكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله اله غيره لقد اغنى عنى شيئا  
بعدقال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انى رسول الله ؟ قال بأبى أنت وأمى  
ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئا فقال  
له العباس • . ويحك اسلم واشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله قبل أن تضرب  
عنقك فشهد أبو سفيان شهادة الحق واسلم •

( الحرب )



بتطهيرها من الاصنام والقذف بها من أماكنها . ثم أمر مؤذنه بلالا الحبشى بأن يؤذن للصلاة ووقف المسلمون وراء أنبي يؤمهم فى صلاته ويؤدون الفريضة . وعاد قاهر المناادين بأن يسادوا فى الشوارع بتحطيم جميع الاصنام والتمائيل فى البيوت .

ولم يخطر ببال محمد المنتصر الفاتح أن يثار أو ينتقم فقد أعلن لأهل مكة . . « اذهبوا فانتم الطلقاء » ولم يستثن من هذا العفو العام الا عددا قليلا دون العشرة أمر النبى بقتل أربعة منهم فقط لكثرة ما كان منهم من أذى للمسلمين . وفر عكرمة بن أبى جهل الى اليمن فتشفعت له زوجته عند النبى فعفا عنه وعاد بعد أن ذهبت اليه هذه المرأة الباسلة لتستدعيه وبات عكرمة بعد سنوات قليلة من أبرز قادة المسلمين . وكانت هند زوج أبى سفيان المرأة المتوحشة التى مثلت بجثة حمزة فى معركة أحد بين اللاتى أهدر الرسول دماهن ثم عاد فعفا عنها .

وكانت الخطوة التالية التى قام بها النبى استدعاءه أهل مكة جميعا الى الكعبة لأداء يمين الولاء له . وراح الرجال يمرون بالنبى أولا ، وكل منهم يضافحه ويمسك بيده برقة ودعائه ويبايعه تماما كما بايعه السبعون الاول من الانصار من أهل المدينة فى بيعة العقبة قبل ثمانى سنوات . وعندما انتهت بيعة الرجال جىء بالنسوة الى ساحة الكعبة وجاءت هند امرأة أبى سفيان مع النسوة وقد اختمرت لتخفى وجهها عن النبى وبدأ النبى حديثه اليهن بخطبة قصيرة أعلمهن فيها أنه يريد منهن أن يبايعنه ويقسمن على الولاء للإسلام ويشهدن شهادة الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وكان النبى قد اكتفى بطلب البيعة من الرجال فهبت هند والنبى لا يعرفها تقول : « انك تطلب إلينا ما لم تطلبه من الرجال » . وعرف النبى على الفور هوية التى قاطعته فسألها أو لست هندا ؟ « قالت بلى من الجراء » أجل أنا هند . فأكد لها النبى بصوته الهادى الوقور انه قد عفا عنها لان الله غفور رحيم (١) .

وعاد النبى يواصل حديثه اليهن عن عادات الجاهلية وأن يحصن فروجهن ولا يثدن بناتهن . وراحت هند تقاطعه قائلة : « لقد أنشأنا أولادنا وجئت تقتلهم بعد أن شبوا فى بدر » ولا ريب فى أن هذه المرأة

---

(١) لم أستطع العثور على تأييد لهذه الرواية في كتب السيرة .

كانت من النوع الذى لا يحتمل لعنفوانها وغطرسيتها • ومن حقنا أن نرى  
لأبى سفيان احتمال العيش معها •

وأمر النبى عمر بن الخطاب بأن يتلقى البيعة من النسوة نيابة عنه  
اذ عرف ان النبى لم يلمس فى حياته يد امرأة غريبة عنه • ولا ريب فى  
أن هذه الحثمة قد تكون موضع الاستغراب عند الاوربيين نظرا لسماعهم  
بأن النبى قد بنى باحدى عشرة زوجة وجارية واحدة. ولكن هذا الاستغراب  
يزول اذا عرفت الاسباب التى أدت الى زواج النبى من هذا العدد الكبير  
من النسوة، يضاف الى هذا ان هناك ناحية فى الاسلام يصعب على الغرب  
فهمها ، فللمسلم اذا شاء أن يتزوج من أربع نسوة ولكن عقاب العلاقات  
الجنسية غير المشروعة صارم فى الاسلام كل الصرامة • ويعتز الغرب كل  
الاعتزاز بأن نظامه يقوم على الزواج بواحدة ولكن الغربى يلهو بعدد من  
العلاقات غير الزوجية • ويظهر هذا الحادث ان نساء المسلمين الاول لم يكن  
من النوع الذى يقبع فى الجحور وان العرب لم يعرفوا ظاهرة « الحريم »  
التي تلصق خطأ بالعرب وقد عفا النبى عن هند ولكنه لم يعف عن قينة  
كانت تنشد الاغانى فى هجاء النبى والمسلمين •

وهكذا تم فتح مكة دون اراقة دماء الى حد كبير • وقد قتل خالد بن  
الوليد الحاد المزاج بعض الناس عند باب المدينة الجنوبى وأنبه النبى  
تأنيبا حادا على ما فعله (١) • وعلى الرغم من ان النبى كان قد عانى  
الاضطهاد فى مكة وعلى الرغم من أن عددا من الد أعدائه كانوا لا يزالون  
يعيشون فيها الا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو فى  
يوم انتصاره. ولا ريب فى أن هذا التسامح أو هذه الفطنة السياسية التى  
أتصف بها النبى كرجل دولة كانت غريبة على العرب الذين كانت صفة

---

(١) يحاول المؤلف هنا أن يعطى صورة مشوهة من الحقيقة ليظهر أن خالد بن  
الوليد عصي أمر الرسول بقتله بعض الناس وأن النبى أنبه على عصيائه ، أما الحقيقة  
التي رواها كتب التاريخ العربى فهي أن بعض مقاتلة قريش اعترضت رتل خالد بن  
الوليد عند أسفل مكة ومنهم نفر من بنى بكر والاحابيش وعلى رأسهم عكرمة بن أبى جهل  
وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وكانوا قد اتخذوا موقعا على جبل يدعى الخندمة  
ولما اقتربت طلائع رتل خالد وشقوها بوابل من النبال فلم يمهلم خالد لحظة ، وفي كرة  
واحدة شنت شملهم بعد أن قتل منهم اثني عشر رجلا وانهمز الباقون وفيهم زعماء  
الحركة ولم يقتل من رتل خالد الا رجلان وقد أسف محمد ( ولم يؤنب خالد كما زعم  
المؤلف ) على ما حدث اذ كان يمتنى لو لم يسفك دم بدخول مكة ولكنها مشيئة الله •

( الغرب )

الانتقام من خصالهم ومزاياتهم • وقد حقق النصر الكبير بسياسته  
ودبلوماسيته أكثر منه بعمله العسكري • ولا ريب في أن عظمته تقوم في  
أنه أدرك في عصر يسوده العنف وسفك الدماء ، أن الأفكار أقوى من القوة  
والعنف •



يذكر القاريء أن النبي زار الطائف أبان ذروة الاضطهاد في مكة قبل  
الهجرة وهي بلدة تقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من مكة وانه قوبل  
أبان هذه الزيارة بالاذراء ، وقذفه أهلها بالتراب والحجارة ولكن سقوط  
مكة في أيدي المسلمين ملأ قلوب أهل الطائف رعبا وذعرا ، فقرروا أن  
يأخذوا زمام المبادرة وأن يبادروا المسلمين في مكة بالهجوم قبل أن تصل  
جيوش محمد اليهم ، وكانت قبيلة ثقيف هي التي تقيم في الطائف ولكنها  
تحالفت مع هوازن وهي مجموعة من البطون تعيش في الصحراء المجاورة  
لمكة وتنتهي مع ثقيف الى أصل واحد هو قيس عيلان • وأجمعت القبائل  
على المسير الى حرب المسلمين وحشدوا رجالهم استعدادا لمهاجمة مكة •

وعلم النبي الذي كان قد أتقن الآن صناعة الحرب وأدرك أهمية  
المخابرات العسكرية بأمر هذا الاستعداد من عين له كان قد أوفده الى  
المنطقة وقدم اليه تقريراً عن تآهب القبائل فخرج اليها للقائهما على رأس  
جيش يضم عشرة آلاف محارب انضم اليهم ألف محارب من قريش بعد  
أن رأوا من النبي في فتح مكة ما رأوه من رافة ورحمة •

وكانت كثرة المسلمين العديدة وثقتهم من النصر سببين - كما يبدو -  
في اظهار ماأظهروه في هذه المعركة من افتقار الى الاستعداد والحيطة • فلم  
يكذ المسلمون يتحركون عند الفجر عبر وادي حنين الضيق حتى باغتهم  
العدو من جميع الجهات بعد أن كمن لهم في شعاب الوادي • وكانت  
المباغطة كاملة تمام الكمال ولم يتح لهم الوقت للثبات وتنظيم صفوفهم •  
وتراجعت طلائعهم فزعة لاتلوى على شيء وسرعان ماذب الذعر في الجيش  
كله وراح ينهزم محاولا الفرار من الوادي الضيق وقد سادته الفوضى •

وكان النبي في مؤخرة الجيش فلما رأى الناس لا يلوون على شيء  
انحاز الى جهة اليمين وثبت عند منحدر الجبل الذي يحده الوادي الضيق  
بوحوله النخبة الممتازة من صفوف الرجال أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب  
وعلى بن أبي طالب وعمه العباس وأسامة بن زيد نجلى قائد مؤنة الشهيرة  
واخذ يهتف عاليا •• أين أيها الناس ؟ هلموا الى أنا رسول الله ، أنا محمد

ابن عبد الله ، يا معشر الانصار الذين آووا ونصروا • يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة وراح أبو سفيان العجوز وكان مرافقا للنبي في حملته هذه يهمس في أذن من حوله بمكر قائلا « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » •

وكان في مقدمة هوازن رجل يتولى مطاردة المسلمين المنهزمين وقد امتطى جملا أحمر اللون يحمل راية سوداء في يده ورمحا طويلا وكان انه أدرك أحد الفارين ، طعنه برمحه في ظهره ثم رفع رمحه لمن وراه فاتبعوه ، وراح علي بن أبي طالب يتبع ذلك الهوزاني صاحب الراية وضرب عرقوبي. الجمل فوق على عجزه ووثب أحد الانصار على الرجل فقتله •

وكان المسلمون قد بدعوا في غضون ذلك يفيقون من ذهول المفاجأة. ويعودون الى الالتفاف حول النبي ومعظمهم من الانصار. وسرعان ما التفت حوله نحو من مائة رجل من المسلمين فعبأهم أمام المشركين يصدون سيلهم الجارف وظل العباس وهو جهر الصوت يصرخ بأمر من النبي • • « يا معشر الانصار يا معشر أصحاب السمره ! » وتوقف هجوم هوازن ورجع المسلمون. الذين كانوا قد ولوا عن المعركة الى الميدان • ولم يكن في وسع المشركين أن يصمدوا أمام هذا العدد الطاغى من المسلمين وشن بنو سليم وهم قبيلة من البدو اعتنقت الاسلام حديثا ، هجوما كله حماسة ، وبدأت هوازن ترتد على أعقابها ، ثم سرعان ما انقلب ارتدادها الى هزيمة وأخذ المنهزمون ينشدون الملاح في الجبال المحيطة ، وانسحب أهل الطائف الى مدينتهم وأغلقوا على أنفسهم أبوابها وكان أى بناء من الحجر يؤلف عقبة كاداء في طريق أية قوة عربية لا سلاح لها الا السيوف والرماح والنبال ولذا فقد أمر النبي بعد خمسة عشر يوما من الحصار على المدينة برفعه دون فائدة •

وكان انتصار المسلمين في حنين كاملا حتى انهم كسبوا غنائم كثيرة بينها أعداد وفيرة من الابل والغنم كما أسروا عددا ضخما من الاسرى. معظمهم من نساء هوازن وأطفالها وعندما عاد النبي عن الطائف دون أن يتمكن من فتحها شرع يقسم الغنائم والاسلاب بين رجاله • ووصل اليه وفد من هوازن المهزومة على أمرها يرجوه اطلاق سراح النسوة والأطفال. من الاسرى ، وسرعان ما لبى النبي الطلب بما عرف عنه من دماثة وتسامح ، فلقد كان ينشد من جديد في ذروة انتصاره أن يكسب الناس أكثر من نشدانه عقابهم وقصاصهم • وحدث ان كانت قبيلة بني سعد التي حضنت الرسول في طفولته ، اذ رضيع من حليمة وهي إحدى نساها ، بين القبائل المهزومة في صفين وساقوا الى النبي الشبياء بنت الحارث بن عبد العزى •

أخت الرسول في الرضاعة فعنفوا عليها في السياق فقالت للمسلمين : تعلموا والله أني لأخت صاحبكم في الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها الى الرسول قالت : يا رسول الله • اني أختك في الرضاعة قال : وما علامة ذلك ، قالت عضة عضضتها في ظهري وأنا متوركتك «جاملتك على وركي» وبتلك الروح الديموقراطية السمحاء التي عرفت عنه والتي اكتسب بها قلوب الناس نشر النبي عباته على الارض وأجلسها الى جانبه متحدثا اليها عن الايام القديمة الطيبة وراح يردّها الى قومها بعد أن أنعم عليها بالهدايا والهبات •

وبينما كان النبي يرد سبايا حنين الى أهلها من هوازن كان اتباعه ينتظرون تقسيم الغنائم بفارغ الصبر وعندما رآوه يقصد خيمته أتبعه الناس يقولون • يا رسول الله أقسم علينا فيتنا من الإبل والغنم ، حتى ألجئوه الى شجرة فاخترطت عنه رداه فقال : «ردوا على ردائي أيها الناس فوالله ان لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم » ومثل هذا المنظر يعتبر شيئا ممتعا لكل من عرف قبائل البدو في يومنا هذا فهو يجسد لنا رغبة أهل القبائل في غنائم الغزو ممزوجة بموقفهم الذي ينطوي على الاجلال والحب والاعجاب والانطلاق مع القائد القريب الى قلوبهم • ان أوضاع الصحراء على حالها لم تتبدل برغم انقضاء هذه القرون الطويلة •

وعندما شرع في تقسيم الاسلاب والغنائم أخذ منها الخمس لنفسه كما تنص الشريعة الاسلامية ولكنه لم يحتفظ بشيء من حصته وانما وزعها على المكيين الذين اعتنقوا الاسلام مؤخرا وعلى شيوخ قبائل البدو ليكسب قلوبهم وعلى الرغم من أن النبي كان ينظر الى نفسه كرسول وكمصلح ديني أولا وأخيرا الا انه كان يلجأ الى الاساليب العلمانية أيضا ليفوز بقلوب الناس ، وليفرض نفوذه عليهم • وكان يؤكد للمسلمين المؤمنين ان لهم النعمى في الدارين الاولى والاخرة ، ولم يكن يطلب من الاثرياء الشبان أن يبيعوا كل ما يملكونه وأن يتبعوه • وقد تلقى أبو سفيان وولده يزيد ومعاوية هدايا ممتازة •

وليس ثمة من مشقة أبلغ وأشد من توزيع الاسلاب على البدو الكثيري الضجيج والعجيج اذ اننى جربت ذلك بنفسى وان كانت تجربتى على نطاق أضيق ، ولا ريب في ان محمدا كان يظهر أقصى ما يمكن من الكياسة والناة والصبر والدماثة حتى ينال كل رجل نصيبه • فقد أعاد لمالك بن عوف شيخ هوزاف والرجل الذي قاد قبيلته لحرب المسلمين كل ما كان

له من ماشية وابل مقابل اعتناق الاسلام(١) . وسرعان ما طبق مالك بن عوف سنة البدو المعروفة ، بالانقلاب من جانب الى آخر بسهولة وأخذ على عاتقه محاربة حلفائه السابقين من ثقيف فشرع يغير على مالأهل الطائف من ماشية ويهاجم من يخرج منهم من المدينة(٢) واستخلف النبي أخيرا رجلا على مكة وعاد الى المدينة(٣) .

لكن النبي لم ينج على أية حال من النقد على الطريقة التي وزع فيها غنائم حنين ، فليس ثمة من شك في أنه لجأ الى اغراء الهدايا والاموال الدنيوية لاكتساب الاعداء وتحويل المشركين الى الاسلام(٤) . وكان يكتفى دائما من الاعراب بقول الشهادتين دون أن يتحقق من صدق اسلامهم ولكن أهم ما وجه اليه من نقد هو أنه في تقسيمه للغنائم لم يبذل أية محاولة لمكافحة أنصاره الصادقين المؤمنين ، بل استخدم الشطر الأعظم من الغنائم

---

(١) تقول كتب السيرة ان رسول الله (صلم) سأل من مالك بن عوف فقيل له انه بالطائف مع ثقيف . فقال : أخبروا مالكا انه ان اتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل . وقد فعل مالك ما أراه الرسول وحسن اسلامه .

(٢) تظهر رغبة المؤلف في الانتقاص من شأن الاسلام والمسلمين في كل عبارة يقولها وليس ادل على ذلك من حديثه عن مالك بن عوف زعيم هوازن وتصويره اياه بصورة الانتهازي القلب متخذا منه مثلا على قلب البدو متأثرين بالاغراء المادى . أما بالنسبة الى مالك فقد ذكر المؤرخون العرب انه أسلم وحسن اسلامه ولعل التفسير الصحيح لموقفه هو انه شأنه في ذلك شأن غيره من الكثيرين من عرب الجاهلية لم يكن قوى الايمان بالالوان والاصنام ، فلما أسلم متأثرا بأوضاعه بعد هزيمة حنين فتفتح قلبه للايمان ورأى في الاسلام دين الحق والحقيقة فاصبح مسلما صادقا أبلى في الدفاع عن حياته أحسن البلاء وإذا كان المؤلف يأخذ على البدو قلوبهم وتأثرهم بعوامل الاغراء متخذا من بعض الحوادث التي مرت به - ابان الدور الذي اذاه معهم في خدمة امبراطوريته الاستعمارية، دليلا يدفعه تفرضه الى جعله وسيلة لمثل هذه القاعدة العامة الخارجة عن الموضوعية التي يطلقها فلماذا لا يأخذ على الانتهازيين من افراد او دول في عالمه الغربى قلوبهم وهم كثر مع العلم انهم لا يقاتلون بالبدو الجيلة في مجالات العلم . ان الانتهازية غريزة عند الكثيرين وهي توجد عند بدو الصحراء كما توجد عند أرفع الناس في كل مكان وفي مقدمتها بلاده .

(٣) استخلف النبي على مكة ثناب بن اسيد ومعه معاذ بن جبل يفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن .

(٤) تمرى آخر بالرسول الكريم (صلم) ولكن المؤلف نسي الموضوعية في اتهامه هذا بل وفي كل اتهاماته . فلقد بات النبي في هذه المرحلة رجس دولة وقائد أمة بالإضافة الى وسائله الدينية السامية ولا يستغرب من رجس الدولة والقائد أن يستخدم بعض الوسائل الدنيوية في تثبيت الحكم وتوطيد أركانه . لكنه الهوى من المؤلف .

( العرب )

محاولا ترضية أعدائه . فلم يتلق الانصار من أهل المدينة الذين كانوا أول من استجاب لنداء الرسول بعد نكسة حنين في بادىء الامر أى شطر من الغنيمة . وعندما أعرب بعضهم عن تذمره راح النبي يجمعهم ويخاطبهم مثنيا على اخلاصهم ووفائهم ومؤكدا لهم أن اعتماده على صدق أيمانهم هو الذى دفعه الى أن يفعل ما فعل ، ثم قال : « ألا ترضون يامعشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار » ثم رفع النبي يده الى السماء وهتف قائلا : اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الانصار . هذه صورة من صور شخصيته المغناطيسية إذ أنه ما كاد يقول قولته حتى بكى القوم واخضلت لحاهم وقالوا رضيونا برسول الله قسما وحظا .

وأصبح محمد الآن . وفي نظر الجميع صاحب أضخم قوة في الجزيرة العربية كلها . وأخذت الوفود تصل باستمرار حاملة اليه ولاء جميع القبائل من أطراف الجزيرة القاصية والدانية وذلك رغبة منها فى تجنب الوقوف موقف العداء من المسلمين .

وفي سبتمبر ( ايلول ) عام ٦٣٠ تولى النبي بنفسه قيادة قوة قوامها عدة ألوف من المحاربين سار بها فى اتجاه الشمال الى حدود الروم . والطقس فى هذا الشهر من السنة فى الحجاز شديد الحرارة . وتكون الصحراء أشبه بالأتون اللاهب . وأظهر بعض المسلمين ميلا الى عدم الاشتراك فى الحملة حتى تكون حدة الحر قد انتهت (١) . ولكن سرعان ما جاء التنزيل على النبي يقول ... فى سورة التوبة « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم

---

(١) يظهر المؤلف بقوله هذا ان المسلمين جميعا ترددوا بالاشتراك فى غزوة تبوك مع أن المناققين ودعاة الهزيمة هم وحدهم الذين وقفوا هذا الموقف ، وكان هذا هو السبب فى الموقف الصريح الحازم الذى وقفه النبي منهم اذ طلب الى زعيمهم عبد الله ابن أبى ، البقاء مع رجاله فى المدينة لعدم ثقته به وبجيشه ، كما بعث الى دار سويلم اليهودى التى كان يجمع الانهراميين فيها لتدبير المؤامرات وبهويل أمر الحملة فى نفوس المسلمين فأحرقها ، مما أجبر التامرين على القرار وعدم العودة الى مثلها . وأخطأ المؤلف هنا خطأ ثانيا فقد ذكر أن جيش المسلمين كان يد بضعة ألوف فى حين تجمع كتب التاريخ الاسلامى أن الجيش زاد على الثلاثين ألفا وهو رقم لم يشهد العرب له مثيلا من قبل .

( العرب )

وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . »

وعندما وصل النبى بجيشه الى تبوك بعث فى طلب يوحنا أمير ايلة المسيحي وعندما جاءه هذا صالح الرسول على عهد بدفع الجزية وجاءته وفود من أهل جرباء وأذرح - والاخيرة كانت فيما مضى معسكرا للرومان - فتصالح معها على أن تدفع جزية سنوية على الرغم من أن هذه الاماكن كلها كانت من المحميات الرومانية . وبعث وهو فى تبوك بخالد بن الوليد الى الاكيدر الحاكم المسيحي لدومة الجندل وهو الاسم القديم لبلدة الجوف الحالية . وقد عقد معه النبى الصلح أيضا على دفع الجزية وعاد الجيش الاسلامى بعد أن قضى عشرة أيام فى تبوك الى المدينة دون قتال (١) .

ولا ريب فى أن الهدف من هذه الحملة كان رفع الراية الاسلامية على حدود الروم ولم يكن النبى قد نسى معركة مؤته ولذا فقد حزم على الثأر لها وفى ديسمبر (كانون الاول) من عام ٦٣٠ ميلادية جاءه وفد من ثقيف يباعه ويعان له استسلام الطائف .

وحل موسم الحج فى مارس ( اذار ) عام ٦٣١ . وكانت المرة الاولى التى يحل فيها هذا الموسم بعد أن غدت مكة فى حيازة المسلمين وبعث النبى بصاحبه أبى بكر اميرا على الحج لاداء الفريضة على رأس المسلمين ونزلت أبان ذلك براءة تحرم على المشركين زيارة البيت وأداء الفريضة . وجدير بنا أن نذكر هنا أن طقوس الحج كانت حتى ذلك التاريخ طقوسا جاهلية لا اسلامية . أما الآن وقد تطهر البيت من الاصنام والأوثان فلم يعد من حق المشركين أن يدخلوه ووجه انذارا فى

---

(١) يحاول المؤلف جريا على عادته تشويه الحقائق المتعلقة بالفتوحات الاسلامية إذ لم يشرح الاسباب التى أدت الى عودة الحملة الاسلامية دون قتال ولم يذكر أن الروم وقد علموا بوصول النبى صلى الله عليه وسلم الى تبوك ، آثروا الانسحاب الى داخلية البلاد مفضلين قتال المسلمين قريبا من قواعدهم بدلا من حرب الصحراء التى يقررون يتفوق الغرب فيها . فلما رأى النبى انسحابهم اكتفى بفرض سلطانه على أمراء المناطق المجاورة الذين ما كانوا يدفعون الجزية وهم فى حماية الرومان لولا لقتهم من ضعف حماهم أمام المسلمين .

( العرب )



الوقت نفسه الى جميع القبائل العربية يعطيها مهلة أربعة أشهر تقبل  
فى غرضونها الاسلام أو تتأهب لحرب المسلمين (١) .

وظلت الوفود تصل الى النبى طيلة عام ٦٣١ من جميع أرجاء  
الجزيرة العربية بما فيها الأماكن النائية كالبحرين وعمان وحضرموت  
واليمن . الذى تلقاه محمد بكثير من التجلة والاکرام . واختار النبى  
معاوية بن أبى سفيان وكان قد جعله من أمناء سره اكراما لا يبه ليقوم  
بشور المضيف لوائل وان ينزله فى دار له فى واحة قريية ليتولى اكرام  
مشواه . وكانت الهاجرة فى كبد السماء ترسل اشعتها المحرقة عندما  
قصد الرجلان الى الواحة وقد امتطى وائل بعيره مخلفا مضيفه يسير على  
قدميه وطلب معاوية من ضيفه أن يردفه على ظهر بعيره فأبى عليه  
إذلك . وقال معاوية أخيرا . . . اذن فأعزني نعلك أقى به قدمي حمر  
التراب فرد وائل بشيء من الكبرياء قائلا . . . وماذا يقول الناس عنى  
إذا سمحت لمثلك من عامة الناس باحتذاء نعلى . وقد وصف النبى  
عندما سمع هذا الحادث بأنه من مخلفات الجاهلية ولم يكن وائل  
ليتصور آنذاك ان هذا الشاب الذى يركض الى جانب بعيره سيصبح  
فى يوم قريب اعظم حاكم فى العالم المعروف .

وغدا النبى فى السنتين الأخيرتين حاكما ذا سلطان عظيم وكان  
يصرف سحابة نهاره وشطرا من ليله فى استقبال الوفود واملاء الرسائل  
وفض المنازعات وتصريف الشئون العامة دون أن يكون الى جانبه  
موظفون مدربون ، ودون أن تتوافر له وهو الذى لا يعرف القراءة

---

(١) تقول كتب التاريخ الاسلامى ان النبى (صلم) دعا على بن أبى طالب وكان  
أبو بكر على رأس الحجيج فى مكة فقال له . . . اخرج بهذه القصصة من صدر براءة  
وأذن فى الناس يوم النحر اذا اجتمعوا منى ، انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد  
العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله (صلم) عهد فهو  
له الى مدته . فخرج على الى مكة على ناقة النبى الغضباء حتى أدرك أبا بكر فى الطريق  
فقال له . . . أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج  
والعرب اذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى  
اذا كان يوم النحر قام على فأذن بالناس وقال : أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر  
ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله صلى  
الله عليه وسلم عهد فهو له الى مدته وأجل الناس أربعة أشهر من يوم اذن فيههم ليرجع  
كل قوم الى ماأنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة الا لاحد كان له عند الرسول  
عهد الى مدة فهو الى مدته فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان .

( العرب )

والكتابة التسهيلات التي تتوافر للحكام. وكثيرا ما وجه النقاد الغربيون الى النبي صفة الاصطناع عن طريق مقارنة حياته الأولى في مكة وقد تلقى الرسالة وما كان فيها من بساطة وتأمل ، بحياته الثانية في المدينة. حيث أصبح سياسيا دنيويا أكثر منه انسانا روحيا ، وقد أقر بأن البون شاسع ، ولكنني أرى من الظلم القول بأنه أكثر في القسم الأخير من حياته أمور الدنيا على القيم الروحية (١) .

ولا أستطيع أن أنكر أن النبي تزوج إحدى عشرة امرأة مما يشير الى اهتمامه بالنسلة (٢) ولكنني أقول انه لم يهتم بالمال قط في حياته

(١) اتهام ظالم ومغرض كل الفرض للنبي . فقد ظل عليه الصلاة والسلام الى آخر يوم من حياته الكريمة مثال الرجل السمع الكريم الخلق الجهم التواضع الذي لم تصرفه شئون الحكم عن رسالته الروحية المسامية لكن الاسلام عقيدة دين ودنيا ، ومن واجب القائد الموجه أن يهتم بشئون مجتمعه الدنيوية بقدر اهتمامه بالتسوية الروحي ومن هنا كان القول المأثور .. اعمل لذنيك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . (المعرب )

(٢) هذه حجة طالما استخدمها أعداء الاسلام للظن في النبي سلم الله عليه وسلم فلقد بلغت أخلاقه الشخصية من الكمال حدا جعله موضع رضي ربه الذي أدبه فأحسن تأديبه اذ خاطبه تعالى قائلا «وانك لعلی خلق عظيم» . وكانت خلافه سببا في اجتذابه النفوس والقلوب مما الان له من شكيمة قومه بعد الإباء وجلهم يدخلون في دين الله أفواجا مناصرين مؤازرين .

أما قصة الزواج هذه فان من الثابت أن النبي كان يرى في أن يجمع نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التآليف للشائرن وحملها على الانفاف حول النبي فلقد كان الصهر عند العرب بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعدا له ومبيعا منه أدى الكثيرين من أمته ، فلما كان بالمدينة باهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب . ولعل نظرة واحدة الى نساء النبي ونسبهن تثبت هذه الحقيقة التي يرفض النقاد الغربيون الاعتراف بها وهن رضي الله عنهن ٠٠٠ (١) خديجة بنت خويلد من بني أسد (٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق (٣) سودة بنت زمعة من بني عامر (٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب (٥) أم سلمة هند بنت أبي أمية من بني مخزوم (٦) زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة (٧) أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب (٨) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزامة (٩) صفية بنت حيي بن أخطب من يهود خيبر (١٠) ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة (١١) زينب بنت خزيمة من بني عامر بن صعصعة . وهناك اثنتان تزوجهما ولم يدخل بهما وهما أسماء بنت التعمان من بني كندة وعمرة بنت يزيد من بني كلاب .

ومن مجرد ذكر هذه الاسماء يتبين لكل متصف أن معظم حالات الزواج عند النبي كانت لأسباب سياسية وليس للنسب آخر .. ومن هنا يتبين سخف ادعاء المؤلفين الغربيين . (المعرب )

حتى عندما أصبح وفي قدرته ان يجمع اكبر الثروات . فقد توفي وهو  
معدم تقريبا كما أن طعامه البسيط لم يتغير لحظة واحدة وعاش حتى  
اللحظة الاخيرة في بيت عادى بسيط لا يصلح ان يكون بيتا لحاكم عادى

ومن المحتمل ألا يكون النبي نفسه قد توقع في البداية هذا  
التحول من طبيعة التأمل الى طبيعة النشاط السياسى البالغ الحدود .  
ومن المحتمل أن يكون هذا التحول قد جاء بصورة طبيعية عندما هاجر  
من مكة الى المدينة حيث وجد نفسه يقود مجتمعا جديدا بعض أفراد  
من المعدمين الذين هاجروا وباتوا لا يملكون شيئا وقد حز في نفوس  
بعض أهل المدينة ممن لم يكن الاسلام قد تأصل في نفوسهم أن يؤوا  
هؤلاء المهاجرين وان يشاركوهم أرزاقهم مما حملهم على التآمر عليهم .  
وسأل المهاجرون الى الغزو كوسيلة من وسائل العيش . وكطريقة  
للاتنقام من قريش التى أخرجتهم من ديارهم . وسرعان ما وجد النبي  
نفسه وسط جو من الحروب واللسائس فحملته قيادته لمجتمعه على  
أن ينأى عن حياة التأمل التى تفترض الوحدة . ويعبر القرآن نفسه  
عن هذا التحول ، فالسور المكية تحمل طابعا روحيا أعماق من السور  
المدينة التى أخذت تعنى بصورة متزايدة بالشئون الدنيوية من سياسة  
وحرب وتشريع .

ولا ريب في أن تحول محمد من صورة النبى التى تغلب على أنبياء  
العهد القديم الى صورة السياسى الحاكم والمشرع الاجتماعى قد أثر  
تأثيرا عميقا على تطور الاسلام حتى يومنا هذا . وقد سار جميع خلفائه  
بصورة آلية رتيبة على سنته ومنواله وطبعوا حكمهم بصورة المزيج  
بين الدين والسياسة ولم يعرف الاسلام قط ذلك التناقس الذى قام  
بين البابوات والباطرة والذى خلق حالة من الاضطراب فى أوربة القرون  
الوسطى . أما الدولة العلمانية الاسلامية التى تكون فيها الحكومة الزمانية  
مستقلة عن الحكم الدينى ، فبدعة عرفها المسلمون فى القرن العشرين  
مقلدين فيها أوروبا .

وحرى بنا ان نذكر دائما أن محمدا قد تأثر بالكثير من المؤثرات  
المسيحية واليهودية (١) . فلقد كان عدد اليهود قى المدينة لا يقل عن

---

(١) تستند هذه النظرة الى الاسلام جذورها من عدم ايمان المؤلف أو الكتاب  
الغريبيين برسالة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ولذا فهم يرون في مرد التشابه بين  
الاسلام من ناحية واليهودية والنصرانية من ناحية أخرى الى تأثر النبى بهاتين الديانتين  
مع العلم أن هذه النظرة خاطئة لان الاسلام دين الله جاء به محمد بمذاهب يهودية =

عدد العرب ، ولم تكن هناك جالية مسيحية في مكة أو في المدينة واذ وجد عدد من الأفراد المسيحيين هنا أو هناك . يضاف الى هذا أن المرحلة العامة للتطور التي وصل اليها عرب الصحراء قبيل الاسلام في القرن السابع لم تكن لتبعد كثيرا عن الحالة التي كان فيها يهود العهد القديم . ومن الممكن أن نقارن بين ما قاله النبي عن النضال والجهاد بعدد من أقوال العهد القديم ولا سيما في الكتب الخمسة الأولى . وهناك كثيرون من الغربيين يقولون ان محمدا لو ظهر بين موسى وعيسى. لاعتبر بحق من أكثر المصلحين الدينيين في العالم (١) .



وتهاى النبي في شهر فبراير ( شباط ) (٢) عام ٦٣٢ لاداء فريضة الحج على رأس جمع كبير من المسلمين . وقد راقب المسلمون كل عمل قام به الرسول ابان ادائه للفريضة هذا العام واعتبروها طقسا من طقوس الحج . وقد ألقى النبي في الحجيج خطبة ذلك العام وانهاها متطلعا الى السماء وهو يقول . . « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت . هليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » وبعد ان أتم مناسك الحج عاد بأصحابه الى المدينة وتفرق الحجيج الى بلادهم آمنين مطمئنين .

وكان بعض مدعى النبوة قد ظهوروا في الايام الاخيرة من حياة النبي في نواح عدة من الجزيرة العربية ولكن نشاطهم لم يكن كبيرا بحيث يؤلف خطرا كافيا يثير القلق في المدينة ولم يقدر لهذه الدعوات ان تبرز اهميتها الا بعد وفاة النبي . ويبدو ان كل مقاومة عسكرية للنبي كانت قد توقفت في الجزيرة العربية في هذه الآونة ولكن النبي أصدر أمره في مستهل عام ٦٣٢ للقيام بحملة على حدود الروم وأراد أن يؤكد رغبته في الثأر لشهداء مؤتة فأسند قيادها الى أسامة بن زيد نجل قائد حملة مؤتة وان لم يكن الشاب قد جاوز العشرين من عمره . وقد اثار هذا الاختيار بعض الامتناع عند من هم أكثر من أسامة دراية وخبرة

---

= والنصرانية ولذا فان التشابه يقوم في أن مصدر الادبائ السماوية واحد . وهو الله .

(١) طبعا نحن نختلف مع المؤلف في قوله هذا لان الاسلام هو دين الكمال وقد جاء مكتملا للرسالات السماوية التي سبقته ولكن المؤلف كان حكيما بعض الحكمة عندما نسب قوله هذا الى غيره .

(٢) تجمع كتب التاريخ العربى على أن حجة الوداع كانت في مارس ( آذار ) من ذلك العام . ( العرب )

في القيادة العسكرية . وجدير بي أن أذكر أن هذه الفكرة من الثار  
العائلي ما زالت تتكرر في بلاد العرب منذ أقدم العهود حتى اليوم (١) .

ولم تمض أيام حتى كان النبي ذات صباح يشكو من بعض الصداع  
والحمى وذلك في شهر يونيو من عام ٦٣٢ ولكنه أفاق في اليوم التالي  
وقد خف ألمه فخرج من بيته ليسلم الراية الى أسامة بن زيد على رأس  
الحملة ولكن الحمى ما لبثت أن عاودته وعاد اليه الصداع وإن ظل يومين  
أو ثلاثة أيام يغالب المرض ليؤدي أعماله اليومية كالعتاد . وأخيرا اشتد  
عليه المرض فأوى الى فراشه يشكو من الحمى في غرفة عائشة وزوجه  
الامين وابنة أقرب الناس اليه أبى بكر الصديق . ويروى أن امرأة بدوية  
قالت للرسول انه مصاب بذات الجنب فانكر عليها ذلك مؤكدا ان مرضه  
ناشئ عن محاولة يهود خيبر تسميمه قبل أربع سنوات . ومن المحتمل  
أن يكون النبي أراد أن يظهر للناس انه من الشهداء وأن الكفرة هم الذين  
قتلوه (٢) لكن الظواهر التي رواها المؤرخون تشير الى أن الوفاة نجمت  
عن الإصابة بذات الرئة .

(١) كان أول ما فكر فيه النبي بعد موته من حجة الوداع استئذان الحركات  
المسكية على حدود الروم لتوطيد نفوذ الاسلام بين القبائل العربية القاطنة هناك .  
وقد جهز النبي الحملة واشترك فيها المهاجرون الأول أمثال أبى بكر وعمر ثم أناط  
قيادتها بمولاه أسامة بن زيد بن حارثة وهو دون الثامنة عشرة فأثار هذا التمييز دهشة  
واستغرابا في نفوس المسلمين وقال بعضهم أمر غلاما حدثا على حملة المهاجرين والانصار  
وبطاطا البعض بالفعل في الخروج الى مكان اجتماع الجيش في الجرن فبلغ ذلك محمدا  
وهو مريض فخرج الى المسجد وخطب المسلمين قائلا : ايها الناس انقلوا بعت أسامة  
فلمعري لئن قلتم في امارته لقد قلتم في اماره أبيه من قبله وانه لخليق للامارة وإن كان  
أبوه لخليقا بها . ( العرب )

(٢) رأى في منتهى السخف من المؤلف الذ لم يكن النبي الذي آمن الناس برسالاته  
والذي عظمت « الشهادة » في نظرهم من أقواله بحاجة الى التظاهر بأنه من  
الشهداء ، ولكنها محاولة أخرى من المؤلف لتشويه التاريخ الاسلامي ، أما  
القصة الحقيقية كما تروى كتب السيرة وفي مقدمتها سيرة ابن هشام فهي على  
النحو التالي :

اجتمع الى النبي عدد من نساء ونساء من المسلمين وعنده معه العباس فأجمعوا  
أن يلدوه (يجلسوا الدواء في شق فمه ) ، وقال العباس لآلته فلدوه فلما أفاق رسول  
الله (صلى الله عليه وسلم ) قال من صنع هذا بي قالوا : يا رسول الله عمك ، قال  
هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الارض وأشار نحو أرض الحبشة قال ولم فعلتم  
ذلك ؟ فقال معه العباس خشيئا يارسلو الله أن يكون بك ذات الجنب فقال : ان ذلك  
لداء ما كان الله عز وجل ليقتلني به لا يبق في البيت أحد الا لد الإعمى ، ولقد لدت  
سيمونة وانها لصائبة عقوبة لهم بما صنعوا به . ( العرب )

واشتدت وطأة الحمى على النبي ولما انقضى اسبوع على مرضه وأدرك أن حالته الصحية آخذة في السوء قرر أن يخطب الناس فطلب أن يصبوا عليه الماء البارد لتهدئ الحمى المحرقة التي كان يشكو منها ثم خرج من بيته متكئا على صاحبيه وتحدث إلى الناس مدافعا عن تعيينه اسامة أميرا على الجيش . ولكن الجهد الذي عاناه من الاستحمام بالماء البارد ومنلقاء الخطاب زاد من حالته سوءا وعجز في اليوم التالي عن القيام من قراشه . وراح يصدر أمره بصوت خافت إلى أبي بكر ليؤم الناس في الصلاة . وكان أبو بكر غائيا ذات يوم فأم عمر بن الخطاب الناس في الصلاة فلما سمع صوته وتميزه اذ كانت غرفة عائشة تطل على المسجد هتف النبي قائلا «أين أبو بكر ؟ يا أي الله ذلك والمسلمون» (١)

وساعت حال النبي الصحية كل السوء في اليوم العاشر من مرضه . وكان كثيرا ما يغيب عن الوعي وتضعفه الحمى التي كانت تلهبه . وفي صباح اليوم التالي وكان أبو بكر يؤم الناس في صلاة الفجر خرج النبي إلى باب غرفة عائشة ووجهه مشرق . ومشى وتيدا إلى الامام متكئا إلى رجلين إلى أن وصل إلى جانب أبي بكر فجلس واشترك في الصلاة وانفض الجمع فرحين وقد ظنوا أن النبي قد اهل من مرضه . وعاد وتيد الخطي إلى حجرة عائشة .

لكن هذا الجهد الاخير الذي بذله كان نتيجة الصدمة التي تسبق

---

(١) تقول الرواية التي أوردها كتب السيرة أن التوجع اشتد بالرسول ( صلى الله عليه وسلم ) فقال هويقوا على سبع قرب من آبال شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد اليهم فأعده في مخضب لحفصة بنت عمر ثم صبوا عليه الماء حتى طلق يقول : حسبكم حسبكم .

• وخرج الرسول يمشي بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس والانيمة على بن أبي طالب .

• اما قصة صر قهروها كتب السيرة على النحو التالي : أمر النبي بأن يصلى أبو بكر بالناس فكانت له عائشة زوجة ابنة أبي بكر : يا نبي الله ان أبا بكر رجل وقيق ضعيف الصوت كثير البكاء اذا قرأ القرآن . قال : مروه فليصل بالناس فكررت ما قاله فقال : اتكن مواحب يوسف قهروه فليصل بالناس .

وروى عبد الله بن زمة انه كان عند النبي في نقر من المسلمين فأتى بلال إلى الصلاة فقال مروا من يصلى بالناس فخرجت فإذا صر في الناس وكان أبو بكر غائبا فقلت ثم يا عمر فصل بالناس فقام فلما كبر سمع رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) صوته وكان عمر ذجلا سحرا ، فقال : أين أبو بكر يا أي الله ذلك والمسلمون يا أي الله ذلك والمسلمون . (١) (المعرب)

«لوفاة لا الشفاء من العلة وعاد إلى فراشه متعبا فاستلقى عليه وقد أصبح عاجزا عن الحركة واستجمع قواه فجأة وطلب بعض الماء ليبلل وجهه به ثم هتف قائلا . . . « بل الرفيق الأعلى في الجنة » .

لاحظت عائشة فجأة أن رأس الرسول قد ثقل في حجرها فذهبت تنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص . لقد مضى نبي العرب إلى الرفيق الأعلى .



## تواريخ بارزة

فبراير (شباط) ٦٢٧	حصار المدينة
فبراير (شباط) ٦٢٨	صلح الحديبية
صيف عام ٦٢٨	عقد الصلح بين الروم والفرس
فبراير (شباط) ٦٢٩	حج المسلمين الى مكة
سبتمبر (ايلول) ٦٢٩	معركة مؤتة
يناير (كانون الثاني) ٦٣٠	فتح مكة
ربيع عام ٦٣٠	موقعة حنين
سبتمبر (ايلول) ٦٣٠	غزوة تبوك
يونيو ٦٣٢	وفاة النبي

## شخصيات بارزة

صهر النبي	عثمان بن عفان
الصحابي الثاني بعد أبي بكر	عمر بن الخطاب
ولدا علي وفاطمة وحفيدا النبي	الحسن والحسين
من قادة قريش العسكريين الذين تحولوا الى الاسلام	خالد بن الوليد
من أمناء سر النبي بعد فتح مكة	عمرو بن العاص
عم النبي	معاوية بن أبي سفيان
	عباس بن عبد المطلب



# الردة

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »

القرآن الكريم - سورة المائدة

\*\*\*

« ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

القرآن الكريم - سورة البقرة



عندما ظهر النبي صبيحة يوم وفاته مبتسما مشرق الوجه وقت أداء صلاة الفجر اعتقد أبو بكر أنه قد ابل من سقامه وطلب منه أن يسمح له بقضاء يومه ذاك في واحة بعيدة . وهكذا كان عمر بن الخطاب أول صحابي بارز وصل الى جانب فراش النبي فرفع الغطاء عن وجهه وتطلع الى وجه نبيه . وكان عمر قد قضى سنوات طويلة وهو يكاد يحب محمدا الى درجة العبادة . ولذا فقد عجز تفكيره للوهلة الاولى عن تقبل فكرة وفاته وراح يسرع بالخروج من حجرة عائشة الى باحة المسجد حيث اجتمع القسوم ليعلم لهم بصوته الجهوري أن محمدا لم يمُت . وراح يقول . . أو لم يقض موسى أربعين يوما في الصحراء مع ربه على الجبل بينما ظن بنو اسرائيل أنه قد مات . وعاد يؤكد أن محمدا سيعود فيقطع أيدي من قالوا ببوته وأرجلهم . وظل عمر وهو متأثر بالصدمة التي أصابته يردد هذه الأقوال المتحمسة باستمرار .

ووصل أبو بكر وهذا المنظر المحموم في عنفوانه وبضى يعبر فناء المسجد حيث كان عمر يخطب الناس متجها الى غرفة عائشة وركب الى جوار نبيه المتوفى ورفع الغطاء عن وجهه النبيل وقبله . وعندما تأكد من أن النبي قد انتقل الى الرفيق الاعلى أعاد الغطاء الى وجهه وبخرج الى الفناء المكتظ بالناس . ولما رأى ان عمر يرفض أن يصمت ، مضى أبو بكر الى ناحية من الفناء وأخذ يخطب في بعض الناس قائلا : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم راح يتلو الآية الكريمة . . « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » . وأعادت كلمات أبي بكر الهادئة الرصينة عمر الى صوابه ونفذت الحقيقة المؤلمة الى تفكيره أول مرة فاغرق في صمت عميق .

ولم يكد هذا المنظر العنيف ينتهي حتى جاء رجل الى أبي بكر سراعا يقول له ان الانصار من أهل المدينة قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وانهم يفكرون في اختيار سعد بن عبادة زعيم الخزرج خليفة للنبي ولم تكن قد انقضت ساعة على وفاة النبي حتى كاد الصراع على السلطان يهدد بشيط المسلمين الى فثات وشيع . وأسرع أبو بكر الهادئ وعمر

الحاد المزاج الى السقيفة ليواجهها التحدى الجديد . ورافقهما أبو عبيده بن الجراح الرقيق الطبع والواسع الحكمة ، وهو من الصحابة الاوائل الذين سنسمع عنهم كثيرا فيما بعد .

وكان الانصار قبل نحو من عشر سنوات قد رحبوا بالنبي الذى اضطهده قومه فى مدينتهم وقدموا له النصر التى حمته من عشيرته ولكنه ما لبث ان تقوى سلطانه واتسعت شهرته وأخذ اعتماده على صحابته من قريش يزداد يوما بعد آخر . ووجد الانصار انهم بعد أن كانوا حماة الاسلام والمسلمين قد انقلبوا فجأة الى مركز ثانوى فى مدينتهم ولكنهم لم يجهروا بأى نقد فى حياة النبي فلمسا سمعوا بوفاة قرر الاوس والخزرج أن يخلعوا عنهم سلطان قريش قائلين : « منا أمير ومنهم أمير ولن نرضى بدون هذا » (١) ورأى أبو بكر الرجل الوديع الهادى الذى

---

• (١) فى الرواية بعض التحريف .. فقد ذكرت كتب التاريخ الاسلامى .. ان الانصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة وكان نظرم متوجها الى اختيار سعد بن عبادة وقام سعد فخطب فيهم مبينا ما للانصار من الفضل والسبق الى حماية رسول الله وانه لا ينبغي ان ينازعهم فى هذا الامر أحد فاجابوه أصبت ووقفت ثم تراءوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم لمان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأوليأؤه لماذا نقول لهم فقال له آخر تقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لا سمعها ... هذا اول الوهن .

ونقل السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء عن عمر بن الخطاب قوله .. اجتمع المهاجرون الى أبى بكر فقلت له .. يا أبى بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمنهم حتى لقينا رجلا صالحا فذكرنا لنا الذى صنع القوم فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلت تريد اخواننا من الانصار فقالا : عليكم الا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين ؟ قلت : والله لناينهم فانطلقنا حتى جئناهم فى سقيفة بنى ساعدة فلما هم مجتمعون واذا بين ظهرانهم رجل مزمّل فقلت : من هذا ؟ قالوا سعد ابن عبادة فقلت : ماله ؟ قالوا : وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأتى على الله بما هو أهله وقال : أما بعد فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دلت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا وتحضنونا من الأمر . فلما سكت أردت أن أتكم وقد كنت زورت مقالة أمجيتنى أردت أن أقولها بين يدي أبى بكر وقد كنت أدارى منه بعض العد وهو كان أحلم منى وأوفر فقال أبو بكر : على رسلك فكرهت أن أغضبك وكان أحلم منى والله ما ترك من كلمة أمجيتنى فى تزويرى الا قال فى بدايته مثلاً وأفضل حتى سكت فقال : أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله ولم تصرف العرب هذا الأمر الا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسباً ودأباً وقد وضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم فاخذ بيدي ويبدأ أبى مبيدة ابن الجراح .

أثقلت سنواته الستون ظهره انه يواجه أزمة من أخطر الازمات تهدد المجتمع الاسلامى بالفوضى وقد واجهها بمنتهى الهدوء والوقار فقال : « يا معشر الانصار أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير فانتم أهله ولم تعرف للعرب هذا الامر الا لهذا الحى من قريش » .

وارتفع صوت يقول : « لا . لا . لا » هذا لا يجوز منا أمير ومنكم أمير . . وساد السقيفة هرج ومرج وأصبحت القضية معلقة في كفة القدر وازدادت الفوضى .

ورد أبو بكر قائلاً . . بكل تصميم : « لا . لا . لا » نحن أووسط العرب نسبا ودارا . . نحن الامراء وانتم الوزراء وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم وأشار الى رفيقيه عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح .

وقال عمر : « لا والله لا نتولى هذا الامر عليك » يامعشر الانصار ألستم تعلمون أن رسول الله قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فايكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر . . لا والله انك أفضل المهاجرين وثانى اثنين اذ هما فى الغار . أبسط يدك لنبايعك ومد عمر يده اليه فبايعه .

وبينما كان هذا الاجتماع الصاخب قائما كان هناك نفر آخر من المسلمين وبينهم بعض المكين قد انضموا الى الاجتماع وقد سارعوا بعد سماع كلام عمر الى السير على منواله ، وليس ثمة من ريب فى أن أبا بكر بما عرف عنه من ولاء للنبي ومن بساطة فى طبيعته كان موضع الثقة من الجميع ، وسرعان ما تحولت عواطف المجتمعين كلهم الى جسانبه وهب الانصار أنفسهم يبايعونه . وهكذا انتهت الازمة ولكنها كانت أزمة خطيرة حقا . ولم يحضر على بن أبى طالب أقرب الناس الى النبي وصهره وابن عمه هذا الاجتماع ، اذ تخلف فى حجرة عائشة يعد جثمان النبي لدفنه . ويزعم بعض مؤرخى العرب ان عليا لم يرض عن استخلاف أبى بكر اذ انه كان يبغي الخلافة لنفسه . وقد تأخر عن البيعة ستة أشهر ومعه بعض بنى هاشم . ولم يكن أبو بكر ينتمى الى أى من البيتين المتنافسين من قريش وهما بنو هاشم وبنو أمية وانما الى بطن آخر أقل أهمية من بطون قريش .

وثار خلاف حول المكان الذى يدفن فيه الرسول الى أن أصدر أبو بكر أمره بدفنه فى المكان الذى توفى فيه أى فى حجرة عائشة .



وكان محمد قد غدا في السنتين الأخيرتين أو السنوات الثلاث الأخيرة من حياته أبرز رجل في شبه الجزيرة العربية كلها ولكنه ظل بعيدا عن أن يصبح حاكما بالمعنى الصحيح للكلمة فلقد ظل وراء الفرد العربي لعشيرته وقبيلته قبل ولائه لأي شيء آخر . ولم تكن الجزيرة العربية ولا الحجاز أيضا قد عرفتا بعد نظام الحكومة التي تقوم فوق القبائل بعد . وقد ترغب قبيلة من القبائل على الطاعة اسما لجار قوى لمدة سنة أو سنتين ولكن القبائل العربية لم تكن لترغب في أن تتخلى عن سيادتها لهذا النظام الجديد : وحرى بنا أن نذكر هنا ان المسلمين ظلوا يواصلون الاغارة على القبائل العربية طيلة حياة النبي . وقد قاد الرسول نفسه في غزوة تبوك عدة ألوف من المحاربين ولم يكن في وسع أية قبيلة بدوية الفت حياة التنقل في الصحراء بحثا عن المرعى أن تحشد بصورة عملية مثل هذا العدد الضخم من المحاربين للقتال . والبدوي عمل في دبلوماسيته وهو يعرف ما يتحتم عليه أن يعمل وما لا يتحتم . وكان من الأسهل على القبائل البدوية في مثل هذه الظروف التي وجدت نفسها فيها أن توفد بعوثها إلى المدينة للوصول إلى تفاهم مع المسلمين . ولم تكن الشروط التي يفرضها النبي ثقيلة أو صارمة فعلى العربي أولا أن ينطق بالشهادتين . وكان معظم القبائل يدين بالوثنية وكان البعض منها يدين اسما بالنصرانية ويبدو أنهم لم يكونوا ينظرون إلى النصرانية نظرة جدية إذ انها كما يبدو لم تفلح في تغيير عاداتهم التي نشئوا عليها منذ أقدم عصور التاريخ وفي مقدمتها الغزو والنهب والشعر والثأر . ولم يكن مثل هؤلاء الناس ليجدوا أية مشقة في تكرار الشهادتين ، لكن الصعوبة الحقيقية مثلت أمامهم في الضريبة التي يفرضها عليهم النبي وهي الزكاة . فالقبائل شديدة التعلق باستقلالها والزكاة لا تعنى بالنسبة إلى البدوي مجرد عبء مادي بل تعنى أيضا الخضوع وهو ما يحس البدوي بمرارته ، فليس للبدوي من هدف في حياته الا الامجاد التي لا تتحقق له الا في الغزو والنهب والا أعمال الجود والكرم الخيالية وكلها يخلدها البدوي في شعره . ولقد كان عصر الجاهلية أشبه ما يكون بعصر هوميروس في شعره وفي تفاخره . وكان في وسع أبي بكر أن يزهو بأن قريشا هي « أوسط العرب حسبا ونسبا » ولكن البدوي لم يكن يرى في قريش الا جماعة من سكان المدن أي من التجار .

واذا ما استثنينا فرض الشهادتين ودفع الزكاة فان النبي لم يكن في الواقع قد استطاع أن يحكم العرب حكما دنيويا فعليا . فلم تكن لديه حكومة أو موظفون أو شرطة أو سجلات . وكان اذا ما أراد القيام

بغزوة أو غارة • دعا المسلمين الى القتال • وكان جزاء المحارب حصة في اقتسام الغنائم • وهكذا كان شيوخ القبائل يعودون من زياراتهم الى المدينة دون أن يفقدوا شيئاً من استقلالهم ومع ذلك فقد كان بدو الحجاز ونجد قد باتوا الى حد كبير تحت تأثير المسلمين • أما في المناطق النائية في عمان وحضرموت واليمن فان النبي لم يمارس أية سلطة دينوية فعلية أو مارس مجرد سلطة ضئيلة •

ولم يكد نبأ وفاة النبي ينتشر في أطراف الجزيرة العربية حتى كانت غالبية القبائل قد حزمت أمرها على وقف دفع الزكاة • وقد عرفت هذه الحركة في التاريخ الاسلامي بعهد الردة • تكن الواقع على أى حال ان من المشكوك فيه أن تكون نسبة من اعتنق الاسلام من اهل الجزيرة العربية كبيرة ، فلقد فرضت شخصية محمد على العرب الاعجاب والاحلال والمهابة • أما وقد انتقل محمد الى الرفيق الاعلى فقد خيل للقبائل ان هذا الحدث قد انتهى وان في وسعها أن تعود الى حياتها في الجاهلية (١) •

وسبق لنا أن ذكرنا ان جيش اسامة بن زيد ابن النبي بالتبني كان قد تاهب للخروج الى حدود الروم للثأر من مؤتة • وكان وضع أهل الردة من الخطورة كبيراً بحيث حمل حتى عمر صاحب المزاج المتحمس على أن يوجه النصيح الى أبى بكر بالعدول عن ايفاد جيش اسامة ، وأن يحشد قوات المسلمين في المدينة لمواجهة جميع التطورات • ولكن هذا الانسان الهادئ الوداع ظهر الآن فجأة بمظهر صاحب العزيمة الصادقة والتصميم المطلق اذ رد على عمر قائلاً : « عذمتك أمك وتكلك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله (صلم) وتأمرني أن أنزعه » • وخرج اسامة من المدينة بجيشه فخلت من المحاربين وأحاطتها القبائل المعادية من كل جانب • وخرج أبو بكر نفسه الى ظاهر المدينة الى المكان الذي يربط فيه جيش أسامة على بُعد عدة أميال منها لوداع الجيش وسار الى جانب أسامة يتحدث اليه • • وهتف القائد الشاب بالخليفة : « اما أن تركب أو أنزل الى جانبك » فرد الخليفة المهيب باصرار قائلاً : « لا • لن أركب • فسأسير في طاعة الله » ثم أوصى جيش أسامة وودعه وعاد الى المدينة (٢) •

---

(١) يؤكد المؤرخون العرب أن كثيرين من أمراء البادية في نجد واليمن لم يكونوا قد تأثروا بعد بآثر الاسلام • ولم ترك نفوسهم الزكاة المطلوبة • وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات • • « قالت الامراء آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولا يدخل الإيمان في قلوبكم • »

(٢) تجاهل المؤلف وصية أبى بكر لجيش أسامة مع انها تضع القواعد التي =

وفى غضون ذلك أخذ خطر جديد يبرز ماثلا يهدد المدينة فقد استغفر ما وصل اليه محمد من سلطان عن طريق النبوة ، عددا من الاعراب على ادعاء النبوة ، وقام طلحة شيخ قبيلة بنى أسد الوافرة العدد والمرابطة فيما يسمى اليوم بجبل شمر فى شمال نجد بادعائها • وقد تحول اسم طلحة فى التاريخ الاسلامى الى طليحة استصغارا لشأنه لأنه ادعى النبوة لنفسه • والى الشرق من ذلك المكان قام دعى آخر للنبوة اسمه مسلمة • أطلق عليه المسلمون أيضا اسم مسيلمة تصغيرا له • وجاءت الانبياء فى الوقت نفسه من كل مكان من أطراف الجزيرة العربية تقول ان الموت على أيدي الاعراب كان مصير معظم جباة الزكاة الذين كان النبى قد أوفدهم قبل وفاته للجباية وان بعضهم نجا من هذا المصير بأعجوبة •

وقد اكتفت القبائل البعيدة عن المدينة بطرد الجباة أما القبائل القريبة منها فقد خافت هجوم المسلمين ، اذا لم تبادر هى الى مهاجمتهم • ويبدو ان قبيلتي عبس وذبيان وكانتا تقيمان الى الشمال من المدينة كانتا أول من سارع الى العمل اذ حشدتا رجالهما فى مكان يدعى ذى القصة ويقع على بعد ثلاثين ميلا الى الشرق من المدينة (١) • وبعثتا بالرسل الى أبى بكر يعرضون الدخول فى الاسلام شريطة إلغاء الزكاة • ولو كان أبو بكر من الساسة الماكزين لقبل العرض أهلا فى كسب الوقت حتى يعود جيش أسامة من حملته فى الشمال ولكن أبى بكر أعاد الرسل قائلا : والله لو منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله عليه الصلاة والسلام لقاتلتهم على منعها •

ولم تمض أيام ثلاثة حتى كان بعض البدو يقيمون على مشارف المدينة ولكن القلة من محاربى المسلمين الباقين فى المدينة تمكنت من

---

== اتبعها المسلمون في حربهم وهي قواعد تمثل النبل والتسامي اللذين ود المؤلف الا يطلع تراه من القريبين عليهما ليبقى على الصورة المشوهة التي ارادها وهذا نص الوصية : « لا تخونوا ولا تغفلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تشدوا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لما كله وسوف تمرن بأقوام لفرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له • وسوف تقدمون على قوم ياتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا اكلتم منها شيئا بعد شوه فاذكروا اسم الله عليها ، وطلقون أقواما فحسوا أو ساءل ردوسهم وتركوا حولها مثل المصائب لما خفقوهم بالسيف خفقا يدلفها باسم الله • (١) اسم المكان الريدة والابرق • وقد أقام ليهما أبو بكر أياما بعد ان جلب ميسا وذبيان •



سدهم وتشتيت شملهم . وبدا ان الخليفة الهادي الوديع قد انقلب الى أسد مزير . فقد سارع يحشد كل رجل يمكن له أن يحشده ويستطيع أن يحمل السلاح وخرج بقوته في ظلمة الليل من المدينة ليدهم بها معسكر الاعداء في ذى القصة عند الفجر ، وعلى الرغم من أن البدو كانوا يقضون حياتهم في الحروب المستمرة الا انهم كانوا يفتقرون الى النظام العسكري أو الى الحيوية اللذين يفرضان عليهم أن يضربوا الحرس والارصاد خارج مخيماتهم . وهكذا كان الهجوم مباغتاً لهم كل البغطة وسرعان ما ساد الاضطراب صفوف البدو ففروا لا يلبون على شيء من موقعهم ليضربوا في بطن الصحراء ، وبدا ان عنصراً جديداً قد أدخل على مألوف العرب في الحرب وهو عنصر الحيوية والاندفاع الصارم .

وعاد أسامة على رأس حملته في سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٢ بعد غياب شهرين عن المدينة يسوق قطعاناً من الابل والاغنام التي غنمها المسلمون وان كانت التفاصيل التي وصلت الينا عن العمليات الحربية التي قام بها قليلة للغاية (١) ويبدو أنه أغار على قبائل البدو لا على قوات الروم . ولم يكن الخليفة الذي لا يكل ولا يمل برغم بلوغه الستين من عمره يشعر بالاطمئنان على المدينة حتى راح يقود قواته متجاوزاً بها ذى القصة ليهاجم عبسا وذبيان من جديد ، وقد رابطتا على بعد ثلاثين ميلاً الى الشرق منزلاً بهما هزيمة جديدة . وبرهن أبو بكر الهادي الوديع بصورة غير متوقعة على أنه قائد لا يقل اندفاعاً عن النبي . ومما يذكر ان عدداً كبيراً من المسلمين أتوا أبا بكر يناشدونه ألا يعرض نفسه قائلين : « انك ان تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فان أصيب بعثت بآخر » فقال : « والله لا أفعل ولا واسينكم بنفسى » .

ويقول المؤرخون العرب ان أبا بكر حشد بعد رجوع جيش أسامة إحدى عشرة سرية تعمل كل منها وفي الوقت نفسه في جهة من الجهات لكفاح المرتدين لكن اذا صح ما قيل وان هذه الفكرة قد جالت في خاطر

---

(١) يقول السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » نقلاً عن أبي هريرة ان جند أسامة لقوا الروم فهزمهم وقتلهم ورجعوا سالين ، ويقول الخضرى ان أسامة شن الغارة على بلاد قضاة في شمال الجزيرة وكانت محببة للروم وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثته أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لان اعداءهم لم يسمعوا به قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم فغير على من بعد عنهم من القبائل القوية .



الخليفة فانه لم يتم بتنفيذها على أى حال فقصداً اتبع الخليفة الطريق المعقول الصحيح وتمكن من اخضاع القبائل الثائرة واحدة بعد أخرى . وكان المنهزمون من عيسى وذبيان قد تراجعوا شرقاً في غضون ذلك وانضموا الى طليحة النسي الكذاب فى جماعته من بنى أسد وحشد أبو بكر كل ما أمكنه جمعه من محاربى المسلمين وأقام لهم معسكراً فى ذى القصة . ووجه أبو بكر فى غضون ذلك رسالة الى المرتدين والعصاة قال فيها بعد أن بدأها باسم الله وذكر الرسالة والوفاء وبعد أن ذكر قوله تعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ، راح يقول وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه ، أقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان ثم قال انه قد بعث اليهم بجيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان وانه قد أمره بالآيقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى فقد أمره أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم شر قتلة ، وان يسبى النساء والذراى ولا يقبل من أحد الا الاسلام .

وكل أبو بكر أمر القيادة العامة الى خالد بن الوليد أكثر محاربى المسلمين دراية بشئون الحرب والذي حقق لقريش نصرها فى أحد وحقق للمسلمين انسحابهم الناجح فى مؤتة وهنا لا بد من أن نبين المفارقة بين أسلوب أبى بكر وأسلوب النبى فى الحرب فقد عهد النبى قبيل وفاته بقيادة الحملة الى الشمال الى أسامة بن زيد الذى لم يتجاوز العشرين من عمره رغبة منه فى أن يثار الولد لأبيه الذى استشهد فى مؤتة والذي كان النبى قد رباه . ومن هذا يبدو لنا ان اختيار النبى لقيادة هذه العملية الحربية استند الى أسباب عاطفية مجردة ، وهى الرغبة فى الثار وتعلقه بذكرى ربيبه لا لأسباب عسكرية عملية تتعلق بالكفاية . ومن الصحيح أن يقال ان الجانب العاطفى من شخصية الرسول قد مكنه من أن يجمع قلوب أتباعه حوله ولكن الحرب فى حد ذاتها مهنة عملية صارمة لا شأن للعاطفة فيها . وكان خالد بن الوليد قد اشترك فى جيش أسامة كجندي عادى فى صفوف المحاربين ولكنه ما كاد يعود ، ويصبح أبو بكر حراً فى اتخاذ قراراته ، حتى عهد الى أكثر قادته العسكريين تجربة ودراية بتولى قيادة قواته الرئيسية .

وسار خالد من ذى القصة على رأس جيش قوامه نحو من أربعة آلاف جندي الى نجد ، بعد أن وافق أبو بكر أخيراً على العودة الى المدينة

وتقدم خالد يطلب محاربة طليحة وقومه من بنى أسد الذين احتشدوا  
 ففى بزاجة ، وهو ماء لقبيلة طيء بأرض نجد . وكانت قبيلة طيء قد  
 انضمت الى طليحة فى عصيانه ، فلما علمت بمسيرة خالد اليها جاءت  
 مستسلمة - وهذه القبيلة هى التى اشتهر أمرها فى الجاهلية بكرم شيخها  
 حاتم الذى أصبح مضرب الامثال . وعسير علينا فى هذه الايام أن نكتشف  
 المواهب التى جعلت من طليحة رجلا يستطيع ادعاء النبوة فتلتف حوله  
 قبائل عدة وذلك لان مؤرخى العرب أضفوا على اسمه صورة ناطقة بالهزم  
 والسخرية ولعلنا نستطيع الحصول على الصورة الصادقة عنه من عينيه  
 شيخ غطفان ، الذى انضم اليه برجاله ، وقال قبيل المعركة يرد على بعض  
 من غاب عليه هذا الانضمام . . . انه نبى منا ونبى منا خير من نبى من  
 قريش ناهيك عن ان محمدا قد مات وان طليحة حى يرزق» (١)

ولم ينقل إلينا مؤرخو المسلمين صورة عن معركة بزاجة(٢)

(١) روى البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان أن عبيدة بن حصن بن حذيفة كان مع  
 طليحة على رأس سبعمائة من بنى فزارة من غطفان ، فلما رأى سيوف المسلمين قد  
 استلحمت المشركين فى بزاجة اتاه فقال له : اما ترى ما يصنع جيش أبى الفضل ؟  
 فهل جاءك جبريل بشيء ؟ قال : نعم . جاءنى فقال ان لك رجا كرحاء ويوما لا تنساه  
 فقال عبيدة اوى ان لك يوما لا تنساه ، يا بنى فزارة هذا كذاب ، وولى من مسكره  
 قاتلهم الناس . ومن هنا يظهر أن انقلاب عبيدة لم يكن من انتهاز كما حاول المؤلف  
 أن يقول وإنما كان من ظهور الحقيقة له وظهور كذب طليحة وشتان بين الانتهاز والرجوع  
 الى الحق .

(٢) لقد تحدث مؤرخو العرب كثيرا عن معركة بزاجة خلافا لما يقوله المؤلف فقد  
 روى السيوطى فى تاريخ الخلفاء أن ابا بكر بعث خالدًا وأمره أن يقاتل الناس على  
 خمس ، من ترك واحدة منها قتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعا ، وهى شهادة  
 أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان  
 وحج البيت . وروى البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان أن ابا بكر عقد وهو بذى القصة  
 لخالد بن الوليد على الناس وجعل على الانتصار ثابت بن قيس وهو أحد من استشهد  
 يوم اليمامة الا انه كان من تحت يد خالد وأمر خالدًا أن يصمد لطليحة الاسدى وكان  
 قد ادعى النبوة وهو يومئذ ببزاجة ، فسار اليه خالد وقدم أمامه عكاشة بن محصن  
 وثابت بن ارقم فلقىهما حبال بن خويلد فقتله ، وخرج طليحة وسلمة اخوه وقد بلغهما  
 الخبر ، فلقيا عكاشة وثابتا فقتلتهما ثم التقى المسلمون وعدوهم وقاتلوا قتالا شديدا ،  
 ثم وقعت حادثة عبيدة ( رويها قبل قليل ) وانهم طليحة وظهر المسلمون وأسر عبيدة  
 بن حصن فقدم به المدينة فحقن أبو بكر دمه وخلقى سبيله ، أما طليحة فقد فر وأتى  
 خالد بن رمان وابانين ، وهناك قتل بزاجة فلم يقاتلوه وباعوه لابی بكر ، وبعت بهشام  
 ابن العاص الى بنى عامر بن صعصعة فلم يقاتلوه واطهروا الاسلام والاذان فانصرف  
 عنهم . ثم قصد خالد الى النمر وهناك جماعة من بنى أسد وغطفان وغيرهم وعليهم  
 خارجة بن حصن فقاتلوا المسلمين وقتل منهم جماعة وانهم الباقون . ( العرب )

ويكفي أن نقول انه لما بليت بوادر الهزيمة على بنى أسد انسحب عيينة  
 برجاله من غطفان من المعركة فانهمارت مقاومة بنى أسد وفروا وهرب  
 طليحة مع أسرته الى سوريا (١) ثم عفا عنه الخليفة أخيرا بعد أن أسلم  
 وحسن اسلامه وأبلى بلاء حسنا في حرب الفرس . ويبدو أن الرجل كان  
 كفيhre من البدو خفيف الظل حاضر النكتة . فقد حدث أن مر بالمدينة في  
 خلافة عمر بن الخطاب وقال له الخليفة مؤنبا اياه على قتل أحد شهداء  
 المسلمين إبان حروب الردة . . اقتيلت العبد الصالح عكاشه بن محصن ؟  
 فرد طليحة بهسوده : « ان عكاشة بن محصن سعد بى وشقيقت به وأنا  
 أستغفر الله » . (٢) وقال عمر : « انت الكاذب على الله حين زعمت انه أنزل  
 عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئا فاذكروا الله  
 أعفة قياما فان الرغوة فوق الضريح » فقال : يا أمير المؤمنين ذلك من فتن  
 الكفر الذى هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه فأسكت عمر .

وبعد أن تمكن طليحة من الفرار استسلمت بنو أسد فترك  
 استسلامهم وانتصار المسلمين أثرا معنويا ضخما في القبائل فسارع بنو  
 سليم وهوازن الى الاستسلام ودفع الجزية . وقد عفا الخليفة عن غالبية  
 العصاة الا من عرف بأنه قتل مسلما إبان الردة فقد أنزل الخليفة به  
 العقاب على أساس العين بالعين والسن بالسن . وقد أحرقت بعض هؤلاء  
 وهم أحياء ، ورجم بعضهم بالحجارة أو قذف به في هوة أو صرع بالنبال .

وكانت تعيش الى الجنوب الشرقى من أسد وغطفان قبيلتان تميم  
 وبنى حنيفة وما زال بنو تميم يعيشون في هذه المنطقة ويعدون خلقا كبيرا  
 في واحاتها حتى يومنا هذا وإن كان بعضهم قد ارتحل الى العراق حيث  
 أقام الى الغرب من بغداد أما بنو حنيفة فكانوا أنصارا مستيلمة الكذاب  
 الذى ادعى النبوة وسارعت بطون عدة من بنى تميم الى خالد بن الوليد  
 تعلن اذعانها له الا بنو يربوع الذين كان على رأسهم مالك بن نويرة فقد  
 أبوا ورفضوا الاستسلام .

(١) يقول البلاذرى ان طليحة بن خويلد فر بعد معركة براخة لدخل خباء له  
 فافتسل وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة ثم مضى الى مكة ثم الى المدينة مسلمة  
 وقيل بل الى الشام فآخذه المسلمون ممن كان غازيا وبثوا به الى أبى بكر بالمدينة فأسلم  
 وأبلى بعد في فتح العراق ونهاوند .  
 (٢) يعنى أسعدت عكاشة بقتلى اياه . اذ استشهد ومضى الى الجنة اما انا فقد  
 شقيت لان مصرى الى النار .

( العرب )

وكان مالك من أبرز زعماء القبائل اذ اشتهر بالشجاعة والكرم وقول الشعر وهي صفات ثلاث كان العرب يعجبون بها أشد الاعجاب . ويبدو أن مالكا صعب عليه أن يذعن لخالد لأن في اذعانه انتقاصا من قدره فأمر رجاله من بنى يربوع بأن يتفرقوا وسار مع عائلته في الصحراء ينهب أرضها نهبا . وكان أبو بكر قد أصدر أوامره الى خالد بأن يختبر المرتدين بأن يطلب اليهم أداء الشهاداتين وأن يرقب سلوكهم عندما يدعو المؤذن الى الصلاة . ولهذا لم يكن هناك خطر كبير يهدد مالكا اذا رفض الاذعان لخالد شخصيا اذ لو أمسك به المسلمون فإن في وسعه أن يتسلو الشهاداتين وأن يلبي نداء المؤذن الى الصلاة . ولكن خالدا أثر اتباع وسائل أكثر عنفا كما يبدو وبث سراياه مغيرة على القوم لجمع الهاربين وأخذ الغنائم منهم ، وجاءته احدى هذه السرايا بمالك بن نويرة وأهله على الرغم من ادعائهم الاسلام . واحتج بعض المسلمين على خالد لقسوته مع مالك وأهله ، ولكن احتجاجهم لم يجد فتىلا اذ أمر بحبسهم ، ثم أمر بقتلهم في الليل ، ولم تنقضى أربع وعشرون ساعة على قتل مالك حتى كان خالد قد تزوج من امرأته .

ولم يكن ثمة أى خطأ في الزواج من أرملة عدو قاتل في المعركة وقتل . فلقد فعل النبي ذلك في خيبر بعد قتل كنانة زعيم اليهود اذ تزوج من امرأته صفية في نفس الليلة التي قتل فيها زوجها . ولكن كنانة لم يكن مسلما بينما قتل مالك بن نويرة وهو يدعى الاسلام ، ولا ريب في أن عمل خالد بزواجه فورا من امرأته الجميلة ليل قد أثار الشكوك في أن مالكا قد قتل ليخلو الجو للقائد الظافر (١) .

(١) كان هذا الحادث مثار القيل والقال منذ ذلك اليوم وكان معظم الذين حملوا على خالد من المؤرخين من أصل غير عربى للظن في خالد وتشويه سمعته . ولو كان خطؤه كما يحاول المؤلف ان يصوره من النوع الذى لا يفتقر لما تسامح معه أبو بكر وهو الخليفة المؤمن الصادق في اسلامه . وقبل مناقشة المؤلف مناقشة كاملة اود أن اورد الحقائق كما جاءت في كتب التاريخ العربى . كان النبي قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة ، فلما توفي رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد الله عليه فأرسل الركاة الى أبى بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الامر . وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبينما هم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث . وكانت قد ادعت النبوة فنجعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبى بكر فلما قربت من ديار بنى تميم ، أرسلت الى مالك ابن نويرة سيد بنى يربوع ودعته الى الوادعة فوادعها وثناها عن غزو أبى بكر وحملها على أن تغزو بعض الاحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ، ثم أرسلت الى وكيع بن مالك .

وقد ثار أهل المدينة الذين كانوا قد اعترضوا فيما مضى على أعمال خالد الصارمة القاسية لقتل مالك ، وسارع أبو قتادة وهو من صحابة النبي الاوائل الى المدينة يشكو خالدا الى أبى بكر الذى استدعى خالدا ليرد على الاتهام (١) وألح عمر بن الخطاب الذى كان يجمع بين صرامة خالد وقسوته وبين بساطة أبى بكر وتعلقه بالدين الحنيف على الخليفة ليسرح خالدا من قيادته . وقد أنكر خالد عند مجيئه الى المدينة انه قد أمر بإعدام مالك . وأكد ان الحراس قد أساموا فهم أوامره . ومهما كان رأى أبى بكر - المتناهى فى حكمته - فى سلوك قائده فانه كان على ثقة من

سيد بنى مالك بن حنظلة تدعوه الى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأى تميم يبدعون فسجعت لهم سجاح قائلة : أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب . فكانت بذلك خطوب فى بطون تميم وبينما هم على ذلك اذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد فى جيوشه فتفرقت جموعهم وعادت الى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتحرر فى أمره . وكذلك من فعل فعله معه من رؤساء تميم غير ان من هداه ندموا ندما ظاهرا وأخرجوا الزكاة وأرسلوها الى خالد . وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن يفترقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد احدا فبث سراياه مضرة على القوم فجاءته بمالك فى نفر من بنى يربوع فأمر بهم فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه . ولما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر ان فى سيف خالد رهقا فان لم يكن هذا حقا حق عليه ان تنجده والحف عليه فى ذلك . فقال أبو بكر هبه يا عمر تأول فأخطأ فأرفع لسانك من خالد فبؤدى مالك وخذلان بنى يربوع عادت تميم كلها الى الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها الى أبى بكر .

من هذا التاريخ يمكن أن توجه الى مالك التهم التالية : (١) خيانة الامانة التى وكلت اليه وهى الولاية من رسول الله وخليفته من بعده (٢) مخالفة ركن أساسي من أركان الاسلام الخمسة وهى الزكاة لا بالنسبة الى نفسه فقط بل وبالنسبة الى كل من هم تحت أمره (٣) العصيان على الدولة ورفض الخضوع الى سلطانها (٤) الاعتراف بسجاح وهى نبية كاذبة والتعاون معها والانضمام اليها وفى ذلك ما فيه من مروق على الدين (٥) استخدام جيوش سجاح لحاربة من ظل على صادق عهده مع المسلمين (٦) اتباع وسيلة العصيان المذنب مع جيش خالد والهروب من أمامه عن طريق الاختفاء (٧) التظاهر بالاسلام من جديد .

كل هذه التهم لا تدفع وأقل عقاب لها من الناحيتين الدينية والدنيوية القتل ولقد اعتبر خالد مالكا من المشركين بل هو أشد جريمة من المشركين لانه مرتد ولا عدة لمشرك أو كافر على زوجته ، ومن هنا جاز له أن يتزوج من امراته ليلة قتله . ولعله قبل ذلك لسبب سياسي كما أن رد أبى بكر وهو الحصيف الرأى خير تبرئة له .

( العرب )

(١) سبق أن بينت فى هامش سابق أن أبا بكر لم يأخذ بالاتهامات التى وجهت الى خالد ولذا فقد أبقاه على قيادته ولم يستدعه الى المدينة كما يقول المؤلف .

( العرب )

براعته في فنون القتال حتى انه قال لمنتقديه لن أشيم سيفاً سله الله على الكفار ، وقد قبل الخليفة مبررات خالد الذي تبادل قبل خروجه من المدينة عائدا الى قيادته بعض العبارات الحادة مع عمر بن الخطاب وهي عبارات قدر لها أن تترك نتائج سيئة في السنوات التالية .

وكان الخليفة قد خول خالدا في غضون ذلك أن يواصل تقدمه لمحاربة مسيلمة ورجاله من بني حنيفة الذين كانوا لا يزالون يشقون عصا الطاعة ويمتشقون الحسام . وكانت هذه القبيلة بطنا من بطون بكر بن وائل التي تعيش حياة الرعي في الصحارى الممتدة بين كئبان الدهناء الرملية وبين أدنى الفرات . وكان بعض بني بكر نصارى اسما على الأقل بينما كان البعض الآخر من عبدة الاوثان . أما الآن فقد وقف بطن بني حنيفة من قبيلة بكر الى جانب نبهم مسيلمة وقفة صامدة وهو رجل ادعى النبوة حتى في حياة النبي ، ثم ما لبث ان ادعى بعد وفاة النبي ان محمدا قد رأى فيه سيماء النبوة .

وتقول الروايات ان مسيلمة كان قد كتب الى النبي في حياته يعرض عليه اقتسام العالم فيما بينهما اذ قال في رسالته : « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . أما بعد فان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريشا لا ينصفون والسلام عايك » ويقال ان النبي رد عليه قائلا : « من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين والسلام على من اتبع الهدى » .

وكان أبو بكر قد بعث في غضون ذلك النجدات من مكة والمدينة الى خالد الذي تقدم الى الامام زاحفا على العدو . والتقى الجيشان في منبطح رملي يدعى « عقربة » في اليمامة الى الجنوب الشرقي من نجد . وكان بنو حنيفة البادئين بالقتال فشنوا هجوما ضاريا في منتهى العنف على المسلمين حتى ان المسلمين انزاحوا عن مواقعهم . وتمكن البدو المتحمسون من اجتياح هذه المواقع وبينها خيمة خالد نفسه . ولكن المسلمين ما لبثوا ان تجمعوا ونظموا صفوفهم وكان زيد بن الخطاب آخر عمر يحمل راية المهاجرين ويتقدم صفوفهم الى أن استشهد بسيف البدو وتقدم ثابت بن قيس ، يحمل راية الانصار على رأس رجاله الى أن استقبل الموت وسط صفوف الاعداء . وظلت المعركة سجالا بين أخذ ورد ضلحها السيوف . وزاد من حدتها هبوب رياح جنوبية تحمل الرمال فتسفع وجوه المسلمين وأخذ الانحلال يدب في صفوف بني حنيفة بعدة ساعات من القتال ، ويبدو أن المعركة قد دارت في إحدى الواحات



الصغيرة والكثيرة في المنطقة اذ أن المنهزمين من بنى حنيقة ما لبثوا أن لجئوا الى حديقة نخيل مسورة واغلقوا على أنفسهم أبوابها . وأخيرا تمكن البراء ابن مالك وهو أحد المسلمين الأوائل من الانصار الذين بايعوا النبي تحت الشجرة وأبو دجانة وهو الذي حارب بسيف النبي في أحد من الصعود الى السور عند الباب على ظهور رفاقهم . وقفز الفارسان وسط صفوف العدو وراء السور فمزقت سيوفهم أبادجانة في لحظات . أما البراء فقد تمكن من الوصول الى الباب وفتحه . واقتحم المسلمون الباب كالعاصفة الجائحة . ودارت رحى معركة حامية الوطيس بالسيوف وسط أشجار النخيل التي تكتظ بها الحديقة . وكان بنو حنيقة يحاربون معركة يائسة اذ لم يكن لهم سبيل الى التراجع ولذا فقد قاتلوا وأظهروهم الى الأسوار . وأخيرا غلب المشركون على أمرهم وأبعدوا عن آخرهم .

وكان عدد الضحايا من المسلمين في هذه المعركة أيضا أكبر منه في أية معركة سابقة ولو حكمنا على المعركة على ضوء المقاييس الحديثة لتبين لنا أنها أول معركة جديّة حقاً اشتبك فيها المسلمون حتى ذلك التاريخ وانها أول ماذقه المسلمون من طعم الحروب التي قدر لهم أن يواجهوها . فلقد خسرت قريش في موقعة بدر تسعة وأربعين قتيلًا من مجموع ألف محارب وخسر المسلمون في موقعة أحد أربعة وسبعين شهيدا من مجموع سبعمائة مقاتل . أما في هذه المعركة التي سميت بحديقة الموت فلقد قتل ان المسلمين خسروا نحوًا من ألف ومائتي شهيد (١) . ولو افترضنا أن خالدًا كان يقود خمسة آلاف رجل فإن هذا العدد من الاصابات كبير للغاية لانه يشير الى عدد القتلى ليس الا . ومن المحتمل أن يكون عدد الجرحى قد عادل هذا الرقم أيضا وبذلك تكون الاصابات خمسة آلاف ، وعلينا أن نعتز على أية حال بأن الأرقام التي يعدها المؤرخون العرب عامضة كل الغموض بحيث لا نستطيع الاعتماد عليها .

وقد قتل مسيلمة الكذاب نفسه في المعركة وكان وحشي قاتل حمزة عم النبي في معركة أحد هو الذي قتله . وكان وحشي قد تحول الى الاسلام كما تحول الكثيرون ممن يفوقونه منزلة ومكانة ، ولكن لم يكن

---

(١) اختلف مؤرخو العرب حقا في عدد من استشهد في المعركة فبينما يقول السيوطي ان عددهم كان لا يبدو السبعين . ذكر الطبري ان عدد القتلى من الفريقين بلغ عشرة آلاف وقال الواقدي ان عدد شهداء المسلمين بلغ الفا ومائتين بينما قال غيره ان العدد بلغ الفا وسبعائة .

فى استطاعة وحشى هذا أن يدعى أن اسلامه قد حسن اذ انه ظل سكيما  
مدمنا حتى نهاية حياته • وتقول الروايات ان وحشيا عندما طعن فى  
السن كان يعرض سهما على زائريه ويهتف قائلا بهذا قتل خير الناس  
وشر الناس •

وكانت حراجة الوضع فى نجد قبل معركة اليمامة أو حديقة الموت  
قد دفعت أبا بكر الى أن يبعث بامدادات قوية من المدينة الى خالد وكان  
فى هذه الامدادات عدد كبير من المهاجرين والانصار الذين خاضوا غمرة  
القتال مما أدى الى اصابة ومقتل عدد كبير من صحابة النبى ولقد كان بين  
القتلى عدد كبير من حفظة القرآن ، وآياته حتى تلك اللحظة محفوظة فى  
ذاكرات الصحابة أو فى نثف مكتوبة هنا أو هناك دونها بعض من يحسنون  
القراءة والكتابة من العرب •

وكان بين شهداء المعركة زيد بن الخطاب شقيق عمر • ويقال انه  
عندما أتاه ولده عبد الله الى المدينة بعد انتهاء المعركة راح يعنقه على بقاءه  
حيا بعد عمه زيد ويقال ان عبد الله رد على أبيه بأن عمه طلب الشهادة  
فاستجاب الله له وانه هو أى عبد الله - طلبها ولكن الله لم يستجب  
لطلبه •

وسار خالد بعد المعركة بجيشه الى الهجر عاصمة مسيلمة وأوفد  
اليها أسيرا عنده من شيوخ بنى حنيفة ليطلب من أهلها التسليم ، وقد وعد  
خالد بأن يوفر على الحنيفيين أرواحهم شريطة أن يأخذ كل ما يملكونه  
وعاد الرسول ينقل الى خالد رد المدافعين مدعيا انهم يرون فى الشروط  
قسوة لا يستطيعون قبولها وانهم قرروا تبعاً لذلك المضى فى القتال •  
ورأى خالد فى الوقت نفسه حشودا من المسلحين تقوم على حراسة  
الاسوار • وكان الرسول فى الواقع هو الذى رتب الامر فجمع الشيوخ  
والنساء والاطفال وألبسهم الدروع والخوذ وطلب اليهم أن يصعدوا الى  
الاسوار ليظهروا عليها • وخدع خالد بما رآه ووافق على أن يقبل  
تسليمهم مقابل الحصول على سلاحهم وذهبهم وفضتهم ليس الا • وبيع  
عدة ألوف من الاسرى كارقاء وبنى خالد بابنة شيخ بنى حنيفة مما أثار  
عليه غضب الخليفة الذى أعرب عن عجبه من تفكير خالد فى الزواج ودماه  
شهداء المسلمين لم تجف بعد (١)

---

(١) يقول البلاذرى ... وكانت الحرب قد نهكت المسلمين وبلقت منهم قسالة  
مجاة بن مرارة وهو أسير عند خالد من شيوخ بنى حنيفة لخالد : ان اكثر اهل اليمامة =

وأنهت معركة اليمامة التي دارت في ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٢ ويناير (كانون الثاني) عام ٦٣٣ كل مقاومة في نجد ومن القبائل الحليفة لبنى حنيفة ، وجاءت الوفود من كل مكان تعرض استسلام القبائل العاصية لخالد . وكان أبو بكر قد بعث برسالة الى خالد في غضون ذلك يأمره بقتل جميع الذكور البالغين من أبناء القبائل الثائرة . ومن حسن حظ هذه القبائل ان الهدنة كانت قد وقعت عندما وصلت الرسالة الى خالد ، وقد قدر لبنى حنيفة أن يحاربوا بعد هذا التاريخ دفاعا عن الاسلام وأن يبجلوا بلاء حسنا ولو قتل الآلاف منهم تنفيذا لأمر الخليفة بعد هزيمتهم لكان هذا العمل خاطئا وخاليا من الرحمة .

ومن العسير علينا هنا أن نحلل الدوافع التي حملت أبا بكر الوادع الهادئ على أن يبعث بمثل هذا الأمر الخالي من الشفقة ولكن أكثر إيضاح قريب للعقل هو أن أبا بكر كان مخلصا كل الاخلاص للنبي . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف أصر على إيفاد أسامة بن زيد في حملته على الحدود البيزنطية بعد وفاة النبي على الرغم من أن الجزيرة العربية كلها كانت ثائرة عليه ، وكان الوضع قد تغير الآن عما كان عليه عندما أصدر النبي أمره بأعداد هذه الحملة ولكن أبا بكر رفض رفضا قاطعا الغناء الاوامر التي سبق للنبي أن أصدرها أو تعديلها . ولكن عندما كان ينشأ أي وضع جديد لا تعليمات سابقة للنبي فيه فإن أبا بكر كان يستخدم فكره الخاص به ويتخذ إزمه موقفا حاسما .

وكان من الظواهر البارزة في سياسة النبي انه كان متسامحا مع

---

= لم يخرجوا لقتالكم وانما قتلتم منهم القليل وقد بلغوا منكم ما ارى وانا صالحك عنهم . فصالحه على نصف السبي ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع . ثم ان خالدًا توثق منه وبعثه اليهم فلما دخل اليمامة أمر الصبيان والنساء ومن باليمامة من المشايخ ان يلبسوا السلاح ويقوموا على الحصون ففعلوا ذلك . فلم يشك خالد والمسلمون حين نظروا اليهم انهم مقاتلة فقالوا لقد صدقنا مجاعة ثم ان مجاعة خرج حتى اتي مسكر المسلمين فقال : ان القوم لم يقبلوا ما صالحتك عليه منهم واستمدوا لحربك وهذه حصون العرض مملوءة رجالا ولم ازل بهم حتى رضوا بأن يصالحوا على ربع السبي ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع . واستقر الصلح على ذلك ورضي خالد به وامضاه وادخل مجاعة خالدًا اليمامة فلما رأى من بقى بها قال خذعتنى يا مجاعة واسلم اهل اليمامة فاخذت منهم الصدقة .

أما قصة زواج خالد الجديد وغضب الخليفة فلم اشر عليها في كتب التاريخ

العربي .

« العرب »

الكفرة والمشركين وصارما لا يرحم مع المرتدين ولقد كان في مكتنة المشرك حتى ولو وقع أسيرا وهو يحمل السلاح ضد المسلمين أن يشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله وأن يتخذ بذلك حياته . وكثيرا ما شكك المؤمنون الى النبي في حياته من حالات أعلن فيها بعض الناس اسلامهم دون أن يكونوا مخلصين في اعلانهم هذا ، وكثيرا ما طارد المسلمون مشركا وقد فر من المعركة وكانوا على وشك تقطيعه بسيوفهم أو قتله برماحهم عندما يروح عدو الله هذا ينادى الا اله الا الله وان محمدا رسول الله فيجدون أنفسهم مضطرين الى اغماد سيوفهم وينجو المشرك من القتل وكثيرا ما كانوا يسألون النبي هل يمكن قبول هذا الشكل من الاسلام وحرمان المسلمين من الغنيمة ، لكن النبي كان يصر على أن مثل هؤلاء الناس يجب أن يعتبروا من المسلمين .

أما اذا عاد هؤلاء فارتدوا عن الاسلام بعد أداء الشهادة فان النبي كان يوقع بهم أشد العقوبة وهي عقوبة الموت وهكذا اذا اعتبر بنو حنيفة وانصارهم من المرتدين فان حكم النبي فيهم وفي أمثالهم قد صدر من قبل وهو الموت . وهكذا فاننا رأينا خليفة أبا بكر غزوا عن استعمال صلاحياته في موضوعهم أو الحكم عليهم حكما مخالفا وهذا عنى ان الخليفة كان يريد عقابهم بالموت دون تردد . ولكن من حسن حظهم ان النبي كان قد أمر بالوفاء بالعهد بعد صدوره وان على المسلمين الحفاظ على عهودهم ومن هنا كان لابد لأبي بكر أن يقبل عهد خالد وأن يقر شروط الهدنة التي عقدها مع بنى حنيفة ، ولذا فان الخليفة استقبل وفود هذه القبائل المرتدة المهزومة التي بعث بها خالد استقبالا طيبا عندما جاءت وأعادها الى ديارها سليمة معافاة .

وحرى بنا هنا أن نقول ان الملك ابن سعود أصدر أمره عندما ثارت قبيلة المطير على الحكم الوهابي في عشرينات هذا القرن باعدام جميع الذكور من أفراد القبيلة المذكورة ، فلقد كان ابن السعود يعتبر العصيان السياسى نوعا من الردة (١) .

(١) مقارنة سخيفة كل السفخ من جانب المؤلف بين حكم النبي من ناحية وحكم الملك ابن سعود من الناحية الثانية وبين المسلمين الاوائل والوهابيين المحدثين للقد كانت ردة القبائل العربية بعد وفاة النبي ردة على الاسلام نفسه وخروجا على حكم اسلامي صحيح اما الثورة على السعوديين لثورة وطنية شعبية على حكم دينوى لايسل باوامر الاسلام ونواجه . ومن هنا لا يكون لمة مجال للمقارنة بين ردة بنى حنيفة في صدر الاسلام وبين ابة ثورة حديثة على الحكم السعودي

ويجد هذا الموقف جذوره في الحقيقة الواقعة وهي أن محمدا كان انزعيم الديني والحاكم السياسي لشعبه وإن الحكومة أصبحت مرتبطة العربى بالقيادة السياسية فى الدول الإسلامية منذ عهد الرسول حتى القرن العشرين على الأقل . وكان هذا الربط بين الدين وبين الحكم السياسى سببا جوهريا فى سوء الفهم من جانب الأوربيين للبلاد الإسلامية . ويميل غير المسلمين الى نقد تدخل القيادات الدينية الإسلامية فى شئون السياسة وهم يتساءلون عن الأسباب التى تحول بينهم وبين حصر أنفسهم فى حقل التعليم الدينى . تاركين السياسة لأربابها لكن هذا الفصل بين الدين والسياسة وجهة نظر مسيحية . ولقد كان الدين والسياسة بالنسبة الى المسلم القديم لا بالنسبة الى القومى العربى الحديث أمرين لا ينفصلان . ومن هنا كان لابد أن تعتبر الثورة السياسية ردة دينية .



كانت الصحارى الرملية الفسيحة فى النصف الجنوبي من الجزيرة العربية والمسماة بالرربع الحالى دائما جدا يفصل بين مناطق عمان وحضرموت الساحلية وبين عرب نجد والأراضى الشمالية الخصبة فى سوريا والعراق وكانت هذه المناطق الواقعة على المحيط الهندى تتأثر كما تتأثر الآن بعوامل كثيرة تصل اليها من أماكن نائية فى فارس وبلوخستان والهند والملايو وافريقيا الشرقية . وكان وجود الصحارى الرملية وراء هذه المناطق سببا فى تطلعها دائما الى ما وراء البحار الى العالم الخارجى ، ومن هنا لم تلعب أى دور بارز فى تاريخ العرب الى الشمال . وقد تمكن خالد بانتصاراته فى أواسط الجزيرة من اخضاع أقوى القبائل المحاربة لحكم المدينة ولهذا فان فتوحات المناطق الواقعة وراء هذه الصحارى لم تكن أكثر من مجرد عمليات ثانوية فرعية اذا ما قورنت بالتيار الرئيسى للتوسع العربى .

لكن اخضاع بنى حنيفة فى اليمامة لم يعن الا اخضاع شطرنج من مجموعة القبائل الكبيرة المسماة ببني بكر بن وائل بن ربيعة وهى المجموعة التى تنتمى اليها قبيلة عذرة البدوية الحديثة الكبيرة . وكانت قبائل بكر تنتشر فى منطقة واسعة تمتد من الحيرة وأدنى الفرات الى السواحل الجنوبية للخليج العربى وكانت بكر تؤلف الجزء الأكبر من رعايا اللخمين من ملوك الحيرة فى أوج سلطانهم . ولكن يذكر القارىء ولا شك أن النزاع كان قد نشب بين أمراء اللخمين وبين أكاسرة الفرس فى عام ٦٠٥ مما أدى الى انتداب أحد العمال الفرس لتولى حكم حوض الفرات الأدنى مباشرة . وظل بنو بكر منذ ذلك التاريخ فى ثورة دائمة على الفرس وحققوا فى عام

٦٠٦ تقريبا أول نصر عربى على قوات الفرس عرف فى التاريخ العربى  
باسم يوم ذى قار .

وأدت هزيمة بنى حنيفة الفرع الى أن تجد قبيلة بنى بكر الام نفسها  
بين شقى رحى أى بين قوتين سياسيتين عظيمتين . وكانت هذه القبيلة  
تخوض منذ سنوات عدة حرب عصابات ضد الفرس ولكنها كانت تحس  
بالاطمئنان الى مؤخرتها اذ كانت قبائل نجد التى تعيش فى هذه المؤخرة  
مشغولة بمشاحناتها الدموية المألوفة . لكن ظهور خالد بن الوليد الآن  
على رأس قوة ضخمة تعد بالوف المحاربين الفائزين فى جناحها الجنوبى  
وضعها فجأة بين نارين .

وكانت قبيلة بنى بكر شأنها فى ذلك شأن القبائل العربية الأخرى  
مجزأة ومنقسمة على نفسها وكان المثنى بن حارثة زعيم بنى شيبان من  
أبطال معركة ذى قار هو العامل فى اتخاذ القرار بتجربة حظهم مع المسلمين .  
ويحاول مؤرخو العرب القدامى وهم من أبناء المدن الذين عاشوا فى تاريخ  
متأخر عن هذه الايام أن يعزوا كل عمل جرى فى هذه الآونة الى دوافع  
دينية . ومن المحتمل كل الاحتمال أن يكون قرار بنى بكر فى هذه الآونة  
صادرا عن دوافع سياسية أكثر منها دوافع دينية . فلقد كانت القبيلة  
فى نزاع دائم مع الفرس . وفجأة رأت أمامها قوة ضخمة تتألف معظمها  
من البدو القبليين الذين لا يختلفون عن رجالها . ترى هل من الأفضل  
لبكر أن تقاوم هذه القوة العربية الجديدة وأن تدخل معها فى صراع يؤدى  
الى دمارهما معا ، أو أن تضمن تأييدها لشن حملات جديدة على الفرس ؟  
ولا ريب فى أن تأثير المثنى بن حارثة هو الذى أقنع بنى بكر بالانضمام الى  
المسلمين (١) والحصول على عونهم فى محاربة الفرس . ولهذا سارع رئيس

(١) انا اختلف مع المؤلف فى رايه هذا تمام الاختلاف . اذ لو صح ما قاله من  
أن بنى بكر قد انضموا الى الاسلام لدوافع سياسية وهى رفضهم فى محاربة الفرس  
فيمادا يفسر يا ترى انضمام بقية القبائل العربية فى الجزيرة وهى ليست فى حالة نزاع  
مع الفرس . ان التفسير الصحيح هو أن النبى بدعته الاسلامية قد ايقظ الومى القومى  
مند العرب بعد أن أضفى على هذا الومى عقيدة وحدوية جديدة هى الدعوة الاسلامية  
التي جاء بها وهذه الدعوة هى التى وحدت العرب تحت ظل قيادته . واذا كانت بعض  
القبائل قد ارتدت بعد وفاة النبى فان التفسير الصحيح لردتها هو أن الومى لم يكن  
قد اكتمل ونضج بعد ، نظرا لقصر المدة . فلما عاد أبو بكر ووجد العرب ، كان الومى  
قد اكتمل هذه المرة وادى اكتماله الى الفتوحات الاسلامية المنظمة التى شملت العالم  
المعروف بأسره وهى فتوحات ما كانت لتتم لو أن انضمام القبائل العربية الى الاسلام  
كان من انتهازية كما يحاول المؤلف أن يقول لتشويه تاريخنا العربى .

( العرب )

القبيلة الى المدينة حيث استقبله الخليفة أبو بكر استقبالا حارا •

وقبل الشروع على أية حال فى الحديث عن الحرب مع الفرس أرى من الجدير بى أن أتحدث عن بعض العمليات الصغيرة التى وقعت قبل ان تنتهى حروب الردة نهاية كاملة •



واجه المسلمون بعض المقاومة فى البحرين بعد انتهاء معركة اليمامة ولكن الحرب ما لبثت أن انتقلت الى عمان وكانت بعض الجيوب الاسلامية ذات النفوذ قد ظلت فى المنطقة على الرغم من الردة التى شملت معظم أنحاء الجزيرة العربية • وقد توجه عكرمة بن أبى جهل على رأس قوة من المسلمين ما لبث أن انضم اليها حذيفة وعرفجة وهما من شيوخ القبائل • وتمت هزيمة العدو فى معركة واحدة واحتلت جيوش المسلمين المنطقة بكاملها •

ويذكر القارىء ان أبا جهل كان عم النبى (١) • وانه كان من أشد أعدائه وقد قتل فى معركة بدر ، لكن الوضع الآن تبدل كل التبدل وبدلا من أن ينظر زعماء مكة بعين الغيرة والحسد ، الى ما يقوم به قريبهم محمد الفقير من نشاط • أخذوا يدركون الآن أن الاسلام أخذ فى تحويلهم بسرعة الى طبقة ارستقراطية حاكمة (٢) • ولقد بات عكرمة بن أبى جهل الآن قائدا من قادة المسلمين كما أن أبا سفيان وأسرته أخذوا يحتلون الآن مكانة أعلى من مكانتهم السابقة •

وقد اختار الخليفة أبا حذيفة وهو من شيوخ قبائل المنطقة عاملا له فى عمان • ومن المحتمل أن يكون اختياره هذا دليلا على عدم اهتمام

---

(١) يعود المؤلف الى خطئه فيزعم أن أبا جهل كان عم النبى ولقد سبق لى أن وضحت في هامش سابق خطأ هذا الزعم •

(٢) تشويه متعمد للتاريخ العربى فقريش لم تصبح في أى وقت من الاوقات طبقة ارستقراطية حاكمة كما يزعم المؤلف متخذاً من اختيار الخليفة من قريش ذريعة لعدم ادعائه ولقد اشترك العرب كلهم في تكوين الطبقة الحاكمة سواء في عهد الخلفاء الراشدين او الامويين أو صدر العصر العباسي • الى أن جاء الفرس وغيرهم من الاقوام الاسلامية فاشتركوا في الحكم مع العرب • وتحول الحكم الى اسلامى بدلا من أن يظل عربيا ولعل أبرز دليل على ذلك أن معظم القادة العسكريين والعمال (الولاة) لم يكونوا من قريش بل كانوا من القبائل العربية الاخرى ، ومن هؤلاء المشنى بن حارثة الشيباني وحذيفة عامل عمان وموسى بن نصير ومحمد بن القاسم وطارق بن زياد وغيرهم كثير • ناهيك من ان الاسلام كدين لم يفرق بين شخص وآخر الا بالتقوى •

المدينة بالمنطقة أو على عجز الخليفة عن إرسال قوة عسكرية ضخمة الى هذه المنطقة النائية (١) وكان عكرمة في غضب ذلك يزحف عبر منطقة المهرة (٢) ويقال انه لاشيء يحقق النجاح كالتجّاح نفسه ولا سيما عند القبائل المفتقرة الى الانضباط فقد أدت الانتصارات التي حققها خالد في نجد وعودة الحكم الاسلامي الى الاستقرار في عمان . الى انضمام وحدات كبيرة من القبائل الى عكرمة بن أبي جهل في زحفه نحو الجنوب .

وبعد أن تم اخضاع عمان والمهرة واجه المسلمون العصيان في اليمن فلقد ظهر هناك في حياة النبي مدح آخر من أديعاء النبوة يسمى الاسود العنسي ولكنه ما لبث أن قتل حتى قبل وفاة الرسول . وقد انهارت حركته بعد موته وان تركت نجران واليمن في حالة كاملة من الفوضى والاضطراب ولما كانت قبائل اليمن وروسها قد لعبت فيما بعد دورا كبيرا في الفتوحات العربية . فأننى أرى من المناسب أن أشير إليها هنا اشارة عابرة .

كان نصارى نجران قد عقدوا معاهدة مع النبي . وقد جردها الآن خليفته أبو بكر . أما أبرز القبائل التي ثارت الآن فقبيلة زبيد بزعامة عمرو بن معد يكرب الذي سنسمع عنه فيما بعد وقبيلة كندة بزعامة الاشعث بن قيس . وكان شعيخ آخر من شيوخ اليمن ويدعى قيس بن هبيرة المكشوح قد استولى على صنعاء (٣) .

(١) ما افه هذا الصليل الذي يعتمد التشويه . ان اختيار حديفة لهذا المنصب دليل على أن الاسلام لم يعد يفرق بين عربى وآخر ولم يكن اختياره عاملا في ضمان الانجاس عن صدق اسلامه ومكائله في قومه ، وقولوه على ادارة المنطقة ادارة ناجحة .

(٢) ورد الاسم في كتاب التاريخ العربى على انه النجر وليس المهرة كما يذكر المؤلف .

( العرب )

(٣) يبدو أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم حقيقة ما وقع في اليمن كما انه أخطأ بين الاسماء فخلط بين قيس بن هبيرة المكشوح . وهو من المسلمين الذين ادوا دورا في اليمن . وبين قيس بن عبد يثوث وكان من قادة المصاة وأرى أن انقل هنا رواية البلاذرى ..... اذ قال :

« كان الاسود بن كعب العنسي قد تكهن وادعى النبوة فاتبه بنو عبس وغيرهم فبعث اليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في السنة التي توفي فيها جرير بن عبد الله اللبلى يدعو الى الاسلام ، فلم يجبه . واتى الاسود صنعاء وأخرج عنها عامل النبي ويدعى خالد بن سعد بن العاص وكان الاسود متجبرا فاستلذ الانباء وهم اولاد اهل فارس الذين وجههم كسرى الى اليمن مع سيف بن ذى يزن واستخدمهم فأضر بهم ولزوج =



وأعلن جرير بن عبد الله • شيخ بنى بجيلة فى غضون ذلك خلاصه للاسلام • على آية حال لم تكن آية قبيلة من القبائل الكبيرة لتتبنى بجميع بطونها آية قضية من القضايا اذ تنفرد بعض البطون التى تعيش فى الجبال برأيها المستقل وتشغل نفسها بالغزو والسلب من جاراتها ، وكانت هذه هى الحالة التى وصل اليها الجنب العربى الذى كان مزدهرا ومتحضرا فى وقت من الاوقات • ويذكر القارىء أن الفرس كانوا قد استولوا على أرض اليمن فى عام ٥٧٤ وعينوا عليها مرزبانا ينوب عن كسرى فى حكمها • ولكن انهيار الامبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى ابرويز • أدى الى انقطاع المواصلات مع فارس والى وقف النجيدات عن المجيء الى اليمن وهكذا وجد الأبناء (أبناء المرزبان) ونسل الحاميات الفارسية أنفسهم مضطرين الى الدفاع عن أنفسهم فالفوا حزبا خاصا بهم شرع فى التحالف مع بعض

---

المرزبانة، امرأة ملكهم باذام فوجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قيس بن هيرة المكشوح لقتاله وأمره باستمالة الأبناء وبعث معه قروة بن مسيك المرادى فلما صاروا الى اليمن يلتقيهما وفاة الرسول فظهر قيس للأسود انه على رايه حتى خلى بينه وبين دخول صنعاء. فدخلها في جماعة من مدحج وهمدان وغيرهما ثم استمال فيروز بن الديلمي أحد الأبناء وكان خيرود قد أسلم ثم أتيا باذام رأس الأبناء او داؤويه على قول بعض الروايات فأسلم داؤويه. ولقي قيس لباب بن ذى الجرة الحميرى فاستماله وبث داؤويه دعائه في الأبناء فأسلموا فتطابق هؤلاء جميعا على قتل الأسود واغتياله • ودسوا الى المرزبانة امرأة من أطعمها الذى هم عليه وكانت شائنة له • فدلتهم على جدول يدخل اليه منه فدخلوا وقت السحر ويقال بل نقبوا جدار بيته بالخل نقبا ثم دخلوا عليه في السحر • وهو سكران نائم فدبحه قيس ذبحا فجعل يخود خوار الثور حتى أفزع ذلك حرسه • فقالوا ما شأن رحمن اليمن فبددت امراته فقالت انه الوحي فقال الله اكبر فسكنوا وأمسكوا واحتز قيس رأسه • ثم علا سور المدينة حين أصبح فقال الله اكبر الله اكبر أشهد ألا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأن الأسود كذاب عدو الله فاجتمع أصحاب الأسود فالتقى اليهم رأسه ففترقوا اليه قليلا وخرج أصحاب قيس ففتحو الباب ووضعوا في بقية أصحاب العنسي السيف فلم ينج الا من أسلم منهم وذكر بعض الرواة ان الذى قتل الأسود العنسي فيروز بن الامى وان قيسا أجهز عليه واحتز رأسه وذكر بعضهم ان قتل الأسود كان قبل وفاة النبي (صلم) بخمسة ايام فقال في مرفعه : قد قتل الله الأسود العنسي قتله الرجل الصالح فيروز بن الامى وورد على أبى بكر بعد ما استخلف بعشر ليال وقال الرواة أيضا ان قيسا اتهم بعد ذلك بقتل داؤويه وبلغ ابا بكر انه على وشك جلاء الأبناء من صنعاء فافضبه ذلك وكتب الى المهاجر بن أبى أمية حين دخل صنعاء وهو عامله عليها بأمره بحمل قيس اليه فلما وفد عليه أخطفه أبو بكر خمسين يميناً عند قبر النبي أنه ما قتل داؤويه فحلف فغلى سبيله ووجهه الى الشام مع المسلمين لفرو الروم •

( العرب )

القبائل لمحاربة بعضها البعض الآخر مما أدى الى مضاعفة الفوضى التي ضربت أطرافها في البلاد بدلا من تقليلها .

وكان أبو بكر يفتقر الى المحاربين عندما وصلته أنباء الاضطراب في اليمن اذ كان قد أوفد كل ما توافر لديه من المحاربين مع خالد بن الوليد لقتال مسيلمة الكذاب . لكن عزيمة أبي بكر لا تفل ، ولذا فقد أوفد المهاجر بن أبي أمية شقيق أم سلمة زوج النبي الى اليمن دون أية قوات تناصره . لإعادة الأمن الى نصابه في ربوعه وعهد اليه بأن يجند من يستطيع تجنيدهم من أبناء القبائل المسلمة المخلصة بين اليمن وصنعاء . وأوفد الخليفة في غضون ذلك الى عكرمة بن أبي جهل، وكان في عمان بأن يسارع بقواته عبر المهرة وأن ينزل من الساحل الى عدن لنصرة المهاجر .

وكانت القبائل الثائرة لحسن حظ المسلمين جريا على عاداتها البدوية في حالة نزاع مستمر بين بعضها وبعض وان اتفقت في ثورتها على الاسلام، ولذا فقد تعذر عليها الوصول الى خطة تشترك في تنفيذها وادرك عمرو ابن معديكرب أخيرا ان قواته من زبيد لا تستطيع الصمود أمام قوات المسلمين التي تفوقها عددا بعد ان وصل المهاجر على رأس قواته من المجندين المسلمين الى اليمن . وبعد أن وصل عكرمة بن أبي جهل على رأس قواته من عمان . ولما كان عمرو هذا من الغزاة المرحين الذين لا يحملون في حياتهم هموما فقد شرع يفكر فورا في طريقة تمكنه من عقد الصلح مع المسلمين ، وجالت في خاطره فكرة وهي أن يختطف زميله في الثورة قيس بن المكشوح ( الصحيح قيس بن عبد يغوث ) ونفذ عمرو خطته واقتاد الى المهاجر قيسا زميله في الردة يرسف في اغلاله ليصالح المسلمين مظهرا بعمله هذا اخلاصه للمسلمين (١) لكن مهاجرا لم يخدع بمناورة عمرو بن معد يكرب فقيده بدوره وبعث به مع صاحبه قيس الى أبي بكر في المدينة . ولكن الخليفة عفا عنهما وبعد أن أخذ منهما قسما بالولاء والاخلاص اعادهما الى قبيلتهما .

وبعد أن تم اخضاع كبار الثائرين في اليمن جمع المهاجر وعكرمة قواتهما عند مأرب وراحا في ربيع عام ٦٣٣ يتجهان معا شرقا لقتال قبيلة كندة وشينخا الاشعث بن قيس ، وكان هذا الشيخ قد مضى الى المدينة قبل عامين ومعه زعيم آخر من زعماء كندة هو وائل بن حجر صاحب القصة

---

(١) لم يذكر الطبري في تاريخه هذه الرواية .

الشهيرة التي سبق لى أن رويتها مع معاوية . وكان الأشعث قد كرس إخلاصه للإسلام فى هذه الزيارة بخطوبته الى أخت أبى بكر . لكنه لم يستطع بعد وفاة النبى مقاومة الأغراء بالردة والاستقلال عن المدينة .

وحاصره مهاجر وعكرمة فى قلعته فى النجير . وقاتلت كنده قتالا باسلا وخرجت من الحصن مرات عدة تحاول اقتحام صفوف المسلمين ولكنها فشلت وأخذت مؤونتها تنقص بصورة تدريجية ، وشرع الأشعث

الداهية يفاوض عكرمة على الصلح ووافق على تسليم القلعة شريطة أن يعطى المسلمون الامان لعشرة رجال ، وافر قائدا المسلمين الشروط وفتحت أبواب الحصن وخرج الأشعث الى المسلمين بالرجال العشرة الذين أعطوا الامان وأمر مهاجر بعدم التعرض لهؤلاء العشرة . أما من تبقى من الرجال فقد أمر بقتلهم وأمر بالنساء والاطفال فبيعوا على أنهم من السبى .

واكتشف مهاجر أخيرا أن الأشعث لم يضع اسمه بين العشرة وكلهم من أسرته وأقاربه فأصدر أمره بقتل الأشعث ، ولكنه ما لبث أن أقنع بتعديل الأمر وبإيفاد زعيم المرتدة الى الخليفة مقيدا بالسلاسل ولم يكتف أبو بكر بالعفو عن الأشعث وإنما سمح له باتمام زواجه من شقيقته التي كان قد خطبها . (١)

---

(١) تختلف رواية المؤرخ عن الروايات العربية بعض الاختلاف . فقد روى البلاذرى في فتوح البلدان أن أبا بكر الصديق ولى زياد بن لبيد أمر كنده وكان هذا رجلا حازما صلبا فانقضت عليه كنده كلها وقتلت عددا من المسلمين ووقعت معركة بين زياد وبين كنده بقيادة الأشعث فاصيب ناس من المسلمين وأرسل زياد الى الخليفة يستمده فكتب أبو بكر الى المهاجر بن أمية يأمره بانجاده . ولقى المهاجر وزياد الأشعث بن قيس ففضا جمعه وأوقعا بأصحابه وقتلا منهم مقتلة عظيمة ولجأ الأشعث الى النجير وهو حصن لهم فحصرهم المسلمون حتى جهدوا فطلب الأشعث الامان لمدة منهم وأخرج نفسه من المدة وذلك أن معدان بن الأسود أخذ بحقه وقال : اجعلنى من المدة فادخله وأخرج نفسه ونزل الى زياد والمهاجر فبعثا به الى أبى بكر فمن عليه وزوجه أخته أم فروة بنت أبى قحافة ، فولدت له محمدا واسحاق وقرية وجبابة وجمدة .

ولما تروجها نزل الى السوق فلم ير بها جزورا «صغرا لابل» الا كسف عرقوبها وأعلى فتمنها وأطمعها الناس وأقام بالمدينة ثم سار الى الشام والعراق غازيا ومات بالكوفة وصلى عليه الحسن بن على بن أبى طالب .

( العرب )

وبإخضاع حضرموت ثم إخضاع الجزيرة العربية كلها للإسلام ثانية ولا ريب في أن خضوعها هذه المرة كان أقوى من سابقه ففي المرة الأولى تم الخضوع عن طريق وصول الوفود إلى المدينة معلنين إسلام قبائلهم ، دون أن تكون هناك تجربة للقوة ، أما الآن فقد جربت القوى بعضها وهزم العصاة في كل طرف من أطراف الجزيرة واضطروا إلى الاستسلام .

واستغرقت حروب الردة سنة واحدة بعد وفاة رسول الله وأصبحت الجزيرة العربية بعد انقضاء هذه السنة متحدة في ظل حكم قوى واحد ، وراح المسلمون وقد انتشوا بحماسة الإيمان الديني اللاهب وبالتطلع إلى المفاخر والأمجاد والاسلاب يتطلعون إلى ميادين جديدة تبعد عن بلادهم يأملون في احتلالها والسيطرة عليها .

### تواريخ مشهورة

وفاة النبي واختيار أبي بكر خليفة له يونيو ( حزيران ) ٦٣٢

حملة أسامة من يوليو ( تموز ) إلى سبتمبر ( ايلول ) ٦٣٢

أبو بكر يشتت شمل القبائل المرتدة في ذي القعدة

أغسطس ( آب ) ٦٣٢

موقعة بزاخة وهزيمة طليحة أكتوبر ( تشرين الأول )

ونوفمبر ( تشرين الثاني ) ٦٣٢

معركة اليمامة وهزيمة مسيلمة ديسمبر ( كانون الأول ) أو

يناير ( كانون الثاني ) ٦٣٣

إخضاع عمان فبراير ( شباط ) أو

مارس ( آذار ) ٦٣٣

مايو ( ايار ) - يونيو

( حزيران ) ٦٣٣

إخضاع اليمن وانتهاء حروب الردة

## شخصيات مشهورة

أبو بكر	خليفة المسلمين
علي بن ابي طالب عمر بن الخطاب أبو عبيدة الجراح	كبار أعوان الخليفة
طلحة مسيلة	من مدعى النبوة
خالد بن الوليد المثنى بن حارثة عكرمة بن ابي جهل عمرو بن معد يكرب	كبير قادة المسلمين شيخ بنى شيبان من قادة المسلمين شيخ بنى زبيد فى اليمن - ارتد ثم عاد فأصبح من قادة المسلمين
جرير بن عبد الله	شيخ بنى بجيلة فى اليمن ظل على ولائه للمسلمين ثم أصبح من قادة جيوشهم



# سوقية القرصان

« .. كانوا دائما من الشعوب المحاربة ، لا يكادون يهدأون الى الصلح مع بعضهم البعض أو مع جيرانهم .  
وقد تفوقوا في قيادة الخيول واستخدام النبال والسيوف والرماح . كل ما يعرفونه هو الشعر . ففيه مجال عبقريتهم .

- أو كل - تاريخ العرب

\*\*\*

« يعيش البدو حياة فريدة . فلا أسوار تقيهم .  
ومن هنا يكون اعتمادهم على أنفسهم في حماية أرواحهم .  
هم دائما مسلحون ، وعلى أهبة ، حريصون من الخطر ،  
واثقون من شجاعتهم وقوتهم . ولقد باتت الشجاعة من أعمق مزاياهم . لما الجراة فمزيتهم الثانية» .  
- شارل عيساوى في كتابه فلسفة العرب  
للتاريخ - مقتبسة من تاريخ ابن خلدون .

\*\*\*

« والشيء الثابت المؤكد هو أن من يسيطر على البحر ، يكون مطلق الحرية فهو الذى يقرر ، هل يخوض حربا كبيرة أو صغيرة طبقا لمشيئته ؟ » .  
فرنسيس بيكون





أسفرت النهاية الناجحة للعمليات الحربية في اليمن وحضرموت عن نهاية ما سمي بحروب الردة . فقد تم إخضاع الجزيرة العربية الى الجنوب من حدود الروم وفارس إخضاعا كاملا . ومن الطريف أن نلاحظ هنا أن الجزء الأكبر من هذه المنطقة كلها . كان قد خضع لسلطان محمد في حياته ، دون أن يضطر هو الى استخدام القوة وبالطبع لم تكن الحملات الصغيرة التي شنها المسلمون في حياة النبي ، والتي لم تكن مؤثرة في غالبيتها هي التي دفعت القبائل العربية الى الازعان والخضوع . فالشيء الذي لا ريب فيه ولا جدال هو أن قبول معظم هذه القبائل ، دفع الجزيرة الى المسلمين دون اكراه ، راجع الى شخصية محمد ، التي لا مثيل لها . وقد يكون صحيحا القول بأن خضوع هذه القبائل كان في بعض الحالات أو في كثير منها ، اسميا ، وقد تم عن طريق وصول شيوخها الى النبي في المدينة على رأس وفود من هذه القبائل ولكن تأثير النبي على هؤلاء الشيوخ الذين كانوا يعتزون باستقلالهم وزعاماتهم ، كان كبيرا ولا ريب . ولكن لما كان معظم هؤلاء قد تكاثروا بعهودهم فور سماعهم بوفاة النبي فان هذه الحقيقة تقيم الدليل على أن الاسلام لم يعن لهم أكثر من محمد . وقد يكون من الأكاديمية كل الأكاديمية ، أن يتساءل المرء عما كان سيحدث حقا لو أن النبي قدر له أن يعيش عشر سنوات أخرى . فهل كان في وسعه أن يحافظ على سيطرته على هؤلاء العرب وأن يوطد دعائمها بنفس الوسائل السلمية التي طبقها آنذاك ونفس ما تميز به من سمو شخصي ؟ فمن المظاهر البارزة في الطبيعة العربية اليوم كما في الامس كرههم للسلطان وميلهم الدائم الى الجيشان والاضطراب ، ولذا فهم لا يرضون دائما عن أية حكومة تحكمهم . ومن هنا يكون استعدادهم الدائم تقريبا للترحيب بقلبها ، لتجربة نظام جديد على الأقل . ويجعل هذا الاضطراب المستمر والرغبة عن التبعية ، من البلاد العربية مناطق سهلة على الفتح والغزو ، ولا سيما اذا حصل الفاتح على التعاون من جانب الساخطين من أهل البلاد . ولكن لا يكاد الفاتح يصبح حاكما ، حتى تعود الروح التي سهلت له اجتياح البلاد واغتصاب السلطان الى العمل ثانية ولكن ضده هذه المرة فلقد أصبح هو الحكومة الآن .

وسرعان ما يميل العرب من حكمه ويشرعون في البحث عن بديل جديد (١) .

ولقد كان محمد طيلة القسم الأكبر من عهد رسالته يكافح في سبيل البقاء ولم يتوج النصر جهوده التي بذلها الا في السنوات الاربع الاخيرة من نبوته ، ولم تصل وفود القبائل من كل مكان لبيعته الا في السنتين الأخيرتين من حياته . وليس من المعقول أن تغدو جميع القبائل في هذه الفترة القصيرة صادقة في اسلامها . ومن هنا يستطيع المرء أن يقول ان ما ابدته هذه القبائل من اذعان لم يكن مصحوبا بمشاعر دينية بليغة . ولذا فان الردة كانت متوقعة فور انتهاء أمر تلك الجدة التي أدت الى تلك الثورة .

ومن المعروف عن العرب أنهم قوم شديدو الملل . ولكن فيهم أيضا حزية أخرى لا يعرفها عنهم الناس الا قليلا . فعلى الرغم من جيشانهم العاطفي وعدم اذعانهم بسهولة الا أنهم قادرون في كل حين على تقدير كل مشاعر الحب والولاء للزعيم الذي يحترمونه ، ولكن هذا الحب والولاء ، لا يمكن أن يكرسا في الجزيرة العربية الا للشخص الذي يلقاه الناس فعلا . ولا ريب في أن النفوذ الضخم الذي حققه محمد عند العرب هو من هذا النوع ، ولذا فقد ظل الحب والولاء الشديداً مقتصرين على الاشخاص الذين اجتمع بهم وتحدث اليهم ولم يكن في إمكان هذا النفوذ أن يؤثر طويلا على القبائل النائية من أمثال بنى بكر أو قبائل عمان وحضرموت . ولو قدر للنبي أن يعيش عشر سنوات أخرى فان جاذبيته الشخصية كانت كافية لاكتساب عدد أكبر من الانصار من أولئك الذين قدر لهم أن يعرفوه،

(١) يحاول المؤلف في هذه الصورة التي يرسمها للعرب أن يظهرهم بمظهر القلب الذين لا يستقرون على حال ، والذين يرغبون في تغيير حاكميهم دائما . وهذه النظرة مستمدة من واقعين ، الواقع الاول هو ايمان المؤلف بالانصرية اذ ليس هناك من مزايا أو طبائع لشعب دون آخر ، وكل ما يقال في هذا الموضوع انما هو عنصرى الطبيعة والنزعة . ولاننيهما تصوير المؤلف لانطباعاته الشخصية بالنسبة الى الظروف التي عاش هو بين العرب فيها ، كممثل لنظام استعماري بغيض ، يعمل دائما على تقوية هذه الروح عند من يتصل بهم من العرب ليستغلها في تحقيق اهدافه والحفاظ على مصالح دولته الاستعمارية . ولمن خير ما يدحض هذه الصورة الزائفة التي رسمها المؤلف ، عن العرب المعاصرين ، هو التناقص العرب الاحرار في جميع أرجاء الوطن العربي حول مثل الرئيس عبد الناصر واهدافه ، لما يرون فيها من تطابق مع اسمى ما يؤمنون به من مثل واهداف .

( العرب )

لكن اللجوء الى القوة كان أمرا لا مناص منه فى المناطق النائية حيث كان لا بد من اجراءات تأديبية فى فترات غير منظمة وفى مناطق مختلفة • ولو عاش النبى هذه المدة الأطول • لما ثارت الجزيرة العربية كلها فى وقت واحد • كما وقع فعلا ابان الردة بعد وفاة محمد ، ولما وقعت الردة على ذلك النحو العام الذى وقعت فيه • وبالنظر الى تمكن خالد من هزيمة المرتدين بعد أن أعمل فيهم القتل والذبح فان سلطة المدينة على الجزيرة العربية أصبحت الآن أقوى مما كانت عليه فى أيام النبى •

لكن الخليفة واجه عددا من المشكلات • سواء أكان قد توقعها أم لم يتوقعها • فلقد كانت لقبائل البدو طريقتها الخاصة بالحياة التى عاشتها مئات السنين بل ألفوها • ولقد كانت الحرب القبلية التى لا تنتهى القاعدة فى وجود أفرادها انعاطفى • ولم تكن الحسائر فى أية معركة ، كبيرة • ولكن لما كانت العمليات الحربية لا تتوقف مطلقا فان مجموع الحسائر فى الرجال يصبح عظيما • وعلى الرغم من أنهم كانوا جميعا من الفقراء فقرا هائلا • وذلك بالنسبة الى مقاييسنا على الأقل فلقد كان الهدف من حروبهم التى لا تنتهى وخصوماتهم ، الحفاظ على الشرف أكثر من الحصول على الكسب • وكانت حياة المرعى فى هذه الصحارى الشاسعة رتيبة الى حد كبير • وكان ما فى الغزوة من حماسة ثائرة ومن مجد ، منفذا عاطفيا يعرض على أهل الصحراء جمود حياتهم الصحراوية ، تماما كما تعمل الافلام السينمائية والقصص البوليسية ومجالس الشراب ، والتدخين، على التخفيف من رتابة الحياة فى المدن الصناعية الحديثة أما الدين فلم يكن بالشئ الذى يكثر البدو من الاهتمام به وكان بعضهم فى القرن السابع الميلادى من النصارى ، ولكن نصرانيتهم لم تحل بينهم وبين متابعة الحروب • وعلى الرغم من أن الاسلام فرض على اتباعه محاربة الكفرة ، الا أنه فى الوقت نفسه حظر الحروب بين المسلمين حظرا كاملا • وهكذا كان على القبائل العربية بعد اعتناقها الاسلام أن تتوقف عن محاربة بعضها بعضا •

ولا ريب فى أن مثل هذا الوضع ، كان يفرض على أى سياسى أو فاتح عظيم أن يتبنى فكرة جريئة وهى توحيد العرب ليهاجم بهم العالم غير العربى وليغنىم من هذا العالم الاسلاب والغنائم • لكن أبا بكر لم يكن من رجال السياسة الافذاذ • ولا من الذين تتجه طبائعهم الى الفتح ، بل كان رجلا بسيطا متواضعا ، كرس نفسه لذكرى نبيه ، ولخدمة دينه ، ومن هنا حق لنا أن نستنتج... أن الفتوحات العربية الكبرى ، لم تكن ثمرة تخطيط

وتصميم . وقد حدثت هذه الفتوحات تلقائيا من نفسها نتيجة الظروف  
العارضة (١) .

وهكذا كانت الروح القتالية المحاربة عند العرب . التي وجدت  
نفسها الآن أسيرة أوامر الدين التي تحظر على المسلمين قتال بعضهم  
البعض والتي جدت السلطة الكافية المطلقة لانفاذها ، هي العامل الاول  
في التوسع الاسلامي . أما العامل الثاني : فكان مجرد صدفة عارضة حقا .

---

(١) يحاول المؤلف في قوله هذا «محاولة فاشحة» : تشويه التاريخ الاسلامي فهو  
ينكر على ابي بكر رضي الله عنه صفة السياسة وصفة القيادة ، مع ان الاعمال العظيمة  
التي قام بها في عهد خلافته القصير تقيم الدليل على ما تمثل به ابو بكر من صفات  
اهلته لان يكون الخليفة الاول للنبي العظيم . واذا كان ابو بكر قد ظهر بمظهر الانسان  
الراقي ذى الوجدان النقي والباطنة الحبية ، لانه ظهر في الوقت نفسه بمظهر الانسان  
الصادق المرمية الذي يبحث في الامر على قدر ما يتجهى له من طرق البحث ويستعين  
بآراء غيره ان كان شوريا فلذا اتضح له السبيل حزم ، ومتى حزم لا يثنيه شيء مما حزم  
عليه حتى اذا راي الجبال امامه تريد صده ، حاول ان يفتح له منها طريقا . وهاتان  
الصفتان لا تكونان فضلا الا في السياسي العظيم والقائد الكبير ، وهذا شأن ابي بكر الذي  
اظهر اول ما اظهر من صدق المرمية في بحث جيش اسامة على الرغم من الالباء التي  
بلفته من ردة العرب ، وعلى الرغم من نصائح بعض مشيريه بتأخير هذا البحث ولو تردد  
ابو بكر في الامر ، وآخر البحث لشرع للناس لأول مرة مخالفة اوامر النبي . ولو اذعن  
لالحاف عمر ، باستبدال اسامة بقائد آخر اكثر منه خبرة بشئون القتال ، لسن سنة  
بمخالفة ما جاء به نبيه . وفي موقفه هذا ، ومواقفه البطولية في حروب الردة ، وايضاده  
الجيوش لفرو امبراطوريتي الروم والفرس الدليسل الكافي على عظمة ابي بكر كقائد  
وزعيم ، كما ان في وصيته لجيش اسامة « وقد سبق لى ان اوردتها في هامش سابق »  
الدليل القاطع على فراسته السياسية وعظمته كسياسي .

لما وقد هدانا هذا التشويه المقصور الذي حاوله المؤلف لتاريخ الخليفة الاول  
ولشخصيته . فان في وسعنا القول بان استنتاجه الخاطيء بان الفتوحات الاسلامية  
كانت ثمرة مصادفة عارضة . هو استنتاج واهم او تشويه آخر متعمد لتاريخنا  
العربي .

فالواضح كل الوضوح ان الحروب التي شنها العرب على الامبراطوريتين انما  
كانت حرب تحرير قصد منها تحرير المناطق العربية التي تقع على تخوم هاتين الدولتين  
والتي يحكمها امراء الفساسة واللعينيين اتباع الروم والفرس وعملاتهم . ومن البديهي  
ان تتحول حروب التحرير هذه - بعد ان تبين للمتصيرين العرب في مستهل الحملات ،  
خسيف الامبراطوريتين الكبيرتين - الى حرب عامة شاملة ، تهدف الى نشر الدعوة  
الاسلامية ، والى جميع الاهداف الاخرى التي اتصلت بالحروب منذ اقدم المصنوب  
حتى يومنا هذا .

( العرب )

وهو ان امبراطوريتي الروم والفرس كانتا قد ألغتا قبيل هذه الفترة المملكتين العربيتين الصغيرتين اللتين تقومان في اكنافهما ، وحاولتا أن تحكما مباشرة مناطق الحدود التي تؤلف أراضي هاتين المملكتين . وأسفر هذا الوضع عن تحول عرب الحدود من حماة لمدخل هاتين الامبراطوريتين كما ظلوا قرونا طويلة ، الى أعداء لحكامهم السابقين . ولقد سبق لنا ان رأينا قبيلة بني بكر ، وقد اشتبكت في معارك متدبرة مع الفرس . كما رأيناها تنتصر على جيش الفرس في معركة ذى قار .

وكان الامبراطور ائرومانى هرقل ، فى غضون ذلك ، وبعد معركة مؤتة قد أوقف بصورة مفاجئة دفع الجعول والمعونات المالية التى كان يدفعها هو واسلافه من قبل لشيوخ القبائل العربية المرابطة على الحدود . ويبدو ان عمله هذا لم يكن ناجما عن عدم رضا عن سلوك هذه القبائل . وانما كان ضرورة اقتضتها الاجراءات الاقتصادية التى تتخذ بعد الحروب الطويلة عادة لاصلاح ما أفسدته الحرب . وقد يكون من السهل على المرء أن يعرف الحكمة والصواب بعد حدوث أى حادث ولكن فى وسع المرء أن يقول أن عمل امبراطور الروم ، كان من أكثر الاعمال - التى يرتكبها أى انسان - حماقة . وهكذا غدت بعض القبائل العربية ، فى المنطقة ، المقيمة فى غزة ومؤاب ( الكرك الحديثة ) ودومة الجندل وايلة (العقبة) معادية للامبراطورية ولقد سبق لنا ان رأينا النبى يعقد اتفاقات ودية مع امراء ايلة ودومة الجندل ، وهم بعض من أوقف الامبراطور دفع معوناته المالية اليهم(١) .

ولم تكف امبراطوريتا الروم والفرس باثارة عداة أتباعهم من

(١) جانب التوفيق المؤلف فى هذه الصورة الزائفة التى حاول تصويرها . فهو يريد أن يقول ان القبائل العربية المقيمة على حدود امبراطوريتي الروم والفرس ، قد انقلبت على هاتين الامبراطوريتين لاسباب مادية ليس الا اى بعد وقف الروم مساعدتهم المالية لهذه القبائل . ولو صحت فرضية المؤلف الخاطئة ، لما انقلبت هذه القبائل الى النصف الاسلامى ، بعد ان فرض عليهم المسلمون الجزية اثر غزوة تبوك كما سبق لنا ورأينا من قبل ، وهو ما اعترف به المؤلف نفسه . اذ ليس من العقول لو كانت الدوافع مادية ليس الا ان تنضم هذه القبائل الى صف من فرضوا عليهم الجزية لمحاربة من قطعوا المونة ، دون أن يفرضوا اية جزية . ولكن هوى المؤلف جعله يتجاهل حقيقة الوجود القومى ، والدوافع القومية لينسب كل شيء الى الدوافع المادية .

( العرب )

العرب فحسب بل ان الحروب التى استمرت بينهما طيلة ستة وعشرين عاما والتي انتهت فى عام ٦٢٨ قد انهكت قواهما ، وأتعبتهما • وكانت بيزنطة ، وهى التى انتصرت فى النهاية ، قد وصلت الى مرتبة الافلاس • وأخذت تعاني مآسنهه اليوم بالركود الاقتصادى الذى يخلف الحروب • ونحن نعرف فى أيامنا هذه صادق المعرفة ما تخلفه الحروب الطويلة فى نهايتها من ردود فعل تحمل طابع الانهيار الروحى والعقلى ، أما فارس المهزومة فكانت فى حالة ثورة وفوضى كاملين •

ومن هنا لم يعرف التاريخ احداثا عارضة تشبه فى بروزها تلك التى تمثلت فى اجهاد امبراطوريتى بيزنطة وفارس وفى ظهور الاسلام الفجائى والتى أثمرت الانتدفاع الهائل من القبائل العربية نحو الخارج ، طلبا للفتح بعد أن حظر الاسلام الحروب القبلية بين العرب أنفسهم (١) •

### \*\*\*

قدر للاحداث الاولى فى الفتوحات العربية أن تقع فى الجبهة الفارسية ولقد سبق لنا ان رأينا بنى بكر يشتبكون فى حروب العصابات مع الفرس فى حوض الفرات الأدنى منذ وقعت الحروب بين كسرى وبين أمراء اللخمين فى الحيرة ابتداء من عام ٦٠٥ • وظهر المسلمون بعد معركة اليمامة فى مؤخرة بنى بكر الذين وجدوا أنفسهم الآن بين نارين • ترى هل يصلحون المسلمين على حرب الفرس ؟ ولم يكن الجيش الفارسى يملك الآن أية قوة من الهجانة ، أو من المحاربين فى الصحراء بعد الغاء مملكة الحيرة • وقد يكون من المفروض أن يستطيع الفرس الدفاع عن المناطق المأهولة فى جنوب العراق ضد ساكنى الصحراء • ولكنهم أعجز من أن يستطيعوا الدفاع عن مراعى بنى بكر فى الصحراء ضد المسلمين • وعندما اشتد أمر الحملة الوهابية فى عشرينات القرن الحالى فى نجد ، وجدت قبائل العراق الصحراوية نفسها فى عين الموقف الذى كان عليه بنو بكر فى عام ٦٣٣ • ولم يكن حال حكومة العراق فى القرن الحالى أحسن من حال فارس قبل ألف وثلثمائة عام ، اذ لم يكن لديها قوات تستطيع العمل فى الصحراء • وأدى هذا الوضع الى اضطراب جميع قبائل البدو غربى الفرات وجنوبه الى التفاهم والتهادن مع الوهابيين •

(١) اختلف مع المؤلف فى ان هذه الاحداث التى يسميها بالعارضة لم يكن لها مثل فى التاريخ ، فالتاريخ طاف بالشواهد الماثلة • ولعل مثل الرومان وغزو قبائل التيونون للامبراطورية غير شاهد على ما أقول •

وهكذا وجدت غالبية بنى بكر نفسها مرغمة على التحالف مع المسلمين وان كان بعضهم قد تحالف ، كما تقول الروايات مع الفرس ، ولا سيما فى بداية القتال ، وكان المثنى بن حارثة الشيباني هو الذى دبر هذا التحالف مع المسلمين وهو شسيخ من شيوخ شيبان وهى بطن من بطون بكر ، وقد روى المؤرخون المسلمون انها اعتنقت الاسلام . وكانت غالبية رجال خالد ، قد عادوا بعد استقرار الوضع فى نجد الى مساكنهم فى الحجاز ، وخلفوه فى المنطقة على رأس قوة لا تزيد على التسعمائة محارب . وكانت صفة الخزى قد لحقت بالمرتدين الى الحد الذى دعا أبا بكر الى اتخاذ قراره بالألا يسمح لأى من القبائل المرتدة بالحرب الى جانب المسلمين . ويكون ولاء البدو لقبائلهم ، ولذا فهم لا يرون سبة أو عارا فى التحول من جهة الى أخرى ، اذا كان هذا التحول أمرا اقتضته مصلحة القبيلة العليا ومن هنا كان لا بد لكثيرين من أفراد القبائل الذين هزمهم خالد فى حروب الردة من أن يتحولوا الى جانب خالد فى غزوه لاراضى الفرس ، لو كان يقبل تحولهم ، وهكذا كانت بطون بكر التى لم تسلم من قبل أو التى لم ترتد بعد اسلامها ، هى الوحيدة الصالحة لمخالفة خالد .

ولو حكمنا على ضوء ما تستطيع قبائل المنطقة تقديمه من رجال فى يومنا هذا ، لقلنا ان المثنى بن حارثة كان قادرا على تجنيد ألفى رجل أو ثلاثة آلاف لمساندة خالد . ومن هنا لابد وأن تكون قوات خالد والمثنى المشتركة لا تعدو حدود ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل . وقد عهد الى هذه القوة الصغيرة بالهجوم على الحدود الفارسية .

وليس لى لدينا صورة واضحة كل الوضوح عن حملات خالد فى العراق . فلقد روى الرواة أن المسلمين اجتمعوا فى مارس عام ٦٣٣ ميلادية فى الحفير وهى مكان يقع فى الصحراء الى الجنوب الغربى من الفرات (١) . وانضمت الى القوة الاسلامية هنا جماعة من طيء . ولا ريب فى ان آبار الحفير الحديثة هى مكان مثالى يمكن لقوة من هجانة البدو أن تجتمع فيها قبل غزو العراق . كما أن هذه الآبار موقع مثالى يمكن أن يصلح كنقطة التقاء مع قبيلة طيء التى كانت تعيش فى المكان الذى يعرف اليوم بجبل شمر .

وتقدم العرب من الحفير ليخوضوا معركتهم الاولى مع جيوش الفرس

(١) يقول الخضرى ان الحفير ماء بالقرب من البصرة . ولكننى اعتقد أن رواية جلوب هى الأصح وانها تقع فى شمالى نجد الى الشرق من التويت الحالية .  
( العرب )

فى كاظمة التى يغلب على الظن انها تقع فى أرض الكويت الحديثة • أو فى الاراضى الواقعة بين الكويت والبصرة • وقد غلب جيش الفرس الذى كان مؤلفا من وحدات من القبائل العربية ووحدة من القوات النظامية الفارسية على أمره • ولما كان من الصعب على الفرس أن يحاربوا فى الصحراء فان هذه المعركة قد وقعت فى الغالب على مسيرة يومين من القصر الذى بنيت مدينة البصرة فيما بعد على أنقاضه ، أو على مقربة من خليج الكويت انحالى •

وتقع بلدة الابله وميناؤها على مكان لقاء نهري دجلة والفرات المعروف اليوم بشط العرب • وكانت هذه البلدة محور تجارة الفرس البحرية مع الهند والقاعدة البرية لاسطولهم • وزحف خالد بجيشه على الابله • ولكن سكان البلدة لم يمكنوه من الهجوم عليهم اذ صالحوه على دفع الجزية (١) وتشجع العرب بعد ذلك فعبروا نهر الفرات وقاتلوا الفرس فى الوجة التى يعتقد بانها كانت تقوم فى مكان بلدة الشطرة الحديثة ، ولكن عندما سمع خالد بأن العدو يجمع جنوده للقاءه • عاد فعبر الفرات بسرعة هائلة متجها الى الصحراء •

وكانت العنصر الرئيسى فى جميع العمليات المبكرة فى فارس وسوريا على حد سواء هو أن الفرس والروم كانوا عاجزين عن الحركة فى الصحراء ، نظرا لاستخدامهم الجياد بدلا من الابل فى حربهم • وكان المسلمون أشبه ما يكونون بالقوة البحرية التى تمخر عباب البحر الى الشاطئ بسفنهم ، بينما كان الروم والفرس مضطرين الى اتخاذ مواقعهم على الساحل أى فى المناطق المأهولة ، نظرا لعجزهم عن الهجوم فى البحر أى فى الصحراء العربية • وكان العرب فى البداية كقرصان النورمان أو الدانمركيين الذين هاجموا سواحل انجلترا يخشون من التوغل فى الداخل ، بعيدا عن سفنهم « أى صحرائهم » وكانوا يكتفون بالاغارة على سواحل الصحراء ليعودوا بسرعة الى صحرائهم ، عندما يرون الخطر يهددهم • وهكذا نرى خالدا وقد سمح بتجمع العدو ، يعود فيعبر الفرات

---

(١) تختلف رواية مؤرخى العرب من رواية المؤلف • اذ يقول البلاذرى ان أهل الابله بعد أن طلبوا الصلح سمعوا بأن خالدا قد غادر منطقة البصرة متجها الى الحيرة فنكثوا مهادمتهم فأمر خالد بالحملة عليهم قائلا ..... احملاوا عليهم انى أرى هيئة قوم القى الله فى قلوبهم الرعب ، فحملوا عليهم فهزمهم وقتلوا منهم بشرا وغرق طائفة منهم فى دجلة •



قاصدا أطراف الصحراء • حيث تلقى كما يبدو نجدات من وحدات من تميم • وعلى رأسهم زعيمهم القعقاع بن عمرو الذي سنسمع عنه كثيرا فيما بعد • ونشبت معركة أخرى في اليس التي يبدو انها كانت تقع في الضفة الغربية من الفرات في ضواحي بلدة السماوة الحالية • ويبدو ان قوة الفرس كانت تتألف هذه المرة أيضا من القبائل العربية ، يقودها فارسي ، ويبدو ان المعركة كانت عنيفة للغاية وان المسلمين قد انتصروا فيها في النهاية • وقد أصدر خالد أمره بقطع رهوس جميع الأسرى • ويروى المؤرخون العرب ان المذابح ظلت مستمرة ثلاثة أيام • وان عدد القتلى كان بالآلاف وقد عرفت المعركة عند العرب فيما بعد بنهر الدم • لكن العرب لم يتدخلوا في شئون الفلاحين الذين يزرعون الارض ، فقد طلب اليهم أن يدفعوا الجزية ليس الا على أن تضمن سلامتهم • وكان خالد يبعث الفء وهو خمس الغنائم بعد كل نصر الى الخليفة في المدينة طبقا للشريعة التي جاء بها النبي ، أما ما تبقى من الغنائم فيوزع على الجند الذين لا يتقاضون أية رواتب •

واستهوى النصر المسلمين فزحفوا على الحيرة ، عاصمة اللخمين ، الذين كان كسرى قد قضى على ملكهم قبل نحو من ربع قرن • ولو كان هؤلاء الامراء اللخميون لا يزالون في اوج سلطانهم وملكهم لاختلفت نتيجة المعركة ، لان قبيلة بكر كانت موالية أشد الولاء لهذه الاسرة • لكن ما حدث الآن هو ان حاكم الحيرة الفارسي فر الى المدائن عند سماعه بوصول خالد (١) •

---

(١) تختلف روايات المؤرخين العرب كثيرا عن رواية المؤلف اذ يقول البلاذري ان خالدا وصل الى مجتمع الانهار ( ملتقى فرعى الفرات ) فلقبه ازاذبة عامل . كسرى على الكوفة فقاتله خالد حتى هزمه - اى ان العامل الفارسي لم يفر الى المدائن •

اما الاختلاف الثاني فهو ان القسم الاكبر من قبيلة بكر بن وائل كان مع الفرس . ضد العرب وصاروا حربا على المسلمين . ولعل اصدق دليل على ذلك ان الرجال الثلاثة الذين صالحوا خالدا على الحيرة هم من بكر فأولهم عبد المسيح عمرو بن قيس وهو من الازد ، وثانيهم هو هانيء بن قبيصة بن مسعود الشيباني وهو من شيبان ، وثالثهم هو اياس بن قبيصة الطائي وهو من طيء • ومن هنا يطل استنتاج المؤلف الذي أراد منه الحط من أهمية فتح خالد العسكري للعراق • والذي قال فيه ان كسرى لو لم يقض على مرث اللخمين في الحيرة قبل ربع قرن لتغير تاريخ الفتح الاسلامي • انه الاستنتاج الخاطئ الناشئ من الهوى والغرض •

( العرب )

وكانت الحيرة محاطة بالاسوار التى يعجز البدو عن اقتحامها ولكن معظم أهلها كانوا من العرب . وكانت القبائل العربية المحيطة بها قد خافت بطش خالد بعد نصره العظيم فى أليس . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف عجزت مكة عن الصمود أمام محمد بعد أن أذعنت له القبائل المحيطة بها . ورأينا كيف ان الطائف قد استسلمت أيضا بعد أن انضمت قبيلة هوازن المجاورة الى المسلمين . وعلى الرغم من ان أهل المدن كانوا أكثر ثباتا من البدو فى المعارك الثابتة الا ان قدرة البدو على التحرك السريع كانت من الضخامة بحيث تعجز مدن الصحراء عن المقاومة دون مساعدة القبائل البدوية .

وقد نشأ الوضع نفسه فى الحيرة . فقد حوَصر أهلها داخل أسوارهم ولم يجدوا عونا من القبائل مما دعاهم الى محاولة التفاهم مع المسلمين ، لا سيما وان المبلغ الذى طلبه هؤلاء ، لم يكن كبيرا بالنسبة الى ثروة الحيرة ، وان كان ضخما بالنسبة الى البدو . وقد تعهد المسلمون مقابل هذه الجزية بحماية المدينة التى رفض أهلها رغم كونهم من العرب التخلي عن نصرانيتهم واعتناق الاسلام . ومن المعتقد ان هذا الاتفاق قد وقع فى مايو (ايار) عام ٦٣٣ أى عندما كانت جيوش المسلمين تقضى على آخر المرتدة فى اليمن .

وقد يتساءل المرء الآن كيف سمح كسرى لقوة من البداة باحتلال مدينة مهمة كالحيرة . لا تبعد عن عاصمة ملكه المدائن أكثر من مائة ميل . واذا ما أراد المرء معرفة السبب لتحتم عليه أن ينظر نظرة قصيرة الى الاحداث فى فارس . ولقد سبق لنا أن بينا كيف أن الامبراطور لرومانى هرقل كان قد أطاح بعرش كسرى ابرويز فى عامى ٦٢٧ ، ٦٢٨ . ولقد قام ولده شيرويه بقتله مع ثمانية عشر ولدا من أولاده ، ثم اغتصب العرش ، لكن هذه الجرائم التى اقترفها لم تجده قتيلا ، اذ اغتيل شيرويه قلعيا الى البحث عن كل ذكر من سلالة كسرى انو شروان ليقتله ، هادفا من وراء ذلك الى عدم الابقاء على أى فرد من الاسرة المالكة يستطيع منازعته العرش ، لكن هذه الجرائم التى اقترفها لم تجده فتिला ، اذ اغتيل شيرويه نفسه بعد أن تبوأ الحكم بثمانية أشهر ليس الا (١) وسرعان ما سادت الفوضى والاضطرابات فارس بسبب المنازعات التى نشأت بين الاحزاب

---

(١) يقول مؤرخو العرب ان شيرويه حكم سنة وتسعة أشهر .

المتنافسة . ولم يكن من السهل العثور على وريث شرعى للعرش اذ أنه القتل كان نصيب معظم أفراد الاسرة المالكة من الذكور وتبوا العرش فى غضون السنوات الاربع التالية نحو من تسعة أشخاص كان بعضهم يخلع بعد أيام من ولايته ، وبينهم عدد من الاميرات نظرا لعدم وجود ذكور من الاسرة المالكة .

ولما كانت هذه الفوضى قد ضربت أطنابها فى البلاد ، فان جل ما كان فى وسع الجيش الفارسى أن يفعله ضد العرب ، هو أن يتخذ له موقعا دفاعيا الى الجنوب من المدائن لحماية العاصمة بينما تحتاج جيوش خالد ارض السواد الخصبة ، جامعة الجزية ، وسابية أهل البلاد لبيعاعوا كرقيق .

وعثر أخيرا فى صيف عام ٦٣٢ أى بعد وفاة النبي محمد فى المدينة البعيدة ، على غلام من البيت المالك ، ظل مختفيا طيلة المذابح التى وقعت . ولقد كان يزدجرد فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره عندما ولى الملك . ولم يستطع تبعا لذلك تولى قيادة الجيوش وان أعلن ملكا على البلاد . وهكذا كانت مملكة فارس القوية قد تحولت بعد ستة وعشرين عاما من الحروب مع بيزنطة وبعد أربع سنوات من الفوضى والحروب الاهلية الى ارض يسودها الاعياء والدمار .

واستغل العرب ضعف الفرس وشللهم ، فاجتاحوا المناطق الزراعية الغنية الواقعة الى الشرق من الفرات . وسلبوا الغنائم منها وفرضوا الجزية على أهلها الذين يظهرون الرغبة فى الصلح والتفاهم . فكانوا يحصلون على عهود مكتوبة من العرب يشترطون فيها دفع الجزية مع الوعد بالحماية والامن . وكانوا يحصلون على ايصالات من العرب عندما يدفعون الجزية . وعلى الرغم من اننا نرى فى معاملة العرب لمن يقاومونهم بعض الغلظة الا اننا لا نستطيع الا أن نعتزف بانهم كانوا دائما يفون بعهودهم تمام الوفاء .

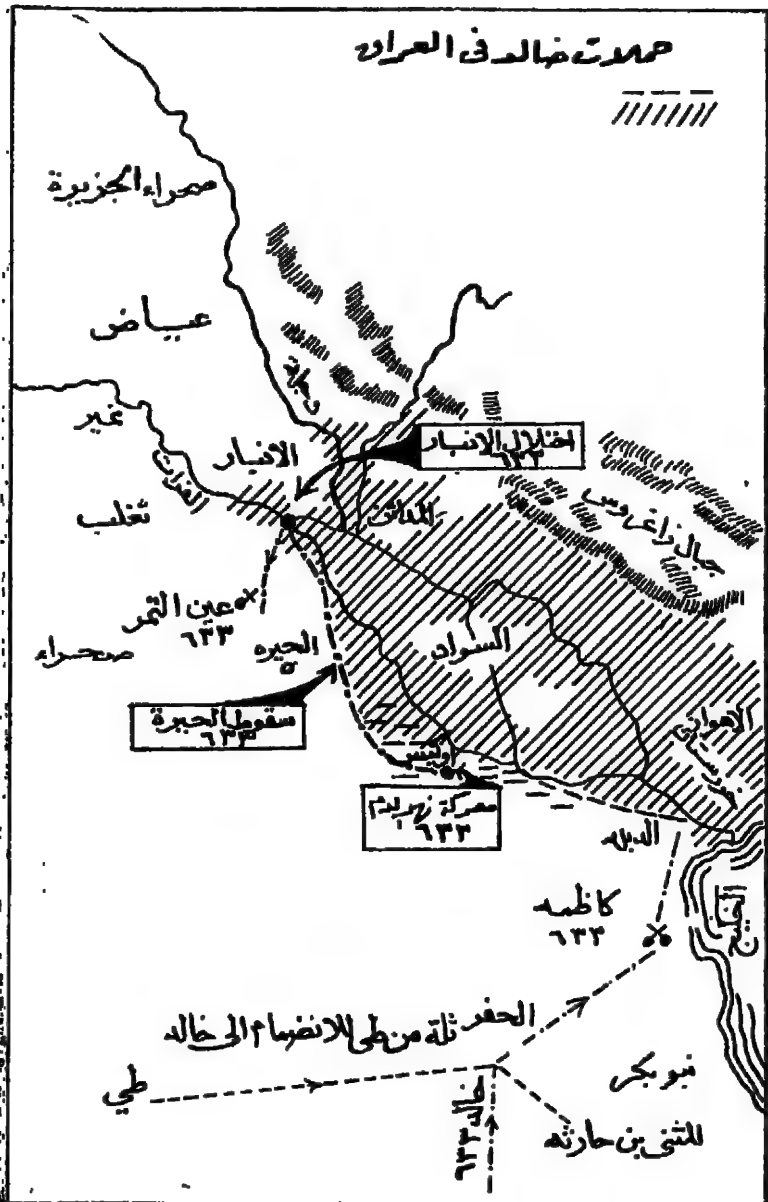
وعلى الرغم من ان الفرس كانوا عاجزين عن العمل الحربى فى الصحراء الا ان البدو من نصارى العرب المقيمين فى أعالي الفرات كانوا قادرين على الحرب فيها . وكان فى مكنة التغالبة وبطون بكر المتحالفة مع الفرس أن تهدد قوات المسلمين فى الصحراء وأن تغير على مواصلاتهم مع المدينة . وكانت خطة العرب السوقية تتركز الى الحقيقة الواقعة . وهى انهم يشعرون بالامن والسلامة فى الصحراء وان فى وسعهم أن يغيروا

على المناطق المأهولة ، على النحو الذى يريدونه • ولكن القبائل العربية المعادية لهم ، تستطيع الحرب فى الصحراء أيضا ، وفى وسعها أن تفسد عليهم خططهم السوقية ، ولهذا فهم لا يتسامحون مطلقا مع أفرادها المعادين لهم • ولم يكن فى وسع خالد فى مثل هذا الوضع أن يجلس كما قال هو عن نفسه ، عاطلا عن العمل فى قصور الحيرة ، ممثلا دور المرأة • وسرعان ما أعد خطته الجديدة على أساس شن عمليات متحركة من جديد •

ولعل من الطريف أن نلاحظ عدم الاكتراث النسبى الذى أظهره زعماء قريش فى المدينة تجاه العمليات العسكرية فى العراق فى هذه الآونة • فلقد كان كل اهتمامهم كما سنرى بعد قليل ، مركزا على سوريا • اذ انها المنطقة التى يعرفونها والتى كان النبی قد بعث اليها بقوات حملتى مؤتة وأسامة بن زيد • وكان معظم الصحابة الذين حاربوا مع خالد فى معركته مع مسيلمة الكذاب ، قد عادوا الى المدينة وهكذا نرى ان معظم قادة جيش خالد ، لم يكونوا من أهل مكة أو المدينة بل من البدو • ولقد رأيناه يولى المثنى بن حارثة الشيبانى من بنى بكر قيادة القوة التى خلفها لمواجهة جيش الفرس الى الجنوب من المدائن • كما رأيناه يولى القعقاع بن عمرو ، شيخ تميم الذى انضم مؤخرا الى المسلمين الامر فى مدينة الحيرة بعد احتلالها •

وراح خالد بعد ذلك يتجه شمالا محاذيا الضفة الغربية لنهر الفرات ، الى أن وصل الى المكان الذى تقوم فيه بلدة الفالوجة الحالية • حيث عبر النهر ليحاصر مدينة الانبار • وينتهى سواد العراق ، أو التربة الغرينية السوداء التى تؤلفها دلتا دجلة والفرات عند خط يمتد من الشرق الى الغرب مارا بمدينة الانبار • ويسكن الى الجنوب من هذا الخط فى الواديين الخصيبين اللذين يسير فيهما نهرا دجلة والفرات ، شعب كادح عامل من المزارعين ينتمون الى جذور عراقية مختلفة اذ ان منهم ذرارى السومريين القدماء والبابليين وبعض الاعجام • وبينهم بعض العرب الذين يعيشون على نهر الفرات • وكانت الارض السوداء الخصبة فى هذه المناطق مأهولة بالسكان ، وتقطعها أقنية الري • ولذا فانها عسيرة على العمليات العسكرية لقوة من محاربي الصحراء الذين يمتطون الجياد أو الابل •

أما الى الشمال من هذا الخط الذى يجتاز الانبار ، فتقوم مناطق من الصخور الرملية يمر فيها الرافدان يشقان طريقهما عبرها • وتجتاز الصحراء السورية فى هذه المنطقة نهري الفرات ودجلة حتى تصل الى



سفوح جبال فارس . وكانت القبائل العربية من تغلب ونمير وإياد المهاجرة من الصحراء العربية قد تسللت عبر نهر الفرات لترابط في منطقة الجزيرة الواقعة بين النهرين . وهكذا نرى الصحراء تحيط بمدينة الأنبار الواقعة على الفرات من ناحيتي الغرب والشمال . وكان العرب قد أقاموا أو استولوا على هذه المدينة منذ نحو من أربعة قرون ، وكانت لاتزال مأهولة بالعرب تماما كالحيرة وإن تولت القوات الفارسية أعمال الحراسة فيها . وقد أحاطت الأسوار بالمدينة وأمام الأسوار خندق يحيط بها من جميع جهاتها ، وقد أمر خالد بذبح كل ما لديه من ضعيف الإبل ، ليملا الخندق بجثثها وعاد فاقتحم المدينة عنوة (١) .

ولم يكن خالد مجبرا في احتلاله الأنبار على التوغل في المنطقة الخصبة المأهولة بالسكان ، وكان لا يزال يسير على المبدأ البدوي القديم بالطواف حول أطراف الصحراء مهاجما المدن الساحلية ، والقرى والتأهب دائما للاختفاء في الصحراء بعيدا عن المطاردة في حالة ظهور جيش نظامي كبير للاعداء أمامه . وطبقا لهذا الأسلوب في القتال فقد عاد خالد بعد احتلال الأنبار يتجه غربا إلى الصحراء ، زاحفا على عبي التمر . التي كانت تقع في المنطقة التي تقوم فيها واحة شتاتا الحالية . وقد قاومه هنا بعض العرب من تغلب وغيرهم ولكنه تمكن من تبسيد شملهم . واستولى خالد على الواحة التي يسكنها النصارى من العرب في حماية قوة فارسية . وقد أمر خالد في سورة من سوروات غضبه بقتل جميع أفراد الحامية ووزع النساء والأطفال كسبائيا على المسلمين . وقد أعدم في البلدة أحد كبار شيوخ تغلب (٢) . وأسر المسلمون في أحد

---

(١) تختلف رواية المؤلف هنا عن روايات مؤرخي العرب فقد ذكر الشعبي أن خالد حاصر الأنبار وحرق بعض نواحيها . فلما رأى أهلها ما نزل بهم ، صالحوا خالدًا على شيء رضي به فآفرهم ، ويقول البلاذري أن لاهل الأنبار عهدا ومقدا . ويقول الخطري أن قائد جند الأنبار طلب الصلح من خالد على أن يخليه ويطلقه بآمنه في جزيرة ليس معهم من المتاع والأموال شيء . فآجابه إلى ذلك وسلم الأنبار وصالح من حولها .

( العرب )

(٢) تجاهل المؤلف كعادته في تشويه التاريخ العربي ، ذكر الأسباب التي دعت خالدًا إلى القسوة مع أهل عين التمر . فلقد ذكر المؤرخون العرب أن خالدًا قصد عين التمر وبها مهران بن بهرام في جمع عظيم من الفرس ، وعقة بن أبى عقة في جمع عظيم من العرب من قبائل نمير وتغلب وإياد ، ومن لف لفهم وقد لازم مهران عين التمر وخرج عقة يريد مقابلة خالد في الطريق ، والتقيا وقاتلت الجند وأسر خالد عقة ثم =

أديرة عين التمر النسطورية ، أربعين شابا عربيا ادعوا انهم من طلاب علم اللاهوت المسيحي . وقد وفر خالد عليهم أرواحهم طمعا في الافادة من علومهم ومعارفهم . وبعث بهم الى المدينة ليعملوا فيها عبيدا أو كتبة . وكان نصير واحدا من هؤلاء . وقد خلف في المدينة غلاما هو موسى بن نصير الذي قدر له بعد سنوات طويلة أن يصبح فاتح الاندلس .

وأرى أن نترك خالدا الآن في عين التمر في خريف عام ٦٣٣ لتنتجه بأنظارنا الى احداث سوريا في تلك الآونة .



رأينا في السابق ان أبا بكر لم يوفد خالدا في البداية لغزو فارس وانما أوفده للقضاء على الردة في الجزيرة العربية عن طريق هزم النبيين الدعين طليحة ومسلمة ، وهناك اتصل عرضا بالمثنى بن حارثة ، ورجاله من بنى بكر ، الذين اقترحوا عليه القيام ببعض الغارات على حدود الفرس . وقصد المثنى الى المدينة حيث حصل على موافقة الخليفة . ولما كان الخليفة قد تسلم خمس الفى من الغنائم والسبايا ، فانه لم يعترض على هذه الغارات التي لم تكن في مخططة . والتي تكللت بالنجاح نتيجة الفوضى الضاربة أطنابها في مملكة الفرس (١) .

---

= انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة الى مهران هرب في جنده تاركا الحصن الذى اعتصمت به فلول عثة ، حتى جاءهم خالد فاستنزله من حصنهم بدون امان وقتل معظمهم ووجد بينهم أربعين غلاما يتعلمون الاتجيل ، منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين فقسسهم خالد في الناس ، وكان من عقبهم علماء أجلاء .

( العرب )

(١) محاولة أخرى من محاولات التشويه . فال مؤلف يريد أن يظهر أن غزو العرب لفارس كان أمرا عرضيا . مع أن جميع الدلائل التاريخية تؤكد أن هذا الغزو وقع طبقا لخطة منظمة فلقد ذكر الخضرى ان أبا بكر انتدب أعظم قواده خالد بن الوليد بعد ان انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره بأن يبدأ بثغر الأبله . وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس في الشمال أى من شمال العراق . وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة والا يستعينا بمرند . وقد وصل لخالد كتاب التميمين وهو باليمامة ، فكتب الى هرمز عامل الفرس في الأبله يقول : أما بعد اسلم ، تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك اللمة واقرب بالجرية . والا فلا تلومن الا نفسك ، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت ، كما تحبون الحياة .

وقال البلاذرى قدم المثنى بن حارثة على أبى بكر . فقال له : ياخليفة رسول الله . استملىنى على من اسلم من قومي . أقاتل هذه الاعاجم من أهل فارس . =

وكان الحكماء الجدد في المدينة • في واقع الامر أكثر اهتماما بحدود الروم منهم بحدود الفرس • ولقد كانت قريش وهي القبيلة التي مونت المجتمع الاسلامي الجديد بجميع زعمائه وقادته العسكريين ، تعرف سوربا وفلسطين معرفة وثيقة منذ أيام عملها في التجارة • وكانت معركة مؤتة وحملة أسامة الثارية ، هما استهلال هذه الحركات الحربية ، كما كانت غزوة تبوك التي قادها النبي بنفسه قد أسفرت عن اخضاع جميع قبائل الحدود ، والزامهم بدفع الجزية ، ولقد رأينا من قبل أن أمير دومة الجندل العربي النصراني ، قد أعلن اسلامه ، ولكن اسلامه كما يبدو لم يكن صحيحا • اذ ما كادت أنباء وفاة النبي تصل اليه ، حتى كان قد سحب اعترافه وولاءه ، وتوقف عن دفع الزكاة •

أما من الناحية الاخرى • فلم تكذ أنباء هزيمة مدعى النبوة في نجد تصل الى مسامع المدينة حتى كان الخليفة يقرر استئناف العمليات الحربية على حدود الروم ، وكتب الى أهل مكة والطائف واليمن والقبائل المحيطة بنجد والحجاز ، يستفزههم الى القتال ويستحثهم على ارسال المحاربين • واختار ثلاثة من القادة العسكريين لتولى القيادة • عقد لكل منهم لواء على السنة التي استنتها الرسول (١) وكان هؤلاء القادة هم عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ، أما والد الاخير ، قائد قريش في أحد وعدو النبي السابق ، فقد ركنه الى الرف بتعيينه عاملا له في اليمن ، ولم يوضح لنا مؤرخو العرب السبب في شطط الجيش الذي

— فكتب أبو بكر في ذلك هذا ، فسار حتى نزل خفان ودعا قومه الى الاسلام فاسلموا . ثم ان أبا بكر رضي الله عنه كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالسير الى العراق • وكتب أبو بكر الى المشي بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة له وتلقيه • وكان مدمور ابن مدي العجلي قد كتب الى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه • ويسأله توليته قتال الفرس • فكتب اليه يأمره بأن ينضم الى خالد ، فيقيم معه اذا أقام • ويشخص اذا شخص •

يتبين من كل هذا ان الحرب مع الفرس لم تات عفوية عرضية كما يحاول جلوب أن يقول ، رغبة منه في تشويه الصورة العربية للفتوحات الاسلامية • بل كانت طبقا لخطة مقروءة وعلى أساس تفكير سليم في نشر الدعوة الاسلامية •

( العرب )

(١) على الرغم من أن بعض مؤرخي العرب ذكروا أن أبا بكر عهد بالقيادة الى الثلاثة الذين ذكرهم المؤلف الا ان الكثرة الغالبة من المؤرخين يقولون ان الجيش قسم الى أربعة ألوية • لكل منها قائد ، اما القائد الرابع فهو أبو هبيدة عامر بن الجراح الذي عاد عمر بن الخطاب فلوله اثر توليه الخلافة القيادة العامة •

« العرب »



توافر للخليفة الى ثلاثة جحافل . ولعل افتقار الطريق الصحراوي الى الماء والنقاط التي يتوافر فيها قد حتم على الخليفة أن يبعث قواته على ثلاث دفعات . ولعل افتقار هذه الطريق أيضا الى المؤن نظرا ، لعدم وجود نظام للتأمين هو السبب . أو لعل ما يحس به القادة من حسد لبعضهم البعض ورغبة الواحد منهم عن العمل تحت قيادة سواه ، كان السبب الصحيح(١) . ومن المنطق كل المنطق أن يرى الانسان في تقسيم أبي بكر دليلا على ان تفكيره لم يكن متجها الى الفتح والاجتياح . وانما اتجه الى الغزو والاغارة . لكن أساليب القتال عند العرب ، كانت من النسوع العفوى العارض في هذه الآونة ، بحيث لا يستطيع المرء الوصول الى مثل هذا الاستنتاج واعتماده بثقة وطمأنينة(٢) .

ويقال ان أبا بكر أصدر أمره الى عمرو بن العاص بالاتجاه الى ايلة (العقبة) . للعبور منها الى جنوب فلسطين باتجاه غزة التي تعرفها قريش من أيام قوافلها وتجارتها خير معرفة أما الرتل الثاني ، بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، فقد صدرت اليه الاوامر بالاتجاه شمالا عن طريق تبوك ، ليعود فيميل نحو الغرب باتجاه الساحل الشرقي للبحر الميت . بينما صدرت الاوامر للرتل الثالث بقيادة شرحبيل بالاتجاه نحو الشمال الشرقي للمسير على دمشق وبصرى . وكانت أوامره صريحة بأن تتجه الارتال كلها

---

(١) هذا تشويه آخر متعمد للتاريخ الاسلامي . فالفترة لم تكن معروفة عند القادة من صحابة رسول الله . والشواهد على ذلك كثيرة . أبرزها حملة أسامة بن زيد القائد الشاب الذي لم يتجاوز العشرين ربيعا . وكان النبي قد أمر أبا بكر وعمر وهما كبيرا أصحابه بالتوجه معه كجنديين عاديين . وكذلك عزل خالد عن القيادة ابان معركة اليرموك وبولية أبي عبيدة على أن يظل خالد وهو القائد الكبير جنديا تحت امرته . وكذلك ما سبق قوله من كتاب أبي بكر للمثنى بن حارثة شيخ بنى شيبان بأن يكون تابعا لخالد ، عند استهلال الحملة على القرمس ، بالإضافة الى امثلة اخرى لا عد لها ولا حصر ، لدحض ادعاء المؤلف .

( الحرب )

(٢) يجمع المؤرخون العرب على أن الخليفة عقد اللواء لكل قائد من القادة الاربعة على ثلاثة آلاف جندي في بدء الحملة . ثم واصل اتباعهم بالامداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة رجل . ولا يمكن أن يكون القصد من مثل هذا العدد الكبير من الرجال مجرد الاغارة والغزو كما يحاول المؤلف أن يقول . . يضاف الى هذا أن توجيه كل قائد من طريق الى هدف معين كفلسطين لمعرو بن العاص ودمشق ليؤيد وحمص لأبي عبيدة والاردن لشرحبيل ، يدل على أن غاية أبي بكر من هذا التقسيم كانت توزيع قوات العدو وانزال الارتباك فيها، لتمكين جيوش المسلمين من تحقيق غايتها في الفتح لا في الغزو كما يحاول المؤلف أن يقول . .

(الحرب)

لنجدة أى منها يلتقى فى طريقه مقاومة عنيدة ، على أن يتولى القيادة العامة القائد الذى تدور العملية فى منطقتة . وما كاد المحاربون يتوافدون على المدينة منتصرين من حروب الردة فى نجد وعمان واليمن ، حتى كان الخليفة يحشدهم فى قوات يبعث بها كتجندات لتعزيز القوات الزاحفة على سوريا .

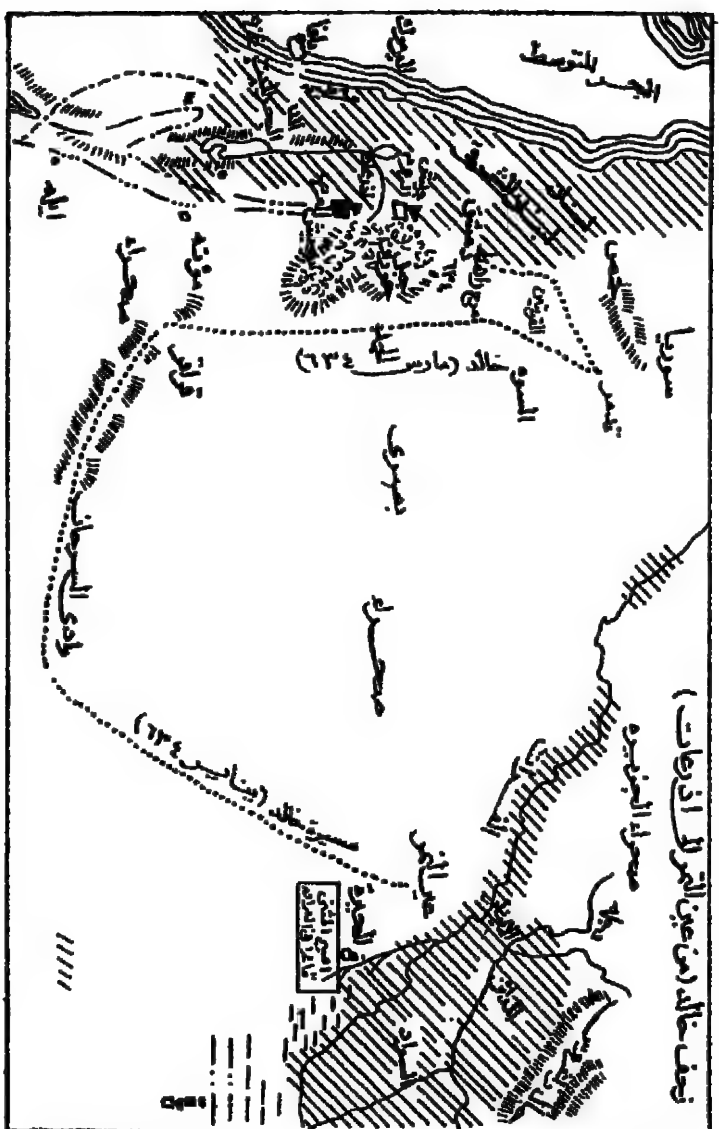
واشتبك رتل عمرو بن العاص مع الروم فى دائن على الطريق بين ايلة وغزة ، فهزمهم كما أرغم يزيد بن أبى سفيان سيرجيوس بطريق قيصرية على التراجع بعد معركة فى وادى عربية وطارد يزيد الجيش الرومانى المنسحب ، فلحق به وبدد شمله وقتل قائده سيرجيوس (١) وسرعان ما انتشرت قوات العرب فى جميع أنحاء السهل الساحلى الجنوبى فى فلسطين حتى بلغت على الغالب اللد ويافا .

وعندما وجد أبو بكر ان قواته تشتبك فى سوريا وفلسطين مع الروم فى عمليات حربية ضخمة ، كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه من العراق ، لتعزيز المسلمين على حدود الروم . ويقول بعض المؤرخين ان خالدا جاء من عين التمر الى دومة الجندل ليحتلها بعد أن ارتد صاحبها ، كما سبق لنا أن ذكرنا ، وكان الخليفة قد أوفد اليها قوة لاعادة سيطرة المسلمين عليها . ولكن هذه القوة عجزت عن التغلب على مقاومتها ويقول مؤرخون آخرون ان خالدا استدعى لتعزيز قوات المسلمين فى سوريا وأنه فى طريقه اليها أنهى أمر دومة الجندل المرتدة على الاسلام . ومهما كان دافع خالد ، فان من الواضح انه تحرك من عين التمر فى العراق فى مطلع عام ٦٣٤ وتمكن من اقتحام الدومة فى سرعة هائلة بما عرف عنه من جرأة وحيوية . فانزل القتل بأهلها وصلب أحد قادتها وذبح كل من وقع فى الاسر من رجالها وبعد أن انتدب أحد رجاله حاكما عليها ، وبعث بالنساء والاطفال والفنائهم الى المدينة سار خالدا

---

(١) تختلف رواية المؤلف عن الروايات العربية بعض الاختلاف . فهو يقول ان دائن يحتمل أن تكون دوقان ، التى ورد ذكرها فى التوراة على انها المكان الذى كان اخوة يوسف يرمون أغنامهم فيها ، وان كان يستبعد ذلك لان دوقان قريبة من حيفا ولكن الطبرى والبلاذرى يؤكدان أن دائن من قرى غزة ، وهذا هو الصحيح لان جيوش العرب لم تكن قد وصلت بعد الى شمال فلسطين . أما من موقعة العربية . فيقول أبو مخنف ان ستة من قواد الروم نزلوا العربية فى ثلاثة آلاف فسار اليهم أبو امامة - ( من رجال يزيد ) فى كثف من المسلمين فهزمهم وقتل أحد قوادهم ، فصاروا الى الدابية فهزمهم وغنم المسلمون ثمنما حسنا .

( العرب )



باتجاه الشمال الغربى نحو وادى «بطن السير» الذى يعرف اليوم باسم وادى السرحان • وأصبح بعمله هذا على بعد خمسة أيام أو ستة من القوات الاسلامية العاملة فى شرق الاردن ، وبات قادرا على اللحاق بها • ولكن خالدا لم يفعل ذلك لأن هذه القوات كانت عاجزة عن الحركة شمالا • اذ يواجهها جيش من الروم يربط فى مواقع دفاعية فى شعب ضيق على مقربة من بلدة درعا الحديثة ، وكان جيشا يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة قد التقيا هنا لمواجهة هذا الجيش المعادى ولكنهما لم يستطيعا ارغامه على التخلي عن مواقعه ، وهكذا وقف الجيشان يقابل أحدهما الآخر فى شبه حالة تجمد (١) •

وقرر خالد بموافقة القادة الآخرين أن يقوم بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو (٢) وبعد أن روى جيشه بالماء من بئر قراقر ، الذى لا يزال قائما ومعروفا بهذا الاسم حتى اليوم ، قام بحركة التفاف واسعة باتجاه الشمال عبر الصحراء قاطعا نحو من مائتى ميل فى أرض لا ماء فيها ، عبر أرض صحراوية مسطحة تعرف اليوم بصحراء الحمد وليس فى هذه المنطقة أية آبار دائمة ، وإن كانت مياه الامطار تختزن عادة فى بعض شعابها • ولو كانت مسيرة خالد قد وقعت كما هو الغالب فى مارس ( آذار ) عام ٦٣٤ فإنه ما كان ليجد فيها ماء ، لو أن المطر كان شحيحا فى شتاء تلك السنة • ووصل جيش خالد أخيرا الى مكان يطلق عليه المؤرخون العرب اسم « سوى » ولعله المكان الذى نسميه الآن « بالسبع ابيار » • وقد اتبع خالد قبل مغادرته قراقر طريقة مازال البدو يلجأون اليها حتى يومنا هذا • فلقد جمع عددا من الابل ، ومنع عنها الماء عدة أيام لتصبح غطشى كل العطش • وعاد فأرواها كل الرى • وتختزن الابل فى مثل هذه الحالة الماء فى مثاناتها لعدة أيام • ثم تعود

---

(١) سبق لنا أن قلنا ان خالدا تلقى وهو فى مين التمر امر أبى بكر باللحاق بالمسلمين فى الشام لنجدتهم ، فخلف المثنى بن حارثة على قيادة الجيش وسار بثمانمائة رجل ويقال فى فى ستمائة الى صندوداء وبها قوم من كندة وايداء والعجم فقاتله أهلها فظفر ، وخلف بها سعد بن حرام الانصارى فولده اليوم بها ، وبلغ خالدا ان جمعا بنى تغلب بالضيح والحصيد مرتدين وعليهم ربيعة بن بجير ، فاناهم ، فقاتلوه وهزمهم وسبى وفتح ويث بالسبى الى أبى بكر • ثم افار على قراقر • واتى على دومة الجندل ففتحها هنوة •

(٢) اختلف مع المؤلف فى قوله بأن خالدا قام بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو بموافقة القادة الآخرين • اذ ان الاتصال بهم لم يكن متيسرا له • (المغرب)

فتستهلكه بصورة متدرجة • وكان ينحصر هذه الرواحل بعد أن بدأ سيره يوما بعد آخر ، ليشرب وأصحابه الماء من بطنها • ولعل الصعوبة التي واجهها خالد لم تكن تأمين الماء لرجاله ، وانما تأمينه لحيله أيضا •

ونضب كل ما لدى خالد من الماء بعد مسيرة خمسة أيام • كما أتى على آخر راحلة من الرواحل التي اكتنز الماء في بطونها • وبدأ الاعياء يصيب خيله ورجله وكان الدليل وهو عربي من طيء ويدعى رافع بن عمير ، على ثقة من ان الماء بات قريبا • ولكن الضعف كان قد أصابه بدوره مما جعله عاجزا عن البحث عن البئر ، ويقال انه أصيب بالرمد فبات عاجزا عن الرؤية • وكان كل ما استطاع قوله ، ان هناك غسلوجا من الشوك عند البئر وان على الرجال أن يبحثوا عن هذا الغسلوج • ولا ريب في ان من السهل رؤية مثل هذه الشجيرة من بعد عدة أميال اذ ان الصحراء في هذه المنطقة خالية من كل نبات • وتعرض الجيش كله للخطر ساعات طويلة • وتعرف روايات البدو الكثير من الكوارث التي تعرضت لها جماعات من الغزاة بسبب افتقارها الى الماء في مثل تلك الحرارة اللاهبة وسط الصحراء المحرقة لكن الجنود الظماء تمكنوا أخيرا من العثور على الغسلوج • فأخذوا يحفرون وسرعان ما عثروا على الماء • ونجا الرجال وخيلهم من الموت • واتجه خالد بعد ذلك الى تدمير فهاجمها واستولى عليها ثم استدار غربا نحو القريتين •

كان خالد في سيره شمالا من قراقر الى سوى ، قد أصبح مقطوعا عن منطقة حوران المأهولة بسلسلة من الجبال البركانية التي تسمى بجبل الدروز • ولهذا فان وصوله الى تدمير كان مفاجأة مذهلة للعدو • ولكن مع اتجاهه جنوبا نحو دمشق أخذت أنبأؤه تصل الى الروم واشتبك مع العدو في معركة مرج راهط التي تبعد نحو من خمسة عشر ميلا الى الشرق من دمشق • وذلك يوم عيد الفصح من عام ٦٣٤ • وعاد فاتحه جنوبا ملتفا حول سفوح جبل حوران • (جبل الدروز) حيث اتصل بجيوش المسلمين عند درعا • ويقال ان عدة جيش خالد كانت تسعة آلاف مقاتل (١) •

---

(١) يقول المؤرخون العرب ان خالدا أتى بعد دومة الجندل الى قسم • فصالحه بنو مشيعة من قضيعة وكتب لهم امانا • ثم أتى تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا • ثم طلبوا الامان فامنهم على ان يكونوا ذمة • وعلى ان يقرأوا للمسلمين ويرسخوا لهم ، ثم أتى القريتين فقاتله أهلها وظفر وغنم ، ثم أتى حوارين من سدير فأغار على مواشي أهلها فقاتلوه • وقد جاءهم مدد أهل بعلبك وأهل بصرى وهى مدينة حوران فظفر بهم فسبى وقتل • ثم أتى مرج راهط فأغار على فسان في يوم فصحهم وهم نصارى فسبى وقتل =

ويعصف المؤرخون العرب مسيرة خالد بالنصر العظيم ويؤكدون انه انتصر في مرج راهط نصرا ضخما لكنني أرى أن هذا الادعاء يفتقر الى الاثبات والدليل . ولعل التفسير المعقول للعملية كلها هو ان خالدا قام بحركة التفافه هذه ليهدد دمشق ويرغم جيش الروم على ترك مواقعه الدفاعية في درعا . ولو كان خالد قد انتصر في مرج راهط لاحتّم عليه الموقف العسكري أن يقترب من دمشق . فيرغم الروم على التراجع عن درعا ، ولا ريب في ان اتجاهه جنوبا بعد مرج راهط وتخليه عن خطته الاولى يشير الى انه أصيب بنكسة في مرج راهط (١) .

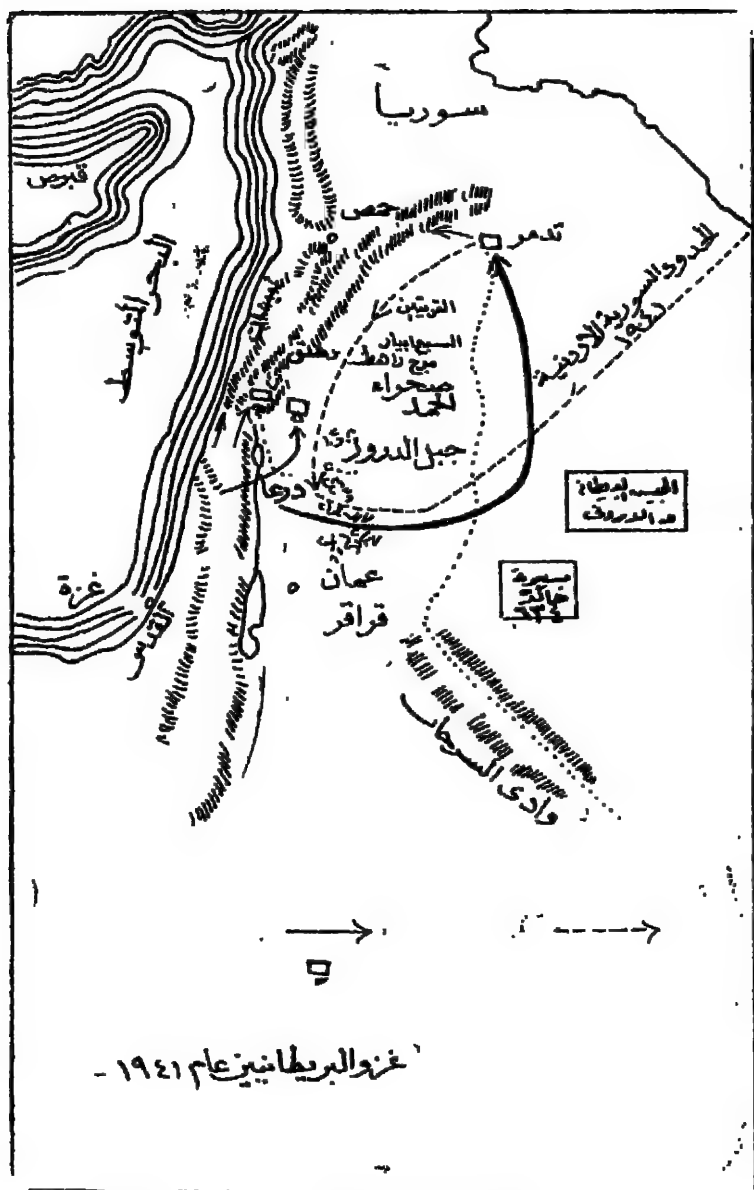
وفي التاريخ العسكري المعاصر حادث مواز لهذا الحادث . فلقد قام الجيش البريطاني في مايو (أيار) عام ١٩٤١ ، ومعها قوات فرنسا الحرة بغزو سوريا التي كانت تسيطر عليها قوات حكومة فيشي . وتقدمت القوات من شرق الاردن . واتجه رتل بريطاني الى الشمال عبر درعا ولكن المواقع الفرنسية الدفاعية الى الجنوب من دمشق تمكنت من وقفه . ورغبة في اجبار الفرنسيين على اخلاء هذه المواقع . تقدم رتل بريطاني آخر تصحبه قوات الجيش الاردني فعبّر بادية الشام ليهاجم تدمر ويحتلها

---

= ثم وجه خالد يسر بن أبي أرتاة العامري من قريش وحبيب بن مسلمة القهري الى غوطة دمشق، فأغاروا على قرى من قراها . وصار خالد الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب بدمشق فوقف عليها نائرا راجحه ، وهي راية كانت لرسول الله ( صلم ) سوداء ، فسميت ثنية العقاب يومئذ . ونزل خالد بالبواب الشرقي من دمشق ويقال بل نزل بباب الجابية . فأخرج اليه اسقف دمشق نولا وخدعة . فقال : احفظ لي هذا العهد . فوعده بذلك . ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين وهم بقناة بصرى .  
( العرب )

(١) اذا كان جلوب يعتبر في كتابه «الجيش العربي الاردني» مسيرة قوات البادية التابعة للجيش والذي كان يتولى قيادته عبر صحراء الشام الى الرطبة في مايو عام ١٩٤١ لمحاربة الجيش العراقي أثناء ثورة رشيد عالي الوطينية نصرا وهي في سبيلاتها المدمرة ، أفلا يعتبر قطع خالد للصحراء برجاله نصرا ، في وقت لم تكن الطرق فيه مرصوفة ، ولا القوات الالية مرصوفة . لقد كان خالد أول قائد في العالم قطع هذه الصحراء اذا كان محاربو الشرق والقرب في التاريخ القديم ينتقلون من العراق الى سوريا أو بالعكس من طريق الشمال أي بين الفرات وحلب والمسافة الصحراوية فيها قصيرة أما ان يقطع الصحراء من وسطها كما قطعها خالد . فنصر كبير لا ينكره الا مكابر أو جاحد . أما قول جلوب بأن خالداً منى بنكسة في مرج راهط فقول مغلل لا يستند الى دليل تاريخي كما يخالف اقوال المؤرخين العرب الذين اجمعوا على انتصار خالد في الوقتة .

( العرب )



ويأتيه غربا منها الى حمص . واضطر الفرنسيون خوفا من قطع خط رجعتهم الى اخلاء دمشق والانسحاب شمالا . وقد احتل الجيش الاردني ابان هذه الحملة السبع ابيار حيث كاد جنود خالد يموتون عطشا . وحيث أقام الفرنسيون مركزا عسكريا . ولا ريب في أن هذه العملية صورة طبق الاصل من عملية خالد الالتفافية . لكنها تختلف عنها في أنها نجحت بينما فشلت عملية خالد ، لكن القوات البريطانية وقوات الجيش العربي كانت آلية ، بينما كان جنود خالد من الهجانة (١) .

---

(١) يريد جلوب في هذه المقارنة السخيفة أن يشبه نفسه ضمنا ، وإن لم يكن صراحة بخالد بن الوليد . وأن ينسب لنفسه النصر بينما ينسب لخالد الفشل . فلقد ذكر هو في كتابه « قصة الجيش العربي الاردني » انه تولى قيادة الرتل الذي دُفِع عبر الصحراء ليهاجم تدمر لكن السخف يبدو واضحا من مقارنته بالاضافة الى التفضيل في النتيجة التي توصل اليها . لجيش خالد كان يهاجم اعظم امبراطورية في العالم آنذاك ، وهي امبراطورية الروم ، وكانت المواصلات بين المناطق التي هاجمها خالد ومركز هذه الامبراطورية سليمة لا يهددها خطر بينما كان جيش جلوب وبريطانيوه يهاجمون فلولا فرنسية ، وجدت نفسها في سوريا معزولة عن قاعدتها في فيشي (في فرنسا) اذ قطع الاسطول البريطاني في البحر المتوسط طريقها وليس لديها من المعدات والمؤن ما يكفيها مدة طويلة . وكان خالد قد جاء من العراق قاطعا الصحراء كلها بينما استند جلوب ورجاله الى القواعد البريطانية في الفرق والجفور والزرقاء وهي قريبة من منطقة القتال، وكان خالد يعتمد على الابل والخيل في حركته بينما اعتمد جلوب على المدرعات والدبابات والسيارات السريعة بالاضافة الى الطائرات . ومن هذه النقط وحدها نعدم مقومات المقارنة اما القول بالنجاح والفشل فتضليل ما بعده تضليل اذ لا يعقل أن يكون خالد وهو القائد المبقرى ، قد فكر مطلقا ، بأن يهاجم ، بقواته التي لا تعدو الثلاث حتى ولو كانت بضعة الوف كما يرشِب بعض المؤرخين أن يقولوا ، وهو الرقم الذي تبناه جلوب في هذا المكان بالذات ، رغم ميله في أماكن أخرى الى تكذيب الارقام العربية وذلك ليدعم مقارنته الخاطئة وليرسل الى النتيجة المضللة التي توصل اليها ، مدينة كدمشق فيها قواتها الضخمة . ومع اتصالها بقواعد تموينها ، وأمامها جيش معاد يمد كما قال المؤرخون (٢٤٠) ألفا . ومن هنا يكون استنتاج جلوب في تقرير الفشل خاطئا من اساسه . اذ لم يضع خالد خطة لاحتلال دمشق ليكون تراجعها عنها نكسة أو فشلا . ومن هنا يكون خالد قد قام بحركته هذه ، لبث الرعب والدمر في مؤخرة جيش العدو المربط على اليرموك لضعاف معنويته . وليقوم ببعض العمليات التي تعتبر في عرف الحرب العصرية عمليات مؤخرة لارباك صفوف المقدمة وهي خطة لا شك في أن خالد قد نجح فيها نجاحا كبيرا كما يثبت من سياق الاحداث التالية .

( العرب )



## تواريخ مشهورة

٦٢٨ - ٦٣٢	فترة من الفتن والفوضى في فارس
٦٣٢ أو ٦٣٣	يزدجرد يرتقى العرش
مايو (أيار) ٦٣٣	خضوع الحيرة
خريف ٦٣٣	الاستيلاء على الانبار وعين التمر
٦٣٣ - ٦٣٤ شتاء	ثلاثة أرتال عربية تغزو فلسطين والاردن
من يناير (كانون الثاني)	خالد بن الوليد يجتاز البادية من العراق
الى مارس (آذار) ٦٣٤	الى سوريا عن طريق دومة الجندل
ابريل (نيسان) ٦٣٤	اشتباكات لخالد مع الروم في مرج راهط
	خارج دمشق
مايو (أيار) ٦٣٤	ايقاف الارتال العربية عند اليرموك

## شخصيات بارزة

قائد العرب في العراق	خالد بن الوليد
كسرى الفرس الشاب الجديد	يزدجرد
قادة الارتال العربية في فلسطين والاردن وثلاثتهم من قريش	عمرو بن العاص شرحبيط بن حسنة يزيد بن أبي سفيان
قادة العرب في العراق وكلهم من رجالات القبائل البدوية	المثنى بن حارثة - زعيم بنى بكر القعقاع بن عمرو - زعيم بنى تميم جرير بن عبد الله - زعيم بنى بجيلة



## بداية الانتصارات

« كان مجلس الشيوخ يستهدف في أيام انتصارات الجمهورية الرومانية أن تحارب الجيوش الرومانية عددا واحدا في وقت واحد » وان تقضى على هذا العدد قضاء مبرما قبل أن تشتبك في أية معارك مع عسك ثان ، وقد استهان الخلفاء العرب بما عرف عنهم من حماس ومن عظمة بهذه القواعد المنطوية على الخوف ، والجبين . وقد تمكنوا بعين الدرجة من البأس والنجاح من غزو خلفاء القيصرية والاكاسرة واصبحت الامبراطوريتان المتنافستان في وقت واحد فريستين سهلتين لعدو كانتا قد الفتا منذ عهد طويل الاستهانة به واخذاءه » ٠٠٠ - جيبون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها -



« وتفترس جميع الشعوب الذين يدفعهم اليك الرب الهك » فلا تشفق عيناك عليهم ، ولا تعبد آلهتهم فان ذلك وهق لك . « فان قلت في نفسك هؤلاء الامم اكثر مني ، فكيف أستطيع ان أطردهم فلا تخفهم » . - سفر تثنية الاشتراع - الفصل السابع - ١٦ -



لم تكن المهمة سهلة أمام قادة المسلمين الذين قرروا الدخول في حرب مع البيزنطيين . فلقد كانت الامبراطورية الرومانية تقوم وتصان منذ أربعة قرون على اكتاف المشاة الرومانيين الذين اعتبرت وعاقلهم المشهورة ، المثل الاعلى للانضباط العسكرى . لكن جيش بيزنطة فى القرن السابق ، لم يكن يشبه بحال من الاحوال تلك الغيالى . فلقد بدأ التحول بعد معركة ادرنة المشهورة فى عام ٣٣٨ ميلادية عندما تمكن فرسان القوط من اكتساح الجيش الرومانى وابادته ، بعد أن كان نموذج الجيوش فى العالم . وتبعث هذه المعركة ثورة شاملة فى الشئون العسكرية ، اذ بقدر للخيالة أن يسيطروا على ميادين المعارك للآلف سنة التالية . وكان السيف والمزراق سلاح الجندى الرومانى من المشاة . أما سلاحه الدفاعى فالخوذة والدرع والزرذ وهو سلاح غير كاف لمقاومة أساليب الصاعقة التى يلجأ اليها الفرسان فى هجومهم الثقيل .

وكان الرومان أنفسهم قد حلوا فيالق مشاتهم المشهورة بعد معركة ادرنة واختفت باختفائهم قرون طويلة من التقاليد والامجاد وأصبح الفرسان السلاح الاول فى جيوشهم (١) . ولما كان السيف والحرية لم يعودا كافيين لمقاومة أى هجوم ثقيل يقوم به الفرسان فقد لجأوا الى القوس والنبال وسرعان ماتحولت كتائب الفرسان الى ثقيلة وخفيفة . أما الكتائب الخفيفة فسلحها السهام والقوس ، وفى وسعها أن تطلق نبالها وهى فى حالة الركض والحبب فى جميع الاتجاهات ، أما الكتائب الثقيلة فسلحها الرماح وتستعمل فى عمليات الصاعقة . وقد تمكن الامبراطور يوستينيان بجيش من هذا النوع من استعادة الامبراطورية الرومانية لسابق عهدها بين عامى ٥٣٣ و ٥٦٥ . أما انجلترا فظلت عدة قرون متخلقة عن هذا التبدل الجندى فى السلاح من المشاة الى الفرسان

---

(١) عاد سلاح المشاة الى أهميته « كسيد الحرب » بعد ظهور البارود والاسلحة النارية . أما فى يومنا هذا فقد ادى اكتشاف سلاح الفرسان المدرع الآلى الى اضعاف قوة المشاة من جديد . وهى ثورة جديدة فى عالم الحرب تشبه ثورة معركة ادرنة  
فى عام ٣٧٨ .

والرماة ، وكان الانجليز لا يزالون يقاتلون في معركة هيستينجزز ( ١٠٦٦ ميلادية ) بسلاح المشاة ، بينما استخدم النورمان اعدائهم الفرسان المدرعين والرماة . وكانت الكتيبة هي الوحدة في الجيش الروماني وتضم نحو من أربعمئة جندي ويتألف اللواء من ثلاث كتائب أو أكثر بينما تتألف الفرقة من ثلاثة ألوية . وكان لكل كتيبة اشارتها الخاصة بها ، واللون الخاص بملابس رجالها (١) وكان البيزنطيون على خلاف العرب ، قد نظموا الخدمات الادارية والتنظيمية في جيشهم على أحسن منوال . فلقد كان لكل فصيل من المشاة مؤلف من ستة عشر رجلا عربية خاصة بالفصيل تحمل لجنوده القنوس والمجارف لأعمال الحفر ومطحنة لطحن القمح ، وغير ذلك من الادوات والمعدات . وتسير مع الجيش وحدة اسعاف تضم الاطباء والجراحين وحملة ناقلات الجرحى . وكان التدريب التعبوي والعسكري ينفذ بدقة ونظام ومثابرة . كما توافرت لطلبة العلوم العسكرية كتب عدة لدراسة الفنون الحربية .

وأمام هذا الجيش النظامي الرقيق التدريب . يقف العرب في جماعات من أبناء القبائل غير المدربين . فهم لا يعرفون شيئا عن التعبئة وفنون الحرب ، ولا عن النظام أو الكتب العسكرية . وليست لديهم ادارة ، أو رواتب أو أطباء . وكان سلاحهم أقل شأنا وأهمية من سلاح عدوهم ومع ذلك فانهم بعد مؤنة لم يخسروا أية معركة في حربهم مع الروم ، ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذي ألفوه واحتمالهم للمشاق واقتزارهم لاي تدريب منظم قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم . لكن الفضل الأول والآخر في انتصاراتهم يجب أن يعزى الى روحهم المعنوية العالية . فهم ناروي المزاج محاربون بطبيعتهم . وأدى تطلهم الى الشهادة طمعا في فراديس الجنان التي وعدوا بها ، الى أن يقاتلوا بحمية تفوق تماما ما كان لدى أعدائهم من الروم من تفوق في السلاح والانضباط .



والصور التي نقلها الرواة لنا عن الحرب بين العرب وجيوش الروم في سوريا متناقضة تمام التناقض . فنحن نعلم في مصادرنا على المؤرخين العرب . الذين كتبوا تاريخ هذه الحرب بعد أكثر من قرن من وقوعها . والذين على الرغم من تدوينهم لآحداثها ، كانوا - كما هو واضح - يجهلونها

(١) ايمان - فن الحرب في العصور الوسطى .

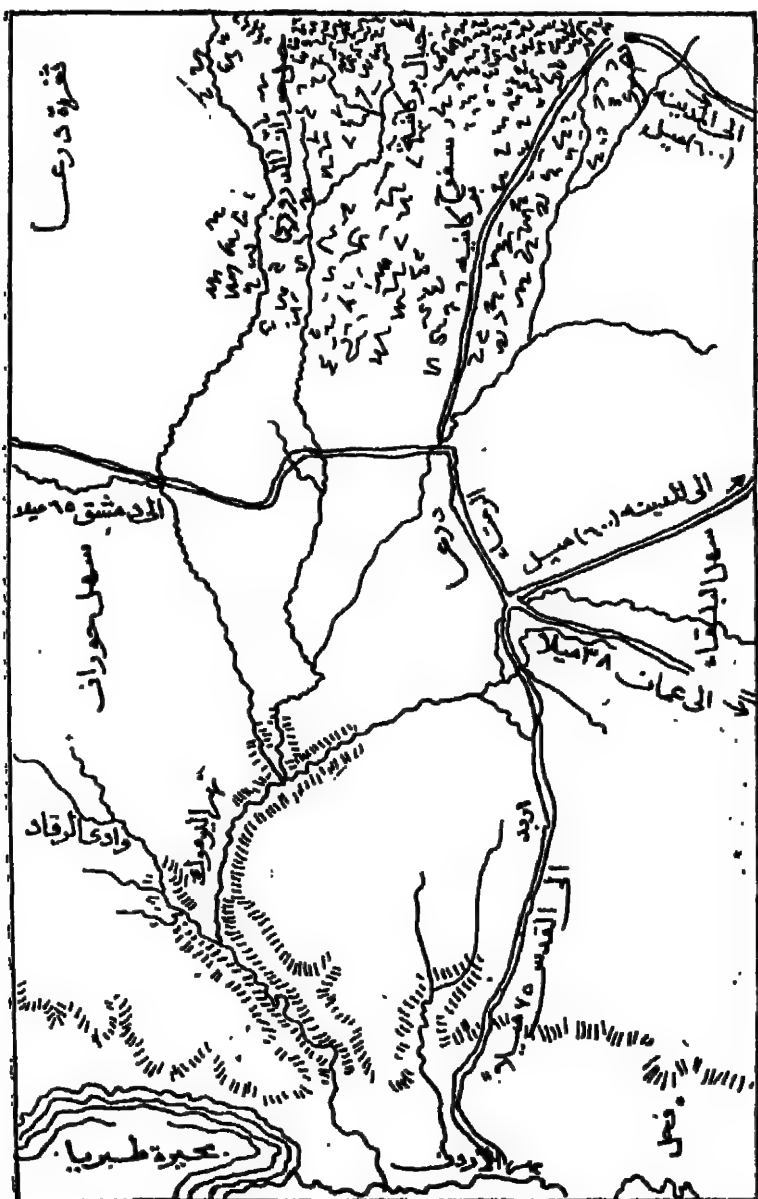
أو لا يبالون بها وبما دار فيها من عمليات حربية ولكننى تمكنت عن طريق الصدفة العارضة من اكتشاف ما يبدو لى اليوم بأنه مفتاح التفهم لحملة العرب على سوريا . وهو المضيق الضيق القائم بين نهر اليرموك وبين جبل الدروز عند بلدة درعا . وقد عثرت على هذا الاكتشاف على النحو التالى :

احتلت القوات البريطانية فى يوليو (تموز) عام ١٩٤١ كلا من سوريا والعراق ، وكانت القيادة البريطانية تخشى أن يقوم الجيش الالماني الذى احتل البلقان باجتياح تركيا للزحف منها جنوبا عبر سوريا وفلسطين الى مصر التى كان الجيش الالماني يهاجمها من ناحية الغرب من ليبيا . ولم تكن هناك تقريبا أية قوات فى سوريا وفلسطين . كما لم تكن هناك أية دبابات وأسلحة مضادة للدبابات وكان من الصعب وقف الالمان لو اجتاحوا تركيا بوحداتهم الصاعقة المدرعة ولهذا كان من المهم العثور على جميع المضائق الضيقة الموجودة حيث يمكن لقوات الدفاع أن تصمد أمام القوات الآلية المدرعة وأن توقف زحف الارتال الالمانية ، وقد عهد الى - تحقيقا لهذه الغاية - بالتحرى فى المنطقة المحيطة بدرعا (١) .

يعتبر نهر اليرموك المسيل المائى الذى يصرف مياه منطقة حوران . وقد قام هذا النهر مع ممر ألوف السنين بحفر أخدود عميق يسيل فيه ليصب فى وادى الاردن الذى ينخفض نحو من ثلاثة آلاف قدم عن سهل حوران . ويبدأ هذا الاخدود عند بلدة درعا . وتقوم الى الشرق والشمال الشرقى من هذه البلدة سلسلة ضخمة من الجبال التى ولدتها البراكين الخامدة التى تكتظ سفوحها بكتل ضخمة من السوائل البركانية المنصهرة . وتصعب الحركة فى بعض الجهات فى هذه المنطقة حتى على المشاة بينما يتعذر السير فيها على الجياد أو الابل أو العجلات مهما كان نوعها . وتهبط هذه النتوءات البركانية نحو السهل تدريجيا الى أن تصل تقريبا الى نقطة يصبح فيها نهر اليرموك ضيقا لا يصلح للمرور مطلقا .

(١) اعتراف واضح وصريح من جلوب . بأنه كان وهو يقود جيش الاردن الدولة المستقلة اسما - ينفذ لبريطانيا اهدافها وغاياتها العسكرية فى المنطقة . وقد فضح جلوب باعترافه هذا نفسه . كما فضح استقلال الاردن الزائف . واثبت ان الكيان الاردنى لم يتم الا لتنفيذ مخططات بريطانيا الاستعمارية وللحفاظ على مصالحها وخطتها السوتية. ولعل هذا الاعتراف نفسه يصلح دليلا على اثبات تهمة الخيانة فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . اذ أن جلوب هذا كان قائد الجيش الاردنى فى تلك الحرب . كما كان رئيس اركان القائد الاعلى للجيش العربية كلها وهو الملك عبد الله .

( العرب )





وعلى الرغم من ان الفجوة الصغيرة بين الارض البركانية وبين اليرموك كانت تعتبر فى عام ٦٣٤ ، وما زالت تعتبر حتى يومنا هذا ، الطريق الرئيسى بين دمشق وبين فلسطين وعمان وايلة ( العقبة ) . وقد أطلقنا فى عام ١٩٤٥ على هذا المضيق اسم «فجوة درعا» وقررنا أن نحفر فيها خنادق لمقاومة الدبابات وأن نقيم عليها مراكز محصنة للواء من المشاة لاغلاق الفجوة .

ويشكو جميع المؤرخين الاوربيين للفتح الاسلامى لسوريا من غموض الروايات العربية وافتقارها الى الدقة فهذه الروايات تذكر المرة تلو المرة ان جيش العرب والروم كانا متقابلين على نهر اليرموك ثم تعود هذه الروايات وتذكر انهما تفرقا عن المكان دون الوصول الى نتيجة ، فهل وقعت معارك عدة على هذا النهر ؟ ولماذا يتكرر ظهور هذا الاسم - اليرموك - فى الروايات ؟ ان الصورة الصحيحة لم تتضح امامى الا فجأة وبعد أن قمت باستطلاع هذه المنطقة لاغراض عسكرية . ولقد أدركت ان هذا المضيق على ما هو عليه من نفع فى صد أى هجوم المانى من الشمال ، صالح صلاحا أكبر وأكثر أهمية لصد أى هجوم قادم من الجنوب أيضا ، وفى وسعى أن أقول أن « فجوة درعا » تقوم أمام أى غزو من الجزيرة العربية مقام مضيق ترموبولى فى اليونان .

ولقد كان الالمان فى عام ١٩٤١ لا يقهرون فى أية حرب آلية صاعقة فهم يزجون فى الحرب بتيهور ضخم من المدرعات والسيارات المدرعة وغير المدرعة والمدافع الذاتية الدفع والتوجيه وفى وسع هذا التيهور أن يجتاح المناطق السهلة مكتسحا امامه كل مقاومة . وكانت الطريقة الوحيدة فى مقاومة هذا التيهور الآلى الهائل الصمود امامه فى منطقة ضيقة فى الجبال والمضائق والفجوات الضيقة حيث لا تستطيع القوات الآلية المرور الافرادى .

وكان المسلمون سريعى الحركة الى درجة هائلة وكان أسلوبهم المعنوى يتركز فى هجوم عنيف شرس وفى حركات تقدم وتراجع والتفاف تتم بسرعة مع قطع طرق المواصلات والتموين . ولم يكن فى وسع القوات البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة أن تصمد أمام هذه السرعة فى التحرك فى اراض فسيحة منبسطة ، لكن العرب لم يكونوا قادرين على خوض أية معركة للمشاة متقاربة الصفوف ، يدور فيها القتال بالحراوب . فلم يكن جنود المسلمين يملكون أسلحة دفاعية كافية أو دروعا وقائية ولم يكونوا ذوى خبرة فى حروب الصفوف المتقاربة والحسنة الانضباط . يضاف الى هذا افتقارهم الى أسلحة الاسناد الثقيلة . وكانت سحب النبال هى



نيران التغطية الوحيدة لديهم . ولعل هذا الوضع يفسر لنا اجتياحهم السهل لصحارى شرق الاردن وجنوب فلسطين وسهولها وخشيتهم من القتال عند الجبال والمضائق . وقد فزع البيزنطيون من حرب العرب الصاعقة فأقام جيشهم فى عام ٦٣٤ « كما أقام الجيش البريطانى فى عام ١٩٤١ » معسكرا دفاعيا متيعا على مقربة من درعا فى الثغرة الواقعة بين اليرموك والاراضى البركانية فكان العرب يقدمون على الاشتباك مع الروم أمام هذه المواقع الدفاعية ليعودوا ، فينسحبوا ، ولكن افتقارهم الى العلم العسكرى جعل من الصعب عليهم اقتحام هذه المواقع . ومن هنا يتبين ان عمليات خالد حول تدمر وقرب دمشق التى وصفتها فى الفصل السابق كانت تهدف الى اقناع الروم بالانسحاب من درعا لحماية مؤخرتهم وهو هدف لم يتحقق على أى حال .

وكان أبو بكر قد أوفد فى غضون ذلك الى سوريا أبا عبيدة بن الجراح أحد الصحابة الكبار . ولا يتحدث المؤرخون المسلمون عن مراكز القادة المسلمين المتعددين أو سلطاتهم . ولكن المفروض ان أبا بكر انتدب أبا عبيدة قائدا عاما على عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرجيل ابن حسنه . ولقد كان أبو عبيدة فى أواسط العمر رجلا هادئ الطباع مؤمنا واعيا شديد الايمان وكان قاضيا عدلا ومديرا منظما ولكنه لم يكن عسكريا عبقريا ولذا عندما وصل خالد الى المسرح لم يعترض أبو عبيدة على توليه المسؤولية والقيادة العامة (١) .

---

(١) تختلف روايات المؤرخين المسلمين عن رواية المؤلف تمام الاختلاف فأبو عبيدة لم يأت متأخرا كما قال المؤلف وإنما كان موجودا على رأس جيشه فى المنطقة ، ولم يمينه أبو بكر قائدا عاما وإنما كان قائدا على جيشه مثل القادة الثلاثة الآخر . وارى هنا ان انقل للقارىء رواية المؤرخين العرب كما ذكرها الطبرى ...

لما علم الروم بمسير المسلمين اليهم اهتم هرقل بالامر وكان فى حمص وعلم بتفرق جنود المسلمين على اربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لان العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف ما معه. ولما علم بذلك الرؤساء الاربعة تكاثبوا وكان من رأى عمرو بن العاص ان يجتمعوا اذ ان اجتماع المسلمين يمكنهم من الفوز وقال « أما اذا تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن منه لاحد ممن استقبلنا واستحسن القادة الثلاثة رايه فتواعدوا على اللقاء فى اليرموك ، وكتبوا الى أبى بكر فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وان كل رجل بأصحابه . وبلغ هرقل ذلك فكتب الى قواده ان اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا منزلا واسع المثل ، واسع الطرد ، ضيق المهرب وكان ذلك فى الواقصة وهو واد فى حوران على شفة اليرموك وجعلوا من الوادى خندقا لهم وقد افنتهم الجنود الاسلامية الى هناك فتزلوا بحداثهم على طريقهم وليس للروم طريق الا عليهم لقصاروا وكانهم محصورون . وظلوا على هذا الحال طيلة اشهر

ولم يكن خالد من طراز القادة الذين يخلدون الى السكينة والى محاصرة موقع الروم على نهر اليرموك ، ولذا فسرعان ما تحولت العملية الى حركة هجومية دائمة . وكان أول عمل قام به احتلال مدينة نصرى وهى احدى المدن الاغريقية العشر التى بناها الاسكندر المقدونى قبل نحو من عشر سنوات . وقد صالح أهل المدينة العرب على دفع الجزية .

وكان عمرو بن العاص لا يزال يواصل غزو سهول فلسطين الجنوبية وجمع الغنائم منها ، من القاعدة التى أقامها لنفسه فى وادى عربة . وكان راغباً عن المغامرة واقتحام جبال السامرة واليهودية والكرمل اذ أن العرب كما سبق لنا ان قلنا بارعون فى حروب الصحراء ليس الا .

وكان هرقل امبراطور بيزنطة مقيماً فى حمص ويشغل نفسه باعداد جيش جديد يبعث به الى جنوب فلسطين ويبدو من فكرة ارسال هذا الجيش ان هرقل كان على ثقة من جمود تحصينات اليرموك فى وجه العرب والا لما كان يغامر بارسال جيش الى ذلك المكان النسائى . وقد استعاد بعمله هذا زمام المبادرة وأرغم العرب على تعديل خططهم لمواجهة خطته .

---

= صفر وربيع لا يقدر من الروم على شيء والواقصة وراهم والخندق امامهم وكان المسلمون قد استمدوا ابا بكر فى شهر صفر فكتب الى خالد ليلحق بهم . وصادف قدوم خالد ان قدم مدد عظيم على الروم وبلغت عدتهم ٢٤٠ ألفا وجاء خالد فوجد المسلمين يتقاتلون متساندين اى ان كل امير يحرك جنوده مستقلاً عن غيره وقد علم ان الروم قد هزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الامراء وخطب فيهم قائلاً ان هذا اليوم من ايام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى اخلصوا جهادكم واريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوما على نظام ومعية ، وانتم على ثنائد وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان من ورائكم لو يعلم علمكم لحال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون انه الراى ، قالوا فهات فما الراى قال : ان ابا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى اننا ستسائر ولو علم الذى كان ويكون لكان قد جمعكم ، ان الذى ائتم فيه اشد على المسلمين مما قد فشيهم وانفج للمشركين من امدادهم ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالحل الله فقد افرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه ان دان لاحد من امراء الجنود ولا يزيده عليه ان دانوا له . ان تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله اعملوا فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خنادقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فعملوا فللتعاود الامارة فليكن عليها يومنا والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوى اليكم اليوم فأمروه .

( العرب )

ونقد سبق لى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب أن تحدثت عن حملات هرقل العسكرية ضد الفرس وسبق لى أن بينت أن هرقل وجد فى نفسه الشجاعة . وكان كسرى أبريز يحاصر عاصمته القسطنطينية ليفادر العاصمة عن طريق البحر الاسود لينزل قواته على بعد خمسمائة ميل الى الشرق ، ويزحف بها على أرمينيا . وانتصر هرقل على الفرس فى نينوى ثم أصبح فى وضع مكنه من الزحف على المدائن مرغما كسرى على رفع الحصار عن القسطنطينية والجلء عن أراضى الروم . ومن الواضح والحانة هذه ان خطة الصمود أمام العدو فى خط تقدمه الرئيسى ثم ارغامه على الانسحاب بحركة التفاضية واسعة تسهلها سيطرته على البحر كانت عملية سوقية يعرفها الامبراطور خير معرفة وقد شرع الآن فى تنفيذها من جديد .

اعتمد هرقل على تحصينات اليرموك لوقف الزحف العربى على دمشق ولا حظ أن عمرو بن العاص وحيد فى منطقة بئر السبع وراح يبعث بجيشه الرئيسى الى الجنوب نحو فلسطين عن طريق طبريا فالناصره قيسارية التى يستطيع ان يستعملها بعد الآن قاعدة أمامية . وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر وفى وسعهم تموين جيوشهم فى فلسطين من ميناء قيسارية أو من مينائى يافا وغزة فيما بعد وكان الهدف من العملية كلها الانتصار على عمرو بن العاص فى منطقة بئر السبع فى الوقت الذى تنشغل فيه قوات المسلمين الرئيسية فى اليرموك . واعتقد هرقل انه اذا حقق هذه الغاية فانه يصبح قادرا على الزحف الى ايلة ( العقبة ) ليهدد منها طريق مواصلات المسلمين مع مكة والمدينة مرغما بذلك قواتهم الرئيسية على التراجع عن اليرموك

وينظر معظم المؤرخين - على ضوء هزيمة الروم النهائية - الى هرقل على انه انسان احمق ضعيف يثير الدهشة لا سيما وقد اظهر جراءة وبسالة ضد الفرس فى الماضى . . وعجزا فاضحا أمام العرب فيما بعد . ولكن اذا صح تقديرى العسكرى للوضع فأننى أرى أن الامبراطور أراد أن يستعمل فى سوريا وفلسطين نفس الاساليب السوقية الجزئية التى مكنته من الانتصار على كسرى . وكان مفتاح الخطة كما هو واضح تحطيم جيش عمرو بن العاص عند بئر السبع قبل أن تصله النجيدات من جيش المسلمين الرئيسى عند اليرموك .

وكان لابد لانباء زحف جيش الروم فى سوريا الى فلسطين من أن تصل الى قادة العرب عند اليرموك . ووجد القادة أنفسهم فى وضع

غريب وحرج كل الحرج ، فلقد افترقت هذه الجيوش الاسلامية في بداية زحفها عن الرتل المتجه الى بئر السبع في الصحراء المحيطة بايلة . وراحت هذه الجيوش تزحف ، مدفوعة بغريزتها في الميل الى القتال في المناطق الصحراوية التي تألفها ، نحو الشمال ، الى بصرى ودرعا مخلفة وراها جبال موآب والبلقاء دون أن تمسها ، لتصبح الى الغرب من خط زحفها ولم تكن هذه الجبال صحراوية بل كانت اراضى مزروعة تنتشر فيها المدن والقرى وتؤلف حاجزا يفصل بين قوات عمرو بن العاص في بئر السبع وقوات خالد وابى عبيدة عند اليرموك وعندما وصلت الى مسامع القادة العرب انباء زحف الجيش البيزنطى جنوبا عبر طبرية وقيسارية كان الوقت قد فات على تمكينهم من الوصول الى عمرو بن العاص في الوقت المناسب عن طريق ايلة ولكنهم آمنوا انهم اذا لم يصلوا اليه بسرعة فان قواته ستتهار وتتحطم .

وتؤلف جبال شرق الاردن - وهى سلاسل عجلون والبلقاء والكرك حاجزا من الصخور لا يمكن اجتيازه . وليس فى هذه السلاسل الا ممر واحد يؤدى الى بئر السبع ويقع الى الجنوب من البحر الميت وتمر هذه الطريق عبر جبال الكرك ( موآب ) ثم تلتف حول السواحل الجنوبية للبحر الميت لتعود فترتفع عن طريق عين الحصب لتصل الى بئر السبع . أما الى الشمال من هذا الممر فان جبال شرق الاردن تنحدر تماما وبصورة مفاجئة عميقة الى البحر الميت . ولالى الجنوب من هذا الممر تعود الجبال الى الارتفاع العمودى بحيث يضطر الفرسان اوراكبو الابل الى التبرجل عن جيادهم أو رواحلهم ليتجنبوا خطر الهاويات العميقة ولم يكن فى وسع العرب ان يعبروا نهر الاردن الى الشمال من البحر الميت اذ ان الروم كانوا لا يزالون يحتلون القدس وجبالها ( جبال اليهودية ) .

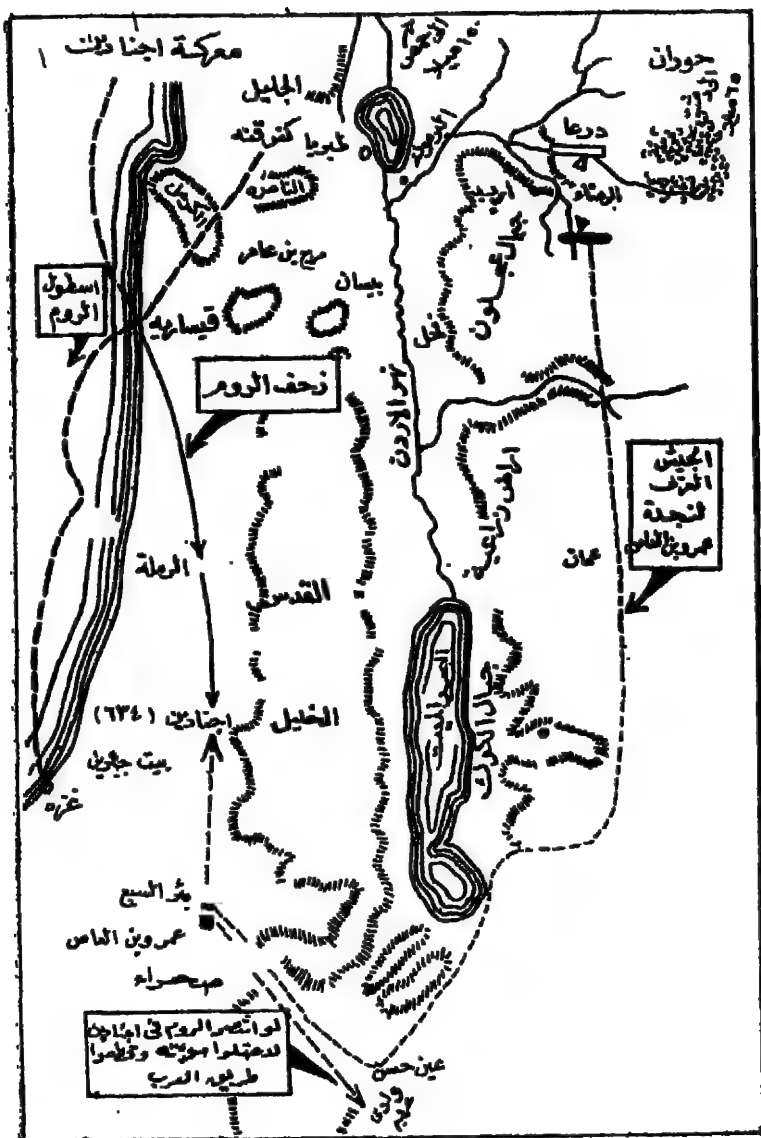
ولم يكن ثمة وقت يضاع قبل نجدة عمرو بن العاص وانقاذه . واختفى العرب فجأة من موقع اليرموك وراحوا يسرون ليلا ونهارا باتجاه الممر المشار اليه ووجد اهل الكرك ( موآب ) انفسهم فجأة يواجهون عاصفة قوية من راكبي الابل فراخوا يعقدون الصلح معهم ويفتحون لهم طريق المضيق . وكان يقيم فى بلدة الكرك وقراها اقوام هم من انصاف العرب يدينون بالسيحية للنسطورية . وعلى عدااء مستحكم مع الكنيستين الارثوذكسية والروميسة الكاثوليكية . وتدفق المسلمون عبر المضيق وغبر وادى عربة ليعودوا فيرتقوا صعدا الى سهل بئر السبع شسبه الصحراوى فى الوقت نفسه الذى كان جيش الروم

فيه يزحف جنوبا من قيسارية . وهكذا كسب البدو السريعو الحركة على ابلهم بتعودهم على شظف العيش والرحيل ليلا ونهارا معتمدين فى غذائهم على قصعة من الحبز ، السباق مع الجيش الرومانى البليد المترهل الذى يثقل سيره بما يحمله من معدات الحضارة وأدواتها . ووقعت معركة عظيمة فى شهر يوليو ( تموز ) من عام ٦٣٤ فى اجنادين التى تقع بين الرملة وبين بيت جبرين ومنى الروم بهزيمة كاملة . وكان خالد بن الوليد قائد هذه المعركة التى استشهد فيها عكرمة بن أبى جهل قائد المسلمين فى حروب الردة فى عمان وحضرموت .

وهكذا طاش سهم هرقل فى معركة اجنادين وتحطمت خطته السوقية لشن الهجوم المضاد وعادت قوات المسلمين الرئيسية الى اليرموك حيث كانت حصون الروم الدفاعية تقف سدا امام الزحف العربى على دمشق . وترك العرب مؤقتا المناطق الجبلية فى شمال فلسطين وشرقها دون ان يمسوها جريا على ما افوه من اثار الحرب فى الصحراء أو فى السهول المكشوفة على الاقل ، يضاف الى هذا ان جيش الروم على اليرموك كان القوة المعادية الوحيدة التى مازالت فى الميدان . ولو تمكن العرب من هزم هذا الجيش فان المدن المحصنة ذات الاسوار يمكن ان تصفى على مهل . وعادت القوات العربية مرة ثانية فى شهر اقسطس ( آب ) عام ٦٣٤ الى مواجهة حصون البيزنطيين عند ثغرة درعا .



أرى لزاما علينا على أى حال أن نترك الجبهة السورية بعض الوقت لندرس ما وقع من تطورات فى العراق . ولعلنا نذكر أن خالدا عبر بادية الشام فى ديسمبر ( كانون الاول ) عام ٦٣٣ أو فى يناير ( كانون الثانى ) عام ٦٣٤ على رأس نصف الجيش الاسلامى من العراق لنجدة قوات المسلمين فى الشام وكان المثنى بن حارثة شيبخ بنى شيبان قد تولى قيادة المسلمين بعد رحيل خالد عن العراق ويبدو ان المسلمين فى المدينة لم يكونوا يعلقون كبير اهمية على جبهة الفرس وهذا يظهر من صدور الأمر بسير نصف قواتهم فيها الى سوريا ، ويعهد بقيادة من تبقى الى شيبخ بدوى . فلقد كانت قريش مصرّة حتى ذلك التاريخ على احتكار السلاطة كلها وحصر القيادات العليا فى رجالاتها . وحتى فى حالة تعيين احد المهاجرين أو الانصار لهذه القيادات فان هذا المعين يكون حضريا من أهل مكة أو المدينة ولا ريب فى أن العصبية التى





تفصل اليوم بين البدو والحضر كانت موجودة وقوية قبل ألف وثلاثمائة عام . ولم يكن المثنى قرشيا أو حضريا بل كان بدويا من بنى بكر ومن هنا كان لابد وان يكون المنصب الذى سمح له بالاحتفاظ به منصبا ثانويا لا أهمية له (١) .

ومهما كان الأصل الذى ينتمى اليه هذا القائد فلقد كان رجلا . فذ الشجاعة ، شديد الاخلاص ، والولاء ، على استعداد لمقابلة الشاهنشاه . وجها لوجه بحفنة من رجاله البدو . ولم يكن قد انقضى على تبوء الملك الفتى ( يزدرج ) عرش الاكاسرة الا فترة قصيرة وراح يعد العدة ليمجد ارتقائه العرش باخراج هؤلاء الغزاة من أبناء الصحراء . وقرر المثنى ان يخوض المعركة عند خرائب بابل القديمة حيث وقف مع رجاله ينتظرون هجوم الفرس الذين يقودهم أحد الفيلة . ولم يكن العرب قد الفوا بعد طريقة معالجة هذا الطراز المبكر من هجمات « الدبابات » . وسرعان ما أوقع الفيل بعض الاضطراب فى البداية فى صفوف العرب . وكانت عادة العرب فى هذه المعارك الاولى ان ينشد قائدهم المجد لنفسه . بتولى زمام المبادرة فى البراز وتحدى قائد الاعداء الى مبارزة فردية . ليضرب مثلا فى البسالة لرجاله . وراح المثنى يصحبه بعض رجاله يهاجم الفيل فأوقعه أرضا وعندما فقد الفرس عون فيلهم انهزموا . وانتصر العرب فى المعركة .

ولا يمكن تفسير ما تميزت به حركات الفرس من بطء وتذبذب فى وجه هذه القوة الصغيرة من البدو التى يقودها المثنى الا بالفوضى التى كانت قد ضربت اطنابها فى امبراطوريتهم فى غضون السنوات الخمس الأخيرة .

وهكذا احتفظ المثنى ورجاله بعد معركة بابل (٢) بمدينة الحيرة . وبكلتا ضفتى الفرات من الانبار حتى رأس خليج البصرة وأحس المثنى .

---

(١) سبق لى ان بينت فى هامش سابق خطأ هذا الراى الذى جاء به المؤلف . وقلت ان الاسلام لم يفرق بين شخص وآخر الا بالتقوى ، اما اذا كانت القيادات فى مطلع العهد الاسلامى من نصيب قريش او الانتصار فان السبب فى ذلك راجع الى أن الخليفة كان لا يزال يعتمد على رجاله من صحابة رسول الله ، لاسيما وان حروب الردة اثبتت انه لا يمكن الركون الى القبائل البعيدة .

( العرب )

(١) يطلق العرب على المعركة اسم موقعة الجسر .

( العرب )

بالقلق فقد أدرك أن الفرس لابد وأن يبعثوا اليه بقوة كبيرة اذ أن حروبهم الأهلية كانت قد انتهت ، فصحيح أن ( يزدرج ) كان لا يزال فتيا الا أنه لم يلق معارضة في حكمه وكان الامراء والقادة يبذلون كل ما لديهم من جهود لاعادة تنظيم الدولة والجيش .

ولا ريب في أن المثني بوصفه رئيسا من رؤساء بكر كان على علم تام بأوضاع الحكومة الفارسية يضاف الى هذا أن المدائن عاصمة الأكاسرة لم تكن لتبعد الا ثمانين ميلا عن مقر قيادته في الحيرة . ومن المفروض أنه كان على علم بأن الفرس لن يكملوا استعداداتهم لحربه قبل انقضاء بضعة أسابيع ولذا فقد حزم أمره على انتهاز فرصة الهدوء الذي سيسود الجبهة في هذه الفترة ، وأسرع الى المدينة ليقابل الخليفة شخصيا محتجا اليه على ما يبدية من عدم اكتراث بجبهة الفرس . وقرر أن يلج على الخليفة بوجوب ارسال قوات كافية لنجدة قواته .



كان أبو بكر يصغر النبي بثلاث سنوات . ولذا كان في التاسعة والخمسين أو الستين من عمره عندما ولى الخلافة . وقد انقضى العام الأول من خلافته في حروب الردة واخماد العصيان في الجزيرة العربية . ولقد رأينا فيما سلف كيف أن الخليفة نفسه قاد أهل المدينة لمحاربة القبائل الثائرة في ذى القصة . أما في السنة الثانية من خلافته فقد اجتاحت تيار الحرب فارس وسوريا . وتمكن أبو بكر من قيادة موسم الحج بنفسه . وتذكر أبو بكر أن صديقه ونبيه محمدا كان قد قاد موسم الحج قبل غامين فكانت حجة الوداع ودمعت عينا أبي بكر الوفي وجلس الخليفة في صحن الكعبة « كما جرت العادة منذ أيام الجاهلية حتى اليوم » . وراح يسأل الحبيج عما اذا كان لدى أحدهم مظلمة يود أن يرفعها اليه ليعيد اليه حقه . وتؤكد الروايات : أن أيا من الحجاج لم يتقدم بمظلمة .

وعاد الخليفة الى المدينة وأخذ يصرف وقته بإرسال النجادات الى سوريا حيث كان الجيش الاسلامي عاجزا عن تخطي حصون الروم في اليرموك . وأصيب الخليفة بالحمى في شهر أغسطس ( آب ) عام ٦٣٤ بعد أن استحم في يوم قر وأخذت حرارته في الارتفاع مما أرغمه على إبقاء عمر بن الخطاب ليصلي بالمسلمين نيابة عنه ووصلت اليه وهو في مرضه أنباء انتصار العرب في معركة أجنادين مما يشير الى أن المعركة وقعت في يولية ( تموز ) عام ٦٣٤ .

وظل الضعف يشتد يوما بعد يوم بالخليفة الى أن أدرك بعد انقضاء عشرة أيام أو اثني عشر يوما اقتراب أجله ، وعادت به الذاكرة الى الفوضى التي كادت تضرب أطنابها بعد وفاة النبي فقرر أن يختار للمسلمين خليفة ، وراح يدعو عبد الرحمن بن عوف أولا ليتبعه بعثمان بن عفان فطلحة بن عبيد الله فغيرهم من المهاجرين والانصار وكلهم من صحابة رسول الله ليستشيرهم في خليفته . ولما وجد أن غالبية الصحابة تؤيد اختيار عمر بن الخطاب مع خشية بعضهم من شدته وحدة مزاجه راح يملئ على عثمان بن عفان أمره باستخلاف عمر ، وأوعز بعد ذلك بأن يقرأ أمره على المسلمين المجتمعين في المسجد ، اذ كان أبو بكر يقيم في منزل صغير كمنزل النبي يطل على صحن المسجد ثم أشرف على الناس تمسكه زوجته وراح يقول بصوت جمع فيه كل ما تبقى من قوة . . انه اختار عمر بن الخطاب لخلافته لانه يراه أجدر الناس بها وطلب اليهم أن يسمعوا اليه ويطيعوا فرد الناس بصوت واحد « سمعنا وأطعنا » .

وعندما شعر أبو بكر بنهيته قال : أى يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين وهو اليوم الذى توفي فيه النبي فقال : فان مت من ليلتي فلا تنتظروا بى لغد ، فان أحب الأيام والليالي الى أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد وصل المثنى بن حارثة الى المدينة وقابل أبا بكر وهو يحضر يسأله ارسال النجدة الى جبهة الفرس وراح الخليفة المحضر يأمر عمر ابن الخطاب بانتداب الناس لنجدة المثنى وقواته فى العراق ثم راح يوصيه بالتخفيف من شدته وحدته . وان يعتمد الاقتناع واللين سبيلا له . وسرعان ما انتقل الى الرفيق الأعلى ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتمم بصلاته الأخيرة وكان ذلك فى الثالث والعشرين من أغسطس ( آب ) عام ٦٣٤ .

ولقد قيل ان حياة أبى بكر وسلوكه كانا من أقوى الأدلة على صدق دعوة النبي واخلاصه فلقد كان أبو بكر من أوائل الصحابة وكان رفيق النبي فى هجرته من مكة وأقرب الصحابة الى قلبه ولقد كان الخليفة الاول رجلا بسيط الشخصية عميق الايمان والاخلاص . وقد سار على سنة النبي ولم تؤثر على سبيله فى الحياة الانتصارات العظيمة التى تحققت فى عهده ولا الثروات الطائلة التى تدفقت على المسلمين من جراء هذه الانتصارات . ولقد ظل يعيش فى بيت بسيط قريب الى ما نسميه نحن بالكوخ مبنى من الطين المجفف واللبن وتغطي سقفه غصون الاشجار ولقد



ظل رغم أنه الحاكم في امبراطورية آخذة في الاتساع السريع يرتدى ملابس بسيطة قوامها قميص من القطن وعباءة خشنة هي عين ما كان يرتديه قبل خمسة عشر عاما عند ما كان مواطنا عاديا في مكة ، وكان يواصل حلب الشياح لأسرته الصغيرة حتى عندما كانت جيوشه تجتاح فيالق القياصرة وجيوش الاكاسرة .

ولقد ظلت الانظمة المالية للامبراطورية الجديدة في عهده هي انبساطة بعينها . فلقد كان خمس الغنائم يصل الى المدينة من جبهات القتال حيث يقوم الخليفة بتوزيعه فور وصوله ، وكان يلجأ في بعض الأحيان الى ابتياع السلاح والخيول والدروع لجنوده من بعض الفئء أما ما يتبقى فيوزعه على المحتاجين من المسلمين ولم تكن هناك حسابات منظمة ، أما ما يصيب بيت المال من فراغ فيعالج فوراً بما يصل اليه من غنائم جديدة حققتها الانتصارات الباهرة .

ولقد جرت سنة رسول الله على عدم الاحتفاظ بشيء من متاع الدنيا لاستعماله الخاص . وعلى الرغم من تدفق مبالغ كبيرة من المال الى يديه على شكل الفئء أو خمس الغنائم - فان هذا الفئء كان يوزع على الفقراء والمحتاجين وأرامل الشهداء . ولقد سار أبو بكر في كل هذه الأمور كما في غيرها على سنة الرسول مطبقا اياها بجميع حذافيرها وتفصيلها .



ولا ريب في أن أنباء معركة أجنادين وصلت الى جبهة اليرموك فرفعت من معنويات العرب فيها بينما أصابت الروم بما يشبه الذهول ، ومهما كان السبب فان القتال ما لبث أن اشتد في ثغرة درعا وتمكن المسلمون أخيرا في نهاية شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٤ من احتلال المواقع وارغام جيش الروم على الانسحاب منها . وهكذا بات باب سوريا مفتوحا على مصراعيه أمام جيوش المسلمين وكان خالد بن الوليد هو القائد العام في هذه العمليات كلها . وتلقى أبو عبيدة ، والمركة في ذروتها ، اذ أنها استمرت عدة أيام ، رسالة من المدينة تنبئه بوفاة أبي بكر وبثولي عمر ابن الخطاب الخلافة بعده وحمل نفس الرسول رسالة أخرى من عمر ثقل خالد من قيادة الجيش وتبين أبا عبيدة مكانه ، ولكن لما كانت المركة في أوجها ، فقد آثر أبو عبيدة اخفاء الرسالة الى أن أكمل خالد النصر العظيم الذي كان قد بدأه .

فلقد كان هناك شيء من النفور الشخصي يقوم منذ أمد بعيد بين

الخليفة الجديد وبين خالد بن الوليد ، ولا ريب في أن القارىء يذكر ان عمر كان قد نصح أبا بكر بعزل خالد من القيادة اثر قتله مالك بن نويرة في حروب الردة . ولكن أبا بكر رفض مشورة عمر وقبل من خالد تبريره لذلك العمل . وقد أدى هذا الحادث وبعض الحوادث المماثلة الى زيادة النفور بين الرجلين مما حمل الخليفة الجديد على أن يكون عزل خالد وهو أكثر القادة نجاحا من قيادته من أول الاعمال التي قام بها . ومن السهل على من يقرأ هذا أن يتهم الخليفة الجديد بالحقْد الشخصي المجرد ، ولكن سلوكه طيلة السنوات العشر التي قضاها في الخلافة دلل تمام التدليل على أنه كان رجلا شديد الايمان والورع جم التواضع عميق الصلوق والاخلاص ، ولقد كان خالد قائدا عظيما وذا كفاية وجراً قادرا على تسلم زمام المبادرة في كل حين ، وعلى احتمال المسؤولية ، ولكن قيل عنه ان الاسلام لم يكن عميقا في نفسه ، ويقال انه حصل من النبي قبل وفاته على خصلة من شعره وضعها في غطاء رأسه ، وكان يعزو نجاحه من جميع المعارك التي خاضها الى هذه الرقبة . وقد يكون هذا العمل منه ايمانا بالخرافات أكثر منه بالدين ولكنه يظهر على أي حال ايمانا عميقا ومخلصا للرسول .

وعلينا أن نذكر على أي حال ان النبي وأقرب صحابته اليه كانوا يعتمدون في الوصول الى النصر على المعونة الالهية أكثر من اعتمادهم على البراعة البشرية ، ومن المحتمل أن يكون الخليفة بإيمانه البسيط غير المعقد قد اعتقد بأن النصر أكثر ضمانا على يد قائد مثل أبي عبيدة ، وان لم تكن كفايته العسكرية بارزة ، منه على يد عسكري بارز كخالد بن الوليد يفتقر الى التقى والورع مما لا يجعله موضع عناية الله ورعايته (١) .

(١) لا أدري كيف يسمح مؤلف لنفسه بأن يهبط الى هذا المستوى من الموضوعية كمؤلفنا جلوب . فلقد ركز كل تفكيره على محاولة النيل من خالد ومن صدق اسلامه وطعن ايمانه دون أي مبرر أو سند تاريخي . سوى تأخره في الاسلام وحادثته مع مالك ابن نويرة . وقد سبق لنا ان بينا ان لخالد عذره حتى من الناحية الدينية في قتل مالك لانه مرتد ولانه نقض عهد الله ورسوله وصي وهو الحاكم المعين من النبي ، أمر خليفته كما ان التأخر في الاسلام لا يمكن ان يكون مبررا للطعن في ايمانه ، فلقد تأخر عمر ابن الخطاب نفسه عن الاسلام ولكنه كان من اصدق صحابة الرسول بعد اسلامه وتأخر غيره كثيرون ثم صدقوا اسلامهم وابلوا في سبيل الله بلاه حسنا كأبي محجن الثقفي وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما من ابطال الحرب الذين قدموا ارواحهم في خدمة الاسلام وهذا هو مثال التضحية .

يضاف الى هذا ان النبي أسمى خالدا بسيف الله ولم يكن ليطلق عليه هذا الاسم لولا لفته بإيمانه . وعندما عزل خالد من قيادة الجيش قال : الحمد لله الذي =

والغيرة الشخصية تقيصة من أشد النقائص وأقواها في الخلق العربي (١) وكان من المنتظر من شخص عنيد وصلب كخالد أن ينسحب حاقدا مغيظا من الجيش والحياة العامة لهذا العزل الذي كوفى به على انتصاراته العظيمة الرائعة ، لكن شيئا من هذا لم يحدث مطلقا فلقد أسلم خالد القيادة عن رضى الى أبى عبيدة الدعث التقي ، وقنع بالعمل تحت لوائه ويبدو أن هذين الرجلين قد توصلا على الرغم مما بينهما من خلاف فى الشخصية الى شىء من التفاهم الشخصى الوثيق . ولايتحدث المؤرخون عن وقوع أى احتكاك نابع عن الغيرة بينهما . وليس ثمة من ريب فى أن أبا عبيدة المتواضع السمع كان على استعداد لتقبل نصيحة مساعده الجبار القوى فى كافة الشئون العسكرية ، كما ان الانتصارات المذهلة التى حققها خالد للقضية العربية لا بد وأن تكون قد كسبت له اجماع المسلمين على احترامه واجلاله حتى ولو لم يعد قائدهم العسكرى بصورة رسمية .

= قضي على أبى بكر بالوت وكان أحب الى من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان ابغض الى من أبى بكر ثم الزمنى حبه ، وفي هذا القول مثل سام من أمثلة الايمان والارتفاع عن الانتهاز والحزازات والاحقاد . وقد أثبت خالد ايمانه فعلا فظل يحارب طيلة فتوح سوريا تحت امرة أبى عبيدة كجندى بسيط من جنود المسلمين ويبلى في كل معركة بلاء حسنا متفانيا في ايمانه الى أن توفاه الله فى حمص وقال قبل ولاته قولته المشهورة التى تشير الى الايمان العميق وحب الاستشهاد في سبيل الله .

ويبدو ان المؤلف لم يستطع أن يفهم أو لم يرد أن يفهم ان ما كان بين عمر وخالد لم يكن خلافا شخصيا نابعا من حزازات أو احقاد وانما كان خلافا بين عظيمين ومؤمنين صادقين في الرأى سواء في الخطة العسكرية أو في معاملة المشركين بعد اخضاعهم، لكن المؤلف سار في محاولته استغلال حادث مول خالد على غرار ما فعله بعض المؤرخين الشعبويين من المسلمين الذين رأوا فى الحادث وسيلة للنيل من عمر وخالد فى وقت واحد .

( العرب )

(١) جعل المؤلف من نفسه هنا محلا نفسيا يطلق الاحكام العامة على أمة بأسرها ولا ريب فى أن السنوات التى قضاها مع العرب فى خدمة امبراطوريته واستعمارها فى الوطن العربى ، قد أضفت عليه صفة القروى المطلق التى حملته على اصدار مثل هذا الحكم العام دون أن يقيم الأدلة عليه ، أو يثبت صحته .

والقول بأن هذا الشعب يتصف بهذه الصفة العامة أو تلك فكرة عنصرية نابذة عن الايمان بالتمييز المنصرى على أساس الطبائع والصفات فهى والحالة هذه تتنافى مع العلم المجرد ومع النظر الى الانسان كائنات دون تمييز يقوم على العنصرية .

فالغيرة الشخصية غريزة بشرية تقوى عند بعض الناس كأفراد لا كشعوب وتتحول الى انتهاز وإثارة وعمل للمصلحة الذاتية وتضعف عند البعض الآخر كأفراد أيضا فتتحول الى ايثار وتضحية وتكران للذات . ومن هنا كان خطأ المؤلف في تعبيره وجاء سلوك خالد بعد موله وهو الذى أوردته بعد حكمه مناقضا لرأيه تمام المناقضة .

( العرب )

## تواريخ مشهورة

معركة بابل في العراق	ربيع عام ٦٣٤
معركة اجنادين في فلسطين	بوليو (تموز) عام ٦٣٤
وفاة أبي بكر	٢٣ أغسطس (آب) عام ٦٣٤
معركة اليرموك الاولى	نهاية أغسطس أو أوائل سبتمبر (أيلول) ٦٣٤

## شخصيات مشهورة

القائد العام الجديد في سوريا	أبو عبيدة
الخليفة الثاني للمسلمين	عمر بن الخطاب
قائد المسلمين في العراق	المتنى بن حارثة
قادة انجيوش الاسلامية في فلسطين وسوريا	عمرو بن العاص يزيد بن أبي صفيان شرحبيل بن حسنه
عزله عمر عن القيادة العامة	خالد بن الوليد
كسرى الفرس الجديد	يزدجرد





# المعركة تتأرجح

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا  
شيئنا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئنا وهو شر  
لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

القرآن الكريم - سورة البقرة

\*\*\*

« قد لا يكون من المهم من يتولى قيادتنا العامة ، اذا  
كان الله هو قائدنا »

أو ثيفر كرومويل

\*\*\*



بدا الخليفة الجديد مختلفا في نواح عدة ، اختلافا كبيرا عن سلفه فلقد كان أبو بكر رجلا نحىلا ، ضعيف البنية ؛ شاحب الوجه في شيخوخته وذا مزاج وادع ومتسامح . أما عمر فكان طويل القامة ، فارع العود ، حتى انه كان كما يقول كاتب عربى يرتفع بهامته فوق الناس وكأنه يمتطى جوادا . وكان ذا مزاج حاد ، ميالا الى الاغراق في الحديث والعنف والاحتدام فيه ، و أكثر تعلقا بالصرامة منه باللين . ومع ذلك كان فى وسع أبى بكر الوادع الدمث ، أن يعرض وقت الازمات صلابه وحيوية دينامية دافقة . كما كان عمر الحاد المزاج . يعرض فى بعض الحالات وبنفس الطريقة لينا يفوق لين أبى بكر الهادى الوديع . وكان الرجلان متفقين فى خصلة واحدة على الأقل . وهى تصميمهما المطلق على اتباع سنة الرسول فى كل تفصيل من تفاصيلها . وقد حملهما هذا التصميم على التواضع . اذ انهما لم يكونا يبحثان عن نفعهما الخاص أو عن أمجادهما الخاصة . وأظهر الرجلان تلك البساطة الشفافة التى تميز دائما الرجال المخلصين لدينهم . ولقد روى عن النبى انه قال عن عمر « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وعلى الرغم من أن الخليفتين الاولين كانا يحتلان سلطانا لا يقل عن سلطان الابطرة الا انهما ظلّا فقيرين ، يلبسان ثيابا بسيطة عادية ويعيشان فى بيتهما حياة الفلاحين الفقراء . ويرى عن عمر نفسه انه لم يسمح لنفسه الا بارتداء لباسين أحدهما للشتاء والآخر للصيف . ولا يأخذ من المال الا ما يمكنه من اداء فريضة الحج . وكان طعامه وطعام أسرته لا يعدو أن يكون طعام أى رجل عادى من قريش ليس من أغناهم ولا من أفقرهم . وكان يتوقع من مساعديه أن يسبوا على منواله فى خشونة العيش وشظفه . وكان عندما يعين حاكما لمقاطعة تم احتلالها ، يحرص أشد الحرص على تحذيره من عدم الركون الى رغد العيش ولينه فى الماكل أو فى اللبس ومن اغلاق بابه فى وجه الفقراء والمساكين . وعد بعض الشهود عدد الرقع فى ملابس الخليفة ويقولون انه لم يكن يصطحب خيمة معه عندما يعتزم القيام بأى سفر ، بل كان يكتفى بالقاء عباءته على شجرة صغيرة لينام فى ظلها . ومازال البدو يفعلون ذلك حتى يومنا هذا . وكثيرا ما عملت الشئ نفسه وأنا ارتحل فى صحبتهم .

سبق لى أن رويت فى الفصل السابق ، ان المسلمين كانوا فى مطلع سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ قد اجتاحوا حصون الروم فى اليرموك . وتقدموا الى منطقة حوران التى لم يسبق لعملياتهم الحربية أن وصلت اليها والواقعة الى الجنوب من دمشق .

وعندما زحف جيش الروم الى سهول فلسطين الجنوبية ، ليمنى بأشنع هزيمة فى تاريخه فى أجنادين كان قد سلك فى زحفه الطريق من بعلبك الى طبريا عابرا التلال المنخفضة المطلة على بحيرة الحولة . والتى القى عليها السيد المسيح موعظة انجيل المعروفة .

ومن المحتمل أن يكون جيش الروم قد شرع فى ارتقاء الطريق الصاعد من طبريا الى الناصرة عن طريق كفركنه ، حيث أحال المسيح الماء الى خمر ، ومن الناصرة الى قيسارية عن طريق مروج ابن عامر . وكان هذا الطريق محميا من أى خطر عربى ، لاسيما وقد عرفنا ان العرب كانوا يرابطون عند درعا فى قلعتى فحل وبيسان . وكانت مدينة طبريا نفسها من المدن المحصنة . أما فحل فكانت مركزا من المراكز المهمة كل الاهمية اذ كانت إحدى المدن العشر التى بناها الاسكندر المقدونى والتى يقع عدد منها فى هذه المنطقة بنيتها قدس التى ورد ذكرها فى التوراة وبصرى التى رأينا المسلمين يفرضون الجزية عليها وفيلاذلفيا التى أصبحت الآن عمسان . وجيراسة التى أصبح اسمها الآن جرش . وكانت الطرق المهمة تمر فى القرن السابع فى هذه المنطقة . كما كانت تمر بها فى أيام الاسكندر أى قبل نحو من ألف عام . وكان من أهمهم بالنسبة الى الرومان أن يدافعوا عن هذه الطرق ضد غزاة الصحراء . وكانت الطريق الحربية الرئيسية من الشمال الى فلسطين تمر من دمشق الى درعا فالربض وبيسان . وكانت حصون اليرموك تغلقها فى وجه أى عدو . ومن هنا وجد الدافع فى أن يبعث هرقل بقواته عن طريق طبريا والناصرة الى أجنادين .

ويذكر القارىء ان القوات العربية الرئيسية سارعت بالعودة بعد معركة أجنادين الى اليرموك . بينما ظل عمرو بن العاص على رأس قواته فى بئر انسبع . ومن المحتمل أن تكون فالول جيش الروم قد انسحبت بعد هزيمة أجنادين الى القدس وقيسارية حيث ذهب شطر منها الى فحل . لتهديد مواصلات الجيش العربى المتحرك الآن باتجاه الشمال الى دمشق . ويبدو أن قادة المسلمين قرروا الاستيلاء على فحل لحماية مواصلاتهم . وتتضمن الروايات العربية بعض الاشارات انغماضة الى الفيضانات التى أحدثها الروم عند فحل لعرقلة الزحف العربى عن طريقها . ويكفى أنه

نقول الآن ان أبا عبيدة زحف في يناير (كانون الثاني) أو فبراير (شباط) من عام ٦٣٥ ، على فحل . فهزم القوة الرومانية في خارجها ، والمعتقد أن الهزيمة تمت في وادي الاردن الذي تغمره الفيضانات وفرض الحصار على البلدة نفسها . وطلب أهلها التفاوض على الاستسلام في النهاية ووافقوا على أن يدفعوا الجزية عن رموسهم والخراج عن أرضهم الى المسلمين . وأمنهم أبو عبيدة مقابل ذلك على أنفسهم وأموالهم وأمر بالآ تهدم مساكنهم وحيطانهم (١) .

ولما تأكد العرب من سلامة طريق مواصلاتهم تقدموا شمالا الى دمشق وبذل الجيش الروماني آخر محاولة لانقاذ المدينة . فوقف أمام العرب في معركة مرج الصفر التي يعتقد انها وقعت على بعد عشرين ميلا الى الجنوب من دمشق .

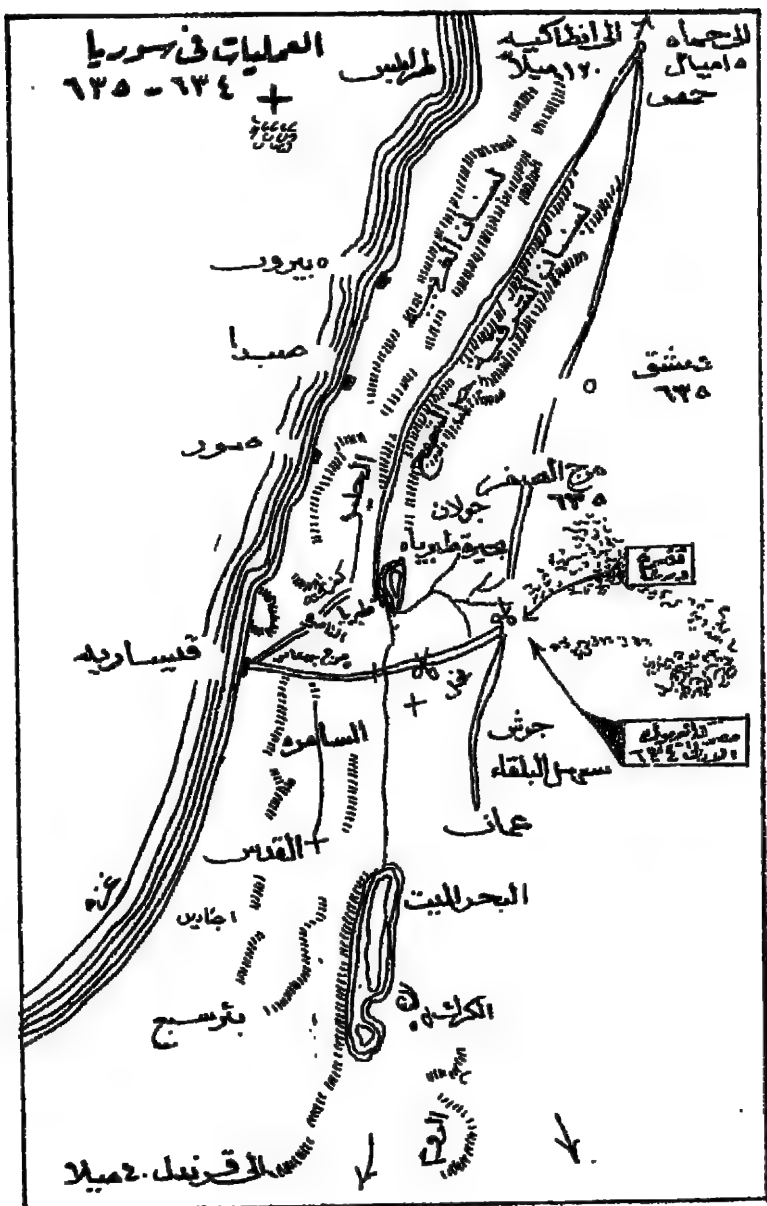
ولقد خاض فرنسيو فيشى في عام ١٩٤١ ، معركة في المكان نفسه تقريبا كمحاولة منهم لانقاذ دمشق عندما غزا الجيش البريطاني سوريا عبر ثغرة درعا . وفي هذا المكان مواقع استراتيجية تصلح للدفاع (٢) . وقد دارت معركة مرج الصفر في شهر فبراير (شباط) عام ٦٣٥ . وانتصر العرب من جديد ، وانسحب الجيش البيزنطي بعد معركة كلفته الكثير من الخسائر وخاضها الروم ببسالة ، وهكذا وصل (٣) العرب الى أسوار دمشق في أواسط مارس ( آذار ) عام ٦٣٥ .

يذكر القاري أن ارتال المسلمين التي بعث بها أبو بكر الى سوريا كانت بقيادة عمرو بن العاص وشرجيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وعندما جاء خالد من العراق تولى القيادة العامة التي أسلمها بعد تولى عمر ابن الخطاب الخلافة الى أبي عبيدة . وقد احتفظ خالد بقيادة القوة التي جاء بها من العراق . وهكذا أصبحت جيوش العرب في سوريا مقسمة الى أربعة أرتال متفرقة بقيادة عليا واحدة ، هي قيادة أبي عبيدة .

---

(١) تقول روايات أخرى ان معركة فحل وقعت بعد احتلال دمشق . ولكن المعتقد ان هذه الرواية هي الصحيحة اذ انها اقرب الى المطلق .  
(٢) يقال ان بولس الرسول . رأى الرؤيا التي مالت به الى المسيحية على هذا الجبل .

(٣) يقول البلاذري ... ثم اجتمعت الروم جمعا عظيما وامدهم هرقل بمدد فلقبهم المسلمون بمرج الصفر وهم متوجهون الى دمشق فاقتتلوا قتالا شديدا حتى جرت الدماء في الماء وجرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف ثم ولى الكثرة منهزمين مغلوبين لا يلبثون على شيء حتى اتوا دمشق .



ورابط خالد بجيشه الذى يعد نحواً من خمسة آلاف عند باب دمشق الشرقى وحل أبو عبيدة عند الطرف الجنوبي الغربى منها • فى حين تقاسم القادة الآخرون أطراف الاسوار كلها •

ولم يكن العرب قد ألفوا حصار المدن الكبيرة • أو تدربوا عليه أو أعدوا له العدة بما يحتاج اليه من سلاح • ولقد سبق لنا أن رأينا كيف ان النبى أنقذ المدينة من قریش بابتكاره وسيلة حفر الخندق حولها • ولكن على الرغم من أن العرب لم يكونوا قادرين على قصف أسوار المدينة بأى سلاح من أسلحتهم • الا أنهم كانوا ولا شك كبريى الفعالية فى اجتياح المناطق المجاورة وقطع المدينة عن طريق مواصلاتها وتموينها • ويبدو أن حصار دمشق قد بدأ فى النصف الثانى من شهر مارس (آذار) عام ٦٣٥ • ولكن العرب لم يحققوا أى نصر قبل الايام الاخيرة من صيف ذلك العام • فلقد مكن قرب دمشق من الصحراء أهلها من أن يكونوا جد عليمين بطبيعة البدو المتقلبة وكانوا يرجون أن تؤدى اطالة الحصار شهراً أو شهرين الى تشييط عزيمية البدو وأن يذوب الجيش العربى تماماً كما ذاب جيش قریش أمام المدينة •

ويذكر القارىء أن خالد بن الوليد كان قد اشتبك مع الروم خارج مدينة دمشق ابان مسيرته المشهورة من العراق • ويقال بأن اتصلاً جرى بين خالد وبين أسقف المدينة النصرانى ابان هذا الاشتباك (١) • ولسنا على ثقة من أن هذا الاتصال قد تم فى المرة السابقة ولكننا نعرف الآن أن مثل هذا الاتصال جرى فى هذه المرة أى فى صيف عام ٦٣٥ ، ولا ريب فى أن هذا الاسقف كان من النساطرة أى معادياً للحكومة البيزنطية والكنيسة الارثوذكسية اليونانية •

وتختلف الروايات فى كيفية فتح دمشق فى بعض تفاصيلها وتقول أكثر الروايات ثقة ، ان الاسقف بعث رسولا الى خالد ليقول له ان المدينة ستحتل فى ليلة حدها ، وان الباب الشرقى سيبطل بلا حراسة تقريباً فى تلك الليلة • وكان هناك دير مسيحي خارج الاسوار • ويعتقد أن الدير كان تابعاً لسلطان هذا الاسقف • وقد قدم الدير للعرب سلمين • وما لبث العرب أن نصبوهما على الاسوار عند الباب الشرقى قبيل الفجر • وتسلق عدد من العرب يقودهم القعقاع بن عمرو شيخ بنى تميم — الذى كان قد وفد

---

(١) يقول البلاذرى : ونزل خالد بالباب الشرقى فأخرج اليه أسقف دمشق نزلاً وخدمة فقال احفظ لى هذا العهد فوعده بذلك • ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين وهم بقتنا بصرى •  
( العرب )

مع خالد من العراق - الاسوار بهدوء وصمت . وسرعان ما قتلوا حارس الباب ، وفتحوه لجموع المسلمين . وقبيل شروق انشمس كان العرب يقتحمون المدينة ، ويعلمون الاسوار وهتافاتهم « الله أكبر » « الله أكبر » ، تعلو الى كبد السماء وفي أيديهم السيوف والخنجر (١) .

(١) تتفق الرواية التي اوردها المؤلف مع رواية البلاذري الذي يورد الكتاب الذي صالح به خالد الاسقف على دخول المدينة وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى به خالد بن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم . ولا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلم) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض الا بخير اذا اعطوا الجزية » . ولكنها تختلف مع رواية البلاذري في ان هذا يقول ان خالد دخل من الباب الشرقي صلحا وان ابا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة وانهما التقيا بالقسلاط وهي رواية اكثر منطقا من رواية المؤلف - اى جلوب - الذي يحاول ان يجمع بين رواية البلاذري هذه وبين الرواية الاخرى التي يوردها الطبري وهي ان خالد كان لا ينام ولا يقيم ولا يخفى عنه شيء من أمر العدد وهو معنى بما يليه فانخذ جبالا كهيئة السلام وادهاقا قبله ذات ليلة ان الناس غاللون في فرح لمظيهم فنهض بعن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع وقال للجنود اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا اليها وانهدوا الباب . فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو واصحابه رموا بالجبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم ، اخذوا يتسلقون وكان المكان الذي اقتحموا منه احصن مكان يحيط بدمشق حتى اذا استولوا على السور حذر عامة اصحابه منه . وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقى . وامرهم بالتكبير فكبّر الذين على السور فنهض المسلمون الى الباب ومال الى الجبل بشرك كثير وانتهى خالد الى اول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفرغ سائر الذين ارادوا الدخول عنوة وخاف اهل دمشق . فذهبوا الى الابواب الاخرى يطلبون الصلح . فدخل اهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة . فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا واولئك صلحا .

يتضح من هاتين الروايتين ... ان جلوب : -

١ - اخذ من الرواية الاولى نصفها اى اتصال خالد بالاسقف لينفى التفصل في افتتاحها من خالد وينسبه الى عون الاسقف ومساعدة اهل الدير .

٢ - عاد فاهمل النصف الثاني من الرواية الاولى ليأخذ النصف الثاني من الرواية الثانية ويظهر خالد بمظهر المتنكر لمهده مع الاسقف .

٣ - تجعل ان خالد نفسه هو الذي قاد الفرسان الذين تسلقوا الاسوار ولو صح ان خالد قد اتصل بالاسقف واعتمد على معلوماته ومساعداته لما اخلف عهده له ولا سيما بعد كتابه له . ولهذا فأنى ارى ان الرواية الاخيرة هي الصحيحة وان الاتصال الذي جرى بين خالد وبين الاسقف - ان صح وقوعه - لا يبدو ان يكون اتصالا عاديا . اذ ان الاسقف كان عاجزا عن حمل الوالى الروماني على قبول شروط خالد ...

( العرب )



ولم يكده والى المدينة الرومانى يسمع نبأ المعركة .حتى بعث برسول على جناح السرعة الى أبى عبيدة . يعرض عليه صلح المدينة وتسليمها . ولم يكن القائد العام قد عرف بأن خالدا قد دخل المدينة عنوة من الباب الشرقى - وهى حقيقة لو صحت لدلت على الافتقار الى شئ من التعاون بين القائدين ومن الممكن من الناحية الاخرى أن يكون أبو عبيدة على علم بأن المسلمين قد دخلوا الى المدينة . ولكنه كان بعيد النظر وكان يتوقع أن تغدو دمشق عاصمة اقليمية للعرب . ولذا حرص على تجنب سفك الدماء فيها وعلى تجنب انزال السلب والنهب بها . ويكفى أن نقول ان الولى الرومانى فتح باب المدينة الجنوبى الغربى لأبى عبيدة فى حين أن القتال كان لا يزال دائرا فى الناحية الشرقية منها .

والتقى القائدان فى سوق النحاسين فى وسط المدينة . وقد أبلغ أبو عبيدة مساعده المتحس ان القتال يجب أن يتوقف ، اذ أن الصلح قد عقد على تسليم المدينة . ويقال أن خالدا تنمر بادية ذى بدء مؤكدا أن المدينة قد احتلت عنوة لا صلحا . ولكن أبا عبيدة الوقور - أصر على أى حال على وجوب احترام الصلح الذى وقعه مهما كانت طريقة دخول المدينة ، وهكذا نجت هذه المدينة العظيمة العريقة - والتي تعتبر من أقدم المدن فى العالم اذ ورد ذكرها فى سفر الخليقة - من الدمار والنهب وسفك الدماء ، واستسلمت على الغالب فى شهر أغسطس (آب) أو سبتمبر (أيلول) من عام ٦٣٥ .

وهناك رواية عربية أخرى تعكس الدورين اللذين قام بهما القائدان فهذه الرواية تؤكد أن خالدا عقد الصلح مع الولى الرومانى بينما دخل أبو عبيدة عنوة من باب الجابية ، ولكننى أرى أن الرواية الأولى أقرب الى الصديق والصحة لأنها أكثر اتفاقا مع طبيعة القائدين .

ونصت شروط الصلح على دفع الجزية بواقع دينسار وجريب من القمح عن كل رأس . وتقول بعض الروايات ان الصلح نص على تقسيم بيوت المدينة وبيعها وكنائسها مناصفة بين الفاتحين العرب وبين أهلها . وكانت نتيجة ذلك تقسيم كاتدرائية القديس يوحنا الكبيرة بسور عال فى وسطها . فأصبح نصفها مسجدا يؤدى فيه المسلمون صلواتهم الجماعية فى حين ظل النصف الآخر كنيسة تقام فيها الطقوس المسيحية حتى يومنا هذا .

وقد ظلت الجيوش العربية منذ واقعة اجنادين نحوا من عام مركزة على الحملة بين اليرموك ودمشق ولكن مع سقوط دمشق خيل الى العرب ان مقاومة البيزنطيين قد انتهت . ولذا فقد عاد كل رتل من الارتال الى

المنطقة التي كان قد وجه اليها في البداية • أجل عاد عمرو بن العاص الى فلسطين وفرض الحصار على القدس التي لم يستطع « كمادة العرب » مهاجمتها لاقتحامها عنوة • واتجه شرحبيل بن حسنة الى الاردن حيث استسلمت له طبريا وبيسان • وتحرك أبو عبيدة باتجاه الشمال فاستسلمت له بعلبك وحص وحماة • وأقام خالد قيادته في حصص ، التي كان هرقل يربط فيها في السابق • ثم اضطر الى الانسحاب منها الى انطاكية • ويذكر القاري ولا شك أننا قلنا أن السلسلة الجبلية المسماة بالبلقاء وعجلون كانت في عهد معركة اجنادين في يد الروم وان كان العرب قد شقوا لهم طريقا فيها عند منطقة الكرك لنجدة عمرو بن العاص في بئر السبع وعاد يزيد ابن أبي سفيان جنوبا الآن لتدارك مافات فاستسلمت له منطقة الكرك كلها وجبال الشراة والبلقاء حتى موقع قرنندل الذي أقمت فيه بعد نحو من ألف وثلاثمائة سنة قلعة للجيش الاردني • ولم تصمد في وجه العرب الا القدس وقيسارية في فلسطين والا مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس الساحلية في الشمال اذ طلبت على ولائها للروم تشجيعها في ذلك سيطرة هؤلاء على البحر •

كان هذا هو سير الاحداث في الحملة السورية في عام ٦٣٥ ، وهو العام الاول من خلافة عمر بن الخطاب وجدين بنا أن نلتفت الآن الى دراسة الوضع في جبهة الفرس في الفترة ذاتها •



سبق لنا أن رأينا أن آخر ما فعله أبو بكر قبل وفاته ، استقباله المثنى ابن حارثة الشيباني • الذي كان قد طار من العراق الى المدينة ينشد العون من الخليفة ويطلب الاهتمام بالجبهة الفارسية المهملة • وكان أول ما فعله عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش العامة في سوريا أما الخطوة الثانية فكانت تنفيذ أمر أبي بكر ، قبل وفاته بإرسال جيش جديد الى العراق لنجدة المسلمين فيه ، ورافق البطء سير التطوع في بداية الامر • اذ كانت الفكرة الغالبة على العرب ، أن الفرس أكثر كفاية في القتال من الروم • وهكذا ظل التطوع بطيئا على الرغم من الخطاب الذي ألقاه المثنى في صحن المسجد طالبا النجدة - ومغريا العرب

بكثر الغنائم التي يحصل عليها من يختار سبيل الله ويحارب عبدة النار (١) .

وكان أول منتدب للسير مواطن من أهل الطائف يسمى أبا عبيد . وعندما تكاثرت عدد المتطوعين اقترح بعضهم على عمر أن يختار قائدا عليهم اما من المهاجرين أو من الانصار أو من صحابة رسول الله لكن عمر ، كان كما يبدو ، مستاء من البطء في تقدم المتطوعين فرد عمر أن فضل الصحابة على غيرهم يقوم في استجابتهم لداعي الجهاد في سبيل الله وقال : ان أسبق الناس اجابة هو أحقهم بالقيادة ، وهكذا وجد أبو عبيدة الثقفي المغمور الاسم حتى ذلك التاريخ نفسه فجأة قائدا على المسلمين .

ولا ريب في أن هذا الحادث الطريف جدير بالاهتمام والتأكيد إذ أنه يبين الاساليب العفوية التي فتح بها العرب هذه الامبراطوريات الواسعة ، يضاف الى هذا أن الحادث لم يكن فريدا في نوعه فلقد سبق لنا أن رأينا كيف اختار النبي نفسه أسامة ابن زبينة لقيادة الحملة على سوريا واضعا خالد بن الوليد القائد المجرب تحت امرته ، ولقد وجد هناك من يقول ، وهو على حق ، بأن العرب انتصروا لا بفضل قادتهم العسكريين بل رغما عنهم ويمكن القول أنه بالنسبة الى عمر بن الخطاب كان الايمان بالله والاعتماد عليه . . هما اللذان يقرران له كل شيء ولهذا لم يكن للأدوات البشرية - القادة - من شأن كبير لديه شريطة أن يكونوا من المؤمنين الصادقين أما بالنسبة الى العرب عموما فيمكن القول بأن هذا الحادث يظهر أنهم كانوا يؤمنون بأن الشجاعة الكاملة هي التي تنتصر في المعارك وأن القتال لا يحتاج الى خبرة أو مهارة أو تدريب أو تنظيم وهي صفات القادة . ومع هذه الحامات الفكرية عن الحرب ظل العرب هم المنتصرون في كل معركة تقريبا .

---

(١) تقول كتب التاريخ العربي ان عمر نذب الناس مع المشي بعد وفاة أبي بكر وكان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس لما في انفسهم من عظمتها وشوكها القديمة. فخطبهم المشي وقال : ايها الناس : لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبججنا ريف فارس وغلبناهم على خير سقى السواد . وشاطرناهم ولنا منهم واجرا من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها ، وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يتوى عليه اهله الا بذلك . أين الطراد المهاجرون من موعود الله ، سبروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها فانه قال : ليظهره على الدين كله « والله مظهر دينه ومعر ناصره ومولى اهله موارث الامم - اين عباد الله الصالحون ( العرب )

ولعل من الغرابة كلى الغرابة أن الشعوب الناطقة بالعربية اليوم (١)، لا تزال تحمل الآراء نفسها على الرغم من أن الحرب غدت أكثر تقنية ومن أن جنودهم لم يعودوا من النوع الذى يلهبه الحماس الدينى الدافق ولقد قيض لى فى السنوات الواقعة بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٦ أن اشترك فى مناسبات عدة فى المحادثات التى أجراها قادتهم فى موضوع العمليات العسكرية ضد اسرائيل . ولقد سمعتهم المرة تلو المرة يقولون أن بضعة ألوف من الشجعان مسلحين بالبنادق ، قادرون على الخلاص من هذا العدو ولم أسمعهم يشيرون . ولو اشارة عابرة الى التدريب أو التنظيم أو الى وجوب وجود القائد ذى الكفاية تماما كما كان يفعل أسلافهم فى أيام عمر بن الخطاب (٢) .

وهناك ناحية أخرى مهمة فى هذا الاختيار وهى اهمال الخليفة للمثنى ابن حارثة الذى كان يحتل منصب القيادة فى العراق منذ أكثر من عام والذى حقق للعرب نصرهم فى معركة بابل والذى كانت نداءاته للناس وخطبه فى ذلك اليوم بالذات هى التى امنت هذا العدد من المتطوعة الذى شعر الخليفة بحاجته الى من يتولى قيادته . وتكن المثنى بدوى من بنى بكر.. وهى قبيلة تقيم فى الطرف الآخر من الجزيرة العربية . ولن يستسيغ المهاجرون والانصار وصحابة النبى وأهل المدينة ومكة والطائف أن يحاربوا تحت قيادة بدوى مهما علا مركزه ، ولكن كان من المتوقع أن يعترض محاربو بدر' وأحد أيضا على العمل تحت قيادة شخص مغمور من أهل الطائف.

---

(١) تعبير جد سخيف للمؤلف يدل على نفسيته المشحونة بالكراهية للعرب . فهو لا يريد أن يعترف بأن العرب شعب واحد . وإنما يحاول أن يصور لقرائه ان هناك شعوبا عدة تتكلم بالعربية لا رابطة بينها الا رابطة اللغة وكأنها فى ذلك تشبه الناطقين بالانجليزية كالانجليز والامريكان والكنديين والافريقيين الجنوبيين والاستراليين وحتى الهنود والباكستانيين . انها العقلية الاستعمارية ليس الا . ( العرب )

(٢) ادعاء جرىء من المؤلف يثير الشك ولو حصر جلوب قوله هذا فى فترة حرب فلسطين وما تبعها من سنوات قليلة قبيل ثورة ٢٣ يوليو لكان محقا اذ ان العقوبة راقت الاعداد لحرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ كما كانت تبعية الحكام العرب للامبراطورية التى يمتلها جلوب - تجعلهم لا يخرجون عن مثل هذا الموقف المزرى . اما ان يقول بأن هذا الوضع قد استمر حتى عام ١٩٥٦ فمكابرة القصد منها واضح وهو النيل من العرب الاحرار أيضا . لكن مجرد السماح لشخص كجلوب وان كان يمثل عرشا عربيا وجيشا عربيا بالاشتراك فى محادثات العرب العسكرية دليل على تبعية ذلك العرش للاستعمار . وعلى خضوع ذلك الجيش لمشيئة الاستعمار . ومن هنا يكون اشتراك الاحرار فى تلك المحادثات اشتراكا صوريا لعدم اقتناعهم بجديتها مع وجود شخص مثل جلوب فيها ' يمثل دولة من دول الجامعة العربية . ( للمرب )

كأبى عبيد ، ولكن يبدو أن العصبية العامة بين أهل المدر والوبر كانت أقوى حتى من مشاعر الطموح الشخصى ومن هنا كان تقبلهم لأبى عبيد ورفضهم للمثنى (١) .

وقد أزال الخليفة فى غضون ذلك ، بناء على نصيحة المثنى كما يقول المؤرخون العرب إحدى العوائق الرئيسية فى طريق الفتوح العربى . فالقراء يذكرون ولا شك أن أبا بكر كان قد قضى اثر انتهاء حروب الردة يهزيمة القبائل المرتدة بالأا يسمح لأى فرد من هذه القبائل بالاشتراك فى الحرب الى جانب المسلمين . وقد حال هذا الحظر بين غالبية قبائل الجزيرة وبين القتال فى سبيل قضية العرب . وكانت جيوش العرب قد غزت فى غضون ذلك وفى وقت واحد ، أعظم امبراطوريتين عالميتين . وكان النقص البشرى فى الجنود قد أصبح مشكلة خطيرة وجاء رفع الحظر الآن فأطلق الطاقات الكامنة عند البدو المحاربين من عقالها لتهدر كالسيل . ومنذ هذا التاريخ أخذت الجيوش العربية لا تتألف من المحاربين المتطوعين كما هى الحالة من قبل بل من قبائل برمتها تهاجر جملة ، وتضم الرجال ونساءهم وأطفالهم وحياتهم وقطعان مواشيهم .

وخرجت النجدات أخيرا من المدينة . وكان المثنى فى قلق على رجاله لظول غيبته . فتقدم الجيش للحاق بهم ، وراح أبو عبيد يتبعه ببطء على «رأس المتطوعين الجدد داعيا فى طريقه جميع القبائل التى كانت مرتدة والتى مر بها للانضمام الى لوائه والسير لحرب الفرس .

وكان الفرس فى غضون ذلك قد استأنفوا نشاطهم العسكرى الذى كان المثنى قد توقعه . وكان «يزدجرد» قد اختار رستم القائد الذى ساعده فى الوصول الى العرش قائدا عاما لجيوشه فى منطقة الفرات . وراح القائد الجديد يحرض نبلاء المنطقة وكبار المالكين فيها على وقف الجزية التى كانوا يدفعونها فى السابق الى العرب ، وعلى أن يثوروا على سيطرتهم ، وأخذ الفرس يرسلون ارتالا عدة للقيام بعمليات الاستطلاع الهجومية ووراءهم شرعت القوات فى التحرك لاجراج الغزاة العرب من الاراضى التى احتلواها .

كان هذا الوضع الذى وجده المثنى عندما وصل الى العراق عائدا

---

(١) اوراق فى التهويل من الخلاف بين البدو والحضر رغبة من المؤلف فى تمجيد سياسة التقسيم بين العرب لتنفيذ سياسات الاستعمار .

من المدينة وأحس بعجزه عن الصمود أمام هذه الجحافل الفارسية فاضطر الى الجلاء عن الحيرة وعن جميع المنطقة الحصبة المزروعة في الحوض الأدنى من النهرين والإنسحاب الى أطراف الصحراء غربى الفرات منتظرا وصول أبى عبيد على رأس النجيدات ، ووصلت الامدادات أخيرا وتسلم أبو عبيد زمام القيادة العامة للحركات كلها . وشرع العرب فى التقدم وهزموا ارتال الفرس فى عدد من المواقع الثانوية ، لكن رستم لم يخف من هذه التكتسات وحشد كل ماله من قوات فى جيش واحد ، بعث به من المدائن الى الحيرة .

وحذا أبو عبيد حذو القائد الفارسى وبعد أن حقق الاتصال بين جيشه الجديد وبين قوات المثنى ، راح يتجه الى الحيرة أيضا . وتقابل الجيشان فى شهر أكتوبر ( تشرين ) الأول من عام ٦٣٤ وجها لوجه عبر نهر الفرات على مسافة قصيرة من الحيرة باتجاه الشمال ، وكان العرب فى سوريا قد اقتحموا قبيل هذا التاريخ مواقع الروم فى اليرموك وأخذوا يعدون العدة لمهاجمة فحل (١) .

وتقول الروايات ان بهمن قائد الفرس بعث برسول الى أبى عبيد يخبره فى أن يعبر هو الفرات لمقابلة الفرس ، أو يعبر الفرس لمقابلة العرب ، ولا ريب فى أن نهرا كبيرا كالفرات كان يؤلف عقبة كأداء فى طريق أى جيش من جيوش القرن السابع للميلاد وإذا كان اتساع النهر يحول بين الجنود وبين اطلاق النبال عبره فان هذا الاتساع يحول حتما دون تمكين الجيش الذى يحاول العبور من تأمين نار التغطية اللازمة له أمام العدو . وهكذا مالم يتفق القائدان على العبور دون قتال أو أذى فان المعركة ماكانت لتنشب قط .

ويروى المؤرخ البريطانى جيبون عرضا مماثلا لعبور نهر ، وقع فى ظرف آخر وقدمه أحد قادة الفرس الى قائد روماني ، ويروى أومان فى كتابه « فن الحرب فى القرون الوسطى » حادثا آخر أكثر غرابة . فلقد اشتبك بيلا الرابع ملك المجر فى عام ١٢٦٠ فى حرب مع أوتوكار الثانى ملك بوهيميا ، وتقابل الجيشان عبر نهر مارش وطلب أوتوكار بلطف من بيلا أن يقرر أى الجيشين يجب أن يعبر النهر دون أذى حتى تدور المعركة بينهما فى الشكل المناسب .

---

(١) يقول المؤرخون العرب ان المكان الذى احتشد فيه جيش العرب يسمى المروحة وهو تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة .



وقرر أبو عبيد على الرغم من نصيح مساعديه الأكثر خبرة منه في القتال وفي مقدمتهم المثني الذي انقضت سنوات عدة على قتاله مع الفرس. أن يعبر الفرات وأن يخوض المعركة على ضفته الشرقية مبررا قراره هذا. بقوله «... أنخشي الموت ولا يخشونه ؟» وأشار عليه السليط بن قيس ، بأن ينتظر على الضفة الغربية ليفيد العرب من أسلوبهم في القتال وقد خلفوا الصحراء وراء أظهرهم ولاريب في أن المثني نفسه وهو بدوى قد قدم اليه عين النصيحة .

وعندما وصل العرب الى الضفة الشرقية وجدوا أنفسهم في أرض محصورة لا تصلح لحركاتهم التعبوية السريعة الحركة . وتقدم الفرس آنذاك وأمامهم الفيلة ، ويقول بعض الرواة أن عددا من الفيلة ، أخذت تدوس جياد المسلمين بأقدامها واستمرت المعركة بضع ساعات حاول فيها المسلمون مهاجمة الفيلة ، وهم على أرجلهم بسيوفهم ، كما حاول البعض قطع الحبال التي تشد الهوداج الى ظهورها . وهجم أبو عبيد وهو على الرغم من عدم تجربته كقائد ، ومن تهوره ، لا يقل عن أكثر المسلمين شجاعة وبسالة على كبير انفيلة بسيفه . وكان قد سأل عن مقتل الفيل ف قيل له خرطومه ف ضرب خرطومه بسيفه ولكن الفيل حمل القائد الشجاع بخرطومه وقذف به على الأرض وبرك عليه فتوفى تحته . وعندما رأى المسلمون قائدهم وقد قتل دبّت الغرضى الى صفوفهم وإن كان أخوه الحكم بن مسعود قد حمل الراية وعاد فثبتتها في الأرض الى أن سقط شهيدا بدوره .

وراح رجل من ثقيف وهي القبيلة التي ينتمي اليها القائد أبو عبيد في هذه اللحظة الحرجة الى الجسر الذي عبر عليه العرب النهر فقطعه طالبا الى الناس أن يستشهدوا . كما استشهد قائدهم أو يأخذوا بثأره بتحقيق النصر ، ولكن المحاربين كانوا يندفعون الآن نحو الجسر طالبين النجاة . وبدلا من أن يؤدي عمله الى ايقاظ الحمية في نفوسهم وحملهم على الصمود والاستبسال أحدث أثرا معاكسا اذ عندما رأوا طريق رجعتهم وقد قطع ، دب الشعر في نفوسهم ، وأخذوا يلقون بأنفسهم في النهر يحاولون عبوره سباحة الى شاطئ الامان .

وأمسك المثني بن حارثة بالراية في يده ، وأثار الحمية عند الرجال فالتفوا حوله . وحاول عن طريق الاشتباك في معركة بالأيدي والسيوف. أن يكسب بعض الوقت ليتمكن الآخرون من رجاله من اصلاح الجسر ، هاتفا بالناس بأنه سيصمد أمام الفرس حتى تتمكن بقية المسلمين الذين انهارت معنوياتهم من عبور الجسر ، وجدير بنا هنا أن نذكر بأن بدويا نصرانيا من



قبيلة طيء يدعى أبا زبيد كان بين الشجعان القلائل الذين صمدوا الى جانب  
المثنى فى تغلبته لحركة انسحاب المسلمين الذين سيطر عليهم الذعر ، ولا  
ريب فى أن حائزه على هذا كزن العصبية العربية ، اذ أن بنى جلدته كانوا  
يحاربون الاجانب الفرس . ولا ريب فى أن الحماس الدينى لم يكن هو حافظ  
المثنى أيضا ، وانما كانت العصبية العربية . اذ أن المثنى لم يكن قد اعتنق  
الاسلام لا من نحو عام (١) .

وتم اصلاح الجسر مؤقتا فى النهاية . وتمكنت فلول المسلمين من  
عبوره بعد أن حى لهم المثنى مؤخرتهم ، واستشهد فى المعركة أو غرق فى  
النهر نحو من أربعة آلاف من العرب . وفر من الجيش نحو من ألفين آخرين  
عادوا الى قبائلهم فى الجزيرة العربية ولم يبق مع المثنى الذى عاد الآن الى  
تولى القيادة الا نحو من ثلاثة آلاف رجل من جيش كان يعد نحو من عشرة  
آلاف قبل المعركة ، وكان هو نفسه قد أصيب إبان حمايته مؤخرة المسلمين  
بقذيفة رمح من أحد الأعداء ، وهكذا كانت الكارثة كاملة ، ويرجع السبب  
فيها كما يبدو الى تهور أبى عبيد . ولو قاتل العرب على الضفة الثانية  
بدلا من عبور النهر لما وقعت هذه الكارثة لأن الاراضى الفسيحة المنبسطة  
تصلح لاساليبهم القتالية التعبوية ، وكان فى امكانهم فى حالة اصابتهم  
بنكسة أن ينسحبوا الى الصحراء وهى مكانهم الطبيعى الذى لا يستطيع  
الفرس بسلاحهم الثقيل أن يطاردوهم فيه . وتسمى هذه المعركة فى  
التاريخ العربى ، بمعركة قس الناطف أو معركة الجسر ، ويعتقد أنها وقعت  
فى أكتوبر ( تشرين الاول ) عام ٦٣٤ . أى بعد ثلاثة أشهر من وفاة  
أبى بكر .

وانسحب المثنى عبر الصحراء فى طريق مواز لضفة الفرات الغربية  
الى اوليس مستنفرا فى الوقت نفسه جميع أنقبائل البدوية الغربية وداعيا  
اياها الى الجهاد . وتمكن الخليفة عمر من اقناع جرير بن عبيد الله شميخ

---

(١) تقول كتب التاريخ العربى ان ابا زبيد الطائى وهو شاعر عربى نصرانى .  
كان قد أتى الحيرة فى بعض امره . قد قاتل مع المسلمين فى هذه المعركة قتالا بطوليا  
حمية منه لعصبية العربية . وبهذا يظهر أن المؤلف كان صادقا فى روايته ولكنه لم  
يكن صادقا فى استنتاجه ، فليس ثمة من تناقض بين العصبية العربية والحماس الاسلامى  
وانما هما صفتان متلاهماتان يضاف الى هذا ان قصر المدة التى قضاه المثنى فى الاسلام  
لا يمكن ان تكون مطلعا فى حماسته للدين اذ ان المعتنق لاية فكرة حديثا قد يكون أشد  
إيمانا بها من اناس قضوا مدة طويلة وهم يعتنقونها . ( العرب )

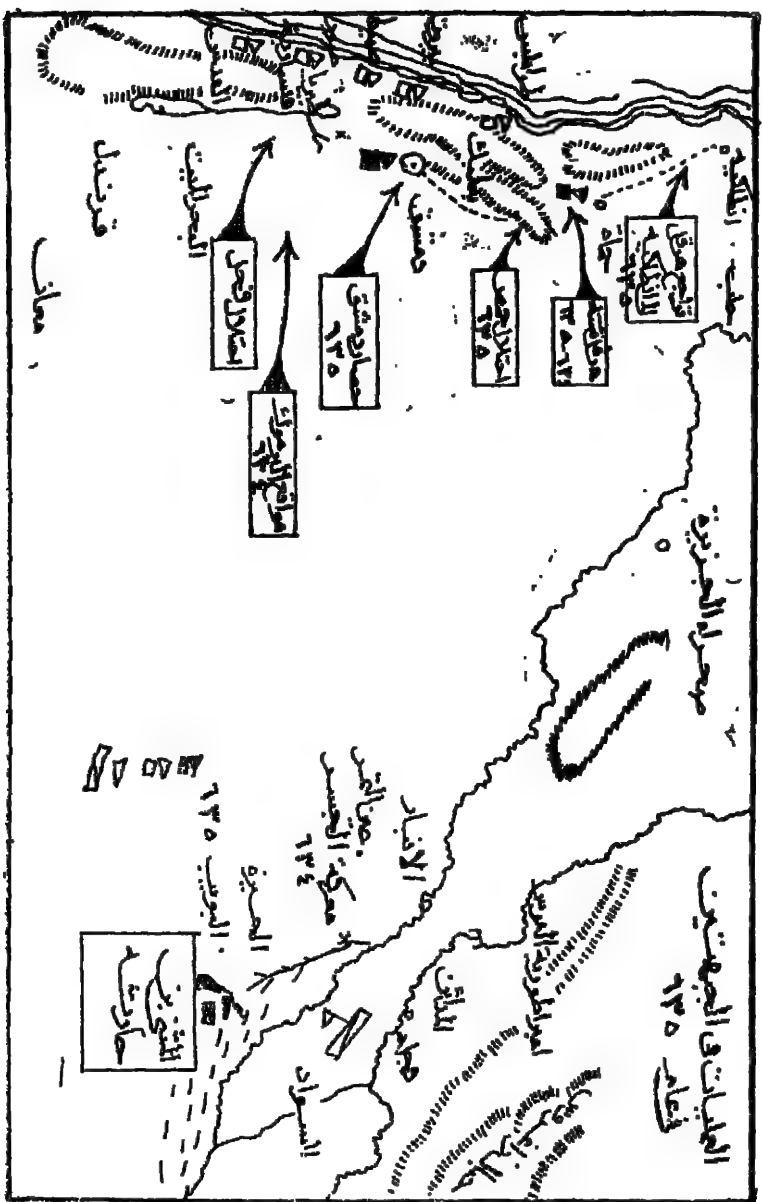
بنى بجيلة • وكان قد وفد الى المدينة على رأس وفد من قبيلته من اليمن ، بالذهاب الى العراق لحرب الفرس ولكن من المهم أن نقول ان عمر اضطر قبل ذهابه الى أن يعده بحصّة اضافية من الغنائم وكان رُفع الحظر عن اشتراك قبائل الردة في الحروب قد بدأ يؤتى ثماره الآن • وأخذت الوحدات من مختلف القبائل تصل الى المدينة ، وكان معظمها يؤثر الذهاب الى سوريا ولكن الخليفة ظل يصر على ذهابها في أقصى سرعة ممكنة الى العراق • اذ أن كل شيء يسير سيرا حسنا في سوريا والعرب يتقدمون من دمشق •

وجاءت نجدة جديدة كان لوصولها موقع حسن من بنى نمر وتغلب في شمال بادية الشام • وكانت هذه القبائل من النصارى يقودها شيخها الانس بن هلال • الذى يروى أنه قال ••• ان عليه وعلى قومه ، وأن لم يكونوا من المسلمين أن يقاتلوا الى جانب أبناء عمومتهم • وهكذا عاد المثنى فأحس بالقوة بعد هذه النجدة التى وصلتته وزاح بعد انقضاء عام تقريبا على كارثة الجسر يتحرك ثانية باتجاه الحيرة ، وحشد الفرس قواتهم لمقابلته • وبالطبع لم يقع المثنى في خطأ أبى عبيد • فلم يعبر الجسر هذه المرة واضطر الفرس الى عبور الفرات • والتقى الجيشان وجها لوجه في النصف الأخير من شهر نوفمبر ( تشرين الثانى ) عام ٦٣٥ ، عند البويب الواقعة بين مدينتي النجف والكوفة الحاليتين •

وكان معظم القبائل التى وفدت كنجدة متلاحقة من أواسط الجزيرة العربية قد حملت معها أطفالها ونساءها وقطعان مواشيتها وقد خلفت القبائل أهلها ودوايبها في مكان يسمى خفان على الضفة اليمنى من الفرات في مكان يبعد خمسة وعشرين ميلا تقريبا الى الجنوب من الحيرة •

وعندما التقى الجمعان وجها لوجه في البويب امتطى المثنى جواده ليطوف على صفوف المسلمين مناشدا اياهم الصمود والثبات في المعركة القادمة وأبصر المثنى رجلا يستنفر من الصف ويستقل رغم اعتراض رفاقه عليه • فسأل عن سبب ذلك ، ف قيل له أن الرجل ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل ليكفر عن خطيئته بالهجوم وحيدا على جيش الفرس طالبا الشهادة فمشى المثنى وحده صامتا حتى وصل الى الرجل فقرع بالرمح كتفه وقال : « لا ابالك الزم موقفك فاذا اتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل » قال الرجل : « انتى بذلك لجدير » ولزم الصف بهدوء ليحارب المعركة ببسالة • ومضى المثنى في طريقه •

وقبل أن يبدأ العرب هجومهم استهل الفرس القتال بالتقدم في



ثلاثة ارتال وضعوا فيلا على رأس كل منها وحول الفيل ثلة من المشاة يتولون حمايته وكانت الفيلة والمشاة تعمل متعاونة تعاوناً تعبويّاً رائعاً تماماً كما يفعل المشاة والندبابات في المارك الأوربية الأخيرة . وكان من المقرر أن تخترق الفيلة صفوف المسلمين تحت حماية المشاة من قذفات الرماح وضربات السيوف وقد رافق تقلب الفرس صخب وضجيج وهتاف وقرع طبل وزمر .

وحمل وطيس القتال ، ووقع عبء المعركة في لحظاتها الحادة الأولى على بنى عجل الذين تحطمت صفوفهم وأخذوا في التراجع بشيء من الفوضى . ورأى القريبون من المثنى قائدهم وهو يمر بيده على لحيته . مما يشير إلى عصبية وسرعان ما أوفد رسولا إلى بنى عجل ينقل إليهم تحيات الأمير ، ويطلب إليهم ألا يلحقوا العار بالمسلمين في هذا اليوم ، ولبي بنو عجل نداء قائدهم فعادت صفوفهم إلى الانتظام وصمدوا أمام هجوم العدو . وتطلع الناس إلى المثنى وهو على صهوة جواده . فأروه هادئاً قدير العين تبدو البسمة على شفتيه ، وقد توقفت يده على الإمساك بلحيته .

ومضت المعركة سجالاً يتخللها الصراخ والهرج والمرج ولكن الفرس لم يفلحوا في التقدم شبراً واحداً . وأخيراً قرر المثنى ، ويبدو أنه كان قائداً ممتازاً يعرف اللحظة الحاسمة للعمل ، أن يثمن هجومه المضاد ووضع نفسه في مقدمة رجال تغلب والنمر من النصاري مهيباً بهم أن يثبتوا عروبتهم ، رغم أنهم ليسوا من المسلمين وقاد الهجوم بنفسه مستهدفاً قلب جيش الفرس . ودار اشتباك رهيب ، ولقت الميدان ، سحب قائمة وكثيفة من النقع ، وقتل فتى نصراني من تغلب ، مهران قائد الفرس (١) وسرعان ما انهار قلب دفاع العدو فتقدم الجيش العربي كله إلى الامام وفي مقدمتهم جرير على رأس بنى بجيلة وعرفجة على رأس الازد ومسعود أخو المثنى على رأس بنى بكر .

وبدأ العدو ينهار ، وأخذ رجاله يتجهون إلى الجسر على الفرات القائم وراء الجبهة ، ولكن المثنى الذي نفذ إلى القلب ، وصل إلى الجسر أولاً وحال بين العدو وبين الوصول إليه ، وعندما رأى الفرس أن طريق هربهم قد

---

(١) يقول البلاذري أن جرير بن عبد الله والمندر بن حسان بن ضرار الضبي توليا قتل مهران فقال هذا أنا قتلته وقال هذا : أنا قتلته وتنازعا نزاعاً شديداً فأخذ المندر منقلته وأخذ جرير سائر سلبه ويقال أن الحصن بن معبد بن زوارة بن مدس (المرج) كان ممن قتله .

سد عليهم استداروا يائسين ليشقوا طريقهم عبر صفوف العرب المتقدمة منهم . وحمل وطيس القتال بين الفريقين وارتفع عدد الضحايا وأصيب مسعود أخو المثنى إصابة قاتلة ، وعندما رأى ان الوهن لحق أبناء عشيرته من اصابته هتف بهم وهو يعاني سكرات الموت . . . يابنى بكر بن وائل . . . ارفعوا رايتكم . وسينصركم الله . . . لا تقنطوا لموتى . وقتل أيضا الانس ابن هلال ، زعيم قبيلة نمر المسيحي وهو يهجم مع المثنى وتحطم جيش الفرس وقد أصابه الهلع والفوضى وظل المسلمون يحتفظون بالجسر وراح الفرس يفرون مذعورين هنا وهناك وبعضهم يقنف بنفسه فى النهر ، وبعضهم يحاول الاختباء تحت الاعشاب النامية على ضفافه ، والبعض الثالث يستدير ليلقى مصرعه على أيدي العرب الظافرين ، وهكذا كانت معركة البويب انتقاما لمعركة الجسر الدامية .

وعندما انتهت المعركة فرش بساط من الشمع على الارض العارية جلس عليه المثنى ليستريح من عناء القتال . ويريح أعصابه مما لحقها من توتر . وتوافد قادة العرب عليه واحداً اثر آخر يهنئونه بالنصر . ثم جلسوا متحلقين حوله على التراب وأخفوا يستمعيدون احداث المعركة وقال المثنى : لقد حارب العرب الفرس فى أيام جاهليتهم وأيام اسلامهم وكان المائة من الفرس يفلبون فى الجاهلية ألفا من العرب ، أما اليوم والحمد لله والشكر له يهزم المائة من العرب ألفا من الفرس .

وقد لعب نهر الفرات فى هذه المعارك دورا بارزا ، ولم تكن هناك زراعة كثيفة على الضفة الغربية اما على الضفة الشرقية فالزراعة كثيفة والحدايق وارفة الظلال وأقنية الري منتشرة ولهذا كان العرب يودون دائما أن يحاربوا على أكناف الصحراء على الضفة الغربية ، وهذا يعنى أن على الفرس لكى يخوضوا المعركة أن يعبروا النهر دائما واذا ما نزلت الهزيمة بالفرس ، وجدوا النهر فى مؤخرتهم يسد عليهم طريق النجاة ، ولم يكن أى من الفريقين يبدى أى ابتكار فى خطته السنوية ، وكانت المعارك تتكرر وكأنها واحدة فى كل مرة .

وكانت هزيمة الفرس كاملة فى البويب حتى ان العرب تمكنوا من جديد من السيطرة على معظم المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة ودخلوا الى أطراف المدائن عاصمة الفرس وأعاد العرب احتلال الانبار وعين التمر فى الشمال وبات فى إمكان المسلمين أن يغيروا على المنطقة الممتدة حتى بغداد ، وكانت آنذاك بلدة صغيرة يقام فيها سوق أسبوعية وحتى على تكريت على نهر دجلة . وسبق لنا ان قلنا ان منطقة الدلتا

تنتهى عند خط تقريبي يمتد من الانبار الى بغداد اذ تنتشر الصحراء في الاراضي الواقعة الى الشمال من هذا الخط بين النهرين (١) .

ولم يكن للعرب نظام تموين ثابت ومنظم ، ولهذا فقد كانوا مرغمين على الانتشار في اوسع منطقة ممكنة للحصول على ما يحتاجون اليه من غذاء لانفسهم ومن علف لحيواناتهم ولهذا فقد خلعت الغارات التي وقعت في هذه الآونة مزايا عدة ، منها ايقاع الرعب في صفوف العدو ، والوصول الى معلومات عن حركات الفرس واعداداتهم والحصول على المؤن اللازمة للمسلمين بالاضافة الى الغنائم الاخرى . ويبدو أن منطقة السواد المزروعة كانت مأهولة بغير العرب سواء آكانوا من السومريين والكلدانيين أم من الفرس . اذ على الرغم من أننا نرى القبائل العربية النصرانية المقيمة على الفرات تحارب الى حد ما الى جانب المسلمين فاننا لا نعثر على أى سجل يقول بأن سكان السواد بين النهرين قد حاربوا الى جانبهم وعندما كان العرب ينتصرون . كان هؤلاء العراقيون يدفعون الجزية ويستكينون الى حكمهم . أما عندما كان الفرس يعودون فيؤكدون سلطانهم فان هؤلاء يعودون بولائهم اليهم ، وان لم تظهر منهم أية بوادر تشير الى خياناتهم للفرس كما حدث في سوريا حيث كان النساطرة يؤثرون دائماً معونة المسلمين على الولاء للكنيسة الارثوذكسية أو حكومة الروم .

ولم يعمر المثنى بن حارثة طويلاً بعد نصره الرائع في البويب اذ لم يكن قد أبل قط من الجراح التي أصيب بها ، وهو يفتى تراجع العرب في معركة الجسر ، ويبدو لي أن هذا الرجل كان يتصف بجميع الصفات التي تلازم القائد العسكري العظيم ، ولا ريب في أن تمكنه بعد كارثة الجسر من جمع جيش جديد وحشده يدل دالة واضحة على ما في هذا القائد العظيم من كفاية . فالمحاربون الذين تمكن من حشدهم لم يكونوا جنوداً منظمين وانما كانوا بدوا لا ضابط لهم ولا زاجر ، وكانوا حتى ثلاث سنوات خلت أو سنتين يشتبكون في معارك مع المسلمين اiban حروب الردة ، ومن هنا يكون التفسير الصحيح لانضباطهم الآن تحت لواء المثنى هو ما يتمتع به هذا القائد من مزايا ، لا تعلقهم الشديد بالدين ، يضاف

---

(١) يتبع المؤلف هنا فيذكر أنه في عمليات عام ١٩٤١ م ، أى إبان ثورة رشيد عالي الوطنية عبر الجيش الاردني بقيادته نهر الفرات على بعد بضعة أميال الى الشمال من الانبار وتقدم الى ضواحي بكرت وبغداد . ولا يهتأ من هذا التبجح الا التأكيد بان جيش الاردن الذي تولى جلوب قيادته كان منفذا ، يأمر الاسرة الهاشمية المالكة في الاردن ، لارادة بريطانيا وخطتها الاستعمارية .

( العرب )

الى هذا اننا رأينا قبيلتين نصرانيتين هما نمير وتغلب نحاربان ببسالة  
منقطعة النظر تحت لوائه •

وجدن بالذکر أن جریر بن عبد الله شیخ بجيلة بما عرف عن  
الشیوخ البدو من غیرة نموذجية شکا الى الخليفة من أنه لا يستطيع وهو  
شیخ قبيلته أن يعمل تحت امره المثنى الذى لا يخرج عن كونه شیخا  
مقبليا مثله • ومع ذلك فقد عمل جریر تحت امره المثنى فى معركة البویب  
وقاتل ببسالة نادرة ، ويقول البلاذرى ان بنى بجيلة ادعوا بأن جریرا  
هو الذى تولى القيادة فى البویب ، بينما یصر بنوبکر على ان القيادة كانت  
للمثنى • ولا ریب فى ان غیرة مشایخ البدو من المثنى أتاحت المبرر دائما  
لاسناد القيادة العامة الى الحجازیین الذين كانوا يتمتعون دائما بميزة  
صحبة النبی ومع ذلك فقد ارتضى كثیرون من شیوخ البدو ، وبينهم  
عرفجة شیخ قبيلة الازد المشهورة العمل تحت لوائه •

ولعل أبرز ما فى الرجل بالاضافة الى شخصيته العسكرية البارزة  
وبراعته فى الحروب - اذ أن الحياة البدوية تخلق دائما شخصیات دافقة  
بالحيوية والبسالة - هو اخلاصه البعيد عن الاثرة والانانية للقضية التى  
یحارب من أجلها ولم نسمع قط بأن المثنى فعل ما فعله خالد العظيم ، من  
الزواج بالسبايا العذارى فى میادين القتال ، ولم تذكر الروایات له شریكة  
فى الحياة الا زوجته ولم نسمع قط ، والعرب فى ذروة انتصاراتهم والغنائم  
تسيل بین أيديهم من كنوز الفرس لیتقاسمها عرب البادية الجفافة الجهلة  
ان هذا القائد قد جمع ثروة لشخصه كما فعل بعض القادة الآخرين ،  
وأرى لزما علينا أن نستخلص من كل هذا ان هذا الشیخ البدوى  
البسيط لم یجمع فى شخصه جميع مواهب القادة العسكريين البارزة  
فحسب ، وانما جمع الخلق والعقل اللذين یجعلان منه رجلا جديرا  
بالشهرة والتكريم عند كل أمة من الامم وفى كل عصر من العصور ولعل  
السبب فى أن اسمه لم ینل من الشهرة والدوى ما ناله غیره من القادة  
الأول ، هو أن معظم المؤرخین الذين دونوا هذه الأحداث ظهروا بعصر  
انقضاء أكثر من قرنین على وقوعها ، وكان معظمهم من غیر العرب ، وكانوا  
من سكان المدن الذين لا یمیلون کبیر میل الى البدو ، أو لا يفهمونهم ،  
یضاف الى هذا ان معظم التاریخ قد دون فى العهد العباسى ولم یکن من  
مصالح المؤرخین أن ینسبوا البطولات الحارقة الا لبنى العباس أو لابناء  
قریش على العموم أكثر من نسبتها الى أى بدوى •

## تواريخ بارزة

٦٣٤	أكتوبر (تشرين الأول)	معركة الجسر في العراق
٦٣٥	يناير (كانون الثاني)	الاستيلاء على فحل في سوريا
٦٣٥	مارس (آذار)	بدء حصار دمشق
٦٣٥	سبتمبر (أيلول)	احتلال دمشق
٦٣٥	نوفمبر (تشرين الثاني)	معركة البويب في العراق

## شخصيات بارزة

الخليفة الجديد	عمر بن الخطاب
قائد العرب في جنوب فلسطين	عمرو بن العاص
القائد العام العربي في سوريا	أبو عبيدة بن الجراح
القائد الذي عينه عمر بن الخطاب	أبو عبيد الثقفي
في العراق واستشهد في معركة الجسر	
قائد الفرس العام الجديد •	رستم
المنتصر في معركة البويب وزعيم	المثنى بن حارثة
بنى بكر •	



# السِرْمُولُ

« اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا • سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق • واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » •

قرآن كريم - ( سورة الانفال )



« اهل الصحراء اسلم عقلا وبدنا من اهل القرى الذين ينعمون بحياة أكثر رخاء ، وبشرتهم أكثر نقاء واجسادهم أكثر صفاء ، وقوامهم أكثر انسجاما ، وجمالا ، واخلاقهم أكثر اعتدالا ، وعقولهم أشد مضياء وتفهما ، واستعدادا لنيل المعارف الجديده من اهل الريف • ولنقارن بين الغزال والنعام والقطباء التى تعيش فى الصحارى ومثيلاتها التى تعيش فى المناطق المأهولة فالأولى أكثر نقاء وبريقا فى فرائها ، وانسجاما فى اعضائها ، ومضياء فى حواسها » •

مترجمة من ابن خلدون الى الانجليزية



« تعظيم الله فى أفواههم وبأيديهم سسيف ذو حدين لاجراء الانتقام على الامم والتأديب على الشعوب لايناق الملوك بالقيود وشرفانهم بقبول من حديد » •

سفر الزمير - الزمور - ١٤٩ ، ٦ - ٨



تركنا العرب في الفصل السابق وقد باثوا يحتلون جميع أنحاء  
سنوريا وفلسطين تقريبا . ولم تبق في حوزة هرقل الا رقعة من الارض.  
في منطقة انطاكية في الشمال الغربي من سوريا . وكانت القدس  
وقيسارية لا تزالان صامدتين . بينما شجعت سيادة الروم على البحر ،  
مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس الساحلية على الصمود . وشرع  
الامبراطور في العمل وأخذ يعد عامين من الهزائم المتلاحقة التي بلغت  
ذروتها في سقوط دمشق ، يعد جيشا جديدا يأمل بواسطته في استعادة  
سوريا في صيف عام ٦٣٦ .

ويبدو أن الامبراطور قد جمع معظم جنود هذا الجيش الجديد من  
أهل ارمينيا التي تطلق عليها اسم القسم الشرقي من آسيا الصغرى ،  
وهي المنطقة الواقعة الى الشرق من أعالي الفرات . ولم يتشرد الارمن في  
مشارك الارض ومغارها الا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ،  
أي بعد اجتياح الاتراك لآسيا الصغرى (١) وظل اسم أرمينيا محصورا في  
ولاية صغيرة تقع عند السفوح الجنوبية للقفقاس . وفي القرون الستة  
الطويلة من الحروب بين الفرس والروم التي بلغت ذروتها في الصراع  
الطويل بين هرقل وكسرى ابرويز ، لعب الارمن دور الدولة الصغيرة  
العازلة بين جارتين قويتين . وكثيرا ما اجتاحت إحدى الامبراطوريتين  
بلاد الارمن . ومع ذلك فقد احتفظوا بكيانهم القومي كما احتفظوا لأسباب  
عملية باستقلالهم السياسي . وكانت خصالهم الحرية توحى بالتوقير  
والاجلال ولا سيما عندما يمارسونها في وديان بلادهم الجبلية . وظلت  
عواطف الارمن حتى القرن الرابع للميلاد مع الفرس دون الروم . ولكن  
تحولهم الى المسيحية بعد هذا التاريخ أدى الى ابتعادهم عن الفرس عبدة  
النار . ولكن الروم لم ينجحوا فوائده سياسية ضخمة من هذا التبدل ،  
وذلك لان الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية ظلت تنظر الى أتباع الكنيسة  
الارمنية كنظرتها الى النساطرة العرب ، على انهم من الهراطقة .

---

(١) اعتقد انها هفوة تاريخية من المؤلف . إذ ان هجرة الارمن من بلادهم لم تأت  
معد الفتح العثماني للأناضول كما يقول المؤلف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر  
بل نتيجة اضطهاد الاتراك لهم ومدابحهم في القرن التاسع عشر عندما أخذوا يساعدون  
الروس على الاتراك في حروب الدولتين الكبيرتين . ( العرب )

وقد يعنى اضطراب هرقل الى الاعتماد كل الاعتماد على الفصائل الأرمنية ، ان الروم أصيبوا بما يشسبه الارهاق والتعب من حروبهم الطويلة ، يضاف الى هذا ان الارمن كانوا بقيادة زعيمهم بانيس ( يسميه العرب شنس ) . أما القائد العام الروماني فكان ثيودوروس ( يسميه العرب تودز ) ، ويبدو أن سلطته على الوحدات الارمنية لم تكن فعلية يعترف بها ، كما ان الارمن بدوا وكأنهم جيش منفصل ضمن الجيش الروماني الكبير .

وانضم الى جيش الروم أيضا أمراء الفساسنة الذين كانوا يحكمون نيابة عن الروم الاقسام الجنوبية من سوريا وشرق الاردن ، وكانت معهم قوة من أبناء القبائل العربية المسيحية . ويذكر القاري ولا شك ، ان الروم كانوا قد الغوا في عام ٥٨١ ميلادية ، ملك الفساسنة في الشام . يضاف الى هذا ان اضطهاد الكنيسة الارثوذكسية الرومانية لنصارى العرب من النسطرة قد جعل هؤلاء يقفون منها موقف العداء ، ومن هذا يتبين أن ثلثي جيش الامبراطور الجديد ، كانوا اما من الارمن أو من العرب . والفريقان لا يحسان بمشاعر الولاء والاخلاص للامبراطورية . أما الثلث الباقي من الجيش فقد ضم المجندين من فلاحى « ما نسميه » بآسيا الصغرى الغربية ، وهم أقوام عرفوا بفضائلهم العسكرية . ولا ريب في أن مزايا هذه الأقوام المختلفة لا تخلو من الطرافة حتى يومنا هذا .

ولقد حدث في التاريخ المرة تلو المرة ، ان وطد شعب فاتح سلطانه على منطقة أخضعها بالقوة . وحملت تلك المنطقة منذ ذلك التاريخ اسم فاتحيها ، وفي عصرنا هذا عندما تسيطر العنصرية سيطرة كبيرة على تفكيرنا نصبح تحت تأثير الانطباع القائل بأن العنصر الفاتح المحتل أصبح منذ ذلك التاريخ يؤلف سكان تلك المنطقة التي فتحها . ولكن الفاتحين كثيرا ما لا يعدون في الحقيقة أن يكونوا مجرد أقلية ما لبثت أن اختلطت بسرعة مع السكان الأصليين وذابت فيهم . فالفلاحون المصابرون من أهل آسيا الصغرى والذين حاربوا دفاعا عن بيزنطة تحت اسم الاغريق أو الارمن قد أصبحوا يسمون الآن أتراكا . وهم لا يزالون يظهرون المزايا الصلبة نفسها التي كانت لاسلافهم وجدودهم . ومازالت قبائل سوريا وشرق الاردن وجلها من الاصل العربى تملك المزايا الحربية التي كانت لاسلافها ولقد أظهرت شعوب الاقسام الغربية من سوريا وفلسطين دائما اشراقا فكريا ساطعا . ومازالت هذه الشعوب تظهر على صفحات التاريخ الفينة تلو الفينة منذ تلك الايام حتى يومنا هذا . ويبرز

الساعة المتآمرون وخطباء الجماهير والتجار . اما كمسكرين فلم تسجل هذه الشعوب أية انتصارات ضخمة في التاريخ . ولاريب في أن تسميتهم اليوم بالعرب على النحو نفسه الذى يسمى فيه خلفاء جند خالد بن الوليد وأبى عبيدة ، تخلق الكثير من الاضطراب فى سياسات يومنا هذا (١) .

\*\*\*

كان الجيش الذى جنده هرقل فى الاشهر الاولى من عام ٦٣٦ . أضخم جيش حارب فى سوريا حتى ذلك اليوم (٢) . ولم يكد هذا الجيش ينزل الى الميدان اما فى شهر مارس (اذار) أو ابريل (نيسان) حتى كان العرب يجلون عن معظم المناطق التى فتحوها فى غضون الاثنى عشر شهرا الاخيرة . فلقد جلا خالد عن حمص وانسحب أبو عبيدة من دمشق . ورابطت قوات المسلمين من جديد وراء نهر اليرموك . ولحق بهم الروم وأعادوا احتلال فجوة درعا . وهى بوابة سوريا التى كانوا قد طردوا منها فى سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ . أى قبل ثمانية عشر شهرا (٣) . وكان

(١) هذه محاولة سخيفة مفضوحة من المؤلف اللطعن فى عروبة اهل الساحل السورى والفلسطينى . وبعت التفرقة بين عرب الساحل وعرب الداخل . ويبدو أن مركبا من مركبات الكراهية قد تولد لدى المؤلف لدى عرب فلسطين . الذين صورهم فى كتبه السابقة انهم كانوا السبب فى الاضطراب السياسى الذى عم الاردن بعد ضم الضفة الغربية الى شرق الاردن . وهى من الصورة التى يحاول ابرازها الآن . فهو يؤكد فى كتبه السابقة ان الهدية كان يعم شرق الاردن الى أن ضمت الضفة الغربية اليه . فاشتد الاضطراب السياسى فى البلاد . وهو يعنى بالاضطراب طبعا ثورات شعب الاردن المتعاقبة للخلاص من الاستعمار البريطانى ممثلا فى حكم عملائه من حكام الاردن ، وفى سيطرة جلوب الاداة المنفذة لذلك الاستعمار . اما عرب الساحل فلا يختلفون عن عرب الداخل فى شيء لا فى اصولهم ولا فى تقاليدهم ومزاياهم واذا كان ثمة من اختلاف نسبى فهو من النوع الذى يقوم فى كل بلد من بلدان العالم . وفى كل شعب من الشعوب بين اهل السهول والصحارى وأهل الجبال والسواحل ، او ذاك الذى يقوم بين اهل المدن وأهل البوادي أو الارياف . (العرب )

(٢) ينقل المؤلف هنا عن الاستاذ بيكر فى كتابه : تاريخ القرون الوسطى لجامعة كمبردج ان هذا الجيش الرومانى كان الوحيد من الجيوش التى فاق فيها عدد الروم عدد العرب ، ولا حاجة بنا الى القول ان هذا الزعم كاذب . اذ ان مدد الروم كان دائما متفوقا على عدد العرب فى جميع المارك التى خاضها الفريقان وهذا ما أجمع عليه كافة المؤرخين العرب .

(٣) يختلف المؤرخون العرب فى أمر هذه الموقعة فبعضهم يقول انها وقعت فى عرج الروم على مقربة من حمص . وبعضهم يقول انها وقعت فى اليرموك للمرة الثانية ولكن حتى هؤلاء لا يذهبون المذهب الذى رآه المؤلف هنا اذ يؤكدون ان العرب لم ينسحبوا كما زعم المؤلف من المدن التى سبق لهم أن فتحوها وفى مقدمتها دمشق . ولقد روى البلاذرى مثلا عن سميد بن عبد العزيز قوله : لما جمع هرقل للمسلمين الجموع . وبلغ المسلمين =

جبله بن الايهم أمير الغساسنة يقود مقدمة الزحف الرومي ، ومعه الوحدات العربية ، وشكل الجنود العرب ، بسرعة حركتهم ونشاطهم ، وخيولهم المظلمة غطاء رائعا من الفرسان للجيش الروماني ، تماما كما فعل الجيش العربي الاردني مع الجيش البريطاني في عام ١٩٤١ ، متعاوناً معه في عمليات سوريا والعراق العسكرية اذ شكل له حرس المقدمة والجانبين (١) .

وهذه الحقائق ثابتة ، كل الثبوت ومع ذلك فانا لا نستطيع تجنب الانطباع بان المؤرخين لم يؤكدوا الدوافع الماثلة وراء هذه الحركات العسكرية كما أن بعضهم ينسب الى العرب ، غزهم على الاحتفاظ بحصون اليرموك . لكن الحقيقة هي ان العرب نشدوا الآن كما في أية معركة سابقة أخرى ، أن يقاتلوا في الصحراء أو في السهول المنبسطة . وان يجعلوا الصحراء المكشوفة دائما وراء أظهرهم ليجدوا فيها النجاة اذا اقتضاهم الامر ، وكان العرب والحالة هذه يؤثرون أن يجروا قدم الجيش الروماني الى القتال في الصحراء الى الجنوب من اليرموك بدلا من أن يخوضوا معه معركة ثابتة عند فتحة درعا . ولكن لم يكد العرب يملكون من الفتحة مخلفينها وراءهم باتجاه الجنوب ، حتى كان الروم يعيدون احتلال هذه الحصون الدفاعية القديمة ويفلقون أبواب سوريا في ظهر العرب المتراجعين . وتركزت سياسة هرقل الآن على الاحتفاظ بالخط الدفاعي - فطالما ان خط ماجينو اليرموك صامد في وجه العرب فان سوريا ستظل في نجوة من غزوهم ولن يكون في وسع العرب بما عرف عنهم من خوف من حرب الجبال والمناطق المغلقة ، أن يغامروا بغزو سوريا عبر طبريا ، وصحيح ان خالدا كان في ربيع عام ٦٣٤ أي قبل عامين قد هدد حمص وحماة ودمشق من ناحية الشرق أي من الصحراء ، ولكن قوته في ذلك الوقت كانت صغيرة ، ومع ذلك فقد كادت تفنى ظمأ في لهيب

---

= اقبالهم اليهم لوقمة اليرموك ... ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوه من الخراج . وقالوا : شغلنا من نصرتكم والدفع منكم على امركم . فقال أهل حمص لولايتكم ومدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفن جند هرقل من المدينة مع ممالكهم ونهش اليهود قتلوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل حمص الا ان نغلب ونجهد . واغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود . واعتقد أن رواية البلاذري هي الصحيحة .

(١) اعتراف جديد من المؤلف بأن الجيش الاردني أدى للاستعمار البريطاني الدور الذي أداه الغساسنة للاستعمار الروماني ، وان عبد الله بن الحسين ، أدى لهذا الاستعمار نفس الدور الذي أداه جبله بن الايهم .

( العرب )



الصحراء • ولم يكن في الامكان القيام بغزو جدى عن ذلك الطريق حتى ولو كان العرب هم القائمون به • ولا ريب في أن هرقل قد تنفس الصعداء عندما سمع بأن جيشه قد عاد الى احتلال فتحة درعا ، وان العرب قد أخرجوا منها الى الصحراء جنوبا • وقد خيل اليه ان سوريا قد غدت في نجوة من الخطر •

ولا يوضح المؤرخون العرب لنا ، من تولى قيادة العرب في هذه الازمة ، وفي وسعنا أن نخمن بأن أباعبيده كان لا يزال القائد العام الأعلى ولكنه في المواضع العسكرية البحتة ، كان يطلق يد خالد بن الوليد اطلاقا كاملا ، ليعالج الوضع بما يراه •

واستمرت فترة الركود الثانية في فتحة درعا زهاء أربعة أشهر رفض الروم ابانها بأن ينصاعوا لاغراء العرب بالخروج من حصونهم التي كان العرب عاجزين أو غير راغبين في اقتحامها • لكن المعارك لا تكسب عن طريق الدفاع السلبي ليس الا ، وكان العرب أكثر قدرة على الحركة وأظهروا ميلا أشد الى المبادرة من أعدائهم •

وتؤلف مضائق اليرموك ووادي الرقاد في الجانب الغربي من الفتحة عقبات كداء في طريق أية حركات عسكرية • اذ أن جوانبها تكون في كثير من المواضع عمودية تقريبا • أما الى الشرق فعلى الرغم من ان الصخور البركانية تغطي سطح السهل الا أن المرور فيها ليس متعذرا على الفرسان والهجانة بله المشاة • وقد يكون من المتعذر خوض معركة في القرن السابع للميلاد وسط الصخور البركانية ولكن هذه الصخور لا تحول بين جماعات من المحاربين العرب وبين التسلل حول الجناح الشرقي للروم للوصول الى سهل حوران • وفي وسعنا أن نخمن بأن هذه هي الاساليب التعبوية التي تبناها العرب قبل انقضاء عهد طويل • فقد شقوا طريقهم حول الجناح الشرقي لمواقع الروم ، وبات في وسعهم أن يقطعوا طريق تمسوين العدو أو يهددوه تهديدا خطيرا ، ويبسّدوا أن الطريق الرئيسي لمواصلات الروم كان يتجه الى الجولان ومنها عبر المنطقة التي يقوم عليها اليوم جسر بنات يعقوب ثم يتجه شمسالا الى بعلبك ، بدلا من الطريق الرئيسي الممتد بين دمشق ودرعا •

ولكن الحيانة في صفوف الروم ، كانت أكبر أثرا على جيشهم من عمليات العرب كما يبدو • والمعتقد ان قائد الروم تيودر وروس (تودز) كان ميلا في البداية الى تبني أساليب الدفاع المتحصنة بالنشاط والحركة • إذ أن المؤرخين العرب يتحدثون عن عدد من العمليات الثانوية التي ذكروا



ان الروم قد غلبوا فيها كلها . وكان أجدر بتودز وأحكم لو انه خاض مع العرب معركة حاسمة عندما التقى الجيشان ، اذ ان عدد جنده كان يتفوق على جند العرب تفوقا هائلا ، لكن فترة الراحة التي انقضت مكنت العرب من أن يستغيثوا بالخليفة في المدينة ليبعث اليهم بالنجدة الجديدة . ولا ريب أيضا في ان اطالة المكوث في حصون البرموك الدفاعية قد أثرت على معنويات جند الروم ولا سيما أن الأرمن منهم كانوا متعددين على أجواء أكثر برودة وعلى مناخ جبلي ، كما انهم كانوا من المرتزقة الذين لا يدافعون مباشرة عن بيوتهم ومساكنهم . وبينما كان سكان السواحل السورية هوالين للامبراطورية الرومانية ، كان سكان حوران معادين لها أو غير آبهين بها على الأقل وهو عامل لا بد وأن يكون قد أثر على معنويات الجنود .

وظهر احتكاك خطير بين الاغريق والارمن حتى أن شطرا من الجيش قد انتخب شنس، القائد الارمني قائدا عاما . خلفا لتودز ويبدو أيضا ان شيئا من الاتصال قد جرى بين خالد بن الوليد وبين شنس هذا ، كما يبدو أن هذا الاتصال قد جرى عن طريق الجنود العرب في جيش الروم . الذين لم يقوموا إلا بدور صغير في القتال بعد أن تحول الى معركة ثابتة . وقد أدت هذه المنافسات المستمرة بين الوحدات المختلفة في الجيش الروماني ، وما نجم عنها من تدهور في الانضباط ، بالإضافة الى الاسابيع الطويلة من الجمود داخل الحصون ، الى استكمال الانحطاط المعنوي في الجيش الروماني . وكان العرب قد تلقوا تعزيزات قوية من الجزيرة العربية ، وأخذوا يتحولون يوما بعد آخر الى الهجوم . وأصبحوا يحيطون تقريبا بمواقع الروم أو انهم قطعوا مواصلاتهم من ثلاث جهات على الأقل .

وهبت ريح قائظة عابثة من الصحراء من الناحية الجنوبية الغربية في العشرين من شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٦ . وأخذت سحب الرمال والتراب تلطم وجوه الجنود الروم . ولا اعتقد ان هناك ما هو أسوأ من عاصفة رملية قائظة حقا في الصحراء اذ انها تقتلع عادة الحيام ، وتطيح بعدد الطبخ ، ويمتلىء الطعام والماء بالتراب . بينما تلسخ ذرات الرمل الوجوه وتطمس الاعين ولا تزيد الرؤية في مثل هذه الحالات على بضخ ياردات ، ومن المعتذر على المرء أن يواجه مثل هذه الريح . وكل ما يستطيع فعله هو الاقواء على الارض ، والانتظار حتى تنتهي العاصفة من نفسها . وقد تستمر الريح يومين أو ثلاثة أيام ، ومن المحتمل أن يكون بدء هبوبها هذه المرة قد وقع مساء التاسع عشر من أغسطس مما مكن القادة العرب من وضع الخطة للقيام بهجوم عام شامل في الصباح التالي .

وعلى الرغم من ان البدو لا يستسيغون هذه الزواجع الرملية الا انها كانت شيئا عاديا طالما الفوه • يضاف الى هذا ان اتجاه الريح كان قىـ أقيمتهم وفى وجوه أعدائهم ، وعلى الرغم من أن مدى الرؤية أمامهم كان مغلقا ، الا ان الريح وهى تهب وراء ظهورهم كانت تمكنهم من أن يظلوا مفتوحى الاعين لاتعرقل سبيلهم كثيرا • ولا ريب فى أن مثل هذه الظروف تجعل من المعركة ، فردية أكثر منها جماعية • فالجيش المتعود على الحرب فى صفوف منتظمة تلبية لأوامر قادته يصبح فى وضع يائس فى مثل هذه الاوضاع • أما العرب فهم فرديون فى طبيعتهم ، وكل جندى منهم صورة مجسدة للجرأة والنشاط والحيوية وهو على استعداد وتلف للمقاتلة وحيدا • والجنود العرب عاجزون عن خوض معركة نظامية ضاربة فى صفوف متسلسلة • ولكنهم يكونون فى أحسن حالاتهم فى أى هجوم عنيف يشنه كل واحد منهم على افراد • ولكن المعركة سارت كما يبدو وفق خطة رسمها العرب اذ ان فصيلا من جنودهم احتل الجسر القائم على وادى الرقاد وراء جيش الروم • وهـو الجسر الذى يمر عليه طريق مواصلات الروم الرئيسى • وسرعان ما وثبت جماعات من العرب الصائحين وكانهم العقبان الكواسر يسرون وكانهم الاشباح عبر الرمال المندفعة ، متدفقين على مواقع الروم • ولو كانت العاصفة الرملية فى ذلك اليوم كثيفة كما أعرفها لما تمكن جيش الروم من أن يخوض معركة مهما كان شكلها فى ذلك اليوم • ولما كان العرب قد قطعوا خط رجعة الروم باحتلالهم الجسر ، فقد وقعت مذبحة هائلة قتل فيها تودز (تيودوروس) نفسه • ولم يحل صباح اليوم التالى حتى كان جيش الروم الذى قضى هرقل أكثر من عام يصرف الجهد ، ويبذل كل ما فى وسعه لاغداه قد زال من الوجود • فلم يكن هناك انسحاب أو عمليات تغطية خلفية أو نواة لناجين من القتال •• لم يكن هناك شيء على الاطلاق ، ولم يبق من الروم انسان •

ويقال ان عددا من نساء العرب قد اشتركن فى معركة اليرموك هذه ، ينشدن ويهتفن بالرجال مشجعات محمسات • وكان أبو سفيان عدو النبى الكبير فى يوم ما قد أتى الى سوريا زائرا حيث كان ولده يزيد ومعاوية يحتلان مراكز قيادية مهمة فى جيش المسلمين وقد رافقته فى هذه الزيارة زوجته المجوز ، هند بنت عقبة التى كانت قبل اثنى عشر عاما تشجع محاربى قريش فى غزوة أحد ، منشدة بتمجيد العزى وهبل ومتممة مفامرتها الحربية بالتمثيل بجثة حمزة عم النبى واقتطاع كبده ، التى مضغتها • ويبدو أن نيران الحماسة والميل الى المناجزة

والحرب ، لم تكن قد خبت بعد في صدرها الذي أضعفته السنون اذ أنها تقدمت يوم اليرموك صفوف المسلمين وأخذت تهيب بالمسلمين بأن يقطعوا المشركين بسيوفهم ولا يذكر المؤرخون ان زوجها أبا سفيان قد اشترك في القتال فلقد شهد المعركة ولكنه كان في الثالثة والسبعين من عمره . وكان قد خسر عينا واحدة في حصار الطائف . وقد انقضت أيامه الصالحة للقتال وان قدر له أن يعيش خمس عشرة سنة أخرى ليموت وهو في الثامنة والثمانين . ولعل من سخرية الاقدار أن هذين الزوجين العجوزين اللذين كانا في يوم من الايام من أشد أعداء الاسلام قد أنجبا للشعب العربي أسرة مالكة من الابطارة .



وعندما سمع هرقل الهرم وكان في انطاكية بأن جيشه قد أبيد عن آخره أدرك تمام الادراك بأن القرار أصبح حاسما وراح يودع البلاد المقدسة التي حارب طويلا لاسترجاعها من الفرس ليعود فيخسرها للعرب بقوله : « سلام عليك يا ستوريا سلاما لالقاء بعده » . وراح يمتطى جواده ليحبر جبال طوروس متجها الى الغرب .

وكان الامبراطور جوستنيان قد قضى نجه في القسطنطينية قبل نحو من سبعين عاما بعد أن حقق هدفه في إعادة توحيد الامبراطورية الرومانية . وكان قائداه اللامعان بليزاريوس ونارسييس قد استعدا له افريقية وأسبانية وإيطاليا ولكن جوستنيان كان يحمل الرأي نفسه الذي حمله فيما بعد لويس الرابع عشر عندما قال : بعدى يكون الطوفان . فلقد استنزفت موارد الامبراطورية كلها وخوت خزائنها . ولم يكن في وسع خلفاء الامبراطور العظيم جوستنيان من أمثال جوستين وطيبريوس وموريس أن يحافظوا على هذا الصرح الضخم العالي . وفي عام ٦٠٣ . خلع موريس عن العرش ليحل محله «فوق» صاحب السلوك المشين المعيب . وفي عام ٦١٠ أبحر هرقل الشاب من أفريقيا الى القسطنطينية ليتوج امبراطورا فيها في اليوم الثاني من وصوله بين هتافات الجماهير الحماسية . ولكن كسرى ابرويز كان قد وصل الى أبواب المدينة . وقدر على هرقل أن يقضى ثمانية عشر عاما في جهود عسكرية لا تكاد تصدق قبل أن ينتصر نهائيا على الجيش الفارسي ولا ريب في أنه كان يأمل في أنه بعد هذه السنوات الطويلة الشاقة وبعد هذا القلق العظيم سيقضى سنواته الاخيرة في أمن وكرامة ، ولكن فرصة راحته كانت قصيرة ، اذ لم تمض أربع سنوات على عقد الصلح مع فارس حتى كان العرب يصلون الى

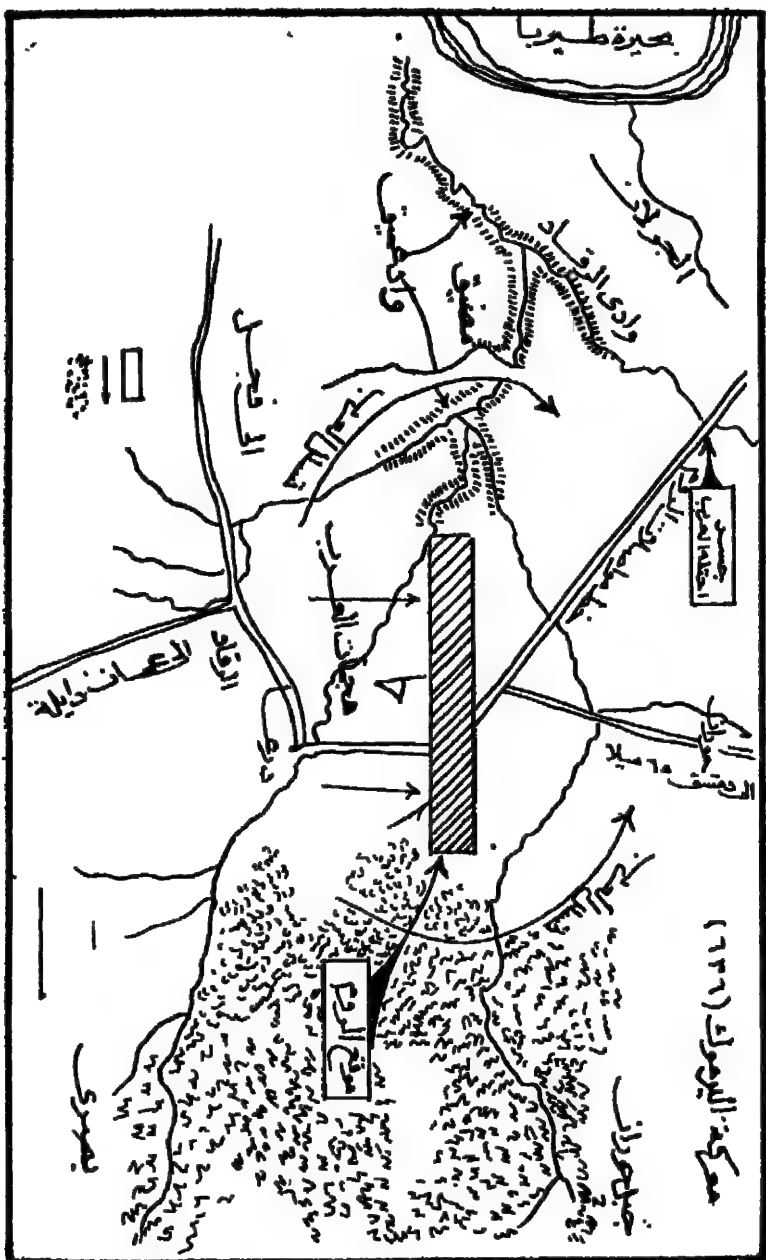
سوريا • وبعد ثلاث سنوات أخرى من الجهد المتواصل ، فقد الامبراطور الشيخ الامال البراقة التي حارب ثمانية عشر عاما لاستخلاصها من كسرى وقدر له أن يعيش خمس سنوات أخرى ، ولكنها سنوات المزيد من الازلال والفشل •

ولم يتردد المؤرخون في أن يوجهوا اللوم في ذلك الى ما أسموه بجبن هرقل ، في فشله في اخراج العرب من سوريا • لكننى أرى أن ليس لهذا النقد ما يبرره اطلاقا ، ولقد كان من سوء طالعهِ ، ان أقيت عليه مهمة الحفاظ على امبراطورية كانت مواردها غير كافية لأداء هذه المهمة • ولقد كان رجلا واعيا مدركا وكان تقيا متدينا قضى حياته في جهود ومتاعب متواصلة تكلفت أحيانا بالنصر ولكنها انتهت أخيرا بالفشل واليأس • ولا يروى التاريخ سيرا لآناس كانوا مثل هذا الرجل ففى حسن نيّاته وكانوا مثله فى الكد والنصب وانتهوا مثله الى النهاية المفجعة التى انتهى إليها •

### \*\*\*

ولقد انتهت بمعركة اليرموك العمليات الحربية النشيطة التى تمثلت فى احتلال العرب لسوريا • فلقد عاد أبو عبيدة الى الزحف شمسالا فاستعاد دمشق وحمص وبعليك • وغيرها من المدن التى كان العرب قد جلوا عنها أثناء هجوم الروم ، وقد استقبلت جيوش العرب فى أماكن عدة استقبالا حسنا مصحوبا بالرقص والاهازيج ويقول أحد المؤرخين العرب : ان أهل حمص أعربوا عن ايثارهم لعدالة العرب على ظلم الكنيسة الارثوذكسية والامبراطورية الرومانية ، ومن حقنا أن ننظر الى مثل هذه البيانات بتحفظ ، لان مصادرها اسلامية أولا ، ولان السوريين الضعفاء كانوا يرغبون حتما فى ارضاء ساداتهم الجدد ، الذين لم يعد هناك من ينافسهم ثانيا •

ومع ذلك فهناك على أى حال أسباب واضحة ، تدعو أهل مشرق سوريا وشرق الاردن الى الرضا مؤقتا على الأقل عن هذا التبدل • فالشعب البريطني وهو يعيش فى جزيرته يعتبر البحر حده الطبيعي ، واذا ما جاء افراد هذا الشعب من الغرب ونزلوا فى الارض المسماة الآن بלבنيان • فانهم يتوقعون أن يجدوا أنفسهم فى الشرق واذا ما توغلوا بعد ذلك فى الداخل نحو دمشق وبغداد وطهران فانهم لا يتوقعون أن يجدوا فروقا كبيرة كتلك التى توخوها بين فرنسا وايطاليا مثلا ، وبين لبنان • ففرنسة وايطاليا بالنسبة لهم هما الغرب بينما لبنان ودمشق وبغداد هى الشرق •



ولكن هذا التصنيف القاطع مازال مضللا حتى يومنا هذا . ولقد كان أكثر خطأ وتضليلا في القرن السابع ، فلقد كان حوض البحر المتوسط كله يؤلف العالم الروماني الاغريقي ، وكان هذا البحر بالنسبة الى الرومان الطريق الرئيسى الذى يربط بين ممتلكاتهم لا الحد الذى يفصل بينهما . وكان السوري أو المصرى فى تلك الايام لا يجد نفسه غريبا فى اليونان أو إيطاليا أو بلاد الغال ولكنه يجد نفسه غريبا فى العراق أو الحجاز . وكانت حدود رومة كلها أرضية لا بحرية فهى الراين والدانوب وجبال الاطلس والصحراء . وكانت الحدود الثقافية لرومة فى سوريا وفلسطين هى جبال لبنان الشرقية وبحيرة طبريا ونهر الاردن والبحر الميت . وكانت قبائل الصحراء قد تسلمت منذ أقدم عصور التواريخ الى المدن والقرى الواقعة الى الشرق من هذا الخط . وكان معظم سكان هذه المناطق الشرقية من الساميين أو انصاف العرب ويؤثرون السريانية فى حديثهم على اليونانية ويميلون بصورة عامة الى الثقافة الشرقية . وقد فشل الرومان والبيزنطيون فى ادماج هذه المناطق ثقافيا فى بلادهم وظلوا يؤثرون حكمها عن طريق حكام عملاء من أهلها كالأنباط وأبناء هيرودس والغساسنة ، اما الى الغرب من الاردن وجبال لبنان الشرقية ، فان شعوب هذه المناطق ينظرون الى الغرب وعلى الرغم من عدم تحررهم تحررا كاملا من النفوذ الشرقى ، الا انهم كانوا أقرب الى الاوربيين منهم الى العرب . ومن هنا يظهر أن الحد الثقافى الطبيعى لبيزنطة كان نهر الاردن .

ولو تحولت سوريا كلها وفلسطين وشرق الاردن الى المسيحية لعقدت رباطا أوثق مع بيزنطية ولكن النتيجة كانت معاكسة فى الحقيقة فلقد اضطهدت كنيسة بيزنطية الارثوذكسية الكنيستين السورية والمصرية . وعاملتهما على انها من الهراطقة . وجاء الفاتحون العرب فمحوهما التسامح والاستقلال ، ولم يقم الفاتحون المسلمون بأية محاولة لتحويل المسيحيين الى الاسلام ، وإن فرضوا عليهم نظاما مختلفا من الجباية قد يحمل طابع التحيز ووضعهم فى مرتبة أدنى . وهكذا نرى بعض القبائل المسيحية ترفض دفع الضريبة كقبائل نصرانية ولكنها ترغب فى دفعها بل بنسبة أعلى مما يدفعه المسلمون شريطة أن تكون عشرا أو صدقة لاجزية أو خراجا . وهكذا كان دفع الضريبة بالنسبة الى غير المسلمين يحمل فى البداية معنى التبعية . لكن المساس بالكرامة كان طفيفا ولكنه حل محلا للاضطهاد البيزنطى كما يذكر القراء . وقد قدر لمرکز النصارى أن يتدهور فى السنوات اللاحقة بعد أن كان فى سنوات المسلمين الاول مركزا كريما

لاتشوبه آية شائبة(١) ، ومن هنا لا يكون غريبا أن يظهر أهل الحضرة في الاردن وفي داخل سوريا الفرح لما أسموه بأنقاذ العرب لهم من حكامهم البيزنطيين السابقين .

وقد اعتنقت معظم القبائل البدوية النصرانية الاسلام دون ضجيج ولقد كانت حروب الفتح الاسلامي بالنسبة الى أبناء هذه القبائل من محاربي الصحراء شيئا تهذا اليه نفوسهم ، وكان في مكنتهم اذا ما اعتنقوا الاسلام أن ينضموا الى قبائل الجزيرة العربية على قدم المساواة في خوض حياة يشملون فيها بأمجاد الحروب وغنائمها .

وكان الوضع مختلفا الى الغرب من سلسلة لبنان الشرقية ونهر الاردن ، فلقد ظل أهل هذه البلاد ينظرون الى اليونان ورومة أجيالا طويلة وكان بعضهم من أصل أوروبي فعلى . ولذا فهم ينظرون الى العرب نظرة تحمل معنى الزراية والكره ولم نسمع عن أهل هذه المناطق أنهم استقبلوا الفاتحين العرب بالرقص والاهازيج والموسيقى . وهناك تعقيد آخر يكمن في الخلاف بين أهل المدن وأهل الارياف . ويحتل هذا التمييز مكانة مهمة للغاية في البلاد العربية الشمالية اليوم بحيث يصعب على الاوربيين فهمه . وقد نشأت هذه الخلافات والعقبات بسبب الفروق في العمل تماما كذلك التي قامت بين أهل الدير والمدن في جميع أطراف الجزيرة العربية ، لكنها تولدت في سوريا وفلسطين على أي حال من جراء الفتوحات العسكرية . فلقد ظلت هذه البلاد عرضة للغزو قرونا عدة من الآشوريين والبابليين والمصريين والفرس واليونان والرومان ، وكانت كل دولة أجنبية فاتحة توطد أقدام سلطانها في المدن التي تقوم على حمايتها حاميات من القوات الاجنبية . وسرعان ما يأخذ أفراد هذه الحاميات في التزاوج والاختلاط مع أهل المدن التي يحتلونها لكنهم لم يكونوا يتزاوجون أو يختلطون الا على نطاق ضيق للغاية ، مع البداة أو الفلاحين . ومن هنا كان أهل المدن أقرب الى العنصر الروماني الاغريقي من أبناء القبائل أو القرى سواء من الناحية الثقافية أو الناحية العنصرية .

---

(١) يوحى قول المؤلف هنا ان العرب المسلمين أساموا إمام دولتهم للنصارى العرب وهو قول يحمل طابع التشويه التاريخي إذ أن مركز النصارى العرب ظل محترما طيلة عهد السيطرة العربية على الدولة الإسلامية ، وإذا كان التدهور قد لحق بهذا المركز بعد قرون طويلة عندما سيطر الشعوبيون من أبناء الشعوب الإسلامية على الدولة العربية وتدهور نتيجة هذه السيطرة مركز العرب عامة وبينهم النصارى .

وقاومت بلدة قنسرين (١) في شمال سوريا جيوش العرب التي يقودها في هذه المنطقة خالد بن الوليد . وقد أنزل بالمدافعين هزيمة شديدة واحتل المدينة عنوة ، وراح أبو عبيدة يزحف بعد ذلك على انطاكية التي كانوا يستمونونها بملكة الشرق والتي كانت تعتبر مع رومة والاسكندرية وبيزنطية أعظم مدن العالم القديم . وكان الابطارة العظام أمثال أوغسطس وطايبيريوس وتراجان وانطونيوس بايوس وهديران قد زانوها بما بنوه فيها من معابد ومسارح وحمامات وأقنية لمياه الشرب . ولكن الخراب لحق بنصف المدينة تقريبا أثناء الحروب التي وقعت بين كسرى والروم . ونشبت معركة في المنطقة التي تغطيها الغابات خارج الاسوار في غابات مهروبة ( الاسم الغربي لها هو دافني ) التي اشتهرت في الماضي بجمالها ، وبخفلات العهر والفسوق التي كانت تدور في ربوعها واضطرت حامية المدينة الى اللجوء الى داخل الاسوار ، ثم سرعان ما استسلمت وراح خالد يتسدد شمالا الى أن وصل سفوح جبال مرعش وأورفة وشمشاط ، وتراجع العرب على عاداتهم عند الجبال عن زحفهم وتوقفوا عندها بعد أن أقاموا حدهم الشمالي عليها الذي ظل قائما منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا .

وهكذا لم يحل خريف عام ٦٣٦ حتى كان العرب قد اجتاحت سوريا بأكملها حتى جبال الاناضول . أما الى الجنوب فكانت قيساريه والقدس لا تزالان صامدتين في وجههم وأقام العرب في غضون ذلك مركزا حريبيا لهم في الجابية في الجولان ، وهي مركز متوسط يستطيع الجيش أن يعمل منه بسرعة في جميع الاتجاهات لاختداد أية فتنة تثور . ويبدو أن فكرة اقامة مثل هذه المراكز المتوسطة التي تحشد فيها القوات العربية والتي لا يتاح فيها المجال للجنود للاتصال بالاهالي المدنيين مدينة في وجودها لعمر بن الخطاب . وسنسمع فيما بعد الكثير عن هذه المعسكرات والقواعد العسكرية .

ولقد كانت فلسطين منذ بداية الحملة على سوريا قبل ثلاث سنوات المنطقة الخاصة بعمر بن العاص . وكان في فترات الازمات ، كمعركة ليرموك مثلا ، يعود فينضم بقواته الى الجيش العربي الرئيسي . ولكن حالما يزول الخطر يعود الى تلك المنطقة ولقد سبق لي أن أوضحت أن أساليب العرب التعبوية التي جعلت منهم جيشا لا يقاوم في المناطق المنبسطة كانت صعبة على التطبيق في المناطق الجبلية أو

(١) قنسرين مدينة قديمة قرب حلب ويطلق على أحد أبواب حلب اسم باب

( العرب )

قنسرين .



المناطق الضيقة المحصورة ، ولهذا السبب وحده ظلّ عمرو بن العاص يحصر عملياته طيلة وجود الجيوش البيزنطية في المنطقة في السهل الساحلي الممتد من بئر السبع الى قيسارية . أما الآن فقد انتهى أمر الجيش البيزنطي ، ولم تعد هناك قوات في الميدان ولهذا السبب ارتقى العرب جبال القدس ( اليهودية ) وفرضوا حصارهم على مدينة القدس نفسها ( ايلياء ) ولم يبق أى أمل في الانقاذ عند المحاصرين ولا سيما بعد أن انسحب هرقل الى ما وراء جبال طوروس . وشرع صفرونيوس بطريق القدس في أواخر خريف عام ٦٣٧ ، ويقول بعض المؤرخين في خريف العام الذى سبقه يفاوض المسلمين ، وسرعان ما اتفق الفريقان على شروط استسلام المدينة . لكن صفرونيوس أصر على تسليم المدينة شخصيا الى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين . وبعث أبو عبيدة برسالة بهذا المعنى الى المدينة ، وقرر عمر على الفور أن يزور الجبهة السورية شخصيا .

وخرج عمر كعادته في ملابسه البسيطة المرقعة ، مع قافلة حملته الى درعا ( اذرعات ) التي تقع الآن على الحدود السورية الاردنية ( ذكرت اذرعات في سفر الملوك في التوراة كمسرح المعركة التي دارت بين داود وأوغ ملك باسان ) . واهتز الخليفة المتواضع المتطهر فزعا عندما رأى أهل البلدة يخرجون للقاءه بالأهازيج والسيوف والراقصين بينما تعزف النساء على الرقوق والدفوف ، وقال عمر : « أمنعهم » ولكن أبا عبيدة رد قائلا : « يا أمير المؤمنين هذه سنتهم وانك ان منعتهم منها يرون أن في نفسك نقضا لعهدهم » . فقال : « دعوهم » وان كان في قوله هذا معبرا عما يحس به من الغيظ والسخط لكن سخطه على قيادة المسلمين كان أشد وأقوى فلقد خرج للقاءه في جنوب البلدة أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد وهم على ظهور خيولهم تحيط بهم الفرسان وعليهم الدباج والحريز . ويقال أن الخليفة نزل عن بعيره وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال غاضبا : « سرعان ما لفتكم عن رأيكم ... أياى تستقبلون في هذا الزى ... وانما شبنتم منذ سنتين ما أسرع ما نلت بكم البطنة . والله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم » . وتقول الروايات ان القادة الذين احمرت وجوههم خجلا ردوا قائلين : « يا أمير المؤمنين انها بلامقة - أى في الظاهر - وإن علينا السلاح » . وهنا رضى الخليفة بعد امتعاض وتذمر . وقد أظهر المستقبل القريب صدق مخاوفه .

وجاء وفد يمثل بطريق القدس للقاء عمر في الجابية وسرعان ما تم

مقد الصلح وتسليم المدينة ، وشخص الخليفة بعد ذلك ، مارا بالطريق التاريخي القديم عبر وادي الأردن عند ييسان الى جبال نابلس ( السامرة ) التي تغطيها حقول الحنطة وكروم العنب وغايات الزيتون ، ومنها الى القدس حيث استقبله البطريك المدافع الحلو اللسان عن الكنيسة ، ولكن اذا كان البطريك قد اغرق في المجاملة ، وحلو الحديث وهو يرحب بالخليفة الا أنه ظل بعيدا في حشاشة فؤاده عن أن يكون صادق الود ، اذ عندما أخذ الخليفة البدوي ، البسيط اللباس ، العاري القدمين ، يطوف بكنيسة القيامة همس البطريك باليونانية في أذن أحد مساعديه قائلا : « لا ريب في أن هذا هو مقت الخراب الذي تحدث عنه دانيال النبي وهو واقف في المكان المقدس » ...

وحدث أن حان وقت صلاة الظهر - والخليفة لا يزال يطوف بأنحاء كنيسة القيامة وأراد أحد رجاله أن ينشر الحصر للصلاة على أرض الكنيسة ولكن الخليفة منعه قائلا : ان لن يؤدي صلاته هناك ، ثم اضاف قائلا : لو صليت هنا لأخذ المسلمون الكنيسة من يدي ليحولوها الى مسجد . وخرج عمر من الكنيسة حيث صلى خارج أسوارها . وما زال هناك مسجد صغير يقوم أمام الكنيسة في المكان الذي صلى فيه عمر . وتحتل القدس مكانة مقدسة عند المسلمين ، وكان النبي قد جعل منها أولى القبلتين كما أنه أسرى به من مكان الصخرة الى السماء في ليلة المعراج . ويبدو أن عمر بن الخطاب قد سلك سلوكا فيه الكثير من التواضع والعطف مع أهل المدينة المقدسة (١) ..

(١) حاول المؤلف تشويه الصورة الرائعة التي تشير الى عدل العرب وتسامحهم فأجرى بعض التحريف في الرواية واستعمل كلمة «ادعاء» الروايات ، مع أن ما فعله عمر كان مثالا إنسانيا رائعا من أمثلة التسامح الديني ، أما الرواية الصحيحة فهي على النحو التالي كما وردت في كتب التاريخ الاسلامي : حان وقت الصلاة وعمر في الكنيسة فقال للبترك ( البطريك ) أريد الصلاة فقال البترك صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردا . فلما قضى صلاته قال للبترك : لو صليت داخل الكنيسة أدخلها المسلمون من يدي وقالوا هنا صلى عمر بن الخطاب . وكتب لهم ان لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعا أبني فيه مسجدا فقال : على الصخرة التي كلم الله يعقوب عليها فوجد عليها رما كثيرا فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ولا ريبه في أن هذا الموقف الباهر الذي عامل به المسلمون المنتصرون مغلوبهم من أهل القدس يمكن أن يقارن بما أصاب أهل القدس حينما فتحها الصليبيون في القرون الوسطى من بلاء وما لحق بالمساجد الاسلامية وفي مقدمتها المسجد الأقصى من هوان اذ ربط فيه -

«أعد الخليفة أثناء هذه الزيادة ترتيباته لإدارة المناطق التي تم احتلالها كما قسمها أيضا إلى عدة مناطق عسكرية ، وفي ربيع عام ٦٣٨ عاد الحاكم العربي البسيط فاستقل جواده متجها إلى الصحراء لتصل به إلى المدينة .



سبق لي أن ذكرت أن جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة كان يقود مقدمة الروم في معركة اليرموك الأخيرة والحاسمة ، وكان هذا العربي معترزا بمكانته وأمارته فشق عليه أن يذعن لهؤلاء الغزاة البدو المهلهلي الثياب ، ولكنه بعد هزيمة الروم وتدمير جيشهم في اليرموك راح يعقد الصلح مع المسلمين ، ويعتنق الإسلام وراح يقصد المدينة لزيارة الخليفة ، وبينما كان يطوف بالبيت في حشد من الناس داس اعرابي من مزينة على طرف ثوبه ، فلطم جبلة وجهه وأطار عينه ، وشكا الاعرابي إلى عمر بن الخطاب فاستدعى جبلة إلى مجلسه وأمر عمر الاعرابي بالاعتصام منه ، طبقا للشرع الإسلامي الذي يقضى بالقصاص . واستشاط جبلة غيظا ومضى مرتدا بخيله ورجله إلى بلاده حيث لحق بهتزل بعد ذلك وراء جبال طوروس ومعه آلاف من أهله ورجاله . وكان لبنى غسان منزلة مبعجة عند العرب منذ عدة قرون ولذا فقد وجد هناك من انتقد تصرف عمر بن الخطاب وصرامته . وتغلبت نصيحة المستشارين فأوفد عمر الرسل إلى جبلة لدعوته للعودة إلى المدينة . وهناك رواية أخرى تقول أن جبلة بعد أن مضى إلى بلاد الروم شعر بالحنين إلى وطنه وعشيرته فأوفد الرسل إلى عمر ينشد عفوهم وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية فإن الاتفاق لم يتم ، وحرمت الامبراطورية الإسلامية من اشتراك أسرة ظلت لمدة ثلاثة قرون ونصف القرن تعتبر من أمجد الأسر العربية وأعرقها (١) .

ونقل هنا بعض الأبيات الشعرية التي نسبت إلى جبلة بن الأيهم

---

« الصليبيون خيولهم ، وكذلك بما أصاب أهل فلسطين بعد الغزو البريطاني لها في الحرب العالمية الأولى إذ سلمها الاستعمار الإنجليزي إلى اليهود بعد أن عملوا على إجلاء أهلها العرب عنها .

(١) لم تحرم الأمة العربية من شيء بفرار جبلة وقومه وارتدادهم إذ أن ردتهم هذه كانت خيانة قومية قبل أن تكون ردة دينية . ولعل الأمة العربية بخلاصها من هؤلاء قد ظهرت صفوها من الخيانة استعدادا للمعارك المنتظرة ، وهو كسب للقضية العربية ؟؟ خسارة كما يحاول المؤلف أن يقول ...

( العرب )

وقد قالها وهو في ديار الفسربة في بلاد الروم يعلن فيها حنينه الى بلاده ...

تنصرت الاشراف من عار لطفة وماكان فيها لو صبرت لها ضرر  
تكنفني فيها لججاج ونخوة وضعت بها العين الصحيحة بالعمور  
فيا ليت امي لم تلدني وليتنى رجعت الى القول الذي قاله عمر  
وباليتنى أرى المخاض بسمنة وكنت أثرا في ربيعة أو مضر  
وباليتنى بالشام أو في معيشه اجالس قومي ذاهب السمع والبصر (١)

ولقد وقعت معركة اليرموك الكبرى والحاسمة في يوليو ( تموز ) عام ٦٣٦ ، ومن واجب القارئ ألا يخلط بينها وبين استيلاء العرب على مواقع اليرموك الدفاعية قبل نحو من عام أى في سبتمبر عام ٦٣٤ بعد معركة أجنادين ، ولاريب في أن هذا الخلط بين العمليتين الحربيتين على نهر اليرموك هو الذي حال بين الكثيرين من المؤرخين الاوروبيين وبين فهم الفتوحات العربية . وفي وسعنا ، وهذا هو الافضل ، أن نطلق على العملية الاولى في عام ٦٣٤ اسم معركة اليرموك الاولى وعلى الثانية في عام ٦٣٦ اسم معركة اليرموك الثانية .

واحتسملت القدس في شتاء ٦٣٧ - ٦٣٨ . ولم تصمد الا قيسارية في مقاومتها بمينائها ومدينتها متلقية المؤن من الاسطول البيزنطي مما جعلها قادرة على المقاومة حتى عام ٦٤٠ . وفي هذه السنة بالذات تم احتلال سوريا وفلسطين بكاملهما وأصبح احتلالا ثابتا لا يتعرض لاية هزة .

---

(١) اشارة الى حسان بن ثابت الشاعر الانصارى المعروف وكان جبلة قد سأل بعض قادميه منه فقبل له انه ذاهب السمع والبصر . ( العرب )

## تواريخ بارزة

- معركة اليرموك ٢٠ من أغسطس ٦٣٦  
البطريق صفرونيوس يعرض  
استسلام القدس للخليفة .  
عمر بن الخطاب يزور القدس يناير ٦٣٨ ( كانون الثاني )

## شخصيات مشهورة

- ثيودوروس ( تودز )  
القائد الاعلى للروم قتل في معركة  
اليرموك  
شنس  
قائد الارمن في جيش تودز  
صفرونيوس  
البطريق اليوناني في القدس  
جبل بن الايهم  
آخر ملوك الفساسنة .



## القادسية والمدائن

« يا أيها الذين آمنوا ، اذا لقيتم الذين كفروا  
نزحوا فلا تولوهم الأدبار » ومن يولهم يومئذ دبره ،  
ولا متحرقا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب  
من الله وماواه جهنم وبئس المصير » \*

القرآن الكريم - سورة الأنفال

\* \* \*

« ان اجتماع العصبة القبلية الى الحافر  
للدينى جعل الحماس طاغيا »

مترجمة الى الانجليزية عن ابن خلدون .

\* \* \*

« وتطلبون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف  
تفتطرد الخمسة منكم مئة والمئة منكم تطرد ربوة  
ونسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف » \*

سفر الأخبار - الفصل ٢٦ - ٧





تركنا المسلمين عند نهاية الفصل الثامن أى فى نوفمبر ٢ تشرين الثانى ( عام ٦٢٥ ) وقد عادوا الى السيطرة المطلقة على الحوض الأسفل للفرات اثر انتصار المثنى الرابع فى معركة البويب ١٠ وقد استعادوا الحيرة وأخذوا يقيمون على المنطقة التى بين دجلة والفرات حتى ارباض المدائن عاصمة الفرس ، ولكن المثنى كان يحتضر الآن متأثرا من جراحه ، وكانت الجيوش العربية فى حاجة الى قائد يسوس أمورها .

ولم يشعر رستم القائد العام عند يزودجود باليأس ولم يدب القنوط الى قواده ٥ ومن المحتمل أن تكون القوة التى اشتبك العرب معها فى البويب طليعة قذف بها الى الامام على حين كان يجرى جمع الجيش الرئيسى وتنظيمه ، وبدأت النجدات ترى على المدائن ، والتف النبلاء حول راية ملكهم وعادت الحماسة فديت فى صدورهم ، وسرعان ما عادت قوات الفرس الى التقدم واضطر العرب الى الخروج ثانية من سهول السواد الخصبة وعبور الفرات عائدين الى الصحراء متخليين عن الحيرة والانباء وفتوحهم الاخرى .

وبعث المثنى وهو على فراش الموت بكتابه الى عمر يناشده فيه الفوث والمدد . ولم يتوان الخليفة عن تلبية النداء ومواجهة الحسالة الطارئة ، فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل يستحثهم على ارسال النجدات الى المدينة ، وسرعان ما كان جيش جديد فى طريق التشكيل فى العاصمة ، وأعلن الخليفة وسط الجموع العاشدة اعتزاه قيادة الجيش بنفسه . ولكنه سرعان ما سمح لكبار مستشاريه بأن يقتنوه بالعدول (١) بعد أن أوصوا بقيادة الجيش لسعد بن أبى وقاص،

---

(١) هناك تحريف من المؤلف للرواية العربية : روى الطبرى انه لما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى حرار فمسك به ولا يدري الناس ما يريد : ايسر أم يقيم ؟ وكانوا اذا أرادوا أن يسألوه من شيء رموه بعثمان أو عبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في اشارة عمر رديفا ، ونادى عمر الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس عليه فاخبرهم الخبر وانتظر ما يقولونه فقالت العامة سر وسر بنا ملك ، فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم في وفق فقال ١٠ استمدوا وأعدوا فأتى سائر الا أن يجرى رأى امثل مع هذا ثم بعث الى أهل الراى فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على ان يبعث رجلا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرميه بالجنود . فان كان مايرجو من الفتح ، =

وكان عمر هو الذى اختار وحده أبا عبيد السجى الطالع لقيادة الجيش السابق ، أما الآن فقد سمح لمستشاريه بأن يتولوا هم الاختيار . وكان سعد من أقارب النبی ومن أوائل صحابته والمؤمنين به . وقد ذاع صيته فى شبابه بأنه خير من یرمى القوس ، كما اشتهر بأنه أول من سفك دما فى سبيل الدعوة الإسلامية ، وكان قصير القامة بدينها ، ذا رأس ضخم ، وشعر جعد . وقد عرف بأنه بطل من أبطال الحرب والقراع . وكان قد بلغ الأربعين من عمره عندما اختير قائدا عاما لجبهة الفرس ، ولم يكن فى وسع أى من شيوخ القبائل ورؤسائها أن يحتج على قيادته نظرا لقربائه من رسول الله ولأنه من محاربى بدر الأوائل ، ومع ذلك فقد حلز عمر - كما قيل - من الفرور ، إذ أن قريشا كانت قد تحولت بسرعة الى منزلة الطبقة الارستقراطية المتكبرة فى الامبراطورية الجديدة ، وراح يقول لسعد : ان الله ينظر الى الناس بأعمالهم لا بأحسابهم وأنهم جميعا عيال الله ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

وخرج سعد من المدينة فى الايام الاخيرة من خريف عام ٦٣٦ على رأس نحو من أربعة آلاف رجل ثلاثة آلاف منهم من أهل اليمن ، وقد اصطحب كثيرون من أبناء القبائل نساءهم واطفالهم ومواشيهم . وظل هم يوالى ارسال كل من يفد اليه من المتطوعين وراهم وهى عملية كانت تتطلب منه الكثير من النقاش والاقناع ، إذ أن الغالبية كانت لاتزال تصر على الذهاب الى سورية لا الى العراق .

وضرب سعد خيامه فى شتاء عام ٦٣٦ - ٦٣٧ عند بئر فى نجد يسمى الثعلبية لتتوافد اليه جموع القبائل المحلية ، وتنضم الى جيشه وكان دفع الحظر عن القبائل المرتدة والسماح لها بالقتال مع المسلمين قد

---

= والا عاد رجلا ، وتذب جندا آخر ، فنادى عمر الصلاة جامعة ، وبعث الى على ، وكان قد خلفه على المدينة ، والى طلحة ، وكان على مقدمته ، ولما تكامل جمعهم ، قال : ان الله قد جمع على الاسلام اهله ، فآلف بين القلوب ، وجعلهم فيه اخوانا ، والمسلمون فيما بينهم ، لا يخلو منه شيء ، أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم ، وبين ذوى الراى منهم ، فالتاس بيع لمن قام بهذا الامر ، ما اجتمعوا عليه ، ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه تبعاً لهم . أبعد الناس ، انى انما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الراى منكم من الخروج ، فقد رأيت أن أقيم ، وأبست رجلا . وقد لحضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت ( يريد عليا وطلحة ) . ثم أجال معهم الراى فبمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم وافق الراى أخيراً على تولية القائد العظيم ، سعد بن أبى وقاص الزهري القرظي . ( العرب )

أدى الى زيادة ضخمة في عدد المتطوعين . وسرعان ما انضم اليه نحو من أربعة آلاف رجل من بنى تميم . حتى طليحة مدعى النبوة فتح الآن صفحة جديدة في تاريخه ، وسارع الى الانضمام الى جيوش المسلمين على رأس ثلاثة آلاف رجل من قبيلته بنى أسد .

ولحق بالجيش زعيم آخر من زعماء الردة هو الأشعث بن قيس شيخ كندة وصهر أبى بكر على رأس جيش لجب من محاربى حضرموت ، وقدم الى المدينة عمر بن معد يكرب على رأس جماعته من زبيد في اليمن واستقبله الخليفة استقبالا حسنا ومنحه مع غيره من شيوخ القبائل من ذوى الأهمية ، مبلغ ألفى درهم . ولم يكن من السهل ارضاء عمرو هذا فقد ذاع صيته ، بأنه أكول نهم ، فضرب على جنب بطئه الأيمن وقال بصوت عال « ألف هنا » ثم عاد فضرب جنبه الأيسر وقال : « ألف هنا » ثم أشار الى أوتبط بطئه يقول : « وماذا يبقى هنا » فضحك الخليفة وأعطاه خمسمائة أخرى .

وما زالت عادة الهبات النقدية والكسايى لرؤساء القبائل متبعة فى المملكة العربية السعودية حتى يومنا هذا وقد اضطرت ابان عملى مع البدو الى مراعاتها ، ولما كنت أعرف آننى مهما دفعت ، فان الشيخ الذى أقدم اليه الهدية سيطلب المزيد ، كنت أقدم اليه أولا ثلثى المبلغ الذى جددته له . وكان البدو يطلقون على الدفعة الاضافية الاخيرة اسم اللحقة ، «تصغير اللحقة» :

وسار سعد من الثعلبية فلقبه معن بن حارثة ، شقيق المثنى عند العذيب ، وكان أخوه قد توفى . (١) وكان يحمل راية المثنى وآخر رسالة من القائد المتوفى الى القائد الجديد ، ينصحه فيها بأن يحارب العبدو فى الصحراء ، لأنه سينتصر فيها ، اما اذا قدر له أن يهزم فسيجد الصحراء الودودة المعروفة لديه وراء ظهره ، وشيعجز الفرس عن اللحاق به فيها فينظم جيشه ويعاود الكرة ثانية . هذه هى خلاصة الخطط السوقية العربية فى العراق وسورية وهى الخطط التى أهملها أبو عبيد اهمالا مفرجا فى معركة الجسر .

---

(١) يقول البلاذرى : وبار سعد الى العراق فأقام بالثعلبية ثلاثة اشهر حتى تلاحق به الناس . ثم قدم العذيب فى سنة خمس عشرة . وكان المثنى بن حارثة مريضا فأفاد عليه بأن يحارب المدو بين القادسية والعذيب . ثم اشتد وجهه فحمل الى قومه فمات فيهم ، وتزوج سعد امراته .

وكان سعد مصمما على ألا يزج بجيشه قبل الأوان في معركة قد تكون حاسمة ، وظلت القوات والقبائل العاملة تحت امرته موزعة أكثر من ثلاثة أشهر على منطقة فسيحة في الصحراء ، تبلغ مساحتها نحو من مائتي ميل مربع . ولما كان الكثيرون منهم معهم عائلاتهم وقطعان مواشيهم كان من الصعب حشدهم في منطقة أضيق . يضاف الى هذا ان تعذر الحصول على العلف لمثل هذا العدد الكبير من الحيوانات جعل من الأفضل ضمان ثلاثة أشهر من المرعى الصحراوي الهادئ . لتقوية الجياد والابل . وجعلها قادرة على خوض المعركة المنتظرة .

ولما كان الطقس شتاء كان الماء متوافرا في الصحراء للجميع . وكان نحو من ثمانين ميلا تفصل بين الاطراف الشمالية للمنطقة التي عسكر فيها جيش سعد وبين القرات ، وهي ارض صحراوية خالية من الماء تؤلف مواقع (شراف وسلمان وشدهل) قوسا أمامية لها . وهكذا كان من الصعب على الفرس أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة فوق جيادهم لمواجهة العرب في اراضي تدريبهم .

وهكذا توافر الوقت الكافي لسعد لتنظيم جيشه دون أن يخشى التدخل من العدو . وعلى سبيل المائلة ، تمكنت بريطانيا والولايات المتحدة من تدريب جيوشهما في انجلترا لعملية الغزو ، معتمدين على حماية القناة الانجليزية (المانش) . وهكذا نجد مرة ثانية المقارنة مائلة أمامنا بين الصحراء والقوات البحرية .

والمؤرخون الذين ندين لهم بكل ما يبقى من قصة الفتوح العربية إنما هم من أبناء المدن البعيدين عن حياة البدو والصحاري والمعارك . ولهذا لم يحاول أي منهم أن يصف لنا طريقة تدريب العرب أو أساليب التعبئة التي اتبعتها هذه الجيوش الفاتحة . ولكنهم ذكروا لنا ولأول مرة أن سعد ابن أبي وقاص . . . كان مشغولا في هذه الفترة من الراحة في تنظيم القوات العربية . ويقال انه قسمها الى جماعات في عشرات ، على كل عشرة منها غراف أو عريف . وكانت قد انقضت على العرب - وقتذاك - ست سنوات ، وهم في حالة حرب مستمرة مع الجنود المدربين من جيوش الروم والفرس . ومن المقول كل العقل ، أن نفترض أنهم اكتسبوا بعض الآراء . . عن الفن الحربي . . التي تعتبر مقدمة بالنسبة الى ما كان يعرفه الجفافة من أهل البادية .

ويبدو أن جميع الجيوش في العالم في تلك الآونة كانت تقسم الى

مقدمات ومجنبات وساقة ، والى طلائع ورجل وركبان ، وقد اقتبس العرب هذا التنظيم وطبقوه فى جيوشهم . وكانت القوات التى يعهد اليها والى قياداتها القيام بهذه الواجبات تحتفظ عادة بالمراكز التى تنتدب لها طيلة الحملة كلها . ويبدو أن سعدا قد عين نائباً له ؛ ثم عين أمراء الثعلبية على المقدمة والأجنحة والمؤخرة ؛ وغيرها من الوحدات بالإضافة الى أمراء الرايات وأمراء الأعشار ثم القواد من رؤوس القبائل . وليس نمة من ذكر خاص لتعيينات بين أمراء الوحدات وأمراء الأعشار الا اذا اعتبرنا أصحاب الرايات فى الواقع من أمراء السرايا أو الاوواج .

ويبدو أن حجم السرية فى الجيش العربى كان مطاطا مرنا للغاية ، اذ ان هذه الوحدات ظلت تحتفظ بطابعها القبلى . فالوحدة تؤلف من القبيلة الواحدة ، ولما كنا قد ألفنا فى القرنين الماضيين سماع ما تنزله وحدات نظامية من الجيوش الحديثة من هزائم بالقوات القبلية البدائية ، فاننا نميل الى اعتبار التنظيم القبلى مفتقرا الى الكفاية من وجهة النظر العسكرية ولكننى ارى أن الافتقار الى الاسلحة الحديثة عند هذه القبائل ، هو السبب فى الهزائم المذكورة ، لا التنظيم القبلى . أما عندما كان الرمح والسيف والفرس هى الاسلحة الرئيسية الموجودة فقد كان فى وسع القبائل أن تتسلح بها تماما كالجيوش النظامية يضاف الى هذا أن القبيلة تمتاز بدافع الغريزة « بروح الجماعة » التى تحاول الجيوش الحديثة تل ما وسعها الجهد خلقها فى جنودها . وطالما كان النظام القبلى قائما فان أبناء القبائل كانوا يحاربون حتما مع أبناء عموماتهم بشكل أفضل مما تحارب به الجماعات المختلطة ، المؤلفة من رجال يمتون الى قبائل أخرى تعتبر بعضها البعض غريبة عنها .

ويقوم الدليل على وجود هذه المزايا عند جميع القبائل ، لا العربيه وحدها ، من الحقيقة الواقعة ، وهى أن جيوشا صغيرة من القوط والفاندال وغيرهما . . من البرابرة . . كانت كافية للإطاحة بالامبراطورية الرومانية . (١) وكان الافتقار الى الانضباط عند القبائل العربية سببا

---

(١) يقال ان عدد القوط الشرقيين الذين احتلوا ايطاليا فى القرن الخامس للميلاد لم يزد على العشرين الفا من المحاربين فى حين كان سكان ايطاليا يمدون بين خمسة وستة ملايين ، وكان عدد القوط الغربيين الذين اجتاحتوا اسبانيا ، وكانت ولاية رومانية ، لم يزد على هذا الرقم ، واستولى جنيسريك ملك الفاندال على افريقية الشمالية بجيش لا يزيد على الخمسة عشر الفا وكلها ارقام تتشابه مع ارقام الجيوش العربية . (راجع كتاب محمد وشارلمان لهنرى بيرين .

( المؤلف )

دائما من أسباب ضعفها الحربى • ولكن الدين الاسلامى الحديث كان ٠٠٠  
فى الفترة التى نكتب تاريخها الآن ٠٠٠ قد سسد هذا النقص وأمن  
الانضباط فى جيوش المسلمين ؛ حيث جعل طاعة أولى الأمر واجبا  
دينيا •

ومن المحتمل أن يكون سعد تحرك الى الشمال من أشرف باتجاه  
العذيب القريب من الفرات • والتى تبعد بضعة أميال عن خان الرهبة  
فى ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٦ م أو يناير (كانون الثانى) عام ٦٣٧ م  
وأصدر أمره الى جميع القبائل وبينها بالطبع تلك التى كانت تقاتل تحت  
امرة المثنى ، على أن تحتشد فى المنطقة نفسها •

وكان جيش المثنى فى معركة البويب يعد نحو من اثنى عشر ألفا  
نصفهم من قبيلته بنى بكر • ويعتقد أن سعد بن أبى وقاص حشد  
العدد نفسه تقريبا عندما تحرك من الثعلبية الى شراف ؛ واذا ماجمعا اليه  
الوحدات التى ظلت تصل باستمرار تبين لنا أن الجيش العربى الذى  
احتشد فى العذيب كان يعد نحو من ثلاثين ألف مقاتل ، واذا ماقدرونا هذا  
الجيش بجيش المثنى المؤلف من البدو فقط ، تبين لنا أنه - أى جيش  
سعد - كان يضم نحو من ١٤٠٠ من صحابة الرسول وبينهم تسعة  
وتسعون من محاربى بدر •

وكان العرب قد حققوا نصرهم الضخم فى معركة اليرموك فى سورية  
فى شهر أغسطس عام ٦٤٦ • ولم تكذب أنباء النصر تصل الى الحليفة حتى  
أصدر أمره الى أبى عبيدة بأن يعيد الى العراق القوة التى كان خالد قد  
سار بها قبل نحو من عامين من جبهة الفرس الى سورية • ولكن خالد لم  
يرافق قوته فى طريق العودة ؛ وانما قادها وهى تضم نحو من ستة آلاف  
جندى ٠٠٠ قيس بن المكشوح أحد قادة الردة السابقين فى اليمن ؛ ومعه  
القعقاع المتهور الذى تسلىق مع خالد أسوار مدينة دمشق يوم فتحها ؛  
لكن هذه القوة لم تكن قد وصلت بعد من سورية عندما وصل سعد  
على رأس جيشه الى العذيب •



ولم يكن الفرس فى غضون ذلك مخلصين الى الراحة والكسل ؛  
وكانوا - تلبية لأمر يزدجرد وحثه وحيوته - قد حشدوا جيشا ضخما  
بقيادة رستم القائد المتمرس الذى خبر الحرب فى عدة حملات وقد حمل  
الفرس لهذه المعركة راية الاسرة الساسانية المألوفة للتدليل على أهميتها ؛

# معركة القادسية



وَألف نحو من ثلاثة وثلاثين فيلا « الفيلق المدرع الذى تفرر أن يقود الهجوم » وقدر المؤرخون العرب جيش الفرس هذا بما يتردد بين الستين ألفا والمائة والعشرين ألفا وربما لا يقبل المرء هذه الأرقام وإن كان من المحتمل أن يكون جيش رستم أكثر عددا من جيش سعد (١) .

ومن المحتمل أن يكون رستم قد تحرك فى ديسمبر (كانون الاول) عام ٦٣٦ من المدائن باتجاه الجنوب ليرابط فى ضواحي بابل . وكانت خطط القائد العجوز تختلف اختلافا بينا وجنريا عن خطط الملك الشاب . فلقد كان رستم حريصا على تجنب الدخول فى معركة فاصلة وكانت امبراطورية الفرس فى تلك الايام تمتد بعيدا الى السند فى دولة الباكستان الحديثة ، وتضم كل مانسميه بأفغانستان . ولم يكن العرب قد خدشوا من هذه الامبراطورية الواسعة الا طرفا صغيرا منها ، وكانوا قد جلوا الآن - كل الجلاء - عما خدشوه منها وعادوا الى صحرائهم . وكان يرى أنه اذا ظل الجيش الذى أعده والمسمى باسمه قائما وغير مغلوب فإن العرب لن يستطيعوا عبور الفرات الا فى غزوات صغيرة بقصد الاغارة ، الا اذا أصبحوا على أهبة لحوض معركة أكبر فى المنطقة المزروعة . وهى معركة لابد أن تكون نتيجتها فى مصلحة الفرس .

يضاف الى هذا أن القائد العجوز الماكر ، اعتقد أن الحماس العربى سيفتر يوما ما وإن الخلافات الداخلية قد تفتت وحدتهم . وهكذا تركزت خطة رستم على البقاء على الضفة الشرقية للفرات ، وترقب مايقع من أحداث .

أما يزدجرد الشاب ، فكان يرى رأيا معاكسا تماما لرأى قائده وراح يبحث قائده بشئ من الغرور ونفاد الصبر ، على أن يجرف بجيشه هذه النفائات ، الصحراوية ، من حدود ممتلكاته ، وإن يطاردها الى عقر دارها وسط الصحراء ، ليقترض منها على جرأتها فى ايداء رعايا ملك الملوك . لكن رستم أصر اصرارا عجيبا على رأيه ، ويقال : أنه حاول المظل ، فقضى زهاء أربعة شهور فى زحفه من المدائن حتى الحيرة ، أى فى مسافة لا تعدو السبعين ميلا .

وكان الخليفة فى غضون ذلك ، قد أمر سعدا بأن يبعث بالرمسل

---

(١) محاولة جديدة من المؤلف للتشكيك فى التاريخ العربى ومن ثم للتشكيك فى أهمية النصر الراجع الذى حققه العرب فى معركة القادسية العظيمة .



الى يزددجرد ليطلبوا منه اسلامه • وهكذا سافر الى المدائن وقد يضم نحواً من عشرين فارساً عربياً من الذين اشتهروا بالشجاعة والفروسية وفصاحة القول ، بينهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والأشعث بن قيس ، وكلاهما من زعماء الردة السابقين • وعندما مر رجال الوفد بالقاعة الكبرى في طريقهم الى كسرى ، لم تستطع الجموع أن تكبت ضحكاتها الساخرة منهم لرؤيتها ملابسه الخشنه وأسلحتهم البسيطة ، ومظهرهم المفتقر الى الهدام لكن السلوك الاستقلالي الجريء الانوف الذي سلكه هؤلاء العرب الاحرار من أبناء الصحراء أثر تأثيراً عميقاً على أفراد بطانة يزددجرد المترفين الناعمين •

واختار الوفد عند مثوله أمام كسرى ••• النعمان بن مقرن ••• ليكون الناطق باسمه ، وهو من صحابة الرسول من الانصار • وراح النعمان يحدث كسرى بتاريخ ارسال النبي صلى الله عليه وسلم الى العرب لانقاذهم من جاهليتهم ثم دعاه الى الاسلام هو وقومه ، فان أبى فالجزية مع التبعية لحماية المسلمين • أما اذا رفض كلا الأمرين فخسارة العرش أمر حتمي (١) •

ويبدو أن كسرى ثار غضباً من هذه الاقوال ، وله الحق في ذلك ، ورد بأن العرب قوم فقراء ، جفاة ، أنصاف جائعين من الصحراء • وقد ردوا عليه بأنهم كانوا حقاً فقراء والفقير لا يعيب صاحبه ، ولكن الله وعدهم بالثراء والوفرة • ولكن الملك الشاب ، استشاط غضباً من هذا الرد ، وصرخ بهم قائلاً انه لو لم يكن من العار قتل السفراء ، لقتلهم على بكرة أبيهم وطلب بعد ذلك وقراً من تراب ليحمله رئيس الوفد ، مشيراً بذلك الى زرايته بهم ومضى الوفد الاسلامي يحمل كيس التراب ، ليقدموه الى سعد بن أبي وقاص متفائلين به ومستبشرين وقائلين لقائدهم : «أبشرفقد أعطانا كسرى تراب بلاده» (٢) •

---

(١) و (٢) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف الذي اقتضاه التلخيص من رواية المؤرخين المسلمين • وهانذا أنقل للقارئ الكريم الرواية كاملة :

اختار سعد تنفيذاً لأمر عمر دعاء بث بهم الى ملك الفرس عليهم نجار ، ولهم آراء ، ولهم منظر ، وعليهم مهابة • وجاءوا الى المدائن واستأذنوا بالدخول على الملك فآذن لهم ، ومع يزددجرد ونداءه ووجوه أرضه • فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه : سلمهم ما جاء بهم ، وما دعاهم الى غرورنا والولوع ببلادنا ، أمن أجل أنا حميناكم ونشأفلكم منكم اجترأتم علينا ، فرد النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد ، فذكر تاريخ ارسال الرسول ، وما كان من شأن العرب منه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك : لم أمرنا ان لبداً بمن يلينا من الأمم فنذهبهم الى الانصاف ، فنحن نذهبكم الى ديننا =

ولقد وقع حادث طريف مماثل لهذا في يوليو سنة ١٧٩٩ ، عندما

= وهو دين سن الحصى ، وقبح القبيح كله ، فان ابيتم ، فامر من الشر هو اهون من آخر شر منه الجراء ، فان ابيتم فالناجزة ، فان اجبتم الى ديننا ، خلفنا فيكم كتاب الله ، واقمنا لكم عليه على ان تحكموا باحكامه . ونرجع عنكم . وشانكم وبلادكم . وان انقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ، ومنعناكم ، والا قتلناكم ، فقال يردجورد : انى لاعلم في الارض امة كانت اقصى ولا اقل عددا ولا اسوا ذات بين منكم . قد كنا نوكل بكم قسرى الفواحى فيكونوا اياكم . لانزروكم فارس فتطمعون ان تقوموا لهم . فان كان مسدد لحق فلا يفرنكم منا ، وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم ، واكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرافق بكم ، فسكت القوم فقام المغيرة بن زردة الاسيدى فقال :

ايها الملك ، ان هؤلاء رموس العرب ووجوههم ، وهم اشراف وانما يكرم الاشراف الاشراف ، وليس كل ما ارسلوا به جمعه لك ، ولا كل ما تكلمت به اجابوك عليه ، وقد احسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك ، فجاوبنى لاكون الذى ابلغك ويشهدوا على ذلك : اما ما ذكرت من سوء الحال فما كان اسوا حالا منا ، واما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجرذان والمقارب والحيات ، فترى ذلك طعامنا ، واما المنازل فانما هي ظهر الارض ، ولا نليس الا ما غزلنا من اوبار الابل واشعار الغنم ، ديننا ان يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض . وان كان احدنا ليدفن ابتسه حية كراهية ان تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله الينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فارضه خير من ارضنا ، وحسبه خير من احساننا ، وبهته اعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرا في الحال التى كان فيها ، اصدقنا واحلنا ، فدعانا الى امر فلم يجبه احد ، اول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال ، وقتنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا الا كان ، فكلف الله في قلوبنا التصديق له واتبامه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما امرنا فهو امر الله . فقال لنا ان ربكم يقول انى انا الله وحدى لا شريك له . كنت اذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك الا وجهى ، وانا خلقت كل شيء ، والى يصير كل شيء ، وان رحمتى ادركنكم ، فبعثت اليكم هذا الرجل لادلکم على السبيل التى بها انجيكم بعد الموت من عذابى ، ولاحكم دارى ، دار السلام ، فنشهد عليه انه جاء بالحق من عند الله وقال من تابكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فامرضوا عليه الجزية ، ثم امنوه مما تمنعون منه انفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فانا الحكم بينكم ، فمن قبل ادخلته جنتى ، ومن بقى منكم اعقبته النصر على من ناواه ، فاختر ، ان شئت الجزية عن يد وانت صاغر ، وان شئت فالسيف او تسلم فتنجى نفسك ، فقال كسرى :

استقبلنى بمثل هذا ، فقال : ما استقبلت الا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك لم استقبلك به ، فقال : لولا ان الرسل لا تقتل ، لتقتلكم ، لا شيء لكم هندى ، ثم قال ايتونى بوتر من تراب ، فاحملوه على اشرف هؤلاء ، ثم سوفوه حتى يخرج من المدائن ، ارجعوا الى صاحبكم فاعلموه انى مرسل اليه رستم ، حتى يدفنكم ، ويدفنه في خندق =

استقبل والى بغداد التركي مبعوثا من سعود بن سعود الوهابي . وكان الوالى قد أمر ضباطه وجنوده ورجال حرسه بأن يرتدوا بزياتهم العسكرية للتأثير على الوفد الوهابي ، الذى أثبت بدوره أنه من البداية الجفاة الغلاظ ولم يتأثر السفير البدوي بأبهة بلاط الوالى ، وجلس على الارض أمام الوالى موجها اليه خطابا مشحونا بالتحدى والزراية والتعالى (راجع لونكريج - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) .

وكان العرب قد شرعوا فى غضون ذلك فى الاغارة على المناطق الزراعية على ضفاف الفرات ، وكانت غايتهم من هذه الغارات الحصول على المطعم لانفسهم وحيواناتهم . وقد تمكن الخليفة من أن يبعث اليهم ببعض المواشى ، ليؤمن لهم ولو جزئيا شيئا من اللحم اللازم لهم . لكن هذه المواشى وصلت نحيلة ، لآخر فيها ، لانها ارتحلت مسافة بعيدة فى قلب الصحراء ، ولكنه كان عاجزا عن تموينهم بالقمح لحبزههم أو العلف لحيواناتهم . وكان الفرس الذين يقعون ضحايا هذه الغارات ، يتوجهون صارخين بالشكوى الى الملك طالبين الحماية لممتلكاتهم ، وهكذا ظلت معنويات العرب الذين يواصلون هجماتهم فى ارتفاع فى حين هبطت معنويات الفرس الذين يشهدون بأم عينهم الحراب والدمار يلحقان ببلادهم ، وأصغر يزدجرد الشاب أخيرا أوامره الى قائده المثانى بأن يخوض المعركة فورا مع المسلمين . ولما عجز رستم عن التسوية أو المماطلة ، تقدم بجيشه ورابط به على ضفاف الفرات فى مواجهة العرب . ويبدو أنه كان لايزال يأمل فى تأخير المعركة الحاسمة أو تجنبها فأوفد الى سعد بن أبى وقاص رسولا يطلب اليه توجيه بعض أصحابه اليه .

وقرر سعد - بعد التشاور مع كبار رجاله - ان ايفاد الوفد يعتبر دليلا على شيء من الاحترام الذى لا يرغب فيه ، ولذا فقد أرسل اليه شخصا واحدا ، كان بدويا غجوزا . وعندما وصل البدوي وجد «رستم» يجلس على سرير كالعرش ، وقد أحاط به قادته ورجال حرسه ؛ وأمامه تمتد بسط فاخرة من السجاد العجمى النادر . وظل الرسول العربى يتقدم على متن فرسه الصغيرة المهزولة فوق البسط والسجاد ؛ حتى ترجل

= القادسية وينكل بكم وبه من بعد ، ثم أوردكم بلادكم ، حتى أشفلكم فى انفسكم بأشد مما نالكم . ثم قال : من أشرككم ، فقال حاصم بن عمرو : انا . فحملوه وقر التراب على عنقه ، فحملة ... حتى أتى راحته فحملة عليه ، ثم ساروا به ، فأتوا بالتراب سعدا وبشره بالظفر متفائلين .

( العرب )

عنها أمام رستم ثم خطا على قدميه قاصدا سريره ليجلس معه عليه ؛ فمنعته الأساورة من حرس رستم وأمسكوا بيديه ليحولوا بينه وبين السرير وهتف البدوي قائلا : « أنا لم آتكم الى هنا لينزع سلاحى منى ؛ ولكنكم دعوتهمونى اليوم فلم أرغب فى المجيء أما اذا كنتم ترغبون فى أخذ سلاحى ، فسأعود الى قومى » وأمر رستم رجال حرسه بالتراجع عن الرجل ؛ وخطا البدوي العجوز الذى كان يبدو فى حالة من الانشراح الكامل ، يتكئ على رمحہ ؛ وفى كل تكأة خرق يحدثه برأس رمحہ فى السجاد الثمين ، وعندما وصل أمام القائد أعمل رمحہ ثانية فى سجادة أخرى نادرة ، فخرقها ؛ ثم أوقفها على الأرض وقال فى معرض الرد على أسئلة رستم : انه يدعو الى عبادة الله وحده ، والايمان بنبيه والا فالجزية عن يد صاغرة ؛ والا فالسيف هو الحكم « بيننا وبينكم » . وطلب رستم مهلة لدرس هذه الاقتراحات ونقلها الى كسرى ، ولكن البدوي العجوز رد عليه بأن رسول الله حدد دائما مثل هذه المهلة بالمهادنة لثلاثة أيام فقط . وأوفد سبعة فى اليومين التساليين رسلا منفردين كانوا على ما كان عليه البدوي من كبرياء وتحد وغايتهم كما يبدو اضعاف الروح المعنوية عند الفرس . وكان المغيرة بن شعبه وهو من صحابة النبی من أهل الطائف ، آخر هؤلاء الرسل . فراح يجلس الى جانب رستم على سريره ، مما أثار الرعب فى نفوس أفراد البطانة والقادة .

وأدرك رستم فى النهاية أنه فى وسعه أن يكسب وقتا آخر وعاد الجدل القديم الى الظهور . لاقرار من سيغير النهر ، العرب أم الفرس . وكان الفرس يودون لو أن العرب هم العابرون ليحاربوا فى المنطقة المزروعة ، لحي حين كان العرب يرغبون فى أن يجروا الفرس الى الضفة الغربية ليقاتلوا فى الصحراء وكان من الحتمى أن يباد أى جيش يعبر النهر عن آخره ، اذا شاء له حظه أن يخسر المعركة ، وهى تجربة تكررت مرتين ، أولاها فى معركة الجسر والاخرى فى معركة البويب .

وكان سعد قد رتب جيشه فى سهل القادسية الذى يقوم على الغالب بين بلدتي النجف وأبي صخير الحديثين . وكانت ميعنته تركز الى المستنقع الذى يمتد الى الفرات . أما الصحراء فتقوم فى مؤخرته والنهر أمامه . ووجد رستم نفسه أخيرا مرغما على اطاعة أمر كسرى ؛ وتخوض المعركة مع العرب . وبدأ الجيش الفارصى فى عبور النهر ؛ ( يسميه العرب العتيق ) .

وكان الفرات يتفرع فى تلك الايام ، كما يتفرع اليوم الى عدة

نهرات متفرقة ، وكان العرب يطلقون على النهر الذى يفصل بين الجيشين اسم الفرات العتيق ، ولعله كان قناة فرعية ، لان المجرى الرئيسى للنهر كان قد شق له طريقا جديدة الى الشرق ويبدو أن مجرى النهر لم يكن عميقا هنا ، اذ يقول المؤرخون العرب ، ان رستم لم يعبر بجنوده الجسر ، وانما بنى سدا عبروا عليه ؛ وعبا رستم جيشه بعد عبوره فى مواجهة العرب .

وكان سعد بن أبى وقاص قد عثر على مقربة من ميدان المعركة على قلعة صغيرة أو بناء . . جعل منه مسكنا له . وعندما اصطف المسلمون للقتال ، لم يكن سعد معهم ، اذ كان مريضا يشكو من بثور أو من عرق النساء ، فكان مقيما بأعلى البناء ويشرف على الناس من أريكة يستلقى عليها موجها القتال . ويبدو أنه كان فى وسعه - من هذا المكان المرتفع - أن يشهد كل ما يحيط بالميدان ، وأن يوجه حركات جيشه ؛ ولكن غيابه عن المعركة والاشتراك فيها شخصا أثار موجة من الاستياء عند جنوده ، ولقد سبق لنا أن رأينا أن العرب فى الحرب ؛ كانوا يتوقعون من قائدهم قيادة الهجوم بنفسه ؛ وتحدى خصمه قائد جيش الأعداء للمبارزة وحمل راية الجيش بيديه . ومن المعروف ان سعدا كان من شجعان العرب وفرسانهم وقد خاض معارك عدة سابقة ، ولذا فلا يمكن أن يعزى تقيبه عن القتال الى الجبن . لكن بعض الناس أخذوا يتغامزون ويقال : انه كان قد بنى فى أشهر الانتظار الطويلة ، بأرملة المثنى بن حارثة . ويقال: ان هذه السيدة ، أخذت تهتف فى أثناء المعركة بقولها : « وامثنياه ولا مثنى للخيلى » ، فطمعها سعد على وجهها ، فقالت : « يا سعد أغيرة ونجينا ؟ » .

ولم نسمع أيا من المؤرخين العرب ، يقول : « ان سعدا أقام عامدا متعمدا على أعلى البناء ، وراء جبهة القتال ، لتكون فرصة أفضل فى الاشراف على المعركة والسيطرة عليها . ويبدو أن هؤلاء المؤرخين كانوا يعتقدون ، شأنهم فى ذلك شأن جند المسلمين ابان المعركة ، ان واجب القائد محصور فى قيادة الهجوم بنفسه والاندفاع فى صفوف العدو . ولو صح ما قاله المؤرخون من أن سعدا كان مريضا حقا فما الذى دعا زوجته سلمى ، وهى أرملة المثنى ، الى تعييره بالجبن بالنسبة الى زوجها الاول ؟ ولقد روى لنا المؤرخون أيضا ، ان سعدا كان يرمى بالرقاع من مكانه المرتفع وفيها أوامره ونواهيهِ الى مساعديه من قادة الجيش . ومن هذا أرى أن هناك ما يدفعنى الى النظر اليه ، نظرتى الى قائد عسكري جدى ، يقاتل ليفوز ، ولا تثنيه عن هدفه هذا أفكار خيالية رومانطيقية تزين له

المبارزة الفنية لإبراز شجاعته • ولا يفكر المدافعون عنه بإيجاد المبرر الصحيح لسلوكه الذى بدأ شاذاً لقومه آن ذاك ولقد قال الشاعر العربي •

وقاتلت حتى أنزل الله نصره      وسعد بباب القادسية معصم  
فرحنا وقد أمت نساء كثيرة      ونسوة سعد ليس منهن أيم

وعندما انتشر الفرس فى السهل أمام العرب أمر سعد بتلاوة سورة الانفال من القرآن الكريم على جميع الفصائل البدوية ، وهى السورة التى رددت انتصار المسلمين فى بدر ؛ والعبر المستخلصة من هذا النصر ، اذ جاء فيها :

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » •

ووقف المسلمون خاشعين وهم يستمعون الى هذه الآيات المثيرة تتلى عليهم ؛ فانتعشت نفوسهم وأشرقت وجوههم بنور الايمان • وعندما استنارت هذه الآيات حماستهم وشجاعتهم ، أدركوا أن بلاءهم الحسن سيوصلهم الى الشهادة فى سبيل الله ؛ مما يفتح أمامهم أبواب الفردوس على الفور بكل ما فيها من متع ومباهج • ولكن المسلمين جميعا ؛ ولاسيما البدو منهم ، لم يكونوا يحاربون لدوافع دينية محضة فحسب ؛ اذ أن بعضهم أخذ يهتف هتافات الجاهلية ؛ ويتفاخر بأسماء أسلافه وبطولاتهم ، منشدا ما قيل فيهم من قصيد الحماسة والحرب •

ويبدو أن القتال بدأ بتقدم الفرس الى الامام ، فخرج اليهم بعض أبطال المسلمين يطلبون البراز • وما لبث وطيس القتال أن اشتد وحشى ، وخرجت القبيلة من صفوف الفرس ، تهز خراطينها الهائلة أمامها ، وقد امتلأت الهوداج على ظهورها بالمحاربين وبالرايات يحملونها ويلوحون بها • وكاد بنو بجيلة أن يؤكلوا عندما فرت عنهم خيولهم نفارا هلعا من القبيلة ، فاعانهم سعد ببنى أسد ، وعلى رأسهم طليحة الأسدى ، أحد أذعياء النبوة فى عهد الردة فصمدوا وصمدت معهم بجيلة وان منيت أسد بخسائر فادحة • وركز عاصم شنيخ بنى تميم ، هجومه - مع نفر اختارهم من رجاله - على القبيلة • وأخذ رماة القيل يرمون ركبان القبيلة بسهامهم فى حين حاول الفرسان الوصول الى بطونها لقطع حبال الهوداج عنها ، واسقاطها على الأرض ، وعندما تعرت القبيلة من ركبائها عادت الى مواقعها • وتمكن العرب من اعادة تنظيم صفوفهم وصد كل ما قام به العدو من هجمات فى ذلك اليوم • ولم يزل القتال مستمرا الى أن جن الدجى ، ومضى جزء من

الليل • ولم يحقق المسلمون في هذا اليوم أكثر من مجرد الاحتفاظ بمواقعهم ، ولذا فقد منوا بخيبة أمل مرة من نتائج ذلك اليوم • ولعل من سوء الحظ ، أن سعد بن أبي وقاص كان غائبا عن الميدان في ذلك اليوم لان القيادة الشخصية الباسلة ، توحى ولا شك بالعزم والثبات للجنود •

وقضى الفريقان المتحاربان صبيحة اليوم الثاني من المعركة في نقل القتلى والجرحى من الميدان ، وعادا فالتحما عند الظهر • وكان وضع العرب في هذا اليوم أحسن من وضعهم في سابقه ، وذلك لعدم ظهور الفيلة في خطوط الفرس ولعل غيابها يعود الى ما لحق بقادتها وبمعداتها من ويل في اليوم الاول •

ولعل القارىء يذكر أن عمر بن الخطاب ، كان قد بعث بأمره الى سورية بعد معركة اليرموك ، بأن يتوجه الى جبهة الفرس ، الجيش الذى كان خالد قد قاده منها الى الشام لحرب الروم قبل عامين • وقد ظهرت طلائع هذا الجيش عند القادسية بعد ظهر اليوم الثانى من المعركة • ويبدو أن الرسل كانت قد قابلتهم فى الطريق واستعجلت وصولهم الى ميدان المعركة الكبرى • وكان القعقاع بن عمرو ، الفارس المغوار على رأس هذه الطلائع • ويقال انه بالرغم مما لحق به من أعياء فى سيره السريع تبين الصحراء ••• تمكن من أن يكر ثلاثين كرة على العدو فى اليوم الذى وصل فيه • وراح أحد الفرسان من بنى تميم ، ممن طلبوا الشهادة فى ذلك اليوم ، يهاجم جيش الفرس بمفرده ، مستهدفا قاتله رستم • وبالرغم من تمكنه من التوغل مسافة بعيدة فى صفوف العدو • فانه سقط أخيرا مضرجا بدمائه من الجراح الكثيرة التى أصيب بها قبل الوصول الى رستم • وكان بعض العرب قد جاؤا بالابل فى ذلك اليوم وجللوهما وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب ، أثار الرعب فى نفوس فرسان العدو ولم يزل القتال بين الفريقين شديدا الى أن انقضى من الليل شطر كبير • ولكنهما ما لبثا أن توقفا عنه فى النهاية • وكانت نتيجة اليوم الثانى فى مصلحة العرب أكثر منها فى مصلحة الفرس ؟ وان كان هؤلاء قد ظلوا يقاتلون باصرار وعناد • وهكذا لم تكن المعركة حاسمة فى يومها الثانى وقضى العرب ما تبقى من ليلتهم فى أهازيج ورقص وغناء ينشدون أشعار الحماسة ؟ ويستعيدون ذكر أمجاد أسلافهم وبطولاتهم •

ومن الطريف أن نذكر هنا هذه الخصيصة العربية التى تختلف كل الاختلاف عن سلوك الجنود البريطانيين فى الظروف الماثلة • فالجنود

العرب لا يخلدون - قبل المعركة ، أو في فترات الاستراحة - الى الراحة ، وانما يستثيرون حماسهم بالشعر والغناء ، وتكون حماسهم هائلة الى الحد الذي لا يستطيعون الاكل فيه ، كما أنهم يعتمدون عند الازمات الطارئة على أعصابهم وعواطفهم ، أما الجنسود البريطانيون ، فيحتسون الشاي في مثل هذه الاوقات ثم يستلقون على أسرتهن يسبون ويشتمون . ناشدين النوم والراحة . ولكن الفريقين على اختلاف أساليبهما ، يكونان مستعدين كل الاستعداد لخوض القتال في الصباح التالي .

وانقضى الصباح الثالث في اخلاء الميدان من القتلى والجرحى واشتغلت السيدات العربيات وراء خط القتال في دفن الموتى بسرعة ، وفي تخفيف الآلام عن المصابين والجرحين . وعندما أوشكت المعركة أن تبتدىء ، ظهرت في الميدان القوة الرئيسية القادمة من سورية وانضمت الى المعركة . وبالرغم مما لحق بالعرب من انشراح وسرور لوصول هذه النجدة العظيمة ، فانهم سرعان ما اشتد قلقهم من عودة فيلة الفرس الى الظهور ، وصدر أمر سغد الى القعقاع بالاسل لتدبير أمره معها ولجا هذا الى أسلوب جديد في حرب الفيلة ، يتلخص في استخدام جنود رجال مسلحين بالرماح والحراب . وذلك لان الجياد كانت تأبى الاقتراب منها . وظل القعقاع وزميل آخر له من أهل النجدة من بنى تميم يرقبان أكبر الفيلة متطلعين الى فرصة ينتهزانها ؛ في حين أن أتباعه أخذوا يشتبكون مع حمة الفيل ؛ وهما يزعجانه بالقتال الذي يثيرانه حوله . وبضربة سريعة مفاجئة وضع القعقاع رمحه في عين الفيل ففقاها وان زعم بعضهم أن الفيل أمسك به في خرطومه ساعتها وقذف به أرضا . وتمكن العرب برماهم من أن يفتنوا عيني فيل آخر بالطريقة نفسها فنفض الفيل المصاب رأسه وطرح سائسه ؛ وأخذ يدور الحلبة هلعا جزوعا ، مما أثار الفرع في نفوس بقية الفيلة فولت أدبارها ، مهرولة صارخة . تدوس كل من في طريقها من أصدقاء وأعداء . واستمرت بعد ذلك المعركة بين الجنود قوية صارمة عنيفة ، اذ صمد الفريقان ولم ينفصلا حتى جن الليل . وتوقف القتال .

أجل توقف القتال عندما خيم الظلام على أرض المعركة ، ولكن بعض العرب قرروا استئنافه وشغل العدو طيلة الليل بعد وقفه بلحظات . وأدى هذا الهجوم اللامتوقع الى اشتباك عام ساد الجبهة كلها في الظلام .



حيث تعذر على سعد أروستم السيطرة على القتال وتوجيهه (١) وقد اعتمد العرب آن ذاك كما يعتمدون الآن على قدرتهم على الحرب في الظلام . وهم كثيرا ما يودون تشبيه أنفسهم بالذئاب التي تنام في النهار وتعتسى في الليل . ولا ريب في أن الناس الذين يعيشون نصف حياتهم تحت النجوم ونصفها الآخر في الحيام الممزقة ، لا يمكن إلا أن يكونوا قد ألفوا الليل كما يالفون النهار . وعندما ينتقل الناس الى الحياة تحت السقوف ويقلقون على أنفسهم أبواب دورهم ، فإن الليل يغدو غريبا عليهم ، عدوا لهم ، يثير رعبهم وفزعهم . ويبدو ان جيش الفرس كان يتألف من رجال ألف معظمهم الحياة داخل الدور والبيوت .

ونحن لا نشك في أن جيش كسرى كان أحسن تدريباً من جند العرب . فالمعركة الليلية بالنسبة الى الجنود النظاميين الذين ألفوا القتال في صفوف منتظمة متقاربة ، وعلى ضوء ما يتلقونه من أوامر مستمرة من قادتهم ، شيء دقيق متعب ؛ اذ أن الأفراد من الجنود ، يقصدون الاتصال بزملائهم ، وتصبح الوحدات معزولة عن قياداتها . ويصبح كل انسان مسئولا عن نفسه في مثل هذه الظروف . وتعدو جماعة من المتحمسين «اللامنضبطين» ؛ يصرخون ويضربون بسيوفهم ، ويندفعون برماحهم أقدر على القتال من رجال مترددين ينتظرون الاوامر من قادتهم . ومن هنا لابد أن نقول ان الهجوم الليلي في القادسية ساعد العرب بالقدر الذي ساعدتهم فيه العاصفة الرملية الهوجاء في معركة اليرموك ، وأنا أعرف للبدوى صفة خاصة به لا توجد في غيره وهي استعدادة للمباعدة حتى في أضيق

---

(١) تختلف رواية المؤلف هنامن الرواية العربية بعض الاختلاف ، واعتقد ان الاختلاف مقصود ، لظهور العرضية في انتصار العرب ، فلقد روى المؤرخون العرب ان الفريقين لم ينفصلا عندما جاء الليل ، حيث خشعت اصوات الناس ، فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وهدير الفرسان ، وراى العرب والمجم أمرا لم يروا مثله ، وما زال القتال مشتدا ، حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا عيونهم ، فسار القمعاق في الناس يقول لهم : « ان الدبرة بعد ساعة لن صبرها ، فاصبروا ساعة . فما قام قائم الظهيرة ، حتى انهزم جناح الفرس ، وانفجر القلب ، وكانت همة اصحاب النجدة ، موجهة الى سرادق رستم .

يحين الفرق بين روايتي التاريخ العربي والمؤلف . وتظهر الاولى ان القمعاق وهو من قادة العرب ، أدرك ان الفرصة أصبحت مواتية لكسب المعركة اذا استمر القتال لبعض الوقت ، فطلب من رجاله أن يواصلوا القتال . في حين تظهر رواية المؤلف ، أن النصر جاء بطريق المصادفة العارضة للعرب ، وهو تفضيل مقصود .

( العرب )

الزوايا ، غير آبه بأية جهة فى الحياة ، ومن الملاحظ أن الهجوم الليلي فى القادسية كان من عمل البدو وابتكارهم وأن لا شأن به لسعد بن أبى وقاص ، وأن العرب لم يلجئوا الى الهجمات الليلية فى المعارك الاخرى وان كانوا قد لجئوا الى الاغارات الليلية . وتتضح هذه الحقائق اذا قلنا أن قادة المعارك العربية الكبرى ٠٠٠ من قريش ، وهم من أهل المدن ؛ ولم يآلف هؤلاء حركات الليل (١) .

هكذا جرت الاحداث « ليلة الهدير » وهو الاسم الذى أطلق على المرحلة النهائية من المعركة . وعندما أطل الفجر بنوره ، كانت رعى المعركة لا تزال دائرة على أشدها ، اذ تحولت الى معركة سحق ، ينتصر فيها الفريق الذى يتمكن من الثبات مدة أطول ، مستجمعا كل ما لديه من عزيمة وشجاعة ، اذ أن الجهد أصاب الفريقين المتحاربين . ولقد تمكن العرب من التفوق فى الهجوم فى صبيحة اليوم الرابع ويقال ان القعقاع لا سعدة ، هو الذى أوحى للعرب بالحافز فى ذلك اليوم ، وضرب لهم المثل فى الاستبسال ، وذلك لانه من البدو وهم وحدهم فى صلابتهم وقوة احتمالهم ، القادرون على تطبيق ما علمتهم اياه حياة الصحارى ، من تعود

---

(١) تشويه فاضح للتاريخ العربى يقصد منه اظهار امرين : اولهما أن نصر العرب فى القادسية كان وليد المصادفة العارضة ، لا الخطة العسكرية الباهرة ، وان لا فضل للبطل الكبير سعد بن أبى وقاص فيه ، والاخر الاصراء على التمييز بين أهل المدن وأهل الوب ، أو بين قريش والبدو . لكن الرد على المؤلف واضح ويتلخص فى النقاط التالية :

( أ ) ان اقتراح المخي فى القتال صدر من القعقاع . كما تجمع كتب التاريخ العربى ، ولم يكن القعقاع مجرد جندى عادى بل كان قائد الجيش الذى جاء من سورية ، ولا ريب فى أنه تولى قيادة الميدان الفعلية منذ وصوله فى اليوم الثالث للمعركة حتى لو سلمنا جدلا بأن الهجوم الليلي وقع دون إذن من سعد القائد العام . . لوجوده فى البناء وراء خط القتال فان هذا لا يعنى بحال مجرد المصادفة العارضة كما يحاول المؤلف أن يقول . وانما يعنى تصرفا من قائد الميدان أوحى به ظروف المعركة . وقد رأينا فى تاريخ المارك الحديثة امثلة عدة لهذا التصرف ، بل هو شرط من شروط الفن العسكرية .

( ب ) ليس لمة كبير فرق بين قريش وقبائل الصحراء . ولا تعدو قريش أهل واحة من الواحات فى الصحراء وهم على اتصال كبير ودائم بالبدو الذين يحيطون بهم ، ومن هنا لا يكون كبير فرق بينهم وبين البدو ، ويتحطم منطق المؤلف المصطنع فى انكار مزية الهجوم الليلي فى القادسية .

( العرب )

على الجوع وشظف العيش . وحمل العرب حملة صادقة أخرى ، وبدأ  
الفرس في الانهيار اذ تخاذل القلب وأخذت صفوفه في التراجع وهبت  
ريح عاتية في غضون ذلك وأخذت الرمال في الانتشار مبشرة بحلول  
ظروف تشابه تلك التي وقعت في اليرموك .

واخترق العرب قلب جيش الفرس واتجهت همه فرسانهم الى رستم  
قائد الفرس العام ، الذي عثروا عليه فوق سريريه ، فأمسكوا به وقتلوه (١)  
وسرعان ما انهار جيش الفرس . وتمكنت تشكيلتان عسكريتان فارسيتان  
من الوصول الى السد الذي سبق للجيش أن عبر عليه قبل المعركة الى  
الضفة الغربية . وانسحبتا عن طريقه دون أن يلحق بهما كبير أذى ، أما  
غالبية جند الفرس ، فقد تفرقوا شذر مذر في كل حذب وصوب ففرق  
بعضهم في النهر وقتل البعض الآخر وهم يحاولون الفرار عبر سهل  
القادسية ، لكن ثلاثين كتيبة فارسية صمدت بعد أن رفضت الهزيمة ؛ الى  
أن أبيت عن آخرها ، ولم يكد نفع المعركة ينجلي حتى انتشرت نساء البدو  
وأطفالهن في الميدان يحملون الهراوات والسلال بيد وقرب الماء باليد  
الأخرى يروون بها ظمأ الجرحى من المسلمين المشرفين على الموت ، ويبعثون  
بالأحياء من الفرس الى الجحيم . ويقول الطبري : ان العرب خسروا في  
هذه المعركة نحو من ألفين وخمسمائة شهيد في الايام الثلاثة الأولى من  
القتال ، ونحو من ستة آلاف في ليلة الهدير . واذا صح ما قيل من أن  
جيش سعد كان يعد في الاصل نحو من ثلاثين ألفا ، أضيف اليهم ستة  
آلاف جاءوا مع القعقاع من الشام فان مصرع هذا العدد ، دون ذكر عدد

---

(١) تختلف رواية المؤلف هنا أيضا من روايات التاريخ العربي ، اذ تجاهل  
المؤلف محاولة رستم الفرار من الميدان في حين اختلق رواية صمود الكائب الثلاثين  
من جيش الفرس . فقد روى العرب أن جناحي الفرس أصيبا بالهزيمة ، وانفرج  
القلب . وكانت همه أصحاب النجدة موجهة الى سراق رستم . فلما رأى ذلك أراد  
الهرب فتبعه هلال بن علقمة حتى قبض عليه وقتله ، وصعد على سريريه ، ثم نادى :  
قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام .  
وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية واسمها « درفش كايان » ثم تهبوا بقية  
المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة ، وقد وصف فارسي يدعي إبا رجاء ، معركة  
القادسية نقلا من جده فقال : حضرت وقعة القادسية وأنا مجوسي فلما رمتنا السرب  
بالنبل ، جعلنا نقول : دوك ، دوك ، نعمتي منازل ، فما زالت بنا تلك المفازل حتى أزالنا  
أمرنا لقد كان الرجل منا يرمى عن قوسه . فما يزيد سهمها على أن يتعلق بثوب أحدهم ،  
ولقد كانت النبلة من نبالهم تهتك الدروع الحصينة والجوشن المضاعف مما علينا .  
( العرب ) .

الجرحي يشير الى نسبة تبلغ خمسا وعشرين فى المائة وهى جد عالية حتى فى معايير المعارك الحديثة الضارية (١)

وغنم العرب فى المعركة كميات ضخمة من النقود والمجوهرات والاسلحة بالإضافة الى الراية الكبرى للملوك الساسانيين . وكانت معركة القادسية مميتة بالنسبة للحكم الفارسى فى العراق ، تماما كما كانت معركة اليرموك مميتة للحكم البيزنطى فى سورية . وتمكن الجفأة من أبناء القبائل العربية ، الصلاب العود من تحطيم الجيش الفارسى ، - الذى كان لعشر سنوات خلت يقرع أبواب القسطنطينية - تحطيمًا لن تقوم له قائمة بعده ، وأدى مصرع رستم ، الى زيادة اليأس والاضطراب . ولم يكن فى مكنة الملك الشاب يزدجرد الذى كان قد بلغ الآن الحادية والعشرين من عمره أن يدبر أمر مثل هذه الأزمة الخطيرة وحيدا ؛ لافتقاره الى التجربة اللازمة .

يضاف الى هذا أن البلاد كانت قد ألغت التطلع الى رستم - النيكتاتور العجوز ؛ والسياسى المختفى وراء العرش - والنظر اليه على أنه دعامة العرش . أما وقد أضحي الآن فى عداد الموتى ؛ فلم يبق هناك رجل يحوز من الكفاية ما يمكنه من السيطرة على العاصفة العاتية .

وسارعت القبائل الشمالية العربية النصرانية الى اعلان خضوعها للمسلمين . وتحول بعضها الى الاسلام ، الذى رفع من شأن أخواتها من القبائل العربية ، وحقق لها كل هذه الامجاد والثروات التى لا يكاد يصدقها عقل (٢) وقد أعلن النصارى من أهمل الحضر خضوعهم ودفعهم للجزية المقررة . وبلدت هنا مشكلة فى طريق الظهور ، فلقد صنف النبى اليهود والنصارى على أنهم من أهل الكتاب ، وان من حقهم أن يظلوا على دينهم اذا شاءوا ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية . أما المشركون من عبدة الأوثان ، فلا خيار لهم : فاما الاسلام واما الموت . وكان الفرس من أتباع زرادشت ؛ أى من عبدة النار ، ولم يكن من حقهم أن ينالوا من التسامح ماناله اليهود أو النصارى ولكن لم يكن فى مكنة المسلمين قتلهم جميعا . وهكذا فرضت الظروف على المسلمين أن يعاملوهم كاهل الكتاب ، وقبلت الجزية منهم .

---

(١) لم يشأ المؤلف أن يذكر عدد قتلى الفرس فى المعركة ، وان كان المؤرخون العرب قد قدرهم بثلاثين ألفا .

(٢) لم تتحول قبيلة تغلب النصرانية الى الاسلام الا بعد امد طويل .

( العرب )

وكان سعد بن أبي وقاص على اتصال دائم بالمدينة ، أى بالخليفة فيها . ولهذا كان عمر ، على علم بأن معركة أسامية ضارية ستشب عما قريب . وتقول الروايات : أن عمر كان يخرج فى كل صباح الى ظاهر المدينة ، متقربا وصول رسول من العراق . وفى ذات يوم رأى ، أخيرا ؛ رجلا وحيدا على هجينه الذى أنهكه طول المسير ، يقترب من المدينة قادما من بطن الصحراء . وراح الخليفة يسأله عن الانباء . فرد هذا البدوى دون أن يعرف الخليفة الحافى القدمين بعبأته المرقعة ، بأن الفرس قد انهزموا . واضطر عمر الى الجرى وراء هجين الرجل ليتابع سـؤاله عن تفاصيل المعركة ، حتى دخلا الى المدينة . وسرعان ما علت الدهشة وجه الرجل ، عندما رأى الناس يسلمون على صاحبه بأمارة المؤمنين ويهنئونه .

وتروى قصص لاعد لها ولا حصر ، شبيهة بهذه عن عمر بن الخطاب وبعضها صحيح والبعض الآخر غير صحيح (١) ولكنها كلها تؤكد بصورة لا يتطرق اليها الشك ما كان عليه هذا الرجل العظيم والقائد الكبير من تواضع وبساطة .

وبالرغم من أن جيش الفرس قد منى بهزيمة ساحقة ، فإن الاعياء كان قد أخذ من العرب كل مأخذ ، بحيث تعذر عليهم أن يطاردوا فلول المنهزمين . وأقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس . ولا ريب أيضا فى أن من الاسباب التى أدت الى بقاءه ، حاجته الى أن يظل الى جانب هذا العدد الضخم من المجرى الذين لم يكن فى وسعه أن يتخلى عنهم ، أو أن يحملهم مع جيشه . ولا ريب فى أن فترة الشهرين كانت كافية ليسترد فيها المعافون صحتهم من اثر الجراح ، وليعودوا الى صفوف الجيش . وللصلاة على أرواح أولئك الذين اختار لهم الله الشهادة .

من الصعب علينا أن نحدد بالضبط تاريخ معركة القادسية . فالتباين القائم بين المؤرخين ، يصل الى حدود عامين . واذا افترضنا أن معركة اليرموك قد دارت فى يوليو عام ٦٣٦ ، فإن معركة القادسية لابد أن تكون قد وقعت بعد هذا التاريخ ، ذلك لأن النجيدات التى كان فى الامكان ايقادها من سورية بعد نصر اليرموك قد وصلت فى الوقت المناسب لتشتبك فى

---

(١) لا أدري سبب هذا التشكيك فى بعض القصص . واذا كان المؤلف يترقب - كما يظهر - بتواضع عمر وبساطته فلا حاجة به والحالة هذه الى تشكيكه بصحة أى من هذه القصص التى تجمع عليها كتب التاريخ العربى .

معركة القادسية • ويبعد اليرموك نحواً من ستمائة ميل عن المدينة ، كما  
يبعد هذه المسافة نفسها تقريباً عن القادسية ، ومن هذا يتضح أن ابلاغ  
أبى عبيدة نبأ النصر فى اليرموك الى الخليفة فى المدينة وتلقيه أوامره بارسال  
النجادات الى العراق ، لا بد أن يكونا قد استغرقا شهراً واحداً على الأقل ،  
ان لم نقل شهرين ، بالنظر الى افتقار التنظيم الحكومى حتى ذلك التاريخ -  
الى التدريب والنظام • ونصل بذلك الى شهر سبتمبر عام ٦٣٦ • على أية  
حال كان من المتعذر على النجادات أن تقطع بادية الشام قبل شهر أكتوبر  
( تشرين الاول ) من عام ٦٣٦ • فلقد انقضت على هذه القوات وهى فى  
سورية نحو من عامين ، ولا ريب فى أن الجنود ، كانت تصحبهم نساؤهم  
وأطفالهم • يضاف الى هذا أن الصحراء السورية خالية من الماء بصورة  
خاصة •

وهكذا اذا افترضنا أن النجادات قد غادرت سورية فى شتاء عام  
٦٣٦ - ٦٣٧ ، فانها لا بد أن تكون قد وصلت الى القادسية فى وقت ما بين  
فبراير ( شباط ) وأبريل ( نيسان ) عام ٦٣٧ ، وهذا يتوقف على موعد  
سفرها من أرض الشام ، وهل كان فى أكتوبر ( تشرين الاول ) أو نوفمبر  
( تشرين الثانى ) أو ديسمبر ( كانون الاول ) ( ١ ) •

### \*\*\*

وبعد انقضاء فترة الشهرين ، عاد سعد فى أبريل ( نيسان ) أو مايو  
( ايار ) أو يونيو ( حزيران ) من عام ٦٣٧ ، فاسترجع الحيرة - هذا اذا  
صح تسلسلنا التاريخى - وضاعف الجزية على أهلها بحجة أنهم نقضوا  
عهدهم للمسلمين قبل القادسية ، وتقدموا بولاءهم للفرس ؛ وزحف سعد  
بعد ذلك شمالاً وأقام معسكره على خرائب بابل القديمة ، حيث شرع  
الغرب منها فى الاغارة على المنطقة التى بين النهرين حتى وصلوا الى  
أسوار المدائن ، عاصمة امبراطورية الفرس ( ٢ ) •

والمدائن جمع مدينة ، اسم أطلقه العرب على عاصمة الفرس وكانت

---

(١) يروى الطبرى من ابن اسحق أن اليرموك وقعت فى تاريخ ، اذا قورن بالتاريخ  
الرومى ، ثبت أنه فى سبتمبر ( ايلول ) عام ٦٣٦ وان القادسية وقعت فى فبراير ( شباط )  
عام ٦٣٧ •

(٢) لم يذكر المؤرخون العرب شيئاً عن استرجاع الحيرة • ويبدو أنها كانت لازال  
فى أيديهم وكل ما ذكره ان سعد ارتحل من القادسية الى «برس» حيث هزم الهرمزان ،  
ومنها الى بابل حيث هزم الفرس فى اسرع وقت . « العرب »

تتألف فى الواقع من مدينتين ، سلوقية ويسمىها العرب المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى (١) وكتسيفون ويسمىها العرب المدائن القصوى على الضفة الشرقية . وكان سلوقيوس نيكيتو ، أحد الحكام اليونانيين الذين ورثوا أجزاء من امبراطورية الاسكندر المقدونى ، قد بنى سلوقية فى عام ٣١٢ قبل الميلاد . وكانت بابل حتى ذلك التاريخ هى العاصمة . وكانت سلوقية فى الأصل مأهولة باليونانيين . وكانت لعدة قرون تعتبر من أعظم المدن السياسية والتجارية فى العالم المعروف آن ذاك وبنيت المدائن القصوى بعد مائتى عام من سابقتها ، على الضفة المقابلة لها على نهر دجلة وغدت عاصمة الساسانيين فى القرن الثانى بعد الميلاد . وكان بلاط الاكاسرة وقصورهم ودوائر الحكومة فى المدائن القصوى ، فى الوقت الذى بدأ فيه العرب فتوحهم ، ولهذا فقد حزم العرب أمرهم على فتح سلوقية فى البداية ، أى المدينة التى على الضفة الغربية، وتقدم منها سعد بن أبى وقاص قادما من بابل لفرض حصاره على المدينة التى تحيط بها الأسوار .

وكان العرب كعادتهم عاجزين عن مهاجمة حصونها الهائلة مهاجمة فعالة . وان استطاعوا بمعونة من انضم اليهم من الفرس الحصول على عشرين منجنيقا استخدموها كمدافع لضرب الحصون . ولا ريب فى أن هذه الآلات كانت تقذف حجارة أضعف بكثير من أن تحطم الأسوار وتدنكها . ولهذا فقد فرض المسلمون على البلدة حصارا طويلا ، لم يكن معروفا هل سيثمر أو لا يثمر ، اذ أن الجانب الذى يقوم من المدينة على ضفة نهر دجلة كان مفتوحا لوصول النجدات والمؤن من المدائن القصوى ، على الضفة الأخرى من النهر ، وكان العرب فى غضون ذلك قد أغاروا على جميع المنطقة الغربية التى على جانب دجلة وأخضعوها ، لعدم وجود جيش يقف فى الميدان مواجهها لهم .

وعرض يزدجرد فى النهاية الصلح على العرب . وقد اقترح أن يجلو عن المدائن الدنيا التى على ضفة دجلة الغربية ، وان ينسحب من كل مكان على هذه الضفة ، تاركا المنطقة كلها للحرب . على شرط أن يقرروا بالنهر حدا فاصلا بينهم وبينه ، وأن يتركوه حرا وشأنه فى الضفة الشرقية . ورفض سعد هذا العرض فورا وان كان قد رأى فيه ما يشجعه نظرا لادراكه

---

(١) كان الاسم القديم الفارسي للمدائن الدنيا ( بهرسر ) وقد استعمل المؤرخون العرب هذا الاسم كثيرا فى كتبهم التاريخية .

ضعف العدو • ولاحظ المسلمون بعد بضعة أيام أن الاسوار خالية من مقاتلة العدو ، اذ كان الفرس قد انسحبوا من المدائن الدنيا الى الضفة الشرقية بهلواء ناقلين معهم جميع القوارب والعبارات ( المعديات ) ودخل العرب المدينة دون مقاومة ، ووجد البدو الجفاة العتاة أنفسهم فجأة - وقد علت أساريرهم الدهشة - مسيطرين على المدينة انتى ظلت حاضرة للتجار والثروة والحضارة والرفاهية أكثر من ألف عام •

واعترض نهر دجلة سبيل العرب ، وأوقف تقدمهم عدة أسابيع • ولكن معنوية الفرس كانت قد هبطت الى الحضيض ، بحيث باتوا عاجزين عن اقامة خط جدي للدفاع وراء النهر • وكان يزدجرد قد بعث بعياله الى حلوان • وهى مدينة محصنة فى آخر سواد العراق عند سفوح جبال زاغروس الايرانية ، وسرعان ما لحق بأهله فيها مخلفا فى المدائن للدفاع عنها قائده مهران الذى هزمه العرب يوم البويب • وجاء رجل من فارس الى سعد بن أبى وقاص يبلغه وجود مخاضة فى نهر دجلة يستطيع هو ورجاله العبور منها • ومن الصعب علينا أن نثبت من التسلسل الزمنى لهذه الاحداث • واذا صح افتراضنا السابق فى أن معركة القادسية قد وقعت فى فبراير ( شباط ) أو مارس ( آذار ) ، أو ابريل ( نيسان ) من عام ٦٣٧ بات من الطبيعى أن نفترض أن الحصار قد فرض على المدائن الدنيا أى سلوكية ، فى أواخر صيف عام ٦٣٧ وأن الفرس جلوا عنها فى شتاء عام ٦٣٧ - ٦٣٨ •

ويقول البلاذرى : ان العرب قضوا تسعة أشهر عند المدائن الدنيا أى على الضفة الغربية من نهر دجلة ، وهو رقم يتفق مع التواريخ التى قررناها ، ولكنه لا يلبث أن يقول : ان بعض الرواة يؤكدون أن العرب قضوا هناك ثمانية عشر شهرا وأنهم أكلوا الرطب مرتين • ويقول البلاذرى أيضا : ان الشك ساور المسلمين عندما دلهم بعض الفرس على المخاضة التى يمكن عبورها • اذ أن فيضان النهر كان فى بدايته (١) ويفيض نهر

(١) يبدو لى أن المؤلف قد أساء فهم ما قاله البلاذرى ولذا اخطأ فى ترجمته • اما قول البلاذرى فهذا نصه : من اiban بن صالح قال : لما انهزمت الفرس من القادسية قدمت فلواتهم المدائن ، فانتهى المسلمون الى دجلة وهى تفتح بماء لم ير مثله قط • واذا الفرس قد رفعوا السفن والمخابر الى الضفة الشرقية وحرقوا الجسر • فاغتم سعد والمسلمون اذ لم يجدوا للعبور سبيلا ، فانقلب رجل من المسلمين قسبح لفرسه ومبر • قسبح المسلمون ، ثم امروا اصحاب السفن فمبروا الاثقال فقاتل الفرس : والله لاقتلون لا جنا ، فانهزموا •

( العرب )



حجلة عادة في الربيع عندما تأخذ الثلوج في النوبان في جبال أرمينية .  
ونتيجة لهذا نستطيع القول بأن عبور دجلة قد وقع في مارس (آذار)  
أو أبريل (نيسان) عام ٦٣٨ أما اذا صحت الرواية بأن العرب قضوا ثمانية  
عشر شهرا على الضفة الغربية فان العبور يكون قد تم في أبريل (نيسان)  
عام ٦٣٩ .

وأكد سلمان الفارسي - الذي سبق لنا أن سمعنا باسمه عندما  
اقترح على النبي حفر الخندق حول المدينة للمسلمين - وجود المخاضة ،  
وقامت بالمحاولة جماعة من الفرسان ، وقد تمكنت من الوصول الى الضفة  
النهر الشرقية بالرغم من النبال التي تساقطت اليها من ثلة من المدافعين  
الفرس ، ولم تفقد جنديا واحدا منها . ولم يكده المسلمون يرون رفاقهم يصلون  
يامن وسلام الى الضفة الاخرى حتى سارع فرسانهم يجوزون المخاضة  
متدافعين الى الجانب الشرقي من النهر ولم يتضح لنا من الروايات : هل  
الفرسان قد خاضوا الماء أو عبروه سباحة (١) . وقد يدهش الكثيرون -  
ولا سيما من الذين يجهلون البدو - ان قلت لهم ان البدو الذين ألفوا  
العيش في صحراء لا ماء فيها ، من أقدر الناس على السباحة . ولكنني  
أشهد بأنني رأيت رجالا من بدو الجزيرة العربية يسبحون في نهر  
الفرات .

ويبدو أن حامية المدائن قد ذهلت من هذه العملية الجريئة المباغتة  
وفز من رجالها من استطاع الفرار قاصدا الشرق الى الجبال . أما من بقي  
فقد استسلم دون مقاومة ، وارتضى دفع الجزية طلبا للحماية . وسرعان  
ما رأى العرب أن خيرات سلوقية ( المدائن الدنيا ) لم تكن الا الطعام التافه  
لخيرات بلاط كسرى في المدائن . وما زال الطوق الهائل لقصر كسرى يرتفع  
عاليا حتى اليوم مشرفا على ما يحيط به من سهول . ومعطيا لناظره صورة  
تقريبية على الأقل عما كان عليه ذلك القصر من مجد وعظمة .

وأصبح العرب ذوى ثراء هائل ، اذ قسمت الغنائم جريا على  
المالوف السابق في الغارات ، على رجال الجيش فورا . بعد أن اقتطع منها  
الحمس ليرسل الى الخليفة في المدينة ، ووجد الخليفة التقى الورع ذو العبادة  
المركة عمر بن الخطاب نفسه فجأة وفي حيازته ثياب كسرى وحليه وميغفه،  
ومعها بساط هائل لقاعة الطعام فيه فصوص من الماس والياقوت واللآلئ

(١) يقول موير ( Muir ) نقلا عن شيرنى Chesney : ان جيش تيمور لنك  
عبر نهر دجلة سباحة في عام ١٣٩٢ ميلادية .

وفيها خيوط من الذهب والفضة (١) . وحل سعد بن أبي وقاص في قصر كسرى وأحال قاعة الطعام الفسيحة الى مسجد يصلى فيه المسلمون ، ونعم البدو بما خلفه نبله فارس من رياش وفراش وثير .

ولم يكن يزدجرد قد أخذ في غضون ذلك الى الراحة ، اذ شرع في مقره الجديد في حلوان يجند الرجال من جميع أطراف بلاده ، القاصية منها والدانية ، وقد حزم أمره على حشد جيش جديد . وظل العمل في بناء هذا الجيش مستمرا . وأخذت معنويات الفرس في الارتفاع وشرعوا يندفعون غربا الى أن تمكنت قوة كبيرة منهم بقيادة مهران من احتلال جلولا (٢) التي تقع عند النقطة التي يخرج منها نهر ديال من الجبال عند جبل حمزين ، مندفعاً الى سهول العراق الفسيحة (٣) وبعث سعد الى الخليفة في المدينة يبلغه تجمع الفرس . ويبدو أن الخليفة الكثير الحذر كان قد أمر سعدا بعدم التقدم مسافة أخرى ؛ فاضطر هذا الى الرجوع اليه لاستطلاع رأيه فيما يفعله الآن ؛ وعندما جاء الأمر من عمر ؛ بالتقدم لمواجهة الفرس ، راح سعد يبعث بابن عمه هاشم على رأس اثني عشر ألف رجل لمهاجمة هذه الحامية الفارسية الامامية . ونشبت حرب هائلة اضطر معها سعد الى ارسال نجدات أخرى من المدائن ؛ وأخيرا انهزم الفرس بعد معركة يوم رهيب في جلولا ؛ وطارد العرب فلولهم المنهزمة حتى سفوح الجبال عند خاتقين . ولما بلغت أنباء الهزيمة يزدجرد وهو في حلوان انسحب منها الى الرى في شمالي فارس ؛ واحتلها العرب دون مقاومة . وبعث سعد في

---

(١) يوحى المؤلف بصورة لا مباشرة هنا ، بأن عمر بن الخطاب استولى لنفسه على الفراء من هذه الثنائيم المظلمة ، من ملابس كسرى وحليه ، مع أنه - كما تؤكد جميع كتب التاريخ العربى - قسمه يكامله على مستحقه ثم قال لهم وهو يشير الى بساط بعث به سعد طوله ستون ذراعا فيه طوق كالصور وفصوص كالانهار . وفي حافاته كالارض المزبوعة والارض البقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان من الذهب والفضة: « أشيروا على في هذا اللطف » ، فأجمع ملؤهم على أن قالوا : قد جعلوا ذلك لك ، الا على ابن أبى طالب فقد قال : يا امير المؤمنين الامر كما قالوا ، ولم يبق الا التروية . انك ان تقبله على هذا اليوم ، لم تعد من يستحق به ما ليس له ، فقطعه عمر بينهم .  
( العرب )

(٢) يؤكد البلاذرى أن خرزاد اخا وستم كان قائدا للفرس في جلولا لا مهران كما يقول المؤلف .

(٣) يقول المؤلف انه خدم في عام ١٩٢٠ عدة شهور مع فوج من الجيش الهندى في ذلك الموقع .

( العرب )

غضون ذلك برتل آخر سار مع النهر شمالا ؛ فاحتل تكريت حيث انضمت اليه القبائل العربية فى الجزيرة ؛ ومضى مع رجالها فى زحفه الى الموصل . وهكذا لم ينته عام ٦٣٨ للميلاد حتى كان العرب قد أخضعوا - بصورة تامة ونهائية - المنطقة الخصبة الغنية التى تقع فى أدنى دجلة والفرات ، وأصبحت هذه المنطقة كلها امارة خاضعة للامبراطورية العربية الجديدة .

### تواريخ بارزة

موقعة القادسية	فبراير ( شباط ) أو مارس ( آذار ) ٦٣٧ أو أبريل ( نيسان )
احتلال المدائن	أبريل ( نيسان ) ٦٣٧
احتلال جلولاء	ديسمبر ( كانون الاول ) ٦٣٨

### شخصيات مشهورة

وهتم	قائد الفرس العام قتل فى معركة القادسية
سعد بن أبى وقاص	قائد العرب العام فى العراق
عمرو بن معد يكرب	من المرتدين السابقين ومن الأبطال المسلمين
الغيرة بن شعبة	من صحابة النبى كان مع الوفد الى رستم
القعقاع بن عمرو	رئيس بنى تميم، ومن قادة المسلمين البارزين
النعمان بن مقرن	رئيس الوفد العربى الى يزديجرد



# تثبيت الأقدام

(١)

« رأى أول خط لنفسه لأنه هناك في نصيب  
المشترع مطمئن • أتى راسا للشعب وأجرى عدل الرب  
وأحكامه »

سفر ثنية الاشتراع - الفصل ٣٣ - ٢١

\*\*\*

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس  
بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما • واستغفر الله  
ان الله كان غفورا رحيمًا »

القرآن الكريم - سورة النساء

\*\*\*

« الحكم بلا عدالة فرصنة ولصوصية »

القديس اغسطين



كان زحف الجيوش العربية في سورية والعراق في أعقاب الجيوش البيزنطية والفارسية المتقهقرة . وكان خط الانسحاب والتقدم في الغرب من دمشق الى حمص فأنطاكية فسفوح جبال طوروس . أما في الشرق فكان من الحيرة الى المدائن وظلت منطقة فسيحة بين هذين الحطين من خطوط الزحف في نجوة من كل أذى .

ويبدو أن القبائل العربية المسيحية في هذه المنطقة كانت لاتزال تناشد البيزنطيين الحماية بالرغم من أن هؤلاء كانوا قد عبروا جبال طوروس . ويبدو على أية حال أن الروم قد وعدوا هذه القبائل بمساعدتها عن طريق انزال قواتهم من البحر على الساحل . وهكذا نرى أن القبائل حشدت قواتها باتجاه حمص في مطلع عام ٦٣٨ ونزل الروم في الوقت نفسه من البحر . وأعادوا احتلال أنطاكية ووجد أبو عبيدة نفسه بين نارين فجأة ؛ نار قبائل بادية الشام التي أخذت تهدد حمص من الشرق ، ونار الروم في أنطاكية ومدن الساحل وهم يتأهبون - كما يبدو - لغزو البلاد من الغرب .

ولا ريب في أن العرب فزعوا فزعا شديدا من هذا الهجوم المضاد المفاجيء . وبعث أبو عبيدة برسالة الى الخليفة تنطق بالحيرة وتثير البلبلة مما دعا الخليفة الى اصدار أمره الى سعد بن أبي وقاص بأن يرسل رتلا يصعد مع الفرات فورا لمهاجمة مؤخرة القبائل النصرانية التي تهدد حمص وعاد أبو عبيدة فبعث بعباض بن غنم لاستعادة أنطاكية (١) وقد استبده القلق بعمر بن الخطاب ، حتى أنه قرر المضي بنفسه الى سورية لقيادة العمليات الحربية الجديدة وأرسل سعد من العراق ، القعقاع بن عمرو على رأس اربعة آلاف مقاتل على جناح السرعة صعدا مع الفرات . وأرادت (هيئت) الصمود فأغلقت على نفسها الابواب ولكن الرتل تجاهلها مارا بها مندفعا الى الشمال ادراكا من قائده للاحاجة الى السرعة . وراح القعقاع يسابق الزمن فاحتل قرقيسيا التي تقع عند ملتقى الحابور

---

(١) يقول البلاذري ... نقض أهل انطاكية العهد فوجه اليهم أبو عبيدة مياض ابن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الاول ويقال بل نقضوا بعد رجوعه الى فلسطين فوجه اليها عمرو بن العاص من ابلهيا ففتحها .

والفرات . ولما كان هذا الرتل يسير بحذاء النهر . لم تكن هناك مشكلة  
افتقار الى الماء ولذا فقد ركب الفرسان البغال وأراحوا الجمال والجياد  
لتكون جاهزة مستعدة ليوم القتال .

وكان عياض بن غنم قد استعاد انطاكية فى غضون ذلك . ولم  
نعد نسمع شيئا عن البيزنطيين الذين يبدو أنهم قد عادوا فركبوا البحر  
عائدين الى بلادهم ، وقبل أن يصل الخليفة الى قطاع الجابية كان أبو عبيدة  
قد خرج بقواته الى حمص وشنت شمل القبائل الثائرة . وانتهت الأزمة  
بسلام (١) وعاد رتل القعقاع الى الجنوب فى العراق بعد أن احتل  
قرقيسيا .

وصدر الأمر الى عياض بن غنم بأن يسير على رأس جيش الى الجزيرة  
لاحتلالها وتثبيت اقدام المسلمين فيها ويبدو أنه قصد أول ما قصد الى  
الرقعة ففتحها بعد حصار قصير . وأخذ يرسل منها البعوث والسرايا  
لجمع المؤن والياتيان بالأسرى . ويقول المؤرخون العرب : ان احتلال الرقة  
تم فى وقت الحصاد ، ولعل ذلك كان فى أواسط صيف عام ٦٣٨ ، وان  
فتحها تم بعد حصار دام خمسة أيام أو ستة ، وبعد أن استسلم أهلها  
وفقا للشروط المألوفة وكانت شروط الصلح فى جميع هذه الحالات الماثلة  
قد أصبحت واحدة فى سورية وتتألف من البنود التالية :

(١) هناك خلاف واضح بين رواية المؤلف وروايات المؤرخين العرب . فهو يقول :  
ان عمر بن الخطاب وصل الى الجابية - وهى كما سلف وقلنا - مكان فى الجولان شمال  
اليرموك فى حين أن المؤرخين العرب يؤكدون أن عمر وصل مع جيش من المهاجرين والانصار  
وبينهم أبو عبيدة بن الجراح فأخبره بالتشاور الطامون فى الشام . فدعا عمر المهاجرين  
الأوليين لاستشارتهم فاختلفوا : فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده  
ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ، ومنهم القائل أنه لبلاء وفناء ما نرى أن نقوم  
عليه . فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم استدعى مهاجرة الانصار فاستشارهم  
فسلكوا طريق المهاجرين ثم نجاهم واستدعى مهاجرة الفتاح من قريش . فاستشارهم  
ولم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا : ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء ، وقرر عمر العودة  
فقال أبو عبيدة أفرارا من قدر الله ؟ فرد عمر : فرارا من قدر الله الى قدر الله . .  
وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا أمير المؤمنين سمعت رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يقول : اذا سمعتم بهذا الوباء يهلك فلا تقدموا عليه واذا وقع وانتم به فلا تخرجوا  
فرارا منه . وانصرف عمر بالناس عائدا الى المدينة . وقد مات بهذا الطامون المروءة  
فى التاريخ الاسلامى بطامون «همواس» خلق كثير من بينهم أبو عبيدة وهو أمير بالناس  
ومعاذ بن جبل ويبريد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وهبة  
ابن سهيل .

( العرب )



**أولاً -** على كل من لا يعتنق الاسلام من أهل المدن المفتوحة أن يدفع الجزية بمعدل دينار واحد للسنة وجريب من الحنطة وكميات مختلفة من الزيت والخل والعسل . وبالطبع كان النظام الذي يتبعه العرب في التموين من أكثر الأنظمة بدائية . وذلك لضمان الحصص الكافية من الغذاء لجنودهم . ولهذا كانت الجزية العينية التي يفرضونها تستهدف مساعدة القوات على ضمان المؤن اللازمة لها . أما بالنسبة إلى الجزية النقدية فالدينار هو الاسم المستعمل الآن في البلاد العربية لما يعادل قيمة الجنية الاسترليني ، ولن يفيدنا مطلقاً أن نحاول تقويم الدينار بالنسبة إلى قيمته الفعلية في القرن السابع الميلادي على ضوء تكاليف الحياة اليوم إذ أن احتياجات الناس اليومية في القرن السابع كانت مختلفة تماماً عن احتياجاتهم اليوم وكل ما يمكن قوله هو أن الدينار ، كان العملة الذهبية المعروفة في تلك الأيام .

**ثانياً :** كان العرب يسمحون ببقاء الكنائس على حالها لممارسة الطقوس الدينية النصرانية بشرط عدم السماح ببناء كنائس أو بيع جديدة وعدم استخدام الأجراس في دعوة الناس إلى الصلاة (١) أو سير المواكب التي يحمل فيها الصليب في الشوارع العامة .

**ثالثاً :** وإذا ما راعى السكان هذه الشروط مراعاة صحيحة فإن المسلمين يتولون حمايتهم وتصبح أرواحهم وممتلكاتهم آمنة لا تتعرض لأي خطر .

وسار عياض من الرقة إلى الرها ( الاسم الحديث لها أورفة ) وتحدث إلى حماتها وهم على أسوارهم ، متمطياً جواده الكميث فصالحوه على الشروط الآتية الذكر . وزحف بعد ذلك إلى سميساط ( شمشاط ) وحران ، فصالحه أهلها على الشروط نفسها ، وسار بعد ذلك إلى رأس العين وماردين ونصيبين وديار بكر (اسمها القديم آمد) وسنجار ، فاحتلها كلها . وخضعت له الجزيرة بكاملها ويبدو أن هذه العمليات قد تمت في المدة التي قبل سنة ٦٤٠ أو ٦٤١ واختار الخليفة عياضاً ليكون والياً له في الجزيرة ، ولكنه عاد إلى حمص فتوفي فيها سنة ٦٤٢ (٢) .

(١) هذا ليس بصحيح ، فعمرو بن العاص مثلاً في مصر لم يحرم استخدام أجراس في الكنائس .

( العرب )

(٢) يقول الواقدي ... أن أبا مبيدة مات في طامون «عمواس» سنة ثمانى عشرة واستخلف مياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقنسرين والجزيرة .

ومن الطريف أن نلاحظ هنا ملاحظة عابرة فنقول : ان غنم هو الاسم العربي لصنم من أصنام الجاهلية . وان والد عياض كان يدعى عبد غنم وعندما اعتنق عياض الاسلام رغب عن الاحتفاظ باسم والده على النحو الذى كان فيه . والذى يشير الى أنه كان من عبدة الأوثان ولذا فقد أسقط كلمة (عبد) من اسمه واصبح يسمى نفسه بعياض بن غنم وكان والده يدعى غنما : ولكن زملاؤه من العرب كانوا يعرفون ان غنما اسم من أسماء الأوثان لكن هذه الرغبة كانت تستهدف كما يبدو اخفاء الحقيقة عن اليهود والنصارى (١) . وأهمية هذا الحديث تنحصر فى اظهار السرعة الفائقة التى تم فيها التحول من الوثنية الى الاسلام ولم يكن قد انقضى على هجرة الرسول من مكة الى المدينة مع المسلمين الذين لم يكن عددهم يتجاوز آن ذاك المائة ٠٠٠ أكثر من ست عشرة سنة ، عندما تمكن المسلمون فى عام ٦٣٨ من الانتهاء من هزم أعظم امبراطوريتين فى العالم ، وهما امبراطورية الروم وامبراطورية الفرس . وهكذا كان معظم هؤلاء الفاتحين العتاة المتحمسين من الذين نشئوا على عبادة الأوثان . وكان كثيرون منهم قد ارتدوا عن الاسلام قبل أربع سنوات ، ولما كانت نسبة من يحسن القراءة والكتابة فيهم ضئيلة للغاية فان معظمهم ولاشك كان جاهلا بتفاصيل الديانة الاسلامية ودقائقها (٢) لكن هذا لا ينكر الحقيقة الواقعة وهى أن الدين كان الحافز الأصيل لحماستهم . فلقد عودتنا حركات البعث الدينية العاطفية أن تنتشر بسرعة ، وأن تخلق حماسة منقطعة النظير وألا تكون كثيرة العناية بالتزمت العقائدى الفكرى . ولا ريب فى أن الايمان بوجود اله روحى عظيم ، يدين له الكون بأسره . ويعنى بشئون عبده ، قد حول نظرهم الى الحياة وجهة أخرى ولا ريب أيضا فى أن الايمان بأن الاستشهاد فى ميادين الوغى ، سيضمن للشهداء دخول فراديس النعيم فوراً ، قد شدد من عزائمهم وقوى من شجاعتهم على الحرب .



(١) تحليل سخي لا يستطيع قبوله . واذا كان المؤلف يعترف بأن العرب « وهم أصحاب مياض » الذين يعتد برايتهم ، كانوا يعرفون ان غنما اسم صنم ، فأنى لا ارى ان عياض كان يهمل ألا يعرف النصارى أن اليهود أن اباء كاهن من عبدة الأوثان ، واعتقد ان اسقاطه لكلمة «عبد» كان بدافع التقوى الاصيل لا الظاهر الرافق .

( العرب )

(٢) لم يكن القرآن الكريم قد كتب بعد ، أو الحديث النبوى الشريف قد دون حتى يكون جهل العرب بالقراءة والكتابة سببا في عدم معرفتهم دقائق الاسلام كما يقول المؤلف .

سبق لنا أن رأينا القائد العظيم خالد بن الوليد يعزل من قيادته بأمر الخليفة ، ولكنه يواصل العمل تحت إمرة أبي عبيدة ، ولقد كانت خدماته الحربية في معركتي اليرموك وقنسرين مذهلة حتى أنها دفعت عمر بن الخطاب الى اعلان ندمه على عزله اذ قال عندما بلغت مسامحه أعمال خالد . . . « أمر خالد نفسه . يرحم الله أبا بكر ، فقد كان أعلم بالناس مني » . وقد اختاره الخليفة بعد ذلك أميراً على قنسرين .

وعندما خرج عياض بن غنم لفتح الجزيرة خرج خالد بن الوليد معه ويقال : انه بعد احتلال ديار بكر استحم في حوض من النبيلة (١) وعندما عاد من الحملة الى مقر إمارته في قنسرين زاره فيها الأشعث بن قيس الذي اشترك في القادسية . ولقد سبق لي أن ذكرت أن عادة العرب جرت على أن يقدم الكبير الذي يزوره أحد شيوخ القبائل لضييفه هدية من المال واللباس . ولذا . . عندما اعتزم الأشعث الرحيل عن خالد قدم اليه هذا ألف قطعة ذهبية هدية منه . ووصل النبا الى عمر في المدينة وقد انطوى على شيء من الاتهام لخالد بسوء التصرف في أموال المسلمين فكتب الى أبي عبيدة يأمره باعتقال القائد العظيم ومحاكمته وهكذا شهر بخاله علنا وأقيل من منصبه ثم صدر اليه الأمر بالتوجه الى المدينة حيث جدد عمر اتهامه له ، وقد رد خالد : بأن المال الذي أهده الى الأشعث ؛ ماله ، ولا شأن لمال المسلمين فيه . وليس ثمة من شك في أن خالدا كان قد أثرى من حصته من الغنائم التي فاز بها نتيجة انتصاراته العظيمة التي حققها ، ولا ريب في أنه كان أحق بكثير من الصحابة في الأموال التي جنوها من حصصهم في الغنائم ، وهم في المدينة لم يفادروها سعياً وراء الاشتراك في القتال .

---

(١) روى الواقدي أن خالد بن الوليد كان على مسيرة عياض بن غنم عند سيره لفتح الجزيرة لكن معظم المؤرخين العرب يؤكدون أن صفوان بن العطل السلمي كان على مسيرة عياض وأن خالدا لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة ولزم حصص حتى توفي بها سنة إحدى ومشرين وأوصى بما يملكه الى الخليفة عمر بن الخطاب . ولا ريب في أن هذه القصة التي يذكرها المؤلف مستقاة من أحد كتب التاريخ الشعبية التي حشاها المؤرخون من أصل شعوبي بالريف والاكاذيب للحط من شأن أبطال العرب من أمثال خالد بن الوليد رغبة من هؤلاء الشعبيين في الثأر لدولهم التي قضى عليها العرب . وقد بلغ من قحة هؤلاء أن زيفوا أحاديث على لسان النبي ظهر بطلانها . ومن المؤسف أن يلجأ المؤلف الى مثل هذه القصص الكاذبة لكن نياته في تشويه التاريخ الاسلامي لا تخرج من نيات الشعبيين .

( العرب )

وفى المحتمل ألا يكون خالد رجلا متدينا ومن المحتمل أن يكون قد بات صاحب ثراء ، وبني بعدد من الزوجات واقتنى عددا من الجوارى ، وقد تكون رواية حوض النبيذ صحيحة ، ولكن هذا لا يضيره فى شيء (١) فاليه يرجع الفضل الأكبر فى اخراج الروم من سورية خروجا لا عودة بعده . ولم يكن خالد قائدا عظيما فحسب ، أو عسكريا عبقريا فذا فقط . وانما كان أيضا رجلا شجاعا كل الشجاعة فى القتال . ويبدو أن شهرته أصبحت ضخمة الى حد خطر ، فعندما أراد عمر أن يبرر معاملته السيئة لخالد . قال : « انى لم أعزله عن ريبة ولكن الناس عظموه فخشيت أن يوكلوا اليه » . وقد استخدم الاسلوب نفسه فى الدفاع عن معاملته للمثنى ابن حارثة الشيباني . ولقد سبق لنا أن قلنا : ان عمر بن الخطاب كان رجلا ورعا كل الورع عميق الشعور ، أفيجوز لنا على هذا الأساس أن نفترض أن عمر أحس بالغيرة فى عقله الباطن من شهرة خالد والمثنى وتعلق الناس بهما تعلقا يفوق تعلقهم به وكل مانعرفه أن خالدا عاد بعد هذا الحادث الى سورية حيث توفى وفاة عادية بعد يومين .

وجد العرب أنفسهم - فى الوقت الذى كانوا فيه يثبتون أقدامهم فى منطقة الجزيرة - فى حاجة الى حملة عسكرية فرعية أخرى لتثبيت الانتصارات الأخرى التى حققوها فبعد أن استقر الأمر لهم فى العراق ، وفى المدائن بالذات أخذوا يلاجقون كسرى يزدجرد فى تراجعهم نحو الجبال الشمالية الشرقية من المدائن . ولم تكن قد دارت هناك معارك رئيسية فى الحوض الأدنى لنهرى الفرات ودجلة . حيث ان الفرس لا يزالون مسيطرين على الضفة الشرقية من شط العرب وهو ملتقى النهرين ليسيرا معا نحو البحر .

وكان خالد بن الوليد قد تمكن قبل أربع سنوات - أى بعد هزم مسيلمة الكذاب فى اليمامة - من الزحف شمالا نحو شط العرب حيث عقد صلحا مع أهل الأبله ، وهى ميناء العرب الجنوبى فى تلك الايام ؛ ولكنه زحف من الأبله نحو الشمال بدلا من أن يتجه الى الشرق وسار معه المثنى ابن حارثة الى منطقة الحيرة بعد أن استخلف على الأبله شيخا من شيوخ بكر ظل يواصل غاراته الفردية على الفرس عبر شط العرب .

(١) بنى المؤلف استنتاجه الصحيح على فرضيات خاطئة اعتمد فيها على روايات مرفوضة كان قصد بعض المؤرخين الشعبويين منها تشويه التاريخ الاسلامى .  
( العرب )

وعين الخليفة بعد معركة البويب في نوفمبر ( تشرين الثاني ) عام ٦٣٥ ، صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى عتبة ابن غزوان ليتولى قيادة العمليات العسكرية في شط العرب وعندما وصلت الى عمر أنباء الاستعدادات العسكرية التي يقوم بها القائد الفارسي رستم أمام القادسية أصدر أوامره الى عتبة بن غزوان بأن يهجم على الاهسواز ليحول أنظار الفرس الى تلك المنطقة فيجتذب بعض الجنود اليها ويحول دون ارسال النجادات ، الى ميدان القادسية . وقد اشتركت في هذه العمليات جماعات من بكر وتميم القبيلتين المقيمتين في الصحراء الى الغرب من شط العرب ، وأقام عتبة قاعدته في أكواخ بناها وخيام نصبها على بقعة من الارض التي ينتشر فيها الحصى الى الجنوب الغربي من شط العرب وتسمى البصرة ، وعاد فاحتل الابله ، وهي الميناء الذي تبحر منه البواخر الى البحرين وعمان والهند . وبعد أن وطد أقدامه في هذه القاعدة القوية الثابتة مضى يخضع أرض الدلتا الفسيحة المنبسطة ويندفع بغاراته عبر شط العرب الى خوزستان ( الأهواز ) .

وطلب عتبة الاذن له بأداء فريضة الحج في السنة التي سبقت القادسية والتي قضاها سعد بن أبي وقاص في اعداد جيشه وتدريبه في شرفات وزيارة المدينة . وعندما سار قاصدا المدينة خلف أحد البدو أميرا على البصرة في غيابه . والطرافة في هذه النقطة أن الخليفة لم يوافق عتبة على الترتيبات التي أجراها عندما رواها له في المدينة بعد وصوله اليها مستغربا أن يعين بدويا أميرا على أهل الحضر (١) ، وسرعان ما عين الخليفة المغيرة بن شعبة من صحابة الرسول ، ومن الذين بايعوه عند الشجرة قائدا في البصرة ، ولم يعيش عتبة طويلا بعد ذلك فثبتت الخليفة عامله الجديد « المغيرة » في مركزه كقائد للعرب في الاهواز .

(١) لم أتمر على تأكيد لهذه القصة في التواريخ العربية الموثوق بها ولعل المؤلف قد حثر عليها في بعض الروايات الشعبية فأدججها هنا ليحقق غرضه في ابراز القرعة بين العرب . أما الرواية الصحيحة فهي على النحو التالي : كانت البصرة قد صمرت فيما بين يوم النخلة ويوم القادسية ، وقد مصرها عتبة بن غزوان ثم استأذن للحج وخلف المغيرة بن شعبة فكتب اليه عمر بعده فلم يلبث أن قرأ بما قرأ به فعلى ابا موسى البصرة وأشخص المغيرة الى المدينة ثم ان عمر رده ومن شهد عليه الى البصرة فلما حضر يوم القادسية كتب عمر الى ابي موسى يأمره بامداد سعد فأمدته بالمغيرة في لمائة ، ويقال : في اربعمائة ، فشهدا ثم شخص الى المدينة .

( العرب )

ولقد سبق لنا أن سمعنا عن المغيرة عندما أوفده على رأس الوفد الى رستم في القادسية فأثار تصرفه بالجلوس الى جانب رستم على سريره سخط القائد الفارسي ، ولما كان جيش المغيرة خاليا ممن يعرفون القراءة والكتابة فقد اختار القائد الجديد شابا يدعى زيادا ليكون سكرتيرا له . وسنسمع عن زياد هذا كثيرا فيما بعد .

وتبدل الموقف تبديلا كلياً بعد هزيمة جيش الفرس في القادسية في ربيع عام ٦٣٧ ، فقد انسحب يزدجرد كسرى الفرس الى حلوان متخلياً عن سهول العراق للعرب وطامعا في الصمود في خط دفاعي في الجبال يحول دون تقدمهم ؛ وكان الهرمزان وهو من نبلاء الفرس الذين اشتركوا في معركة القادسية قد عاد الآن الى امارته في الاهواز ليتولى الدفاع عنها ضد غارات العرب من البصرة وكان نصر العرب في القادسية قد مكن سعد بن أبي وقاص في الوقت نفسه من أن يشعر بالطمأنينة ، ومن أن يرسل الامداد الى جبهة البصرة .

ورقح حادث في هذه الايام أدى الى تبدل في القيادة وهو يلقي بعض الأضواء على أوضاع تلك الأيام وطرائق السلوك فيها . فقد وجهت تهمة الزنا الى المغيرة بن شعبه وكان موجهوها أربعة من مساعديه بينهم كاتم سره زياد . وقد نقلت التهمة الى الخليفة في المدينة فاستدعى المتهم والشهود للمثول بين يديه . بالرغم من الحقيقة الواقعة وهي أن المغيرة كان والياً من الولاة وقائداً عاماً للجيش (١) وينص القرآن الكريم على عقاب الزاني بالجلد مائة جلدة في حين تنص التقاليد منذ أقدم العصور على رجم الزاني حتى الموت (٢) وهو عقاب ورد نصه في الشريعة العبرانية القديمة .

(١) تختلف رواية المؤلف عن روايات المؤرخين العرب بمض الاختلاف فكل ما جاء في كتب العرب عن هذا الحادث ، أن عمر بن الخطاب استحضر المغيرة بن شعبه وهو أمير البصرة - والمغيرة من الصحابة ومن ذوى الأثر الصالح في الفتوح الإسلامية - وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كلمة القليلة : أن عزل ، وعاتب ، واستحث ، وأمر ، اذ قال :

أما بعد فقد بلغنى نبأ عظيم لبعتت أبا موسى اميراً فسلم ما في يديك والمجلد المجلد . فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاتب شهوده بللح الذي فرضه الله لخلهم .

(٢) خلط المؤلف بين عقوبتي الزنا - فنسب بقسوة الحد الى القرآن الكريم وعقوبة الرجم الى التقاليد مع أن العقوبتين واردتان في الشرع الشريف وأولاهما للزنا من غير التزوجين والاخرى للزنا من المتزوجين .

( العرب )

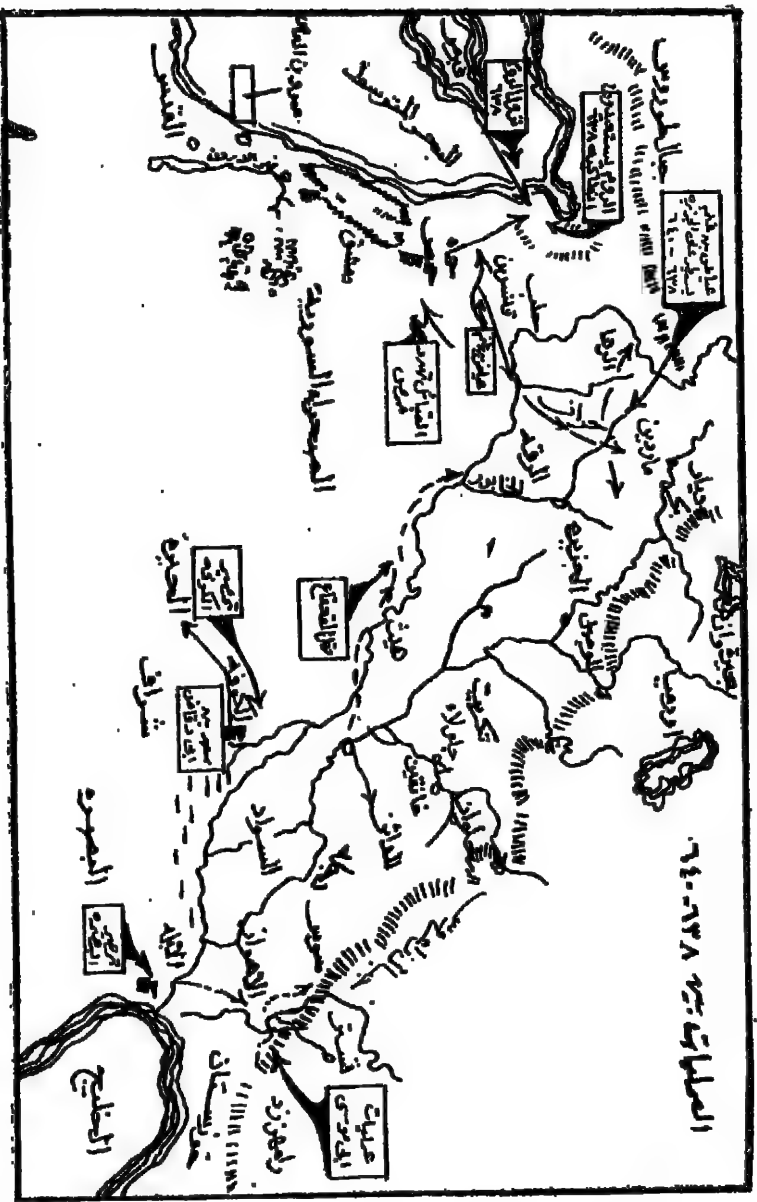
وكان الرسول قد أمر عندما وجهت تهمة الافك الى زوجه عائشة بجلد من يقذف أعراض الناس زورا وكذبا ، ويتيقن بطلان قذفه . وأفضى ثلاثة من الشهود بشهاداتهم أمام عمر بن الخطاب . ولم يبق الا رابعهم زياد ، وعندما استدعى زياد الى الخليفة هتف به قائلا : انه ليرى في وجه هذا الرجل الأمل بنجاة أحد صحابة رسول الله من الرجم حتى الموت ، ونجاة سمعته من المساس . وقد وجد زياد بعد هذه الإشارة الواضحة أن من الخير له أن يعدل عن شهادته وأن يظهر عدم تحققه من التهمة وشكه فيها .

وهكذا أعلن الخليفة براءة عامله من التهمة مما عرض الشهود الثلاثة الأول الى عقوبة الجلد لأنهم طعنوا في سمعة رجل برىء ، لكن المغيرة فقد مركزه على أية حال . اذ بعث الخليفة بأبى موسى الأشعري الى البصرة ليكون عاملا له فيها وذلك في نهاية عام ٦٣٨ تقريبا (١) .

وزحف أبو موسى الأشعري بجيشه على الفرس فحاصر مدينة السوس وقتحها ، وكان يزددجرد قد بعث الى المنطقة بأحد كبار الفرسان من رجاله للدفاع عنها فلما رأى هذا القائد الفارسي ظهور الاسلام ، وعز أهله أرسل الى أبى موسى يفاوضه على الانحياز برجاله من الفرسان الى

(١) يابى المؤلف الا أن يث سموم حقه وكرامته في كل ما يكتبه فهو أولا يورد حادث اتهام المغيرة بن شعبة دون أن يكون لها مكان في كتابه الذى يتحدث عن الفسوح العربية ثم يحاول بصورة لا مباشرة ان يوحى لقراءه بأن التهمة صحيحة ، ولكن الخليفة اراد تبرئة المغيرة لانه من صحابة رسول الله وبذلك يحقق غايته في تشويه سمعة المغيرة من ناحية والطمع في عدل عمر بن الخطاب مع أنه من أعدل من عرفته الدنيا كلها . حتى ان عدلاته حملته على إيقاع الحد كما تجمع كتب التاريخ العربى ، على ولده ، عندما ثبتت عليه تهمة احتساء الخمر ، وأمر بجلده برغم شقاعة بعض كبار المقرئين اليه من صحابته ، فجلد أمام ناظريه ، ومات والحد يوقع عليه ، دون أن تأخذ عمر في الحق شفقة أو حنان الأبوة ، ودون أن يسمح له حتى بشرب الماء في أثناء الحد وقبل أن يموت ، فلا يمكن لرجل كهذا أن يتحيز للمغيرة وأن يحاييه ، وأن يطلب ولو بصورة غير مباشرة من زياد تعديل شهادته .

ولا ريب في أن التهمة التى الصقت بالمغيرة كاذبة ، اختلقها موظفوه الأربعة ، لتقديمه عليه لامر ما ، وهى حالة كثيرا ما تحدث في كل زمان وكل مكان . وعندما تبينت الحقيقة لمر ، براه من التهمة ، وأوقع العقاب بالفترين . ولو كان عمر يريد محاباته ، ما استعمل تلك اللهجة الحادة في رسالته اليه . أما اقالته من منصبه ، فقد تكون ناجمة من امتداد الخليفة بأن مقتضيات الحكم ، تتطلب ابعاد المغيرة من منصبه بعد هذه التهمة ، حتى ولو برئت ساحته منها .





جانب المسلمين ، ولعل مما يثير الغرابة أن رسالة قائد الفرس الى القائد العربى كانت على النحو التالى :

« انا قد احببنا الدخول معكم فى دينكم على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم . وعلى انه ان وقع بينكم اختلاف لم نقاتل بعضكم مع بعض ، وعلى انه ان قاتلنا العرب منعتمونا منهم وأعنتمونا عليهم ، وعلى أن ننزل بحيث شئنا من البلدان ونكون فيمن شئنا منكم ، وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الامير الذى بعثكم » .

ووجه الغرابة فى هذه الرسالة وبالنسبة الى ما قدر له أن يقع فى المستقبل أن الأجانب توقعوا منذ ذلك التاريخ نشوب حروب أهلية بين العرب حتى فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الاخوة والحامسة الاسلاميتان فى ذروتها . وقد تحالف الفرس مع بنى تميم . وروى المؤرخون أن جماعات أخرى من مقاتلة الفرس فى المنطقة قد انحازوا الى المسلمين . وبينهم جنود المشاة وبعض الهنود . وقد تحالفت كل جماعة من هذه الجماعات مع احدى القبائل العربية .

وبعد أن استسلمت السوس ورامهرمز واصل أبو موسى تقدمه الى تستر حيث اجتمع نفر كبير من جنود الفرس وعلى رأسهم الهرمزان ، واضطر أبو موسى الى الاستغاثة بالخليفة ليرسل اليه بعض النجادات فأنجده بجرير بن عبد الله البجلي بطل معركتى البويب والقادسية ، على رأس قوة من جيش سعد بن أبى وقاص ، ودارت معركة بعد ذلك مع الهرمزان انهزم فيها ، واضطر الى الدخول الى تستر حيث أغلق على نفسه أبوابها . وقاد أحد الاعاجم مائتين وأربعين من العرب الى المدينة فى دجى الليل عن طريق منفذ سرى . وقتل المسلمون الحراس على الاسوار . ثم كبروا عليها وفتحوا الابواب لرفاقهم وأسر الهرمزان فبعث به أبو موسى الى المدينة .

وعندما استدعى النبيل الفارسى للمثول أمام عمر لم يكن له كبير أمل فى النجاة من الموت وتظاهر الرجل بالعطش وطلب شربة ماء ، وعندما قدم له الماء فى قدح ليشربه أخذ يتطلع قلقا حوله وكأنه يخشى أن يضرب أحدهم رأسه بالسيف وهو يشرب الماء ويمسك بالقدح بين يديه . ورأى الخليفة ذلك فأكد له أن أحدا لن يمسه بسوء قبل أن يشرب الماء وسرعان ما صبب الهرمزان الماء على الأرض . وطلب أعرابى رأى الحيلة التى لجأ اليها الفارسى الداهية من الخليفة أن يسمح له بقطع رأسه .

«ولكن عمر رفض السماح له بذلك مؤكدا ضرورة الحفاظ على العهد .

وهكذا نجا الهرمزان من الموت ، وعاش بعد ذلك في مكة كاحسد  
للمسلمين حيث لقي حتفه بصورة مفاجئة كما سنروى فيما بعد . ويقسم  
هؤلاء الفرس المثل الاول على غير المسلمين الذين تحولوا الى الاسلام ثم  
اندمجوا في العنصر العربي(١) .

وادت العمليات الحربية التي جرت في الاهواز ، الى اعتقال عدد  
كبير من الأسرى ظلوا رهن الأسر حتى جاء أمر عمر باطلاق سراحهم وقد  
تضمن أمره الحض على الإبقاء على الزرامة ، حفاظا على رخاء البلاد  
وازدهارها بعد الفتح الاسلامي لها . وقد منع عمر اخراج الزارعين من  
أراضيهم في كل من منطقتي السواد والاهواز ، بشرط أن يدفعوا الخراج  
والجزية .

وسرعان ما وجهت الاتهامات الى الموظفين الذين اختارهم الامير لتقدير  
الضرائب في الاهواز ، باستغلال نفوذهم ، مما حمل الخليفة على اصدار  
أمره بمصادرة نصف ثروتهم وهي طريقة سهلة ولكنها قاسية ، وكانت  
الطريقة الوحيدة المتيسرة لرجل وجد نفسه فجأة مثقلا بأعباء ادارة  
امبراطورية واسعة عن طريق جماعة من الاعوان يجهلون القراءة والكتابة .

أما وقد أضحي كسرى يزدرج وراء جبال زاغروس وأضحت الاهواز  
كلها في أيدي أبي موسى الأشعري الذي أخضعها من قاعدته في البصرة  
فقد بات في وسعنا أن نعود لمتابعة سير الأحداث في أماكن أخرى .



تعرض الجزيرة العربية منذ أقدم عصور التاريخ بين الفينة والفينة

(١) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين العرب فقد ذكر أنس بن مالك  
قال :

حاصرنا تستر فنزل الهرمزان فكننت الذي آتيت به الى عمر . فقال له عمر :  
تكلم ، فقال : « كلام حى أم كلام ميت ؟ فقال عمر تكلم لا بأس ، فقال الهرمزان : كنا  
معشر النجم ما خلى الله بيننا وبينكم لتصيحكم وتقتلكم فلما كان الله معكم لم يكن  
لنا بكم يدان » . فقال عمر : ما تقول يا أنس ؟ قلت : تركت خلفي شوكة شديدة وعدوا  
كلبا . فان قتلته يس القوم من الحياة فكان أشد لشوكتهم وان استحبيته طمع القوم  
في الحياة فقال عمر : يا أنس ، سبحان الله قاتل أخيك البراء ومجزأة بن ثور  
« قلت » فليس لك الى قتله سبيل ، قال : « ولم اعطاك أصبت منه » ؟ قلت :  
« لا ولكنك قلت له : لا بأس » فقال « متى ؟ لتجيش معك بمن شهد والا بدأت بمقوتك  
قال أنس : « فخرجت من عنده قائلا للزبير بن العوام قد حفظ الذي حفظت فشهد بي  
تخلى عمر سبيل الهرمزان فأسلم وقرض له عمر .  
(العرب)

الى موسم من مواسم الجفاف عندما تقل الامطار في اية سنة ، فلا ينبت الكلا ولا تظهر الاشواك عند حلول الربيع . وتظل البيداء كلها مجسدة قاحلة لا حياة فيها ، وتموت أعداد وافرة من الماشية والابل في مثل هذه المواسم . وتعانى الفئات الفقيرة من بدو وحضر شظف العيش ومتاعبه . كما تقاسى أبلغ الجهد في بحثها عن الغذاء ولقد كان عام ٦٣٩ من هذا النوع في الجزيرة العربية . واتخذ الخليفة من الاجراءات أكثرها حزمًا وصرامة لتخفيف الضائقة ومتاعب الحياة . وأمر عماله من أمراء الأمصار في سورية وفلسطين والعراق بأن يبعثوا الى الجزيرة بقوافل كبيرة محملة بالغذاء والقمح وضرب عمر المثل للمسلمين فعاش طيلة هذه الفترة على الطوى لايمسك ريقه الا بما يناله أكثر المسلمين فاقة وعوزا .

وانتشر الطاعون السمل في عام ٦٣٩ في سورية وفلسطين بالاضافة الى تلك المجاعة القاتلة ، ومات الكثيرون من العرب واضطر العدد الكبير من الاحياء الى النجاة بأرواحهم من المدن الموبوءة هائمين في الصحراء وقد أصيب القائد العام أبو عبيدة بالطاعون قبل أن تكتمل الهجرة ، فانتقل الى جوار ربه ودفن جثمانه في وادي الاردن حيث لا يزال ضريحه قائمًا حتى الآن . وقد أعيد بناؤه في عام ١٩٤٠ وكان يزيد بن أبي سفيان القائد الذي قام بدور كبير في الحملة السورية من ضحايا الطاعون أيضا .

وحزم الخليفة الذي لا يقعه جهد أمره على زيارة سورية من جديد . لاعادة تنظيم الادارة فيها . بعد أن فقد المسلمون هذا العدد الكبير من قادتهم ، ويبدو أن الطاعون كان قتالا الى الحد الذي قيل فيه ان العرب فقدوا نحو من خمسة وعشرين ألفا من رجالهم من جرائه . مما دعا الى انتشار القلق من أن يهتبل الروم الفرصة فيعودوا الى مهاجمة سورية واحتلالها .

واختار الخليفة معاوية بن أبي سفيان ليكون أميرا على سورية خلفا لابي عبيدة ولاخيه يزيد بن سفيان ، ولقد سبق لنا أن مرنا على ذكر سر معاوية وهو يعمل كاتما للسر عند النبي في المدينة وراينا يهرول حافي القدمين الى جانب الهجين الذي يستقله الضيف البدوي شيخ القبيلة المتعجرف القادم من جنوب الجزيرة ، وأصبح معاوية بعد وفاة أخيه يزيد أكبر أبناء أبي سفيان ، وكان من أكثر الناس طموحا وتطلعا الى المجد . قد امتاز بالقدرة على التواضع واللين عندما تقتضيها المواقف وعلى الصبر انتهازا للفرص ، فبرهن على أنه سياسي بعيد النظر من الدرجة الاولى ، وأثبت أنه حاكم لا يشق له غبار في كفايته وطاقاته ، وقد قدر

لهذا الرجل أن يحول الحكم الاسلامى الدينى الممثل فى الخلفاء المخلصين  
الاتقياء المتواضعين الى حكم امبراطورى وراثى قوى الدعائم زاهرا لقسما



وفى وسعنا الآن بعد أن رأينا ما لحق بامبراطوريتى الروم والفرس  
من هوان واذلال وما حققه العرب من سيطرة على سورية والعراق وتثبيت  
لاقدامهم فيهما أن نعود فنلتفت الى الوراء لحظة واحدة نستعرض فيها  
نشوء هذه الامبراطورية الجديدة الداخلية بعد أن رأيناها تنمو هذا النمو  
المذهل فى غمضة عين وانتباهتها . فلقد أحس الخليفة عمر بن الخطاب  
بالحاجة الماسة لمواجهة هذا الوضع الجديد باتخاذ بعض القرارات الرئيسية  
الحاسمة .

ولم تكن الشعوب المقيمة فى فلسطين وسورية تمت الى اصل واحد،  
ففى المنطقة الساحلية على شاطئان البحر المتوسط تقيم اقوام تمت الى جذور  
مختلفة وممتزجة . فلقد كان الفلسطينيون والكنعانيون والحيثيون  
والعبرانيون والفينيقيون هم اول من اقام فى هذه المنطقة ليعودوا فينصهروا  
قبل نحو من الف عام من تاريخنا الحالى مع المهاجرين من الاغريق والاقوام  
اللاتينية . وغلب النصر الاغريقى على معظم مدن الساحل الكبيرة ، أما  
فى المناطق الشرقية من سورية وفلسطين فكانت دولة الفساسنة (١) التابعة  
لروم نصف عربية أو أكثر من نصف عربية . وكانت اللغة السريانية هى  
الغالبية على معظم أرجاء هذه المنطقة التى يدين أهلها بالنصرانية . ولقد  
جاء إليها أيام الفتح الاسلامى الوف من أبناء القبائل العربية استصحب  
الكثيرون منهم معهم نساءهم وأطفالهم ، وعلى الرغم من أن الطاعون كان قد  
قضى على الكثيرين من العرب فإن أعدادا كبيرة منهم نجت منه وظلت تعيش  
فى سورية . وعندما انتهى أمر القتال فيها لم يعد أمام هؤلاء ما يعملونه،  
يضاف الى هذا أن انتهاء القتال كان يعنى بالنسبة اليهم انتهاء عهد الاسلاب  
والغنائم .

وبرزت مشكلة أمام الخليفة : ترى هل يسمح لهؤلاء العرب القادمين  
من الجزيرة العربية بالاختلاط بأهل سورية وفلسطين ؟ أو هل يفرض  
عليهم عزلة مقصودة ؟ وكان يرى أنه لو سمح لهم بالاختلاط فانهم لن  
يلبثوا فى غضون جيلين أو ثلاثة أجيال أن يذوبوا فى المجتمع المحلى المقيم

(١) الفساسنة عرب اصلاء .

فى المنطقة • وليست هناك بالطبع أية احصاءات موثوقة عن السكان فى سورية وفلسطين فى القرن السابع ، ولكن الشيء الثابت أن هذين البلدين كانا مزدهرين كل الازدهار كامارتين رومانيتين طيلة القرون الستة الماضية وليس ثمة من شك فى أن عدد سكان المنطقة كان يقل فى عام ١٩٦٠ عن عشرة ملايين بقليل ، أما فى أيام البيزنطيين فعلى الرغم من أن البلاد كانت فى حالة ازدهار تفوق أحوال اليوم فإن ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال وعجز الناس عن منع الأوبئة من الانتشار ، كان لا بد أن يؤثر على عدد السكان وأن يبقيا على نسبة خفيفة فيه • وقد نغامر فنقول على سبيل الحدس والفرض أن عدد سكان سورية وفلسطين فى عام ٦٤٨ لم يكن يزيد على ثلاثة ملايين وإن كان هذا التقدير يقل عن الحقيقة بعض الشيء • ولم يزد عدد جنود الجيش العربى الذى اشترك فى المعارك الضارية التى جرت فى تلك الايام ، عندما كانت القيادة الاسلامية فى حاجة الى كل جندى ليخوض المعركة فى سورية على الخمسة والعشرين ألفا • وكان بعضهم تصحبهم نساؤهم وأطفالهم •

وعلى هذا الاساس يمكننا أن نفترض أن عدد المسلمين مع أفراد عائلاتهم فى سورية فى تلك الايام لم يكن يربو على مائة ألف • وعلى هذا لم يكن عرب الجزيرة المقيمون فى سورية يربون فى تلك الايام على أكثر من واحد من ثلاثين من عدد السكان، ولذا كان مجرد السماح لهم بالاختلاط مع أهل البلاد يعنى ذوبانهم فى هذا المحيط الشامل الواسع وإذا ما استثنينا أبناء القبائل البدوية المربطة فى بادية الشام فإن أهل سورية لم يظهروا أية خصائص قتالية بارزة ، ومن هنا يكون الامتزاج سبيلا الى اضاعة العرب لمزاياهم وفضائلهم •

وأخيرا كان عمر بن الخطاب الورع المتطهر يتظن بشئ من الفزع والهلج الى ما يمتاز به السوريون من ميل الى الرقص والموسيقى والثياب الناعمة المترفة والخمور وعلى ضوء هذا قرر الخليفة عزل المسلمين العرب عن أهل البلاد وأن يجعل منهم طبقة عسكرية حاكمة مهمتها الحكم وخوض القتال • وتحقيقا لهذا الهدف أمر أن يظل معسكر الجابية الحربى المقيم الدائم للعنصر الحاكم والمنطقة المعزولة لاقامتهم •

ولقد رأينا أن العرب فى العراق بقيادة سعد بن أبى وقاص احتلوا قصور الأكاسرة والدهاقين فى المدائن بجزاىها ، وليس ثمة من شك فى أن عمر كان يحس بأشد القلق والخوف من اجتماع افساد المسلمين عن طريق الانغماس فى الترف ، وكان الجنود يشكون من سوء أحوالهم الصحية فى

العراق ومن انتشار البعوض وهجماته . وبالإضافة الى هذه الاعتبارات كلها كان الخليفة يخاف خوفا نفسانيا قويا من السماح لجنوده بأن يصبحوا مقطوعين على الضفة الأخرى من النهر ، اذ أن ذكريات معركة الجسر المفجعة سببت له كابوسا دائما مرعبا .

ولهذه الاسباب جميعها كتب عمر الى سعد بن أبي وقاص يأمره باختيار مكان مناسب يصلح قاعدة عسكرية رئيسية شريطة أن يكون على اكناف الصحراء وعلى الضفة الغربية من الفرات ، وقد نتج امره هذا عن رغبته في أن تكون الصحراء هي الفاصل الوحيد بينه وبين رجاله ، وفي مثل هذه الحالة يكون على ثقة من أن اتصاله بهم لن ينقطع .

واختار سعد بن أبي وقاص بعد أن تحرى مناطق عدة موقعا له قريبا من الحيرة . وقد حشدت قوات العرب الرئيسية هنا في هذا الموقع في عام ٦٣٩ فسكنت في بادئ الأمر في الخيام وفي الاكواخ المبنية من القصب . وأمر سعد ببناء مسجد في المكان ثم بنى منزلا له . وسرعان ما أخذت الابنية في الانتشار فتم بذلك بناء الكوفة التي غدت بصورة تدريجية مدينة قدر لها أن تؤدي دورا هاما وأحيانا دورا سيئا في التاريخ العربي .

وقد سبق لنا أن ذكرنا ان القوات العربية كانت قد عسكرت عند رأس الخليج على مساحة من الأرض التي ينتشر فيها الحصى تسمى البصرة . وأدى امتداد العمليات العسكرية الى الأهواز بعد القادسية الى ارسال نجدات اضافية الى هذه المنطقة مما أسفر عن تحول البصرة الى ما غشت عليه الكوفة أي الى قاعدة عسكرية سريعة ما تطورت الى مدينة حديثة .

وهكذا تبرز لنا صورة جديدة تظهر فيها الجيوش العربية القادمة من الجزيرة العربية وقد وطلت أقدامها في الامارات المحتلة وان لم يجر تسريحها ولقد حيل بينها وبين الامتزاج مع السكان أو بينها وبين امتلاك الاراضي والاقبال على فلاحتها . فلقد صدرت اليهم الأوامر بالبقاء منفصلين منعزلين يمثلون عنصرا حاكما وجنودا يحتشدون في القواعد العسكرية الكبيرة كالجابية في سورية والكوفة والبصرة في العراق .

ولكن لم يكن في الامكان الحيولة دون وقوع الاندماج في ناحية واحدة على الأقل . فلقد أذن الاسلام لمعتنقيه بالزواج بأربع من النساء . أما قبل الاسلام فلم تكن ثمة حدود أو قيود على تعدد الزوجات وكان في مكنة الرجل الزواج بأى عدد من النساء وان كانت النسبة الطبيعية بين عدد الذكور والاناث لم تكن لتسمح بصورة آلية رتيبة للرجل بالزواج بعدد

كبير منهم ، وكان الاسلام قد سمح للمسلم باقتناء الجوارى من أسيرات الحرب أو الاماء ، لكن النطاق المحدود للحروب في عهد النبي والفقر العام الذي كان يعيش فيه العرب . كانا قد منعا اساءة استعمال هذا الحق . اما الآن ، وبعد هذه الفتوح السريعة المذهلة لمناطق سورية والعراق الغنية والخصبة والمتحضرة ، فقد بات في وسع المحاربين العرب أن يحصلوا على عدد غير محدود من الاسيرات ، وان تتوافر لهم الامكانيات المادية لعولهن وأدى هذا الوضع الى ولادة عدد ضخم جدا من الاطفال في القواعد العسكرية لابائهم العرب ، وكانوا يعتبرون عربا وان كانت معظم أمهاتهم من الجوارى أو الاسيرات أو الاماء . ولم يمض أكثر من جيل واحد حتى كانت الطبيعة العنصرية للعرب الذين احتلوا سورية والعراق تختلف بعض الاختلاف عن طبيعة أبناء الجزيرة العربية .

وأدى تركيز الفاتحين العرب في المناطق العسكرية المحظورة الى ضرورة دفع الرواتب اليهم نظرا لمنعهم من العمل في الزراعة أو التجارة ، وكان تنظيم دفع الرواتب الى جيش ضخم كهذا الجيش عملية منهكة لحاكم لا يعرف من القراءة أو الكتابة من رعاياه الا النفر القليل . وفي سنوات الفتح بين عامي ٦٣٣ و ٦٣٨ كانت أربعة أخماس الغنائم توزع فورا على الجنود . وهي عملية جعلت الرواتب أمرا لا ضرورة له ، اذ جعلت من كل محارب من محاربي المسلمين رجلا واسع الثراء . ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب ، عزف عن المضي في الفتح ، رغبة منه في أن يثبت العرب أقدامهم في المناطق الواسعة التي فتحوها ، لكن توقف العمليات الحربية عنى بالنسبة اليه وقف الغنائم ومن ثم الحاجة الى دفع رواتب الجنود .

وكان النبي قد رفض طيلة حياته جمع المال أو المواد الغذائية في بيته . وتذكر الروايات الكثيرة أنه كان يأبى أبقاء شيء منها ليلة واحدة في داره . فإله جلّت قدرته يوفر الرزق لعبيده من يوم الى يوم . ولم يخرج الاسلام في هذا عن تقاليد النصرانية فلقد روت القديسة تريزا أن رهبان الكرملين كانوا يرفضون عند انشاء رهبنتهم اختزان الطعام لأكثر من يوم واحد . وكان النبي يرى أن اختزان المال أو الاغذية دليل على الافتقار الى الايمان بالله . وعلى ضوء هذه السنة كانت ثروات الامبراطوريات التي تتدفق على المدينة في سنوات الفتح بين عامي ٦٣٣ و ٦٣٨ كفيء يشمل خمس الغنائم . توزع فور وصولها على المستحقين ، ويظل بيت مال المسلمين خاويا . وكثيرا ما رد عمر بن الخطاب على ناصحيه بالابقاء على جزء من المال كوفر احتياطي . في بيت المال ، بأن اقترحهم هذا نابع عن الشيطان ، ويضيف الى ذلك ،

قوله : انه يؤمن بالله ورسوله وهذا هو الوفر الاحتياطي الذي ينشده .  
فقضية الاسلام هي قضية الله ، ولا بد أن يؤمن الله لقضيته كل ما تحتاج  
اليه . وهكذا وجد عمر خزينته عند ما واجه ضرورة دفع الرواتب للجنود  
خاوية من كل مال .

ومن الصحيح بالطبع ان أى خفض فى كمية الغنائم قد يعوض من  
جاء الحقيقة الواقعة وهي أن المناطق المحتلة كانت مرغمة على دفع الجزية  
والخراج . وعلى الرغم من احتمال العثور على المال بهذه الطريقة فان صعوبة  
العمل قد تضاعفت اذ من الواجب ايجاد توازن بين الدخل وبين الانفاق .  
وبالطبع لم يكن العرب قادرين على أن يؤمنوا جهازا كافيا للخدمة المدنية .  
ولا يفكر أن الموظفين القدامى فى سورية والعراق ظلوا فى مراكزهم بعد  
الفتح العربى ، وظلت الحسابات فى سورية تعد من قبل الموظفين البيزنطيين  
باللغة الاغريقية ، كما ظلت الحسابات فى العراق تعد بالفارسية من قبل  
الموظفين السابقين عند الاكاسرة .

وبالطبع لم تتوافر الامكانيات لعمر بن الخطاب لاصدار عملة عربية  
جديدة ، ولذا فقد ظل النقد الميزنطى متداولاً فى سورية وفلسطين على  
حين ظل النقد الفارسى المتداول فى العراق . ومهما كانت القواعد التى  
سنها المسلمون بالنسبة الى الضرائب والجزية والخراج والعشر وما شابه  
ذلك ، فان العمل الحقيقى فى التقدير والجمالية من سكان المناطق المحتلة ،  
ظل بأيدي الموظفين السابقين عند الدول السابقة الزائلة .

وظهرت متاعب أخرى فى الشؤون القضائية : فلم يكن لدى المسلمين  
قانون مدنى ، وانما كانوا يعتمدون على القرآن والسنة والحديث فى ايجاد  
الحلول المناسبة لجميع المشاكل التى يواجهونها . وكان من الطبيعى الا  
يقبل النصارى واليهود والمجوس (أتباع زرادشت) مثل هذا النظام ، اذ  
انهم لا يؤمنون بأن القرآن من التنزيل . ومع ذلك ، فام يحاول المسلمون  
ارغام هؤلاء الناس على اعتناق الاسلام ، اذ أن الاسلام نص على أن لا اكراه  
فى الدين . ولهذا كان الحل الوحيد والمعقول ، هو السماح للنصارى  
واليهود باستخدام قوانينهم الخاصة بأحوالهم الشخصية . وأن يقوم  
قضائهم بتطبيقها ، وقد ظل هذا الاجراء متبعا فى البلاد الاسلامية حتى  
يومنا هذا ، اذ ورثه الاتراك العثمانيون عن العرب فى القرن السادس  
عشر . وكانت الكنائس المسيحية والجاليات اليهودية تؤلف فى ظل الحكم  
العثمانى مناطق شبه مستقلة ضمن اطار الدولة .



ولما كانت الدولة الاسلامية الاولى دولة دينية ثيوقراطية ، تعتمدها في قوانينها على شرائع الله فان الدين لا العنصر أو القومية كان العامل الذي يفرق بين الناس ويميز الواجد منهم عن الآخر . ولو سئل أى رجل يعيش في الشرق الاوسط طيلة الف وثلثمائة عام عن نفسه لرد بأنه «مسلم» و«الحمد لله» أو «مسيحي» أو «يهودي» ولا يرد بأنه «عربي» أو «مصري» . وكان هذا الرد نتيجة حتمية للحكم الديني . لكن تمثلت النتيجة الفورية لفتوح القرن السابع ، وهذا أمر يثير الغرابة ، في نشوء شكل من أشكال القومية العربية لفترة مؤقتة على الأقل، فلقد كان العنصر العربي هو الذي أطاح بدولتي الفرس والروم . وكان الجيل العربي الذي قام بهذه المهمة من الرجال الذين تحولوا الى الاسلام في أوسط العمر ، بعد أن نشؤوا في ظل الجاهلية على عبادة الاوثان وتعشق أساطير البطولة العربية والحب والحرب . وليس غريبا والحالة هذه أن تكون ثمرة الفتوح العربية نشوء عنصر عربي سيد يشعر بالاعتزاز والفخر لما حققه من أمجاد . ولكن العناصر الاعرابية ، ظلت طيلة القرن الاول للإسلام ، تشتت طريقها ببطء متسللة الى مراكز السلطة . وأدى هذا التسلسل بالتدريج أيضا الى اختفاء غطرسة العنصر العربي ليحل محلها شعور بالتفوق الديني الاسلامي ظل قائما ثم يطرأ عليه أى تغيير حتى القرن العشرين . ولم يضعف أمر الحكم الديني أو يختلف الا في الاربعين سنة الاخيرة ، من جراء تحول الدولة في البلاد الاسلامية من الدين الى العلمانية . ولقد بنيت الدول العلمانية الحديثة على الاسس المتبعة في أوروبا الغربية لا على أسس التقاليد الاسلامية .

وهكذا قدر للقرارات العاجلة التي اتخذها النبي وخليفته الأولان ، عندما واجهتهم مشكلة ادارة الامبراطورية الجديدة أن تقرر شكل الحياة وطرائقها في الشرق الاوسط لمدة تزيد على الف عام .

\*\*\*

واذا كانت جباية الضرائب من البلاد المحتلة ، قد ظلت في بادئ الامر في أيدي الاروam والفرس ، فان صرف الرواتب الى الجنود العرب كان لابد وأن يحصر في أيدي عربية . واضطر عمر تحقيقا لهذه الغاية الى القيام بعمل ضخم على نطاق مذهل . يكاد يشبه القيام بأحصاء عام للعرب في المعروف أن القبائل كانت تحل في الجيوش العربية محل الوحدات في الجيوش الاخرى . وكانت كل قبيلة منها تحارب تحت علمها وبقيادة رئيسها . ومن هنا نشأت الحاجة الى دفع الضرائب على أسس قبلية .

وكانت ثمة اعتبارات ثلاثة تقرر المبلغ الذى يدفع لكل فرد من الافراد ، اولها الاسبقية فى التحول الى الاسلام وثانيها القرابة من رسول الله وثالثها البلاد فى سبيل الله . وهكذا كان نصيب عائشة أم المؤمنين اثني عشر ألف درهم بينما كان نصيب كل من زوجات النبي الاخريات عشرة آلاف درهم . وكان الدرهم هو العملة الفضية المستعملة فى تلك الايام . وكان نصيب كل فرد من آل الرسول خمسة آلاف درهم وهو عين ما يتقاضاه الصحابيون من الذين اشتركوا فى معركة بدر . وكان نصيب من شهدوا بيعة الشجرة فى الحديبية أربعة آلاف درهم ، بينما يتقاضى الذين أسهموا فى حروب الردة ثلاثة آلاف درهم ويتقاضى المحارب الذى اشترك فى فتح دمشق أو فى معركة القادسية ألفى درهم فى العام . وأصبح الجنسدى العادى يتقاضى فيما بعد خمسمائة درهم فى العسام أما الذين يبلون بلاد حسنا ويمتازون ببطولات بارزة فيتقاضون خمسمائة درهم اضافية أخرى كما يتقاضون أية رواتب أخرى بموجب المؤهلات الاخرى التى يمتازون بها . وكان الحد الأدنى للرواتب مائتى درهم ، ويدفع للمجندين الذين انضموا مؤخرا الى الجيش العربى . وتلقى أرامل الشهداء بدر خمسمائة درهم . أما أرامل الشهداء المسلمين الآخرين فى المعارك الاخرى فيتقاضين رواتب متفاوتة . ولعل مما يثير الدهشة أن تستطيع هذه الادارة غير المتعلمة السير فى مثل هذا النظام المعقد بنجاح . ويبدو أن التوزيع كان يجرى على الطريقة القبلية أى أن الرواتب تدفع الى رؤساء القبائل الذين يسلمونها الى الموثوقين من الشيوخ فينقلها هؤلاء بدورهم الى الافراد .

وكانت الاسلحة التى يستخدمها العرب هى الاسنة بالنسبة الى الفرسان وذلك لان السنان كان السلاح الاثير عند العرب . وكانت النبال والاقواس مع المقاليع التى تقذف بالحجارة ، تؤمن نيران التغطية للجنود . أما الحراب التى تقذف فكانت من الاسلحة المألوفة لدى حراس مكة . وهم جماعات استخدمتهم قريش فى أيام الجاهلية كجنود مرتزقة ، وقد شهدناهم يحاربون فى معركة أحد . ويستخدم المشاة والفرسان على حد سواء السيوف فى حربهم ، أما الاسلحة الدفاعية فتشتمل على الدروع والخوذ الفولاذية . ولا ريب فى أن الدروع كانت نادرة فى الايام الاولى ولكن العرب ما لبثوا أن غنموا من الروم والفرس كميات ضخمة جدا من السلاح والعتاد والدروع والجياد .

وكان العرب قد ألفوا منذ عهد بعيد ، ولا سيما البدو منهم مبادئ السوقية ( الاستراتيجية ) الاساسية التى تقوم على السرعة والمباغتة

وحشد القوى في المراكز الحساسة الحاسمة . وكانوا في أيام الجاهلية يفتقرون الى النظام والانضباط ولكن السنوات الست المتعاقبة من الصراع المستمر مع جيوش الفرس والروم ، علمتهم ولا ريب الكثير من الدروس ، التي لم تسجل لسوء الحظ لنفيدها منها نحن . لكن في وسعنا الافتراض بصورة عامة بشيء من الثقة انهم كانوا لا يزالون حتى عام ٦٣٨ أقل من أعدائهم خبرة بدقائق التنظيم والتجهيز الحربي . ولقد كان في الامكان حل مشكلة الانضباط بصورة مؤقتة ابان الفترة التي استمر فيها الحماس الديني على أشده اذ أن الانضباط شيء صعب على العرب دائما . ففي تلك الفترة كانوا يحاربون في سبيل الله ، لا في سبيل شخص أو انسان . وللهذه الغاية كان قائد الجيش دائما هو الذي يؤم الجنود في صلواتهم ويخطبهم أيام جمعهم ، ومن هنا نستطيع القول ، على أى حال بأن انتصاراتهم المذهلة لم تتحقق بفضل تفوق في علومهم العسكرية ، وانما يرجع الفضل الاول في هذه الانتصارات التي حققها الفاتحون العرب الى روحهم الحماسية ومعنوياتهم العالية . ولا سيما وقد تقوت هذه المعنويات عن طريق الايمان بأنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، وان من يستشهدون منهم يمضون قدما وسراعا الى فراديس النعيم المقيم . أما السبب الثاني في هذه الانتصارات فهو انهم ألفوا شظف العيش وخشونته ألوف السنين على اكناف الصحراء وفي أوضاع حياتية تقرب من المجاعة مما جعل منهم شعبا صلبا لا يلين . أما السبب الثالث فهو قدرتهم على السرعة الهائلة في الحركة ولا سيما في الصحراء حيث يعجز أعداؤهم عن الحركة تماما . ولقد رأينا فيما سلف كيف انهم في جميع معاركهم باستثناء معركة الجسر ، قد استغلوا هذا العامل الى أقصى حدود الاستغلال وظلوا يجرئون أعداءهم الى قتالهم على اكناف الصحراء .

### \*\*\*

ولم يكن النبي قد تحول الى حاكم دنيوى بالاضضافة الى سلطاته الروحية الا في السنتين الاخيرتين من حياته . ولم تطل خلافة أبى بكر أكثر من عامين آخرين ، أما عمر بن الخطاب فقد دامت خلافته عشرين سنوات من عام ٦٣٣ حتى عام ٦٤٣ ، وتحققت في أيامه معظم الفتوحات الاسلامية الضخمة . وهكذا تمكن عمر من أن يخلف للاجيال القادمة أثرا لا يمحي في تاريخهم .

وكان بين القرارات الهامة التي اتخذها فأصبحت قواعد متبعة علم

السماح لغير المسلمين بالعيش في الجزيرة العربية (١) . وما يجدر ذكره . ان النبي كان قد عقد معاهدة ودية مع نصارى نجران ولكن عمر بن الخطاب . عاد فأخرجهم من بلدهم ، فهاجر القسم الاعظم منهم الى ضفاف الفرات . وكان النبي قد استولى على خيبر وأخضع يهودها ، ولكنه تركهم في أرضهم . شريطة أن يدفعوا الجزية ، فلما جاء عمر حملهم على أن يهاجروا منها الى الشمال . وتقول الروايات ان عمر استند في اجراءاته الصارمة هذه الى حديث للنبي على فراش الموت يأمر فيه بأن يكون الدين الاسلامي هو الدين الوحيد المهيمن على الجزيرة العربية ولو صح ان النبي قد أصدر مثل هذا الامر حقا ، فان مما يثير الاستغراب ألا يحاول خليفة الاول أبو بكر انفاذه وتطبيقه ، ولقد سبق لنا ان رأينا أبا بكر حريصا كل الحرص على . انفاذ كل ماعمله رسول الله ، وأوصى به في حياته بكل دقة وتفصيل . ولا ريب في أن عمر قد وضع في عمله هذا اسس الحياة للأجيال القادمة . فعلى الرغم من بقاء أقليات مسيحية ويهودية ضخمة في البلاد المحتلة كسوريا ومصر والعراق ما زالت باقية حتى يومنا هذا ، الا أن هذه الاقليات اختفت باستثناء يهود اليمن من جنوب الجزيرة العربية ووسطها . وقد سبق لي ان اشرت الى جمع القرآن لأول مرة ، وان هذا العمل . قد بدأ بعد معركة اليمامة نتيجة استشهاد عدد كبير من الصحابة من حفظة القرآن وقد اختار الخليفة لجنة من الصحابة برئاسة زيد بن ثابت كاتب النبي الخاص . ولم يكمل عمل اللجنة ويتم جمع القرآن الا في عهد عمر . ابن الخطاب وقد سلمت نسخة منه الى حفصة أم المؤمنين وابنة عمر ، لتكون وديعة لديها (٢) .

(١) لأدري من أين جاء المؤلف بهذه الرواية . إذ لو سحت ، لما ظل اليهود يقيمون في اليمن ثلاثة عشر قرنا . الا اذا كان المؤلف لا يعتبر اليمن جزءا من الجزيرة العربية وهو تقدير خاطئ يضاف الى هذا انه لو صح وجود مثل هذا الامر وتلك الرواية لما سمح للمسيحيين بالعيش في كثير من بلاد الجزيرة العربية كجدة والظهران والكويت وقطر وغيرها في أيامنا هذه ، إذ لا تجرؤ حكومة عربية على مخالفة اوامر الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) بهذا الشكل الواضح . وكل ما في الامر ان الحظ لا يشمل الا الاماكن المقدسة في مكة المكرمة . ولكن قصد المؤلف واضح وهو الطعن في عمر من ناحية ، واظهار الاسلام بمظهر التعصب من الناحية الاخرى . ( العرب )

(٢) يختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين العرب فقد اخرج البخاري عن زيد بن ثابت انه قال : أرسل الى أبو بكر عند مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال . أبو بكر : ان عمر اثنى فقال : ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، واني لخشى . ان يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعوه واني لارى .

وكان أبو بكر قد تسمى بالخلافة بعد مبايعته اثر وفاة النبي . وكان  
عمر عند توليه الامر قد احتجّ تواضعاً بأنه ليس بخليفة رسول الله وانما  
هو خليفة خليفته . ويبدو أن استخدام هذا اللقب كان شاقاً على  
الاستعمال وفجأة خاطبه أحد المسلمين بعبارة أمير المؤمنين . وقد ظل  
اللقب مستعملاً بالنسبة الى الخلفاء طيلة ثلاثة عشر قرناً .

---

ان يجمع القرآن قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفضل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى  
عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله  
لذلك صدرى ، فرايت الذى رأى عمر . قال زيد ، وعمر عنده جالس لا يتكلم - فقال  
أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله عليه الصلاة  
والسلام ، فتنسب القرآن فأجمعه ، فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل  
على مما أمرنى به من جمع القرآن فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي عليه  
الصلاة والسلام ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجع حتى شرح الله  
صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فتنسب القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف  
والعصب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خويمه بن ثابت لم  
أجدعهما مع غيره ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم ) الى اخرها .

لكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله . ثم عند  
عمر حتى توفاه الله . ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها .

وأخرج أبو يعلى عن على قال : اعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر . ان  
أبا بكر أول من جمع القرآن بين اللوحين .

## تواريخ مشهورة

٦٣٨	ربيع عام	حشود القبائل النصرانية واسترجاع الروم لانتطاكية
٦٣٨	ابريل (نيسان)	احتلال المدائن فى العراق
٦٤٠ - ٦٣٨		فتح الاهواز
٦٤٠ - ٦٣٩		الطاعون الدملى فى سوريا / المجاعة فى الحجاز
٦٣٩		تمصير الكوفة

## شخصيات بارزة

أمير البصرة	المغيره بن شعبه
فاتح الاهواز وأمير البصرة	أبو موسى الاشعري
القائد العام فى سوريا- توفى بالطاعون	أبو عبيدة
خلف أبا عبيدة فى اماره سوريا	معاوية بن أبى سفيان
كأتم سر أمير البصرة .	زياد

# بَابُ الْعَظِيمَةِ

•• آمن عمر الكريم بربه وبسيفه الذى هز به عروش  
الأكاسرة والقياصرة ولكنه عندما قارن بين قوة  
المسلمين الضئيلة وبين عظمة المشروع الذى أقدم عليه  
نلم على تسرعه • وكان كل من يقرأ القرآن يعرف بما  
كان عليه فرعون من عظمة وكبرياء •• وكانت مدن  
مصر أهلة بالسكان ، وواخرة العمد ، وكانت أبنيتهما  
قسوية وثابتة الاركان وكان لا بد وأن تدافع قوات  
الرومان دفاعا عنيدا عن أهراء رومة (١) •

— جيبون — انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها —

\*\*\*

« سقطت ، سقطت بابل العظيمة • الويل ، الويل ،  
ايتها المدينة العظيمة ، بابل المدينة القوية ، فان دينوتك  
قد نزلت فى ساعة واحدة • الويل الويل ايتها المدينة  
العظيمة ، التى استغنى فيها جميع الدين لهم سفن فى  
البحر من نفائسها ! فانها قد تلفت فى ساعة » •

رؤيا القديس يوحنا — الفصل الثامن عشر

---

(١) أهراء رومة ، اسم أطلقه الرومان على سهول حوران في سوريا وعلى

كنوز مصر •





احتل الفرس مصر عام ٦١٧ في أثناء الحرب الطويلة التي استمر أوارها بين كسرى أبرويز وبيزنطة . ولم يجلب عنها الفرس الا في عام ٦٢٧ ، نتيجة قيام هرقل بغزو فارس نفسها . وتقدمه باتجاه المدائن من الموصل ولا ريب في ان سلطان بيزنطة كان قد اختفى ابان هذه الفترة تمام الاختفاء . وكان الفرس في غضونها قد ارتكبوا آثاما كثيرة ورهيبة . وان لم يعرضوا لاضطهادهم اتباع الديانة القبطية ، وعقد الصلح بين الروم والفرس في عام ٦٢٨ وما لبث أن وصل الى مصر في ذلك العام أو في العام الذي تلاه جيش بيزنطي ، قادم عن طريق البحر من القسطنطينية ليتولى حماية البلاد .

وكان هرقل في هذه الآونة في ذروة مجده وانتصاراته . فلقد انقذ الامبراطورية من الدمار واسترجع من المجوس عبدة النار ، الصليب المقدس ، وظل الامبراطور الظافر يتطلع في ساعة نصره هذه الى هدف عظيم واحد وهو توحيد الكنائس المسيحية التي كانت قد انقسمت منذ امد بعيد الى ارثوذكسية ويعقوبية (قبطية) ونسطورية . وكانت هزيمة المجوس الفرس واستعادة الصليب المقدس قد أيقظتا في صدور المسيحيين جميعا شعلة الحماس ، وقد باتت الفرصة مواتية الآن لاعادة الالتحام الى بناء المسيحية المتجزية ، وعهد الامبراطور تحقيقا لهذه الغاية الى لجنة من ثلاثة مطارنة بوضع بيان لاهوتي جديد عرف في التاريخ باسم «مذهب الطبيعة الواحدة» . ويبدو أن هذا البيان كان محاولة للتوفيق بين المذهبين الارثوذكسي واليعقوبي .

وأراد هرقل اقناع نصارى مصر بقبول العقيدة الجديدة فاختار سيروس مطران فاسينيس في القفقاس ويسميه العرب المقوقس لتنفيذ هذه الغاية وانتدبه في الوقت نفسه بطريقا لاسكندرية وحاكما له في مصر . ولكن تعيين المقوقس لهذا المنصب أثار ردا معاكسا فبدلا من أن يوحى بالثقة ، دفع بنيامين بطريق الاقباط الى الفرار من قصر البطريكية واللجوء الى الصحراء للاختفاء فيها اذ كان الصراع بين الكنيستين الارثوذكسية واليعقوبية من القوة والجذور التاريخية بحيث استحال على مرسوم امبراطوري أن يحله في غمضة عين . ولقد رفض اليعاقبة المذهب الجديد الذي وضعه الامبراطور دون أن يدرسوه أو يتفهموه على الغالب . وكان

فى امكانهم مع مرور الزمن أن يكسبوا نتيجة الصراع، لو استجابوا لدعوة الامبراطور ، اذ ان الكثيرين من الناس رأوا فى المذهب الجديد تسليما الى حد كبير بمذهب اليعاقبة القائم على وحدة الطبيعة بين الاب والابن . لكن الاقباط لم يكونوا على استعداد للاصفاء والتفاهم ، وكان المقوقس فى الوقت نفسه على أهبة لاستخدام القوة . وبدلا من أن يترث ويرقب آثار المذهب الجديد وخلص الناس من صدمة المفاجأة شرع يضطهد جميع الذين يخالفونه اضطهادا شديدا ، واتخذ فى عام ٦٣٢ ، وهو العام الذى انتقل فيه النبى الى الرفيق الاعلى فى المدينة اجراءات عنيفة صارمة مع جميع الهراطقة والمخالفين فى مصر . فقد ألغى القبض على ميناى شقيق بنيامين بطريق الاقباط ، وراح يشعل النار بالمشاعل فى أنحاء متفرقة من جسمه أمام الناس بعد أن اقتلع أسنانه ، وأمر بوضعه بعد ذلك فى كيس ملى بالرمل وأن يقذف بالكيس فى البحر وكان قد عرض عليه النجاة من الموت ثلاث مرات اذا أقر بالمذهب الارثوذكسى ، فلما رفض فى المرات الثلاث الاستجابة الى العرض أمر بقذفه فى البحر .

وأوفد المقوقس جماعات من الجند الى اديرة الاقباط وكنائسهم ليطلبوا من القسس والرهبان تواقعهم على الولاء للمذهب الارثوذكسى وليجلبوا بالسياط ثم يحبسوا كل من يرفض التوقيع منهم . وقد أذعن الكثيرون للبطش ولكن عددا كبيرا من الرهبان رفض الاذعان وفر من الاديرة بينما واصل البعض الثالث عبادته على الطريقة اليعقوبية سرا تهريا من الاضطهاد . وجدير بنا أن نقول ان عمليات الاضطهاد هذه أدت ككل عمليات مشابهة لها الى تعزيز الكنيسة القبطية وتقويتها ، كما أدت الى قطع آخر خيط من خيوط الولاء السياسى والخب عند مسيحي مصر لدولة الروم فى بيزنطة .

### \*\*\*

تذكر الروايات أن عمر بن الخطاب ، بحث مع عمرو بن العاص ، عند مجيئه الى القدس لتسلم المدينة ، امكان القيام بغزو مصر . وكان عمرو بن العاص قد مضى الى قيسارية وهى المدينة الوحيدة فى فلسطين التى ما فتئت صامدة أمام العرب لحصارها . ويرجع السبب فى صمود قيسارية هذه المدة الطويلة ومقاومتها الى وجود القوات البيزنطية فى مصر اذ أن الاسكندرية كانت القاعدة البحرية الوحيدة التى كان فى وسع الروم أن يستخدموها لتموين المحاصرين فى قيسارية بطريق البحر . وقد تم انزال الروم فى انطاكية أيضا واعادة احتلالها لدعم ثورة القبائل النصرانية

فى الجزيرة بقوات برية وبحرية جاءت من الاسكندرية • وكان عمرو بن العاص يرى وهو محق فى رأيه أن سواحل سورية وفلسطين ، لن تكون فى مأمن أبدا مادام الاسطول البيزنطى معتمدا على قواعده فى مصر •

وقد سبق لنا ان رأينا الخليفة دائم الميل الى الحذر والتروى ، وكان أشد ما يخشاه هو أن يمضى أحد جيوشه فى القتال بعيدا بحيث يتعرض لخطر الانقطاع • وكان قد حال بين مسعد بن أبى وقاص وبين اجتياز جبال زاغروس ، وأصر على أن تكون قاعدته العسكرية الرئيسية فى الكوفة على أكتاف الصحراء ، وقد ازداد حدة عندما قام عامله فى البحرين بدون إذن منه بالابحار عبر الخليج والنزول بقواته فى امارة فازس فى جنوب ايران • وقد انزلت القوات عن المراكب التى حملتها وكادت تمنى بكارثة لولا أن جاءت النجيدات عن طريق رتل برى أرسل الى البصرة على جناح السرعة • وكانت نتيجة هذه الغزوة ان عمر بن الخطاب تردد طويلا فى قبول القيام بحملة جديدة على مصر (١) •

كانت المشكلة التى واجهها عمر اليوم من المشاكل التى طالما واجهتها عبر التاريخ جميع الدول المتوسعة الجديدة • فعندما تحتل دولة تنشده

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من روايات المؤرخين العرب ، اذ تقول هذه ان العلاء بن الحضرمى كان أميرا على البحرين لعمر ، وكان العلاء يبارى مسعد بن أبى وقاص ، فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالقفل ، فلما ظفر مسعد بالتدابسية وأزاح الاكاسرة وأخذ حدود ما يلى السوداء ، سر العلاء أن يصنع شيئا فى الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لمسعد ، فئسذب أهل البحرين الى فارس فصرموا الى ذلك وفرقمه اجنادا فحملهم فى البحر بغير اذن عمر • وكان عمر لا يأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا • عبر هؤلاء الجنود البحر فخرجوا فى اصطخر ، وبازائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقالوا أهل فارس مقاتلة المستमित فظفروا ، ثم ساروا يريدون البصرة لانه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرک الفارسي • قد أخذ عليهم الطريق فمسكروا فى موقعهم وامتنعوا •

وبلغ خبر ذلك عمر ، فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يمزله وأمره بالقتل الاشيء عليه وهو تأمر مسعد عليه وقال له : الحق يمسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو مسعد • وكتب عمر الى عتبة بن ذروان أمير البصرة لن يسر جندا لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسر فأجابه جمع من أهل النجدة فخرجوا فى اثني عشر ألفا وعليهم أبو هبرة بن أبى وهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد فى طريقه حتى وافوا شهرک وهو أخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا اخوانهم وهذه هى الغزوة التى شرفت بها ثابتة البصرة ثم انكفئوا بما أصابوه وذهب أهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة •

— العرب —

التوسع في بلاد جديدة يهب قادتها العسكريون فينادون بأن سلامة البلاد المحتلة تظل مهددة من البلاد الأخرى التي تقوم ورامها ويتردد الساسة في القيام بالتزامات جديدة . وتقوم آن ذاك البلاد المجاورة بنوع غير مجد من الأعمال الهجومية وتغدو حركة الزحف الى الامام من الدولة الاستعمارية أمراً حتمياً . ولو عدنا سبعمائة سنة الى الوراء لرأينا زحف الجمهورية الرومانية على سورية ومصر ثم بالطريقة المترددة نفسها .

وما زلنا في جهل بالترتيب النهائي الذي تم بين الخليفة وبين عمرو بن العاص . ويقول بعض المؤرخين : انهما بعد اجتماعهما في القدس عادا الى الاجتماع ثانية في الجسابية فأعلن الخليفة موافقته لقائده على خطته .

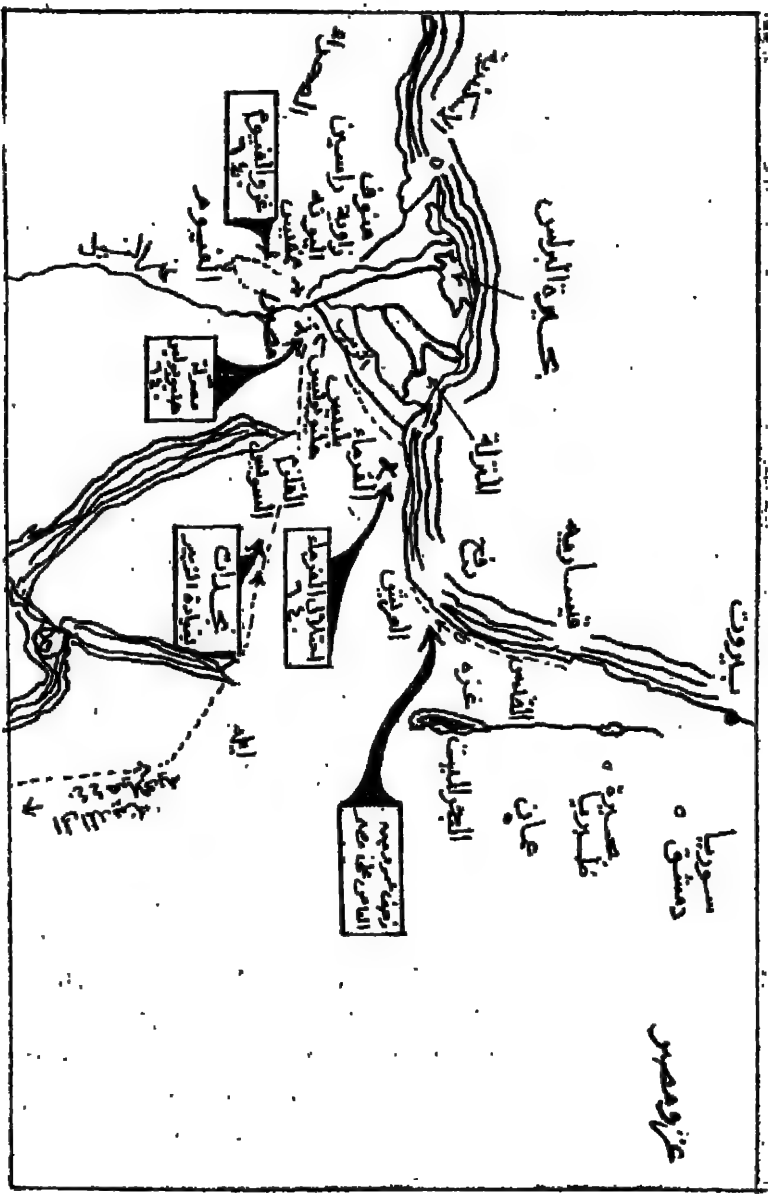
وتقول بعض الروايات الأخرى : ان الخليفة عاد الى المدينة حيث استشار كبار الصحابة أمثال علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وان الزبير أيد فكرة الهجوم على مصر تأييداً شديداً ، مما أدى الى ارسال كتاب الى عمرو بن العاص يأمره فيه الخليفة بالشخص الى مصر والقيام بالعملية . ويقول البلاذري من الناحية الأخرى ، أن عمراً مضى الى مصر من تلقاء نفسه ودون اذن من الخليفة فغضب عمر لذلك ، ولكنه يضيف الى ذلك ما جرت عليه عادة المؤرخين العرب عندما تواجههم مشكلة من هذا النوع لا يستطيعون البت فيها وقيل والله اعلم ، (١) .

ومهما كانت تفاصيل هذه الاتصالات فان الحقائق الأساسية تبدو واضحة كل الوضوح . وأول هذه الحقائق أن عمرو بن العاص كان في لهفة زائدة للحصول على أمر عمر بغزو مصر . على حين كان الخليفة عمر ابن الخطاب كثير التردد في القيام بهذا المشروع وكان عازفاً عن توفير عدد كاف من الرجال للقيام بالحملة مخافة أن يحاول الروم استرجاع سورية

---

(١) كتب البلاذري يقول : وكان عمرو بن العاص قد حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك ، ثم استخلف عليها ابنه حين ولي يزيد بن أبي سفيان ومضى الى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة فغضب عمر لذلك وكتب اليه يوبخه ويعتقه على افتئاته عليه براهيه وأمره بالرجوع الى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر . فورد الكتاب عليه وهو باليريش .

وقيل أيضاً : ان عمر كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشخص الى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية وكان الذي أتاه شريك بن عبد الله فأعطاه ألف دينار فأبى شريك قبولها فسأله ان يستر فلك ولا يخبر به عمر . - العرب -



كما كان يخشى فشل المشروع ، اذا مضى عمرو بن العاص على رأس قوة غير كافية .

ومشى عمرو مع الساحل على رأس قوة قوامها ٣٥٠٠ رجل ، فمر في السهل الساحلى عند غزة . ثم وصل الى رفح حيث تلقى رسالة عاجله بعث بها اليه الخليفة من المدينة . وتقول الروايات : ان عمرا شك في مضمون الرسالة فلم يشأ أن يفتحها حتى اليرم التالى أى بعد أن وصل الى العريش وعندما فضاها وجد ان الخليفة يأمره بالعدول عن العملية اذا تسلم رسالته قبل الوصول الى مصر . أما اذا تسلمها بعد وصوله فعليه أن يمضى قدما فى طريقه . وراح عمرو يسأل صاحبه بكل براعة وبساطة أفلا يزال فى فلسطين . أو أنه دخل أرض مصر ؟ وعندما رد عليه الرفاق بأنه أصبح فى مصر أمرهم بمواصلة الزحف . وفى وسعنا أن نفترض انه اذا صحت هذه الرواية فإن عمرا ولا شك قد علم بمحتوياتها من قبل أو أن الرسول الذى حملها ، قد نقل اليه محتوياتها شفويا .

وتشاء المصادفة الطبيعية السعيدة أن تيسر لنا سبيل الحصول على الموعد الدقيق الذى عبر فيه عمرو الحدود المصرية . فلقد روى لنا المؤرخون أن القوة العربية احتفلت بعيد الاضحى فى العاشر من ذى الحجة سنة ثمانى عشرة هجرية وهو تاريخ يطابق الثانى عشر من ديسمبر ( كانون الأول ) عام ٦٣٩ فى بلدة العريش .

وتابع عمرو من العريش سيره على رأس قوته الصغيرة على الطريق القديمة التى تمر عليها القوافل منذ أقدم عصور التاريخ من فلسطين الى مصر والتى تسير بحداثها الآن السكة الحديدية بين البلدين . وهى تنحرف من العريش مسافة قصيرة نحو الداخل ولكنها لا تلبث أن تسير فى خط مواز لساحل البحر حتى مدينة «بيلوسيوم» التى يسميها العرب الفراه . وحيث تمتد قناة الفرماوية من النيل لتصل الى البحر المتوسط . وليس ثمة من شك فى أن ابراهيم الخليل قد سار على هذه الطريق نفسها عندما ارتحل الى مصر كما سار عليها أيضا التجار العرب الذين حملوا معهم يوسف الفتى الى مصر ، وقد سجلت هذه الطريق مرور جيوش عدد ضخم من الفراعنة وهى تسير فى طريقها الى الشمال للقيام بحملاتها الحربية كما سار عليها ملوك بابل وآشور وحمير ملك الفرس ، والاسكندر المقدونى وبومبى الرومانى لفتح مصر . وكانت جيوش كسرى أبرويز قد طرقتها قبل سنوات قليلة فى زحفها على وادى النيل . ولكن جميع هذه الجيوش التى مرت على الطريق منذ القدم والتى قادها كبار الملوك

والفاتحين كانت ضخمة عظيمة اذا ما قورنت بهذه القوة الصغيرة التي يقودها عمرو بن العاص . والتي تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة من البدو «الحفاة العراة على جيادهم العجفاء وجمالهم الهزيلة» . ولا ريب فى أنهم كانوا يستحقون اللقب الذى أطلق عليهم وهو جردان الصحراء (١) .

وكانت الفرما مدينة محصنة منيعة . وتسيطر على الطريق الرئيسى الممتد الى مصر . وقرر عمرو ضرورة الاستيلاء على المدينة رغبة منه ولاريب فى الابقاء على مواصلاته مفتوحة مع الجزيرة العربية التى يأمل فى وصول النجيدات منها . وكان الفرس قد استولوا عليها قبل بضع سنوات دون مشقة وعناء ، ولكن العرب نظرا لافتقارهم المعهود للفن فى حرب الحصار ، وللمعدات الثقيلة اللازمة لها عجزوا عن احتلالها . وقد ظلوا يحاصرون المدينة أكثر من شهر واحد الى أن تمكنوا ذات يوم اثر اندفاع فاشل قامت به حامية المدينة من دخول المدينة من أحد الابواب مع الجنود المتراجعين من حمايتها . وقد أشعلت النيران فى البواخر الراسية فى الميناء كما هدمت الكنائس وجردت المواقع الدفاعية من جميع وسائل الدفاع .

ويبدو أن عمرو بن العاص ، وقد وجد نفسه مفتقرا الى الجنود ليتولوا حماية المدينة بعد خروجه منها زاحقا الى داخل مصر خشى أن يعود الروم الى احتلالها . فأراد أن يحرمهم الانتفاع منها كقلعة حصينة . واستأنف العرب زحفهم منها فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٤٠ . وأتبع العرب خطتهم السوقية المعهودة فساروا على أكتاف الصحراء باتجاه الجنوب الغربى ومشوا على الحد الفاصل بين الاراضى الصحراوية والاراضى المروية . ولم تكن قناة السويس بالطبع موجودة فى تلك الأيام ولذا كانت الصحراء تمتد عبر منطقة القناة الحالية حتى تصل أرض الدلتا التى ترؤيها مياه النيل . ومر العرب على مقربة من المكان الذى تقوم عليه الآن بلدة التل الكبير فوصلوا الى بلبيس حيث اشتبكوا فى معركة ناجحة مع

---

(١) اذا كان القصد من هذا الاسم الذى يستخدمه المؤلف الاستهانة بالقوات العربية فهو قول سخيف اذ لايمكن ان يطلق على اولئك الذين دوخوا العالم بانتصاراتهم الملهة والذين تمكنوا فى سنوات قصيرة من القضاء على أعظم امبراطوريتين فى العالم فى تلك الايام . اما اذا كانت نية المؤلف حسنة وهو استخدام هذا التشبيه للتعبير عن جلدوم على الكاره واحتمالهم لمشقات الصحراء كما يستدل على ذلك من الاسم الذى أطلقه الانجليز على جيش مونتجومرى « جردان الصحراء » فى الحرب الكونية الثانية . فان هذا التشبيه يصبح مستساغا معنى ، وان لم يستغ لفظا .

قوة من الروم يقودها ارطوبون ، الذى كان فيمسا سلف حاكما عسكريه لمدينة القدس . ولكن الزحف تعطل شهورا آخر قضاه العرب فى احتلال بليبيس . وكان المقوقس بطريق مصر الروماني وحاكمها قد وصل الى ميدان القتال مستصحبا معه تيودور القائد العام للقوات البيزنطية فى مصر حيث تحصنا فى قلعة بابل أو حصن بابليون أو ما يسميها العرب باب اليونة .

وقد يكون من المدهش أن نعرش على اسم بابل فى مصر . ويزعم بعض المؤرخين أن نبوخذ نصر ملك الكلدانيين الذى غزا مصر فى عام ٥٦٧ قبل الميلاد ، هو الذى أطلق على القلعة هذا الاسم . ويقول ديودوروس صيقلوس (١) : أن بعض الاسرى من البابليين الذين حملهم الى مصر سبيزوستريس (٢) صاحب الانتصارات الاسطورية هم الذين أطلقوا اسم موطنهم الاصلى ، على المكان الذى عاشوا فيه حياة النفي والاغتراب .

أما جوزيفوس (٣) فقد ذكر أن «قمبيز» ملك الفرس الذى احتل مصر فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، هو الذى بنى هذه القلعة . والمعتقد أن الامبراطور الروماني تراجان هو الذى بنى الحصن الذى كان قائما فى عام ٦٤٠ ميلادية أى عند الفتح العربى وذلك فى عام مائة بعد الميلاد . ولعل الحقيقة هى أن كل فاتح من الفاتحين الذين غزوا مصر ، قد أقام فى هذا الموضع السوقى الهام قلعة وحصنا . وضع فيهما حامية ترابط لحماية البلاد .

وأدى وجود اسم بابل فى مصر الى وقوع المؤرخين العرب فى خطأ غريب : فكلمة باب فى العربية تعنى «البوابة» ومن هنا كانت بابليون تعنى،

(١) ديودوروس صيقلوس Giodorus Siculus مؤرخ اغريقى ولد فى صقلية وعاش فى أيام قيصر والقسطنطى اى فى القرن الاول قبل الميلاد وقد وضع نصب مينييه أن يكتب تاريخا لام العالم كلها منذ أقدم عصور التاريخ حتى العهد الذى عاش فيه . ويتألف كتابه من أربعين مجلدا فى ثلاثة أقسام يتناول الاول منها الايام التى سبقت حروب طروادة وينتهى الثانى بموت الاسكندر القدونى والثالث بحروب قيصر فى بلاد الغال ولا يعتبر كتابه حجة تاريخية لأنه ملئ بالأخطاء .

(٢) الاسم الافريقى لثلاثة من الفرانة يحملون اسم سنوسرت ، ويتنمون الى أسرة أمنمحات ، من أسر طيبة المالكة . وقد عاشوا فى القرنين الخامس والعشرين والرابع والعشرين قبل الميلاد . ويرجع الفضل الى الثالث منهم فى حفر قناة بين البحر الاحمر ونهر النيل كان لها فائدة كبيرة فى نقل الحاصلات الزراعية والتجارية .

(٣) جوليفوس فلافيوس ( من ٣٧ الى ١٠٠ بعد الميلاد ) مؤرخ عبرانى مشهور وقائد عسكري عمل نائبا للامبراطور نيرون فى فلسطين ثم منحه الرعوية الرومانية وحمل اسم فلافيوس . أهم كتبه تاريخ الحروب فى فلسطين . - العرب -



مندهم « باب اليون » أو باب اليونة وعندما يقرأ المرء أن العرب هاجموا باب اليونة يقع تحت الانطباع بأنهم هاجموا باب مدينة أو قلعة تدعى اليونة ومن هنا أطلق العرب على بابل المصرية اسم اليونة .

وتستمد بابل أهميتها من أوضاع منس الجغرافية : فالامطار في البلاد نادرة ولا تكاد تذكر ومن هنا فإن المنطقة كلها تغدو صحراوية ، لكن النيل العظيم الذى يحمل كميات ضخمة من الماء والغرين من أواسط افريقية شق له قناة عبر هذه الصحراء ليصل منها الى البحر المتوسط . وتكون القناة التى شققها النهر فى القسم الاكبر من مسيره أى فى الوجه القبلى أخذودا ضيقا وسط الصحراء ، ولكنه عندما يصل الى هذه النقطة ينقسم الى عدة فروع تسهيل فوق المنطقة المنبسطة لتصل الى البحر . ويكون مثلث الدلتا الناشئ عن هذه الحقيقة متساوى الاضلاع طول ضلعه تقريبا ١٢٠ ميلا . وتفيض مياه النيل فى كل عام فتغمر الارض التى يضمها هذا المثلث عدة شهور . وعندما تجسر مياه الفيضان تظل المنطقة كلها صعبة العبور حتى على المشاة نظرا لوجود عدة فروع من النيل تقطعها طولا وعرضا بالإضافة الى ما لا عد له من اقنية الري وترعه .

لكن اطراف الصحراء تصل فى الوقت نفسه الى حدود المنطقة الزراعية اللزجة . ولا ينتقل المرء هنا بصورة متدرجة من الاراضى الزراعية الى الاراضى الصحراوية كما هو المألوف عادة عبر اراضى المراعى المملوءة بالعشاب والشجيرات الشوكية : فهناك خط واضح يفصل بين الصحراء والمنطقة المزروعة بحيث يستطيع المرء أن ينتقل بوثبة واحدة من الصحراء الرملية الجافة الى الارض الغرينية الناعمة المنبتة .

وبابل على نهر النيل عند رأس المثلث وتستطيع الجيوش أن تمضى منها على الارض الصحراوية الصلبة الى الاسكندرية أو الى الفراء بأقصى سرعة ممكنة ودون أن تجد فى طريقها ما يعوقها من اقنية الري ومياه الفيضان .

وقد أطلق اسم « بابل » على القلعة التى تؤوى الحامية المكلفة بالدفاع عن هذه المنطقة السوقية الهامة . وكانت مدينة ممفيس القديمة تقوم منذ القدم الى الشمال من هذه القلعة على ضفة النيل الغربية . وكانت هذه المدينة لانزال قائمة فى عام ٦٤٠ ، وإن ضاقت مساحتها وتهدمت معظم أبنيتها . أما الى الضفة الشرقية وعلى مقربة من حصن بابليون

فتقوم مدينة مصر الحديثة وتضم القاهرة المعاصرة الآن جميع هذه المواقع القديمة .

وكان من المحال أن يتمكن عمرو بن العاص بقوته الصغيرة ، وبافتقاره الى معدات حروب الحصار من محاصرة حصن بابليون والاستيلاء عليه ، ويبدو أنه ظل يشتبك في خارج القلعة مع الروم عدة أسابيع دون أن يحقق أى نجاح ، ولكن يبدو أنه استطاع أخيرا أن يحتل مركزا أماميا الى الشمال من الحصن يسمى أم دنيان وكان يؤلف ميناء مدينة مصر على النيل .

وأصبح عمرو الآن في وضع شاق عسير ، وكان قد بعث الى الخليفة في المدينة يطلب اليه سرعة انجاده ولكنه لم يتلق ردا ، وكانت روح رجاله المعنوية التواقين الى المفامرة والغنائم في خطر من الهبوط والانهيار اذا ظل جامدا لايقوم بأى عمل ، ولكنه لايجد أمامه هدفا صالحا في متناول يديه يستطيع أن يهاجمه وأن يحقق النجاح في مهاجمته .

ومنطقة الفيوم الخصبة على بعد خمسين ميلا الى الجنوب من جابل وعلى بعد قريب من ضفة النيل الغربية ؛ وكان عمرو عند استيلائه على ام دنيان قد وضع يده على بعض السفن والزوارق ، وبادر فحمل رجاله على ظهرها ومضى صاعدا مع النيل فمر بخرائب ممفيس القديمة متجها الى الجنوب ، وكانت هذه المفامرة من الناحية السوقية خطرة بعض الخطورة ، اذ لو وصلت النجذات من الحجاز فانها ستكون على ضفة النيل الشرقية على حين تكون قوة عمرو على الضفة الغربية وبينهما حماية الروم في حصن بابليون ، ولو بادر القائد الروماني تيودور الى الهجوم فانه يستطيع أن ينتصر على كل من القوتين العربيتين على انفراد ، لكن العرب كانوا من الناحية الأخرى ، في وضع قوى طبعا اذ أن في وسعهم أن ينسحبوا الى الصحراء وأن يتجنبوا خوض معركة حاسمة مع الروم . ومع ذلك فلقد أخطأ عمرو في أن يجعل النيل بينه وبين الجزيرة العربية اذ أنه لم يكن على أية حال واثقا من أن يستطيع ثائية العثور على زوارق يستطيع بها عبور النهر من جديد .

على أية حال سار عمرو جنوبا ، ولكنه وجد الفيوم قوية الحصون منيعة الدفاع وتمكن من سوق عدد من قطعان الماشية أمامه ، ولعل نقص المواد الغذائية في جيشه ، كان من أهم أسباب هذه الغارة التي قام بها . واحتل العرب على أية حال بلدة صغيرة في منطقة الفيوم عنوة وذبحوا

كل من فيها من السكان (١) وخرج يوحنا قائد جيش الروم في الفيوم في غضون ذلك على رأس خمسين من رجاله للقيام بعملية استطلاع شخصية لقوات العرب . وتلقى عمرو نبأ وجوده فاستدار اليه على عجل وأفلح في تطويقه مع رجاله وقضى عليهم جميعاً . وسرعان ما وصلت اليه الانباء بأن نجدات الخليفة قد وصلت . فاستدار شمالا وبسرعة عظيمة ليلتقى بها وكان ذلك في مطلع يونيو ( حزيران ) عام ٦٤٠ .

وكان عمر بن الخطاب قد بعث بقوة قوامها اثنا عشر ألف رجل لنجدة غزاة مصر ، وقد وصلت هذه القوة الى موقع هليوبوليس ( مصر الجديدة ) في السادس من يونيو عام ٦٤٠ بقيادة الزبير بن العوام أحد كبار صحابة الرسول وزعماء قريش . وكان الزبير أحد أفراد الحلقة الداخلية من المستشارين الذين عملوا بعد وفاة النبي مع أبي بكر وعمر . أما أفراد بقية رجال هذه الحلقة فهم على بن أبي طالب صهر النبي وابن عمه وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وقد قدر لهم أن يؤدوا أدوار بارزة وبعضها مشثوم في التاريخ العربي .

ونشأ الآن وضع هو ماتوقعه عمرو بن العاص ، عندما عبر نهر النيل ، فلقد تمكن تيودور من حشد جيش ضخيم في حصن بابليون والى الشمال من هذا الحصن ، وقف الزبير بن العوام على رأس اثني عشر ألفا من العرب . وعلى الضفة الاخرى من النهر ، وقف عمرو بن العاص . وكانت الفرصة ذهبية أمام تيودور لتعطيم جيش الزبير قبل أن ينضم اليه عمرو . ولكن هذا القائد الروماني ظل دون حراك قابعا في قلعته الى أن تمكن عمرو من عبور النهر والانضمام الى الزبير في هليوبوليس .

وعندما حل العرب بهذه المدينة القديمة المشهورة بمدينة الشمس كانت عظمتها التليدة قد اختفت في زوايا النسيان . وكانت تقوم على أرض مرتفعة بعض الارتفاع ويفصلها عن قلعة بابل سهل مفتوح عرضه ستة أميال أو سبعة يقوم على ضفة النيل الشرقية . وعندما وقف العرب في هليوبوليس يواجهون جيش الروم في حصن بابليون كانوا يضعون الصحراء المفتوحة وراء أظهرهم فيحسون بالاطمئنان . لأن الصحراء كانت دائما صديقتهم الوفية .

وبلغ تعداد جيش المسلمين الآن نحواً من خمسة عشر ألفاً بينهم

(١) لم أجد أى تأكيد لهذه الرواية التي جاء بها المؤلف في أى من كتب التاريخ العربي المشهورة .  
(المعرب)

عدد من صحابة الرسول ، وفدوا من المدينة في جيش الزبير للاسهام في مثل هذه الحرب المجيدة المقدسة ومعهم عبد الله الولد الأكبر للخليفة عمر ، وكانت القوة الأساسية التي جاءت مع عمرو لغزو مصر منذ البداية من فلسطين مؤلفة من البدو على الغالب . ومعظم رجالها من القبائل المقيمة فيما يسمى الآن بسيناء وجنوبي الأردن .

ومن العسير علينا أن نعرف على وجه الدقة عدد جيش الروم ولكن الغالب على الاعتقاد أنه كان أوفر عددا من جيش العرب . لكن روح الروم المعنوية كانت في الحضيض على أية حال ، إذ حطمتها الأنباء التي وصلتهم عن بسالة العرب الذين هزموا جيوش امبراطوريتي بيزنطة وفارس .

وفي منتصف يوليو عام ٦٤٠ قرر تيودور الذي فاتته فرصة مهاجمة جيش العرب كل على حدة أن يهاجمهما الآن بعد أن توحدتا . والتأم شملهما وسرعان ماخرج من قلعته وجازا السهل ليهاجم هليوبوليس . وكان عمرو بن العاص في غضون ذلك قد ربب صفوفه وأعدّها للقتال بعد أن بعث بفصيلتين تحت جنح الدجى تمكنت أولاهما من احتلال موقع بصورة خفية يقوم محل قلعة القاهرة الراهنة ، وتمكنت الأخرى من احتلال موقع مماثل عند الازبكية الحالية ، وفي الصباح الباكر خرج جيش الروم من البساتين والحدائق التي الى الشمال الشرقي من الحصن ، وأخذ يزحف عبر الصحراء المكشوفة ، وخرج العرب في الوقت نفسه من هليوبوليس للقاء عدوهم على حين كانت فصيلتا عمرو ، قد رابطتا خفية في مراكزهما الجناحية دون أن يحس الروم بهما .

والتقى الجيشان وسرعان ماوقع تلاحم عنيف بالأيدي ، وفجأة ظهر الكمين الشرقي العربي وهاجم أفرادة مؤخرة الروم ، ووجد هؤلاء أنفسهم وقد هاجمهم المدسة والمؤخرة فدبت الفوضى في صفوفهم ، وأخذوا يتجهون نحو العرب ليشكلوا جبهة جديدة ضد القوتين المهاجمتين وسرعان ما ظهر الكمين الغربي وتدفق رجاله في هجوم عنيف على الجناح البيزنطي الأيسر ، وهنا دب الذعر في صفوف جيش الروم كله ، وانتشرت الفوضى وراح البعض ينشد الامان في قلب القلعة فرارا من القتل الذي كان نصيب الكثيرين منهم على أيدي المسلمين المنتشرين بنشوة النصر ، وتمكن تيودور نفسه من الإفلات والنجاة بجلده .

وانسحبت فلول جيش الروم الى داخل الحصن واغلقت أبوابه عليها وان كانت مدينة مصر قد استسلمت للعرب دون قيد أو شرط ،

ولما كان الميدان قد خلا الآن من أى جيش معاد فقد تمكن المسلمون من أن يحرقوا الأرض وأن يجمعوا المؤن ويكدسوا الغنائم . وقد تخلت القوات الرومانية التى كانت قد دافعت بنجاح عن الفيوم قبل مدة قصيرة أمام قوات عمرو بن العاص عن المنطقة كلها ، وأستقلت المراكب النيلية فمرت بحصن بابليون ولجأت إلى بلدة نيكويه ( زواية راسين ) التى على بعد خمسة وأربعين ميلا إلى الشمال من القلعة . وبعث عمرو على الفور بقوة احتلت الفيوم عنوة وقتلت أهلها وهكذا خضعت المنطقة بكاملها للعرب دون مقاومة .

والى الشمال احتل العرب مدينتى منوف وتنبس اللتين على بعد خمسة وثلاثين ميلا إلى الشمال من بابل . وواصل عمرو السير فى سياسة الغلظة والشدّة مع أهل مصر اما استجابة لطبيعته الشخصية الشرسة والمتفطرسة أو تطبيقا لسياسة اختطها لنفسه ، وهى أن يزيد من العنف لينشر الذعر فى قلوب الناس ويحول دون أية مقاومة جديدة (١) وهكذا بعد أن تم للعرب اخضاع مقاطعة مصر التى فى رأس الدلتا بالإضافة إلى مقاطعة الفيوم غدوا الآن فى مركز قوى أمن لهم ما هم فى حاجة إليه من المؤن عن طريق هاتين المقاطعتين الغنيتين . لكن شهر أغسطس (آب) قد حل الآن وأخذ النيل فى الارتفاع معرضا جزءا كبيرا من الدلتا لخطر الفيضان مما يؤدى إلى انتشار المياه والحيلولة دون أية عمليات عسكرية وقرر عمرو أن يحتل قلعة بابل قبل المضى فى فتوحه إلى مناطق جديدة .



تتألف هذه القلعة العظيمة من أسوار رباعية الاضلاع غير منتظمة ، سمكها نحو من ثمانى أقدام وارتفاعها نحو من ستين قدما مبنية من طبقات متتالية من الحجر والحجارة . وهناك برجان عاليان يرتفعان فوق الاسوار . ويبلغ طول البرج نحو من ألف قدم وعرضه خمسمائة عند أحد طرفيه ليضيق إلى ثلثمائة قدم عند الطرف الآخر . وتصطفق مياه النيل مع أحد جوانب هذا السور . ويقوم إلى جانب الباب الجنوبى ميناء صغير للقوارب النهرية عند أسفل السور ويحيط بالقلعة كلها خندق تغمره مياه النيل . وأمام القلعة الرئيسية جزيرة الروضة فى وسط النهر وفى هذه الجزيرة تحصينات دفاعية وحامية قوية من الروم . وكان

---

(١) لم يسلك عمرو مسلك الشدة مع الإقباط أو المصريين بل انه كان على النقيض من الذين أماتوه ، وساعده على الفتح كرها منهم للرومان . - العرب -

فى وسع هاتين القلعتين أن تحتفظا بخطوط المواصلات النهرية بينهما .  
وكان احتلال مثل هذه القلعة أمرا شاقا على المسلمين الذين عانوا مشقة كبيرة حتى فى احتلال بلدة لا حصون فيها كالفرما . ووجد المقوقس حاكم مصر ، الذى يعرفه الغربيون باسم البطريق سيروس ، نفسه محاصرا فى القلعة . وكانت الحامية تضم نحو من خمسة آلاف أو ستة آلاف جندى على حين تضم القلعة كميات كبيرة من المؤن ومخازن السلاح . ويبدو أن الحصار قد بدأ فى مطلع شهر سبتمبر (ايلول) عام ٦٤٠ .

ولاريب فى أن المقوقس نفسه كان مسئولا عن ضعف مصر وعجزها عن مواجهة الغزو العربى : فلقد سبق لنا أن بينا أن غالبية أهل مصر كانوا ينتمون الى الكنيسة القبطية وكانوا لنحو من عشر سنوات ضحايا الاضطهاد الدينى الذى لا يعرف الرحمة ، وهكذا عندما حلت الساعة الحرجة وجد الاغريق البيزنطيون وعدد قليل نسبيا من المصريين الذين يدينون بالارثوذكسية أنفسهم المدافعين الوحيدة عن البلاد ، أما الاقباط فكانوا يؤلفون مجتمعا تابعا لامفاصل بارزة فيه . ومن الصحيح أن يقال أن صمودهم أمام اضطهاد المقوقس كان يحتم عليهم أن يتمسكوا بدينهم تمسكا جديا ، ويعنى هذا التمسك عدم ترحيبهم بالمسلمين ، ولكنهم لم يكونوا يدافعون دفاعا جديا مستبلا عن بلادهم . فلقد رأوا أنهم كانوا حتى ذلك التاريخ ضحايا اضطهاد البيزنطيين . وإذا قدر للعرب أن يكسبوا فانهم سيصبحون أتباعا للمسلمين ، ومن هنا تقوم الحقيقة الواقعة وهى أنهم سيظلون عبيدا تابعين مهما كانت نتيجة المعركة . ومن المحتمل أن يكونوا قد عرفوا على أية حال أن العرب فى سورية أباحوا للمسيحيين حرية العبادة وأن كانوا يرغمونهم على دفع الجزية ، ومن هنا كانوا يرون فى المسلمين وضعافضل من وضعهم فى ظل المقوقس .

وكان فى مكنة حصن بابليون أن يصمد شهورا عدة ، ولكن المقوقس كما يبدو كان يدرك ما يحس به أهل البلاد من كراهية لحكمه ونظامه (١) ، ومن المحتمل أنه كان يدرك أيضا أن لا أمل له فى نجدة من بيزنطة . وهكذا فإننا نرى المقوقس ينتقل فى مستهل أكتوبر ( تشرين الاول ) عام ٦٤٠ أى بعد انقضاء شهر على الحصار ، عن طريق النهر الى جزيرة الروضة ، حيث أوفد منها بعثة للتفاوض مع عمرو بن العاص . وقد جرت

---

(١) هكذا تأكيد لما قلناه من قبل .

المفاوضات في الجزيرة بطريقة سرية ويبدو أن الغاية من اخفائها كانت  
الابقاء على الروح المعنوية عند حامية القلعة .

ووصل رسل المقوقس الى عمرو بن العاص ونقلوا رسالتهم .  
وبعد ان اعترف الرسل بأن العرب قد حققوا بعض الانتصارات أخذوا  
يؤكدون لعمرو ان ليس في وسعه ان يصمد طويلا أمام سلطان الروم ،  
واقترحوا عليه الانسحاب من أراضى مصر مقابل مبلغ من المال  
يدفع اليه فوراً ، فرد عمرو بأن عرض عليهم اختيار أحد السبل الثلاث  
التي استنها العرب بالنسبة الى البلاد التي يحتلونها وهي : اما قبول  
الاسلام والمساواة في الوضع مع الفاتحين ، أو دفع الجزية وقبول مركز  
التبعية ، أو المضي في القتال حتى الوصول الى نتيجة حاسمة .

وعلى الرغم من أن المقوقس لم يكن على استعداد لقبول أى من  
هذه الشروط الثلاثة فإنه وجد من الأفضل له المضي في المفاوضات  
ومتابعها ، فعرض على عمرو أن يبعث اليه بوفد من لدنه الى الروضة .  
ولعل من الجدير بنا أن نذكر هنا ان الوفد الاسلامي الذي وصل الى  
الروضة وكان بزعامة عبد يدعى عبادة بن الصامت أخذ يوجه حديثه الى  
المقوقس قائلاً له : ان المسلمين لا يحاربون الا في سبيل الله وفي سبيل  
تحقيق مشيئته وانهم لا يابھون بالمال قيد شعرة مؤكداً له ان الحياة  
الدنيا زائلة وان البقاء لله .

ويبدو أن المقوقس لم يتأثر مطلقاً بحماسة المسلمين وجدهم في  
حديثهم ولا باستهانتهم بالدنيا الفانية واستعدادهم للاستشهاد للوصول  
مبكرين الى فراديس النعيم ، فراح يهمس في أذن أحد أصحابه قائلاً :  
كل ما أخشاه هو أن يكون الله قد بعث بهؤلاء الناس لدمار العالم ! ورد  
المقوقس على قول عبادة فاعترف بأن فشل الروم ناتج عن كثرة تعلقهم  
بشئون الحياة الدنيا ، ولكنهم يجمعون الآن جموعهم ويحشدون جيوشهم  
لمحاربة الفزاة العرب ولعل من الخير للعرب قبل أن تعد هذه الجيوش  
الجرارة أن يقبلوا مبلغاً كبيراً من المال كجزاء نقدي وأن ينسحبوا من  
البلاد .

ورد العرب بأنهم لا يابھون بالعدد مهما كان كبيراً وأن كل ما ياملونه  
هو الشهادة في سبيل الله لا العودة سالين غانمين الى نسايتهم وأطفالهم .  
وأضافوا أن قلة عددهم بالنسبة الى عدوهم لا ترهبهم اذ أن الله تعالى  
أكد لهم ان النصر سيكون في جانبهم بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة  
كثيرة بأذن الله » . ورفض أعضاء الوفد أن يستمعوا الى أى عرض آخر

سوى العروض الثلاثة التى سبق لعمر بن العاص أن قدمها الى الروم .  
وهى اما الاسلام أو الجزية أو الحرب .

وبدا المقوقس ميالا بعض الميل لقبول دفع الجزية ولكن عددا من ضباطه أبى عليه ذلك . ويبدو أن هؤلاء كانوا من أهل مصر ، أما المقوقس نفسه فكان كما رأينا سابقا من الروم وكان يشغل منصب المطران فى القفقاى . وطلب الروم أخيرا مهلة للتفكير فى الموضوع ولكن عمرا رفض . أن يمهلهم أكثر من ثلاثة أيام ، ولم تكده هذه المدة تنقضى حتى كان الروم ينزلون أحد المعابر على النهر فيجتازونه عليه ويهاجمون العرب بغتة ، ولكن هذا الهجوم منى بالفشل فى النهاية بعد اشتباك عنيف دام ، واضطرت الحامية من جديد الى اللجوء الى حصنها وقد أدت هذه النكسة الى اضعاف مركز المنادين بالمقاومة والى تقوية مركز المقوقس . المطالب بالصلح والخضوع للعرب .

واستؤنفت المفاوضات من جديد وأسفرت عن عقد صلح بالطريقة المعهودة تعهد فيها الروم بدفع الجزية مقابل تمتع المسيحيين بحرية العبادة وضمان حماية المسلمين لهم ، وأضيف الى معاهدة الصلح بند يشترط موافقة الامبراطور عليها وينص على ارسالها اليه فوراً لاقرارها بشرط أن يظل الوضع العسكرى على حاله فى هذه الفترة من الترقب . والانتظار .

وتسلح المقوقس بهذا الاتفاق فأبحر فى النيل الى الاسكندرية حيث بعث برسالة عاجلة الى هرقل فى القسطنطينية شارحا الاسباب التى دعت الى الاذعان للغزاة ومتوسلا اليه أن يقر اتفاق الصلح ، وكان هرقل قد بات الآن رجلا عجوزا محطما أوهنته العلل وأضنته الهزائم ، ومع ذلك فلم يستطع استساعة هذه الانهزامية التى أبداها المقوقس ، وراح يبعث برسالة عاجلة الى الاسكندرية يطلب فيها من المقوقس الاتجاه فوراً الى القسطنطينية .

وقد استقبل الامبراطور ممثله فى مصر بحملة جارحة من اللوم . والتعنيف - لها ولا شك - كل مايبررها ، فخلد كان المقوقس هو الذى ألب ببطشه وشدته ووحشيته واضطهاده الدينى غالبية المصريين ، وهاهو ذا عندما جاء العرب كان أول من دب اليأس الى قواده ، فاستخذى واستسلم وطالب بالاذعان وراح يدافع عن نفسه أمام الامبراطور ، فأكد أن العرب قوم لا يفلون أبداً وأنهم لا يأبهون بالمال أو الراحة وأنهم يطمعون فى الاستشهاد فى ميدان القتال لأن الشهادة تسرع بهم الى الفردوس .



ولكن بلاغته في الدفاع عن نفسه لم تجده فتىلاً وأتهم بخيانة الامبراطورية .  
لمصلحة العدو ، وبعد ان تعرض الى الكثير من اللوم والاذلال طرده  
الامبراطور من وظيفته وأبعده الى حياة المنفى .

واستؤنفت المعارك بعد أن ذاع نبأ رفض الامبراطور إبرام المعاهدة  
وأعد كل من المهاجمين والمدافعين عن بابل (اليونة) أنفسهم لمعركة فاصلة .  
وأخذ نفر من المصريين من الاقباط الذين عانوا من اضطهاد الروم  
يساعدون العرب في هذه المرحلة ، لكن الحامية ظلت تواصل الاندفاعات .  
من الحصن بين آونة وأخرى منزلة بالمهاجمين بعض الخسائر .

وأخذت أيام الشتاء تجر ذبولها ثقيلة متباطئة ، وبدأت مياه  
الفيضان في الانحسار وأخذ الماء في الخندق يهبط تدريجياً . ولم يحقق  
العرب نجاحاً مع أسوار الحصن وان كانوا أنزلوا بعض الخسائر بالمداغين  
عن طريق النبال التي يطلقونها . ووصلت الأنباء ذات يوم في أخريات  
الشتاء الى عمرو بن العاص بأن الروم يحشدون قواتهم في الدلتا فخلفه  
على القلعة قوة صغيرة تضي في حصارها واتجه سراً الى الشمال ليدهم  
العدو ويشتت شمله . ولكن العرب وجدوا أنفسهم فجأة محصورين بين  
قنوات الري وترعه وعانوا مشقات كبيرة واضطروا الى العودة .

ووصلت الأنباء في شهر مارس (آذار) عام ٦٤١ من موت الامبراطور  
هرقل في القسطنطينية ودب اليأس في قلوب أفراد الحامية على حين غم  
الفرح بمعسكر العرب ، ويبدو أن هذه الحقيقة تبدد النظرية القائلة بأن  
هرقل غدا ضعيفا وفي منتهى الجبن في أخريات أيامه ، وكتب المؤرخ  
العربي جلال الدين السيوطي عن هذا الحادث يقول : « كسر الله شوكة  
الروم بموت هرقل » .

وتشجع المسلمون بموت هرقل فأعدوا العدة للهجوم على بابل .  
وتمكنوا من اجتياز الخندق في بعض النقاط فأقاموا السلالم على الاسوار  
وراح الزبير بن العوام صحابي رسول الله يصعد السلم مجرداً سيفه  
ومعلنا عزمه على الاستشهاد وهو يقود الهجوم ، وتبع الزبير في جنح  
الدجى نفر من أهل النجدة ، وصب العرب وابلا من النبال على الحواجز  
لارغام الروم على ابقاء رؤوسهم خفيضة حتى لا يروا المهاجمين ، وسرعان  
ما ارتفع هتاف المسلمين « الله أكبر الله أكبر » ، فوق الاسوار لكن الفئة  
التي ركزت أقدامها فوق الاسوار لم تكن كبيرة . وكان في مكتة الروم أن  
يقوموا بهجوم مضاد ، وأن يقدفوا بهذه الحفنة الصغيرة في الخنادق  
ولكن الحصار كان قد طال اذ انقضت عليه حتى الآن سبعة أشهر أى منذ

سبتمبر ( ايلول ) عام ٦٤٠ حتى ابريل ( نيسان ) عام ٦٤١ . وكانت الحامية قد ملت القتال والحصار ، وعندما أخذ الفجر يطل أطلالته . ببطء ، كان قائد الحامية قد عرض التفاوض على المسلمين وقبل عمرو العرض فوراً . ووضع نص اتفاق لتسليم الحصن وتقرر أن تنسحب الحامية بعد ثلاثة أيام وأن يمضى أفرادها في المراكب في النيل تاركين القلعة سليمة بكل ما فيها من مستودعات ووسائل دفاعية . وهكذا انسحبت الحامية في التاسع من ابريل ( نيسان ) عام ٦٤١ واحتل المنتصرون العرب قلعة بابل .

### تواريخ بارزة

٦٣٩	عمر بن العاص يجتاز حدود مصر	١٢ من ديسمبر (كانون الأول)
	عند العريش	
٦٤٠	احتلال الفرما	نهاية يناير (كانون الثاني)
٦٤٠	وصول النجدات من الجزيرة العربية	٦ من يونيو (حزيران)
٦٤٠	معركة هليوبوليس	يوليو (تموز)
٦٤٠	بدء حصار بابل ( اليونة )	سبتمبر (ايلول)
٦٤١	موت هرقل	١١ من فبراير ( شباط )
٦٤١	احتلال بابل	١٩ من ابريل ( نيسان )

### شخصيات مشهورة

خليفة المسلمين	عمر بن الخطاب
القائد العام في مصر	عمر بن العاص
قائد النجدات العربية وقائد القوة	الزبير بن العوام
التي اكتسحت اسوار حصن بابليون	
حاكم مصر وبطريق الارثوذكس	المقوقس
القائد العام لجيش الروم في مصر	تيودور

# استسلام مصر

« قد علمت أن الرب أعطاكم الأرض ، وقد حل  
رعبكم علينا ، وجميع سكان الأرض قد انحلوا أمامكم .  
سببنا فذابت قلوبنا ولم يبق في أحد روح أمامكم » .

سفر يشوع - الفصل الثاني - ٩

\*\*\*

« كوش ومصر قوتها ، ولا نهاية لها وفوط ولوبيم  
في نصرتك . فهي أيضا ذهبت الى الجلاء مسببة ،  
وأطفالها أيضا حطموا رأس كل شارع وعلى كرامها  
القوا القرع . وجميع عظماتها أوثقوا بالقيود . وأنت  
أيضا تسكرين وتختبين وأنت أيضا تظلين ملجأ من  
العدو . جميع حصونك أشجار تين ببواكيرها ان  
انهزت تسقط في فم الأكل . ها ان شعبك في داخلك  
نسأ وأبواب أرضك تفتح فتحا لأعدائك ، والنار  
تاكل مزاليحك » .

نبوة نحوم - الفصل الثالث

\*\*\*

« جاءوا الى القتال يتوقعون الهزيمة ، لذا فقد  
تحقت لهم . فلقد كانوا نصف مهزومين قبل ان توجه  
اليهم ضربة واحدة » .

أومان - الحرب في العصور الوسطى



أدى استسلام حصن بابل ( اليونة ) في ابريل (نيسان) عام ٦٤١ الى استقرار الوضع نهائيا وبصورة رتيبة في مقاطعة مصر القائمة في رأس الدلتا وفي مقاطعة الفيوم الواقعة على بعد خمسين ميلا الى الجنوب باتجاه أعالي النيل . وكان وضع حصن بابليون ممتازا من وجهة النظر العربية اذ أنه واقع على الضفة الشرقية لنهر النيل حيث تمتد الصحراء منها بلا انقطاع حتى الجزيرة العربية ، يضاف الى هذا أن هذه القلعة كانت تسيطر على الدلتا كلها ولم يكن العرب ميالين الى العمل داخل منطقة القنوت والاراضي الزراعية المروية ولعلهم كانوا عاجزين عن العمل فيها . لكن مقاومة الروم أصبحت متركزة الآن في الاسكندرية ، ولا يمكن الوصول الى تلك المدينة الا بالزحف شمالا في الجانب الغربى من الدلتا على أكناف الصحراء ، وكان الفرس قد اتبعوا الطريق ذاتها قبل خمسة وعشرين عاما عندما استولوا على مصر ، فلقد زحفوا من الفرما الى مصر على رأس الدلتا ومنها ساروا بحذاء الفرع الغربى من نهر النيل الى الاسكندرية .

ويقال بأن عمرا اقام الولايم يومين متعاقبين لاقباط مصر قبل أن يمضى لفتح الاسكندرية . وكان قرى الاقباط وبعض العرب في اليوم الاول للوليمة لحم الابل مسلوقا في الماء المالح . وقد اكل العرب حتى سبغوا أما الاقباط الذين لم يالفوا هذا الطعام فلم يستسيغوه . وأعدت للجميع في اليوم التالى أطايب الطعام مطهية على الطريقة المصرية المتقنة . والقى عمرو في ذلك اليوم خطابا أوضح فيه المعنى المقصود من هذا الاجراء الذى قام به فقال انه قد لا يكون من الحكمة في شيء أن يمتنن المصريون فقر العرب واقتغارهم الى ترف العيش ورخائه ، وأضاف ان في وسع المسلمين أن يتعودوا على أطايب هذه الدنيا ومفائنها ، ولكن خشونة عيشهم مكنتهم من احتمال ما لا حد له ولا حصر من المتاعب والشقاء التى لا يستطيع الناعمون من المصريين هضمها . ولا ريب في أن هذا الاحتمال على المكار هو الذى مكنهم من التغلب على جيوش الروم والفرس .

ويقال بأن عددا غير محدود من الاقباط قد تحول في هذه الآونة الى الاسلام وقد اغرتهم الفرصة المتاحة لهم بأن يصبحوا أندادا من

الناحيتين الاجتماعية والمالية لفتح بلادهم المبجلين . ويقال ايضا بأن جيش عمرو بن العاص كان يضم عددا من أروام سورية الذين تحولوا الى الاسلام وعددا من الأعاجم من الأبناء فى اليمن من بقايا ذلك الجيش الذى كان كسرى قد بعث به الى اليمن لاجراج الاحباش منها واحتلالها فى عام ٥٧٤ هـ ، وهكذا نرى أن عملية افساد العنصر العربى النقى القادم من الجزيرة العربية قد بدأت فى هذا الوقت المبكر .

وعندما اراد الجنود تقويض خيمة قائدهم عمرو بن العاص . استعدادا لبدء السير باتجاه الاسكندرية ، عثروا على يمامة عشتت فى طرف الخيمة بعد أن وضعت بيضها ، وقد أمر عمرو بالابقاء على الخيمة فى مكانها وعدم تقويضها مخافة ازعاج الطائر الوديع قائلا ، ان اليمامة قد التجأت الى حماه وان عليه أن يجيرها . ومما يجدر ذكره ان الخيمة كانت ولا تزال فى عرف النظام الاجتماعى العربى ملجأ الامان فى تقاليد الصحراء ، وفى وسع كل من يشعر بالخطر سواء اكان رجلا أم امرأة ، أن يلجأ الى خيمة انسان يحتم عليه العرب أن يحمى المستجير به حتى ولو كلفه ذلك حياته . ولقد تحدثت فى مكان آخر عن البدوى الذى اجار ذئبا جريحا ، وقتل أحد أبناء عشيرته دفعا عنه . وقد يبدو من الغريب لنا كل الغرابة أن يقدم جندى عرف بالصرامة والقسوة كابن العاص على التخلّى عن خيمته ضنا على يمامة من الازعاج .

وعبر العرب نهر النيل من بابل ( اليوننة ) الى الجيزة ، وقد استخفهم المرح والطرب ليمضوا قدما فى طريق صحراوية جافة بحثا عن أماكن جديدة يفتحونها . ولا ريب فى أن البقاء امدا طويلا بلا حراك وعلى أرض رطبة حول القلعة المحاصرة ولا سيما فى أيام الفيضان كان مر المذاق بالنسبة اليهم .

وقع اشتباك فى طرانة الواقعة على بعد أربعين ميلا الى الشمال من بابل اضطر فيه الروم الى الانسحاب بعد قتال ضار ، وبعد عشرة اميال الى الشمال ، وجد العرب أنفسهم يواجهون مدينة نيكىو ( زاوية راسين ) وقلعتها القائمتين على الضفة الشرقية من النهر واضطر العرب ازاء ذلك الى عبور النهر لمهاجمة المدينة . ولو كان هناك قائد متميز بالنشاط والجرأة فى المدينة لخرج منها واعترض سبيل العرب وهم يعبرون النهر أو لباغتهم بعد أن عبر نصفهم ، ليلحق بهم الهزيمة . ولكن اللدع كما يبدو كان مسيطرا على رجال الحامية الذين شرعوا يجلبون عن المدينة فى اضطراب وفوضى ليستقلوا القوارب أملا بالنجاة

الحجرات البيض

عبد السلام بن عبد الله

۲۰۰۰

الاصناف

38

11

5

المزودة

1956

4

وادیہ واسپیہ

三





البحيرة الملحة

100

15

11

تفسير القرآن



عن طريق النهر بالسير نحو مصبه . وسارع العرب الى الهجوم فافنوا حددا ضخما من جنود الروم وهم اما على الساحل او بعد نزولهم الى الماء . وعلى الرغم من احاطة المدينة بالتحصينات ، فانها لم تدافع عن نفسها ، فافتحمها العرب وأعملوا السيف في رقاب أهلها . وقد وقع هذا الحادث في الثالث عشر من مايو ( ايار ) عام ٦٤١ . وأخذوا يغيرون بعد ذلك على القرى المجاورة يقتلون فيها وينهبون ما يشاءون . ومن المعقول ان تكون هذه الاجراءات جزءا من سياسة مرسومة . فالعرب كما سبق لنا ان بينا أكثر من مرة كانوا من الناحية التعبوية ( التكتيكية ) في وضع سييء في المناطق المروية الضيقة وكانوا تبعيا لذلك تواقين الى تجنب أية عمليات عسكرية في منطقة الدلتا التي كان اتساعها هنا يبلغ خمسين ميلا . ثم يأخذ هذا الاتساع في الارتفاع كلما اتجهوا شمالا الى أن يبلغ المائتين . وكان في وسعهم أن يحتلوا عدة أماكن على حدود المنطقة المزروعة . وكانوا يلجأون في هذه الاماكن الى أساليب العنف الصارمة رغبة منهم في القاء الرعب في نفوس السكان الجبناء في بقية أنحاء الدلتا ليضمنوا خضوعهم لهم دون عمليات حربية أو قتال . ولهذا السبب وحده كان الزمن أقصر من أن يضاع ، فلقد احتل العرب نيكيو ( زاوية راسين ) في شهر مايو عام ٦٤١ وكان موعد الفيضان شهر أغسطس من ذلك العام ، عندما تصبح العمليات العسكرية متعذرة بل مستحيلة ، وقدر العرب أنهم سيكونون في مثل ذلك الشهر محاصرين للاسكندرية وستعرض مواصلاتهم للخطر مع حصن بابليون اذا ثارت الدلتا عليهم . وجدير بنا أن نلاحظ الاتجاه الذي اتجهته أعمال العنف هذه فقد استهدفت الاقباط أو سكان مصر . ولقد كان الروم أو أتباع الكنيسة الارثوذكسية هم العدو في احتلال الفرما أو بابل أو في معركة هليوبوليس (١) . أما نيكيو وأرباضها فكانت مأهولة بالاقباط الذين كانوا من قبل ضحايا الاضطهاد البيزنطي .

وعاد عمرو بن العاص بعد قضاء بضعة أيام في نيكيو ( زاوية راسين ) الى عبور نهر النيل واستئناف الزحف باتجاه الاسكندرية

(١) لم أجد في كتب التاريخ العربي ما يؤيد هذه الروايات المرومة التي جاء بها المؤلف وكل ما في وسع المرء أن يتأكد منه أن العرب كانوا عندما يصلون الى بلدة من البلاد يعرضون على أهلها اما الاسلام أو الجزية أو الحرب . فان رفضت الا الحرب كان من حقها أن تلدق ويلاتها وان تحتمل نتيجة قرارها . اما معاملة المسلمين للاقباط فكانت رافعة كمد تجمع كتب التاريخ كلها . . (العرب)



واشتبكت طلائع العرب المتقدمة مع قوة بيزنطية ضخمة فلقيت منها هولا كبيرا واضطرت الى اللجوء الى ارض مرتفعة حيث اطبق عليها الروم الحصار من كل ناحية ولكن عمرا ما لبث أن وصل بقواته الكبيرة فطرد الأعداء ورفع الحصار المضروب على طلائعه ، وقد أطلق العرب على التل الذي صمدت فيه الطلائع العربية اسم « كوم شريك » نسبة الى قائد الطليعة شريك بن الحارث وظهر أن القوة الرومانية التي اشتبكت معها ، هي كل ما تبقى لدى الروم من جيش عامل في الميدان بقيادة تيودور القائد الذي هزمه ابن العاص قبل عام في معركة هليوبوليس .

ووقع اشتباك آخر على بعد عدة أميال الى الشمال من دمنهور دارت ابانه رحي معركة عنيفة ضارية انتهت بانسحاب الروم من جديد .

ويبدو أن نجدات جديدة كانت قد وصلت الى جيش الروم من القسطنطينية اذ بات هذا الجيش في مظهر جديد طيب . ويبدو أيضا أن عمرا تلقى نجدات أخرى من الجزيرة العربية وان لم نجد أثرا يدل عليها في كتب التاريخ العربي .

واتخذ تيودور مراكز دفاعية جديدة له في الكريون حيث نشبت معركة ضارية ، ومن الملاحظ أن المؤرخ البلاذري يذكر بصدد المعركة أن الروم والقبط تجمعوا عند الكريون لمقاومة الزحف العربي . ومن هذا يبدو أن القبط بدأوا يدركون أنه على الرغم من مرارة اضطهاد الروم لهم فإن ما أنزله العرب بهم من تقهيل (١) ، يدل على أنهم لن يكونوا أحسن حالا اذا ماتغير حكامهم وقد دامت معركة الكريون كغيرها من الانتصارات العربية العظيمة عدة أيام مما يدل على أن العرب بدأوا يلجئون في حروبهم الى معارك السحق الطويلة بدلا من حروب الصاعقة السريعة وان هذا الاسلوب الجديد أكثر صلاحا لهم من سابقه وحرى بنا أن نقول ان الافادة الناجحة من الهجمات الكبيرة تعتمد على التدريب والانضباط وهما صفتان مازال العرب فيهما أقل مستوى من أعدائهم لكن العرب يتفوقون على أي حال تفوقا هائلا على أعدائهم في روحهم المعنوية واقبالهم على المبادرة وفي وسعنا أن نستنتج من هذا أن العرب باتوا يشتبكون مع العدو في كل مكان في عمليات استطلاعية يسبرون فيها أغواره حتى اذا وجدوا نقطة الضعف غيه سارعوا الى استغلالها . واذا ما تحقق لهم النجاح الأولى في أية عملية

(١) لم يذكر التاريخ ان العرب اعملوا التقهيل في المصريين بل ان الذين اقدموا على ذلك هم الرومان وقد فعلوا ذلك بصورة بشعة عند انسحابهم من حصن بابليون ليلة عيد الفصح .

— العرب —

من هذا النوع فانهم يستغلون هذا النجاح بكل جرأة واندفاع وبما عرف عن رجالهم من اقدام على المبادرة مدفوعين بحميتهم ودون انتظار أوامر من قادتهم . واذا ما شئنا مقارنة البدو بأى من الجيوش الحديثة أمكننا القول بأن الاستراليين يشبهونهم الى حد كبير ويبدو أن هذا التشابه نجم عن اشتراكهم فى أوضاع حياتية متماثلة ، وهى الكفاح ضد الطبيعة لضمان البقاء فى أراضى فسيحة قاحلة غير مستثمرة . أما قوات الصاعقة فتكون عادة ثمرة الحضرارات المدنية فى حين يكون استغلال الانتصارات المحلية من المقاتلين الفرادى الأسلوب الصالح لشعوب الرواد الأحرار الذين لايربطهم نظام أو انضباط .

وقد دامت معركة الكريون عشرة أيام وانتهت كما يبدو فى يوليو (تموز) عام ٦٤١ بانسحاب ثيودور انسحابا منظما الى خطوطه الدفاعية فى مدينة الاسكندرية (١) .



وتابع عمرو مطاردة الجيش المتراجع فشن هجوما سريعا مرتجلا مفتقرا الى التنظيم على أسوار المدينة كانت عاقبته نكسة شديدة . واضطر العرب الى الانسحاب بعيدا عن الأسوار للنجاة من خطر القذائف التى ترسلها المجانيق المقامة على الأسوار وأقاموا معسكرهم الى الناحية الشرقية من المدينة .

وكانت الاسكندرية فى هذا العهد الذى نؤرخه الآن من أعظم مدن العالم وقد أنشئت مدينة الاسكندرية قبل نحو من ألف عام ، وبناها الاسكندر المقدونى وكانت تضم نحو من مليون انسان ، وكانت مصر فى ذلك الحين بلدا غنيا كل الغنى ، وكانت الاسكندرية عاصمتها منذ أمد طويل وكانت دلتا النيل تلعب دور اهراء الحبوب لرومة الامبراطورية ، ثم ما لبثت أن أدت الدور نفسه فى اقتصاد بيزنطة . وكانت الاسكندرية

---

(١) تختلف رواية المؤلف من الروايات العربية المتعلقة بهذه المعركة ، فقد ذكر البلاذرى أن من بالاسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا لعمرو بن العاص وقالوا نغزوهم بالقسط ( بابل ) قبل أن يلفنا ويروم الاسكندرية فلقبهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وكان فيهم من أهل سحار وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم قوم وفدومهم وإعانهم ، لم سار عمرو حتى انتهى الى الاسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله . ومن هذه الرواية يظهر أن الجيش الذى قابل العرب فى الكريون هو غير جيش الاسكندرية وإن مصر هذا الجيش كان الفناء تقريبا لا الانسحاب النظم كماله يقول المؤلف .  
(العرب)

• هي ميناؤها التجارى وتعتبر منارتها احدى معجزات العالم السبع • ولم يكن ثمة ما يفوق كنائس المدينة وقصورها وتماثيلها أو يضاهيها حتى كنائس القسطنطينية وقصورها وتماثيلها وكانت المدينة الواسعة محاطة بأسوار ضخمة تعلوها الأبراج والحصون التى لاتنفع معها القذائف التى يملكها العرب • ولم تكن هذه هى العوامل الوحيدة فى مناعة المدينة بل بالإضافة الى أن البحر يحمى جانباً من المدينة فان جزءاً كبيراً من الجانب البرى منها تحميه بحيرة المريوطية وعدد من الاقنية بحيث بات المكان الوحيد الذى يمكن منه الهجوم على المدينة فسحة ضيقة نسبياً تقع فى الطرف الشرقى ويبدو أن عمرو بن العاص أدرك بعد فشله فى الاندفاع الأول المتعجل على الأسوار الذى قام به بعد معركة الكريون أنه عاجز عن اقتحام هذه القلعة الضخمة عنوة لاسيما وأن الروم يسيطرون سيطرة كاملة على البحر الذى لا يوجد للعرب فيه مركب واحد • وكان فى مكة مدينة كهذه أن تصمد سنوات طويلة • ولقد سبق لنا أن رأينا القسطنطينية تصمد بنجاح أمام هجوم الجيش الفارسى الذى كان أكثر استعداداً وأوفر تمويناً بمعدات حروب الحصار من الجيش العربى ، وأن هذا الصمود استمر سنوات طويلة • وطالما أن السيطرة على البحر هى فى يد الروم فان موقف الاسكندرية كان أفضل من الناحية الطبيعية من وضع القسطنطينية • ولم يبق الآن على موعد ارتفاع مياه النيل الا بضعة أسابيع • وقرر عمرو أن يخلف على الاسكندرية قوة صغيرة للملاحظة ترابط الى الجنوب الشرقى من المدينة وتكون كافية لمنع الروم من الخروج من الأسوار لاعادة فرض سيطرتهم على الدلتا • وأراد أن يستغل انخفاض النيل وان يزحف عبر الدلتا عائداً الى القسطنطاط • وهكذا خرج عمرو من دمنهور باتجاه الشرق الى دسوق ومنها الى طوخ فدمياط وكانت الأسوار تحيط بهذه المدن الثلاث فأغلق أهلها على أنفسهم الابواب عندما اقترب الغرب منهم • ووجد العرب أنفسهم كالعادة عاجزين عن معالجة المدن المحصنة فاضطروا الى المرور بها دون فتحها • وغنم العرب كل ما فى الارياض والقرى المجاورة من محاصيل ، وقد غدت الآن ناضجة للحصاد وأحرقوا ما لم يتمكنوا من نقله معهم • واخيراً وصل عمرو الى القسطنطاط بعد هذه المحاولة غير الناجحة لالقاء الرعب فى قلوب أهل الدلتا وذلك قبل أن يبدأ قيضان النيل فى ذلك العام •

وتقيم هذه العملية الفاشلة دليلاً جديداً على الحقيقة التى سبق لى أن أكدتها وهى أن نجاح العرب كان كاملاً فى السهول المكشوفة دائماً • لولم من الطريف أن يفكر المرء عما كان فى دست الروم أن يفعلوه فى

مصر • فالحروب لا تكسب عادة الا بالهجوم ، وكان من الحتمى عليهم فى المدى الطويل أن يشتبكوا فى معركة مع العرب ليهزموهم اذا أرادوا النصر •

أما اذا رفض العرب أن يحاربوا الا فى الصحراء فان من الحتمى على الروم أن يحاربوهم فيها أيضا • أما فى المرحلة التى وصلنا إليها الآن فيبدو لى أن الروم قد آثروا البقاء فى موقف الدفاع ولم يكن فى وسع العرب أن يحاربوا فى الدلتا كما كان الروم عاجزين عن الحرب فى الصحراء ومن هنا تنبثق الضرورة فى أن يظل الروم داخل الدلتا وحدها للدفاع عنها ، وأن يحتفظوا بمواقعهم فى المنطقة المروية المزروعة ، وكان عليهم أن يشرعوا فوراً فى تحصين المدن والقرى ابتداء بتلك القريبة من حدود الصحراء • وكان عليهم أن يسلحوا ويدربوا سكان مدن الدلتا الواقعة على أطراف الصحراء وأن يحثوهم على الدفاع عن أنفسهم بمساعدة جماعات صغيرة من الجنود النظاميين ترابط هنا وهناك ، وكان عليهم أن يحشدوا أرتالا متحركة من قواتهم البيزنطية الى الورا فى المناطق الوسطى حتى اذا ما شن العرب أية غارات كان فى مكنتها أن تنتقل الى المنطقة المهددة لصعد الهجوم • وكان فى مكنتهم أن يقولوا لسكان المناطق الأمامية أن عليهم أن يصمدوا بعض الوقت اثنى عشرة ساعة على أكثر تقدير عندما يتعرضون للهجوم حتى تصل اليهم النجدة •

ويجب العرب التنقل فى الصحراء والقتال فيها ، ولكنها خالية من أى طعام • وعليهم أن يعتمدوا على المناطق المزروعة فى الحصول على طعامهم وهكذا كلما كان الدفاع عن المناطق المزروعة أكثر جذية وفعالية كلما كانت الصعوبة التى يواجهها العرب فى الحصول على مؤنهم أقوى وأشد • وكان فى وسع البيزنطيين عن طريق مثل هذا الدفاع النابض بالحياة أن يكسبوا وقتا يعدون فيه جيوشا جديدة لحوض القتال استعدادا للمعركة الحاسمة •

ولقد سبق لنا أن رأينا العرب يتعبون أشد التعب من القتال فى جبال فلسطين وسوريا ولكن دلتا النيل كانت أكثر مشقة عليهم من الاراضى الجبلية • ولكن من الأسهل علينا بالنسبة الى المعلومات المتوافرة لدينا الآن أن نظهر من الحكمة والتعقل ما لم يتيسر للعرب آنذاك • وقد تكون الفكرة واضحة اذا ما فكر فيها المرء ، ولكن الى أن يتحقق ذلك فان أكثر العقول فطنة وذكاء تؤثر استعمال الاساليب المألوفة قرنا بعد قرن •

ولا ريب فى أن فكرة البيزنطيين عن الحرب كانت مبنية على أساس

المعارك المتلاحمة بين الجيوش وليس في وسعنا أن نلومهم الآن لانهم لم يفكروا بأساليب أخرى . وفكرة المقاومة الشعبية المنظمة كطريقة مشروعة من طرق الدفاع ، فكرة مألوفة لنا اليوم أكثر مما كان يألفها البيزنطيون في أيامهم . ولا ريب في أن الصعوبة الرئيسية التي كانت تقوم أمام محاولة من هذا النوع هي ما يحس به الأهليون من مقت للبيزنطيين لما اقتترفوه من اضطهاد ديني في عهد المقوقس . ولو كان المصريون على ولاء للامبراطورية الرومانية لاختلف الوضع تمام الاختلاف .



ولنترك عمرو بن العاص يرباط ثانية في حصن بابلبيون في أغسطس عام ٦٤١ ، ولنتلفت بأنظارنا الى ماكان يدور في القسطنطينية في تلك الآونة .

سبق لنا أن ذكرنا كيف غادر هرقل سوريا بعد كارثة اليرموك في عام ٦٣٦ ، ويبدو أن الامبراطور لم يعد فورا الى عاصمته بل أقام بعض الوقت في كيليكية ، حيث كان يعاني كما يبدو بعض الانحطاط العقلي وفي وسعنا أن نطلق على الحالة التي أصابته اسم الانهيار العصبي ، ويبدو أنه ابل أخيرا من مرضه واستأنف تصريفه لشئون دولته . لكن المصائب مالمثت أن توالى على جيوش الامبراطورية . اذ استسلمت القدس وتبعتها انطاكية قيسارية ولحق بها وصول العرب الى مصر .

ويظهر أن المصائب لاحقته حتى في صميم أسرته . وهو في سن شيخوخته بعد أن كان لسنوات خلعت بطل عصره . فعندما توفيت زوجته الأولى يودوكيا قبل بضع سنوات راح يتحدى قوانين الكنيسة ومعارضة بطريق القسطنطينية ويتزوج من ابنة أخته ، مارتينا ، وعندما بلغ سن الشيخوخة ، أخذ ضميره يعذبه على هذا الزواج الحاطيء الذي اقترفه . وكان ولده قسطنطين ، الابن الأكبر للامبراطورة يودوكيا قد تسمى بلقب أوغسطس وبلغ الآن التاسعة والعشرين من عمره . وأصبح في سن تمكنه من تولي مسئولية الشئون العامة . لو لم يصب بمرض عضال ، يعتقد أنه السبل . واغتنمت مارتينا فرصة مرض قسطنطين فأخذت تلحف على زوجها بشارك ولدها منه هيراقليوناس في ولاية العهد .

واستدعى مجلس الشيوخ الى الانعقاد في الرابع من يوليو ( تموز ) عام ٦٣٨ ، ليصدق في القصر الامبراطوري على الشراكة المتساوية في العرش بين قسطنطين ابن يودوكيا ولدها هيراقليوناس الذي لايتجاوز الثلاثة عشر ربيعا .

وتوفي الامبراطور الشيخ هرقل كما ذكرنا سابقا في الحادى عشر من فبراير (شباط) عام ٦٤١ ، وهو فى السادسة والستين من عمره ، فى الوقت الذى كان فيه عمرو بن العاص مازال فارضا حصناره على حصن بابليون فى مصر ، وحاولت مارتينا فى بادىء الامر أن تفتصب السلطة لنفسها . ولكنها اضطرت تحت وطأة المعارضة الشعبية الى الانسحاب من مسرح الاحداث العلنى ، والى الاقتناع بتأييد ادعاءات ولدها هيراقليوناس عن طريق الدسائس والمؤامرات ، ولم يقدر لقسطنطين على أى حال أن يظل الى أمد طويل عقبه فى طريق تحقيق مطامحها . فقد مات بعد حكم لم يطل أكثر من مائة وثلاثة أيام فى الخامس والعشرين من مايو (آيار) عام ٦٤١ متأثرا من نوبة سعال أدت الى نزيف داخلى والى تقيؤه الدم . وكان قبل موته قد استدعى المقوقس من منفاه ويودور من الاسكندرية ليشاورهما فى وضع مصر .

ولم تكذ تعلن وفاة قسطنطين حتى تمكنت مارتينا من اعلان ولدها هيراقليوناس البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، امبراطورا أوحده للامبراطورية . ولكن قسطنطين كان قد خلف ولدين أكبرهما يدعى كونستانس ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره . وكانت مارتينا الامبراطورة الحاطة ، مكروهة من شعب بيزنطة ، الذى ثار عليها . وزحف فالتتاين قائد جيوش الروم فى الأناضول على العاصمة وتوج بالقوة كونستانس شريكا فى الحكم الامبراطورى لهيراقليوناس .

وأعيد المقوقس فى غضون ذلك الى مصر . ويبدو أن مارتينا ، وقد انهمكت فى الدسائس لتنصيب ولدها امبراطورا ، كانت راغبة فى انهاء الحرب مع العرب وتسليمهم مصر . ومن المعقول أن يكون المقوقس نفسه قد أقنع مارتينا وهيراقليوناس الشاب بضرورة تسليم مصر اذ أن الحماسة التى أبدوها فى تنفيذ هذه الخطة ، تشير بوضوح الى أنه كان أكثر من مجرد منفذ للتعليمات الرسمية .

ولقد سبق لنا أن رأينا ، أن مثل هذا التسليم لم يكن أمرا حتميا . فلقد كان فى وسع الاسكندرية أن تصمد سنوات طويلة ، وكان هرقل قبل موته قد أشرف على اعداد نجدة جديدة كان قد أعلن عزمه على قيادتها بنفسه لاستعادة مصر من العرب . ولكن الخلافات فى بلاط القسطنطينية انتقلت الى الاسكندرية ، اذ انقسمت النجدة التى أرسلت اليها بين مؤيد لمارتينا ومؤيد لاولاد قسطنطين . وسرعان ما بدأت الاصطدامات فى شوارع

الاسكندرية بين مؤيدي الفريقين المتنافسين على السلطان في القسطنطينية .

ونزل المقوقس في الاسكندرية في الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) عام ٦٤١ بعد أن أعيد تعيينه حاكما لمصر وبطريقا لها . وقد استقبل عند وصوله استقبالا شعبيا حماسيا . ولما كان في السنوات العشر السابقة من حكمه لمصر قد كرس نفسه لاضطهاد الاقباط فان في وسع المرء أن يفترض من هذا الاستقبال الحماسي أن غالبية أهل الاسكندرية كانت تمت الى الكنيسة الارثوذكسية التي يتولى هو رياستها وبوصفه بطريق الاسكندرية . ومثل هذا الوضع متوقع ولا شك اذ أن الاسكندرية كانت بوصفها عاصمة مصر ، مكتظة ولا ريب بالاغريق الذين كانوا يملأون قيسارية والقدس في فلسطين . وتوقع الناس نظرا لوجود المسلمين خارج الأسوار وانتشار المصادمات الحزبية في شوارع المدينة أن يؤدي مثل هذا الحاكم القوي في وسطهم الى تحسن في أوضاع الأمن والى ثقة الجمهور بالحكم . ولو صح مثل هذا الافتراض ، فانه يقوم ولا ريب على تفكير خاطيء اذ انهم لم يكونوا يدرون أن المقوقس لم يعد اليهم ليدافع عنهم ، بل ليسلمهم الى العرب .

وكانت الاسكندرية والحق يقال مدينة دولية تفتقر الى روح الانسجام بين أهلها ولقد كانت كثيرها من العواصم ، مستقرا للاغراب منذ أكثر من ألف عام . فاليهود فيها يؤلفون جالية كبيرة العدد وافرة الثراء . وفي شوارعها يختلط الاغريق بالاطاليين واليهود والاقباط والزوج الافريقيين . ولم تكن بذور الخلاف التي تفصل بين الكنيستين الارثوذكسية والقبطية هي المصدر الوحيد للفرقة والفتنة . وكان الحزبان الازرق والاخضر الموجودان في القسطنطينية متساويين في القوة في الاسكندرية وبالنظر الى غياب تيودور القائد العام في القسطنطينية فقد اقتسم القائدان العسكريان المتنافسان دومنيتيان ومينوس ، ولاء الجنود الزرق والحضر ، وأخذ الفريقان يشتبكان في الشوارع وينهمكان في أعمال النهب والسلب .

ولم يمض على وصول المقوقس أكثر من شهر الى الاسكندرية حتى كان يغادرها في النصف الثاني من شهر اكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤١ قاصدا حصن بابليون لمقابلة عمرو بن العاص وهو يعتزم تسليم الاسكندرية اليه ، ومعها بقية ارجاء مصر . ويبدو أنه كتم نياته عن كل من في الاسكندرية ، اذ ظل الناس فيها يعتقدون أنه انما جاء لانقاذهم وكان قد

تلقي تخويل الامبراطور له بتسليم الاسكندرية .. ولكن ترى من  
الامبراطور ؟ أهو هيراقليوناس البالغ من العمر خمسة عشر عاما  
أو كونستانس البالغ الثانية عشرة من عمره ، أو مارتينا الامبراطورة  
الحاطة المغرمة بالدسائس ؟

وكان عمرو بن العاص قد عاد الى حصن بابلليون بعد زحفه غير  
الموفق نسبيا الى شمال الدلتا . وبدا أن مادان له من مصر لم يعد نصفها  
ولو قدر لهرقل العجوز أن يعيش مدة أخرى وإن ينفذ مشروعه بالنزول  
شخصيا في الاسكندرية على رأس جيشه الذي أعده ، لطال أمد المقاومة  
الى أجل غير مسمى على الغالب . ولكن المقوقس جاء ووفدا لغاية أخرى .  
وقد رحب عمرو بالمقوقس ترحيبا حارا . وكان قد انقضى نحو عام  
تقريبا منذ فاضله على عقد معاهدة الصلح الاولى التي كان هرقل قد رفضها  
ساخطا ومزقها . ويقال ان المقوقس بأمر قائده المسلمين هذه المرة بقوله :  
« يبدو أن الله قد منحكم هذه البلاد » .

وتم في الثامن من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٤١ ، التوقيع على  
معاهدة بين عمرو بن العاص والمقوقس . وقد نصت المعاهدة على أن يدفع  
أهل مصر الجزية أسوة بأهل سوريا وفلسطين والعراق . ويبدو أنه فرض  
على كل رجل أن يدفع دينارين بالاضافة الى الضرائب العينية من قمح  
وزيت وملابس لجنود المسلمين . وتقرر أن تعقد هدنة لمدة أحد عشر شهرا  
تنتهي بنهاية سبتمبر (أيلول) عام ٦٤٢ ، على ألا يهاجم العرب الاسكندرية  
في غضون هذا ، وأن يجلو الروم إبانها بطريق البحر حاملين معهم ما يملكونه  
واشترطت المعاهدة ألا يعود الروم الى مصر ، وألا يحاولوا العودة اليها  
وألا يضع المسلمون أيديهم على أية كنائس جديدة وألا يتدخلوا في حرية  
العبادة بالنسبة الى المسيحيين . وقررت المعاهدة أن يظل اليهود في  
الاسكندرية . وأن يصبح أهل مصر ، بلقهم الجزية للمسلمين ، تحت  
حماية جيوشهم (١) .

(١) تختلف روايات المؤرخين العرب تمام الاختلاف عن رواية المؤلف ، فهي لا تتحدث  
عن سفر المقوقس الى القسطنطينية ، ولا عن رجوع عمرو بن العاص الى اليونة ( بابل )  
ولتنقل هنا ما قاله البلاذري : « سار عمرو حتى انتهى الى الاسكندرية ، فوجد أهلها  
مدين لقتاله ، الا أن القبط يحبون المودة ، فأرسل اليه المقوقس يسأله الصلح  
والمهادنة الى مدة . فأبى عمرو ذلك فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة  
مقلبات وجوههن الى داخله . وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم الى المسلمين  
لرهبهم بذلك . فأرسل اليه عمرو : انا قد رأينا ما صنعت . وما بالكثرة غلبنا من =



ويضيف الطبري الى المعاهدة بندا طريفا آخر ، فقد ذكر انه نص على ألا يسمح للنوبيين ، والمقصود بهم السودانيين على الغالب ، بغزو البلاد وهناك من ذكر أيضا بأن المعاهدة تضمنت بندا آخر يشترط عدم زيادة الجزية أو الخراج في المستقبل .

وأوفد عمرو بن العاص بعد انتهاء المفاوضات رسولا الى الخليفة في المدينة ينقل اليه النبأ . وتقول الروايات ان الرسول طلب من عمرو كتابا يحمله الى الخليفة فرد هذا قائلا : وما شأنى بالكتاب ؟ أؤ لست عربيا يستطيع أن ينقل شفاهها كل مارآه بعينيه ؟ كانت هذه هي الاساليب البعيدة عن الرسميات ، التي استعملها الخلفاء الاول وقادتهم العسكريون في اقامة امراطوريتهم العظيمة . ووصل الرسول الى المدينة بعد ظهر ذات يوم ، فأناخ ببعيره أمام المسجد الذي يطل باب الخليفة على باحته . وخرجت فتاة صدقة من البيت فرأت وعشاء السفر على الرسول وبعيره فسألته عن أمره ، ورد الرجل بأنه رسول من عمرو بن العاص . وعادت الفتاة متهوللة الى الدار ، ولم تمض ثوان حتى كانت تخرج ثانية لتستدعي الرسول الى مقابلة الخليفة ، واستعلم عمر بن الخطاب من الرسول عن كل شيء . . . فرد هذا . . . أنباء طيبة يا أمير المؤمنين . . . لقد فتح الله لنا الاسكندرية . . .

وأسرع الخليفة البسيط المتواضع الى فناء المسجد . وطلب الى المؤمنين أن يؤذن بالناس داعيا اياهم الى الصلاة . وبعد أن روى الأنبياء السارة للمسلمين ، أقيمت الصلاة ، وعاد عمر الى بيته المتواضع ، حيث دعا الرسول الذي يعلوه غبار السفر الى تناول الطعام معه وهو مؤلف من الحنظل والزيت والتمر . وبمثل هذه الطريقة البسيطة نقلت مثل هذه الأنباء العظيمة ، واستقبلت في العاصمة .

---

.. علينا . فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان . فقال القوقس لاصحابه : قد صدق هؤلاء القوم . اخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى ادخلوه القسطنطينية . فنعم اولى بلاذعان . فالفلظوا له القول ، وأبوا الا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وحاصروهم ثلاثة اشهر ، ثم ان عمرا فتحها بالسيف وغنم ما فيها ، واستبقى اهله ولم يسب وجعلهم ذمة كاهل البيوت ، فكتب الى عمر بالفتح مع معاوية بن جندع الكندي ، وبعث اليه معه بالخمس ، ويقال ان القوقس صالح عمرا على ثلاثة عشر الف دينار على أن يخرج من الاسكندرية من اراد الخروج ، ويقوم بها من أحب القيام وعلى أن يفرض على كل حال من القبط دينارين . فكتب لهم بذلك كتابا .

(المغرب)

وكان المقوقس قد عاد في غضون ذلك الى الاسكندرية • وعلى الرغم من أن ثيودور كان قد عاد الى المدينة ، الا أنه لم يرافق البطريق في رحلته الى بابل ، وكان ثيودور قد خسر كل معركة خاضها مع العرب ، الا أن مما يستحق الذكر بأنه في هذه المرة ، وبعد موت هرقل ، كان يلحف بوجود استمرار المقاومة في مصر • ومن هنا تتبلج الحقيقة في أنه لم يكن موثوقا لدى المقوقس الذي أخفى عنه ولا ريب أنه ذاهب الى بابل للتوقيع على صلح مع العرب • وعندما عاد البطريق أفلح كما يبدو في اقناع ثيودور باستحالة المقاومة أمدا آخر ، مؤكدا له ولا ريب ، بأن تعليماته التي حملها من الامبراطور تأمره بالتوقيع على الاستسلام •

وعندما نمت خبر الاستسلام الى أهل الاسكندرية استبدت بهم موجة عارمة من السخط وهاجت الجماهير وماجت وهرعت تذرع الشوارع الى القصر ، معززة الاقتصاص من البطريق ، الذي استقبلته قبل شهرين استقبال الفاتحين معتبرة اياه منقذها من العرب • وظلت حياة المقوقس معرضة للخطر بعض الوقت • ولكنه مالبت وبصورة متدرجة ، أن أفلح في اقناع معارضيه بحتمية الاستسلام • وقال لهم ان العرب قوم لا يقاومون وان الله قد شاء أن يمنحهم أرض مصر ، مكررا ما قاله في هذا الصدد نفسه لعمر بن العاص • وسالت الدموع على وجنتيه • وهو يؤكد لهم أنه فعل لهم كل ما في وسعه • وان غاية المحاولات التي بذلها انقاذهم وانقاذ أولادهم وكنائسهم من الموت والدمار • وتمكن بهذا الأسلوب الخادع من تهدئة الجماهير التمسدة الحظ التي خانها وخدعها بمكر ودهاء (١) •

وليس في امكاننا حتى الآن • التمسك من الدوافع التي حملت المقوقس على هذا السلوك • فهناك من يقول بأنه كان رجلا ضعيفا عجوزا مسكينا • ولكن من الصعب علينا أن نصدق هذا القول ، على ضوء ما رأيناه منه من تصميم وقسوة في اضطهاد الاقباط فيما مضى • وهناك من تصور بأن المقوقس كان يعتقد نفسه صديقا شخصيا لعمر بن العاص وكان يأمل في أن يظل في منصبه كبطريق لمصر في ظل الحكم الاسلامي ، ولكن اذا كانت مثل هذه المطامح قد ساورته فعلا ، فانه ولا ريب لم يحقق منها شيئا فقد مات في الواحد والعشرين من مارس ( آذار ) عام ٦٤٢ أي قبل أن يحتل العرب المدينة •

(١) يبدو المؤلف هنا على حقيقته بعيدا عن الموضوعية وكارها للعرب والمسلمين ..  
بنفت • موم حقه بعثل هذه اللغة السائرة التي استعملها • (العرب)

وأقر هيراقليوناس فى القسطنطينية معاهدة الصلح هذه فى غضون ذلك وكان اقراره من آخر الاعمال التى قام بها ، اذ خلع عن العرش فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٤١ نتيجة انقلاب عسكرى قام به أنصار كونستانس ، وقام الانقلابيون بقطع لسان مارتينا وجدع أنف هيراقليوناس ثم أبعد وهما عن العاصمة الى المنفى بين لعنات رعاياهما السابقين (١) .

وكان عمرو بن العاص فى فترة ترقب استسلام الاسكندرية . قد دأب على انشاء مدينة عسكرية لقواته خارج اسوار بابل ، فقد رأى أن الاسكندرية بوصفها ميناء على البحر الذى يسيطر عليه اسطول الروم ، لم تكن صالحة كعاصمة عربية . وحرى بنا أن نذكر مدى اصرار عمر بن الخطاب دائما على أن تظل أظهر الجيوش العربية فى البلاد المحتلة مرتكزة الى الصحراء ولم يكن عمر ليقبل أبدا أن تفصل دلنا النيل بين الحامية العربية فى مصر وبين الجزيرة العربية . أما بالنسبة الى بابل ( اليونة) فلم تكن هناك جبال أو مياه تفصل بينها من ناحية وبين الصحارى العربية

(١) تختلف رواية المؤلف من جديد عن الروايات العربية . اذ تقول ان عمرو بن العاص استخلف على الاسكندرية بعد فتحها بيد الله بن حذافة فى رابطة من المسلمين لم انصرف الى القسطنطينية . وكتب الروم الى قسطنطين بن هرقل ، وكان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلعة عدد المسلمين عندهم . وبما هم فيه من الدالة وأداء الجزية ، فبعث رجلا من اصحابه يقال له منويل فى ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة . فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجأ ، وذلك فى سنة خمس وعشرين . وبلغ عمرا الخبر فسار اليهم فى خمسة عشر ألفا ، فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيئون خيما على الاسكندرية من قرى مصر فسادا فلقبهم المسلمون قرشقوم بالشباب ساعة والمسلمون مترسون . لم صدقوهم الحملة ، فالتحمت بينهم الحرب ، فاحتلوا قتالا حديدا . ثم ان أولئك الاروام ولوا منهزمين . فلم يكن لهم ناهية ولا هرجة دون الاسكندرية . فتحصنوا بها ونصبوا العرادات ، فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال : ونصب المجانيق فأخرب جدرانها ، والح بالحرب حتى دخلها بالسيف فتو فقتل المقاتلة وسبى اللرية . وهرب بعض رومها الى الروم ، وقتل عدو الله منويل وهدم عمرو والمسلمون جدار الاسكندرية وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك .

ويقول البلاذرى : ووضع عمرو على ارض الاسكندرية الخراج ، وعلى أهلها الجزية ، وروى أن القوقس احتل اهل الاسكندرية حين نقضوا ، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وروى أيضا أنه كان قد مات قبل هذه الغزوة .

هذه روايات التاريخ العربى . ويبدو أن المؤلف آخر أن يتجاهل قصة النقض بفتح الاسكندرية فتوة للمرة الثانية لأنها تهدم له كل نظريته المسئلة التى أقامها والتى حاول أن يظهر فيها أن الاسكندرية قد سقطت فى ايدى العرب نتيجة ما أسماه بخيانة القوقس لا نتيجة انتصار عسكرى حققه العرب بشجاعتهم . وهذا هو عين التضليل .

(العرب)

المضيافة للعرب • واطلق اسم الفسطاط على المدينة العسكرية العربية الجديدة ، وتقوم مدينة القاهرة الحالية وضواحيها الآن على آثار مدينة ممفيس القديمة • ومدينة مصر التي بنيت في القرن السابع ، والفسطاط وقلة بابل وميدان معركة هليوبوليس •

ويقوم الدليل على أن انهزامية المقوقس لم يكن لها ما يبررها ، هذا اذا شئنا ألا نسميها خيانتة المرسومة (١) من الحقيقة الواقعة ، وهي أن بعض مدن الدلتا رفضت أن تفتح أبوابها للمسلمين صلحا ، حتى بعد إبرام هيراكليوناس وعمر بن الخطاب لمعاهدة الصلح . ولقد كانت مقاومتها صلبة رغم وضعها اليائس الذي نتج عن تخلي البيزنطيين عنها ، حتى أن اخضاع شمال الدلتا استغرق من العرب عدة أشهر بين نوفمبر ( تشرين الثاني ) عام ٦٤١ ويوليو ( تموز ) عام ٦٤٢ • فلقد كانت المنطقة بما ينتشر فيها من أقنيسة ألرى التي لاتعد ولا تحصى شاقة على عرب الصحراء • وعلى الرغم من كل هذا فمن الحرى بنا أن نذكر ، أن الاقباط حاربوا بكثير من العناد والصلابة حتى فى ظروفهم تلك التي لم تكن تحمل لهم أى أمل بالنجاح •

وفى وسعنا أن نستخلص من هذه العوامل كلها ، دروسا عدة ، ذات علاقة ماسة بأحداث عصرنا • أول هذه العوامل أن المصريين كمحاربين لم يهزموا الا بسبب افتقار قادتهم الى الكفاية (٢) . واذا ما قارناهم بالعرب

---

(١) يصر المؤلف من جديد على نظريته التي تتعارض مع كل أحداث التاريخ العربى ومع روايات المؤرخين • لغاية في نفس يعقوب ، ستظهر واضحة في الفقرة التالية وهي وغبته في الفصل بين العرب والمصريين من ناحية والخط من شأن شجاعة العرب من ناحية أخرى •

(٢) يحاول المؤلف هنا أن يضل قراءه ، وأن يصور لهم أن الحرب كانت في مصر بين العرب من ناحية والمصريين من ناحية أخرى • مع أن الحقيقة التاريخية التي لا تقبل النقض ولا الجدل هي أن الحرب كانت بين العرب والروم ، لا بين العرب والمصريين أى الاقباط ، ولعل من ناقلة القول أن يؤكد هنا أن الروم كانوا مستعمرين لمصر • لا من أهلها ، وأن الاقباط كانوا يكرهونهم أشد الكره • لما ابعدهم من سياسات الاضطهاد الدينى التي اعترف بها المؤلف • ولهذا فإن المصريين أى الاقباط وقفوا موثقا سلبيا من الروم عند غزو العرب للبلاد ، وهو ما يؤكد جميع مؤرخى العرب • أما القول بأن القادة المصريين كانوا يفتقرون دوما الى الكفاية ، فتضليل وتشويه لكل حقائق التاريخ • إذ أن الجيوش المصرية في جميع العهود العربية منها وقبل العربية • قامت بفتوحات عسكرية عظيمة دلت على كفاية قياداتها ، وحسن بلاتها • لكن المؤلف يريد أن ينفث سموم حقد الاسود على المصريين ، ومن هنا نراه لا يتورع حتى عن اختلاق الأكاذيب ، وقلب الحقائق التاريخية •

(العرب)

«وجدنا أنهم كانوا بطيء الحركة مفتقرين الى المبادرة . أما اذا كان المصريين مرابطين في قواعد عسكرية منيعة ، فانهم يظهرون شجاعة فائقة واصرارا كبيرا على الدفاع . وهم يرفضون التسليم حتى وان يأتوا في وضع يائس . وهناك مفارقة عجيبة بين العرب والمصريين في هذه النواحي . فالجنود العرب يقظون ، سريعو الحركة ، على استعداد للحسم في المواقف . وتولى زمام المبادرة ، وهم يكرهون الجمود والبقاء في مركز ثابت ، وهذه الفروق واضحة اليوم كما كانت واضحة في القرن السابع . مما يؤكد الاختلاف العنصرى بين الفريقين نظرا لاختلاف خصائصهما ومن هنا يكون الميل العصرى الى اطلاق صفة العروبة المشتركة عليهما مجرد تضليل (١) .

وتميل حقيقة اعداد السكان الى تأكيد هذه النتائج التى توصلت اليها . فهناك اليوم في حوض النيل الصغير عدد من السكان أكثر بكثير من عددهم في الجزيرة العربية الفسيحة الأرجاء . لاريب فى أن عدد سكان مصر فى القرن السابع كان يربو على عدد سكان الجزيرة كلها . ومع ذلك فلقد كان هؤلاء السكان القلة يشتمكون فى حروب فى وقت واحد فى مصر . وفارس والعراق وسوريا وفلسطين . وسرعان ماقدر لهم أن ينتشروا فى شمال افريقيا أيضا ، وفى الاندلس وفرنسا ، وهكذا فان عدد سكان الجزيرة العربية أيام الفتوحات الاسلامية ماكان ليترك هذا الأثر الكبير فى سكان بلد كمصر . يضاف الى هذا أن العرب الذين هاجروا فى تلك

(١) ليس هناك من هو أكثر تضليلا من المؤلف نفسه . لقد وضع نصب عينيه لغايات استعمارية تدل عليها طبيعة العمل الذى قام به ثلاثين عاما في الوطن العربى ، وحقده الاستعمارى الدفين على مصر ورائد العروبة جمال عبد الناصر ، أن يفصل بين العرب وبين المصريين « قلب الحقائق التاريخية وشوهدا ليصل منها الى استنتاجات خاطئة يحاول أن يدعمها بأدلة أكثر منها خطأ . فهو يجسم ما يسميه بالفروق بين خصائص العرب وخصائص المصريين ويهول فيها « ناسيا أن مثل هذه الفروق ، موجودة بين أهل لندن مثلاً وأهل مانشستر . أو بين أهل كنت وأهل ويلز في بلاده ، أو بين أهل بافاريا وأهل روسيا في ألمانيا ، ولو جانب المؤلف سبيل الهوى والفرس لحظة واحدة ، لادرك أن العوامل الجغرافية وعوامل البيئة ، والطبيعة تلعب دورها في خلق مثل هذه الفروق بين أبناء الشعب الواحد . فأهل اليمن مثلا يختلفون بعض الاختلاف عن أهل الحجاز . وهؤلاء يختلفون عن أهل نجد . مع أنهم جميعا من أصل عربى واحد ، لا يستطيع المؤلف ، حتى ولو أدوى من القدرة على التضليل وقلب الحقائق ، طاقات فله أن ينكره . . لكن هذا القول الذى جاء به المؤلف نفمة استعمارية ممحوجة كثيرا مارايناها في كتب غيره من المؤلفين الغربيين وفي صحافة الغرب ووسائل اعلامه .

(العرب)

الايام كانوا جميعا من البدو ، الذين لا يستسيغون هذه التربة الغرينية العميقة الموجودة في مصر ، ولا يستطيعون قنواتها المائية التي لاتعد ولا تحصى أو حرارتها المحرقة المشبعة بالرطوبة . وقد اتجهت هذه القبائل في حالات معينة الى الجنوب نحو الصحراء باتجاه السودان ، أو عبرت النيل لتهاجر غربا عبر الصحراء الى ليبيا ، وقد يكون من المتعذر اليوم على بدوى الجزيرة العربية أن يفهم لهجة أهل الدلتا . ولكنه يرى في لهجة أهل ليبيا وشمال السودان كثيرا من التعابير الشائعة عند أهل قبيلته في الجزيرة العربية (١) .

وليس من شك في أن المنبع الرئيسى لاختلاط الدم العربى فى مصر بعد الفتح انما نشأ عن حامية الفسطاط . وكان فى استطاعة الجنود العرب جريا على مألوف تلك الايام أن يتزوجوا أكثر من واحدة من المصريات . وأن يقتنوا مالا عد له من الجوارى . وليس ثمة من شك فى أن الذرية الناجمة عن هذه الاوضاع تدعى الاصل العربى لانتمائها الى آباء عرب وتعود هذه الذرية فتبنى بزوجات من المصريات ، ولا تمضى عدة أجيال حتى يكون نسل الصحابة قد أصبح مصريا صميما .

ويؤكد المؤرخون بالاضافة الى كل هذا أن عددا من الاقباط قرر عند ابرام صلح الاسكندرية التحول الى الاسلام ، رغبة منهم فى الخلاص من الجزية والضرائب الثقيلة أولا والوصول الى مركز المساواة مع الفاتحين المنتصرين فى الميدان الاجتماعى ، وقد مال المؤرخون الى اعتبار هؤلاء من العرب ، وهو خلط فكرى بين العنصر والدين .

وفتحت الاسكندرية فى سبتمبر عام ٦٤٢ أبوابها للعرب طبقا للاتفاق . وانتهت الى الأبد سيطرة البيزنطيين على مصر .

### \*\*\*

وكان من النتائج البارزة لفتح مصر على يد عمرو بن العاص وصول رسالة من الخليفة الى القائد الظافر ، يقول فيها أن الأنباء التى وصلت الى

---

(١) استنتاجات خاطئة تقوم على فرضيات سخيفة ، والا متى كانت الاختلافات في اللهجات دليلا على خلاف في العنصر . لقد كانت لكل قبيلة من القبائل العربية ومازالت لهجتها الخاصة بها ، كما ان سكان كل مدينة يختلفون في لهجهم عن سكان مدينة مجاورة في وطن واحد . ولعل المؤلف لا ينسى وان تناسى ، ان هذا الاختلاف في اللهجات موجود في بلاده انجلترا ، بين مقاطعة واخرى ، بل وبين مدينة ومدينة .  
(التعريب)

المدينة تفيد أنه ، أى القائد أصبح ثريا يملك المتاع والرقيق والآنية والحيوان مما لم يكن له عندما ولى مصر • ورد عليه عمرو قائلا : ان أرضنا أرض مزروع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج اليه لنفقتنا ، فكتب اليه الخليفة الصلب يقول : انى قد خبرت من عمال السوء ماكفى وكتابك الى كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سنوت بك ظنا • وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فاطلعه طلعة ، وأخرج اليه ما يطالبك واعفه من الغلظة عليك ، فانه برح الخفاء • وهكذا نرى الخليفة يصادر نقسما كبيرا من ثروة القائد الظافر وهو فى أوج انتصاراته وليس ثمة فى التاريخ أحداث كثيرة تماثل هذا الحادث البارز •

وعندما جاء محاسب الخليفة محمد بن مسلمة • ليقاسم عمرا ثروته قال عمرو كما تذكر الروايات •• ان زمانا عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة - يعنى عمر بن الخطاب - لزمان سهو • لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج • فقال محاسب الخليفة : « مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكبره • ألفت معتقلا عنزا بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوؤك بكاؤها » فقال عمرو •• « أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولى ، فان المجالس بالامانة » • فرد محمد بن مسلمة قائلا : « لا أذكر شيئا مما جرى بيننا وعمر حى » •• ولا ريب فى أن هذا الحوار الممتع القصير الذى دار قبل نحو من ألف وثلثمائة عام • يعتبر نموذجا للنكتة العربية الساخرة • ولا ريب فى أن ما ينطوى عليه من وضوح يقنعنا كل القناعة بصدقه •

ويميل كل عصر من العصور الى أن ينسب الى العهود التاريخية الاخرى العقلية الخاصة به • فلقد نسب اسلافنا من ذوى التفكير الدينى ، الفتوحات العربية الى الحماس الدينى الاسلامى • أما فى عصرنا المادى الحاضر ، فقد أصبح من المألوف أن تنسب مثل هذه التفجرات للطاقة ، الى الدوافع الاقتصادية ، والى ضغط المجاعة فى الجزيرة العربية • ولكن هذا الحادث وحده يعتبر كافيا لنفى مثل هذا الافتراض • فلو قبلنا بالنظرية القائلة بتعلقات خالد بن الوليد وعمرو بن العاص الدينيوية ، فما الذى يدفع مثل هذين القائدين الظافرين ، وهما على رأس جيشهما الى تسليم ما يملكانه من ثراء دون أى تأفف أو تدمير ، الى رسول فرد أعزل أوفده الخليفة العارى القدمين الرابض بعباءته المرقعة فى المدينة ؟ ليس ثمة من خلاف فى أن هناك ردا واحدا على هذا السؤال • انها المعنويات العظيمة التى سبادت المجتمع كله آنذاك ، هى التى مكنت عمر بن الخطاب من سلوك مثل هذا السلوك الصارم مع قادته العسكريين وولاته • وعندما

نقارن هذا الوضع بما كان عليه بلاط القسطنطينية من تنايد وأنانية  
وتقسم الى أحزاب ودسائس تحاك وراء الكواليس تتبين لنا الحقيقة  
الناصة ، في أسباب انتصارات العرب العظيمة •

### تواريخ بارزة

١٣ من مايو (ايار) ٦٤١	احتلال نيكيو ( زاوية راسين )
٢٥ من مايو (ايار) ٦٤١	موت الامبراطور قسطنطين اكبر أبناء هرقل في بيزنطة
يوليو (تموز) ٦٤١	انسحاب الروم الى الاسكندرية
١٤ من سبتمبر (أيلول) ٦٤١	عودة المقوقس بطريق الاسكندرية
٨ من نوفمبر (تشرين الثاني) ٦٤١	اجتماع المقوقس بعمر وبن العاص في بابل وتوقيع اتفاق التسليم
نوفمبر (تشرين الثاني) ٦٤١	نفي مارتينا وهيراكليوناس
٢١ من مارس (آذار) ٦٤٢	موت المقوقس
سبتمبر (أيلول) ٦٤٢	العرب يحتلون الاسكندرية •

### شخصيات مشهورة

القائد العام في مصر	عمرو بن العاص
القائد العام للروم	ثيودور

### خلفاء هرقل

ابن هرقل	الامبراطور قسطنطين
	الامبراطورة مارتينا ولدها هيراكليوناس
نجل قسطنطين	الامبراطور كونستانس



# فتح الفتوح

« يطرد الرب جميع هؤلاء الامم من امام وجوهكم  
فتثرون امما اكثر واعظم منكم .. »

لا يقف انسان في وجوهكم ، فإن الرب الهكم يلقي  
ذعركم ، ورهبتكم على كل الارض التي تظاونها كما  
وعدكم » .

= سفر تثنية الاشتراع = الفصل الحادى عشر = ٢٣

\*\*\*

« كانت الدعوة الى ميدان القتال بالنسبة الى العرب  
الاول اشبه ما تكون بالدعوة الى وليمة عرس ، وكان  
هؤلاء الرجال مع شراستهم فى القتال شديدى النمالة  
بعد النصر فلقد حفظوا عهودهم تمام الحفظ ، ولم نسمع  
عن مجازر لا تميز فيها قد ارتكبوها ، ولم يكن مما يشين  
جيوش رومة وفارس أن ينتصر عليها مثل هؤلاء  
الناس » .

قريمان = تاريخ العرب

\*\*\*

« يتميز العرب بالعنف اذ صباغت طبيعة الحياة  
الخشنة التي عاشوها خصالهم ، الى أن أصبح العنف  
طبيعة ثانية لهم . وهم ، والحق يقال ، ينعمون بالحياة  
النفسية اذ انها تمكنهم من تحطيم نير السلطة عن رقابهم  
والخلاص من السيطرة السياسية عليهم ، ومثل هذه  
الطبيعة تتعارض مع انتشار الحضارة . واخيرا يعتبر  
كل عربى نفسه أهلا للحكم ولذا يندر أن تجد منهم من  
يلعن طواغية لسيطرة الآخرين » .

مترجمة عن الانجليزية . مقتبسه من ابن خلدون



## فتح الفتوح

تابعنا في الفصل التاسع من هذا الكتاب هزيمة يزدجرد ثانية في جلولا عام ٦٣٨ ميلادية ، ورأينا أبا موسى الأشعري يوالى انتصاراته في الاهواز حيث احتل رامهرمز والسوس وتستر ، لكن الخليفة كان قد أصدر أمره الى سعد بن أبي وقاص بعدم تجاوز جبال زاغروس ، مما أدى الى توقف القتال بين العرب والفرس ، مدة ثلاث سنين بعد معركة جلولا .

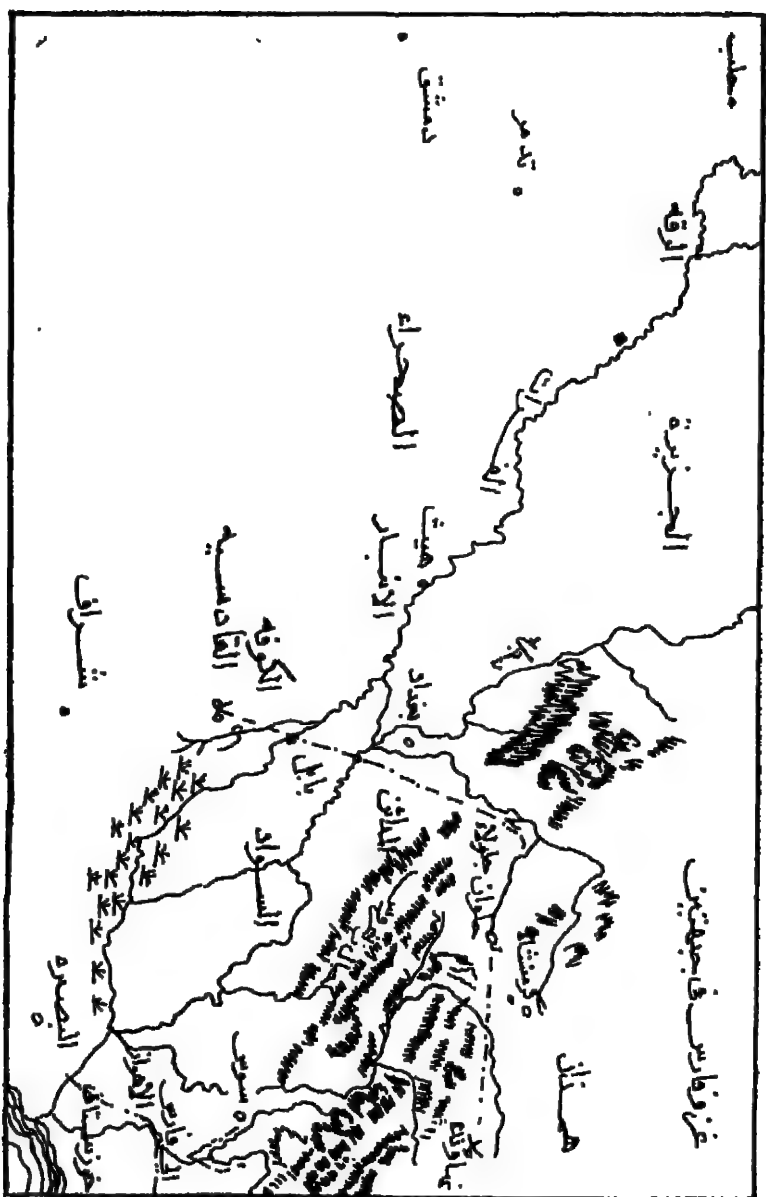
ولكن ملك الفرس الفتى لم يكن قد قرر بعد الاعتراف بالهزيمة . ولذا راح يوفد رسله الى حكام الامارات التي لم يكن العرب قد احتلوا بعد يأمرهم بأن يجندوا أكبر عدد من الرجال . وأن يرسلوهم للانضواء تحت راية الملك . وهكذا تم في عامي ٦٤٠ و ٦٤١ بناء جيش جديد في فارس ووصلت أنباء هذه الحشود الى سعد بن أبي وقاص ، وهو في قيادته في الكوفة ، فراح يبعث بها الى الخليفة في المدينة مناشدا اياه الاسراع في ارسال التجندات .

وكان عمر ، بما عرف عنه من حيوية ، عند حسن ظن قائده . وراح يستصرخ القبائل ارسال الرجال من أبنائها ، معلنا عزمه على قيادة الجيش الجديد بنفسه الى فارس وعاد فسمح لصحابته بأن يحولوا بينه وبين السفر بنفسه (١) . وأرسل القوات الى العراق منتدبا لقيادتها النعمان بن مقرن ، أحد الانصار من أهل المدينة ، وكان يتولى آنذاك رتلا في الاهواز . ومخولا اياه الاشستباك بجيشه الجديد مع جيش يزدجرد . وصدرت الأوامر في الوقت نفسه الى الجيش العامل في الاهواز بأن يرسل فصيلا لتعزيز جيش النعمان بن مقرن وبأن يواصل التقسّم هو في الاهواز ، ليحول اتجاه التجندات الفارسية اليه .

وتحرك النعمان بن مقرن باتجاه حلوان ، حيث وردت اليه الانباء بأن الفرس قد اجتمعوا في نهاوند الواقعة وسط السهل القائم على الطرف الآخر من جبال زاغروس ، وقيل ان جيش المسلمين كان يعد ثلاثين ألفا . وان جيش الفرس ، كان يعد أكثر من ذلك بكثير لكنني أشك في صحة

---

(١) فمرة مشللة من جديد ، من جانب المؤلف ، ليظهر عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه بظهر المزوف من السير بنفسه الى الحرب . (المغرب)



هذه الأرقام من الجانبين ، واعتقد ان الجيشين كانا أقل من ذلك بكثير (١) .

ولا ريب في ان الصورة التي وصلت إلينا عن معركة نهاوند لا تقل غموضا عن الصور السابقة ، التي وصلتنا عن المعارك الأخرى ، ولكن يبدو لنا ان الفرس كانوا يحتلون موقعا خصبا يرفضون الخروج منه للقتال . وكانوا قد نشروا على الأرض القائمة أمام خطوطهم الدفاعية مسامير من الحديد تثقب حوافر الجياد . بحيث يتعذر على الفرسان أن يقتربوا من هذه الخطوط . وذهل العرب من هذا الأسلوب الجديد ، الذي يعتبر أول تطبيق لنظرية زرع الألغام . وعقدوا مجلسا حربيا يتداولون فيه الرأي . وشهدوا عدد من قادة العرب ومحاربيهم البارزين . وكان عبد الله بن عمر يتولى قيادة المهاجرين والانصار من أهل المدينة ، وكان مع الجيش أيضا جرير بن عبد الله شيخ بنى بجيلة ، وابو موسى الأشعري عامل البصرة على رأس قوة من أهلها ، وطلحة الأسدي أحد أنبياء الردة الكاذبين . وكان طلحة قد أبلى بلاء حسنا في معركة القادسية . فتقدم الآن الى المجتمعين برأى ، أشار فيه بأن يتظاهر جزء من جيش المسلمين بالهجوم على مواقع الفرس ، ثم يدعى الهزيمة والذعر ، فاذا ماولى هذا القسم هاربا . فان الفرس قد تستهويهم الحماسة ، فيخرجون من مواقعهم لمطاردته وأنداك يهاجم بالجزء الأكبر من جيش المسلمين ويشتبك معهم في القتال في الأرض العراء (٢) .

وأقر النعمان خطة طلحة . وعهد الى القعقاع البطل ، بمهاجمة مواقع العدو على رأس رجاله من بنى تميم . وأدار العرب ظهورهم بعد معركة صورية متظاهرين بالهزيمة والقوضى واستخف النصر بالفرس ، الذين ثملوا بنشوة الظفر أخيرا ، فخرجوا من حصونهم ومعاقلمهم . يتقدمهم الرجال ، يلتقطون المسامير من حقول الغمام . ليطاردوا فلولا

---

(١) يشكك المؤلف في صحة أرقام المؤرخين المسلمين دون أن يورد سببا أو مبررا لتشكيكه مع أن المؤرخين يؤكدون أن جيش الفرس كان يبلغ ستين ألفا أو مائة ألف .

(٢) يبدو أن العرب كلنوا قد ألغوا مناورة استغراق العدو الى القتال ، منذ أيام الجاهلية . وابعوها في المارك التي خاضها النبي . وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم اذ قال تعالى في سورة الأنفال . . « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا ضحا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرقا لقتال او متحيرا الى ثمة ، فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم ، وبئس المصير » .

ويقول المؤلف ان وليم الفاتح ، قد استخدم الأسلوب نفسه في معركة هينتنجز ليخرج قوات الإنجليز والسكسون من حصونها لتخوض معه المعركة التي أدت الى فتح بريطانيا .

العرب المنهزمة وفجأة رأى الفرس أنفسهم يواجهون الجيش العربي الذى كان مختفيا عن النواظر . وفاتت فرصة التراجع ورتب الفرس صفوفهم للمعركة على أفضل شكل ممكن .

وعندما أمر النعمان رجاله بالهجوم ، هتف العرب بصوت واحد . .  
« اللهم انصر الاسلام وثبت كلمة المسلمين » واندفعوا كرجل واحد على أعدائهم . وكان النعمان يقف فى طبيعتهم ، حاملا راية القيادة بيده ويتقدم صفوف المهاجرين ، فأصابه سهم نفذ من خاصرته ، وسقط عن ظهر جواده . واختطف حذيفة بن اليمان الراية من يده ، وكان الخليفة قد أمر بأن يتولى القيادة فى حالة استشهاد النعمان ، فتولاها فعلا ، واشتد وطيس القتال ، وكثر عدد الضحايا وأخذت الجياد تتعثر بحث القتلى وتخوض فى بحر من الدماء وعندما حل المغيب كانت صفوف الفرس قد انهارت وركنوا الى الهزيمة . حتى ان بعضهم اضطر الى الهرب عن طريق الحقول الملأى بالمسامير التى زرعوها هم بأنفسهم وتحطم الجيش الفارسى بكامله أثناء عملية المطاردة ، وقتل القائد الفارسى إبان هربه .

وفرض العرب حصارهم على مدينة نهساند القريبة ، فاستسلمت للعرب الظافرين صلحا . وجمع العرب كثيرا من الغنائم بينها صندوقان مليتان بالذهب والحجارة الكريمة فبعثوا بهما الى الخليفة فى المدينة . وروى الرسول الذى حمل الانباء والمجسورات الى الخليفة انه جاء الى المدينة فوجد الخليفة وقد راث عنه الخبر ، وهو يتطوف المدينة . ويسأل ، فلما رأى قال : ويلك ما وراءك ! فحدثته بحديث الواقعة . فقال ما فعل النعمان ؟ قلت : قتل ، قال انا لله وانا اليه راجعون . ثم بكى ، فقلت : قتل والله ، فى آخرين لا أعلمهم ، قال : ولكن الله يعلمهم .

وعندما حدثه الرسول عن الصندوقين أمر الخليفة بوضعهما فى بيت مال المسلمين ولكن وجود هذه الثروة الطائلة أثقل على ضمير الخليفة . فلما أصبح الصباح استدعى الرسول وقال له : اذهب بهما فبعهما . ثم اقسم ثمنهما بين المسلمين وهكذا بعد أن تخلص فى رأيه ، من هذه الثروة التى تعود الى الحكومة بمثل هذه الطريقة الناجحة عاد الرجل الشيخ الطيب ، الى أعماله اليومية مرتاح البال مطمئن الضمير دون أن يخشى حسابا من أحد .

ولعل هذا الحادث ، اذا صحت روايته يعتبر مهما وطريقا . اذ يظهر تمام الظهور بساطة الاجراءات الادارية فى الامبراطورية الجديدة ، حتى بعد تسع سنوات من انتصاراتها الدائمة الأمتداد . فلقد كانت موارد

الدولة المالية لا تزال تسلم شخصيا الى الخليفة فى بيته المتواضع المبني من الطين والقائم بجوار المسجد . ويبدو انه كان يشعر ببعض الاضطراب فى فكره وضميره من جراء التمييز بين ما يملكه ، وما تملكه الدولة . وكان يحس بالالام من رؤيته هذه الكنوز الضخمة فى حوزته . ولعل من الطريف أن يلاحظ المرء هنا ، أنه امر الرسول بحمل هذه الجواهر بعيدا دون أن يفكر فى أخذ ايصال منه ، أو بتسجيلها فى حساب . وليس غريبا أن بعض القواد العسكريين العرب وبعض أمراء المقاطعات قد غدوا أثرياء . ولعل من الجدير بنا أن نلاحظ أيضا أن الرسول عاد يحمل هذا الكنز فيقطع الجزيرة العربية كلها عرضا . وهى ملأى بالقبائل التى اشتهرت من قبل ومن بعد بميلها الى السلب ، دون أن يذكر المؤرخون أن الرسول كان مصحوبا بحرس أو متخذاً أية احتياطات أخرى (١) .

(١) هذا هو التشويه بعينه ، بل هذا هو التضليل . فالمؤلف يريد أن يظن في القادة المسلمين الاول وفي أمراء الامصار ، وأن يشوه سمعتهم متعيا اياهم بالثراء على حساب بيت مال المسلمين ، كما يمضي في تشويهه وتضليله فيظن القبائل العربية كلها بتهمة الميل الى السلب .

والرد على المؤلف بسيط ، فالمعروف أن الخلفاء كانوا يولون قيادة الجيوش وامارة الامصار الى الصحابة الاول . وهم معروفون بتقاهم وتمسكهم بالاسلام الذى يحول بينهم وبين ابتزاز مال المسلمين ، يضاف الى هذا أن الخليفة كان دقيقا وشديدا في محاسبته لعماله حتى ضرب المثل بشدته وكان يأخذ منهم أموالهم الخاصة التى كسبوها بجهودهم وجهادهم لمجرد الاشتباه . والامثلة على ذلك أكثر من أن تعد وتحصى أما اذا كان بعضهم قد اغتنى قليلا فان ثروته لم تجمع من ابتزاز أموال المسلمين وإنما من حصتهم في غنائم الحروب ، ومن اتجارهم بالأموال التى جمعوها (٢) .

أما بالنسبة الى القبائل العربية ، فقد يكون رأى المؤلف فيها صادقا بالنسبة الى أيام الجاهلية أو الى الأيام الأخيرة . بعد أن ضعف احساس أفرادها بالاسلام أما في تلك الأيام ، أى في صدر الاسلام ، فلم يكن هناك نهب أو سلب مطلقا . لعوامل عدة منها قوة الاسلام في نفوس العرب ، وهى القوة التى ثبت وجودها بالفتوحات العظيمة التى حققها ، ومنها قوة الحكم الاسلامى الذى يمنع السلب والنهب .

ولعل خير ما تكمل به هذا التعليق أن نذكر أن الرسول الذى حمل المجوهرات كان يلقى السائب بن الاقرع ، وهو من الانصار ومن صحابة رسول الله فهو مؤمن عند النعمان بن مقرن الذى حمله الصندوقيين ومؤمن عند الخليفة الذى أعاده بالصندوقين ليتولى بيعهما ولوزيع ثمنهما على المسلمين . وهذا الائتمان نفسه هو بمثابة ايصال أو حساب ، ولا ريب في أن معرفة العرب بأنه رسول الخليفة حماية له أقوى من حماية الحرس والجند وقد عاد بالصندوقين كما يؤكد المؤرخون العرب الى الكوفة فبأمرهما الى سلب من قرش يقال له عمرو بن حريث اشتراهما بأطية الدرية ، والمقاتلة . ثم انطلق بأحدهما الى الحيرة فباعه بما اشترى به الصندوقين وفضل الآخر لديه فكان ذلك أول لهوة مال اتخذها .

(العرب)

وعاد الرسول بالمجوهرات الى الكوفة ، فباعها الى شاب من قریش  
وعاد الشاب فبّاع أحد الصندوقين فى الحيرة بالثمن الذى دفعه هو  
للصندوقين محتفظا بالآخر ليبيع محتوياته جوهرة جوهرة • وقد مكنته  
الصفقة من أن يضع حجر الزاوية لثروة طائلة جمعها ، ويبدو من هذا ان  
ضماائر المسلمين جميعا ، لم تكن كضمير الخليفة بالنسبة الى موضوع  
الثروات الدنيوية (١) •

واحتل العرب مدينة همدان بعد معركة نهاوند ، وهى المدينة التى  
اشتهرت باسم «اكباتانا» فى التاريخ القديم ، ولم يستطع الفرس بعد  
نهاوند أن يجمعوا جيشا يدفعون به الى الميدان لحوض معركة أساسية •  
وتبدو أهمية هذا النصر النهائى ، من الحقيقة الواقعة وهى ان العرب  
أطلقوا على معركة نهاوند اسم «فتح الفتوح» • ولقد كان من سوء طالع  
يزدجرد ، انه ارتقى وهو لا يزال غلاما عرش امبراطورية كانت تسير فى  
طريق الهزيمة والانحلال • وقد لجأ الملك الى مدينة الرى بعد موقعة  
نهاوند • وهى مدينة لا تبعد كثيرا عن طهران الحالية من ناحية الجنوب •  
وكان داريوس الثالث قبل نحو من ألف عام قد سار على نفس هذا الدرب  
عندما كان فارا أمام جيوش الاسكندر الذى لا يقهر •

وكان عمر بن الخطاب قد بكى لموت النعمان بن مقرن ، واختار  
أخاه نعيما لتولى قيادة جيش نهاوند جريا على ما ألفه العرب من أن يقوم  
قريب القتيل بأخذ الثأر لقريبه •

ولعل من الاضواء الكشافة البارزة التى يمكن تسليطها على روحية  
العرب فى هذه الايام الاولى من الفتح ، هى الطريقة العرضية المرتجلة التى  
كان الخليفة يتبعها فى موضوع الاقدمية بين قادة الجيش • فلقد سبق لنا  
ان رأينا كيف أقال عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، الذى كان قد بلغ  
من الشهرة ما لم يبلغه أى قائد آخر فى عصره ، ومع ذلك فقد ظل خالد  
يعمل تحت أمرة أبى عبيدة بل وتحت أمرة عياض بن غنم وهو قائد كان  
مغمورا حتى ذلك الحين • وأذا صحت الروايات التاريخية فان النعمان بن  
مقرن كان حتى وقت قصير يعمل فى الاهواز تحت أمرة أبى موسى

---

(١) كيف يسمح مؤلف مثل هذا يدعى الموضوعية لنفسه ان يجعل من حادث فرد  
واحد وسيلة لاصدار حكم عام على ضماائر العرب كلهم • ان مثل هذا القول لا يعبد  
المؤلف من الموضوعية التى يدعيها لنفسه فحسب ، بل يحكم عليه حكما قاطعا بالهوى  
والفرض والتحامل على العرب ومحاولة تشويه تاريخهم القديم بعد ان شوه تاريخهم  
الحديث •  
(العرب)



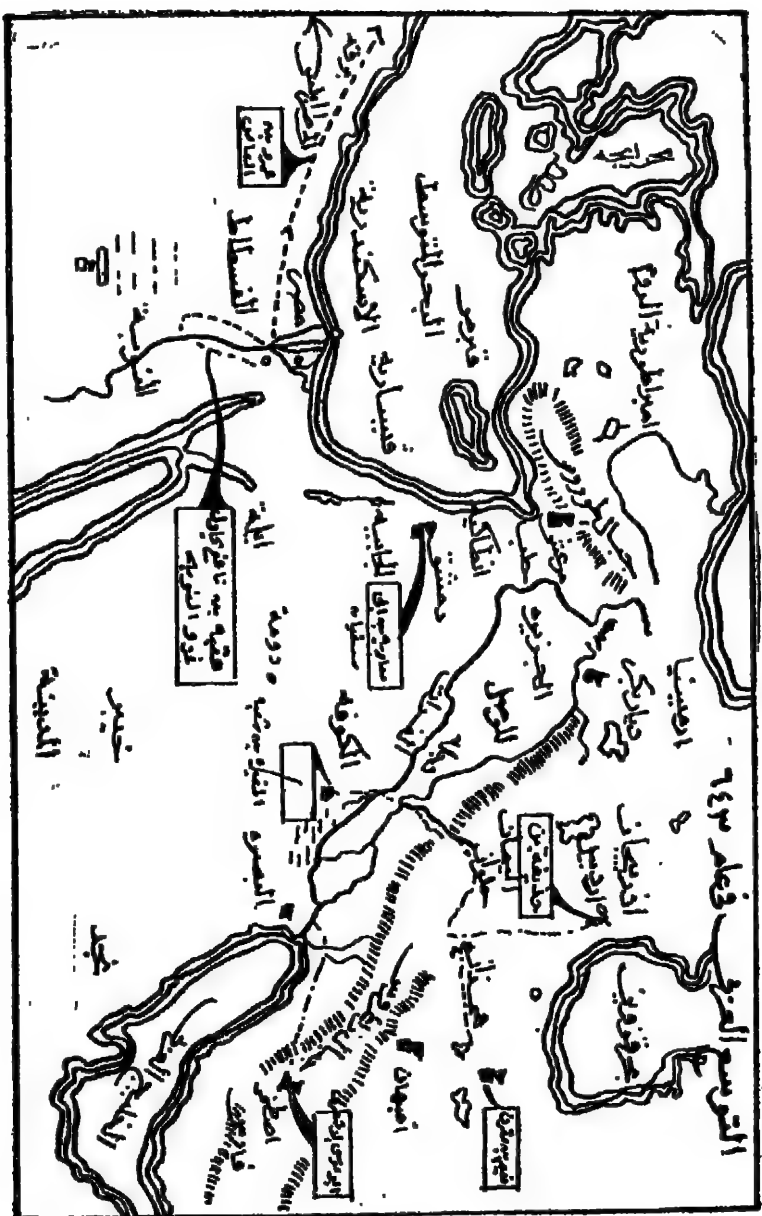
الاشعري . وذلك قبل توليته القيادة العامة للجيش الذي خاض معركة نهاوند . وعلى الرغم من هذه الحقيقة فإن الخليفة أمر قسوة من الاهواز بالتوجه الى نهاوند لنصرة النعمان وكان على رأسها أبو موسى الذي غدا الآن مروسا للنعمان . بعد أن كان قبل فترة قصيرة رئيسا له .

ولعل أهمية هذه الحوادث تتركز في الحقيقة الواقعة وهي ان الغيرة الشخصية تعتبر من أهم مظاهر الضعف في الشخصية العربية . وحتى في يومنا هذا فإن المنافسات وعوامل الغيرة والحسد بين القادة المختلفين في الجيوش العربية النظامية تولد مصدرا دائما للقلق عند حكوماتها . وقد قدر لهذه العوامل أن تتفجر ثانية قبل انقضاء سنوات طويلة على وفاة عمر بن الخطاب ، وهو تطور يساعدنا على تأكيد ما تميزت به أيام الفتح الاولى من حماسة مثالية ، وإخلاص لا مثيل له . ولقد كانت هذه الروح العامة قوية في تلك الايام الى الحد الذي مكن الخليفة لا من حرمان القادة الظافرين من الثروات التي جمعوها فحسب ، بل ومن اهمال أقدمياتهم وخدماتهم السابقة عند حملهم على اطاعة بعضهم البعض .



كان عمر بن الخطاب قد أمر سعد بن أبي وقاص بعد معركة المدائن بعدم القيام بأية محاولة لاجتياز جبال زاغروس . وقد بين في رسالته له ان سهول العراق الخصبة كافية للعرب ، وان الجبال تؤلف حدا صالحا بينهم وبين الفرس ، كما تؤلف اليوم بالفعل . ولكن يزدجرد ، كما ظهر لنا ، لم يكن راضيا عن قبول مثل هذا الحل الوسط . فعندما أخذ يجند الجيوش راح سعد ينقل الى الخليفة نيات كسرى في استعادة العراق . وهكذا رأينا العرب يضطرون الى ايفاد جيش جديد قابل لجيش كسرى وهزمه في نهاوند . وهكذا وجد العرب أنفسهم أيضا سواء أشاء الخليفة أم لم يشأ ، وراء جبال زاغروس . وكان من المحال أن يقفوا عند هذا الوضع ، أو ان عمر لم يرغب بدوره في وقفهم الآن . بعد أن أدرك ان آخر جيش فارسي قد تحطم ولذا عاد يرسل تعاليمه الجديدة الى قادته في فارس ، أمرا اياهم بمطاردة العدو بلا هوادة ولا اشفاق الى أى مكان يفر اليه .

وقد تراجع يزدجرد الشاب الى الري ، يتبعه نعيم بن مقرن . بينما عاد أبو موسى الاشعري الى الاهواز وإلى متابعة غزوه لامارة فارس . وكان اسفنديار شقيق القائد رستم الذي قتل في القادسية منصرفا الآن عند سواحل بحر الخزر (قزوين) الجنوبية الى جمع قوات جديدة تحارب دفاعا



عن الملك • وسارح نعيم بن مقرن الى ملاقاته حيث نشبت معركة جديدة الى الجنوب من الري في عام ٦٤٣ هزم فيها اسفنديار وأخذه أسيرا بعد أن تفرق جيشه بددا • وأحس القائد الفارسي اسفنديار باليأس من نجاح الفرس ، فتحول الى جانب العرب • وأخذ منذ ذلك الحين يعينهم في عملياتهم • واتجه يزجرد بعد ذلك نحو الجنوب ولجأ الى مقاطعة اصبهان (أصفهان) وصدرت الاوامر في غضون ذلك الى حديفة بن اليمان ، الذي تولى القيادة في نهاوند بعد مقتل النعمان بالتوجه لغزو اذربيجان •

مازال اسم الرومان ، الذي كان البيزنطيون لا يزالون يستعملونه حتى تلك الايام مرتبطا في أذهاننا بما في الحكم الجمهوري من فضائل بينما نتصور ملوك فارس القديمة طغاة شرقيين يدقعون الى المعارك للقتال نيابة عنهم عشرات الألوف من العبيد الارقاء الذين لا حول لهم ولا طول • لكن سير الفتوحات العربية لا يؤيد صحة هذا الاغراق في تبسيط الامور فما كادت جيوش الروم تهزم حتى كان سكان سوريا وفلسطين ومصر يحنون رؤسهم خضوعا للنير العربي • ويبدو أن الحكم في الامبراطورية الرومانية كان متمركزا في القسطنطينية • فاذا ما توقف الامبراطور عن المقاومة أضحت الامارات مشلولة عاجزة • ولم تشهد جماعات تنبض بالحياة تقاوم مقاومة محلية احتمال فقدها استقلالها • أما في فارس ، فكان الوضع مختلفا تمام الاختلاف ، اذ على الرغم من ان الشاهنشاه هو الرئيس الاعلى من الناحية الرسمية ، الا ان نظام الحكم كان الى حد ما اقطاعيا • وكان النبلاء المحليون يملكون من السلطات في اماراتهم • مامكنهم في حالات كثيرة من اطالة المقاومة ، حتى بعد أن غدا الشاه لاجئا طريدا •

وهناك بالتأكيد عوامل أخرى أسهمت أيضا في استمرار الصراع في فارس مدة طويلة بعد الاعتراف بالحكم العربي اعترافا كاملا في مقاطعات شرق البحر المتوسط • وأول هذه العوامل كما اعتقد وجود الجبال في فارس وهي عقبات توقف في كل مكان أو تعرقل على الاقل سير الزحف العربي • وثاني هذه العوامل أن تسلل العرب القديم العهد من الجزيرة العربية الى سوريا وفلسطين والعراق ، قد أمن للفاتحين العرب أعداء ليسوا صلابا في عدائهم • ان لم نقل بحلفاء من رجال الطابور الخامس ، أما الفرس المقيمون الى الشرق من جبال زاغروس ، فلم تكن لهم أية صنات عنصرية على الاطلاق لا مع العرب ولا حتى مع مجموعة الشعوب التي نسميها أحيانا بالمتوسطية ، ومن هنا كان اخضاع الفرس أكثر مشقة وعناء على العرب من اخضاع غيرهم • كما كانوا من أوائل الشعوب التي ثارت على سيطرة العنصر العربي •

ولكن على الرغم من أن القدر شاء أن تستمر المقاومة الفارسية المحلية، بضع سنوات أخرى إلا أن الشاه لم يستطع ثانية تجهيز جيش قوى لخوض القتال ، واتخذت عمليات العرب في فارس بعد معركة نهاوند شكل عمليات ضغط بطيئة ومستمرة في عدة مناطق متفرقة واسعة ولكن دون أية معارك حاسمة أو حملات دراماتية من النوع الذي يستأثر باهتمام المؤرخ أو يلهب حماس الشاعر أو الانسان الوطني . وكان العرب يتقدمون في كل سنة عدة أميال الى الامام وتسقط في أيديهم عدة مدن بعد حصارها أو بعد ثورتها . كما كان عدد من الزعماء المحليين يتحول الى جانب العرب في كل عام . ويكفى أن نقول هنا ان العرب استولوا على اصبهان في عام ٦٤٣ بعد أن وافق أهلها على دفع الجزية والخراج .

وكانت خطوط مواصلات العرب قبل معركة القادسية تمر كلها على الرغم من طولها الذي يبلغ ستمائة ميل عبر الصحارى العربية نفسها أما الآن فقد بات طولها يبلغ ألفا أو ألفا ومائتين من الاميال عبر أراض معادية ، وانهار عظمة وسلاسل جبلية شاهقة ، وعبر ممرات تغطيها الثلوج معظم أيام السنة . وإذا ما نظرنا الى اتفاقات الصلح التي عقدت في هذه الآونة ، وجدنا انها تضمنت بنودا تنص على أن يقدم الفرس الى القوات العربية التي تمر بهم المأوى والغذاء . وكان كل من يهاجم عربيا يتعرض لعقوبة الموت . وكان الفرس الذين عقدوا اتفاقات مع العرب ، قد حصلوا على موثيق تؤمن لهم حقوقهم أما اذا ثبتت عليهم تهمة الاعتداء على المسلمين فانهم يعرضون أنفسهم لعقوبة اخماد ثورتهم بالقوة . وإلى الغاء الاتفاق الذي سبق لهم ان عقده مع العرب ، وإلى التعرض لوضع الاستعباد بلا قيد أو شرط وقد ضمن العرب بهذه الاجراءات سلامة مواصلاتهم دون الحاجة الى وحدات عسكرية ينشرونها هنا وهناك لحماية هذه المواصلات .

وكان يزدجرد قد انسحب قبل سقوط اصبهان الى مدينة اصطخر التي يسميها الغربيون بيرسوبوليس ، والتي كان أبو موسى الاشعري الزاحف من الاهواز يحاول عبثا احتلالها . وكان حظ حذيفة بن اليمان أسعد طالعا كما يبدو على سواحل بحر الخزر الغربية فعندما غزا اذربيجان الفارسية واجه مقاومة من القوات المحلية التي قادها الزعيم الاقطاعي في المقاطعة ويسمى المرزبان . ولكنه ما لبث ان تغلب عليها في المعركة واحتل عاصمتها اردبيل . وهنا مال المرزبان الى التصالح مع العرب ورافق على دفع الجزية والخراج ، وهناك رواية أخرى تنسب هذا الفتح

الى المغيرة بن شعبه الذى كان قد غدا أميرا للكوفة كما سنرى بعد قليل . وهاتان الروايتان على أى حال متفقتان وغير متناقضتين اذ أن جيش حليفة كان تابعا للكوفة . ولهذا فان تبعيته كانت ولا شك لأمير الكوفة . لكن احتلال المنطقة الاول كان غير كامل كما يبدو . اذ سرعان ما ثارت اذربيجان فى عام ٦٤٥ ، وتطلبت ثورتها اعادة احتلالها ثانية .



وبينما كانت الجيوش العربية تنتشر على هذا النحو كالمروحة فى جميع أنحاء فارس لم تكن الامور سائرة سيرا طبيعيا فى قاعدة العرب الانسانية فى الكوفة . ولقد رأينا فيما مضى كيف أن عمر بن الخطاب اتخذ قرارا سياسيا كبير الاهمية ، عندما وجد أن العرب باتوا بصورة غير متوقعة حكام سوريا والعراق . فلقد قضى بأن يظل الفلاحون فى كل بلاد محتلة شاغلين لأراضيهم على أن يستمروا فى فلاحتها وان يدفعوا الضريبة عنها ، وكان من رأيه ألا يستوطن العرب الارض ويفلحوها بل أن يظلوا عنصرا عسكريا مسيطرا مرتكزا على قواعد العسكرية وقادرا فى كل لحظة على محاربة المشركين والكفار . وأدت هذه السياسة الى انشاء القواعد العسكرية فى الكوفة والبصرة فى العراق والجابية الى الجنوب الغربى من دمشق ، والفسطاط فى موقع مدينة القاهرة الحالية .

ولكن حياة القواعد العسكرية مساوئها ، وهذا ما اكتشفته الدول الاستعمارية الاخرى فالجنود فيها يظلون فى معزل عن أهل البلاد . ويؤدى عالم المعسكرات الضيق الى المناقسات والى التحزبات الضيقة المحصورة . وقد ساعد على هبوط الروح المعنوية فى المعسكرات العربية ، ما عرف من البدو من طبيعة انطلاقية تأبى الانضباط وتتعشق الصخب ، وما أدى اليه ازدياد ثرائهم من استرخاء وخمول . وقد تحطم ما عرف عن عرب الصحراء من قسوة على العيش واحتمال للمكاره ، من جراء اغراقهم الآن فى حياة الجنس مع الجوارى من الأسيرات اللاتى لاعد لهن ولا حصر ومن جراء حياة البطالة التى دأبوا الآن على عيشها فى عصر لم يكن التدريب العسكرى فيه معروفا أو معتبرا من الضرورات .

وكانت الكوفة أكثر القواعد العسكرية العربية اضطرابا وشغباً . وهى القاعدة التى أنشأها سعد بن أبى وقاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب فعندما احتل سعد المدائن بعث الى الخليفة يشكو له من البعوض فيها ، ومن تأذى الناس به فكتب اليه عمر يقول : «ان العرب بمنزلة الابل لا يصلحها الا ما يصلح الابل ، فارتد لهم موضعا عدنا ، ولا تجعل بيني

وبينهم بحرا • وتم اختيار موقع للكوفة لاقامة دار الهجرة فيها على ضوء هذه التعليمات • وكان الجانب الشرقي من البلدة الجديدة ، وهو أفضل الجانبين من نصيب أهل اليمن ، بينما كان الجانب الغربي من نصيب قبائل الشمال • وقد روى المؤرخون العرب أن أهل اليمن كانوا يعدون اثني عشر الفا وان ابناء الشمال كانوا يعدون ثمانية آلاف •

وبينما كانت الجيوش العربية التي تستخدم الكوفة قاعدة لها منتشرة في أرجاء فارس في صحار وجبال تتولى فتحها ، كانت الدسائس تحاك بين الجنود في القاعدة نفسها • وتقول الروايات أن بعض المخبرين من أهل الكوفة مضوا الى المدينة يسعون بسعد بن أبي وقاص ويشكون منه وهو قائدهم العام وحاكمهم • وكان سعد قد ابتنى له دارا يسميها العرب قصرا • وقد جعلها في وسط القاعدة التي أخطها • ولكن القاعدة تحولت الآن الى مدينة • وأصبح ضجيج الناس في طرقاتها يضايق الامير كما يضايقه كثرة الوافدين من الزائرين وأصحاب الحاجات ، والمتطفلين الذين لاهم لهم الا ولوج البيت والخروج منه • وكان سعد يتأفف من عجزه عن بحث المسائل العامة مع ضباطه ورجاله ، بسبب هذه الضجة والفوضى • ولذا فقد أقام على بيته سياجا من القصب يحيط بالفناء ويفصل بين واجهة البيت وبين الجماهير في الشوارع • ولكن الروشة سرعان ما سعوا به الى الخليفة في المدينة ، زاعمين أن الامير قد أقام السياج ليعزل نفسه عن الرعية ، دليلا على تعجرفه وتعلقه بالدنيا • وزعم البعض الآخر للخليفة ان سعدا لا يحسن اقامة الصلاة بالناس على الطريقة الاسلامية الصحيحة فأوفد الخليفة رجلا يدعى محمد بن مسلمة ليحقق في شكاوى الناس وهو غني الرجل الذي كان عمر قد أوفده لمصادرة أموال عمرو بن العاص في مصر ، فقام محمد باحراق السياج المحيط بالفناء وسلم الى سعد رسالة من الخليفة يقول له فيها بأنه قد سمع بأنه بنى لنفسه قصرا أسماه قصر سعد وأقام عليه بابا يحول بينه وبين الرعية ، لكن هذا القصر ليس الا قصر الجنون وطلب اليه أن يخرج منه وان يخلقه وألا يجعل بينه وبين الناس بابا • وألا يحول بينهم وبين حقوقهم ، أو يمنعهم عن الوصول اليه الا اذا خرج هو اليهم •

واذا ما استثنينا موضوع السياج والباب • فان محمد بن مسلمة لم يجد أي أساس للوشايات التي نقلت الى الخليفة عن سعد بن أبي وقاص وان كانت تهمة البقاء في القصر ابان معركة القادسية وعدم الاشتراك فيها قد عادت الى الظهور • وعلى الرغم من عدم ثبوت أية جدية على سعد ، فان الخليفة أمر بعزله عن امارته في عام ٦٤٢ وولى مكانه رجلا يدعى عمار

ابن ياسر . ويقول أحد المؤرخين العرب أن عمر سئل ذات يوم عن أسباب نجاحه في حكم العرب فرد بأن نجاحه يعزى الى تغييره لعماله وقادة جيوشه ويبدو لي أن عمر كان يخشى من أن تزداد قوة أى قائد عسكري ناجح . ولذا كان يقبل على عزل قادته العسكريين الاكفاء بعد أن يحققوا انتصاراتهم الضخمة (١) .

ولكن اذا كان عزل سعد كبير الاهمية فان تعيين عمار بن ياسر يمكن ان يعتبر شيئا مضحكا . ولعل القارىء يذكر أنه عندما شرع النبی في نشر دعوته في مكة حاولت قريش مقاومته بالجوع الى اساليب العنف . وكانت المشاعر القبلية من القوة بحيث تحول بينهم وبين

(١) استنتاج خاطيء كل الخطأ ولعل القول بأن عمر بن الخطاب لم يعزل سعدا من امارته الا بعد انتفاض اكثر من أربع سنوات على انتصاره في القادسية وهى معركة الكبرى دليل على خطأ الاستنتاج الذى توصل اليه المؤلف . يضاف الى هذا حقيقة اخرى وهى أن عمر كان من أقوى العرب شخصية . ولم يكن من الخلفاء الضعفاء الشخصية الذين قد يخشون ظهور قائد ناجح يعمل تحت امرتهم . ولعل قوة شخصيته كانت تبرز بوضوح في أن اوامره يعزل قائد أو أمير أو محاسبه أو مصادرة امواله لم تكن تنفذ في مظاهرات عسكرية تقوم بها جيوش أو وحدات بل بمجرد رسالة من الخليفة يحملها رسول عزول .

ولقد سبق لنا أن علقنا على عزل خالد لما عزل سعد لجهاد نتيجة الوشايات الكثيرة التى نقلت الى الخليفة عنه ، وعلى الرغم من ثبوت كذبها للخليفة كما سأردى بعد قليل ، فانه رأى من الحكمة عزل سعد ، بعد أن لحقت الشبهات بامارته نظرا لانهذا أضعفت من مركزه أمام الرعية .

روى جابر بن سمرة أن أهل الكوفة سمو بسعد بن أبى وقاص الى عمر وقالوا انه لا يحسن الصلاة فقال سعد . . أما أنا فكنت أصلى بهم صلاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا أكرم منها ، أؤكد في الاوليين وأحذف الآخرين ، فقال عمر : ذاك الظن بك ياأبا اسحق فأرسل عمر رجلا يسألون عنه بالكوفة ، فجلسوا لايتأتون مسجدا من مساجدها . الا قالوا خيرا واثنا مرفوفا ، حتى أتوا مسجدا من مساجد بنى عبس فقال رجل منهم يقال له أبو سعد . « أما اذا سألتمونا عنه فانه كان لايقسم بالسوية ولايعدل في القضية » . قال : فقال سعد : « اللهم ان كان كاذبا فأطل عمره وادم فقره وأعم بصره ، وعرضه للفتن » ، قال عبد الملك فانا رأيت تعرض للاماء في السكك فاذا قيل له : كيف انت ياأبا سعد . قال كبير مفتون اصابتنى دعوة سعد .

وروى الشعبي ان عمرو بن معد يكرب الزبيدي وفد على عمر بن الخطاب فسأله عن سعد وعن رضاه الناس عنه ، فقال تركته يجمع لهم جمع اللرة ويشفق عليهم شفقة الام البرة ، اصابى في تمرته ثبى في جبايته ، يقسم بالسوية ويعدل في القضية وينفذ بالسرية ، فقال عمر : كأنكما تقارضتما الثناء . وقد كتب سعد كتب يثنى على عمر وقال : يا أمير المؤمنين ولكنى أثبتت مما أعلم . ( العرب )

اضطهاد اخوانهم من ابناء بيوتات قريش ، حتى ولو تحولوا الى الاسلام ، ولكنهم كانوا ينفثون سحوم حقدهم وغضبهم على الارقاء وعلى الذين لا عصبية قبلية لهم . وكان عمار بن ياسر من العبيد الارقاء . وكان من اوائل الذين آمنوا بدعوة النبي ومن الذين عانوا من اضطهاد قريش ، اشد العناء . وقد انقذه منهم ابوبكر الثرى بعاله ، فابتاعه ثم اعتقه ، ليعيش بعد ذلك في حياة من التقوى والورع والتزمت حتى كان قد طعن سنه وشاخ . ولقد اهلته تقواه ومكانته كأحد المسلمين الاوائل عند الخليفة على الاقل ، لمنصب امارة الكوفة . . ولكن اهل الكوفة الذين تخلصوا من سعد بن ابي وقاص المعروف ببأسه وعزمه ، لم يجسدوا صعوبة في الخلاص من ياسر هذا العجوز الضعيف الذي لم يكن قد خبر الحكم او المسؤولية بأية صورة من الصور . وسرعان ما كانت وفود اهل الكوفة تشكوه الى الخليفة متهمة اياه بالضعف والجهل بالسياسة فعزله وقال : من عذيري من اهل الكوفة ، ان استعملت عليهم القوى فجزوه وان وليت عليهم الضعيف حقروه ؟

ويذكر القارئ ولا شك ان المغيرة بن شعبه كان اميرا في البصرة . وكان الخليفة قد عزله عنها لتهمة وجهت اليه وان لم تثبت عليه . وكان المغيرة متميزا بالصلابة والشدة بدين الجسم مترهله ، اعور العين قاس لا يرحم . وقال له الخليفة . . . ان ولينك الكوفة اتعود الى شيء مما قرئت به . فقال « لا » فولاه عمر الكوفة ونجح في البقاء بمنصبه عامين حتى توفي عمر ، وعاد اهل المدينة الى اظهار طبيعتهم المشاغبة .

وقد عانى امراء المقاطعات وحكام الامصار الكثير في خلافة عمر . اذ كان الخليفة على استعداد لفتح اذنيه والاستماع الى الوشاة والمخبرين الذين كانوا يهرعون دائما الى المدينة للنيل من مركز كل ذي سلطان ونفوذ في مقاطعاتهم وقد بذرت هذه الاساليب بدور الخلاف التي لم يقدر لها ان تنمو الا بعد وفاة عمر وكادت تعصف بالامبراطورية العربية الناشئة .

ظلت سوريا وفلسطين هادئتين في عامي ٦٤٢ و ٦٤٣ وكانت بعض الاشتباكات الفردية تقع بين آونة واخرى على حدود ارمينيا وفي جبال طوروس . وقد قدر لها ان تستمر بضع سنوات . ولكن توسع العرب باتجاه الشمال الغربي كان قد بلغ في الواقع اقصى منتهاه . وكان سكان سوريا وفلسطين قد اخذوا الى السكينة في ظل الحكم العربي تحت امرة حاكمهم الجديد معاوية بن ابي سفيان .



لكن الفتوحات العربية استمرت في افريقيا على اى حال . فبعد أن استقر الأمر للمسلمين في الاسكندرية تطلع عمرو بن العاص الكثير الحيوية والحركة الى صحراء برقة وكان الشمال الافريقى كله من الاطلسى حتى حدود مصر جزءا من الامبراطورية الرومانية وهى فى اوج سلطانها . ولكن عندما اخذ نجم الامبراطورية الفريية فى الافول فى القرن الرابع للميلاد عبرت قبيلة الفاندال وهى من برابرة الشمال ، البحر عند مضيق جبل طارق من اوربا الى افريقيا واستولت على قرطاجنة . وقد اقام الفاندال لهم مملكة مستقلة امتدت من ارض الجزائر الحالية الى برقة وتبعث لها جزر ميورقة ومنورقة وكورسيكا وسردينيا . ولكن الامبراطور البيزنطى جوستنتيان عاد فى عام ٥٣٢ للميلاد فبعث بجيش احتل قرطاجنة . وتمكن البيزنطيون بقيادة بيلزاريوس المشهور وأحد القادة القلائل الذين عرفتهم رومة فى عهد انحلالها . من هزم الفاندال واستعادة الشمال الافريقى للممتلكات البيزنطية . وكان أهل هذه البلاد مزيجا من اقوام مختلفة . فيبينهم القرطاجيون القدامى ، والرومان والبيزنطيون والفاندال الذين سيطروا على السهول الساحلية وأقاموا فيها . أما جبال الداخل فكانت مأهولة بقبائل البربر ، أصحاب البلاد الاصليين الذين رفضوا ان يذوبوا فى الاقوام المتعاقبة التى احتلت سواحل بلادهم . (١) ومن هذه المنطقة بالذات خرج هرقل فى حملته التى أدت الى الاطاحة بحكم فوكا وتسلمه عرش الامبراطورية البيزنطية .

وقد توغلت جيوش كسرى ابرويز فى عام ٦١٩ بعد احتلال مصر باتجاه الغرب فوصلت الى طرابلس الغرب دون ان تلقى كما يبدو اية مقاومة فعالة . ولقد كانت مصر احدى دعائم الامبراطورية البيزنطية الاساسية تزودها بغنائمها وبالكثير من عائدات دخلها . وكانت تقيم الاود لسكان يعدون ستة ملايين أو سبعة ، وفيها عدد من أكثر المدن تحصينا ومناعة . وكانت كثرة اقية الرى وفروع النيل فيها تجعل العمليات العسكرية شاقة وصعبة . كما كان فى مكتة الاسكندرية نفسها لو تولى الدفاع عنها قوم مصرون على الدفاع ان تتحدى أى جيش من جيوش ذلك العهد عدة سنوات . وهكذا فان احتلال ليبيا بالنسبة الى أى جيش فاتح استطاع ان يحتل مصر ، اشبه بنزهة أو لعبة اطفال . وقد

(١) يبدو أن المؤلف جهل أو تجاهل الحقيقة التى ألفتها كثير من المؤرخين . وهى ان قبائل البربر في شمال افريقيا قبائل عربية الاصل أو سامية على الاقل . وانها هيبت ارض المغرب العربى قادمة من الشرق .  
(المغرب)

اقام عمرو بن العاص الدليل على صحة هذه النظرية ففي ربيع عام ٦٤٣ احتل برقة دون أية مقاومة . بعد أن وافق أهلها على دفع الجزية والخراج ولعل من الغريب كل القرابة ان الاتفاق الذي عقده العرب مع أهلها تضمن بندا ينص على أن ترسل الضرائب طوعا ودون اكراه الى مصر والا يصل الى برقة أى جاب عربى من جباة الضرائب لجمعها .

ولكننا لانلبث أن نرى عمرو بن العاص ، بعد توقيع الاتفاق يبعث الى الخليفة كتابا يعلنه فيه انه قرر جباة العشر ونصف العشر من ارض المسلمين والجزية المألوفة من أهل الذمة ، ومن غير المسلمين . ويشرح لنا ياقوت الحموى هذه الرواية اذ يوضح بصراحة أن معظم اهل برقة اعتنقوا الاسلام بعد فتحها . ولا ريب في ان هذه النقطة في منتهى الأهمية ، فالترحاب الظاهر الذى لقيه العرب فى الصحراء الغربية وفى برقة دليل واضح على أن معظم سكان هذه المنطقة كانوا من العرب . وليست هذه الفكرة بعيدة عن التصديق مطلقا . فالصحراء الغربية شبيهة بالصحارى العربية وهى تتباين تباينا كبيرا مع جو مصر الرطب وترتبتها الغربية الخصبة النابعة من دلتا النيل . ولم نسمع قط عن وصول العرب الى هذه المنطقة من قبل كفرة وفاتحين ولكن لا يستبعد إطلاقا أن يكونوا قد وصلوا اليها على شكل قبائل هاجرت من الجزيرة العربية وتسالت الى الصحارى الليبية قبل هذا التاريخ . والنتيجة الطبيعية لهذا الافتراض هو أن يكون الفاتحون المسلمون قد تبينوا بعض الدلائل على قرابتهم من الليبيين وان هؤلاء نتيجة هذه القرابة وصلوا الى تفاهم سريع مع أبناء عموماتهم الأبعدين . ويتعزز هذا الاحتمال بما أورده كتاب الرومان والاعريق ومؤرخوهم الاقدمون من أمثال ديوروس صقليوس وبطليموس وسترابو وبلينى الذين يذكرون وجود اقوام عربية فى صحارى مصر . ولكن اذا صح أن هؤلاء الاقوام قد نبثوا من اصل عربى فانهم ولا شك كانوا قد فقدوا لغتهم الاصلية وشخصيتهم قبل الفتح الاسلامى .

وكان الوضع فى طرابلس مختلفا على أية حال ، فلقد كانت المدينة محصنة وفيها حامية بيزنطية ، اغلقت على نفسها ابواب المدينة فى وجه العرب . والمدينة مفتوحة من ناحية البحر الذى يسيطر عليه اسطول البيزنطيين . وكان فى مكنتها ان تقاوم عدة سنين لو تعزز دفاعها بوصول نجدات قوية اليها . ولكن الدسائس والمنافسات بين رجال البلاد كانت تمزق القسطنطينية كما رأينا من قبل . وكان من الطبيعى ألا تهتم العاصمة وهى على هذا الحال بأمر الامارات النائية . على أى حال ،

تمكن عمرو بن العاص بعد حصار استطال عدة أسابيع عجز ابانها عن اقتحام الاسوار من ان يجد ثغرة بين التحصينات والبحر نفل منها الى المدينة في شهر يونيو ( حزيران ) عام ٦٤٣ وتمكن عدد من أهل النجدة من اقتحام هذه الفجوة والدخول الى المدينة على طول الساحل هاتفين صارخين « الله أكبر الله أكبر » واحتلوها عنوة .

واقترح العرب بلدة أخرى تدعى صبرة . ثم عاد عمرو فاستدار الى برقة . ويقول بعض المؤرخين أن عمرا كان يود أن يواصل زحفه الى قرطاجنة . ولكن الخليفة أمره بالعودة وهو احتمال قريب الى المنطق . اذ اننا رأينا عمر بن الخطاب حريصا دائما على عدم السماح لجيوشه بالمضى بعيدا او السماح لها بان تنقطع عن المدينة بفعل الجبال أو الانهار التي تقوم بينهما . وعندما عاد عمرو الى برقة استسلمت له قبيلة من البربر من أهل لواته وقد كتب في شرطه عليها . « ان عليكم أن تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية » . ومن الصعب علينا أن نتأكد الان من السبب الذي دعا عمرا الى ادخال مثل هذا الشرط الهام في اتفاقه مع القبيلة البربرية . وكل ما يستطيع المرء افتراضه ان هذه القبيلة عجزت عن دفع الجزية بسبب فقرها المدقع . وأن عمرا رد على اعتراضها بأن عليها ان تبيع نساءها واطفالها لتدفع الجزية .

وقد سبق لنا في حياة الرسول أن لاحظنا حوادث عدة وقع فيها العرب من نساء ورجال أثناء حروبهم القبلية في الاسر، وأن أسريهم كانوا يعتبرونهم رقيقا لهم . لكن هذا الاجراء العرفي منع منعا باتا ابان خلافة عمر بن الخطاب وذلك لان العرب تحولوا في السنوات العشر من حكمة الى شعب فاتح مستعمر ، بل الى طبقة ارسقراطية حاكمة تسيطر على امبراطورية تابعة لها . وقد نما هذا الاحساس الجديد بالكبرياء والعنصرية جنبا الى جنب مع مفهوم آخر يختلف عنه كل الاختلاف هو مفهوم الاخوة الاسلامية . ولقد كان العرب منذ أقدم عصور التاريخ يتعاملون بتجارة الرقيق ، ويمتكون الرقيق ولكنهم منذ أيام عمر بن الخطاب توقفوا عن استرقاق أى عربى . ولا ريب في ان الحقيقة القائلة بان العرب اعترفوا اعترافا شخصيا بإمكان استرقاق البربر تشير اشارة واضحة الى انهم لم يعتبروا البربر من العرب .

وعاد عمرو بن العاص من طرابلس الى الاسكندرية مثقلا باحمال الغنائم وبالعبيد وكان قد اوفد في غضون ذلك حملة مع نهر النيل سارت باتجاه السودان بقيادة ابن عمه عقبة بن نافع لكن هذه المغامرة لم تلق كبير نجاح . فلقد اشتهر السودانيون الذين لقبهم العرب

بالنوبيين برمى النبال وقد تلقوا العرب الزاحفين بزخات من النبال فأصابوهم بجراح ثقيلة كان معظمها فى عيون الفاتحين . ولقد فقتب عيون عربية كثيرة حتى انهم أطلقوا على النوبيين اسم رماة الحدق . ومن الطريف ان نذكر هنا ما أمتاز به النوبيون من خصال حربية قبل الف وثلثمائة سنة . وهى خصال ظلوا محافظين عليها حتى يومنا هذا . واضطر الرتل العربى الى التراجع على احسن سبيل ممكن الى مصر .

وكان عمر بن الخطاب قد أمر عمرو بن العاص باقامة مقر قيادته فى الفسطاط وهى القاعدة العسكرية الجديدة المجاورة لحصن بابليون وفى ربيع عام ٦٤٤ القى عمرو بن العاص فاتح مصر خطابا فى المسلمين اشتهر أمره فى التاريخ الاسلامى . وقد استهل خطابه بحمد الله والثناء عليه ثم حث سامعيه على التمسك بشعائر الدين وتوزيع الصدقات والبعد عن الجشع وعن البهرج والنميمة . وقال ان البطالة والطيش هما مصدر كل رذيلة وخطيئة . وعاد فبدل لهجته ، وانتقل الى تقريظ الربيع فقال ان مياه الفيضان قد هبطت ، وان أعشاب الربيع قد نمت وأصبح الحليب متوفرا للحملان والجديان وأمرهم بأن يخرجوا حاملين بركات الله . وان ينعموا بأرض مصر وخيراتها ولبنها وقطعان اغنامها وأبقارها . ووصاهم برعاية جيرانهم من القبط ، تلبية لأوامر رسول الله الذى اوصاهم خيرا بالقبط . (١)

وحرى بنا ان ننقل هنا بعض فقرات وردت فى التقرير الذى بعث به عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب عن مصر . اذ قال . . «مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها رحلة شهر وعرضها عشرة ايام . يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات . يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له اوان ، تظهر به عيون الارض وينابيعها حتى اذا عجز عجاجه ، وتعاطمت امواجه لم يكن وصول أهل القرى الى بعض الا فى خفاف القوارب وصغار المراكب ، فاذا تكامل فى زيادته يخرج القوم ليحرثوا بطون اوديته وروابيهِ يبدرون الحب ويرجون الثمار من الرب » حتى اذا شرق وأشرف سقاه من فوقه الندى

---

(١) روى ابن كعب بن مالك أن النبى (صلم) قال : اذا افتتحتم مصر ، فاستوصوا بالقبط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما . وقال الليث « كانت أم اسماعيل منهم » . وروى الشعبي ان على بن الحسين أو الحسين نفسه ، كلم معاوية فى جزيرة أهل قرية أم ابراهيم ابن رسول الله (صلم) بمصر ، فوضعها عنهم . وكان النبى (صلم) يوصي بالقبط خيرا . (العرب)

وغداه من تحته الثرى . فبينما هى يا امير المؤمنين درة ييضاء اذا هى  
عنبرة سوداء واذا هى زبرجدة خضراء » . ويبدو ان عمرو بن العاص  
كان شاعرا بالاضافة الى ما تميز به من خصال اخرى .

ومهما كان ظن المصريين فى الفاتحين العرب فانهم على الاقل ، جنوا  
فائدة واحدة من فتحهم لبلادهم وهى خلاصهم من الاضطهاد الدينى .  
فلقد استدعى عمرو بن العاص بنيامين بطريق القبط من مخبئه فى  
الصحراء الذى ظل مختفيا فيه منذ مجيء المقوقس الى مصر قبل اثنى  
عشر عاما ، وعهد اليه رسميا بزعامة الكنيسة القبطية وقد اختير بطريق  
آخر للروم الارثوذكس ولكن دون موافقة امبراطور القسطنطينية .  
وغدا هذا البطريق عاجزا بعد فتح العرب عن اضطهاد اخوانه النصارى

وعلى الرغم من اننا نستطيع القول بان عمرو بن العاص ادى  
خدمات جلى لقضية المسلمين الا ان من المفجع ان نراه لا يلقى من  
ال خليفة الا التائب والزجر . وقد شكوا الخليفة هذه المرة شكوى مرة  
من انه لا يتلقى من مصر من الخراج ما كانت تدفعه الى امبراطور  
بيزنطة وبعث الى عامله فى مصر فى عام ٦٤٤ يعرب عن دهشته من أن  
خراج مصر فى السنة الماضية لم يبلغ نصف ما كانت تقدمه من قبل الى  
البرنطيين . واضاف انه لن يقبل أقل مما كانت تدفعه مصر . وأكد أنه  
كان يأمل من عامله أن يؤدي واجبه حتى الأداء - وانه تبين الآن أن حكمه  
حال دون ذلك وانتهى رسالته قائلا ان لديه من الوسائل بمعونة الله  
ما يستطيع ارغام عامله على اطاعة امره .

غريب ان تصدر هذه التهديدات القاسية عن الخليفة الورع الذى  
عرفنا تماما انه كان ابعد الناس عن الاهتمام بشئون الدنيا ومالها . وكان  
على استعداد دائما لتوزيع الفىء وما يصل الى بيت مال المسلمين على  
الرعية . يضاف الى هذا اننا راينا عددا من كبار المسلمين فى المدينة  
ليس بينهم الخليفة على أى حال قد اثروا ثراء كبيرا من الفنائم  
التي نقلت الى المدينة من البلاد التي فتحتها جيوش العرب . ترى هل  
كان المهتمون بالمال منهم هم الذين دفعوا الخليفة الى كتابة مثل هذه  
الرسالة ؟ وترى هل وجد الخليفة ان نظام الرواتب الذى اوجده  
والذى حدد بموجبه دفع المرتبات الى كل عربى ، يكلف بيت مال  
المسلمين أكثر مما كان قد ضمن عند وضعه ؟ ولكن حتى لو كانت الدولة  
فى ضائقة مالية ، فاننى لا ارى ضرورة فى أن يكتب الخليفة الى قائد  
جيشه العام فى مصر بمثل هذه اللهجة القاسية المليئة بالتهديد . ولا ريب  
فى ان هذه الحقيقة تصبح واجبة عندما ندرك ان خطة فتح مصر كلها

كانت من وضع عمرو بن العاص ، وبناء على اصراره ، رغم معارضة الخليفة لها والذي يأتى الآن فيلوم قائده على التراخي والتهاون ، أو ترى هل كان عمر بن الخطاب يحس بالفيرة الشخصية من كبار قاداته العسكريين الناجحين ؟ لا ريب في أن معاماته لخالد بن الوليد ، والمثنى ابن حارثة ، وسعد بن أبى وقاص وأخيرا لعمر بن العاص ، يمكن أن تعتبر دليلا على صحة هذا الاستنتاج . (١)

وقد رد عمرو على رسالة الخليفة وتهديده ذاكرا بأنه خدم رسول الله ثم خدم خليفته أبا بكر . وكان عند حسن ظنهما به إذ أدى الأمانة

---

(١) غريب أمر المؤلف وغريبة هذه الاستنتاجات السخيفة التي يصل إليها والتي تبعد كثيرا عن الطريقة العلمية في الاستقراء والاستنتاج لكن هذا الاستغراب يزول إذا عرفنا الغاية الرئيسية من الكتاب ، وهى تشويه التاريخ العربى .

انه هذا يحار في الاسباب التي حملت الخليفة على أن يبعث بمثل هذه الرسالة الى عامله في مصر . ثم يحاول القول بأن ليس من حق الخليفة أن يحاسب عمرا لانه هو الذى فتح مصر وما دام انه هو الذى فتحها . وهو صاحب الخطأ في فتحها فليس من حق الخليفة أن يحاسبه حتى ولو اخطأ . انه منطق غريب تناقضه حقيقة تاريخية تحصل بأمر المؤلف إذ ألم يخيب الشعب البريطانى أمل تشرشل الذى كسب له الحرب الأخيرة فاسقط حربه في الانتخابات ؟ فلو صحت حجة المؤلف لما كان من حق الشعب البريطانى أن يسقط حزب تشرشل .

وهو بعد ذلك يحار في تحليل معاملة عمر لأمرائه وقواده . ويحاول أن يصل من حيرته هذه ، الى الطعن في شخصية عمر واتهامه بالفرض الشخصي ، والفيرة ، وهما صفتان لا يجتمعان في شخصية عظيمة كشخصية عمر بن الخطاب الفذة تميزت بالقوة وتضادت أمامها الشخصيات الأخرى . ان الحقيقة التي قامت المؤلف أو التي حاول تجاهلها ان عمر كان من الحاكمين الذين يشتررون رضا الجماهير الشعبية بمصلحة الأمراء فالأمر في نظره فرد من الرعية . يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس . ومن هنا كانت شدته على عماله ورافته على عامة الناس من رعيته . إذ يشعر بمسئوليته العظمى عن هذه الرعية وكان يقول دائما لو ان جملا هلك ضياعا بسطت القرات لخشيت ان يسأل الله عنه آل الخطاب .

ولعل أصدق صورة له تكذب استنتاجات المؤلف ما نقلته كتب العرب عنه من انه خطب مرة فقال .. « ايها الناس انى والله ما ارسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى ارسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الى ، فو الذى نفس عمر بيده لا قصه عنه . فو ب عمرو بن العاص ، فقال : يا امير المؤمنين ارايتك ان كان رجل من امراء المسلمين على رعية . فآذب بعض رعيته . ذلك لتقصه منه قال أى والذى نفس عمر بيده ، لا قصته عنه ، وكيف لا اقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه . الا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمعوهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الفياض فتضيعوهم .

(العرب)

خير الاداء . و اضاف ان في وسع الخليفة اذا شاء . ان يقلبه من الامارة التي اضفاها عليه . اذ ان الله قد نجاه من جشع الدنيا وشرها ووضاعتها ، ثم أنهى رسالته معاتباً الخليفة على شدة لهجته اليه مؤكداً انها لا تقال حتى ليهودي من أهل خيبر وطلب الففران من الله للخليفة وله .

من المحال ان تتمكن على ضوء مالدنيا من معلومات قليلة من تكوين فكرة نهائية حاسمة بصدد موضوع هذا الخلاف فلقد رأينا من قبل ان الخليفة اتهم عمرو بن العاص نفسه بالاثراء . ولكن مما يخيّب الامل ان نقرا مثل هذه الكلمات القاسية التي تحمل معنى المطالبة باستخلاص المال ، صادرة عن الخليفة الطيب ، الذي يود المرء ان يحتفظ لنفسه عنه بصورة له تمثل البساطة والتواضع مجسمين في خدمة الله . (١)

\*\*\*

### تواريخ مشهورة

٦٤٢	عزل سعد بن ابي وقاص فاتح العراق
٦٤٢	معركة نهاوند
٦٤٣	احتلال اصبهان
٦٤٣	احتلال الري
٦٤٣	احتلال طرابلس الغرب يونيو ( حزيران )

### شخصيات مشهورة

النعمان بن مقرن	قائد العرب استشهد في نهاوند
ابو موسى الاشعري	امير البصرة وقائد العرب في فارس
المغيرة بن شعبه	عزله الخليفة عن امارة البصرة ثم عينه اميراً للكوفة
عمرو بن العاص	فاتح مصر
عقبة بن نافع	قريب لعمرو بن العاص . وقائد الحملة على بلاد النوبة والسودان

(١) تنسخ هنا نية المؤلف في كل ماكتبه . وهي المساس بشخصية عمر بن الخطاب وتشويه الصورة الصحيحة منه . فليس في تلك الرسالة في الحقيقة مايمكن ان يعاب به عمر بن الخطاب الا اذا اولت ، كما اولها المؤلف على نحو مفرض . (العرب)

# أبولوؤة

اتمت الفوضى وضع تحفتها الفنية  
وفتح أكثر أنواع القتل دنسا  
معبد الآلهة المقدس الذي طهره زيت الرب  
متهكنا بلغة مرعبة  
عن حرائق شديدة .. واحداث متبللة  
من رواية « مكث » الشكسبير

\*\*\*

انحصر عصر العرب الذهبي في الاثنى عشر عاما التي  
انقضت بين ٦٣٢ و ٦٤٤ والتي شملت عهد الخليفين  
ابى بكر وعمر . وكانت هذه الفترة عهد وثام داخلى  
تام ، وفتح خارجى مستمر . وإذا ما تسامحنا مع  
مبدأ الفتح العنوائى فليس ثمة ما نكره فى سلوك  
الفاتحين العرب .

من كتاب فريمان « تاريخ العرب »



قاد عمر بن الخطاب في أكتوبر ( تشرين الاول ) عام ٦٤٤ جريا على مألوف عاداته منذ ولى الخلافة الناس الى موسم الحج في ذلك العام . وكانت الامبراطورية الجديدة التي أنشأها تنعم ، اذا ما استثنينا بعض الاشتباكات الفردية المتفرقة في الانحاء النائية من امارات فارس البعيدة بالطمأنينة والاستقرار . وقد انقضت حتى ذلك التاريخ عشر سنوات على تولى عمر شئون المسلمين . وقد بلغ الآن الستين من عمره تقريبا . وفي غضون هذه الفترة التاريخية انهارت الامبراطوريتان العالميتان العظيمتان في وقت واحد وغدا الخليفة الحاكم المطلق في امبراطورية شاسعة واسعة قامت على انقاض الامبراطوريتين اللتين ورثت الحكم عنهما . ولا اعرف عن حاكم أو سلطان في تاريخ العالم كله فتح في مثل هذه المدة مثل هذه المساحات الواسعة التي فتحت في عهد عمر ثم خلفها سليمة متماسكة لتعيش عدة اجيال اخرى .

ولقد سبق لنا أن رأينا الخليفة يعين المغيرة بن شعبة قبل نحو من عامين أميرا على الكوفة على الرغم من التهمة السابقة التي وجهت اليه عندما كان أميرا على البصرة وكان للمغيرة مولى من مواليه عرفه العرب باسم أبي لؤلؤة . وهو فارسي المولد . وقع في أسر الروم صبيًا . فحملوه الى بلادهم حيث نشأ نصرانيا . ثم عاد فوقع في أسر العرب وابنتاه المغيرة ابن شعبة . ويبدو أن العرب كانوا قد ألغوا السماح لمواليهم بالعمل واكتساب الرزق شريطة أن يدفعوا جزءا من مكسبهم الى أصحابهم ، ويبدو أيضا أن المغيرة كان قد خلف مولاة هذا في المدينة وسمح له بالعمل فيها . وكان نجارا حاذقا لا يضاهيه في مهارته في المدينة نجار آخر . فبات في وسعه أن يكسب أجورا طيبة عالية . ويقال أن أبا لؤلؤة بكى واستعبر عندما رأى أسرى الفرس في معركة نهاوند يساقون الى المدينة ويقول بعضهم انه نشأ في مدينة نهاوند التي قضى فيها طفولته .

وتقول الروايات ان هذا الرجل لقي الخليفة ذات يوم في الشارع وهو لقاء يشرح لنا الحياة البسيطة المتواضعة التي كان يحياها عمر بن الخطاب . فتهافت به طالبا أن ينصفه من مولاة المغيرة بن شعبة . وزعم له انه يرغب على دفع درهمين له في كل يوم وهو خراج كثير يتركه خالي الوفاض مما يمسك رزقه به . وكان الخليفة قد علم بأمر حرفته ومهارته

فيها . فرد عليه بأن هذا الخراج لا يعتبر كبيرا بالنسبة الى نجار حاذق يتقن مهنا أخرى بالاضافة الى مهنته ويكسب أجورا طيبة . وقد رد أبو لؤلؤة ردا قاسيا مشاكسا على الخليفة ثم مضى في طريقه .

واجتمع الناس للصلاة صباح اليوم التالي بعد شروق الشمس في المسجد الكبير في المدينة لاداء صلاة الصبح . وبينما كانت صفوف المصلين تنتظم لاداء الصلاة انسل أبو لؤلؤة بين جموعهم ، حتى وقف في الصف الامامي . وجاء عمر الى مكانه امام المصلين ليؤمهم وقد أدار ظهره الى صفوفهم . وما كاد عمر يقول « اقيموا صفوفكم » ، ويرفع يديه قائلا : « الله أكبر » حتى كان أبو لؤلؤة . يهاجمه من خلفه ويضعه بخنجر كان في يده ست طعنات في ستة أماكن مختلفة من جسده . وعندما سقط الخليفة الشيخ على الأرض مضرجا بدمائه اندفع القاتل بين الصفوف يضرب بخنجره كالمجنون ذات اليمين وذات الشمال الى ان طعن نفسه بيده (١) .

---

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف عن الروايات العربية ، وقد أوقفه اختلافه في بعض الاخطاء منها أن الناس اجتمعوا لصلاة الصبح بعد الشروق ، بينما لاقام صلاة الصبح الا قبل الشروق وبعد بزوغ الفجر . ومن الاخطاء أيضا أنه طعن عمر رضي الله عنه بعد أن رفع يديه قائلا « الله أكبر » والصحيح أنه طعنه قبل التكبير وبعد الدموة الى استقامة الصف . والخطيئة الثالثة أنه طعن نفسه بيده بينما الحقيقة أنه بعد أن طعن الثي عشر رجلا توفي منهم ستة القى عليه رجل من اهل العراق ثوبا ليمنع حركته ويشلها فلما اغتم فيه قتل نفسه . والخطيئة الرابعة أن ابا لؤلؤة كان مجوسيا على حد قول ابن عباس ولم يكن نصرانيا . وارى هنا أن نسرد القصة الحقيقية . لولاء عمر بن الخطاب ..

دوى سعيد بن المسيب لما نذر عمر من منى أثناء الحج . أتاخ بالابطح ثم استلقى ووقع يديه الى السماء وقال اللهم كبرت سنن وضعت قوتي وانتشرت رهيبي فاقبضني اليك غير مضيع ولا مفرد . لما انسلخ ذو الحجة حتى قتل بعد عودته الى المدينة . وروى أن كعب الاحمر جاء لعمر فقال : أجلك في التوراة تقتل شهيدا . قال عمر . والى لى بالشهادة وأنا بجوزيرة العرب . وروى البخاري أن عمر قال : « اللهم ادرقني شهادة في سبيلك واجعل موتى في بلد رسولك » . وروى الحاكم أن عمر خطب فقال .. رأيت كأن ديكا تقرنى نقرة أو نقرتين ، واني لا أراه الا حضور أجلى .

وقال الزهري . وكان عمر رضي الله عنه لا يأذن لسبى قد احتمل في دخول المدينة حتى كتب اليه الفيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده جملة صنائع ويستأذنه في دخول المدينة ، ويقول ان عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس . انه حداد نقاش نجار فأذن له بأن يرسله الى المدينة . وضرب عليه الفيرة مائة درهم في الشهر . فجاء الى عمر يشتكى شدة الخراج فقال ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطا يتدمر قلبه عمر ليالى ثم دعاه فقال .. ألم أخبر أنك تقول .. لو أشاء لصنعت ربحي طمحن =

وحمل الرجل الشيخ الى أهله وكان بيته يطل على فناء المسجد .  
 ووضع على فراشه ولم يكن قد فقد وعيه . فطلب عبد الرحمن بن عوف  
 وهو من الصحابة الاول وسأله عما اذا كان يوافق لو اختاره خليفة على  
 المسلمين بعده . ولكن عبد الرحمن اعتذر عن قبول الخلافة . (١) وعاد  
 عمر فاستدعى على بن أبى طالب ابن عم النبى ، وعثمان بن عفان وهو من  
 الاوائل الصحابة ، والزبير بن العوام الذى اقتحم برجاله حصن بابلين  
 وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق . واختارهم لجنة تتولى انتخاب من  
 يخلفه (٢) وسنشرح عما قريب مدار من مداوات بينهم .

وعاد الشيخ المحتضر فاستجمع قواه ثانية ، وسأل عن قتله .  
 وعندما قيل له انه أبو لؤلؤة حمد الله وأثنى عليه . ان لم يقتله رجل  
 سجد لله سجدة . مما يجعله فى غداد الشهداء الذين يكافأون بدخول  
 الجنة فوراً . (٣) وشرب بعض الحليب ولكن السائل عاد فخرج من

= بالريح ؟ فالتفت الى عمر عابسا وقال .. لاصنعن لك رضى يتحدث الناس بها . فلما  
 ولى قال عمر لاصحابه اوعدنى العبد آتيا ثم انصرف عمر الى منزله فلما كان الغد  
 جاءه كعب الاحبار فقال يا امير المؤمنين امهد فائك ميت في ثلاثة ايام . قال وما يدريك .  
 قال اجده في كتاب الله التوراة . قال عمر . والله ، انك لتجد عمر بن الخطاب في  
 التوراة . قال اللهم لا . ولكن اجد صفتك وحليتك . وانه قد فنى أجلك . وعمر  
 لا يحس وجعا ولا ألما . فلما كان من الغد . جاءه كعب فقال .. يا امير المؤمنين ذهب  
 يوم وبقي يومان . ثم جاءه من الغد فقال .. قد ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهى  
 لك الى صبيحتها .

ولو صحت هذه الحكاية . وانه قد انقضى على مقابلة أبى لؤلؤة لعمر ثلاثة  
 ايام قبل اقرار الجريمة لثبت ان لكعب يدا في مقتل عمر . وان مصرع الخليفة كان  
 نتيجة مؤامرة شعوبية وان كعبا كان على علم بما تم الاتفاق عليه بين المؤمرين . ولم  
 ينقل نباها الى الخليفة الا لينال مركزا عظيما عند المسلمين . وليصدق الناس توراته  
 ان ليس في التوراة اى ذكر لما قاله كعب الاحبار هذا .

(١) ليست الرواية الصحيحة كما يقول المؤلف ان عمر بن الخطاب استخلف  
 عبد الرحمن بن عوف فاعتذر هذا عن القبول . وانما هى ان عمر عندما أصيب قال :  
 افي الناس عبد الرحمن بر عوف ؟ قالوا : نعم هو ذا . قال تقدم فصل بالناس ، وكان  
 الموضوع امامة للصلاة في ذلك اليوم لا استخلافا كما فهم المؤلف .  
 (٢) نسي المؤلف اسما سادسا هو طلحة بن عبد الله . وهؤلاء الستة مع  
 الباقون من العشرة المبشرين بالجنة ، اذ توفي الاربعة الباقون . وهم أبو بكر وعمر  
 وأبو هبيرة وخرجيل .

(٣) أخطأ المؤلف هنا خطأ كبيرا . فلم يكن عمر رضي الله عنه بحاجة الى  
 الاستشهاد لدخول الجنة . اذ انه من العشرة الاوائل الذين بشرهم النبى بدخول  
 الجنة .  
 ( العرب )

جرحه النافر دون أن يتبدل وراح يقول . . أوصى الخليفة من بعدى .  
بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين والانصار ، وأوصيه بأهل الامصار خيرا  
وبعد أن غرق فى تأملاته بضع دقائق . طلب الى ولده عبد الله أن  
يلذهب الى عائشة زوجة النبى ، فيستأذنها فى ان يدفن مع صاحبيه محمد  
وأبى بكر ، فى غرفتها وفى صباح الثالث من نوفمبر ( تشرين الثانى )  
عام ٦٤٤ انتقلت روحه الى جوار ربه بعد أن أدى الشهادتين .

من المحال على المرء ان ينكر على عمر بن الخطاب حقه فى العظمة ،  
فلقد عرف فى شبابه بالميل الى التهور وحدة المزاج . وكان هو الذى حث  
النبى بعد معركة بدر على قتل أسرى قريش . ولكن تحمل المسئولية وكبر  
السن أحدثا الكثير من التبدل فى شخصيته . فأصبح ميالا الى الصبر  
والتسامح . ولم يكن يرضى بأى تهاون فى خدمة الله ولكنه كان كثير  
التسامح واللين فيما يخصه هو شخصا . ويحس ببالغ العطف والاشفاق  
على الفقراء . وعلى الرغم من أن مؤرخى السير يحبون أشد الحب التضخيم  
فى التحدث عن تواضعه وفقره وبره واحسانه الا أنه لا يستطيع انسان  
ان يشك لحظة واحدة فى أنه كان السيد المطلق الفرد الذى لا يناقسه  
انسان فى الامبراطورية العظيمة التى نمت نموا مدهشا فى عهد خلافته  
القصير . ولقد سبق لنا أن رأينا سنة ٦٣٩ عام قحط ومجاعة فى الحجاز .  
وعلى الرغم من الثروات الطائلة التى جمعها الكثيرون من المسلمين ، الا أن  
الغذاء كان مفقودا فى البلاد . وظل كذلك حتى وصلت قوافل الغذاء من  
سورية والعراق . ويروى لنا المؤرخون كيف كان الخليفة فى تلك الاسابيع  
الشاقة العسيرة يطوف فى شوارع المدينة أثناء الليل لا يرافقه الا خادمه  
وكان الرجلان «الخليفة وخادمه» يحملان كيسا من الدقيق وقربة مملأ  
بالسمن ليمسكا بما يقدمانه رفق الجياع من المحتاجين والفقراء . وكثيرا  
ما يفرغ الكيس أثناء الطواف فيهرع التابع لياتى بكيس آخر . وتحدثنا  
الروايات ان الخليفة جلس ذات ليلة الى جانب امرأة عجوز جائعة وأخذ  
يعينها فى اشعال النار وطهى الطعام لها ولاسرتها .

وقد قدر للعرب والمسلمين فى القرون التالية ان يعانون الامرين  
من بعض الخلفاء الكسالى والتافهين والمبلدين أو الخلفاء الماجنين  
أو الغلاظ القلوب . وكان من طبيعة الرواة المسلمين فى عهود مثل هؤلاء  
الخلفاء ان يكثروا من الحديث عن الخليفتين الاولين وان يرووا مع التزويق  
احيانا قصص ما امتازوا به فى حياتهما الخاصة من تواضع وبساطة  
واحسان رغم انتصاراتهما الرائعة فى ميادين الفتوحات وقد تكون

بعض المبالغات قد أدخلت على قصص طواف عمر الليلى لتفقد أحوال الرعية وقوت الفقراء والمحتاجين . ولكن الحقيقة الناصعة التى لا يتطرق إليها شك هى انه كان صورة للبساطة والديموقراطية ، وذلك لان هاتين الصفتين كانتا ولا تزالان ذائعتى الانتشار فى الجزيرة العربية حتى يومنا هذا . وكان أسرى الحرب من الفرس والروم يصلون الى المدينة ، وهم يتوقعون أن يروا فيها قصورا يسودها البذخ والترف الامبراطورين على النحو الذى ألفوه فى المدائن والقسطنطينية . ولكنهم سرعان ما يفاجئون فيرون بدلا من ذلك حفنة من العرب الجالسين على الارض فى الباحة الترابية التى تؤلف ميدان المدينة المبنية من الطين . وكان بين هذه الحلقة ، رجل طويل ، نحيل القامة (١) أصلع الرأس ، حافى القدم يرتدى عباءة مرقوعة من الصوف الخشن ، هو الامبراطور الذى لا يدانيه فى عظمته وقوته ، أى امبراطور آخر ، فى عالم ذلك العصر .

وهناك قصة طريفة أخرى تروى عن عمر ابان احدى زياراته لسورية فقد حدث أن مر بأيلة فى جنوب شرق الأردن ( العقبة الحالية ) وهو فى طريقه الى الشمال فحل ضيفا عند مطران البلدة المسيحية لقضاء الليل عنده . وعندما أراد الخليفة النوم ، نزع عنه قميصه فسلمه الى مضيفه مشيرا الى شق فى كتفه وطالبا اليه اصلاحه ، ان أمكن قبل طلوع الصباح . وعاد المطران عند الفجر الى ضيفه ، وقدم اليه قميصه القديم بعد أن أصلح ، وغسل وكوى كىا متقنا ، وكان صاحب البيت قد أخفى تحت القميص القديم قميصا جديدا آخر حملة معه الى الخليفة . ووضع المطران الرزمة التى يحملها ، وكان على وشك أن يغادر الغرفة التى يقيم فيها الخليفة عندما رأى هذا القميص الجديد فسأل عنه ، ورد المضيف الطيب قائلا : « ظننا انك قد تحتاج الى قميص آخر فى مثل هذه الرحلة الطويلة » ورد الخليفة . . . بأن ثوبه القديم خير له ، وأعاد الثوب الجديد الى صاحبه . . .

ويروى الطبرى ان عمر بن الخطاب قال فى احدى خطبه انه لا يبعث بالامراء والعمال ، الى الامصار ليضربوا الناس أو يفتصبوا حاجاتهم ، وانما ليرشدوهم الى أمر دينهم وسنة رسولهم . ويروى

---

(١) يقول ابن عساکر ، ان عمر بن الخطاب كان رجلا جسيما لا نحىلا كما يقول المؤلف وقد أيد معظم المؤرخين العرب وبينهم الطبرى والعطاردى رواية ابن عساکر .

الطبرى انه قال فى خطاب آخر : انه يود لو استطاع أن يزور الامصار كلها ، قاضيا فى اكل مصر شهرين على الاقل ليتأكد من ان كل انسان فى البلاد التى يحكمها العرب كان قادرا على أن يشكو ما يحس به من ظلم الى الخليفة شخصا . وهناك قصة تروى عن صاحب حق ، جاء يرفع دعواه الى المدينة ، فسأل أحد الناس فيها ، اذا كان يستطيع الحصول على اذن بمقابلة الخليفة ليرفع اليه ظلامته . فرد الرجل بأن ليس ثمة من حجاب بين الخليفة والرعية ، وان فى وسعه أن يرفع اليه ظلامته فى أى يوم عندما يلقاه فى الشارع أو فى المسجد .

وكثيرا ما كان استعداد الكلى لسماع كل شكوى وكل ظلامة ، ولوضع الحق فى نصابه فورا حتى على حساب عماله ومساعديه ، سببا الى الاخلال بالانضباط فى صفوف جنوده والاضعاف من مكانة عماله وامرائه فى الامصار النائية والدائمة الاضطراب . ولكن النتائج السيئة لهذا الاسلوب فى الحكم لم تظهر الا بعد وفاته .

ولا ريب فى أن قضاء الحاكم لمثل هذه الارجاء الفسيحة ، يومه فى الاستماع الى ما يهمس به الناس فى أسواق المدينة ، وليله فى حمل أكياس الدقيق لتوزيعها على الارامل والمحتاجين ، ليس الا دليلا على أوضاع الحكم البدائية التى ظلت قائمة فى الامبراطورية . وقد يحسد الحاكم فى القرن العشرين تلك الايام السعيدة التى كان فيها الرجل قادرا على حكم امبراطورية فسيحة الارجاء ، دون أن يخط بقلمه كلمة واحدة ولكن حتى لو كان الحديث شبها لعمر بن الخطاب فى بساطته وديموقراطيته ، فانه سيعجز عن قضاء ايامه كلها فى الحديث الى الناس فى الشوارع والطرق . لكن الخلفاء الأوائل كانوا أحرارا فى متابعة المحاسبين وفى نجوة من تقديم التقارير الشهرية ، أو الرد على الاسئلة الدورية فى البرلمانات . ولم يكونوا ليجدوا عند مجيئهم الى مكاتبهم فى صبيحة كل يوم مجموعة من الملفات الواردة تتطلب اتخاذ الاجراءات اللازمة . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف ان عمرو بن العاص ، اكتفى بعد فتح حصن بابليون فى مصر بارسال رسالة شفوية الى المدينة ليعلم الخليفة بالنصر الذى حققه .

وعلى الرغم مما فى قصص الخلفاء الحفاة من خيال ابداعي ( رومانطيقى ) الا ان نظام الحكم الذى اتبعوه ، لم يكن خاليا من النتائج السيئة الخطيرة فلقد ظلت ادارة الامصار التى فتحها العرب من الفرس فى أيدي موظفيها السابقين نظرا لافتقار جهاز الحكم الى الموظفين

الأكفاء من العرب المدربين وكانت الحسنات العامة لا تزال تدون باليونانية أو الفارسية ، وهما لغتان لم تكن هناك الا قلة من العرب تعرفهما . ومن المحتمل أن يكون النقص فى خراج مصر ، الذى أثار غضب الخليفة على عامله عمرو بن العاص ناجما عن افتقار الموظفين البيزنطيين السابقين الذين كانوا يجبون الخراج والحزبة الى الامانة ، ولكننا نعرف فى الوقت نفسه ان عددا من الفاتحين العرب كانوا قد جنوا ثروات طائلة ولم تكن ثمة طريقة للحيلولة دون ذلك بسبب الافتقار الى الجهاز الكافى من الموظفين . ولكن عمر كما رأينا ، كان يعالج هذه المشكلة بطريقة سريعة ولا تخلو من القسوة اذ لا يكاد يسمع من الناس ان أحد عماله أو امرائه قد أثرى حتى يوفد ممثلا له يصادر منه نصف ما يملكه .

ويصل بنا هذا القول الى أهم ميزة من مزايا عمر بن الخطاب . فالمؤرخون المسلمون يتحدثون كثيرا ، ولهم كل الحق فى ذلك ، عن وزعه وتواضعه وتفانيه فى اداء واجبه ، ولكننا لا نسمع من أى منهم عن مزاياه القيادية . ولكننا نراه يرسل أكثر من مرة ، رسائل الى قادته الطافرين المنتصرين ، وهم على رموس جيوشهم فى أمصار نائية يأمرهم فيها بتسليم قياداتهم الى غيرهم ، والتخلى عن نصف ما يملكونه الى بيت مال المسلمين . ولم نسمع قط أن أيا منهم قد تردد لحظة واحدة فى اطاعة الامر وانفاذه ، ولا يمكن أن تعزى هذه الطاعة العمياء الى الدين وحده ، اذ اننا سنرى بعد قليل خليفة عمر ، يواجه بالعصيان المكشوف الذى أدى فى النهاية الى الاطاحة به .

### \*\*\*

كان ابو لؤلؤة ، قاتل عمر ، من الفرس ، وكان الهرمزان ابرز من فى المدينة من الفرس ، فى تلك الايام ، وهو النبيل الذى تمكن من انقاذ حياته بالحيلة التى لجأ اليها وهى صب الماء الذى كان يوشك على شربه على الارض . ولم يكد عمر ينتقل الى جوار ربه ، حتى كان ولده يسارع الى الهرمزان فيقتله ثارا لمصرع أبيه . وكان هذا الولد بوصفه عربيا قد فكر أول ما فكر بالثار لأبيه . ويروى الطبرى أن أحد الناس ذكر أمام ابن الخليفة انه كان قد رأى الخنجر الذى طعن أبو لؤلؤة به عمر بن الخطاب فى حيازة الهرمزان . ولكننى أرى من غير المعقول أن يكون الهرمزان قد تأمر على قتل عمر لأن الخليفة كان قد أنقذ حياته وخصص

له جعلاً شهرياً (١) يضاف الى هذا ان الهرمزان كان نبيلاً فارسياً وحيداً يعيش في عاصمة العرب . ولكن عمر قتل قتلاً وحشياً على يد أحد الفرس ، ومن الواجب التكفير عن هذه الجريمة في عرف العرب ، بدم فارسي آخر هو الهرمزان .

### \*\*\*

لعل من أصعب المشاكل في الحكم الانساني العثور على طريقة سليمة لاختيار من يخلف حاكماً عند موته . ولقد كانت هذه المشكلة من النوع الذي لم يتمكن العالم القديم قط من حله ، وهي ما زالت حتى يومنا هذا من أقوى الحجج ضد نظام حكم الفرد ، وكانت هذه المشكلة أيضاً من القضايا التي لم يترك النبي أية تعليمات محددة واضحة بصدها . وكان النبي قد عين ابان مرضه الاخير أبا بكر ليؤم الناس . ولكن اختيار الخليفة الاول كاد يؤدي كما رأينا من قبل الى نزاع داخلي خطير في الدولة الحديثة .

وكان أبو بكر قد اختار عمر فعلاً لخلافته وكان هذا من القوة بحيث استطاع أن يفرض كلمته دون معارضة ، ومن المحتمل أن يكون عبد الرحمن بن عوف الذي رفض عرض عمر أن يخلفه هو أصلح الناس للخلافة اذ دلل رفضه على تجرده من أية مطامح شخصية أو أطماع أو تعشق للسلطان . على أي حال اجتمعت اللجنة التي اختارها عمر بعد وفاته ، لاختيار الخليفة الجديد ولما كان جميع أعضاء هذه اللجنة قد قدر لهم أن يلعبوا أدواراً بارزة في السنوات التالية ، فأننى أرى من الجدير بنا أن ندرس أوضاعهم ، واحداً واحداً بصورة أكثر دقة .

كان على بن أبى طالب ابن عم النبي وقد نشأ في بيته وفي رعاية

---

(١) منطلق سخيف لا يستند الى دليل اذ متى كان الاحسان لانسان سبباً في براءة هذا الانسان من الاجرام بحق المحسن اليه . وقديماً قيل ... اتق شر من أحسن اليه . وأنا لا أشك وان كانت الدلائل غير كافية باستثناء دليل تطهير كعب الاحبار في أن قتل عمر كانت أول مؤامرة دبرها الشيعة ضد العرب وهي كثيرة في تاريخهم الطويل المشترك . ولعل السبب في افتقار الأدلة هو مصرع أبى لؤلؤة القورى . اذ لو عاش لتمكن استخلاص الحقيقة منه ومعرفة شركائه ولكن هذه الحقيقة ضاعت مع مقتل أبى لؤلؤة القورى ونجاة شركائه من خطر الاكتشاف وافتقار العرب في تلك الايام الى أنظمة التحقيق الجنائى . ولعل السبب في القول بوجود التآمر الشيعة ، هو ضعف السبب الذى عراه المؤرخون لنقمة أبى لؤلؤة على عمر وقتله له .

( العرب )



زوجته خديجة وكانه ولدهما وزوجاه من ابنتهما فاطمة الزهراء وقد لعب دورا بارزا في حروب النبي اذ كان فارسا مغوارا ولا سيما في المبارزة الفردية . وقد أقام في المدينة بعد وفاة النبي ولم يخرج منها اذ ظل يعمل مستشارا لابن بكر وعمر . وكان في هذه الآونة قد أصبح في أوسط العمر ، ميسور الحال ، مهيب الصورة والمنظر .

أما عثمان بن عفان فهو ثاني أعضاء اللجنة وينتمي الى بني أمية التي كانت تضم في الماضي أكثر الناس في قريش ثراء والتي كان يتولى زعامتها أبو سفيان . وكان عثمان قد بنى بابنتي رسول الله على التعاقب ، وقد أوفده النبي يوم صلح الحديبية الى مكة لمفاوضة قريش . وهناك رواية تزعم أنه كان بين من ركزوا الى الفرار يوم أحد (١) .

وكان الزبير بن العوام العضو الثالث في اللجنة ، وهو أيضا من أقارب الرسول . وكان هذا الصحابي هو الذي قاد جيش النجدة الذي بعد اثني عشر ألف محارب ، والذي بعث به عمر بن الخطاب الى مصر لمساعدة عمرو بن العاص ثم تولى أخيرا الهجوم مرتقيا السلم ليقترحم حصن بابلون .

أما سعد بن أبي وقاص فكان العضو الرابع في اللجنة وهو فاتح العراق الذي طالما سمعنا باسمه . أما الخامس فكان عبد الرحمن بن عوف وقد رأيناه يرفض الخلافة لنفسه ولكنه يشترك في اختيار الخليفة (٢) .

وكان المجلس قد اجتمع . وعمر يصارع سكرات الموت في غرفة مجاورة حيث بدعوا مشاوراتهم وسرعان ما علت أصواتهم أثناء النقاش المحتد بينهم حتى ان الخليفة طلب اليهم بأن يؤجلوا المناقشات حتى تصعد روحه الى خالقها . ولم يكذ جثمانه يسجد في مرقده الاخير الى جوار صاحبيه ، حتى عادت اللجنة الى الاجتماع . وقد أقيم حارس على مكان الاجتماع تلبية لأمر الخليفة المتوفى ، وقيل للمجتمعين ان الخليفة حدد لهم موعدا أقصاه ثلاثة أيام ، يجب أن ينهوا قبله مشاوراتهم وعليهم أن يختاروا قبل هذا الموعد خليفة للمسلمين . ونص أمر الخليفة في حالة افتقار القزار الى الاجماع أن يؤخذ بالأغلبية على أن يؤخذ رأس

(١) ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية في كتب التاريخ المشهورة .

(٢) أهمل المؤلف ذكر العضو السادس وهو طلحة بن عبيد الله لانه كان غائبا من المدينة ولم يشترك في الانتخاب وكان أمر عمر يقضي بأن يشترك في الانتخاب لو جاء قبل انتهائه .  
( العرب )

المخالفين بالسيف ويبدو من هذا ان عمر لم يكن على استعداد لان يتيح  
لمرشح منهم الفرصة لاغراق البلاد في حرب أهلية . ويظهر هذا النص  
ان احتمال نشوب الحرب الاهلية كان قد بدأ في الظهور وهي حقيقة قد  
تفسر لنا الطريقة التي كان عمر يقبل فيها قواده الظافرين ، فلقد كان  
يخشى احتمال الثورة العسكرية (١) .

(١) ارى ان اسجل هنا القصة الكاملة لاوامر عمر باختيار الخليفة كما اوردها  
مؤرخو العرب . لقد ذكروا انه لما طعن عمر واحس بالموت طلب اليه ان يعهد الى خليفة  
من بعده ، فتردد وقال ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني ( يريد ابا بكر )  
وان اترك فقد ترك من هو خير مني ( يريد رسول الله ) وقال . لو كان ابو عبيدة حيا  
لاستخلفته فان سألني ربى قلت سمعت نبيك يقول : « انه أمين هذه الامة » ، ولو كان  
سالم مولى ابي حذيفة حيا استخلفته فان سألني ربى قلت سمعت نبيك يقول ان  
سالما شديد الحب لله . فقال له رجل ادلك على عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله ،  
والله ما اردت له بهذا ، وبك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امراته . لا ارب لنا  
في اموركم ، ما حذيتها فارغب فيها لاحد من اهل بيتي . ان كان خيرا فقد اسبنا منه ،  
وان كان شرا فشرعنا الى الله . حسب آل عمر ان يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل  
من امر امة محمد (صلم) . اما لقد أجهدت نفسي وحرمت اهلى فان نجوت كفافا  
لا ولد ولا اجر انى لسميد .

ثم كرر عليه القول بعد هنيئة ، فقال : كنت أجمعت بعد مقاتلى لكم ان انظر  
قاولى رجلا امركم هو احراكم ان يحملكم على الحق وأشار الى عبد الرحمن ثم رايت  
الا اتحمل امركم حيا وميتا ، عليك هؤلاء الرهط اللذين قال رسول الله ( صلم )  
انهم من اهل الجنة على وثمان ابناء عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خلا رسول الله  
والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا  
فاذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته ، واعينوه ان اتهم احدا منكم فليؤد امانته ثم دعا  
هؤلاء الرهط ، وقال لهم ، انى نظرت فوجدكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا  
الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض . انى لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم  
ولكنى اخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، ثم عين لهم الاجل الذى يتم  
فيه الانتخاب وهو ثلاثة ايام بعد موته وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتونى في حفرى  
فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب : صل بالناس  
ثلاثة ايام واضاف للمقداد وادخل عليا وثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن وطلحة  
ان قدم واحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقم على رؤوسهم فان اجتمع  
خمسة ورضوا رجلا وابى واحدا فاضلخ رأسه بالسيف وان اتفق اربعة فرضوا رجلا  
منهم وابى اثنان فاضرب راسيهما فان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله  
ابن عمر ، فالى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن  
عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقيين ان رغبوا عما اجتمع  
عليه الناس .

لما دفن عمر جمع المقداد اهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في حجرة  
عائشة . ولم يكن قد حضر طلحة .  
( العرب )

وسرعان ما ظهر ان الترشيح الجدوى انحصر بين رجلين هما عثمان ابن عفان وعلى بن أبى طالب . فلقد كان كلاهما من اصهار رسول الله . وكانا من المسلمين الاوائل . وعلى الرغم من ان سعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام كانا من كبار المحاربين الا انهما لم يعتبرا من المنافسين الخطرين للمرشحين الاولين .

ودار نقاش حاد بين على وعثمان . واحتد وطيس التنافس بينهما اذ كان كل منهما يصر على حقه فى الخلافة وانقضى يومان دون ان يصل أصحاب الشورى الى قرار حاسم وعندما طلع صبح اليوم الثالث جاء قائد الحرس ( يعنى المقداد بن الاسود ) فقرع الباب على من فى الغرفة من اهل الشورى وأندروهم بأن قرارهم يجب أن يصدر فى ذلك اليوم . وألقى العبء الاكبر من المسؤولية على عاتق عبد الرحمن بن عوف الذى اعتبره المسلمون أحق مرشح بالخلافة لو ارتضاها . وراح يعلن صبيحة اليوم الثالث رسميا استعداده لسحب ترشيحه شريطة أن يرتبط الاربعة الآخرون بمن يختاره خليفة للمسلمين<sup>(١)</sup> وقد وافق الجميع على طلبه وان جاءت موافقة على بعد لائى وتردد .

وليس ثمة من شك فى أن عبد الرحمن بن عوف كان قد قضى اليومين الاخيرين يسبر أغوار الرأى العام فى المدينة ، وراح الآن يجمع الى كل من الاربعة على انفراد . وجدير بنا أن نذكر ان المنافسات العائلية كانت قد ظهرت بين أحفاد قصى بن كلاب الرجل الذى أقام لقريش سلطانها فى مكة منذ أمد طويل قبل الدعوة الاسلامية . وقد أدب هذه المنافسات الى اقتسام مظاهر الزعامة وحقوقها بين بطون قريش فاحتفظ

---

(١) يبدو ان طلحة السادس من رجال الشورى قد وصل الى المدينة قبل انتهاء المشاورات خلافا لرأى المؤلف الذى يصر على بقائهم خمسة ، فقد روى السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء ان الستة اجتمعوا فقال لهم عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم فقال الزبير جعلت أمرى الى على ، وقال سعد جعلت أمرى الى عبد الرحمن وقال طلحة جعلت أمرى الى عثمان ، فخلا الثلاثة وقال عبد الرحمن انا لا أريدها فأيكما يراى من هذا الامر ونجعله اليه ؟ والله عليه والاسلام لينظرون أفضلهم فى نفسه ، وليحرم على صلاح الأمة فسكت الشيخان على وعثمان وقال عبد الرحمن اجعلوه الى والله على لا أؤمكم من أفضلكم قال نعم . فخلا بعلى وقال : لك من التقدم فى الاسلام والقربة من النبى عليه الصلاة والسلام ما قد علمت الله عليك لأن امرتك لتعدلن ولئن أمرت عليك لتسمعن وتطيعين قال نعم ثم خلا بعثمان فقال له كذلك فلما أخذ ميثاقهما باع عثمان ، وباعه على بعد احجام .

بنو عبد الدار بشرف حمل الراية فى الحروب والاحتفاظ بمفاتيح الكعبة . وكان نصيب بنى أمية الحق الوراثى فى قيادة قريش الى الحرب بينما عهد الى بنى هاشم برغادة الحجيج وسقايتهم وبدا وكان المنافسات القبلية بين بطون قريش قد انتهت بهذه التسوية ولم يكن من قبيل الصدفة ان محمدا لقي الحماية من بنى هاشم عندما بدأ يبشر بدعوته ، بينما تمثلت المعارضة الرئيسية له فى شخص ابى سفيان زعيم بنى أمية وهكذا ظلت الحزبات القبلية تظل برأسها بين آونة وأخرى .

ولم يكن من قبيل الصدفة المعارضة الآن ايضا ان يكون أحد المرشحين المتنافسين على الخلافة من بنى أمية وأن يكون ثانيهما من بنى هاشم . فلقد عادت الخلافات القبلية بين البطنين من بطون قريش والتي تعود الى أيام الجاهلية ، تنذر بالظهور وكان الجميع الآن ولا ريب من المسلمين الصادقين ولكن برغم هذا الاسلام ، فان المنافسات القبلية كانت لا تزال تشر الولاءات القديمة .

وأخيرا أهل فجر اليوم الرابع وارتج مسجد النبى بأهله معن توافد اليه من أبناء المدينة انتظارا لمعرفة ما تم اليه قرار أهل الشورى ولكن هؤلاء لم يكونوا قد وصلوا الى قرار بعد . وصعد عبد الرحمن المنبر وهو متردد ، ودعا المجتمعين الى ابداء رأيهم وسرعان ما ارتفعت الهتافات من المجتمعين بعضها يؤيد عليا والبعض الآخر يؤيد عثمان بن عفان وتصايح أنصار الرجلين ، وتبدلت العبارات العنيفة وساد الهرج والمرج . وأصبح الجو مكهربا بحيث توقع العقلاء الا تنقضى لحظات حتى تستل السيوف والخناجر من أعمادها وتسيل دماء المسلمين فى مسجد النبى . حقا انها للحظة دقيقة تتطلب الحسم . وكان التأجيل فى البت أكثر خطورة من اتخاذ أى قرار . وهمس سعد بن أبى وقاص فى أذن عبد الرحمن بن عوف يقول : « يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس » .

واستجمع عبد الرحمن رجولته كلها . وطلب الى المجتمعين الصمت وهتف قائلا : أيها الناس انى قد نظرت وشاورت فلا تجعلنى أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليا للمثول أمام الناس وقال له « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخليفتين من بعده » فقال على أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى . ثم دعا عثمان فقال له مثل ما قال لعل فرد هذا بالايجاب . فبايعه عبد الرحمن

بالخلافة ، بعد ان توجه الى الله بدعاء قصير ، وسرعان ما لحق به الناس فبايعوا عثمان بالخلافة دون ضجة . وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين ليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة فاستقبل بخلافتها عام أربعة وعشرين . وفى هذه الاعوام تغيرت خريطة العالم رأسا على عقب اذ انهزمت الامبراطوريتان العظيمتان ، وظهرت قوة عالمية جديدة احتلت محلها . ولم يسبق أن ظهرت امبراطورية جديدة فى تاريخ البشرية يمثل هذه الصورة المفاجئة المباغتة . ولكن فى هذه السنة الرابعة والعشرين من مولد الدولة الجديدة كانت ينور الخلاف فى هذه الامبراطورية قد بدأت فى الظهور وكانت قريش هى التى بنت تلك الامبراطورية ، وهى التى قدر لها أن تهدمها .



مرت السنة الاولى من خلافة عثمان بهدوء وعلى الرغم من المنافسات العنيفة التى أثارها انتخابه مؤقتا فى المدينة إلا أن الامصار استقبلت النبأ بهدوء ودون أى اعتراض .

كان عثمان قد بلغ السبعين من عمره عندما بويع بالخلافة وتقول الروايات : انه كان الرجل الرابع فى الاسلام بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة ، وكان أحد الذين هاجروا الى الحبشة ؛ ابان فترة الاضطهاد الأولى ثم عاد الى مكة ليهاجر ثانية الى المدينة . كان متوسط الطول جسيم البنية كثير الاناقة وان امتلأ وجهه بآثار الجدى ، وكان شعره المتموج ينسدل الى ماذون أذنيه بيتما تملأ وجهه لحية كثة طويلة ويروى عن النبى أنه قال : انا نشبه عثمان بأبينا ابراهيم . وعلى الرغم من أنه كان من بنى أمية الى أن أمه كانت من بنى هاشم ، ومن هنا جاز ان يقال انه كان واسطة العقد بين بطنى قريش المتنافسين واللذين أدى تنافسهما الى تمزيق العالم الاسلامى .

ويقال انه عندما اعتنق الاسلام ، أخذه عمه فأوثقه وباطا وقال : ترغب عن ملة آبائك الى دين محدث ؟ والله لا أدعك أبدا حتى تدع ما انت عليه ولكن عثمان احتمل اضطهاد عمه بصبر عجيب ورد عليه قائلا : والله لا أدعه أبدا ، ولا أفارقه ، فلما رأى عمه صلابته فى دينه تركه .

وعندما جهز النبى جيش العسرة فى الصيف الى تبوك ، وكان المسلمون فى أمس الحاجة الى وسائل النقل ، فى ذلك القليظ ، جهز عثمان من ماله الخاص ٩٦٠ بعيرا وخمسين جوادا ، وهو تبرع لا شك

فى سخائه بالنسبة الى تلك الايام المعسرة . ويقال ان النبى وعده بالجنة بعد تجهيزه لجيش المعسرة . وتقول الروايات أيضا ان النبى وعده ذات مرة بأن يلقاه فى الجنة ، وهو وعد تذكره الخليفة الشيخ بعبارات مؤلمة قبيل مصرعه . ولقد كان عثمان السمع الكريم ، الرجل الذى أوفده النبى الى قريش ليفاوضها يوم الحديدية عندما كان الوضع فى منتهى الحرج والشدة . ولعل أروع اطراء من الرسول له يتمثل فى قوله عنه ان الملائكة تستحيى منه ، وهى شهادة توحى بأن عثمان كان فى منتهى الطهر والبراة ، والبعد عن الزيف والاصطناع وبلوغ حدود السداجة بالنسبة الى مطامع الانسان الدنيوية .

- وتوحى القصص والروايات التى وصلت الينا بأن الخليفة الجديد كان انسانا سمحا جميل الوجه والصورة مهيب الطلعة . كثير التقى والورع والتواضع لين الجانب محبوبا الى من يعرفه . وكان فى بداية عهده أقرب الى قلوب الناس من عمر المتزمت الصلب . وذلك لما عرف عنه من لين وتسامح ، وأخلاق رضية وحسن معاملة لأصدقائه ورعاياه .

لكن سوء طالعہ شاء أن يكون من بنى أمية البطن من قريش الذى اشتهر بالثروة والنفوذ فى الجاهلية . فبالإضافة الى ما تميز به هذا البطن من حق ورائى فى قيادة جيش قريش فى الحروب ، ضم أكبر تجار مكة الذين ألفوا المال والترف بالنسبة الى ما عرف فى الجزيرة العربية فى القرن السابع . ويقيم تبرعه السخى لجيش المعسرة فى حملة تبوك الدليل على أن عثمان كان من الاثرياء فى الجاهلية ومن المحتمل أن يكون ثراء بنى أمية ، قد جعل منهم أناسا يتعلقون بالمادة والدنيا . ولقد كانوا تحت قيادة أبى سفيان ألد أعداء الرسول حتى فتح الله مكة لنبيه . وسرعان ما رأينا بنى أمية ينقلبون الى الجانب الآخر . وقال ولدا أبى سفيان مركزين كبيرين . فقد اختير يزيد قائدا لجيش من جيوش المسلمين بينما اختير معاوية الولد الثانى كاتما لأسرار الرسول وحارب أبو سفيان جنديا متطوعا فى جيوش المسلمين وهاجر الى المدينة الكثيرون من بنى أمية ، ليكونوا على مقربة من عاصمة الجاه والنفسوذ فى الامبراطورية الجديدة المتوسعة بسرعة هائلة ، اختار عمر يزيد بن أبى سفيان أميرا لسورية بعد وفاة أبى عبيدة . وعندما توفي يزيد خلفه فى امارته أخوه معاوية ولكن على الرغم من هذه المناصب المهمة التى وصل اليها بنو أمية الا أن بنى هاشم ظلوا يحتلون المكانة الأولى لظهور النبى منهم . ويطمع

الامويون الآن ، بعد وصول أحد رجالهم الى منصب الخلافة في استعادة  
المكانة التي كانوا يحتلوها قبل ظهور رسول الله .

\*\*\*

### تواريخ مشهورة

مصرع عمر بن الخطاب ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ٦٤٤

### شخصيات بارزة

الخليفة الثاني	عمر بن الخطاب
المجوسي قاتل عمر	أبو لؤلؤة
الخليفة الثالث	عثمان بن عفان

### هيئة الشورى

ابن عم النبي	علي بن أبي طالب
الخليفة المنتخب	عثمان بن عفان
بطل حصن بابلين في مصر	الزبير بن العوام
فاتح العراق	سعد بن أبي وقاص
عرضت عليه الخلافة فاعتذر عن قبولها	عبد الرحمن بن عوف





# عشـمات

« هو اول من أقطع القطائع ، واول من حمى الحمى  
واول من خفض صوته بالتكبير واول من خلق المسجد ،  
واول من أمر بالأذان الاول فى الجمعة ، واول من رزق  
المؤذنين واول من ارتج عليه فى الخطبة • واول من قدم  
الخطبة فى العيد على الصلاة ، واول من فوض الى  
الناس اخراج زكاتهم ، واول من ولى الخلافة فى حياة  
أمه ، واول من اتخذ صاحب شرطة ، واول من اتخذ  
المقصورة فى المسجد خوفا من أن يصيبه ما اصاب  
عمر • واول ما وقع فى عهده الاختلاف بين الأمة فخطأ  
بعضهم بعضا فى زمانه فى أشياء نقوموها عليه ، واول من  
هاجر الى الله بأهله ، واول من جمع الناس على حرف  
واحد فى القراءة ، واول منكر ظهر بالمدينة فى عهده ،  
حين فاضت الدنيا ، وانتهى سمن الناس • »

جلال الدين السيوطى فى تاريخ الخلفاء



كان السلام مخيما على كل جزء من أجزاء الامبراطورية العربية الجديدة عندما اغتيل عمر بن الخطاب في عام ٦٤٤ . ولم يكن القتال دائرا الا في فارس على شكل حركة بطيئة من حركات التوسع على عدد من الجبهات المختلفة والبعيدة بعضها عن بعض اذ على الرغم من تحطيم آخر جيش من جيوش يردجود في معركة نهاوند فان المقاومة المحلية ظلت مستمرة في عدد من المناطق الجبلية المختلفة ، ويقول السيوطي ان العرب احتلوا مدينة الري في السنة الاولى من خلافة عثمان بن عفان ، ويبدو ان العرب كانوا قد احتلوها بعد معركة نهاوند ثم أضاعوها وعادوا الى احتلالها ثانية .

ويبدو أن الممرات الجبلية عبر طوروس التي أضحت تفصل الآن بين الممتلكات البيزنطية وبين امارة سوريا العربية لم تكن في هذه المرحلة مسرحا لعمليات حربية رئيسية ويبدو ان هرقل وهو يجلو عن سوريا ، كان قد أصدر أوامره باخلاء عدد من مدن المنطقة وتدميرها رغبة منه في اقامة حزام من الارض الحرام بين الامبراطوريتين . لكن قتالا شديدا دار على أي حال في الشمال البعيد في ارمينيا ، حيث نشبت الثورات عند وصول الانباء اليها معلنة وفاة عمر بن الخطاب . وصدرت الاوامر الى معاوية والى الشام بارسال رتل قوامه ستة آلاف جندي وقيل بل ثمانية آلاف رجل الى ارمينيا بقيادة حبيب بن مسلمة ، وصدرت الاوامر أيضا الى أمير الكوفة بأن يرسل قوة أخرى قوامها ستة آلاف من الموصل باتجاه الشمال . وقد التقى الرتلان ، ولكن الاحتكاك وقع بين قائديهما واختلعا على القيادة العامة وعلى اقتسام الغنائم ، وادى هذا الاختلاف الى افتراق الرتلين ثانية بحيث اتجه القادم من سوريا نحو الشمال أيضا باتجاه حدود جورجيا . وقد تصالحت عدة مدن وقرى مع الغزاة بعد أن وافق أهلها على أداء الجزية والخراج وفق الشروط المألوفة وتصالحت مدينة تفليس على نفس الشروط المألوفة ، ووجد العرب أنفسهم وجها لوجه أمام حاجز طبيعي تكسوه الثلوج هو جبال القفقاس .

وكان الرتل القادم من العراق ، قد شق طريقه في غضون ذلك الى الشمال نحو الطرف الشرقي من القفقاس ، الى الجنوب من مدينة باكو .

الحالية ، ولكنهم وجدوا أنفسهم فى مكان ما فى هذه المنطقة وجها لوجه أمام قبائل الخزر . وتمكن الخزر من اباداة القوة الاسلامية التى تبلغ نحواً من أربعة آلاف مقاتل . اذ أحاط بهم العدو بقوات هائلة وظلوا يقاتلون حتى استشهد آخرهم ، وهم يهتفون حتى النفس الاخير ، الله أكبر ، لا اله الا الله » (١) .

وعلى الرغم من مثل هذه النكسات والاحداث المؤسفة فقد تمكن العرب من فرض حد كبير من السيطرة فى أعوام ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ على جميع المنطقة الممتدة حتى القفقاس وظلوا يعينون العمال والولاة لارمينيا واذربيجان . لكن وضع الحدود ظل مضطرباً ولا سيما بالنسبة الى مناطق الخزر . وكان هؤلاء يؤلفون شعباً من أصل تركى، تمكن فى القرن السابع من السيطرة على جميع المنطقة الممتدة من القرم الى بحر قزوين . وكان خانات الخزر قد أعانوا هرقل بجيش قوامه أربعون ألفاً من الرجال فى حملاته على كسرى أبرويز . وعندما وصل العرب الى أرمينيا بعد معركة نهاوند فى عام ٦٤٢ ، تعاون الخزر مع الروم فى الدفاع عن أرمينيا . وقد قدر للحروب بين العرب والخزر أن تستمر زهاء قرن من الزمن ظل القتال فيها سجالاً الى أن أذعن الخاقان فى عام ٧٣٧ وأشهر اسلامه وخضعت منذ ذلك التاريخ جميع شعوب القفقاس للإمبراطورية العربية الى أن انهارت نهائياً .

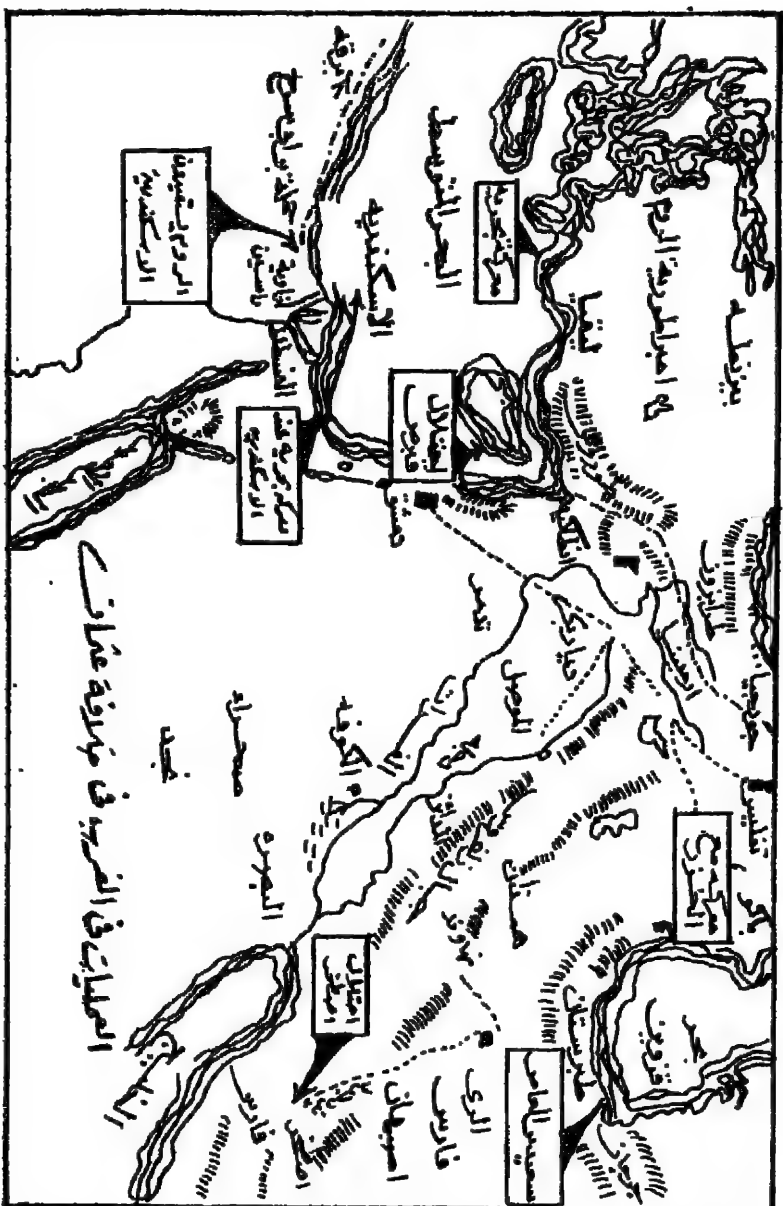
### \*\*\*

وبينما كانت العمليات العسكرية مستمرة فى أرمينيا وفارس وقعت أزمة عنيفة فى مصر فجأة . ويذكر القارىء ولا شك ان عمر بن الخطاب كان قد وجه اللوم الى عامله فى مصر ، عمرو بن العاص ، على تقاعسه عن جباية الخراج والجزية مطالباً إياه بزيادة ما يجبيه . وكان من آخر ما قام به الخليفة من أعمال قبيل مصرعه إفاده رجلاً يدعى عبد الله بن أبى سرح ، ليتولى عملية جمع الخراج ؛ مؤكداً بذلك شكوكه فى نزاهة عمرو بن العاص .

---

(١) يختلف رواية المؤلف هنا عن معظم الروايات الاسلامية . لقد قيل ان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى أوغل فى بلاد الخزر حتى وصل بلنجر وهي أكبر مدنها خلف باب الابواب ولكن الترك تجمعوا على العرب هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فاصيب عبد الرحمن وانهزم المسلمون ففرقوا فرقتين فرقة عادت لقاتلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد ارسل مبدداً لاخته فنجت ، وفرقة اخرى اخذت طريق جيلان وجرجان .

( العرب )



وكان لعبد الله بن سعد بن أبي سرح هذا تاريخ مطعون فيه . فلقد كان أخا لعثمان بن عفان في الرضاعة . وكان من أوائل المسلمين . وهاجر مع النبي الى المدينة فرارا من اضطهاد قريش . ويبدو أنه كان أكثر تعليما من سائر قريش فاختره النبي كاتباً له لتدوين آيات القرآن الكريم . ولكنه ما لبث لأسباب نجهلها أن فر من المدينة الى مكة ، حيث ارتد عن الاسلام واخذ يطعن في النبي ، مثيرا الشكوك في صدق نبوته . ولا ريب في ان هذه الخيانة في شخص كان موضع ثقة الرسول ، أثارت عليه سخطا عنيفا عند المسلمين . وعندما فتح النبي مكة كان ابن أبي سرح احد القلائل الذين لم يشملهم عفو النبي ، فظل مختبئا امدا من الزمن الى أن عفا عنه الرسول تحت تأثير شفاعة أخيه بالرضاعة عثمان ، وان كان النبي قد ذكر بأنه اجل اصدار العفو عنه ، املا في ان يقتله احد المسلمين . هذا هو الرجل الذي اوفده عمر بن الخطاب لجباية الخراج من المصريين . وليس ثمة شك في كفاية الرجل ، وفي براعته في جمع الخراج ، وان كان مطعونا في اسلامه من الزاوية الدينية . ولعل من الغريب كل الغرابة ان يعين عمر بن الخطاب مثل هذا الرجل ، لا سيما وأنه كان قد أقال عددا من كبار القادة العسكريين من مناصبهم لما قيل عن تهاونهم في شئون الدين . والمعتقد ان هذا الرجل كان ذا كفاية بالغة في اعمال الادارة ، وهو امر كان نادر الوجود بين المسلمين الأوائل .

ولم تمض على تعيين ابن أبي سرح في هذا المنصب فترة قصيرة حتى كان مصرع عمر بن الخطاب ، مما أدى الى تبدل الاوضاع كل التبدل بالنسبة الى هذا الرجل . فالخليفة الجديد أخوه في الرضاعة . وكان أول ما قام به من أعمال عزله عمرو بن العاص من منصبه ، وتعيينه ابن أبي سرح ، أميراً لمصر ، وقائدا عاما للجيش فيها . وقد رافقت تعيينه أوامر جديدة ، بأن يحصل على المزيد من المال من أعمال الجباية من المصريين ، وقد شرع ينفذ هذه الاوامر بعزيمة مطلقة . وسرعان ما ارتفعت صيحات الاحتجاج من الذين تناولتهم هذه الضرائب . وبعثت جماعة من كبار الاسكندرية برسالة سرية الى الامبراطور كونستانس في بيزنطة ، يناشدونه فيها إعادة احتلال مصر وانقاذهم من ظلم العرب .

وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر ، ولذا كان احتمال غزوهم لمصر شيئا ممكنا . وأخلوا يحشدون أسطولا ضخما في منتهى السرية

لتنفيذ هذه الغاية ولم تكن هناك مراكب عربية تمخر عباب البحر المتوسط ، ولم يصل الى مصر أى اشعار عما يدبر لها بليل من غزو مرتب ، وشاهد اهل الاسكندرية فجأة فجر أحد الايام من خريف عام ٦٤٥ أسطولا يتألف من نحو ثلثمائة سفينة يقترب من الميناء . ومرعان ما هبطت جنود الروم أرض المدينة وأعملوا السيف فى حامية المسلمين التى يريد تعدادها على الف رجل وحصن البيزنطيون أسوار المدينة ، وعادت الاسكندرية من جديد الى حكم الروم . ولم ينتظر الروم هجوم العرب المضاد المحتوم بل سارعوا بالخروج من المدينة واجتاحوا جزءا كبيرا من أدانى الدلتا . وبعد أن حقق مانويل قائد الروم هدفه الأول على هذا النحو الظافر المنتصر ، بدا وكأنه لم يضع أى مخطط للمرحلة الثانية من استعادة البلاد . ويشير اليه مؤرخو العرب باسم مانويل الخصى ، فهل كان ياترى من بطانة القصر وليس جنديا محترفا ؟ لكننا فى عهد جوستينيان ، رأينا خصيا آخر هو نارسيس يقيم الدليل على انه قائد عسكري عظيم . ومهما كانت طبيعة هذا القائد فقد رأينا جيش الروم ينتشر فى أراضى الدلتا ناهبا سائبا ومصادرا المؤن بدلا من أن يعد العدة للمعركة المنتظرة . ومن المحتمل أن يكون هدف الروم جمع المؤن فى الاسكندرية تمهيدا لحصارها . مع ان تموينها كان عملا فى منتهى السهولة من ناحية البحر .

ولم تكده هذه الأزمة تنشب فى مصر ، حتى كان عثمان يبادر على الفور الى اعادة تعيين عمرو بن العاص ، قائدا عاما للجيش فيها ، فيوفده على جناح السرعة اليها . ولو قدر للروم أن يزحفوا مباشرة الى حصن بابليون والفسطاط عند رأس الدلتا لاحتلوا عاصمة مصر الجديدة، قبل أن يقدر لعمر بن العاص الوصول اليها . وكان فى امكانهم أيضا أن يقيموا قلعة منيعة فى الاسكندرية وأن يؤمنوا تموينها من البحر ويجعلوها عاصمة على الفتى الى أن تخين الفرصة من جديد لاستعادة مصر كلها .

ولقد سبق لنا أن رأينا العرب فى جميع حملاتهم السابقة ، تواقين دائما الى القتال فى الاراضى المكشوفة . ورأيانهم يبرعون كل البراعة فى اجتذاب أعدائهم واخراجهم من حصونهم ، أو من المناطق الضيقة المحصورة ، ليقاتلوههم ويهزموهم فى الصحراء أو على أطرافها . ولا ريب فى أن عمرو بن العاص كان من أبرع القادة العرب فى استغلال هذا الأسلوب التعبوى . فلو ظل الجيش البيزنطى الذى لم يقهر بعد وراء

الاسكندرية ، لما استطاع العرب إعادة احتلالها أبدا أو حتى يضمنوا سيادة البحر لانفسهم . وعلى ضوء هذا التفكير أطال عمرو بن العاص مكثه فى حصن بابليون طمعا فى جر الروم الى حربه فى الجنوب . ولكن عندما وصل نيكيو ( زاوية راسين ) على بعد مائة ميل الى الجنوب من الاسكندرية ، قابلهم فيها عمرو بن العاص على رأس جيشه الذى يعد خمسة عشر ألف عربى . ونشبت معركة دموية حامية ظل فيها النصر معلقا فى كفة القدر مدة طويلة . وأخيرا انهار جيش الروم وشرع فى التراجع . وسرعان ما تحول الانسحاب الى هزيمة ، ووصلت فلولهم الى الاسكندرية فى حالة فظيعة من الفوضى والاضطراب بعد أن فرت مسافة مائة ميل طاردتهم فيها قوات العرب . لكنهم أفلحوا على أى حال فى دخول المدينة واغلاق أبوابها عليهم واضطر عمرو الى المرافطة فى الجانب الشرقى وهو الجانب الوحيد الخالى من البحيرات والقنوات متطلعا بشعور من العجز الى أسوار المدينة وأبراجها .

وما زالت الطريقة التى استعاد فيها العرب الاسكندرية هذه المرة موضع الشك اذ أنها محوطة بالغموض والالتباس . ولعل أصدق الروايات التى نقلت الينا فى هذا الصدد تلك التى تقول . ان أحد القادة من الروم ، وكان مسئولاً عن أحد الأبواب اتصل سرا بعمر بن العاص عارضا عليه أن يفتح أبواب المدينة للعرب . ومن المحتمل أن يكون أحد الاقباط هو الذى قام بهذا العمل ثارا لما أصابه أو أصاب بعض أقاربه من اضطهاد الروم الدينى أثناء الحكم البيزنطى . وسرعان ما تدفق العرب على المدينة التى أعملوا فيها القتل والسبي والسلب . وعندما تم تدمير نصف المدينة أصدر عمرو أمره بوقف أعمال الشدة والعنف . وتمكن شطر من جيش الروم من النجاة عن طريق البحر ولكن الكثيرين من جنودهم لقوا حتوفهم وبينهم قائدهم منوبل نفسه . وقد وقع احتلال الاسكندرية للمرة الثانية فى صيف عام ٦٤٦ بعد أن استفرقت الحملة زهاء تسعة أشهر (١) .

---

(١) تختلف رواية المؤلف بمض الاختلاف من روايات المؤرخين المسلمين اذ يقول البلاذرى ان الروم كتبوا الى قسطنطين بن هرقل ، يخبرونه بقله من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الدلة واداء الجزية فبعث رجلا من أصحابه يقال له منوبل في لالائة مركب مشحونة بالمقاتلة فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجوا وذلك في سنة خمس وعشرين وبلغ الخبر عمرو بن العاص فسار اليهم في =



ولما كان العرب قد احتلوا الاسكندرية مرتين اولاهما نتيجة المفاوضات مع المقدس والثانية عنوة ، فان البلبلة التى أحدثتها هذه الحقيقة أربكت المؤرخين ارباكا لا يقل عن ارباك معركتى اليرموك لهم . وكانت لتقرير موضوع الفتح وهل كان صلحا أو عنوة ، أهمية كبيرة من الناحية القضائية بالنسبة للأجيال اللاحقة ، ففي الحالات التى كانت بعض المدن فيها تخضع طواعية كان هناك اتفاقات للصلح تنص على شروط التسليم وعلى مبلغ الجزية التى تفرض ، ولا ريب فى أن العرب احترموا هذه الشروط غاية الاحترام ، ووفوا بها تمام الوفاء أما اذا دخلوا بلدة عنوة فليس لاهلها حقوق . وانما هم رقيق للفاتحين . وبعد أن مرت قرون طوال ثبتت فيها أقدم الامبراطورية ، لم يكن فى الامكان التثبت من حقوق أية مدينة أو مقاطعة الا اذا عرف ما اذا كانت قد استسلمت طواعية أو عنفا عند فتحها . وكان فى الامكان الرد على هذا السؤال دائما بسهولة ، ففي أيام الفتح لم تكن عند العرب سجلات . ولم يكن التاريخ يهمهم فى قليل أو كثير . وكانت اماكن كثيرة قد استسلمت صلحا ثم عادت فثارت وأعاد العرب احتلالها عنوة . وشغلت الخلافات الناجمة عن هذه الاوضاع فقهاء المسلمين قرونا وأجيالا .

ويبدو أن الاقباط ظلوا الى حد بعيد أن لم يكن كلية على الحياد بان هذا الفتح الثانى للاسكندرية . ويقول المؤرخ بتلر ان بنيامين بطريق القبط طلب مقابلة عمرو بن العاص . وبين له أن النصرارى الارثوذكس وحدهم هم الذين نصروا مانويل . وأمر عمرو على أى حال بهدم أسوار الاسكندرية من ناحية الشرق ليحول بين المدينة وبين اطلاق أبوابها دون العرب من جديد .

ووقع حادث طريف فى هذه الآونة ، أراه جديرا بالتسجيل . خلقد تقدم أهل عدد من القرى القبطية الى عمرو بن العاص بعد استرجاعه للاسكندرية بشكوى يؤكدون فيها عدم اشتراكهم فى الثورة ، وانهم

---

= خمسة عشر ألفا فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يمشون فيما يلى الاسكندرية من قرى مصر فلقبهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون متترسون ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب فاقتلوا قتلا شديدا . ثم ان أولئك القفرة ولوا منهزمين فلم يكن لهم ناهية ولا هرجة دون الاسكندرية فتحصنوا بها ونصبوا الرادات فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ونصب الجانيق فأخرب جدرها وألج بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى اللرية ، وهرب بعض رومها الى الروم وقتل عدو الله منويل ، وهدم عمرو جدار الاسكندرية .

( العرب )

على النقيض من ذلك تعرضوا لنهب جيش الروم الذي صادر كل ما عندهم من غذاء دون أن يسدد لهم أثمانه وأضافوا ان المعاهدة الاصلية التي عقدها مع عمرو عند فتح مصر أول مرة قد فرضت عليهم الجزية ، مقابل تولى العرب حمايتهم ولكن العرب لم يحموهم أبان غزوة مانويل واحتملوا من جراء ذلك خسائر فادحة . وأقر عمرو على الفور بعدالة شكواهم وأمر بدفع التعويض للخسائر التي منوا بها . ومن العدل أن نعترف هنا بأن العرب كانوا في هذه الآونة جد حريصين على الوفاء بالتزاماتهم المقابلة التي نصت عليها معاهدات الصلح مع الشعوب المحتلة . وكانوا يصرون على أن تدفع هذه الشعوب الجزية كاملة مع الخراج ولكنهم كانوا يقرون في الوقت نفسه بالالتزام المفروض عليهم لحماية هذه الشعوب التي أضحت تحت وصايتهم .

ولعل من الغريب أن نلاحظ هنا ان الخليفة عثمان الذي كان قد أقال عمرو بن العاص فور توليه الخلافة والذي أعاده الى مصر بعد عودة الروم الى غزوها ، عاد فأقاله من جديد بعد أن حقق النصر ومرت الأزمة الخطرة . ومن الحق أن نقول ان الخليفة اقترح على عمرو أولا البقاء قائدا عاما ليس الا على أن يصبح عبد الله بن أبى سرح مسئولاً عن الادارة المالية والضرائب . وقد يبدو هذا التقسيم للعمل مشروعا بالنسبة الى الأوربيين المعاصرين ، ولكن حرى بنا أن نذكر أن عمرا كان في البداية حاكما عاما مطلقا في مصر وكان هو الذي حدد الضرائب وجباها . وان اللوم وجه اليه على اعتبار أن ما جباه من الناس لم يكن كافيا ، وان عبد الله بن أبى سرح أوفد الى مصر وهدفه المزيد من الجباية ولما كان عمرو قد نال من المكانة ما ناله بفضل احتلاله مصر مرتين ، فمن الواضح ان الاقباط لو وجدوا أنفسهم مرغمين على زيادة ما يدفعونه من الضرائب على الحد الذي كان عمرو نفسه قد فرضه عليهم ، لما ترددوا لحظة واحدة في الاسراع بالشكوى اليه . وكان لابد والحالة هذه أن ينشأ الاحتكاك بين ابن أبى سرح وبين القائد العام . ومن هنا كان رد عمرو على اقتراح الخليفة بقوله : « أنا كما سكت قرنى البقرة ، والامير يحلبها » وعندما تسلم عثمان هذا الرد من عمرو أمر بعزله من جميع مناصبه وعين ابن أبى سرح للمرة الثانية واليا لمصر وقائدا عاما للجيش فيها . وحرى بنا أن نذكر هنا ان الامير الجديد كان أخا لعثمان في الرضاع ويبدو أن المؤرخ بتلر قد ضاع في خضم الروايات التي وصلت الينا عن شخصية الامير الجديد . فلقد وصفه المؤرخ العربي النووي بأنه من أنبل رجال قريش وأكثرهم ذكاء . أما الطبري فقد وصفه من الناحية الاخرى بأنه

كان أسوأ عمال عثمان • لكننى لا أرى كبتلر تناقضا فى الوصفين •  
 فلقد كان ابن أبى سرح ولا ريب رجلا فى منتهى الكفاية وكان فى الوقت  
 نفسه من قريش ومن بنى أمية ، وشقيق الخليفة الحاكم فى الرضاع  
 ومثل هذا النسب كفى بأن يجعله كما قال النووى من أنبل رجال  
 قريش • ولكن ابتزازه للضرائب الثقيلة من المصريين السيئى الحظ  
 بامارته يبرر وصف الطبرى له بأنه أسوأ من اختارهم عثمان لامارة  
 الأمصار فى عهده •

ويذكر القارىء أخيرا أن الخليفة السابق عمر بن الخطاب كان قد  
 اتهم عمرو بن العاص فى نزاهته ، وأوفد مندوبا له لمصادرة نصف  
 ما يملكه • ولست أرى فى هذا الاجراء من إفاد إدارى أكثر علما وخبرة  
 فى الحساب الا اجراء فى منتهى التعقل والحكمة بعد أن ثارت الشكوك  
 فى نزاهة القائد العسكرى • ونرى بتلر مع ذلك ينقل عن المؤرخ  
 الأجنبى سيفيروس قوله أن ابن أبى سرح كان « يتعشق المال ، ويجمع  
 الثروات لنفسه » وأنا لا أريد أن أبرء القائد أو الادارى من الشك  
 فى انهما جمعا المال لنفسيهما ، لكننى أقول ان احتلال مصر تم بفضل  
 مبادرة عمرو بن العاص ، يضاف الى هذا أنه احتل البلاد مرتين وكان معظم  
 الفضل فى كلتا المرتين لبراعته الشخصية فى القيادة • ولم يكن العرب  
 قد برعوا حتى ذلك التاريخ فى الاساليب الماكرة التى تلجأ اليها الحكومات  
 الحديثة للخلاص من موظف لا ترغب فيه عن طريق نقله الى دائرة أخرى  
 فى مركز أكبر وجعل أضخم ، وأرى أن عزل عمرو بن العاص قد كلف  
 العرب ثمنا باهظا للغاية •

وأراد أمير مصر الجديد أن يحرز نصرا معادلا لما حققه سلفه المعزول  
 من الناحية العسكرية فراح يعد فى عام ٦٤٧ حملة لغزو الشمال الأفريقى  
 وبعث له أخوه فى الرضاع الخليفة عثمان من المدينة بجيش قوامه  
 عشرون ألف جندى بينهم عدد كبير من الاحياء من صحابة الرسول ،  
 وعدد من المتطوعين من كبار أبناء قريش بينهم عبد الرحمن بن أبى بكر  
 وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومعبد بن العباس وعبد الله بن الزبير ،  
 وقد انضم الى هذا الجيش جيش كبير آخر يعد عشرين ألفا من القوات  
 العاملة فى مصر ومارس الجيشان بقيادة ابن أبى سرح يحتاج الصحراء  
 الغريبة • ولقد شككا الاغريق والرومان دائما من صعوبة المواصلات  
 فى صحارى افريقيا الشمالية ، وانتقلت العنوى فيما بعد الى البريطانيين  
 والامان والاطالين ابان الحرب العالمية الثانية ولكن هذه المواصلات لم

تكن تؤلف مشكلة للعرب مع وجود الجمل حليفهم الطبيعي في الصحراء  
اذ كانوا في زحفهم في الصحراء يمتطون الجمل ويقودون الجياد من  
أعنتها الطويلة . وكان في مكنة الجمل أن يحمل بالاضافة الى هيجانه  
ومتاعه ، العلف والماء لاطعام الجياد وسقائها .

ويذكر القاريء ولا شك أن عمرو بن العاص دفع جيوشه بعد  
استسلام الاسكندرية الى شمال افريقيا حيث استسلمت له طرابلس .  
ولكن يبدو أن المدينة عادت فارتدت بعد رحيله ودانت بالولاء من جديد  
للبيزنطيين اذ قيل ان ابن أبي سرح عاد ففرض الحصار عليها ابان هذه  
الحملة من جديد .

وكانت قرطاجنة القديمة عاصمة الشمال الافريقي وفيها اقام  
جرجوريوس الحاكم البيزنطي عاصمته وبلاطه . وكانت صلاحياته تمتد  
فتشمل ولو بصورة نظرية المنطقة الممتدة بين طرابلس وطنجة . وقد  
حشد هذا الحاكم جيشا تقدم به لنجدة طرابلس . ويقول المؤرخون  
العرب وهم مبالغون دائما الى المبالغة في ذكر عدد العدو أن جيش  
جرجوريوس كان يعد مائة وعشرين ألفا ، وأنا أعتقد أن تحريك مثل  
هذا الجيش وتأمينه بالماء والغذاء في شمال افريقيا وبوسائل النقل  
التوافرة في القرن السابع عملية مستحيلة . ولا ريب في أننا نكون  
أقرب الى الصديق والصواب لو قدرنا جيوش تلك الايام بعدد يتراوح  
بين العشرين ألفا والثلاثين ليس الا .

ولما كان العرب لم يبرعوا بعد في حروب الحصار ، فانهم سروا  
ولا شك من احتمال اشتباكهم مع العدو في معركة صحراوية مكشوفة ،  
اذ أن هذا الشكل من الحروب هو الذي أكسبهم حتى الآن أعظم  
انتصاراتهم . وكان في قدرة البيزنطيين بوصفهم المسيطرين على البحر  
أن يحافظوا على أنفسهم في قرطاجنة وطرابلس والمسن الساحلية  
الآخري . ولكن العرب كانوا ينتشرون في المناطق السهلية الواقعة الى  
الجنوب من قرطاجنة . ولا ريب في أن البربر الذين كانوا يؤلفون الجزء  
الاكبر من أهل الارياف الذين تأثروا من غارات العرب كانوا يصرون على  
خوض معركة فورية معهم . وقد سبق لنا أن رأينا في فصل سابق  
العرب على حوض الفرات يستعملون الغارات السريعة بانتظام لارغام عدو  
يرغب في أن يخوض حربا دفاعية على الخروج من حصونه وقتالهم .  
ونشببت المعركة في سفلة التي يسمونها اليوم سبتلة ، وقد

استغرقت بضعة أيام وتروى لنا القصص الرومانطيقية كيف حاول جريجوريوس ايقاد شعلة الحماس في أفئدة الشبان من رجاله فوجد بيد ابنته الجميلة الى الجندي الذي يقتل ابن أبي سرح قائد العرب . وقد يكون من الخطأ أن ننظر الى ابن أبي سرح على أنه مالى ذو كفاية ليس الا ، اذ يقال انه كان من أشجع الفرسان أيضا . ولكن يبدو أنه كان من المؤمنين بسياسة العقل والمنطق أكثر من ايمانه بالخيال ولم يكن يوى أن من واجب القائد العام أن يتولى قيادة الهجوم بنفسه . ويقال بأنه أوى الى خيمته عندما سمع بأن جريجوريوس قد وعد بمثل هذه الجائزة الضخمة ثمنا لرأسه .

ويذكر القارىء ولا شك أن الزبير كان من أولئك المسلمين وكان الرجل الذى قاد هجوم السلام عند اقتحام حصن بابليون ، كما كان عضوا في هيئة الشورى التى اختارها عمر بن الخطاب لانتخاب خليفته . ويقال بأن عبد الله ولده كان شاهدا في هذه المعركة وأنه احتج على غياب ابن أبي سرح عن القتال وأنه حثه على أن يقلب حيلة جريجوريوس رأسا على عقب بأن يعد بيد ابنة الأخير لآى جندي مسلم يقتل القائد الروماني .

ولجأ العرب أخيرا الى خطة سوقية . ولعل مما يستلفت النظر أن المؤرخين العرب كثيرا ما يذكرون أمثال هذه المناورات التى يبدو انها كانت ناجحة دائما . فلقد كان العرب وما زالوا شعبا شديد الذكاء للغاية وحاضر البديهة دائما . يضاف الى هذا أن جيشهم لم يكن عريقا تقيده التقاليد وتحد من حريته ، وانما كانوا يحاربون على ضوء الطبيعة أما قادة جيوش الروم والفرس ، فكانت لهم آراء جامدة عن الطريقة التى تسير فيها الحروب ، وكانوا ولا شك عاجزين عن تكييف أساليبهم ليواجهوا عدوا جديدا وعلى أرض مختلفة .

وكان قد انقضى على المعركة عدة أيام ، وكان الجيشان المتحاربان يقضيان الاصبحة والامسيات في شكل اشتباكات ومبارزات فردية ومناورات . وعندما تحل الظهيرة وتشتد حرارة الشمس كان الفريقان ينسحبان الى خطوطهما . واتبع الفريقان ذات يوم عند الظهيرة اجراءهما المألوف وانسحب الجيشان الى معسكريهما للراحة ولسقاية الجنود والخيول . وكان الروم كالعادة قد رفعوا الاسرحة عن خيولهم ونزع الفرسان عنهم دروعهم عندما فاجأهم العرب بهجوم مفاجئ وغير متوقع وكانت المباغتة هائلة واحاقت بالاعداء هزيمة شنيعة قتل ابانها

جريجوريوس نفسه . وقيل ان قاتله كان عبد الله بن الزبير . ويبدو أن ابن أبي سرح اقترب خطأ في إيفاده ابن الزبير الى المدينة يحمل اليها أنباء النصر متيحاً له المجال لينسب النصر الى نصيحته وليدعى قتل قائد الروم . وتختلف الروايات لسوء الحظ في المصير النهائي الذي حل بابنة جريجوريوس الجميلة .

وعاد ابن أبي سرح ظافراً منتصراً الى مصر مثقلاً بالغنائم ومرسلاً الى العبودية عدة الوف من الأسرى . لكن الفتح لم تثبت دعائمه بعد كما لم تجر أية محاولة كما يبدو لاقامة ادارة حكومية في مقاطعة طرابلس . لكن الحملة لم تؤد على اى حال الى الرفع من سمعة عثمان بن عفان الخليفة الجديد وانما أدت الى العكس من ذلك تماما . ويذكر القارئ ولا شك أن محمداً نفسه قد قضى بأن يكون خمس الغنائم التي تكسب في الحرب من نصيب الخزانة العامة او بيت مال المسلمين ، وأن تقسم الأخماس الأربعة الباقية على الجنود . وقد سمح الخليفة الآن لابن أبي سرح بأن يحتفظ لنفسه بخمس الفئء اى بخمس حصة بيت المال ، وأن يبعث ما تبقى منه الى المدينة ، ولم يكتف عثمان بهذا بل انه راح تلبية لنصحاء السوء يسلم ما وصل من الفئء الى المدينة الى ابن عم آخر له يدعى مروان ليتصرف فيه بكامله ، وقد قدر لسوء التصرف هذا أن يلعب دوراً مهماً في المشاكل اللاحقة .



ويذكر القارئ ولا شك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد عين معاوية بن أبي سفيان أميراً على سوريا وكان معاوية هذا رجلاً ذا كفايات نادرة . وقد واجهته مشكلة الدفاع عن سوريا ضد الروم ، فأدرك أن ليس ثمة كبير خطر يخشاه من ناحية البر ، لكن معظم المدن الغنية والمناطق الكثيرة المحصوبة تقع على سواحل البحر المتوسط . يضاف الى هذا أن العنصر العربي لم يتسلل قط بنفوذه الى المناطق الساحلية كما كانت الحالة بالنسبة الى المناطق الواقعة على أكناف الصحراء . وكان البحر المتوسط لعدة قرون الطريق الرئيسية للامبراطورية الرومانية ثم للامبراطورية البيزنطية بعدها . وكانت جميع المقاطعات الرومانية تقوم على شواطئه باستثناء فرنسا الشمالية وبريطانيا . وكان سلطان الرومان يعتمد لمدة ستة قرون على القيادة البحرية في البحر المتوسط . ولم تكن هناك أية مراكب عربية قد ظهرت في وسط البحر . وما دام في وسع الاسطول البيزنطي

أن يمحّر عباب هذا البحر دون أى اعتراض فإن سواحل سورية وفلسطين  
ومصر لن تكون فى نجوة من الغارات أو من الغزو .

وكان معاوية أول من فهم هذه الحقائق وأدركها فكتب الى عمر  
ابن الخطاب يطلب منه الاذن له ببناء اسطول عربى ، وارتعد الخليفة  
العجوز، الذى رأيناه يعرب عن اعتقاده بأن كل ما يصلح للجمل يصلح  
للعرب ، من هذا الاقتراح الحديث الجريء ، وبعث الى فاتح مصر  
عمرو بن العاص يسأله أن يصف له العمليات البحرية وراح عمرو  
بما عرف عنه من براعة يصف فى رده المحاربين فى البحر على ظهر  
السفينة بأنهم أشبه ما يكونون بمجموعة من الهوام تتعلق بقطعة خشب  
تلب بها الرياح ذات اليمين وذات الشمال . وقرع الخليفة الحذر من  
فكرة رؤية المحاربين العرب فى مثل هذا الوضع الشاذ والمزرى وكتب  
فورا الى معاوية يمنعه منعا باتا من دفع أى عربى الى الحرب فى  
البحر . (١)

فلما كان زمن عثمان بن عفان بعث اليه أخوه فتح الرضاع عبد الله  
ابن أبى سرح يحثه على بناء أسطول للعرب ، وعاد معاوية وهو أموى  
أيضا فكرر الطلب وسرعان ما أذن عثمان له ببناء الاسطول . ويبدو  
أن معاوية وابن أبى سرح وهما رجلان معروفان بثاقب بصيرتهما  
وعملية تفكيرهما قد تعاونا فى هذه المهمة . وقد صدر اقتراح القيام  
للمرة الاولى بعمليات برمائية مشتركة عن معاوية فقد كتب الى عثمان  
يقول له ان قبرص قريبة جدا من ساحل سوريا حتى ان أهل هذا  
الساحل يسمعون نباح الكلاب فيها . وحرى بنا أن نذكر أن عثمان  
رفض فى المرة الاولى الاستجابة لطلب معاوية قائلا له انه كان قد شهد  
ما رد عليه عمر رحمه الله حين استأذنه فى غزو البحر . وتبين من هذا  
الرد أن عمر درج فى الأيام الأخيرة من خلافته على الاحتفاظ بنسخ من  
مكتاباته مما يشير الى تقدم عظيم عن الأيام التى كانت الأوامر المتعلقة  
بالاحداث العظمى تصدر شفوية . وأخيرا أصعد عثمان اذنه مترددا  
محججا بعد أن قرأ المكاتبات المتبادلة السابقة . وقد جاء هذا الاذن

---

(١) يقول مؤرخو العرب ان عمر كتب الى عمرو بن العاص يقول له : صف لى  
البحر وراكبه فان نفسى تنازعنى اليه لكتب اليه عمرو : انى رأيت خلقا كبيرا يركبه  
خلق صغير ، ان دكن خرق القلوب وان تحرك أراغ القلوب ، يرداد فيه البقيث قلة  
والشك كثرة هم فيه كدود على هود ، ان مال غرق وان نجا يرق لا للمسا قراء  
عمر كتب الى معاوية : لا والذي بعث محمدا بالحق ، لا أحمل فيه مسلما أبدا .

( العرب )

مشروطا بالا يحمل معاوية في ركوب البحر الا من يندب نفسه متطوعا لذلك وأن يحمل معاوية معه امرائه . والمفروض أن يكون الهدف من هذا الشرط تشييط همة معاوية عن القيام بمثل هذه المغامرة الخطرة وانضم ابن أبي سرح في عام ٦٤٩ الى الاسطول السورى الضخم بأسطول أعده في مصر . وكان بحارته من المصريين بينما كان محاربوه من العرب . والمقصود من هذا أن مهمة البحارة اقتصرت على التجديف وعلى قيادة المراكب ولم يكن لها شأن في القتال . ولم يكد العرب ينزلون الى البر في الجزيرة ، حتى كان حاكمها الرومانى يعرض التسليم قبل أن ينشب أى قتال . وعقدت معاهدة غريبة بين الفريقين نصت على أن يدفع أهل الجزيرة الى العرب جزية سنوية قدرها ( ٧٢٠,٠ ) دينار وهو عين ماكانوا يدفعونه الى الروم . وتضمن الاتفاق بندا ترك لأهل قبرص الحق فى مواصلة الدفع الى الحكومة البيزنطية فى الوقت نفسه . وهكذا أصبح أهل قبرص بعد توقيع الاتفاق يدفعون الجزية فى آن واحد الى المدينة والقسطنطينية . وأقرت بنود أخرى بحياة الجزيرة فى حالة نشوب القتال بين العرب والروم ولكنها تركت لأهل قبرص الخيار فى اطلاع العرب على حركات الروم البحرية . ولا ريب فى أن المفاجأة الكاملة التى حققها مانويل فى هجومه على الاسكندرية بينت للقادة العرب ضرورة استخدام المخابرات لمعرفة حركات أسطول العدو .

وأرى لزاما على أن أوصل هنا الحديث عن العمليات البحرية حتى ولو خرجت قى الحديث عنها عن نطاق التسلسل الزمنى المتزمت ، ففي عام ٦٥٢ أى بعد ثلاث سنوات من احتلال جزيرة قبرص دفع الروم بأسطول ضخم الى البحر ظهر أمام الاسكندرية مستهدفا كما يبدو احتلال المدينة من جديد ، لكن العرب كانوا قد حصنوا على معلومات مسبقة فى هذه المرة ، وراح ابن أبي سرح يجمع كل ما أمكنه من مراكب فى مصر أو على السواحل الغربية منها فى شمال افريقيا . وخفتت الرياح فى المساء وقضى الاسطولان الليل وهما راسيان بعيدا عن الساحل . ودارت معركة حامية الوطيس فى اليوم التالى . واختلط الحابل بالنابل بين الاسطولين ، وتماسكت المراكب وتشابكت الأيدي فى قتال يائس استخدمت فيه السيوف والخناجر . وأخيرا أوقف الروم المعركة ، وولوا الادبار عائدين باتجاه الشمال بعد أن أدركوا عجزهم عن النزول الى الساحل ، لكن الأسطول العربى لم يحاول مطاردتهم على أى حال وإن كانت الايام التى كان فيها الاسطول البيزنطى يستطيع



أن يمحى عباب البحر وأن ينزل جنوده حيث شاء دون أن يعترض طريقه أحد قد انقضت الى غير رجعة . وقد يكون ابن أبى سرح من الجشعين الطامعين في المال وفي جمع الثروات وفي ابتزاز أكثر ما يمكن من المصريين السيئى الطالع الا أنه مما لا شك فيه ولا جدال أنه في معركته مع جريجوريوس في شمال افريقيا وفي بنائه للاسطول وفي معركته البحرية أمام الاسكندرية قد أقام الدليل على أنه قائد قدير ورجل ذو كفاية عظيمة .

ويذكر القارىء ولا شك أنه عند ما احتل معاوية قبرص وقع معاهدة مع أهلها سمحت لهم بالبقاء على الحياد في حالة تجدد الحروب بين العرب والروم . ويبدو أن الاتهام قد وجه اليهم الآن بأنهم ساعدوا الاسطول الرومانى في معركته الأخيرة . ولهذا عاد معاوية في عام ٦٥٣ الى غزو قبرص للمرة الثانية بقوة ضخمة . وعوملت البلاد هذه المرة على أنها معادية وقتل عدد كبير من أهلها بينما نقل عدد ضخم آخر منهم الى حياة الرق والاسر . على أى حال أمر معاوية بعقد هذا العمل التاديبى بإعادة العمل بالاتفاق الاصلى مع بقاء حامية عربية في الجزيرة قوامها اثنى عشر ألف رجل .

ووقعت معركةبحرية حاسمة أخرى أسماها العرب ذات الصواري وقد دارت على مقربة من ساحل ليقيا وشنها الامبراطور الرومانى نفسه . وقد تحطم الاسطول الرومانى بعد معركة ضارية واضطرت فلوله الى الانسحاب . وقد اضاع الرومان في هذه العمليات الحربية التى يرجع الفضل فيها الى معاوية سيادتهم على البحر وكانت خسارتهم للسيطرة الحربية أكبر ضربة منى بها خلفاء هرقل الضعفاء ولو كان الامبراطور المعجوز لا يزال على قيد الحياة لما قبل هذه الخسارة على هذا النحو من الضعف والجبن ، فلقد كانت سيطرته على البحر الاسود هى التى مكنته مدة أربع سنوات من الحفاظ على جيشه في ارمينيا بينما كان جيش الفرس يربط فعلا خارج أسوار القسطنطينية . وكانت استعادة سوريا ومصر وفلسطين قيد الاحتمال طالما أن سيطرتهم قائمة على البحر المتوسط . أما وقد حقق العرب هذا التفوق البحرى أيضا فان خسارة الروم لاماراتهم السابقة أصبحت نهائية ولا ردة لها وهو ما توقعه معاوية وأدركه الإدراك .

\*\*\*

ثم فتح بلاد فارس بأكملها في عهد عمر بن الخطاب . ولكن كما

نشبت الثورة العامة في الجزيرة العربية ممثلة في ردة القبائل بعد وفاة النبي فان مقتل عمر بن الخطاب كان بمثابة اطلاق الاشارة للثورة العامة في جميع ربوع فارس .

وعلى الرغم من أن يزدجرد كان لا يزال على قيد الحياة الا أن حكمته وسلطته كانتا قد زالتا مما قد أدى الى عدم الترابط بين الثورات لعدم وجود سلطة مركزية تنظم أمرها ، ولكن على الرغم من هذا الانتقال الى الترابط والتعاون ، فان الثورات ظلت لسنوات عدة مصدر خطر يهدد السيادة العربية كلها واستمرت الحروب المتشابهة والمختلط حابلها بنابلها تدور محتدمة في أنحاء فارس كلها عدة سنوات بين ارتقاء عثمان الخلافة في عام ٦٤٤ وبين عام ٦٤٩ ولم يحقق العرب فيها كما يبدو كبير نجاح .

وكان أمير الكوفة مسئولاً عن سير العمليات الحربية في شمال فارس من منطقة جرجان حتى أذربيجان بينما كان أمير البصرة مسئولاً عن جنوب فارس وجنوبها الشرقي حتى حدود السند . وكان هناك نحو من عشرة آلاف مقاتل من جيش الكوفة يحاربون في شمال فارس منهم ستة آلاف في أذربيجان وأربعة آلاف في الري . وكان بالكوفة آنذاك أربعون ألف مقاتل يصيب الرجل منهم غزوة في كل أربع سنوات مما أدى الى اشتراكهم في حروب الجبهة بالتناوب بمعدل عشرة آلاف في كل عام . ولا ريب في أن ما عاناه أمراء الكوفة في بدء خلافة عثمان من شروخ السنائس والمؤامرات كان سبباً في تأجيل استقرار الأمور في فارس الى أمد طويل .

ويذكر القاري ولا شك أن عمر بن الخطاب كان قد عين المغيرة بن شعبة - أمير البصرة السابق الذي أقاله عمر لتهمة وجهت اليه - أميراً للكوفة ولكن عثمان عاد في عام ٦٤٥ أي بعد سنة من توليه الخلافة فأقال المغيرة وأعاد للكوفة أميرها السابق سعد بن أبي وقاص فاتح العراق ، وأحد رجال الشورى الذين اختاروا عثمان خليفة للمسلمين . لكن النزاع ما لبث أن قام بعد انقضاء عام بين سعد وبين القائم على أمر الحجاج في الكوفة وهو عبد الله بن مسعود أحد كبار الصحابة الأوائل . ويبدو أن سعداً كان قد اقترض مالا لأجل من بيت المال . فلما حلّ الأجل لم يتيسر لسعد السداد واشتد الخصام بين الرجلين الى أن تحول الى فضيحة ، فاستدعى الخليفة سعداً من أمارته وولى الكوفة بدلاً منه في عام ٦٤٦ أخاً غير شقيق له يسمى الوليد بن عقبة . وكان عقبة قد وقع في أسر المسلمين في بدر وأمر النبي بقتله . وعندما صرخ الرجل

المحكوم عليه بالموت فزعا ٠٠٠ « ومن للصغار بعد موتى ؟ » « رد النبي ببرود قائلا : نار جهنم » وهكذا كان أمين الكوفة الجديد أحد هؤلاء الصغار الذين بشرهم. النبي بنار الجحيم وكان من سوء حظ الوليد أنه عرف بشرب الخمر (١) وكان النقد الموجه الى عثمان على تعيينه أخذًا في التزايد .

فأُقد عين أخاه في الرضاع عبد الله بن أبي سرح أميرا على مصر مع أن النبي كان قد أعلن أن جزاءه الموت لردته عن الاسلام ، وكان قد عين أخاه غير الشقيق الوليد أميرا على الكوفة مع أن النبي كان قد تنبأ له بالجحيم . وكان معاوية وهو ابن عم لعثمان أميرا على سوريا وأن كان عمر هو الذي اختاره لهذا المنصب ، وكان جديرا به لما أثبتته من كفاية بالغة . ومع ذلك فقد انتشرت الشائعات تشوبها المرارة بأن ليس في

---

(١) يختلط على كل من يقرأ تواريخ العرب في موضوع الوليد هذا فتمنهم كثيرون لا يشبتون رواية المؤلف من تنبؤ الرسول له بنار جهنم ، وقد تكون هذه الرواية مختلفة وضعها اعداء عثمان ، كما ان المؤرخين يختلفون في تحديد شخصيته وسلوكه فمنهم من يصفه بالطيبة ومنهم من يؤكد فيه صفة الفسق وأرى أن أثبت هنا الرواية التي توصل اليها العلامة المحقق المرحوم الخضرى إذ قال : « ولي عثمان ، الوليد على الكوفة وكان على ضرب الجورة عاملا لعمر بن الخطاب ( لو كان الوليد على هذا النحو من السوء كما يقول المؤلف ولو صح ان النبي كان قد بشره بنار جهنم لما ولاه عمر امانة في عهده إذ لا تربطه بعمر قرابة أو صلة ) . ولما قدم الوليد كان محببا الى الناس ورفيقا بهم وحدث في زمنه ان شبابا من أهل الكوفة تقبوا على رجل داره وقتلوه وكان له جار قد اشراف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاؤوا وقبضوا عليهم وقيم زهير بن جندب الازدى ومونع بن أبي موزع الاسدى وشبل بن أبي الأزدى فحوكموا ولبت عليهم جريمة القتل فقتلوه واضطعن آبائهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون القرمص للايقاع به وكان سمار يسمررون عند أبي زبيد الطائي وهو نصراني أسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يماثر أبا زبيد الخمر فإذاموا ذلك بين الناس حتى شاع على الستهم فتوجهوا الى ابن مسعود فأخبروه بذلك ، فقال ابن مسعود من استتر هنا بشيء لم تتبع عورته ولم تهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فعابيه في ذلك وقال : أيرضى من مثلك بأن يجيب قوما موثورين بما أجبت أى شيء استتر به ، ألما يقال هذا للغريب لئلا يحيا والترفعا على غضب ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب الى المدينة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من اتندبوهما للشهادة على عثمان ومعهما نثر يرفقهم عثمان ممن قد مزل الوليد من الاعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسالهما كيف رأيكما ؟ قالوا كما من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيم الخمر فقال عثمان ما يقره الخمر الا شاربها فأرسل عثمان الى الوليد فأقدمه المدينة وألقى على بوجوب حسده فحذوه حد شارب الخمر ومزله عثمان .

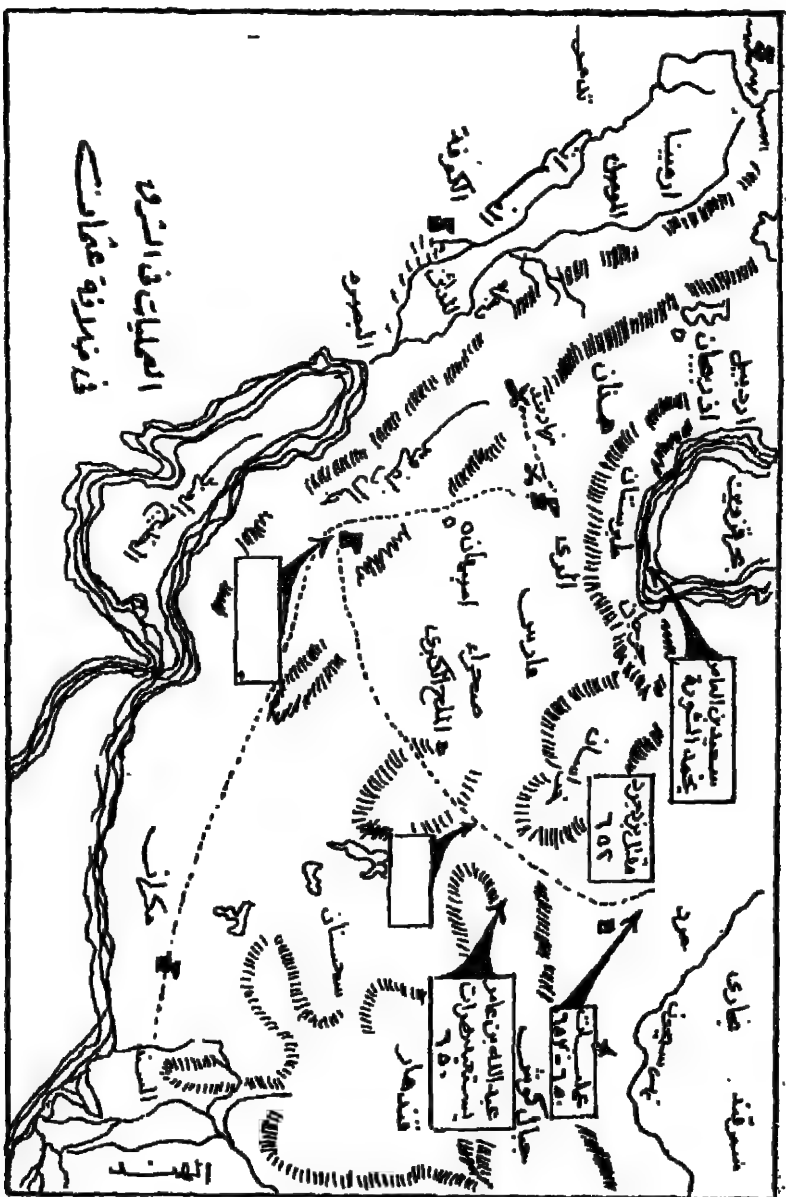
( العرب )

وسمع غير الامويين وغير اقرباء الخليفة ان يطعموا في الوصول الى منصب عال .

ويذكر القاريء ولا شك ان ابا موسى الاشعري كان قد قضى امدًا طويلا في اماره البصرة وكان قد نشط كل النشاط في حملاته ضد المقاومة الفارسية في مقاطعة فارس . ولكن ضعف عثمان وتحيزه لاقاربه كانا قد ظهرا بوضوح للعيان بصورة متزايدة وبدأ النظام ينهار في كل مكان . وهدد الجند في البصرة بالعصيان ووافدوا رسلا منهم الى المدينة يطلبون من الخليفة عزل قائدهم العام . ووافق عثمان مستسلما لطلبهم واستدعى ابا موسى من البصرة وعين بدله بعد فترة من التردد والاحجام حاول فيها الجند ان يختاروا قائدا منهم شابا يدعى عبد الله بن عامر . ولم يكن الامير الجديد من بنى أمية او قريبا لعثمان فحسب ، بل وكان أيضا في الخامسة والعشرين من عمره . واضطر الخليفة بعد قليل الى عزل الوليد بن عقبة عن اماره الكوفة لثبوت تهمة احتساء الخمر عليه ، وعين بدلا منه شابا يدعى سعيد بن العاص كان من الامويين ايضا وكان ابوه من قتلى قريش في بدر اثناء حربهم للمسلمين .

وعلى الرغم مما اثارته تعيينات عثمان من سخط فان العرب سرعان ما بدأوا اخيرا في التغلب عن طريق هذه التعيينات على الثورات في فارس . فقد جند الأميران الامويان الشابان عبد الله بن عامر في البصرة وسعيد بن العاص في الكوفة جيشين ضخمين زحفا بهما شرقا . وتمكن عبد الله بن عامر بعد اخضاع مقاطعة فارس من التقدم عبر كرمان الى خراسان واسترجع العرب في عام ٦٥٠ كلا من مدينتي هراة ومرو . ثم عبر نهر المزاب ( Oxus ) وهزم العصاة المحليين في معركة عظيمة واحتل مدينة بلخ واجتاز بعد ذلك جبال الهندكوش واحتل مدينة كابل بينما تقدمت قوات أخرى عبر مكران حتى وصلت الى ضفاف نهر السند ( الاندز ) الواقعة في الباكستان الحالية .

وكان سعيد بن العاص في غضون ذلك تواقا الى منافسة ابن ابي عامر فسار على رأس جيشه من رجال الكوفة وأخضع الفتن في طبرستان وجرجان الواقعتين على الطرف الجنوبي من بحر الخزر ، ولم يعد الوضع في الامبراطورية الجديدة الى الاستقرار الا في عام ٦٥٢ اي بعد انتضاء ثماني سنوات على تولية عثمان الخلافة ، دفعت الحدود ابانها الى الامام في الشرق والشمال بعيدا عن تلك التي كانت قائمة في عهد عمر بن الخطاب .



وكنّا قد ذكرنا من قبل أن كسرى يزدرجرد ، انسحب بعد معركة نهاوند الى مدينة الري وعندما هدّدت قوات نعيم بن مقرن المدينة في عام ٦٤٣ انسحب منها يزدرجرد الى اصفهان ومنها الى اصطخر المدينة القديمة التي كانت تسمى بوسوبوليس والقائمة في جبال فارس ، وعندما هاجم أبو موسى هذه المدينة فر منها يزدرجرد عبر كرمان وخراسان الى نهر المرغاب حيث بعث برسالة الى امبراطور الصين يستنجد به فيها على حرب العرب واستعادة مملكته . ويقال بأن مرزبان خراسان استقبله استقبالا حسنا وأعرب له عن ولائه وإخلاصه ، وجاء نيزك طرخان خاقان الترك لزيارته وقدم اليه الهدايا والأموال ولكن المصائب لم تخفف من غطرسة الملك اللاجيء الفار وكبريائه ، فبعد أن أقام الخاقان نحواً من شهر يخلع على الملك ويكرمه خطب منه ابنته ، فأحفظ ذلك يزدرجرد وقال اكتبوا اليه انما انت عبد من عبيدي فما جراك على أن تخطب الي ؟ واقترب الملك خطأ ثانياً خالياً من كل كياسة مع المرزبان الذي أحسن استقباله وأكرم ماواه فأمر بمحاسبته وكتب المرزبان الى نيزك خاقان الترك يقول : هذا الذي قدم مغلولاً طريداً قمّنت عليه ليرد عليه ملكه ، فكتب اليك بما كتب . وأقبل نيزك الفاضب في عام ٦٥٢ على رأس جيشه من الترك لمحاربة يزدرجرد فهزم قواته وبدد شملهم ونهب معسكره وفر الملك الى مدينة مرو التي أغلقت في وجهه أبوابها ولم تسمح له بدخولها . وفقد الملك اليأس عقله ونزل عن دابته ومشى حتى دخل بيت طحان على نهر المرغاب خارج المدينة . وتقول بعض الروايات أن الطحان قتل يزدرجرد طمعا في تاجه وخاتمه اللذين كانا لا يزال يحملهما معه . وتقول روايات أخرى أن المرزبان السناخط عليه ، أرسل بعض رجاله فاغتالوه وتجمع الروايات كلها على أنه عرئ من ملابسه بعد قتله وقذف بجثته في ماء النهر . والمعتقد أن الترك حملوا ولده فيروز معهم وزوجوه بفتاة منهم وعاش حياته معهم . وهكذا كانت هذه النهاية المفجعة لآخر ملوك الساسانيين الذين حكموا فارس أكثر من أربعمائة عام . وهكذا كان بطن النهر ماوى حفيد كورش الفاتح الذي قرعت جيوشه أبواب القسطنطينية ، حيث مات هذه الميتة المزرية واختفت الديانة الزرادشتية التي ظلت دين الدولة الرسمي قروناً طويلة من الوجود باستثناء بعض المجوس الذين يعيشون حتى اليوم في مدينة بومباي في الهند . والذين ما زالوا يؤرخون تقويمهم اعتباراً من موت يزدرجرد آخر الأباطرة الساسانيين الذين تجسدت فيهم أمجاد أورمزد .

وانتهت بموت يزدرجرد في عام ٦٥٢ آخر مقاومة رسمية في فارس

وقدر لهذه البلاد أن تقضى ثمانية قرون قبل أن تتمكن من تنويع  
امبراطور خاص بها ففي عام ١٤٩٩ تمكن الشاه اسماعيل من تأكيد  
استقلال بلاده وتأسيس أسرة اسفنديارى « الملكية » .



ويجدر بنا أن نتذكر التوسع المفاجئ للسلطان العربى وشموله  
سوريا والعراق وفارس ومصر قد وضع الخليفة عمر بن الخطاب وجهه  
لوجه أمام ضرورة اتخاذ قرار سياسى هام وخطير فى قضية أساسية هى  
هل يسمح للعرب المنتصرين فى امتلاك الارض فى البلاد المحتلة والتزواج  
والاندماج مع الشعوب المحتلة فى العراق وسوريا ومصر او هل يبقى  
على العرب معزولين ومنفصلين كشعب سيد تخضع له الشعوب المهزومة  
والتابعة ؟ وقد اختار السبيل الثانية فسمح للشعوب المحتلة بأن تظل  
مالكة لأراضيها الزراعية شريطة أن تعمل وأن تؤدى الخراج والجزية . وقرر  
أن يكرس الشعب العربى النبيل نفسه لمهمة القتال ضد الكفرة تدعوه  
الاموال الضخمة التى يجيبها من الشعوب الخاضعة . ولقد سبق لنا  
أن رأينا عمر بن الخطاب يلحف بطاب المزد من جباية مصر قائلا  
لعامله ان عليه ان يحاب الناقة التى تدر الخير للمسلمين وذلك فى  
تحديد سياسته تجاه الشعوب المحتلة المهزومة .

وكان من المستحيل عنصريا الحفاظ على نقاء الدم العربى . فلقد  
سمح الاسلام لاتباعه باقتناء الاسيرات من نساء الكفرة كجوار واماء ،  
وهكذا وزع الفاتحون الألوف بعد الألوف من سببايا البلاد المحتلة .  
وقد ارتقت الكثيرات منهن الى مرتبة الزوجات لا سيما اذا ولدت  
الواحدة منهن غلاما ذكرا لسيدها . فآنذاك تصبح فى مرتبة الزوجة  
الحرّة . وهكذا لم يمض زهاء جيل على العرب فى سوريا وفارس ومصر  
حتى كان الدم العربى قد اختلط بالدم الغريب ، وأصبح عرب تلك  
البلاد نصف أعراب . لكنهم ظلوا من الناحية الاجتماعية يؤلفون طبقة  
ارستقراطية عسكرية مميزة . تعيش فى مناطقها العسكرية الخاصة  
معزولة عن الشعوب التابعة ، وتحيا كما رتب لها عمر بن الخطاب ،  
على الرواتب من بيت المال .

وظل هذا العنصر العربى ، يظهر فى حملاته العسكرية ، نفس  
الطاقة على احتمال المشاق والصبر على القتال والنجاة النادرة ، التى  
مكنت العرب فى نحو من ربع قرن من أن يصبحوا سادة امبراطورية  
عظيمة . لكن هذه القواعد العسكرية أخذت تضطرم فى أيام البطالة

بالدسائس والتحزبات والاضطراب . ونشأت هذه الخلافات عن ثلاثة عوامل مختلفة . أول هذه العوامل ان عامة العرب المسلمين وأبناء القبائل الأخرى ، أخذت تنقم على قريش غطرسها وكبرياءها . وأخذ هذا الشعور في التزايد ابان خلافة عثمان ، وذلك بسبب تعيينه لاقاربه في جميع المناصب الهامة ، وصحيح ان معظم القادة الكبار كانوا في أيام أبى بكر وعمر من قريش ، الا ان بعض القادة البارزين كانوا أيضا من أبناء القبائل الأخرى .

ويمكن تلخيص العامل الثانى في انقسام قريش نفسها الى حزبين رئيسيين حزب بنى أمية وحزب بنى هاشم ، مع تفرق بطون قريش الأخرى على هذين الحزبين وقد وسعت سياسة عثمان في التشجيع لاقاربه وتعيينهم في المناصب الكبرى من شقة هذا الخلاف . وكان الدين نصيرا قويا في هذا الخلاف لبنى هاشم ، اذ أنهم آل بيت النبى ، بينما كان بنو أمية أشد خصومه وأعدائه . يضاف الى هذا ان أخلاق الامويين أنفسهم ، أثرت كثيرا في هذا الموضوع . فلقد رابنا الوليد أخا الخليفة غير الشقيق يحاول أن يؤم المصلين بعد أن عينه أخوه أميرا على الكوفة ، وهو ثمل .

اما العامل الثالث ، فهو ان ولاء العرب في الجاهلية ، كان يتجه بصورة رئيسية الى القبيلة . وقد انساهم الحماس الدينى فترة من الزمن ولاداتهم القديمة ولكنها ما لبثت أن عادت الى الظهور ابان حياة البطالة والكسل في القواعد العسكرية . ولم يقتصر الخلاف على القبائل وعلاقتها ببعضها البعض فحسب ، بل تجزأ العرب انفسهم الى مجموعتين ، شمالية وجنوبية فعدنان تقابل قحطان ، وتحت كل اسم من هذين الاسمين ، تنطوى مجموعة كبيرة من القبائل .

وعلىنا أن نقر هنا بان سياسة الخليفة السابق عمر بن الخطاب ، بذرت بذور هذا الافتقار المتزايد الى الانضباط . فلقد ضرب المثل بعزله أمراء الانصار أو قادة الجيوش لمجرد شكاوى تصل اليه من عامة الناس عليهم . ومن الصعب علينا أن نتجنب الانطباع الذى تولد لدينا بان عمر كان كثير الشكوك فى مساعديه ، وكان يغار منهم ولذا كان يرحب بأية شكاوى تصل اليه ، ليتخذ منها مبررا لعزلهم . (١) ولكن شخصية عمر كانت من الضخامة ، وكانت تقواه ونزاهته من الواضح

---

(١) سبق لى أن رددت في هامش سابق على ادعاء مماثل للمؤلف ، وأكدت أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان من قوة الشخصية ، على درجة عظيمة بعدد منه أى =



بحيث استطاع أن يسلك هذا السبيل دون أن يتأثر النظام والانضباط في عهده تأثرا جديا . ومع ذلك فإن اجراء عزل القسادة نتيجة شكاوى الجنود ، سابقه خطرة كل الخطورة ، ورثها عثمان السيء الحظ . ولم يكن عثمان صاحب شخصية قوية ، كما لم تكن دوافعه دائما خالية من الغرض كل الحلو . (١) فبالإضافة الى تشييعه لاقاربه ، كان يعيش حياة رجل ثرى ، ويقال بأنه كان يميل الى قبول الهدايا من عماله في الأمصار (٢) .

وقد قدر لهذه العوامل أن تمزق الحكم الدينى الحماسى الذى أقامه النبى وأن تعرض وجود الامبراطورية العربية نفسها الى الخطر .

\* \* \*

### تواريخ بارزة

	الثالث من نوفمبر	بدء خلافة عثمان
٦٤٤	( تشرين الثانى )	
٦٤٥	خريف عام	نزول الروم فى الاسكندرية
٦٤٦	صيف عام	استعداد عمرو بن العاص الاسكندرية
		غزو طرابلس فى افريقيا بقيادة
٦٤٧		عبد الله بن أبى سرح
٦٤٩		احتلال قبرص
٦٥٠		احتلال اصطخر
٦٥٢		معركة الاسكندرية البحرية
٦٥٢		موت يزيدجرد الثالث
٦٥٢		استقرار الوضع فى فارس
٦٥٣		معاوية يغزو قبرص للمرة الثانية

= تفكير في قلق من أى عامل أو أمير أو قائد ، مهما علت منزلته . ومن هنا يكون استنتاج المؤلف بكامله خاطئا ولا صحة له مطلقا .

(١) اعتقد أن هذه الرواية التى جاء بها المؤلف ، والتى جعل منها ذريعة لاثام عثمان رضى الله عنه بالغرض ومخالفة قواعد النزاهة ، روايات مفرغة ، حتى ولو وردت في بعض كتب العرب ، ولا ريب في أن روايتها ، من الذين تحيزوا ضد عثمان . وان كان هذا لا ينفي عنه انه استعمل اقاربه في امارة الأمصار .

(٢) هذا يتناقى مع ما عرف عن عثمان من ثراء قبل الاسلام ، وقد روى التاريخ انه تنازل عن الكثير من ماله للمسلمين في ساعات المعركة .

( العرب )

## شخصيات مشهورة

عثمان بن عفان	الخليفة الثالث
أبو موسى الأشعري	قائد العرب في فارس
عبد الله بن أبي سرح	أمير مصر الجديد
مناويل	قائد الروم عند إعادة احتلال الاسكندرية
مروان	ابن عم عثمان ، تلقى خمس الفنائم. من افريقية
معاوية بن أبي سفيان	أمير سورية
سعيد بن العاص   عبد الله بن عامر	أميران شابان من الامويين أعادا الاستعراار في فارس

# النار تحت الرماد

« يالها من سقطة أيها المواطنون ...  
شملتنا جميعا ... أنا وانتم ... »

بينما كانت الحياة تترعرع فوق رموسنا  
لقد انتقلت سلطة الحكم الى الوحوش الكاسرة

وفقد الناس عقولهم «

شكسبير - من مسرحية يوليوس قيصر

\*\*\*

« قتل عثمان مظلوما ، ومن قتله كان ظالما ، ومن  
خلده كان معلورا » .

جلال الدين السيوطي - في كتابه تاريخ الخلفاء

\*\*\*

« عجز عثمان في شيخوخته الطاعنة في السن ،  
وخلقه الضعيف عن احتمال اعباء الامبراطورية الثقيلة  
وما فيها من فتوحات ... وكان الخليفة قد فقد  
الحارس الوحيد لسلسلته وهو احترام المسلمين  
وثقتهم ... وراح الخليفة الوقور الذي تخفى عنه  
اوامرك الذين استغلوا بساطته ، ينتظر بانسا . . .  
اقتراب موته » .

جيبون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها



بلغ عثمان في عام ٦٥٤ الثمانين من عمره . وكان عند توليه الخلافة قبل عشر سنوات . أكثر دنوا الى أفئدة الناس من سلفه عمر . ولم يكن هناك من يشك أبدا في ورعه وتقواه الأصيلين ولا في إخلاصه للإسلام، وجهه لنبيه . يضاف الى هذا ، انه أثبت في أكثر من مناسبة وبمختلف السبل والوسائل حماسه لدينه . وكان القرآن الكريم قد دون لأول مرة في خلافة عمر ، ولكن بعض الخلفاء ظهر في طريقة جمعه في النسخ المختلفة ، فأصدر عثمان أمره بإعادة جمعه من جديد وعندما تم جمع القرآن ، بذل عثمان من الجهد والصبر والحيوية ما مكنه من جمع كافة النسخ الأخرى المتداولة وإتلافها . وتم عن هذا السبيل الاحتفاظ بنسخة واحدة من القرآن حتى يومنا هذا .

وكانت النعمة الشعبية النامية غير موجهة الى عثمان نفسه بقدر ما هي موجهة ضد الامراء الذين اختارهم لإدارة الامصار ، وعندما اتهم بالحياة لأقاربه ، رد على متهميه بأن الله تعالى أوصى بصلة ذى القربى - وان هذا هو ما فعله على وجه التحديد ، ومضى الى أبعد من هذا فوجه النقد الى أبى بكر وعمر ، لانهما أهملأ أهلها ابان خلافتهما ، ولا ريب في أن هذه النقطة مهمة للغاية ، اذ أن هذه المسألة لم تقرر ولم يبت فيها حتى يومنا هذا . فنحن في بريطانيا مثلا نعتبر ولا شك أن الولاء للدولة يجب أن يوجه كل ما يعمل موظفوها حتى ولو حملهم ولاءهم هذا على الاضرار بمصالح أقربائهم . وقد يمضى الضابط منا الى الخارج للعمل في خدمة الدولة ، ويقضى عدة سنوات ، مهملا زوجته في الوطن ، وتاركا تعليم أطفاله دون رقابة أو توجيه . أما في الشرق ، فهناك من يدعى ان ولاء الانسان الاول يجب أن يكون لبنية وأسرته . أولا يدين بالتزامات أكبر لزوجته وأطفاله ، حتى ولاطفال اخوته أو أخواته ، منه لالتزاماته الى منظمة معنوية وبعيدة عنه ؟ وقد تكون هذه النقطة قابلة للحوار والجدل ، ولكن مثل هذه الحجج ، لا يمكن تطبيقها بشيء من الاقتناع على النظام الدينى الاسلامى المبكر حيث لم تكن الدولة مجرد منظمة معنوية ، بل كانت نظريا على الاقل الاداة التى اختارها الله . وليس في امكان أية سلطة أن تبرر تفضيل المصالح المادية للأقارب على خدمة الله وطاقته .

وقد أساء افتقار عمال عثمان الواضح الى التقوى ، وكونهم  
أو كون آبائهم أشد أعداء الرسول فى الماضى الى الكثيرين من المسلمين  
المخلصين فى مكة والمدينة وكان عدد الباقين من صحابة الرسول لا يزال  
كبيرا ، بالإضافة الى محاربى بدر واحد أو الذين بايعوا النبى تحت  
الشجرة فى الحديبية . وقد حز فى نفس هؤلاء جميعا أن يروا دولة  
الإسلام الدينية يحكمها أعداء الرسول اذ ينعمون فى هذه الخيرات  
الدنيوية ، التى هى من حق المؤمنين الصادقين وحدهم .

وكنّا قد ذكرنا قبل قليل اسم عبد الله بن مسعود ، وذكرنا انه  
اشتبك فى شجار فى الكوفة مع أميرها سعد بن أبى وقاص ، مما أدى  
الى خلعهِ من منصب الإمارة وكان عبد الله بن مسعود هذا الرجل الذى  
يتولى خدمة رسول الله فى المدينة ، وكان تبعا لذلك يفخر دائما بأن  
فى وسعهِ أن يتلو القرآن الكريم تماما كما سمع النبى يتلو آياته . وقد  
جاءت الصورة التى جمعت بأمر الخليفة عثمان ، مختلفة بعض الاختلاف  
فى ترتيب السور عن تلك التى يرويه ابن مسعود ، مما أثار حفيظته .  
ويقال أن عثمان رد على اعتراضاته ردا قاسيا ، مما أكسبه عدوا آخر  
كبير النفوذ . وفى الوقت نفسه قام هناك من اعترض على اطلاق عثمان  
للمصاحف السابقة قائلا ان كلام الله لا يجوز احراقه مطلقا .

وتبين لنا قصة أبى ذر الغفارى الشعور الذى أحس به المسلمون  
المخلصون تجاه عهد عثمان . فلقد كان هذا الرجل من أوائل المسلمين،  
وقضى حياته كلها ، ناسكا متقشفا زاهدا فى الدنيا . وراح الآن فى دمشق  
أولا وفى المدينة لاحقا يعظ الناس بالابتعاد عن هذه الانحرافات الخلقية  
التي شرعت فى الظهور فى البلاد . فلقد أخذ الناس فى سورية وفى العراق  
وفى المدينة أيضا وبينهم عدد من كبار المسلمين يعيشون الآن فى قصور  
من المرمم والرخام تحيط بهم الجوارى والعبيد ويلبسون أغلى الحلل  
وياكلون أفخر الأكل . وليس ثمة من ريب أن أبى ذر كان محقا كل الحق  
فى قوله بأن هذا الثراء وذلك الترف قد عملا عملهما فى تحطيم الفضائل  
العربية الصلبة والمتقشفة . ولكن حكام الامبراطورية اخذوا يدعون أن  
اقواله تحمل معنى تحريض الناس على الثورة ، ولذا أمر عثمان بإبعاده  
الى واحة نائية فى قلب الجزيرة العربية . ولم يمض عليه عامان فى منفاه .  
حتى كان قد توفاه الله فى أشد حالات البؤس والفاقة . وظل الناس  
يقصدون ذكره ، على أنه ولى من أولياء الله الصالحين ، وسرعان ما نار  
أهله من بنى غفار ، يطلبون الثار له .

ولم يكن عثمان لينا ضعيفا فحسب ، بل وكان أحيانا عنيدا  
ولا يحسن مصانعة الناس وعلى الرغم من انه كان على استعداد لسزل  
اى من أمراء الانصار أو قادة الجيوش ، اذا لم يرض الناس عنه ، الا انه  
لم يكن ليندعن لأى ضغط مهما اشتد لاقالة الامراء من أقاربه الامويين .  
ولا ريب فى انه كان محقا فى بعض الحالات فى رفض الطلبات التى توجه  
اليه ، وكانت الاجراءات التى اتخذها نافعة ومفيدة . وقد كرس شطرا  
كبيرا من مئاته ومن أموال الدولة لتوسيع الحرمين الشريفين فى مكة  
والمدينة وتجميلهما لكن الناس ما عادوا فى أخريات أيامه ليرضوا عن اى  
عمل يقوم به مهما جل وعظم .

وكان الاضطراب فى غضون ذلك قد اشتد فى الكوفة حيث يذكر  
القارىء ولا شك أن الخليفة قد عين لها أميرا شابا من الامويين يدعى  
سعيد بن العاص ، وأخذ الناس يتهمون اميرهم بالفطرسنة والكبرياء  
ومحابة القرشيين والتحيز لهم . ويقال ان سعيدا أشار ذات يوم أمام  
الناس الى أرض السواد فى العراق على أنها « بستان قریش » مما أثار  
عليه نقمة شديدة من المحاربين الذين ادعوا أنهم ملكوها بسيوفهم .  
وأدى الاضطراب الذى وقع الى شكوى بعث بها الامير الى الخليفة . الذى  
أمر بدوره بإبعاد مالك الأشتر زعيم جماعة الفتنة مع تسعة من شركائه  
الى سوريا . وكانت الفتنة قد اشتدت فى نفس الوقت فى قاعدة الفسطاط  
فى مصر ، حيث أضحى الأمير عبد الله بن أبى سرح مكروها مقبوتا ،  
وسرعان ما أخذ الرسل والمعرضون على الفتنة يتنقلون جيئة وذهابا  
بصورة سرية بين المتآمرين فى العراق ومصر .

ولعل مما يبين ما معاوية من شخصية قوية ، أن كل شيء ظل على  
حاله من الهدوء والاستقرار فى سوريا فى الوقت الذى كانت فيه مصر  
والعراق ، وحتى مكة والمدينة تعج بالفتن والاضطرابات . وكان معاوية  
نفسه من الامويين ، فهو ابن أبى سفيان زعيمهم . وكان ما ينسب الى  
غيره من الامويين من مسااس بشخصياتهم ، بسبب معارضتهم السابقة  
لرسول الله ، يصح أيضا بالنسبة اليه والى آبيه . لكن العرب على الرغم  
من فوضويتهم بل ومن ديموقراطيتهم فى جميع الأزمنة والافات ، كانوا  
ولا يزالون يعجبون بقوة الشخصية فى الحكم . فعندما يعثرون على زعيم  
يعتبرونه جديرا بقيادتهم ، يقدمون اليه منتهى الولاء ويعملون تحت امرته  
أصدق العمل . ولعل الصورة الكاملة للشغب المتزايد من العرب ضد حكم  
عثمان ، هى زين الصورة التى نعرفها فى عهدنا هذا ، وهى صورة

الشائعات الرخيصة ، والفوغائية العنيفة وتسلسل مثيرى الفتنة ، وتشويه كل عمل تقوم به الحكومة سواء اكان عادلا أم ظلما ، حكيما أم طائشا ، الى مادة دعائية ضد السلطات القائمة (١) .

وعندما استبد الفرع بسعيد بن العاص أمير الكوفة من تزايد الكراهية لحكمه عند الناس ، راح يهرع في مطلع عام ٦٥٥ الى المدينة للتشاور مع الخليفة . وعاد الى الكوفة فى غيابه ، مالك الاشر الذى أفرج عنه ، وسمح له بالعودة من سوريا ، وأخذ يثير غضب الناس على الحكم فى الخطب النارية التى يلقيها (٢) ورفع العصاة راية الفتنة وتحلقوا حولها وأقسموا ألا يسمحوا للأمير بالعودة . وعندما عاد سعيد خرج الثائرون ويعدون نحوا من ألف لمقابلته قبل وصوله فالتقوا به عند القادسية وهددوه بالقتل ان أصر على محاولة دخوله الكوفة .

وقد فرح الأمير لانه نجا بجلده . وعاد لفوره الى المدينة . وفرع

---

(١) يحاول جلوب هنا أن ينعث سموم حمده على الوطنية العربية التى أخرجته من الاردن حيث كان الدعامة الاساسية للحكم القائم فيه . فهو يصف دعوة القومية العربية بالرخص والفوغائية والادة الفتن والتضليل وما أشبه ذلك من العبارات التى تنطق بالحقن الاسود الدفين من الناحية الشخصية ، وتكشف من كراهية الاستعمار الذى يمثلته جلوب للوطنية العربية لان هذه الوطنية قضت على نفوذه وما زالت تحاربه في الوطن العربى .

(٢) كتب اشراف اهل الكوفة الى عثمان يطلبون منه اخراج المشافين من الكوفة فأمر بنفيهم وعلى رأسهم الاشر الى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية ، فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمروءة وأكرمهم ، ثم قال لهم ذات يوم « انكم قوم من العرب لكم أسنان ، ولكم السنة ، وقد أدرتكم بالاسلام شرقا وغربا والامم وحيوتم مراتبهم وموازينهم . وقد بلفنى انكم نقيم قريشا وان قريشا لو لم تكن ، عديم اذلة كما كنتم . ان انتمكم لكم الى اليوم جنة فلا تسدوا جنتكم ، وان انتمكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم الثورة ، والله لتنتهن أو ليبتليكنم الله بمن يسومكم ، ثم لا يحمذك على الصبر . ثم تكونون شركاهم فيما جررتكم على الرمية في حياتكم وبعد موتكم » . فردوا عليه ردا دل على تمكن الفتنة في رؤوسهم ، فرد عليهم معاوية ردا شديدا وعلم انهم لا يصلحون . وقال لهم لما ظنوا انفسهم في الكوفة « مه ان هذه ليست بارض الكوفة والله ان رأى اهل الشام ما تصفون وأنا امامهم ما ملكت ان انهام عنكم حتى يقتلوكم ، فلمعربى ان شيعتكم ليشبه بعضه بعضا » وكتب الى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وانه لا يود بقاءهم في الشام فأمر عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، فأدبهم عبد الرحمن تأديبا شديدا ، حتى أظهروا الرجوع والندم ، فأمر عثمان أن يسيدهم الى الكوفة ، فلما عادوا اشتد امرهم في الوقيعة بشمان وعماله .

( العرب )



عثمان - الذى كان قد بلغ الآن الواحدة والثمانين من عمره أو الثانية والثمانين - من الثورة . وقرر على الفور أن يستسلم لارادة الثائرين ، فأقال سعيد بن العاص ، وأعاد الى اماراة الكوفة المحارب المخضرم أبا موسى الاشعري الذى كان الخليفة نفسه قد أبعدته محطاً من شأنه عن اماراة البصرة . وعهد اليه الآن بإخماد الفتنة فى الكوفة . ووصل الى المدينة فى غضون ذلك وفد من جيش مصر ليقدم شكواه الى الخليفة ضد ابن أبى سرح ويقال ان عثمان كتب الى عامله فى رسالة يهدده فيها بالعزل . ويأمره باصلاح نفسه مع الجند . ولكن الامير لم يأبه بانذار الخليفة . وراح على النقيض منه يعتقل اعضاء الوفد الذى مضى يشكوه الى المدينة ، وأمر بقتل رئيسه .

وكان زعماء المسلمين فى المدينة قد أسرفوا فى تقديم النصيح الى الخليفة . فبعضهم أوصاه بإزالة ما يشكو منه الناس ، وبعضهم نصحه بإخماد الفتنة النامية بالقوة . اما الآن فبدوا يأسين من هذا الخليفة الشيخ ، الضعيف الشخصية المتردد فى اجراءاته وتركوه يواجه مصيره . ولم يبق أعضاء الحلقة الداخلية الذين انتخبوه للخلافة من أمثال على ابن عم النبى ، والزبير بطل أسوار حصن بابلين ، وطلحة ، وعائشة زوج الرسول باى عمل لمقاومة الثورة هذا اذا لم يكونوا قد شجعوها وكان عمرو بن العاص الذى فتح مصر مرتين والذى أخرجه عثمان من اماراة مصر ، محاباة منه لأخيه فى الرضاع ، مشغولاً الآن فى نشر الكراهية للخليفة فى المدينة (١) .

---

(١) يعود المؤلف هنا الى محاولته لتشويه التاريخ الاسلامى ، فهو يثير شكوك القارئ فى أن كبار الصحابة وفى مقدمتهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه . قد هجموا على الثورة على عثمان . مع أن هذا القول تريف باطل ، لم يقل به أى من المؤرخين النفاة فى التاريخ الاسلامى وكلهم يجمعون على ببرلة كبار الصحابة وفى مقدمتهم على ، من أية تهمة زائفة من هذا النوع . يضاف الى هذا ان المؤلف يحاول التشكيك ايضا فى أن عمرو بن العاص كان أحد الذين أثاروا الفتنة بنشر الشائعات ضد عثمان . مع أن هذه التهمة باطلة وليس أدل على بطلانها من أن عثمان أشرك عمرا فى المؤتمر الذى عقده لعماله فى الامصار فى موسم الحج . ولو صح زعم المؤلف لما اشركه عثمان فى هذا المؤتمر متوخياً النصيح منه .

ومما يلفت النظر ويحسر الثقاب عن ميول المؤلف الى اليهود ، تجنبه ذكر أى قوة من بطل الفتنة ورأسها الدبر . عبد الله بن سبأ . اليهودى الذى تظاهر باعتناق الاسلام ليضل الناس . وقد أثبت جميع مؤرخى العرب ، أن هذا اليهودى ظهر أول ما ظهر فى البصرة . وصار يقول للناس : عجبت ممن يقول بركة المسيح ولا يقول =

وشهد عثمان موسم الحج في عام ٦٥٥ . واغتنم عثمان هذه الفرصة لاستدعاء جميع عماله للتشاور معهم في تدهور الوضع . وكان في وسع كل انسان آنذاك ، كما حدث مرارا وتكرارا في ايامنا هذه . أن يحس ما عم الناس من السخط والنقمة . وان لم تكن الثورة الفعلية قد نشبت بعد . وان كان المتآمرون لا يزالون يعملون في الخفاء . ونصح ابن أبي سرح الخليفة أثناء المؤتمر ، بأن يستخدم المال المتوافر لديه في بيت مال المسلمين لشراء الناقمين . مؤكدا أن المال يستطيع تحقيق كل شيء . وأعرب معاوية بن أبي سفيان عن رايه في أن الخطأ يقع على عاتق ولاية الامصار وأضاف قائلا . . لقد وليتني فوليت قوما لا يأتيك عنهم الا الخير ، فقال عثمان . . وما الرأي ، قال « حسن الادب » وكان معاوية محقا في ادعائه الذي أزعج الولاة الآخرين . أما عبد الله بن عامر أمير البصرة الشاب ، فبرر تعيينه للامارة بأنه رفع راية الاسلام الظافرة فوق اقاصى هند وكوش والسند وقال . . « خذ من الناس الذي عليهم اذا اعطيتهم الذي لهم فانه خير من أن تدعهم » ، وراح ينصحه بأن يرسل الجيوش للجهاد في سبيل الله ضد الكفرة ويشغلهم بالحرب ، وما تتطلبه من عنايتهم بأنفسهم وحيادهم ، عن الفتنة والدسائس . وعندما سأل عمرو بن العاص عن رايه رد بصراحة قائلا . . لقد أخضعت الناس جميعا لبنى امية ثم قال . . ارى انك قد لنت للناس وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فارى أن تلزم طريقة صاحبك فتشتد في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين . ان الشدة تنبغى لمن لا يالو الناس شرا . واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعا . وعندما انتهى المؤتمر ، راح عثمان يحتج الى عمرو قائلا له أنه لم يكن ينتظر منه أن يحدثه بما حدث به . فرد عمرو بمكر قائلا . . « اني لاجلك أعظم الاجلال يا أمير المؤمنين » ثم راح يقول انه كان يعرف ان ما تدار سينداع بين الناس . وانه ود أن يعرف الناس حقيقة رايه ، وراح

---

= برجة محمد ، فيقبل منه الناس ذلك . ويقول لهم : عجا لكم ايها المسلمون ، يكون فيكم اهل بيت نبيكم . ثم يقصون عن امركم . . الى مايمائل هذا الكلام الذي يسهل قبوله . لان فيه تظليما للنبي . وقد ابعد امر البصرة بعد ان اسمت فتنته . للذهب الى الكوفة وواصل نشاطه فيها ، فاخرجه أميرها وسار الى مصر حيث أخذ ينفث سمومه ، ويبحث هو ومن اتف حوله من دعاة السوء والتمارين بالرسائل الى المدينة تنشر الاكاذيب والاضاليل . وقد لعب هذا الرجل وصحبه دورا كبيرا في التحريض على الثورة التي أدت الى مصرع عثمان ولكن المؤلف انسياقا مع عواطفه الميالة الى اليهود تحاشي أن يذكر شيئا منه .

( العرب )

الخليفة الشيخ فيما يفعل ، وراح يعلن انه لن يلجأ الى العنف مع المسلمين مؤكداً للثائرين ان ليس ثمة ما يخشونه ثم قال « وحسبى الله ونعم الوكيل » .

وبينما كان ولاية الامصار يجتمعون في مكة . كان المتآمرون في القسطنطينية والكوفة والبصرة قد استكملوا خططهم على اساس من التنسيق والتعاون . وتقرر ان تخرج جماعات من الجند من القواعد الثلاث متواعدة على اللقاء في المدينة وعلى ان تطالب هناك باصرار بإزالة كل ما يشكو منه الناس . وقرروا ان يطالبوا بإقالة الخليفة وأن يلجأوا الى العنف لتحقيق ذلك في حالة اصراره على رفض ما يطلبونه . ويقال ان معاوية علق على أحداث تلك الايام فقال ان العرب قد عادوا الى فوضى أيام الجاهلية .

وبدأت جماعات الثائرين سيرها الى المدينة في مطلع عام ٦٥٦ ولحق الفرع بابن أبي سرح . ففر من مصر ، الى فلسطين ينشد الملجأ الامين في حمى معاوية بن أبي سفيان الذي كانت فلسطين جزءاً من امارته . وعندما وصلت جموع الثائرين الى المدينة من الامصار رابطت كل جماعة منها في جهة خاصة وعلى انفراد خارج المدينة . وعندما رأى أهل المدينة ما في عيون القوم من ميل الى العنف . لبسوا دروعهم ورفضوا السماح للعصاة بدخولها . وأحس الواقدون بفشل خططهم . فبعثوا بثلاثة وفود يحملون شكواهم الى ثلاثة من كبار الصحابة . كانوا هم الباقين من أهل الشورى الذين اختاروا عثمان وهم على والزبير وطلحة . وأنبأ الصحابة الثلاثة العصاة على سلوكهم الثوري . وقام على بزيارة عثمان في نفس الوقت . وطلب اليه ان يقلل ابن أبي سرح من اماره مصر كما بعثت اليه أم المؤمنين عائشة برسالة مماثلة . ووافق الخليفة الشيخ على الطلب ورجا مستشاريه ان يختاروا له أميراً جديداً على مصر .

لعل من المؤسف أن تقول ان محمد بن أبي بكر . كان أحد قادة الفتنة في مصر . ولا ريب في أن الفرق بين هذا الثوري الطموح والعنيف وبين والده الحليم الوادع الصلب في ايمانه ، والصديق الصدوق للرسول ، يوضح ما أصاب أخلاق الجيل الجديد الذي نشأ في الترف والرخاء من انحلال . وطلب ممثلو جيش مصر أن يعين الخليفة هذا الشاب قائداً لهم وأميراً على مصر ، فاستجاب الخليفة لرغبتهم .

ووافقت الجماعات آنذاك على العودة ، ونزع أهل المدينة عنهم

دروعهم وتبين ان الازمة قد انجلت مؤقتا على الاقل (١) . ولم يكذ  
بنقضى اليوم الثالث على مسيرهم فى طريق العودة الى امصارهم حتى  
ذكرت جماعة مصر ، انها القت القبض على عبد زنجى يستقل هجينا  
ويلدع به الارض فى الطريق الى مصر . وزعمت الجماعة انها عثرت معه  
على رسالة صادرة عن الخليفة وموجهة الى ابن أبى سرح ، الذى لم

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من روايات المؤرخين المسلمين . فقد  
اجمعت هذه الروايات على ان جماعات الثائرين جاءت الى المدينة مرتين . وفي الاولى  
استقبل الخليفة ولودا منها صارحوه بانتقاداتهم لحكمه ، وحكم عماله . فرد عليهم ردودا  
مقنعة منها قوله لهم « والله انى وليت وانا اكثر العرب بعرا وشاة ، فما لى اليوم  
شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، اذكلك هو » قالوا « اللهم نم » وقال عثمان « وكان  
القرآن كتبنا فتركها الا واحدا الا وان القرآن واحد جاء من عند واحد ، وانما انا فى  
ذلك تابع لهؤلاء اذكلك هو » قالوا « نعم » ثم دافع عن توليته للشهبان من قومه ، ومن  
عطاياه لهم مؤكدا انها من ماله .

وعاد الثائرون الى امصارهم بعد ان اتفقوا على ان يخرجوا من جديد وكانهم  
يطلبون العمرة لتنفيذ ما عزموا عليه . فخرج اهل مصر وعددهم بين الستائة والالف  
ومثلهم اهل الكوفة والبصرة . وكانت اهواؤهم مختلفة . فاهل البصرة يريدون طلحة .  
واهل الكوفة يريدون الزبير ، واهل مصر يريدون عليا . لوجود ابن أبى بكر وهو ربيب  
على بينهم . واتفقوا جميعا على ان يقدموا روادا ليدخلوا المدينة . وينظروا هل وصل  
المدينة خبرهم . لانهم كانوا يخالون ان يستعد لهم اهل المدينة بحرب . فارسلوا  
لذلك رجلين قابلا عليا وطلحة والزبير . وقالوا انما نأتى هذا البيت . ونستغنى هذا  
الوالى من بعض عمالنا ما جئنا الا لذلك . واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم  
أبى ذلك عليهما . فرجع الرائدان الى قومهما . واخبراهم الخبر فاجتمع من اهل  
مصر نفر اتوا عليا ، ومن اهل البصرة ، نفر اتوا طلحة ، ومن اهل الكوفة نفر اتوا  
الزبير فسلم المصريون على على بالخلافة وعرضوا له بالامر فرد عليهم ردا شديدا .  
وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم انهم راجعون حتى انتهوا الى  
مساكرهم ، وهى على ثلاث مراحل كى يفترق اهل المدينة ، ثم يكروا راجعين . فافترق  
اهل المدينة لخروجهم . فلما بلغ القوم مساكرهم . كروا بهم قبضتهم فلم ينجأ اهل  
المدينة الا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع مساكرهم . وأحاطوا بشعثان وقالوا من  
كف يده فهو آمن . فلزم الناس بيوتهم . فأتاهم على فكلهم . وقال ماردمك بعد ذهابكم  
ورجومكم من رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا . وقال الكوفيون  
والبصريون جئنا نصر اخواننا ، كأننا كانوا على ميعاد . فقال لهم على ، كيف علمتم  
يا اهل الكوفة والبصرة بما لقى اهل مصر ، وقد سرت مراحل ثم طويتم نحونا هذا والله  
امر أبرم بالمدينة . قالوا نضعوه كيف شئتم ، لا حاجة لنا في هذا الرجل . ليمثلنا  
ثم قالوا لعلى ان الله قد أحل لنا دم هذا الرجل فقم معنا اليه . قال والله لا أقوم  
معكم ، الى أن قالوا فقم كبت الينا . فقال على والله ما كبت لكم كتابا فنظر بعضهم  
الى بعض ثم تركهم على وخرج من المدينة .

( العرب )

نكن أنبساء فراره الى فلسطين قد وصلت كما يبدو الى المدينة ، يأمره فيها بأن يلقي القبض على محمد بن أبى بكر ورفاقه . وأن يقتلهم عند وصولهم الى مصر وعاد العصاة لتوهم الى المدينة يطلبون ايضاحا من الخليفة . ويبدو ان الصدفه العارضة قد شاءت أن تعود جماعة الكوفة والبصرة الى المدينة فى نفس الوقت وان لم تزعموا وضعهما اليد على اية رسائل مماثلة . وتجمع الروايات على أن على بن أبى طالب ، سأل العائدين عن الطريقة التى عرفوا بها اكتشاف جماعة مصر وهى فى طريق عودتها الى القسطنطينية لأمير الرسالة مع أن الجماعتين الاخرين كانتا تسيران فى طريق مغاير لطريق أهل مصر ، عائدتين الى بلاديهما . مما أدى الى عودتهما الى المدينة فى نفس الوقت الذى عاد فيه أهل مصر . وهناك رأى آخر يقول : ان الرسالة كانت مزورة وان الجماعات الثلاث كانت قد اتفقت فيما بينها على العودة الى المدينة فى غضون ستة أيام . وكانت انباء وصولها فى المرة السابقة قد نمت الى المدينة قبل دنوها منها مما جعلها تواجه أهل المدينة وقد تدرعوا بسلاحهم على أسوارها استعدادا للدفاع . ومن المحتمل أن يكون الشائرون قد فكروا بأن تظاهروهم بالعودة سيحيل أهل المدينة على الاسترخاء وتخفيف الحذر فيباغتونها هذه المرة بصورة مفاجئة . (١)

ودخل على ، وقد مثل فى هذه المرحلة دور الوسيط ، على عثمان فحدثه بأمر الرسالة ، وقد نفى الخليفة بشدة وأصرار ، علمه بأى شئ عنها . ووافق على أن يستقبل وفدا عن العصاة الذين دخلوا عليه يهددون ويتوعدون ، ودون أن ينظروا اليه نظرة تجسلة ، وزعموا أن العبد الذى ائتمروه من عبيد الخليفة ، وان الرسالة التى كان يحملها موهوبة بختم الخليفة . وأقر عثمان السيىء الطالع بهاتين الحقيقتين . ولكنه أقسم للوفد ، قسما عظيما بأنه لم يكتبها ، ولم يأمر بكتابتها ، ولم يبعث بذلك العبد الى مصر مطلقا .

---

(١) لا ريب فى أن الحادثة كلها تشير الى مؤامرة واضحة . رتبها الشيوعيون من جماعة عبد الله بن سبأ . ومن تعاون معهم من الحاقدين على عثمان . وعلى عماله فى الامصار ولا ريب فى أن النظرية الاخيرة التى أشار اليها المؤلف ، هى الصحيحة . وان لم يحاول هو اثبات صحتها اذ لا يعقل أن يصل نبا الرسالة المفتعلة الى جماعتى الكوفة والبصرة وبينهما وبين جماعة مصر مسرة ستة أيام . ولم يكن هناك أى سبيل للاتصال السريع ولا ريب فى أن عودة الجماعات الثلاث فى وقت واحد الى المدينة يشير الى وجود مؤامرة مدبرة ومن هنا يصبح المرء ميالا الى الاعتقاد بانتمال الرسالة لتكون ذريعة للعودة .

( العرب )



هؤلاء الاربعة لم يتقدم الصفوف ليتولى حسم الموقف وتدبير الامر .  
وطلب الثائرون في غضون ذلك من الخليفة أن يسلمهم مروان الملتجئ  
الى دار الخليفة . ولكن عثمان رفض تسليمه اليهم . أما من تبقى من  
بنى أمية فقد خافوا على ارواحهم من العصاة وتفرقوا اما مختبئين أو  
فارين الى ملاذ معاوية في دمشق .

وحل يوم الجمعة الذي تلا تلك الثورة ، وصعد عثمان المنبر في  
مسجد النبي ليخطب المسلمين . وناشد المواطنين المحترمين ألا  
يجبنوا أمام وعيد الجنود العصاة وراح بعد ذلك يحذر العصاة من شر  
مهاجمة خليفة رسول الله ، وهب بعض الصالحين من أهل المدينة الى نصرة  
الخليفة . فهاجمهم العصاة وأجبروهم على الخروج من المسجد ، وألقيت  
بعض الحجارة ، وأصاب حجر منها الخليفة الشيخ نفسه فسقط على  
الأرض مغشيا عليه ونقله الناس الى داره وهو في غيبوبة .

وسرعان ما فرض العصاة حصارا منتظما على بيت عثمان . فبات عاجزا  
عن أن يؤم الناس في الصلاة . وهو عمل من أقدم واجبات الخليفة .  
وعجز خدمه بعد بضعة أيام عن تأمين الماء اللازم للشرب . ويقال ان الخليفة  
الشيخ أطل على الثائرين من سطح داره وقال . . أفياكم على ؟ فقالوا لا . .  
قال أفياكم سنع ؟ قالوا لا . . فسكت ثم قال : الا أحد يبلغ عليا فيسقيننا  
ماء ؟ فبلغ ذلك عليا فبعث اليه بثلاث قرب مملوءة ماء ، فوصلت اليه بعد  
أن جرح بسببها عدد من موالى بنى هاشم وبنى أمية .

كان الخليفة أبو بكر من بنى تيم ، وهو بطن من قريش . بعيد عن  
بطن بنى هاشم ، وراح محمد بن أبي بكر يناشد أبناء عشيرته ان ينصروه  
في حصار الخليفة . وهكذا أخذ العرب يعودون الى عصبية الجاهلية  
العمياء . وارتفعت أصوات من قريش في المدينة تخذر قادتها من نتائج  
الوضع وآثاره . وقال هؤلاء ان قريشا كانت تعيش حتى تلك اللحظة في  
أمن ودعة وكرامة . وان العرب جميعا ينظرون اليها بعين التجلة والاحترام  
وهاهى الآن تقف مكتوفة الايدي بينما يتعرض زعيمها للهجوم من جماعات  
من جنود البدو العصاة . وتعرض مكانة قريش كلها تبعا لذلك الى الدمار  
أمام العرب جميعا . ولس هذا التعنيف غواطف على والزير وطلحة وغيرهم  
من الصحابة . فبعثوا بأولادهم لحماية باب دار عثمان ولكنهم مع ذلك  
رفضوا أن يخرجوا الى العراء لمقاومة العصاة الذين بدوا وكأنهم لا يريدون  
اغضبائهم . وعلى الرغم من حراسة أولادهم لدار عثمان ، ألا أنهم ظلوا  
يشتركون مع الثائرين في المطالبة بتسليم مروان .

- وطاروت رسالة سرية عاجلة في غضون ذلك الى دمشق لابلاغ معاوية بتطور الوضع وحثه على ارسال نجدة فورية • وسرعان ما بعث هذا بقوة تسير الليل والنهار من سوريا، كما بعث عبد الله بن عامر أمير البصرة بقوة مماثلة • ووصلت انباء تحرك النجدة الى العصاة ، فآخذوا يضيّقون حلقة الحصار على ضحيّتهم • ومنع الماء من جديد عن الدار • وعانى الخليفة وأهل بيته أهوال الظمّ ثانية ، وكان الوقت شهر مايو من عام ٦٥٦ وقد أخذت حرارة الحجاز بخناق الناس ، وحاولت أم المؤمنين أم حبيبة ، أرملة رسول الله ، وقد تذكرت حب زوجها العميق لعثمان أن تسعفه بالماء فآقتادت بغلا يحمله الى باب داره وهكذا عرضت نفسها لاهانة العصاة • وقد أملت في أن تمنعهم مكانتها كزوجة رسول الله من الوقوف في طريقها • ولكن أملها طاش • وحال العصاة بعد أن أساءوا إليها بينها وبين الوصول بالحمل الثمين الى المحصورين • وأخذ عدد متزايد من أهل المدينة من الانصار ومن صحابة النبي يظهر امتعاضه وفزع من هذا الانفجار الفوضوي البدوي على الرغم من انهم كانوا ينتقدون عثمان على ضعفه وعجزه • ولكن أيا منهم لم يحاول مد يد النصرة اليه • وظل على الزبير وطلحة معزولين في بيوتهم، اما عن خوف أو عن غيرة من عثمان ولا يعرف الحقيقة الا الله •

ودب الفزع في نفوس العصاة من اقتراب جيش النجدة القادم من سوريا، اذ حملت اليهم الانباء انه وصل الى وادي القرى التي لا تبعد أكثر من مائة وعشرين ميلا الى الشمال الشرقي من المدينة • فقرروا أن الضرورة تحتم عليهم الاسراع في النهاية وشددوا هجومهم على الدار • وانهالت النبل على المنزل فأصيب مروان بجراح • وخضب الحسن بن علي بالدماء وهو على الباب • كما خضب محمد بن طلحة بالدماء ايضا •

وخشى محمد بن أبي بكر ، وهو من أعنف الثائرين واشدهم حماسة أن يغضب بنو هاشم لرؤيتهم دم الحسن وأن يتجمعوا لمحاربة العصاة ثارا لدم قريبهم ، اذ كانت العصبية القبلية لا تزال قوية رغم الاسلام • وكان أتباع الخليفة قد ردوا في غضون ذلك على سهام المهاجمين وأصيب احدهم في مقتل. فثار العصاة لرفيقهم القتيل وحاولوا اقتحام باب الدار ، ولكن محمدا بن أبي بكر تمكن من اقناع رجلين أو ثلاثة بتسليق بناء مجاور ليتسوروا على الخليفة الدار عن طريق الدخول من نافذة مفتوحة الى فنائها وكان أنصار الخليفة قد سارعوا الى الباب الامامي يحمونه من اقتحام العصاة الذين كانوا يوالون مهاجمته • واشتد أوار المعركة وحمى وطمسها وحجب ضجيجها صوت المتسللين • وظل الخليفة الشيخ وحيدا في غرفته



يتلو القرآن المفتوح على ركبتيه وفجأة رأى امامه محمد بن ابي بكر . وقد نفذ الى الغرفة من مؤخرة المنزل . وكان محمد منتضيا سيفه بيمنه ، فهجم على الشيخ يسب ويشتم وقبض على لحيته وسنك الخليفة في لحظاته الاخيرة سلوكا كله هدوء واباء يستفز اعجاب الجميع حتى يومنا هذا اذ وجه كلامه الهادي الوقور الى الرجل قائلا : **والله يا ابن أخى لو رآك أبوك لساء مكانك منى ، ويبدو أن الشاب المتوحش قد خجل خجلا مؤقتا من موقف الخليفة الشيخ الرصين الوقور ومن اشارته الى أبيه أبى بكر الحنفي الصديق . فاسترخت يده عن لحية الخليفة وتراجع الى الورد . لكن شريكه كانا أكثر منه جراءة وأقل احساسا ، فهجما على الخليفة بعد أن مرا بمحمد ، وسيفاهما مشرعان في يديهما . ونحز عثمان صريعا على الارض وضم في لحظاته الاخيرة ، صفحات القرآن الذي كان يقرؤه الى صدره . بينما تدفق دمه غزيرا فخطب هذه الصفحات ورات زوجه نائلة قرينها صريعا فالقت بنفسها عليه لتدأ عنه بجسدها طعنات أخرى . وقطع القاتلان بعض أصابعها وهما يواصلان ضربه بسيفيهما وصرخت المرأة فلم يسمع صراخها ، لما كان في الدار من الجلبة والضوضاء وهجم بعض موالى الخليفة على الغرفة فقتلوا أحد الرجلين . وظل صراخ نائلة وعويلها غير مسموعين بسبب ماتحدثه المعركة عند الباب من ضجعة وضوضاء فهرعت الى سقف البيت وصرخت مرة ومرة قائلة : **والقد قتلوه . قتلوا أمير المؤمنين** » .**

وكان العصاة قد اقتحموا في تلك الآونة باب المنزل واندفعت الجماهير الشرسة صارخة الى الداخل واندفع بعضهم الى الغرفة التي كان فيها الخليفة الشيخ يلفظ انفاسه الاخيرة فأعملوا فيه سيوفهم . وطعنوه بخناجرهم وداسوا على جثته بأقدامهم وكانوا على وشك اقتطاع رأسه عندما اندفعت نساء البيت معولات باكيات يحمينه بأجسادهن . وانسحب الجنود العتاة الذين لا تعرف الشفقة طريقا الى قلوبهم أخيرا وقد خلفوا جثمان الخليفة يغوص في بركة من الدماء . وقد صمت صمته الأبدي على أرض الغرفة . وكان مصرعه في السابع عشر من يونيو ( حزيران ) عام ٦٥٦ ( ١ ) .

وعندما نعى الخبر الى علي وطلحه والزبير هرعوا الى دار الخليفة

( ١ ) يجمع المؤرخون العرب على أن مصرع عثمان كان في العشرين من مايو ( ايار )

يعربون عن أساهم وسخطهم لما حدث . وينحون بالملامة على المدافعين عنه لغشلتهم في الحفاظ على حياته . وقد تبدو هذه الكلمات خاوية من كل معنى ، إذا عرفنا أن الحصار الذي فرضه العصاة على دار الخليفة دام أربعين يوما (١) . ظل أبانها القادة الثلاثة ساسكتين لا يفعلون شيئا لانقاذ .

وظلت جثة الخليفة في مكانها داخل الغرفة ثلاثة أيام ، في حين فرض العصاة سيطرتهم على مدينة الرسول . ولم يجرؤ أحد على نقل الجثة لدفنها واندفعت جماعة صغيرة عشية اليوم الثالث من المنزل . وقد حمل أفرادها النعش الذي يضم الجثة على أكتافهم وقد ضمت هذه الجماعة الزبير بن العوام والحسن بن علي وبعض أقارب عثمان ومواليه . ومع ذلك فلم تخلص الجماعة من مراقبة العصاة الذين قذفوا الموكب الصغير بالحجارة . ودفن أمير المؤمنين في قطعة صغيرة من الأرض على مقربة من المقبرة العامة خارج المدينة .

لاريب في أن عثمان كان فاشلا كخليفة للمسلمين ، فلقد برهن على ضعف في سياسة أمور العرب الذين تميزوا بروح العنف والتحزب . ولا سيما في وقت جعلت منهم الانتصارات المتلاحقة قوما لايساسون ولا ينعنون . وكانت مواهبه العقلية محدودة مما أعجزه عن تبين القضايا الهامة ، وجعله خاضعا لسيطرة الجشعين من أقاربه . وقد عاش هو نفسه على العكس من سابقه حياة رخيّة ، وقبل الهدايا من عماله . وإن كان الترف البدائي الذي عاش فيه لا يقارن مطلقا بترف أسلافه من قياصرة الروم وآكاسرة الفرس . لكن من سبقه في تدبير شئون المسلمين وهم النبي وإبو بكر وعمر كانوا يحتقرون متاع الدنيا وزخرفها ، يمشون حفاة لا تسترهم الا عباءات خشنة من الصوف ، حتى بعد أن حصاوا على السلطان السياسي الضخم . وبدا عثمان إذا قورن بهم رجلا دنيوى الطابع لكنه كان تقيا تقوى أصيلة حتى أن النبي بشره بالجنة . وكان من التواضع والبراعة على درجة عظيمة حتى أن النبي قال عنه ان الملائكة لتخجل في حضرته . ولو لم يقدر له أن ينتخب ليحكم هذه الامبراطورية العظيمة التي تجيش بالاضطراب لأنهى حياته رجلا جليلا وقورا متدينا وادعا . ولا ريب

---

(١) يقول المؤرخون العرب ان مدة الحصار كان ٢٢ يوما لا أربعين كما ذكر

في أنه كشارل الاول ملك انجلترا يصلح لان يكون مواطنا كريما فاضلا  
لا ملكا او حاكما (١) .

كانت الاوقات عصيبة على اى حال ، وكان ايقاع الانتصارات  
العربية قد بدأ في الهبوط ، كما ان الحماسة الدينية الساعرة كانت قد  
شرعت في الخفوت ، ولكن لو كان عثمان على شاكلة عمر لتمكن من  
مواجهة العاصفة والتغلب عليها .

(١) نحن نختلف مع المؤلف في تحليله لشخصية عثمان . والاسباب التى أدت الى  
مصرعه فهو من أكرم خلق الله خلقا ولعل اصدق دلالة على ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي  
( صلم ) اذ قال « عثمان من أشبه أصحابي بى خلقا » ومن كان يشبه رسول الله في  
خلقه ، لا يمكن ان يهتم بالضعف والقشل وضيق الواهب والخضوع للاقارب . وقد  
توجه النبي ابنتيه واحدة الى أخرى . وقال له على رواية ابن عساکر . . « لو أن لى  
أربعين ابنة زوجك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة » . ومن يرضى به  
النبي وهو أعظم الناس سهرا لا يمكن أن يوصف بما وصفه به المؤلف .

أما ما وقع في عهده من فتن فمرده الى اسباب عدة نجلها فيما يلى :

١ - تعاسد كبار قادة المسلمين مما أقسح المجال لرواد الفتن وسحبى الاضطرابات  
من الشعوبيين اذ نقلت عن كبار المدينة اقوال كثيرة في عثمان . لم يدعوها بالأدلة  
والبراهين . مما اثر على عقول العامة ونفوسها .

٢ - أما ما عرف به عثمان من خلق الحياء واللين مما يدفعه الى الانقضاء من كثير  
مما يكره ويدعوه الى خوف الفتنة على المسلمين والى التسامح مع من يتاله منهم من  
اذى في حق نفسه وهما صفتان حملتا الناس على اتهامه بالضعف .

٣ - سماح عثمان لاعلام قريش خلافا لما كان يفعله عمر : بالخروج من المدينة  
والطواف بالامصار . وهذا هو ما دعا اهل البصرة الى المطالبة بخلافة طلحة . وأهل  
الكوفة الى المطالبة بخلافة الزبير ، وأهل مصر الى المطالبة بخلافة على . ولا يمكن  
والحالة هذه أن ننفي من اعلام قريش مطلبهم الى ولاية الامر . وان نفينا عنهم اشتراكهم  
مع التامرين والذي يؤخذ عليهم هو تقاسمهم عن نصره عثمان وقت الشدة .

٤ - سهولة التأثير في الجماعات اذا استهواهم ما يقال . وهم في مثل هذه الحال  
لا يتثبتون مما يقال لهم . فلقد كان العرب يحبون النبي أكثر مما يحبون انفسهم ويحبون  
العدل والمساواة فجاءهم ابن سبأ الشعبي من الجهة التى يحبونها يضع لهم الكلام في  
تعظيم الرسول وأهل بيته ويقتنهم بأن على بن أبى طالب هو وصي النبي وأنه صاحب  
الحق في الخلافة .

٥ - خداع الجماهير بالظن في ولاية عثمان كابن أبى سرح لان النبي حكم بقتله يوم  
الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه وعفو الرسول ستر للذنب . وكالوليد بن عقبة  
مع أنه كان واليا لمصر من قبل . وسعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أحسن  
العمال واحكمهم بالتوسط . ولكن الجماهير ضللت بالاكاذيب التى تشرها الشعوبيون من  
اصحاب المقاصد السيئة .

( العرب )

وأدى مصرع عثمان الى تغير كل شيء في حياة العرب بله في حياة المسلمين ، وكان المسلمون قد عاشوا ربع قرن بدأ بفتح النبي مكة ، واقامة الحكم الديني في البلاد في حلم مثالي رفيع . فقد اختارهم الله لفتح العالم ، واحتفظ لهم بكل مافي جنات النعيم من مسرات لا يمكن للعقل ان يتصورها . وكانت عناية الله قد اختارت رسول الله أولا وخليفته ابا بكر وعمر ثانيا ، ليكونوا أدوات تنفيذ ما اراده الله من نصر للعرب . وليس ثمة ما يمكن له ان يشوه ما يحس به العرب من سعادة ونصر . ولو قدر للعرب ان يحققوا انتصارات اخرى في الحياة الدنيا لبات في وسعهم ان ينصموا بالزيد من اطياب الحياة كالمال والنساء والجياد والمجد ، وكلها اطياب شاعت ارادة الله أن يغدقها على عباده الصالحين ، أما اذا قدرت الشهادة لآلئ منهم فان الشهداء يمشون فوراً الى مافي فرايس الجنان من متع ومسرات ، حيث يعيشون في ظلال ونعيم مقيم ، على الارائك متكئون وامامهم انهار سلسبيل تقوم على خدمتهم الحور العين . لكن هذا الحلم بدأ الآن في الانهيار . فلقد صورت دعايات أهل الفتنة خليفة المسلمين للناس على انه رجل عجوز شره شديد القسوة وقد تمكنت الايدي المجرمة من الوصول اليه فقتله اخوانه المسلمون الذين تركوا جثته دون دفن على أرض غرفته المجاورة لمسجد الرسول ، وقبره . وقد تقسمت قريش الآن ، وهى الطبقة النبيلة المقدسة ، (١) الى فئات وشيع تتوزعها عوامل الطمع والحسد . وكان محمد بن ابي بكر اول من وضع يديه على الخليفة الثالث لرسول الله . وكان قومه بنو تيم من قريش ، هم الذين هاجموا بنى امية يهتفون هتافات الجاهلية لاهتاف « الله اكبر » وهكذا انحسر حلم الربع قرن لتخلفه أيام تعود فيها الجاهلية بكل تعصبها وعنفها ونهبها وسلبها .

وقد يشك المؤرخون الاوربيون المعاصرون في أن الحماسة الدينية قد وجدت عند العرب في أى يوم من الايام . وقد يردون الفتوحات الاسلامية الى العوامل الاقتصادية التى نادى بها العالم الاقتصادى مالثوس ، والتى بين فيها ان ضغط تزايد السكان يكون دائماً عاملاً من عوامل الهجرات العنيفة التى تتجسد فتوحات وغزوات . وانى لارى أن هذه الشكوك صحيحة الى حد ما . فلو كان أهل الجزيرة العربية أثرياء يحبون حياة الرخاء والرفاهية لما اندفعوا من بلادهم الى الخارج أبداً . ومن الصحيح أيضاً أن بعضهم غنم الكثير بسبب هذه الفتوحات وجمع الثروات الطائلة .

(١) لا ادرى من اين جاء المؤلف بصفة القداسة لقريش ، فالاسلام لا يبرف القداسة الا للنبي وللصالحين من المسلمين .  
( العرب )

ولم يكن الناس على جهل بما اتبعه بعض أمراء الامصار والعمال من أساليب الابتزاز والاختلاس للثراء ، ولكن كبار القادة هم الذين يتعرضون في كل الحركات الدينية والسياسية العظيمة لمثل هذه الاغراءات . ولعل من الصحيح أيضا أن أكثر القادة العسكريين نجاحا - كخالد بن الوليد مثلا - كانوا أكثر الناس قسوة وخلوا من الرحمة (١) . ولكن الكثيرين من كبار القادة ظلوا طيلة الخمسة والعشرين ربيعا الاولى صورة مجسدة للنزاهة . ولا يمكن لما تجسد في بعض القادة من مطامع دنيوية أن نغض عيوننا عن الحقيقة ، وعن رؤية ما كان يمتاز به معظم الناس من تقوى أصيلة ومثاليه صادقة .

ويمكن لنا أن نجمل الصورة الصحيحة لما امتاز به المسلمون الاولون في الربع قرن الاول من حماسة دينية من مقارنة أوضاعهم بما صخب التفجرات اللاحقة في شبه الجزيرة العربية من حماسة واندفاع في القرون اللاحقة . فقد تمكن القرامطة بين عامي ٩٢٩ و ٩٦٩ مثلا - وهم شيعة شديداو التعصب - من احتلال الجزيرة العربية كلها بما فيها اليمن . واستولوا على مكة والمدينة وهددوا مركز الخلافة نفسه . ولكن هذا الاندفاع الحماسي عاد فخفت بعد انقضاء نحو من أربعين عاما . وظهرت جماعة الوهابيين في نهاية القرن الثامن عشر . واحتل رجالها الجزيرة العربية كلها وهددوا سورية والعراق . ولكن الوهابيين مالبتوا أن هزموا بعد نحو من أربعين عاما . وحمد حماسهم الديني ليعود الى الانتعاش من جديد في عام ١٩١٢ وليسيطر على الجزيرة العربية حتى عام ١٩٣٠ ليعود طوفان الحماسة ، فيخفت من جديد . ويبدو من هذه الأمثلة أن أهل الجزيرة العربية كانوا معرضين من وقت الى آخر لأن تجرفهم الانفجارات العنيفة من الحماس الديني ، وهي انفجارات لاتطول عن فترة أربعين عاما يعود بعدها الحماس الى الخفوت .

وكتب السير ماثيو ارنولد ، وهو من أعظم خبراء العصر في الشؤون العربية يقول : لعل من أبرز الاكتشافات الرائعة التي حققها المؤرخون العصريون ، الاعتراف بالحقيقة الواقعة وهي أن انتشار الاسلام الهائل في النصف الثاني من القرن السابع لم يكن وليد حركة دينية عظيمة . انما كانت هذه التوسعات التي قام بها الجنس العربي ثمرة هجرات

(١) حملة أخرى من الحملات التي تعرض بها المؤلف لقادة المسلمين وفي مقدمتهم خالد بن الوليد رغبة منه في تشويه التاريخ الاسلامي .

قام بها شعب أمتاز بالحيوية والاندفاع . ساقته المجاعة ، ودفعه العوز . الى اجتياح الاراضى الاكثر ثراء فى بلاد جيرانهم الاسعد حظا .. وقد أعلن تدد آخر من المؤرخين المعاصرين والاساتذة ايمانهم باكتشاف هذه الحقائق نفسها .

لكننى اعتقد أن هذه الاكتشافات ليست الا جزءا من الحقيقة وانها نسبية المعرفة لاموضوعية . ففى هذا العصر الذى نعيش فيه تتركز افكار الاوربيين كل التركيز فى الشئون الاقتصادية بحيث أننا ننسب الدوافع نفسها الى الشعوب الاخرى غير الاوربية وفى مختلف العصور والحقب . وفى مثل هذه الايام السوقية (الاستراتيجية) أرى لزما علينا أن نتبين الخطأ فى نسبة ما يقوم به الناس جميعا والأمم كلها الى سبب واحد فقط . والدوافع الانسانية والمشاعر البشرية هى من النوع المعقد كل التعقيد بحيث لايمكن تفسيرها بالتحليل الرياضى . ومن هنا تكون الدوافع التى حملت العرب على الاشتراك فى فتوحات السنوات الخمس والعشرين الاولى مختلطة . فقد لعب كل من الطموح وشظف العيش والفقر والطمع دوره لكن البدو كانوا دائما فى حالة من الفقر والجوع ألوف السنين قبل محمد وبعده . ترى اذن ما الذى أدى الى أن يصبحوا قوما لا يقبلون مدة ربع قرن فحسب ؟

لقد عشت سنوات طويلة مع أبناء البدو الذين لم يتغيروا كثيرا عما كانوا عليه أيام الفتوحات الاسلامية ولقد اكتشفت أن هناك خليطا من الايثارية مختفيا وراء مايمتاز به البدو من مظاهر القسوة واعمال السلب . وائى لأعتقد أن الرسول غزف على ذلك الوتر الخفى الحسناس من المثالية العربية ، وعندما مسه لم يبق هناك مايقعدهم عن تلبية كل مايطلبه منهم ولم يكن فى وسع ضغط السكان أو الحاجة الاقتصادية وحدهما أن يخلقا ذلك التفجير البركاني ، وكان لابد من وجود نيران عاطفية ومثالية خلقت هذا العنف الضخم . ولكن هذه القوة فى العاطفة التى خلقها الايمان ، كان لابد وان تكون قصيرة العمر . ولم يكن قد انقضى الآن أكثر من خمس وثلاثين سنة على هجرة الرسول الى المدينة ، وأربع وعشرين سنة على وفاته، عندما أخذ الحماس العاطفى الاول يسير فى طريق الخفوت والبرود . وأدت وفاة عثمان الى انتشار خيبة الأمل وإلى خمود نيران الحماس الدينى وضعف ماخلفته الفتوحات الكبرى من شعور بالعظمة والمجد .

## تواريخ مشهورة

١٧ يونيو ٦٥٦

مقتل الخليفة عثمان

\*\*\*

### شخصيات بارزة

مثير الفتن والاضطراب في الكوفة  
أحد المشتركين في قتل عثمان

كبار مستشاري الخليفة الذين لم  
يتدخلوا لنصرتهم

مالك الأشتر  
محمد بن أبي بكر

علي بن أبي طالب  
الزبير بن العوام  
طلحة بن عبد الله  
سعد بن أبي وقاص

—\*—





# الحُكم لله

« لبس الطموح الدافع المتسلط ، لباس الرغبة  
في النار العادل • وكثيرا مايجل التشيع والتحزب محل  
العقل والمنطق في دوامات العواطف والنسائس، وعلينا  
ألا نشك في أن القادة والأتباع قد اقنعوا أنفسهم بأن  
الهدف الحقيقي الذي ينشبدونه هو عقاب المسؤولين عن  
الخيانة العظمى التي اجترمت في المدينة» •  
السير وليام موير •• قصص الخلافة الاولى •



كانت المدينة تعيش في حالة من الاضطراب والفوضى في الايام الاولى التي تلت مصرع عثمان ، وكانت الكلمة العليا ابانها للعصاة ، وكانت جماعة جيش مصر أكثرها عنفا فقد اغتصب زعيمها مركز الخليفة وأخذ يؤم الناس في الصلاة في المسجد الكبير ، أما الأمويون فقد تفرقوا هاربين فاتجه بعضهم الى دمشق في حين اتجه بعضهم الآخر الى مكة ، وتسلسل الى مكة أيضا سعد بن أبي وقاص ونفر من المواطنين المحترمين (١) أما عمرو بن العاص فقد انسحب حتى قبل مصرع الخليفة الى مزرعة له قريبة من بئر السبع ، وجمع أحد الأمويين قميص عثمان الملوث بالدماء وأصابع نائلة ، وزوجه ، المقطوعة ، وحملها الى دمشق حيث قدمها الى معاوية .

وسرعان ما وقعت ردة الفعل ، حتى ان بعض العصاة فزعوا من هول ما جرتمه أيديهم ، وأدرك البعض الآخر أن الامبراطورية بأسرها غدت الآن بلا رأس وبلا حكومة تحكمها ، وأنه مالم تقم سلطة مركزية على الفور . فان الامصار المحتلة ستتفسخ في حالة من الفوضى والاضطراب . وراح العصاة يدعون أهل المدينة الى اختيار الخليفة الجديد ، وكان العصاة من جماعة مصر يؤيدون عليا ابن عم النبي ، أما العصاة من أهل الكوفة فكانوا يؤيدون الزبير ، قائد الفئة التي ارتقت سلاله حصن بابلينون لاقتحامه ، وأيد العصاة من أهل البصرة طلحة ، الذي أصيبت يده اليمنى بالشلل عندما دفع بها الى الامام في معركة أحد ليحمي بها رسول الله من ضربة سيف وجهت اليه .

وكان قبول الخلافة في مثل هذه الظروف العصيبة وبعد خمسة أيام من مصرع الخليفة السابق وفي خضم سيطرة الجنود العصاة على العاصمة عملا يتطلب الكثير من الجراءة والشجاعة ، ويبدو أن عليا تردد بادئ ذي بدء ، وعرض البيعة على الزبير وطلحة ولكن الضغط اشتد عليه لقبولها من فريقى صحابة الرسول الذين باتوا الآن شيوخ المدينة والجنود العصاة

(١) تختلف رواية المؤلف عن الروايات الاسلامية بمض الاختلاف فقد ذكر ابن سعد ان عليا يبيع بالخلافة بالند من مقتل عثمان ، واطن ان البيعة تمت في الند من موت الخليفة . كما ان الطبري ذكر ان سعد بن أبي وقاص حضر البيعة ، ولم يهرب الى مكة كما لال المؤلف ، وأنه قال عندما طلبت اليه بيعة علي . « والله لا اباع حتى يبايع الناس ، والله ما عليك منى بأس » فقال علي « خلوا سبيله » .

الذين يسيطرون عليها ، وقد بايعته غالبية المواطنين وبينهم طلحة والزبير . وفارق العصاة المدينة أخيرا عائدين الى أوطانهم وأمصارهم وبينهم طلحة والزبير (١) ليفخروا بما عملوه في قواعدهم العسكرية في الفسطاط والكوفة والبصرة .

ويذكر القارئ ولا شك . . أن المنافسة القديمة بين بطني هاشم وأمية من بطون قريش كانت قد تولدت كما رأينا قبل ولادة النبي . وقد قدر لهذه المنافسة أن تقسم الامبراطورية العربية العظمى في السنوات التالية الى فرق واقسام ، وان تجزئ العالم الاسلامي الى شيع وأحزاب ما زالت قائمة حتى يومنا هذا ، وليس ثمة من شك في أن كافة المؤرخين المسلمين قد تورطوا في هذه الانقسامات المفجعة والمستمرة ، ولذا فان ما خلفوه من تسجيل للأحداث وتفسير تاريخي لها ، قد اصطبغ بصفة تشيعهم لهذه الفئة أو تلك . وتؤلف رواياتهم المتناقضة في معظم الأحيان مشكلة معقدة لا تحل بالنسبة الى الطالب المحايد ، وقد بذلت كل ما وسعني من جهد وطاقة لاتخاذ سبيل وسط في خضم هذه الصراعات العاصفة .

وعلى بن أبي طالب هو ابن عم النبي والذي نشأ في حجره اذ تنباه وكفله بعد زواجه بخديجة ، ليخفف عن عمه عبء وفرة الولد ، وعندما شب

---

(١) لم يوضح المؤلف ما وقع عندبيعة على ايضاحا كاليا ، ويقول الكوفيون ان زعيمهم الاشر كان اول من بايع عليا بالخلافة وكان من المهم عنده ان يبايع طلحة والزبير لانهما زملاء في الشورى . واذا كان هناك من مطلع غيره الى الخلافة فهو أحدهما ولا شك ، وروى الزهري انه دعاهما الى البيعة فتلكا طلحة فقام مالك الاشر واستل سيفه وقال : والله لتبايعني أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه ، وبايع الزبير . وروى ان عليا قال لهما ان أحببتما ان تبايعاني . . فافعلوا وان أحببتما بايتكما ، فقالا : بل نبايعك . ثم قال فيما بعد انهما انما بايعاه خشية على نفسيهما وانهما كانا يعرفان انه لن يبايعهما ، وجيء بسعد بن ابى وقاص ليبايع . فقال : لا ابايع حتى يبايع الناس . والله ما عليك منى بأس . فقال : خلوا سبيله . وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع . فقال لا ابايع حتى يبايع الناس . قال اثنى بحميل ( أى بكفيل ) قال لا ارى حميلا . قال الاشر : خل منى اغرب منقه قال على . . دعوه انا حميله . انك ما علمت لسيء الخلق صفرا أو كبرا وتخلف من الانصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد ، وابو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديع وفضالة بن عبيدة وكعب بن عجرة ، وهم من المهاجرين الى عثمان . وهرب قوم من اهل المدينة الى الشام ولم يبايعوا عليا . ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام . والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء اهل المدينة الا من فر ولحق بالشام .

( العرب )

واشتد عوده ، بنى بفاطمة ابنة النبی ، ووالدة الحسن والحسين سبطي الرسول ، والحبيبين الى فؤاده ، وقد اعتنق على الاسلام وهو في العاشرة من عمره ، وهناك من يقول انه اول من أسلم ، في حين أن البعض الآخر يقول : ان خديجة كانت اول من أسلم ، ويقول البعض الثالث ان أبا بكر اول المسلمين (١) .

على أي حال كان على من أول ثلاثة آمنوا بالله ورسوله ، ويروى عن على نفسه قوله ان الرسالة نزلت على النبي يوم الاثنين وانه أسلم يوم الثلاثاء ، وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها كان على بن أبي طالب بدافع قرابته الى رسول الله ، وبدافع أقدميته في الاسلام ، ابرز المسلمين الاحياء في عام ٦٥٦ .

وكان على بطلا من أبطال القتال في أيام فتوته وشبابه ، وكان اول من نزل الى المبارزة في معركتي بدر وأحد بين الصفوف وتغلب على خصمه في كلتا المعركتين ، وكثيرا ما عهد اليه النبي بالراية ليحملها في معارك المسلمين ، ولكنه في سنوات الفتح الاسلامي ظل في المدينة يعمل مشاورا ومستشارا لكل من أبي بكر وعمر ، اذ عرف عنه حدة الذكاء وسرعة البديهة . وروى عن عمر بن الخطاب قوله : « على أقضانا » .

وقد أصبح على في النهاية من أثرياء أهل المدينة . اذ لم يكن شديد التقشف كأبي بكر وعمر . وقد اختار الله رفيقته فاطمة الزهراء الى جواره منذ عهد بعيد ، فبنى على بعدها بعدد من النساء ، واقتنى الكثيرات من الاماء ، وكان خطيبا لا يشق له غبار في بلاغة قوله ومن أعلم الناس بأعراف الاسلام وسننه . وعندما بويج بالخلافة في عام ٦٥٦ ، كان قد بلغ أوسط العمر ، ويمتاز بالقصر والبدانة ، وله حية كبيرة متدلّية .

وواجه على بعد توليه الخلافة موقفا في منتهى الخطورة ، وكان قد أم للمدينة ابان سني الفتح عدد كبير يبلغ الألوف من العبيد والموالي الذين يمتون الى مختلف الجنسيات والشعوب . وقد جاءوا جزءا من الفء أو موالى للكثيرين من المحاربين وكان الكثيرون منهم أو معظمهم قد اعتنق الاسلام مما مكنهم من تحسين أوضاعهم في المدينة المقدسة . وقد سمح لعدد من العبيد والموالي المحررين من ذوى المواهب الخاصة أن يمارسوا

---

(١) كان على بن أبي طالب أول من أسلم من الفتيان .

ممنهم في المدينة بحرية ، شريطة أن يدفع العبد لسيدته شطرا من مكاسبه . ولقد رأينا من قبل أن أبا لؤلؤة الذي قتل عمر بن الخطاب كان عبدا للمغيرة بن شعبة وكان من الحاذقين في أعمال النجارة ، وكان عدد من كبار المسلمين قد ضم بعض العبيد الى بطانته ، وجهزه بالسلاح ليتولى حراسته ؛ وظل هؤلاء الموالي والاتباع هادئين مستكينين طيلة المدة التي كانت فيها الامبراطورية العربية قوية تفرض النظام على رعاياها. ولكن عندما وقعت الفوضى أثناء حصار عثمان خرج عدد من هؤلاء الموالي الى شوارع المدينة مجهزين بالسلاح يعيشون فيها فسادا ويقترفون الجرائم ، بعد أن عصوا طاعة سادتهم وتجبروا عليهم .

ولم يكن هناك من يتخيل امكان وقوع العصيان في قلب الامبراطورية وعاصمتها ، طيلة المدة التي انقضت بين فتح الرسول لمكة ، ومصرع عثمان ، ولم يكن ثمة جنود يقيمون بصفة مستديمة في مكة والمدينة . فالمحاربون العرب منتشرون في قواعدهم العسكرية على الحدود والشعور أو في الامصار المحتلة ، وهكذا تمكنت حفنة من العصاة لا يزيد تعدادها على الآلفين من فرض الحصار على الخليفة في منزله وقتله . أما وقد عاد العصاة الآن الى قواعدهم ومراكزهم ، فقد أصبحت الامبراطورية تحت رحمة العبيد والموالي .

ومثلت القبائل البدوية المحيطة بالعاصمة خطرا ثالثا يهددها . وعلى الرغم من أن هؤلاء البدو كانوا دعامة الجيوش العربية التي احتلت فارس واجتاحت امبراطورية الروم سعيا وراء نشر العقيدة الا أن غريزة النهب كانت متأصلة في نفوسهم وطبائعهم . وأوحى الفتن التي وقعت في المدينة لقبائل الحجاز ، بأن سلطة الحكومة قد وصلت الى حد الانهيار والانحلال . وان العودة الى أيام النهب والسلب في الجاهلية قد أصبحت مرتقبة وشيكة ، وأخذت جماعات من راكبي الابل المسلحين تظهر هنا وهناك ، تنتظر فرصتها لنهب المدينة ، أو سلب قطعان الماشية التي تملكها قبيلة منافسة . ولم تتوافر في المدينة قوات لمواجهة هذه الفوضى . وكان ثمة كبير شك في ولاء جيوش مصر والعراق . وعلى الرغم من أن جيش سوريا لم يشترك في العصيان الا أنه يدين بالولاء لقيادته معاوية وهو من الامويين . وعلى الرغم من أن أهل المدينة قد تقاعسوا بدافع الخوف أو الغيرة الضيقة الحدود عن نصره عثمان . الا أنهم فزعوا الآن من رؤية هذا الخطر الداهم الذي يهدد كل سلطة بالانهلال . ولا ريب في أن الوضع في المدينة لم يكن ليقل في خطورته الآن عن الوضع العام

إبان الردة ، بعد وفاة النبي ، وراح طلحة والزبير والكثيرون من الصحابة ، والانصار يحثون عليا على ضرورة فرض الانضباط بمعاقبة قتلة عثمان .

ورأى الخليفة الجديد نفسه يواجه قرارا ذا خطورة هائلة ، ولو تجمعت قريش كلها يؤيدها الانصار وصحابة رسول الله لتأييد الخليفة الجديد في مسعاه للثأر من القتلة ، قتلة خليفة رسول الله ، لا عثمان ، لتحديدهم لسلطان الخليفة المقدس ، لكان في الامكان القضاء على هذه الروح المتفشية من التمرد والعصيان . وكان لابد لمعاوية في مثل هذه الحالة وهو القائد لجيش موال مخلص ، من أن يجر جرا لتأييد الخليفة الجديد ، وكان لابد لقيام الخليفة الهاشمي بالثأر لقتل الخليفة الاموي ، من أن يرأب الصدع الناشئ بين البطينين المتنافسين من بطون قريش . ولكن عليا على الرغم من بكائه عثمان وندبه مصرعه لم يقم بأية خطوة للثأر من قاتليه ، متظاهرا كما يبدو بعجزه عن ذلك لافتقاره الى القوات الكافية لذلك ولانتشار الفوضى في كل مكان .

وواصل الزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص ، وهم قادة المسلمين والباقيون من أعضاء الهيئة الاستشارية غير الرسمية حثهم للخليفة الجديد على الثأر من قاتلي عثمان ، وان كانوا هم أنفسهم قد تقاعسوا عن نصره عثمان أو معارضة قتله ، وكان موسم الحج قد حان إبان حصار عثمان في داره ، فأوفد الخليفة ، الشيخ المحصور ، عبدالله بن عباس ، ابن عم النبي ليتولى قيادة الحجيج . وعندما عاد ابن عباس من مكة بعد انتهاء موسم الحج ، وكان عثمان قد قتل ضم صوته الى أصوات المستشارين الآخرين بالمطالبة بدم عثمان . ولكن عليا ظل على عجزه أو عزوفه عن القيام بأي اجراء ضد القتلة .

وظهرت في غضون ذلك مشكلة أخرى ، فلقد كان أمراء الأمصار حتى تلك اللحظة من الذين اختارهم عثمان . وكانوا في معظم الحالات من الامويين ، ويبدو أن الكثيرين من المستشارين أوصوا عليا بالابقاء عليهم ولو لفترة مؤقتة . ومن الصحيح أن يقال ان معظم مظاهر النقمة في عهد عثمان ، كان قد اتخذ شكل شكاوى موجهة ضد هؤلاء الحكام . ولكن بنى أمية أصبحوا بمقتل عثمان الطرف المساء اليه ، بعد أن كانوا هم المسيئين . وما كان على ليتهم بالمحسوبية لو أبقى على العمال الامويين في مراكزهم لفترة موقوتة على الأقل أو لو أنه عالج موضوعهم بصورة فردية وعلى ضوء أوضاع كل منهم . والمعروف أن المغيرة بن شعبه وعبد الله بن عباس وغيرهما من الصحابة والمستشارين كانوا قد أوصوا

عليا وألحوا عليه بالسير بتؤدة في هذا الموضوع • محذرينه على الأقل من الاسامة معاوية ، الذي كانت امارته هي الوحيدة التي احتفظت بالهدوء والسلوك الطيب ، والذي كان على الأقل من العمال الذين عينهم عمر لا عثمان •

ولكن عليا رفض الاصغاء لكل نصيح في الموضوع • وأصر على أن يعزل فوراً جميع عمال عثمان • وبينهم معاوية ، بالرغم من الحقيقة الواقعة ، وهي أن عليا لم يكن يملك أى جيش فى المدينة ، وكانت سورية كلها تقف موقفا صامدا وراء معاوية • وسرعان ما أوفد الذين اختارهم هو لامارة الامصار الى مراكزهم الجديدة • وكان معظم الذين اختارهم على ، والحق يقال ، من أكثر الرجال كفاية وأشرفهم سمعة ومكانة • ولكن شعورا معكوسا من السخط كان قد انتشر الآن فى أنحاء الامبراطورية كلها • وقد تزايد أمر الدعوة الى عقاب قتلة عثمان فى كل مكان • كما انتشرت الشائعات تتهم عليا بالضلوع مع القتلة • وتمكن عامل على فى البصرة من تسلم منصبه ، لأن عبد الله بن عامر أميرها فى عهد عثمان انسحب بهدوء منعنا لأمر الخليفة • وتمكن عامله فى مصر من تسلم منصبه بعد لاي ، لأن هذا المنصب كان خاليا منذ فرار عبد الله بن أبى سرح • لكن العاملين اللذين اختارهما للشام والكوفة لم يستطيعا دخول المدينتين ، وكانا جد مسرورين بالعودة ناجيين بحياتهما الى المدينة • وعاد الخليفة يلجأ الى الدبلوماسية بعد فشل محاولته ، ولكن بعد فوات الأوان • فقد وجه رسالتين احدهما الى معاوية والاخرى الى أبى موسى الاشعري أمير الكوفة يطلب اليهما اعلان البيعة • وقد رد أبو موسى وهو جندى ممتحن على رسالة الخليفة بعبارات تحمل الولاء ، على الرغم من لا قرشيته ، ولكنه حذر عليا من أن الفتنة مستشرية فى الكوفة ، أما معاوية فلم يرد فى تلك الآونة على رسالة الخليفة •

ولعل القارىء يذكر ولا شك • أن قميص عثمان الذى لوثته الدماء وأصاب زوجه نائلة التى قطعها المتآمرون وهى تذب عنه قد هربت من المدينة • ونقلت الى معاوية فى دمشق ، وسرعان ما دقت بالمسامير الى منبر الجامع الكبير فيها ، ليكون نداء عاطفياً مؤثراً يدعو الناس للثأر للدم البريء • ولم يقم معاوية حتى تلك اللحظة بأية خطوة باستثناء هذه الطريقة البارة من طرق الدعاية واتخاذ موقف التعبير عن حزنه الطاغى على أحداث تلك الايام وشهرها • لكن سوريا كانت تختلف على أى حال اختلافاً كلياً عن العراق ومصر • وعلى الرغم من أن عمر فى البداية قد سار على سياسة من التفريق العنصرى فى سوريا كما فى



غيرها من الامصار ، وأقام جيشه فيها في قاعدة عسكرية ضخمة أقامها في الجابية ، الا أن هذه السياسة ، سرعان ما عدل عنها بصورة متدرجة بفضل الحطة التي انتهجها معاوية فقد أقام عاصمته في دمشق لا في الجابية ، وعاش معه فيها كبسار العرب وصحابة النبي حيث اختلطوا اختلاطا واضحا بجماهير الناس من أبناء الشعوب المحتلة . أما في العراق ومصر فقد غدت الجيوش العربية من جراء حياة البطالة التي تعيشها في قواعد العسكارية مجموعة من الجنود المتعاليين ، المتأهبين دائما للثورة ، في حين أن جماهير المدنيين تعيش حياتها معزولة كل الانزال عن شئون الدولة . أما في سوريا فقد امتزجت الدولة والجيش مع الجماهير وبدلا من أن نرى فيها حشدا من الجنود المتغطرسين الكسالى نرى شعبا يقف مع الجيش وراء حاكمه معاوية .

وانصرفت الأسابيع ، وعلى لا يتخذ أية خطوة للثأر من قتلة عثمان في حين أن قميصه الملوث بالدماء مازال معلقا على منبر المسجد في دمشق ، وأحس معاوية أخيرا في شهر سبتمبر ( ايلول ) عام ٦٥٦ أى بعد ثلاثة أشهر من مصرع عثمان أنه بات قادرا على الرد على رسالة علي . وحملت الرسالة التي بعث بها الى الخليفة في المدينة عبارة الاستهلال التالية « من معاوية الى علي » دون أية مجاملات ترمز الى الاحترام والتوقير . ولم يكن في داخل الخلاف الا ورقة بيضاء لا كتابة فيها على الاطلاق ، واستبدت الدهشة بالخليفة ، وحار في أمر الرسالة وسأل من حوله عن مغزاها ورد الرسول بصورة لا تخلو من الصرامة ، ان ثمة ستين ألفا من المحاربين في دمشق سيكون على قميص الشهيد المخضل بالدماء ، وانهم مصممون على الثأر برأس علي لدم عثمان البريء ، بالرغم من قسمه بأنه برئ من هذا الدم (١) وهكذا ظهرت كلمة « الحرب الأهلية »

(١) توحى الطريقة التي سرد بها المؤلف قصة الرسالة بشيء من الشك في اشعزائه على في قتل عثمان ، مع أن هذا الشك لا محل له على الاطلاق ، وان عليا برئ كل البراءة من تهمة التواطؤ . أما ما يدعيه المؤلف من تقاصص على عن نصرته عثمان فمردود أصلا لان عليا أوفد ولديه الحسن والحسين للدفاع عن عثمان ، وهما أغلى عليه من نفسه . أما عدم اشتراكه هو شخصا في الدفاع القلبي ، فمردود الى ان عليا كان قد استاء من رفض عثمان تسليم مروان الى جيش مصر ، رغم نصيحته هو ، ونصيحة كبار المسلمين الذين اقترحهم رسالة مروان الى أمير مصر بقتل محمد بن أبى بكر وصحبه ، وأدى أن أورد هنا قصة رسالة معاوية كما أوردها المؤرخون العرب إل قالوا .. أراد معاوية في الشهر الثالث من مقتل عثمان أن يعلن خلافته فدعا برجل من بنى عيس ودفع اليه طومارا مختوما عنوانه «من معاوية الى علي» وقال له اذا دخلت المدينة

لاول مرة فى تاريخ الاسلام وقصصه . وأدرك على أنه لم يعد ثمة مجال لاتخاذ اجراء حازم ، وأصدر أمره بنشر رايات الحرب والاعداد لحملة على سوريا . وأوفد الى مصر والكوفة والبصرة رسله يدعونها الى اعداد الجند .

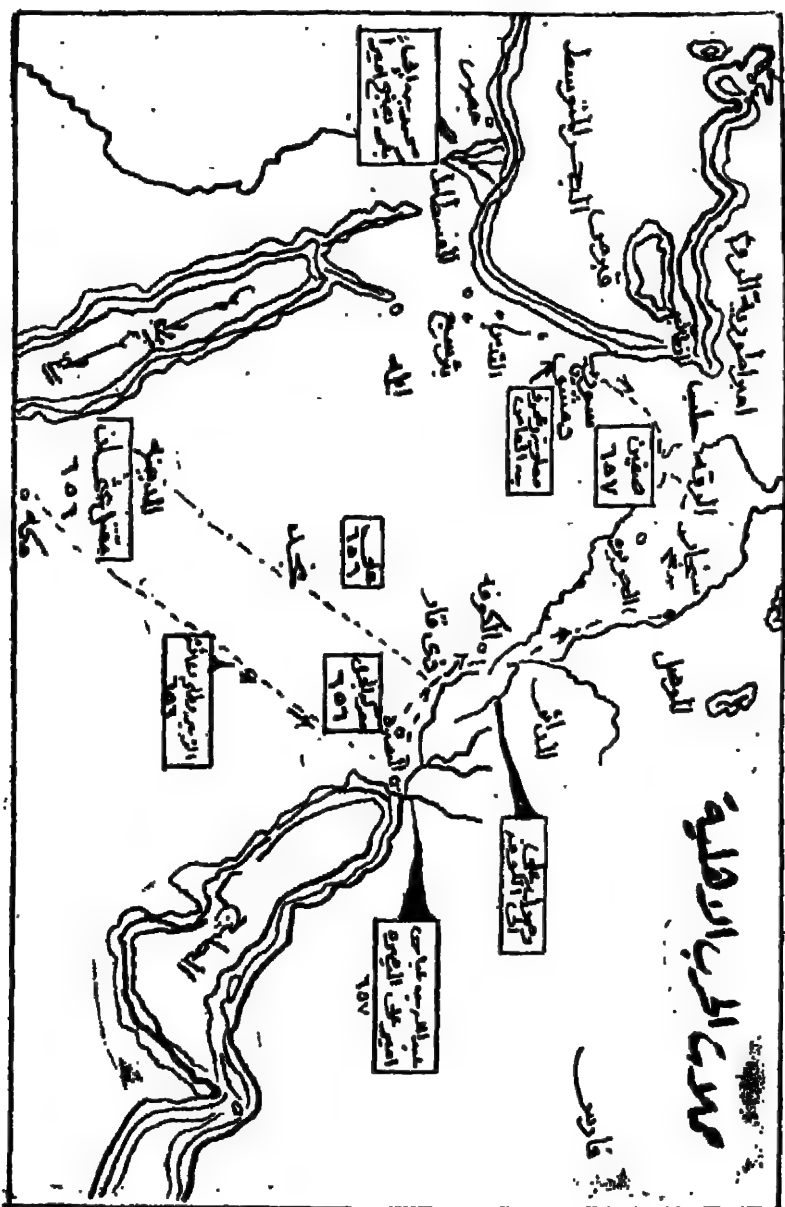
وكان الزبير وطلحة يلحفان على على بأن يعلن عزمه على الثار لعثمان ولكنهما رأيا الخليفة يتجاهل نصيحتهما المرة تلو المرة ، وأخذت عاصفة الاتهام الموجه الى على تشتد يوما بعد يوم . وأدى تقاعسه عن العمل الى تقوية الشكوك بأنه كان متواطئا مع القتلة . أما الحقيقة فهى أن غلبا كان لا يزال فى موقف المتردد العاجز عن اتخاذ أى قرار فهو بالرغم من عدم تواطئه مع القتلة ، لم يقم بأية محاولة للدفاع عن شخصيتهم . وها هو ذا الآن ، وبلاسلوب نفسه يقف موقف المحجم ، المترقب من الأحداث . . . . . نجدته .

وغادر الزبير وطلحة - وهما اللذان يتلوان عليا مباشرة فى المنزل وفى المكانة - المدينة الى مكة متذرعين بالرغبة فى أداء العمرة ، وكانت عائشة أم المؤمنين فيها . وكانت منذ حادث الافك ، تضمر فى نفسها الضغينة لعل ، لحكمه بطلاق الرسول منها . ولم تنس قط استناءته هذه . وحرى بنا أن نذكر هنا أن عائشة بنت أبى بكر ، أى شقيقة محمد البنى كان أول من اقتحم على عثمان غرفته . وأن نقول انها حاولت منع أخيها من الاشتراك فى عمليات العنف . وكان عدد من الأمويين قد فروا من المدينة الى مكة فلما وصل اليها طلحة والزبير وجدأ أن الفتنة قد رسخت أقدامها فيها ، وسرعان ما ارتفعت راية العصيان فى المدينة المقدسة ، وظهر طلحة والزبير على استعداد لمحاربة على رفيقهما السابق .

ويذكر القارىء ولا ريب . . أن جماعة الكوفة من العصاة كانت تؤيد اختيار الزبير للخلافة فى حين كانت جماعة البصرة تؤيد طلحة ولم يكن مع على الا جماعة مصر . ولهذا قرر طلحة والزبير أن يرفعا لواء الثورة فى البصرة أولا فخرجسا من مكة على رأس ثلاثة آلاف رجل وغايتهما

---

مناقض على أسفل الطومار وأرفعه حتى يراه الناس فلما قدم العباسي المدينة رفع الطومار وخرج الناس ينظرون وقد علموا أن معاوية معتزى ثم دخل الى على فأسلمه الطومار، فغضه فلم يجد فيه شيئا ثم سأل الرسول ما وراءك قال انى تركت قوما لا يرشون الا بالقود . قال ممن ؟ قال : من خيبت نفسك . وترك ستين ألف شيخ سيكون تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق ، فقال على : منى يطلبون دم عثمان ! لست موتورا ترة عثمان ! اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان ، نجا والله قتلة عثمان الا ان يشاء الله . . . . . ( العرب )



أن يقطعا الجزيرة العربية للوصول إلى العراق وكان معهما مروان ابن عم عثمان وكاتم سره الذي رفض عثمان أن يسلمه إلى العصاة .

ومضت عائشة في هودجها مع الركب ، وخرج أهل مكة مع الجيش يودعون في اليوم الأول من سفره وعندما انتهى الوداع وأدار المكيون ظهورهم عائدين إلى مكة انفجرت الدموع من مآقي الجمع الحاشد الذي ضم عددا من النسوة ، وأطلق أهل مكة على ذلك اليوم المفجع اسم « يوم الدموع » .



كانت الامبراطورية العربية العظيمة قد ظهرت إلى حيز الوجود كالبرق الخاطف في فترة خيالية لا تزيد على العشرين ربعا ، وبدأت الآن وكأنها على وشك الانهيار والزوال في خضم لجة بدوية من الحرب القبيلية والمنازعات الدامية المشتركة . وقد ظلت نقاط الضعف في الامبراطورية الجديدة خفية عن العيان طيلة المدة التي كان فيها الناس يعملون بوحى حبهم العاطفي الصادق للنبي وخليفته المخلصين من بعده أبي بكر وعمر بن الخطاب . وقد خفت الآن موجة الحماس الأولى للعقيدة الجديدة فقد انقضى زهاء خمسة وعشرين عاما على وفاة النبي . وقد نشأ الآن جيل جديد لم يعرف النبي شخصا ولم يحس بما كان لشخصيته من جاذبية تكاد تشبه السحر .

وكانت الامبراطورية العربية القوية مهيبة كل المهابة بالنسبة إلى المتطلع إليها. ولكن تم بناؤها في سرعة عجيبة . وقد بدأت التصدعات المنيرة بالشر تظهر في أسسها فليس هناك أولا أى دستور لهذه الامبراطورية ، كما ليس ثمة أى نظام ثابت لاختيار الخلفاء وقد ارتكزت قوانين الدولة على القرآن وعلى سنة الرسول من قول أو فعل ، ولم يسبق للرسول أن بحث في أى موضوع يتعلق بالخلافة .

لكن الضعف الحقيقي كان أعمق جذورا من كل هذا ، إذ كان روحيا في طبيعته . فعندما هاجر النبي وصحبه من مكة إلى المدينة . كان هذا النفر القليل العدد مدقعا لا يملك شيئا . وكان عبئا في معيشتهم على حسن وفادة الانصار . ولكن هذا النفر مالئث أن حصل على ما يقيم الأود من غنائم الغزوات والحروب . وهكذا كانت الحرب في سبيل نشر الدعوة تعنى لهم الثراء والغنائم . ولكن هذه الغنائم لم تكن شيئا يعتد به أبان حياة الرسول إذ أنها تابعة اما عن قريش أو عن القبائل البدوية

المجاورة وكلها قبائل فقيرة نسبيا . يضاف الى هذا أن محمدا وخليفته الأولين كانوا لا يكترون بالمال أو الترف ، وحافظوا على حياة البساطة الطبيعية التي عاشوها من قبل حتى وفاتهم .

لكن انهيار امبراطوريتي الروم والفرس أدى الى اثراء كثيرين من المسلمين ثراء خاليا . وكانت الفكرة الغالبة ان في وسع المسلمين أن يتمتعوا بطايب الدارين . دار الدنيا من مال ومتمتع وزوجات ، ودار الآخرة من نعيم مقيم في فراديس الجنان . وليست هناك من حقيقة اصدق من تلك التي تقول ان الانسان لا يستطيع أن يعبد الهين في وقت واحد . الهه الحقيقي واله المال ، وقد لا تعنى الثروة انها شر ، ولكنها اقرب الى قلب الانسان وأكثر تأثيرا عليه من عبادة ربه . والبحث عن العبادتين في آن واحد لا يعنى الا شسيتا حتميا ، وهو أن يكرس المرء عبادته بشكل رئيسي لطاغوت المال . (١)

ولقد حقق العرب انتصاراتهم العظيمة بسرعة هائلة وأدى الألف لحياة الرخاء واليسال والنساء التي أصبحوا يعتبرونها الجزاء لحقهم للمؤمنين الى انشغال عقولهم بالنجاح الدنيوى بدلا من انشغالها بعبادة الله وتقواه . وكثيرا ما وجه النقد الى المسيحيين لأنهم يعتبرون كل ما فى الدنيا شرا من الشرور . أما بالنسبة الى المسلمين الأول ، فان الدنيا كانت طيبة الى أقصى حدود المبالغة فى الطيب .

وما كادت المطامع الدنيوية تثبت أقدامها من جديد ، حتى عادت عادات العرب فى الجاهلية الى الظهور لانها خير أدوات لتحقيق هذه المطامع ، وقد عملت العصبية القبلية والشهوة الى التآثر الناجم عن المنازعات الدموية عملها فى التأثير على العقول التي أضعف حب المال والنساء مشاعرها الدنيوية تماما كما يعمل المرض الوبائى عمله بنجاح فى الأجسام التي سبق للاهمال أن أضعفها .



(١) يبدو ان المؤلف لا يستطيع أن يفهم السبيل الى الجمع بين الروح والمادة فهو يفترض ان الانسان اما ان يكون مادي التفكير في حياته أو روحى الايمان . ولقد جمع الاسلام بين هذين العاملين الاساسيين في تكوين الانسان . فامر الناس بأن يعملوا لدنياهم وكانهم خالدون فيها ، وأن يعملوا لآخرتهم وكانهم ميتون قدا ، وعلى الرغم من صعوبة هذا الجمع عند الكثيرين لتغلب المنصر المادى عليهم ، أو لتماثلهم بالروحانيات تملقا اعمى ، الا ان الحياة العملية تثبت ان الاسلام كان على حق في جمعه بين الجوهريين .

ويبدو من الصعب تبرير خيانة طلحة والزبير الظاهرة لعل بن أبي طالب بعد أن ظلا يتعاونان معه كرفاق وزملاء في تقديم النصيح والمشورة لعمر وعثمان طيلة أربعة وعشرين عاما ، وبعد أن كانا قبل أقل من ثلاثة أشهر قد بايعاه بالخلافة . أما بالنسبة الى ما اتهم به علي من تواطؤ مع قتلة عثمان ، فانهما لا يفضلان عليا في موقفه هذا ، اذ كانا في المدينة أيضا عندما فرض الحصار على منزل الخليفة ، « ولم يقوما بأى عمل لمساعدته وانتقاذه . ولقد علق أحد المشتركين في هذه الفتن بقوله « ان لك اللامة في مصرع عثمان يقع على عاتق علي ، في حين يقع التلثان الباقيان على الزبير وطلحة وعائشة » .

ولما نعى الى مسامع «علي» سير من سار الى البصرة من أمثال الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة ، قرر أن يدركهم قبل أن يصلوا اليها ولكنه وجد صعوبة كبرى في حشد قوة لهذه الغاية . فقبل ثلاثة أشهر ليس الا كان الصحابة وأهل المدينة قد ألحقوا عليه في قبول الخلافة . أما الآن فليس ثمة من يؤيده الا القليلون . وان كان الزبير وطلحة المتقلبان قد تمكننا من جمع ثلاثة آلاف رجل من أهل مكة والقبائل المجاورة لها (١) ولا ريب في أن السبب في هذا التبدل يعود الى انتشار تيار الدعوة القائلة بأن عليا قد حرّض سرا على مقتل عثمان . وأخيرا ، وبعد أربعة أشهر من مصرع عثمان خرج «علي» في أكتوبر (تشرين الاول) عام ١٦٥٦

(١) أخطأ المؤلف بمض الخطأ في تحليله أسباب التفاف الناس حول الزبير وطلحة وانقضاضهم عن علي ، وعلى الرغم من أن تقاسم علي من الأخذ بثأر عثمان من قاتليه كان سببا أساسيا الا ان السبب الجوهرى هو وجود عائشة أم المؤمنين في الصف الحادى لعل ، فلقد كان لها منزلة عظيمة رهيبة لانها ابنة رسول الله وزوجه التى انتقل الى الرليق الاملى في حجرتها . وكانت عائشة رضى الله عنها من الخطيبات البليغات المؤثرات فقد خطبت الناس في المسجد الحرام تحرضهم على الخروج مع الزبير وطلحة وقالت . . ان الفوغاء من أهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا . ان عاب الفوغاء على هذا القتل بالامس الارب . واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل أسنانهم قبله . ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم . وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم منها استصلاحا لهم . فلما لم يجدوا حجة ولا عدرا خلجوا وباندروا بالعدوان ونبا قولهم من فعلهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لاصبح عثمان خير من طباق الارض أمثالهم . فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى يتكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذى امتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه ، كما يخلص الذهب من خبثه او الثوب من دونه اذ ما حبه كايصاص الثوب بالماء .

يطلب الحاق بالزبير وطلحة ولم يكن معه أكثر من سبعمائة رجل ، وأحس بضعف قوته وعجزه عن السير ، فربط على بئر في صحراء نجد . (١) وبلغته الأنباء وهو هناك بأن خصومه قد وصلوا الى البصرة وبعد أن استراح بضعة أيام أوفد محمد بن أبي بكر الى الكوفة لاقناع الجنود في قاعدتها بالانضمام اليه في زحفه على البصرة .

وكان الزبير وطلحة قد وصلا في غضون ذلك الى خارج البصرة ويذكر القارئ أن عليا كان قد أوفد أميرا اليها تسلم زمام الأمور باسمه فيها من عامل عثمان . وراح هذا الأمير يقابل الآن جماعة المنشقين وقوتهم عند مدخل المدينة . ودار نقاش حاد ، واثم البعض الزبير وطلحة بالردة عن البيعة والثورة على من بايعاه . فردا بحجتين أولاهما انهما أجبرا على بيعة على ، وثانيتها أنه لم يتبين لهما اصرار «على» على رفض الثار لدم عثمان من قتلته الا بعد بيعته . وأضافا أن الدولة الإسلامية لا يمكن أن تبقى وتعيش اذا كان يسمح ببقاء الجنود العصاة الذين يقتلون خليفة رسول الله دون عقاب . وتطور النقاش الى قتال لم يتوقف الا عند حلول الظلام . ويبدو أن جماعة الناقمين تمكنت أثناء الليل من التوغل داخل المدينة ، واستؤنف القتال عند الفجر فلما حلت الليلة الثانية كانت شوارع المدينة قد امتلأت بالقتلى والجرحى من الفريقين المتحاربين رغم اشتراكهما في الاسلام . وتم أخيرا الوصول الى هدنة واتفق الفريقان على أن يبعثا برسول محايد الى المدينة يسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير ويتثبت من الحقائق . فان عاد بأن الرجلين قد بايعا كرها غدت المدينة من حقهما . وان عاد ليقول العكس وانهما قد بايعا عليا ، طائعين مختارين ثم نكثا بيعتهما ، تحتم عليهما أن يفادرا المدينة ويخليها لعامل «على» ووصل الرجل في الموعد المناسب الى المدينة وكان الناس يؤدون صلاة الجمعة في مسجد الرسول . ونادى « يا أهل المدينة اني رسول أهل البصرة اليكم أكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة على أم أيما طائعين ؟ وكانت النتيجة وقوع شغب في المسجد وارتفع صراخ البعض بنعم والبعض الآخر بلا (٢) .

---

(١) يسمى هذا الموقع موقع الربرة في نجد

(٢) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين المسلمين ، فقد ذكروا أن أحدا من أهل المدينة لم يرد على سؤال رسول البصرة الا ما كان من اسامة بن زيد فانه قام فقال .. «اللهم انهما لم يبايعا الا وهما كارهان» . فوئب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يقتلونهم لولا أن قام فخلصه من أيديهم عدد من الصحابة ، ومنهم محمد بن مسلمة

وكانت الهدنة القلقة مستمرة في غضون ذلك في البصرة فلما عاد الرسول دون أن يحمل ردا واضحا استؤنف القتال، ومنيت جماعة «على» بالهزيمة. وأخرج عامل «على» من المدينة بعد أن أسيئت معاملته، وابتستب الامر للثائرين . وأراد هؤلاء أن يثبتوا الدليل على اخلاصهم لعثمان فقتلوا جميع من اشترك من أهل البصرة في عملية حصار عثمان وقتله .

\*\*\*

وبينما كانت هذه الاحداث دائرة في البصرة، كان «على» قد اجتاز الصعراء حتى وصل الى ذى قار ، الواقعة عند الفرات والتي شهدت انتصار بنى بكر على الفرس أيام الجاهلية . وكان رسل غلى المتوالون على الكوفة قد فشلوا في حشد أى نفر من رجالها لنصرة «على» بسبب معارضة أميرها أبى موسى الاشعري ، الذى اصر على انه سمع رسول الله نفسه يقول . . بأن على المسلمين اذا ما رأوا فتنة الا ينضموا اليها (١) .

وقد ضم رسل على محمد بن أبى بكر الذى اشترك فعلا في قتل عثمان وعبدالله بن عباس بن عم النبى ، ومالكا الاشتهر المحرض الاول على

= وقال له احد منقلديه : أما وسعك ما وسعك من السكوت . وعند ذلك رجع الرسول الى البصرة لينقل الى أهلها ما سمعه وما رآه . ( العرب )

(١) يبدو أن المؤلف أراد أن يقول على لسان أبى موسى الاشعري ما لم يقله ، وأن ينسب الى النبى قولا لم يقله . إذ نقل المؤرخون المسلمون عن أبى موسى قوله «وإذا كان ما كان فانها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد غير من القلام ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فاقصدوا السيوف وانصلوا الاسنة ، واقطعوا الاوتار ، وآذوا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي هذه الفتنة » . فتكلمت رسل على ، واغلظت لآبى موسى القول الى أن حب الحسن بن على ، وكان ممن أرسل في هذه الوفادة فقال . يا ايها الناس أجيئوا دعوة أميركم وسيروا الى اخواتكم . فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه ، والله لأن ياتيه اولو النهى مثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيئوا دعوتنا وأمنونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس واجابوا رضوانه . وقال لهم الحسن انى غاد فمن شاء منكم أن يخرج ملى الظهر ، ومن شاء فليخرج في الماء » ، ففر من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر ، وأخذ بعضهم الماء وقابلته الجنود البرية بذى قار فقال لهم : قد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من أهل البصرة . فان يرجعوا فذلك ما نريد وان يلحوا داويناهم بالرفق وبإيثارهم حتى يبدأوا بظلم ، ولن ندع امرا فيلا صلاح الا آثرنا على ما فيه الفساد ان شاء الله .

( العرب )



الفتنة في الكوفة ، وقائد العصاة الذين ذهبوا منها الى المدينة . ولا ريب في ان اختيار على لقتلة عثمان قادة لقواته ، قد عزز الاتهام الموجه اليه بالتواطؤ وهو الاتهام الرئيسى الذى تعرض له . وسرعان ما أصدر «على» أمره بعزل أبى موسى من منصبه ، وعين أميراً جديداً للكوفة يتولى القيادة فيها . والسحب هذا الجندى العجوز دون اعتراض ، وربما دون أسف اذ علق بقوله : انه صرف ثلاثين حولا يقاتل أعداء الله والكفار . ولكنه لم يقتل مسلماً واحداً في حياته . ومهما كانت المطامع المتنافسة عند القادة في صراعهم على السلطان فليس نعمة من شك في أن الحيرة قد استبدت بالكثيرين من أبطال الحروب ذوى العواطف الدينية العميقة الجذور . فقد حز الألم العميق في نفوس هؤلاء من رؤيتهم هذا الانهيار البين لوشائج الاخوة الدينية التى كانت لهم وحيهم الدائم في حياتهم والتى وثقوا من انها ستتمكنهم من السيطرة على العالم بأسره وخنضاع الجنس البشرى كله لطاعة الله . أما الآن فقد ظهرت ثلاث شيع في الميدان تتنافس على الخلافة ، أولاها شيعة على ومعه حفنة من الاتباع في ذى قار ، وثانيها شيعة طلحة والزبير ومقامها في البصرة . وثالثها شيعة معاوية الذى كان يحاول كسب الوقت في دمشق . أما أعداء الله من فرس وروم فقد نسيهم الناس .

وعندما سمع «على» أن رسله الأول الى الكوفة منوا بالفشل، أوفد ولده الأكبر الحسن الى المدينة بينما ظل هو مرابطاً عند ذى قار ، ولقد كان الحسن والحسين سبطى رسول الله ، والقريبيين الى فؤاده ، ولم يكن يمل قط من اللعب معهما ، وقد رآهما عدد كبير من الصحابة يجلسان في حجره أو يتسلقان على كتفيه ، وهو يبتسم ، وادى وصول الحسن الى الكوفة الى تحول التيار . فقد تأثر كثيرون من صحابة الرسول تأثراً عميقاً من رؤيتهم سبطه وهو يناشداهم العون ، وسرعان ما تجمع نحو عشرة آلاف رجل خرجوا من الكوفة للانضمام الى على .

وعندما اقترب جيش الخليفة من البصرة خرج الزبير وطلحة على رأس قواتهما للقاءه ولم يكن كل من فى البصرة معهما . وانضم بنو بكر، وهى قبيلة المثنى الباسل الى جيش على . أما بنو تميم فقد قرروا البقاء على الحياد . وبات جيش «على» الآن ، وهو الأقوى وكانت سنة أهل الجاهلية أن تركب النساء هودجهن ويصحبن رجالهن الى المصارك لتشجيع المحاربين وحضهم على القتال ، وها هى ذى أم المؤمنين عائشة تستقل الآن هودجها لمرافقة جيش طلحة والزبير .

لكن عليا كان راغبا عن القتال فتوقف على مسيرة من خصومه وأوفد اليهم القعقاع ذا العزيمة المتقدة الذى أبلى أحسن البلاء فى الفتوحات الاولى يحضهم على التفاوض ، وقال لهم ان الخليفة الجديد لا ينكر ضرورة معاقبة قتلة عثمان . ولكنه ينشد الوقت لأداء هذه المهمة . وكان عدد كبير من هؤلاء الرجال من الجنود الذين عملوا تحت قيادته أيام الفتوحات ، وأضاف ان قتلهم بالجملة لن يؤدي الا الى المزيد من المنازعات ، فمن الواجب أولا إعادة الامن والنظام الى نصابيهما ، ومن ثم تصبح الفرصة متاحة لمحاكمة القتلة بطريقة شرعية ونظامية ، وكان عرض القعقاع معقولا ، كما كانت حجته مقنعة ، وأخذ الناس يراجعون عقولهم فلعل عليا يرى حقا من تهمة التواطؤ . واذا كان الخلاف لا يعدو مسألة التفضيل فى الاسبقية الزمنية ، وهل يكون عقاب القتلة أولا أو إعادة الامن والنظام الى الامبراطورية ، فان فى الامكان التفاوض وبحث هذا الموضوع وقد وافق طلحة والزبير على مبدأ التفاوض .

وسر «على» غاية السرور من احتمال التفاوض بدلا من الحرب الاهلية، وسارع يقترب بمعسكره من معسكر خصومه ، ليسهل أمر الاتصال بين المعسكرين ، ولكن كان معه فى جيشه القادم من الكوفة جميع العصاة السابقين من جنود تلك المدينة الذين اشتركوا فى قتل عثمان ، وهم الذين يطالب طلحة والزبير بعقابهم ، ولهذا فقد أمر هؤلاء بالبقاء بعيدين فى الصحراء حتى ينتهى من أمر المفاوضات ، وظل معهم هناك مالك الاشر أشد الثائرين خصومة لبنى أمية .

وبدأت المفاوضات حثيثة آنذاك بين على من جهة وطلحة والزبير من الجهة الاخرى وخرج على من صفوف جيشه ممتطيا جواده ليلقاء بين الجيشين طلحة والزبير . وأعرب الرجلان عن تصميمهما على معاقبة قتلة عثمان . ورد على بأنه متفق تماما معهما فى رأى وأنزل لعنة الله على قتلة عثمان . وأضاف ان الطريقة المثلى للثأر من القتلة لا يمكن أن تتبع فى هذه اللحظة وكل ما ينشده هو كسب الوقت .

وكان الزبير قريبا لرسول الله ، فهو ابن عمته ، وابن عمه على فى الوقت نفسه وكان الرجلان قد عرفا بعضهما تمام المعرفة منذ عهد بعيد واشتركت حياتهما فى الكثير من الامور وعندما التقيا الآن بين جيشيهما ، أخذ على يذكر الزبير بذكرياتهما المشتركة فى فتوتهما وشبابهما ، عندما كان الايمان يعمر قلوبهما ، ويتقدان حماسة وغيرة على الدين ، وحبا لرسول الله ، كزاح يتلو على مسامعه ما قال لهما رسول الله ، مرة ، ومارد

به «على» أو الزبير تلك المرة . يا لها من أيام رائعة ! وتفجر الدمع في  
عينى الزبير وراح يقسم بالله على ألا يحارب عليا أبدا . ومما يجدر ذكره  
ان عليا كان معروفا ببلاغته في القول وقوة حجته .

ولاحث تباشير الخير فى نتائج المفاوضات ، وخفت حدة التوتر ،  
وانصرف الجيشان الى الراحة والنوم فى تلك الليلة ، وقد تخليا عن شئ  
من الحذر والحيلة اللذين كانا موضوع مراسهما حتى تلك الليلة ، لكن  
آخر ما يرغب فيه قتلة عثمان هو أن يعقد الصلح ويتم التفاهم بين  
الفريقين ، اذ ان هذا التفاهم لا يعنى الا ان عليا وعد خصميه بعقابهم .  
وعلى الرغم من تخلفهم بعيدا فى الصحراء الا ان لهم عيونا ورفاقا فى  
الجيش كانوا ينقلون اليهم سير المفاوضات وتطورها . واجتمع هؤلاء  
القتلة فى الليل ليتدبروا أمرهم ويقرروا الاجراء الذى يجب عليهم اتباعه ،  
واتفقت كلمتهم على ان التفاهم بين على وبين طلحة والزبير سيؤدى الى  
القضاء عليهم . وحزموا أمرهم على ان سبيلهم الوحيد للبقاء والحياة ،  
هو فى أن ينشب القتال بأى شكل من الاشكال بين الفريقين . وانصرم  
الليل بطوله فى مثل هذا النقاش وراحوا قبيل الفسجر يمتطون جيادهم  
ويتفرقون بهدوء تحت جنح الظلام . وكان قتلة عثمان من مختلف القبائل  
كما كانت هذه القبائل نفسها ممثلة فى جيش البصرة والكوفة ، وهكذا  
قرر هؤلاء المتعصبون أن ينسلوا بهدوء كل الى صفوف وحدته القبلية التى  
تحارب الى هذا الجانب أو ذاك (١) .

ولم تكد تطل خيوط الفجر الاولى ، حتى عم الضجيج الجيشين ،  
وارتفعت الصيحات من كل جانب مطالبة بالاستعداد للقتال ، « لان العدو  
قد داهمنا فى غلس الليل ناكثا بعهده » . وعندما هرع الزبير وطلحة الى  
رجالهما يسألان عما حدث ارتفعت الاصوات قائلة : « لقد أطرقنا أهل  
الكوفة ليلا . ولقد عزم «على» على ابادتنا فى بحر من الدماء ، ولم تكن  
مفاوضات الامس الا خدعة » . وعندما هب «على» من نومه يسأل عن  
السبب فى الضجة ، كان هناك رجل يقف الى جانبه ليقول له . . لقد دهمنا

---

(١) يصر جلوب هنا على اخفاء الدور الذى لعبه الشمويون وفي مقدمتهم  
اليهودى عبد الله بن سبا وابياعه فى هذه المعركة ، فهو ينسب الخدمة التى أدت  
الى القتال الى قتلة عثمان من رجال جيش على ، بينما يجمع مؤرخو المسلمين  
على أن السبائين هم الذين لعبوا هذا الدور القدر ، تحقيقا لخطة فى تمزيق وحدة  
العرب والمسلمين .»

اهل البصرة ، وقد عزم طلحة والزبير على ذبحنا . لقد تعرضنا للخديعة ، وظلت هذه الصيحات تعلو في الجيشين وتتناقلها الاصوات ، بينما مبارع الجنود في حمى الذعر الى ارتداء دروعهم وانتضاء سيوفهم . وضاعت صيحات «على» الى رجاله بأن يصمدوا وان في الامر خدعة فلا شيء قد حدث ، في غمرة حمى الذعر التي انتابت المعسكر كله . لقد فات الأوان ، ولم يعد هناك سبيل لتدبير ، وتطايرت السهام من كل جانب ، وسرعان ما احتدم القتال بين الطرفين ودارت رحاه بعنف أحال المعركة الى اضطراب وفوضى . فلقد خيل لطلحة والزبير ان عليا قد خدعهما ، وتصور رجال علي ان طلحة والزبير قد خدعاهم ولم يطلع النهار في ذلك اليوم الا وكانت المعركة قد دارت على أشدها . وضاعت جهود «على» لوقف القتال عبثا . وادى احساس كل من الجيشين بخديعة الجانب الآخر الى احتدام أوار المعركة . وكان الصراع الآن ، كما هو شأنه في كل حرب أهلية ، أشد هولا ومرارة منه أيام الحروب مع الكفرة والمشركين . ولم تكن المعركة الآن صراعا بين عربي وعربي أو مسلم ومسلم ، وانما وجد أبناء القبيلة الواحدة انهم يتذابحون الآن ، اذ ان القبائل نفسها كانت قد تقسمت اiban الحروب مع الفرس ، فاقام بعض أفرادها في البصرة بينسا اقام البعض الآخر في الكوفة .

وعندما بدأت المعركة انسحب منها الزبير تنفيذا للقسم الذي أقسمه في اليوم الثالث بالآي يحارب عليا ، وراح يتجول في واد قريب من ميدان القتال فلقبه على ما يبدو عابر سبيل مسلح ، فقاتله وقتله . وهكذا مات هذا البطل العظيم من أبطال المسلمين الاوائل مثل هذه الميته المغمورة التي لا جدوى منها (١) . وأصيب طلحة في غضون ذلك بسهم فنقل جريحا الى البصرة حيث توفاه الله فيها بعد قليل ، وعندما افتقد جيش الثائرين قائديه بدأ يضعف ويتخلى عن مواقعه .

وكان القوم قد دفعوا بالهجين الذي يحمل أم المؤمنين عائشة في هودجها الى قلب المعركة . حيث أخذت تحض الرجال على القتال للثار من قتلة عثمان . وعندما بدأ جيش الثوار في التراجع أصبحت عائشة في

---

(١) يقول المؤرخون العرب ان الزبير ترك ارض المعركة واراد اللحاق بالدينة ، فلم يسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى اذا كان في وادي السباع قاله وقتله .

هودجها وراء صفوفهم تواجه جيش على المتقدم . فارتفعت الصيحة بأن أم المؤمنين في خطر ، والتف حول الهودج جماعة من شجعان أهل البصرة ندبوا أنفسهم للدفاع عنها ، ولو كلفهم هذا الدفاع أرواحهم . وسرعان ما استعر أوار القتال من جديد ، بعد أن كان قد بدأ في الخفوت ، وارتفعت راية إلى جانب الجمل ، وهب البواسل إلى الامام يذبون عنه ويمسكون بخطامه . وهكذا عاد الحب الشديد الذي طالما استعر في قلوب هؤلاء الناس لرسول الله ، والذي كان قد بدأ في الخفوت ، إلى الانتقاد بقوة ضاربة ثانية عندما منعه هؤلاء الناس أن يوجه الأثر في خطر . وانتظمت الصفوف من جديد حول جمل أم المؤمنين . وسقط أكثر من سبعين من شجعان العرب قتل أمام الجمل وهم يذبون عنه ويمسكون بخطامه ، وأدرك على أن الجمل هو حافز جيش البصرة على الصمود ، فأوقد رجلا ليعقره من خلفه . وسقط الجمل سقطة مريعة وهو يصرخ صرخة هائلة ، وانقلب الهودج ، وتحطمت صفوف المدافعين عنه ، وانهمز الجيش المغلوب إلى البصرة . وتقول روايات العرب التي لا أشك في مبالغتها أن مئات السهام أصابت الهودج دون أن تصاب صاحبه بأذى (١) .

ويذكر المؤرخون العرب أرقاما مريسة عن قتل هذه المعركة التي عرفت عندهم بمعركة « الجمل » . ولم يكن هؤلاء العرب قد عرفوا معنى الهزيمة مرة واحدة طيلة الخمسة والعشرين عاما الماضية . وكانوا قد تعودوا على النصر تماما كما تعودت جيوش الاسكندرية من قبلهم أو جيوش نابليون من بعدهم . وهاهم الآن لأول مرة منذ جاء محمد مبشرا برسالته .

(١) يقول مؤرخو العرب أن أهل البصرة ظلوا يقاتلون حول الجمل وداجزهم يقول : «

نحن بنى ضبة أصاب الجمل

ننى ابن عفان باطراف الاسل'

الموت أحلى من العسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجمل

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل ، وأن الناس لا تسلمه أبدا وفيهم من لحق نادى :

امقروا الجمل ، فجاءه انسان من خلفه ومقره ، فسقط وسقط الهودج وكأنه قنبل مما رمى فيه من النبل ، فجاء محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر ، فطعنا مرفعة الرجل واحتمل الهودج لنجياها من القتل ، وخرج بها محمد حتى ادخلها البصرة .  
( العرب )

يقاتل المسلم منهم أخاه ويقتله ، وهم لا يخشون الموت . فقد ألفوه وتعودوا عليه ولقد سمعنا عن قصص كثيرة ، رويت عن أناس نذروا أنفسهم للاستشهاد قبيل المعركة وراحوا عامدين متعمدين يبحثون عن الموت ويطلبونه ، وجرت عادة الذين يصابون بجراح خطيرة منهم ، على أن يزحفوا الى اتون المعركة يطلبون سرعة الاستشهاد فيها لكن هذه الروح انما نشأت ونمت في الحروب مع المشركين والكفرة ، ذلك لان الوعد الفوري بدخول الجنة انما يطبق على من يستشهد في قتال غير المسلمين . وقد نص القرآن من الناحية الاخرى على ان الجحيم مصير كل من يقتل مسلما عامدا متعمدا ، لكن العادة التي ألفها هؤلاء مدة ربع قرن ، لم يكن من السهل تبديلها ، ولهذا فان كثيرين ممن قتلوا في هذه الحرب الاهلية ماتوا وعبرة « الفردوس » على شفاههم .

وقد دارت معركة « الجمل » في ديسمبر (كانون الاول) من عام ٦٥٦ وعندما تراجع العدو الى البصرة ، أمر «علي» رجاله بوقف المطاردة، وبوقف أية عملية من عمليات القتل فورا . ومن المحتمل أن يكون عدد من اشترك في المعركة خمسة عشر ألفا في كل جانب وأن يكون عدد قتلاها ستة آلاف دفنوا في ارض المعركة (١) . وعندما جاء الى «علي» بسيف الزبير ، بكاه وصب اللعنات على رأس من قتله ، وأخذ يذكر الناس بالاعمال البطولية الخارقة التي قام بها الزبير في حياته اعلاء لكلمة الله . وتقوم الآن بلدة الزبير في المكان الذي قتل فيه وقد أطلق عليها هذا الاسم تخليدا لذكره. وبذل «علي» جهد طاقته عند دخوله البصرة لاحلال الوفاق بين جميع الفرقاء ، وتمكن مروان وغيره من الامويين من الفرار فمضى بعضهم الى المدينة التي وقفت حتى ذلك الحين موقف الحياد وبعضهم الى معاوية في سوريا ، واذا ما استثنينا هؤلاء الامويين فان من تبقى من الجيش المهزوم في البصرة عومل معاملة متسامحة ، وحض «علي» الناس على نسيان ما فات بما عرف عنه من لين وتسامح، وماتميزت به طبيعته من يسر ورفق ، فقد حزم أمره على توحيد الامبراطورية لا على الانتقام من أعدائه .

وبعد أن قضى على قرابة اسبوعين في البصرة ، انتدب لامارتها

(١) يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ان عدد القتلى بلغ في هذه المعركة ثلاثة

عشر ألفا .

ابن عمه عبد الله بن عباس ، ثم زحف بجيشه على الكوفة ، وأكرم قبل رحيله وفادة لم المؤمنين عائشة وعاملها بكل اجلال واحترام ، ثم أعادها الى المدينة يصحبها اخوها محمد بن أبى بكر ، وتقوم على حراستها ثلة من الرجال والخدم . وقدر لها أن تعيش بعد هذه المعركة زهاء عشرين عاما أخرى ، اعتزلت ابانها السياسة وانصرفت الى التأملات الطويلة والتعهد الى جانب ضريح الرسول، ويبدو أنها كانت تكثر الحديث فتروى لزاثيرها أو للحجاج الذين يفتدون لزيارة قبر رسول الله ، القصص الكثيرة عن حياته .

ودخل على الكوفة فى شهر يناير (كانون الثانى) عام ٦٥٧ ، أى بعد ثمانية أشهر من مقتل عثمان ، واتخذ منها عاصمة لخلافته .

### \*\*\*

كان السبب الظاهرى للثورة على عثمان ، النقرة على مانسب اليه من محسوبية والى عماله من رشوة وفساد ، ولكن هذه الثورة لم تكن مجرد انتفاض على الأمويين . إذ أن ابن القبيلة العربى كان ولا يزال ديموقراطى النزعة والطبيعة . وينظر البدوى نظرة التجارة لاسرة الشيخ ولكنه يميل على الرغم من اعترافه بسلطان الشيخ الى تحديه وغصيان أمره دائما فهو لا يولع باحترام الالقباب والامتيازات . وينظر نظرة الامتهان لكل من يعيش فى المدر والمدينة وقد ثار هؤلاء البدو على ارستقراطية الأمويين لان الأمويين كانوا فى الحكم ، ولكنهم لم يكونوا راغبين فى استبدال الهاشميين بالأمويين وهما هم يرون عليا الآن يعين ابن عمه عبد الله بن عباس لامارة البصرة ، ويشهدون بنى هاشم يحيطون به من كل جانب .

وبالإضافة الى هذا العنصر من ازدياد البدو لكل من يتكبر ويتغطرسن ، وجعلت هنالك أيضا قوة أكثر خطورة واثرا ، وهى قوة الاشتراكية الدينية العميقة التى ينادى بها بعض المتعصبين من أمثال مالك الاشتر ، ولايتشيع هؤلاء المتعصبون لأحد ، لا لبنى أمية ولا لبنى هاشم ، وانما هم يحملون بقيام دولة يحكمها الله ، ويكون فيها أولياؤه ، هم الحاكمون المطلقون . ولا ريب فى ان القارىء الانجليزى يذكر قيام فئة فى الجيش أطلقت على نفسها اسم دعاة المساواة (Levellers) أو اشيعاء الملكية الخامسة ، وذلك بعد اعدام شارل الاول ، وكان توماس هاريسون قائد هذه الشيعة مخاربا باسلا ، يريد من انجلترا أن يحكمها الله ، عن طريق وسطائه ،

الذين لا يتجاوز عددهم سبعين من الصالحين اسوة بمجلس «السانهدريم» عند قدامى العبرانيين ، وكان يرى ان هؤلاء الصالحين هم الذين يقيمون حكم الله والقديسين . وسرعان ما نظر هؤلاء الناس الى اوليفر كرومويل (١) نظرتهم الى الطساغوت أو اله الخبيثة . ولا ريب في ان هؤلاء المتعصبين المسلمين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الخوارج . أخذوا ينظرون الى على، نظرة الانجليز من دعاة المساواة الى اوليفر كرومويل .

وكانت الفتنة قد أخذت تختمر في غضون ذلك في مصر . وعندما خرج العصاة من القسطنطينية الى المدينة في العام الفاتت أي في مستهل عام ٦٥٦ لحصار عثمان ، خرج رجل يدعى محمد بن أبى حذيفة فاغتصب السلطة في مصر مستغلا فرصة هروب أميرها ابن أبى سرح ، الى فلسطين وعندما نودى بعلى خليفة على المسلمين فر ابن أبى حذيفة الى الشام ، واختار على محمد بن أبى بكر ، بعد واقعة الجمل أميرا على مصر . وكان محمد من الذين اشتركوا في قتل عثمان ، فأدى تعيينه لهذا المنصب الى تصديق الناس لدعوى معاوية من ان عليا نفسه قد رتب خطة القتل ، ليتسلم زمام الحكم .

وكان عمرو بن العاص فاتح مصر ، يعيش في المدينة منذ اقالة عثمان من منصبه ، وكان من أشد ناقدى الخليفة الشيع وشائنيه . ولكن عندما وصل العصاة الى المدينة وحاصروا دار عثمان ، انسل عمرو من المدينة ، الى مزرعة يملكها في منطقة بئر السبع وحزم أمره بما عرف عنه من دهاء وسعة حيلة ، على أن يظل بعيدا عن الخلاف والأذى الى أن يتضح الجانب الفاتح في المعركة ، وعندما وصل اليه نبأ مبايعة على خليفة للمسلمين استشار ولديه فيما يجب عليه أن يفعله ، فأوصى أحدهما بأن يظل في عزله في مزرعته ، بينما نصحه الثاني بأن يمضى الى معاوية في دمشق . ويقال ان عمرا رد على ولديه بأن السبيل الاول هو ما يفرضه الدين ، وان السبيل الثانى هو ما يتطلع اليه الطموح الدنيوى ، ويكفى أن نقول ، بأن عمرا مضى الى معاوية في الشام ليربط مصيره بمصيره

---

(١) دب الصراع بين الملك شارل الاول وبين البرلمان في عام ١٦٤٢ واختار البرلمان اوليفر كرومويل لقيادة جيشه الذى أطلقوا عليه اسم « ذوى الرموس المستديرة » وقد تمكن كرومويل من هزيمة جيش الملك بعد مباركة دامية واسره ، ثم حاكمه وأسلمه وأصبح كرومويل حاكما مطلقا في انجلترا حتى عام ١٦٥٩ ، عندما مات ، لتعود الملكية بعد فترة وجيزة .



عندما بلغته انباء معركة الجمل وزحف «على» على الكوفة . ومن المحتمل أن يكون عمرو كارها لعل ، لسبب نجهله ولا نعرفه .

ولكن النقطة المهمة في الموضوع ان عمرا كان رجلا ذا دهاء وحدة ملاحظة ، وانه كان يسعى الى اعلاء مركزه الشخصي . واني لاكاد أجزم بأنه ما كان لينضم الى صفوف أعداء على ، بعد أن فاز هذا بمعركة ضخمة كمعركة الجمل ، لولا انه أدرك بثاقب بصره ان معاوية هو الفائز في النهاية . ويبدو لي ، انه كانت هناك نواح في شخصية على ، حملت الدهاة من الناس على توقع فشله ، ولا أستطيع أن أفترض شيئا سوى ان نواح الضعف في هذه الشخصية تمثلت في التردد ، والميل الى المهادنة ، والميل الى الاستكانة وان عليا كان يفتقر الى الحيوية القاسية التي يحتاج اليها كل الاحتياج لتذليل هذه العواصف الهائجة في المجتمع المضطرب الذي كان يتطلع الى قيادته .

وجريا مع رغبته في تجنب الحرب مع معاوية بعث اليه على برسالة أخرى ، من الكوفة هذه المرة يطلب اليه فيها عدم الخروج على اجماع الامصار ، والاعتراف بخلافته ، ورد معاوية بأنه لن يبايع عليا الا بعد معاقبته لقتله عثمان . وأدرك على الآن ان المفاوضات لم تعد مجدية ، فخرج من الكوفة على رأس جيش قوامه خمسون ألفا من الرجال ومضى يسير صعدا مع نهر دجلة ، فاجتاز المدائن الى الموصل ثم اتجه غربا الى سنجار ومنها الى الرقة على نهر الفرات . وصعد مع النهر بعد أن عبره، ماشيا على ضفته الغربية الى أن التقى بجيش معاوية في صفين الى الشمال الغربي من الرقة .

يجري الفرات في هذه المنطقة في واد تحيط به تلال رملية منخفضة والوادي ضيق في معظم الاماكن . وقد لا يتسع عرضه أحيانا عن بضعة مئات من الياردات ولكنه يتسع أحيانا أخرى ، تاركا مساحة من الاراضي المنبسطة على هذا الجانب أو ذاك .

وهكذا التقى الجيشان في شهر ابريل (نيسان) أو شهر مايو (ايار) من عام ٦٥٧ في مثل هذه الارض المنبسطة على شاطئ النهر ، تحيط بها الصحارى الرملية من الجانبين وتقول الروايات التي لا تخلو من المبالغة المألوفة ان كلا من الجيشين كان يعد خمسين ألفا .

وبدأ على ، كما فعل قبيل موقعه الجمل يعرض للتفاوض على خصومه ، وكان معاوية في مزاجه أكثر ميلا للحذر والحيلة من على بن أبي

طالب ، ولذا فقد كان عزوفا عن أن يجازف بكل شيء في معركة واحدة ثابتة . واكتفى بأن يطلب معاقبة قتلة عثمان وكان على قد قطع شوطا بعيدا في طريق استحالة تحقيق هذا الهدف . فقد أوفد محمد بن أبي بكر ليكون أميرا على مصر . وكان الخارجي المتعصب مالك الاشتر أحد كبار القادة المسئولين في جيشه . ولا تعنى أية محاولة لالتقاء القبض على الاشتر الا قيام فتنة في جيش الكوفة الذي يؤلف الشطر الاكبر من قوات علي . وبدا ان ليس ثمة خلاص له من هذه الورطة . وحرى بنا ان نذكر دائما بأن الثار العائلي كان ولا يزال يعتبر بالنسبة الى العرب واجبا مقدسا . وحتى النبي نفسه بما عرف عنه من تسامح ولين وميل الى الصفح قد أقر شرعية الثار (١) . وأنا لا أود أن أوحى هنا بأن معاوية لم يكن مدفوعا بطموحه الشخصي ، ولكنني أود أن أقول ان انصاره كانوا يصدقونه ويعتقدون انه على حق في اصراره على الثار . وانهم كانوا لا بد أن يتخلوا عنه متهمينه بالجبين لو انه أظهر ميلا الى التفاهم .

وعندما وصلت المفاوضات الى هذه المرحلة من الجمود تحدى «علي» معاوية على أن يسويا القضية بمبارزة شخصية بينهما تكون نتيجتها الحكم الفاصل بينهما . ولقد كان علي من أعظم فرسان المسلمين في حروب النبي ، وكان لا يزال يفكر في هذه الناحية على الرغم من ان منظر الرجلين كان لا بد وان يبدو غريبا عند المبارزة ، لانهما كانا قد ترهلا ووصلا الى أوسط العمر ، يضاف الى هذا ان التحدى كان يفتقر على الرغم من انسجامه مع فروسية عهد الجاهلية القديم ، الى الحكمة وسداد الرأي من الناحية السياسية . فقضية على تقوم على الحقيقة الواقعة وهي انه الخليفة الشرعي ، ومن هنا كان مما يجفو المنطق أن يحمل صراعه طابع الصراع الشخصي ، وأن يظل على انه صراع بين الدنيا والآخرة . على أي حال رفض معاوية وهو السياسي الهادي البارد الدم قبول تحدى خصمه معتبرا عن المبارزة .

وكانت المناوشات البسيطة والمبارزات الفردية مستمرة في غضون ذلك ، ولعل من الغريب كل الغرابة ان عدد الصحابة الى جانب معاوية

---

(١) اعتقد ان المؤلف اسماء فهم كلمة «القصاص» في الدين الاسلامي والواردة في قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة يا اولى الالباب » فالتقاص لا ينسب الى الثار الشخصي وانما ينسب العقوبة العامة ، وشتان بينهما ، وليس ثمة من شك في أن الاسلام اعتبر الثار نعمة من نعمات الجاهلية .»

كان أكبر منه الى جانب على الذى تالفت قواته على الغالب من البدو ، وهكذا تحدى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، الذى كان يحارب الى جانب معاوية محمدا بن على الذى يحارب الى جانب أبيه . على أى حال كانت الخسائر طفيفة طيلة شهرى مايو (ايار) ويونيو (حزيران) عندما كان الجيشان متقابلين فى ساحة المعركة .

ولا ريب فى ان هذا نجم عن الحقيقة الواقعة وهى ان أبناء القبيلة الواحدة بل أبناء الاسرة الواحدة كانوا موزعين على الجيشين المتحاربين . فالجنود المتقاتلون لا ينتمون الى أقوام مختلفة معسادية . ولا حتى الى السوريين والعراقيين ، بل الى فيالق مختلفة فى جيش واحد ، فمعظمهم ان لم يكونوا كلهم ، ينتمون الى الجزيرة العربية اذ على الرغم من ان كثيرين منهم قد تزوجوا بنساء من فارس أو سوريا أو الروم ، الا ان الوقت الذى انقضى منذ وقعت الفتوحات لم يكن كافيا لشوء طبقة جديدة من المولدين .

وبدأت السنة الهجرية الجديدة فى أواسط يونيو وكان شهر محرم ، من الاشهر التى يحرم القتال فيها منذ أيام الجاهلية . واهتبل الجيشان العازمان عن القتال هذه الفرصة ليتخذوا منها مبررا لتأجيل الالتحام . ولكن القتال عاد الى الاستمرار بعد انتهاء محرم أى فى أواسط يوليو (تموز) عام ٦٥٧ ، ووقف الجيشان أخيرا متقابلين ليخوضا معركة حاسمة . وانقضى اليوم الاول فى قتال غير حاسم ، وأن فار فيه دم الجنود بحيث شرموا يقاتلون فى اليوم الثانى بعزيمة هائلة . ووقف «على» فى وسط جيشه يحيط به لفيف من الرجال الذين جاءوا معه فى المدينة . ووقف جيش الكوفة الى اليمين وجيش البصرة الى اليسار . وتقدم عمرو ابن العاص فاتح مصر ، صفوف جيش معاوية وأجبر رجال الكوفة على التراجع فى حالة من الاضطراب والفوضى ووقف «على» مشرعا سيفه فى يده منتظما صفوف جيشه ، وهو يبدى من الشجاعة ضروبا تشبه تلك التى أبرزته قبل ثلاثين عاما فى معركة بدر واحد .

ولكن مالك الاشتر زعيم الخوارج كان بطل الميدان ، وظل يخوض المعركة بقوة فى الطليعة ، لاندرى سببها ، وهل كان الدافع اليها حماسته الدينية أو خوفه من انتصار معاوية الذى يعنى قتله بوصفه أحد قتلة عثمان . وهجم بأربعمائة من رجاله المتعصبين الذين يحفظون القرآن غيبا يشق صفوف الاعداء حتى كاد يمسك بمعاوية نفسه وعاد جيش سوريا فنظم صفوفه ، وأعاد الوضع الى نصابه ، واستمرت المذبحة المتبادلة

وسط الغبار ووهج ذلك اليوم الطويل المحرق من أيام يوليو (تموز) .  
ويذكر القاريء ولا شك عمار بن ياسر الذي كان عمر بن الخطاب  
قد أوفده أميرا على الكوفة . وكان هذا الرجل المعتبر من المسلمين الاول  
قد طعن في السن الآن ، وقبل ثلاثين عاما جاءت قريش مع أحلافها تريد  
غزو المدينة . وقام المسلمون الاول ، وبينهم عمار تلبية لامر النبي بحفر  
الخندق حولها . ورأى النبي عمارا وهو يحمل كيسا ثقيلا مليئا بالتراب  
على ظهره فخف لمساعدته ، وأخذ عنه حملة ، وفرض عن رأسه وملابسه  
التراب وراح يقول له بذلك الحنسان الابوى السميت الذي كان من أهم  
أسباب حب اتباعه له « ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، انما  
تقتلك الفئة الباغية » ومن المحتمل أن يكون النبي قال قوله هذه مازحا ،  
موجها اللوم الى صحابته لاثقالهم العمل على عمار المتفاني في خدمة  
الرسول . ولكن هذا القول ظل بمثابة نبوءة (١) وقد قتل عمار في هذه  
المعركة الآن وفي يومها الثاني ، وهو يحارب من أجل «على» ويهتف بصوت  
مال « يا للفردوس ما أدناها منى » ولا ريب في أن الفريقين كانا يجعلان  
ذكرى الرسول كل الاجلال ، إذ ان مقتل عمار اثار حمية رجال «على»،  
وانزل الياس في قلوب رجال معاوية ، وذلك لان قول النبي عنى أن قتلة  
عمار كانوا يحاربون دفاعا عن قضية غير عادلة . ومعارع عمرو بن العاص  
يعلن في الناس ان عليا هو الذي قتل عمارا لانه سمح له ، وهو الرجل  
العجوز بأن يقاتل دفاعا عنه .

وانتهى اليوم الثاني من القتال بصورة غير حاسمة أيضا ، واستمرت  
الحرب الى ما بعد حلول الظلام . وقد أطلق العرب على هذه الليلة أيضا  
اسم ليلة الهريز تشبيها لها بالقادسية . وكان مالك الاشتر يقاتل بكل  
ما عرف عن المتعصبين المتزمطين من حماسة واندفاع . ويرغم جيش معاوية  
على التراجع عن أرضه شبرا شبرا . ولاحت فكرة عبقرية أخرى في ذهن  
عمرو بن العاص من أفكاره العبقرية الكثر في صباح اليوم الثالث ،

---

(١) خلط المؤلف بين حادثي حفر الخندق وبناء مسجد الرسول . فلقد تحدث  
النبي ( صلى الله عليه وسلم ) هذا الحديث كما تروى سيرة ابن هشام عند بناء  
المسجد في المدينة لا عند حفر الخندق فيها « ثم قال .. فدخل عمار بن ياسر وقد  
اقتلوه بالبن فقال : يا رسول الله قتلتوني، يحملون على ما لا يحملون . قالت ام سلمة  
زوج النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فرايت رسول الله ينفض وفرته بيده ، وكان  
رجلا جسدا وهو يقول ' ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك انما تقتلك الفئة  
الباغية » .  
( العرب )

فاقترح على معاوية أن يحمل الفرسسان القرآن الكريم على رماحهم .  
 وأضاف أن تنفيذ هذا الاقتراح سيخلق البلبلة على الأقل في صفوف  
 جيش على ، إذ أن بعضهم سيؤيد فكرة وقف القتال ، بينما سيطالب  
 البعض الآخر باستمراره . أما إذا نجحت الفكرة فستؤدي على الغالب إلى  
 انتهاء المعركة التي أخذ النصر يتجه فيها بوضوح إلى جانب على ، وأدرك  
 معاوية على الفور قيمة هذه الخدعة ، فأصدر أمره إلى قوة من رجاله بأن  
 تتقدم إلى الامام وقد حملت القرآن على رموس الاسنة . وسرعان ما ارتفعت  
 المصاحف ، وسمع قائل يقول : « هذا كتاب الله عز وجل ، يحكم بيننا  
 وبينكم ، من لغفور الشام بعد أهل الشام ، ومن لغفور العراق بعد أهل  
 العراق » .

ولما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة ، واستمعوا إلى نداء المنادين  
 قالوا «نجيب إلى كتاب الله» . ودوى الصوت من الجيشين يقول : الحکم  
 لله وحده . وكان أشد المنادين عزما وأعلام صوتا ، حفظة القرآن من  
 الاتقياء . وهتف «على» برجاله ، أن في الأمر خدعة ودهاء ومكيدة واحتج  
 مالك بن الاشتر على نداء القراء ، وكان النصر قد أصبح في متناول يده .  
 وعلا الضجيج من كل مكان جريا على ما ألفه العرب . وصرخ الاشتر  
 بالقراء متتهما إياهم بالجبن ، فردوا عليه قائلين أن لابد من الاستماع إلى  
 كلمة الله . وأخذ المنادون بوقف القتال من جيش على ، يدفعونه ويهددونه،  
 واتضح أخيرا أن جيش على بات عازفا عن القتال . وبعث على إلى معاوية  
 يسأله عما يريد ويقترح ، فرد هذا بقوله : «نرجع نحن وانتم إلى ما أمر  
 الله به في كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضونه ، وتبعث منا رجلا ، ثم نأخذ  
 عليهما عهدا بأن يعملوا بكتاب الله لا يعدوانه ثم نتيح ما يتفقان عليه» .

ووجد «على» نفسه مرغما على قبول الاقتراح، وذلك لأن رجاله باتوا  
 غير راغبين في القتال . وراح الناس يصرخون بأنهم يريدون أبا موسى  
 الأشعري ممثلا لهم أي لجيش على ، ويذكر القراء ولاشك أن أبا موسى  
 كان يحارب في فارس منذ أمد طويل ، وأنه كان أميرا للكوفة قبيل  
 معركة الجمل ، فلما أراد منه على أن يحشد الجند في الكوفة ، رفض  
 الاذعان والاشتراك في هذه الحروب الأهلية التي يقاتل فيها المسلم أخاه  
 فما حمل عليا على عزله ، ويبدو أن هذا الرجل كان محبوبا من رجال  
 الكوفة . واحتج «على» على اختياره بحجة أنه خذله في الماضي ولم يؤيده .  
 فلا يصلح ممثلا له ، واقترح أن يختار عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي،  
 أو مالك الاشتر ، ولكن الجنود وقد ألفوا الآن عصيانه ، عصوه ثانية

وأصروا على اختيار أبى موسى الاشعري . أما معاوية فقد اختار عمرو بن العاص ، الواسع الحيلة والدهاء ، وصاحب فكرة رفع القرآن الكريم على الرماح .

وهكذا انتهت معركة صفين ، دون أن يتحقق فيها النصر لاي من الجيشين المتحاربين .

### \*\*\*

سبق لى ان ذكرت اننا مفتقرون الى المعلومات التاريخية الصحيحة عن الاساليب التعبوية التى اتبعها الفاتحون العرب الاول . ولكن المؤرخين العرب يلمحون بعض التلميحات الخفية أثناء حديثهم عن الحروب بين علي ومعاوية هنا وهناك ، مما يلقي ضسوسا ضعيفا غابرا يستطيع المؤلف استغلاله مع شيء من التقدير والعرفان للجميل . فقد روى هؤلاء المؤرخون على سبيل المثال ان عليا أوصى رجاله ولا سيما من المشاهة قبيل معركة صفين ، بأن يقفوا صامدين كالطود الشامخ ، وذكر المؤرخون فى جوانب أخرى فى كتبهم ان المشاه كانوا ينظمون عادة فى ثمانية صفوف أو أحد عشر صفًا . وكانت الرماح هى سلاح بعض هذه الصفوف ، بينما كانت الاقواس والسهم سلاح البعض الآخر . وعلى الرغم من أن وصف هؤلاء المؤرخين للمبارزات الفردية . والاشتباكات الصغيرة يوحى بأن هذه المبارزات والاشتباكات كانت لا تزال تحتل المكانة الاولى فى المعارك ، الا اننى لا أشك مطلقا فى ان نظاما تعبويا مقيدا يفرض الانضباط والتدريب ، كان قد طبق الآن . ولم نعد نرى الآن قطعانا فظة من أبناء القبائل تندفع الى الامام سعيا وراء النصر أو الشهادة . بل عدنا نرى وجود جيوش منضبطة ثابتة ، ذاتية الاعتماد على نفسها أو سريعة الاتكال على ذاتها ، بعد أن ألفت النصر وتعودته .

### تواريخ بارزة

١٧ يونيو (حزيران) ٦٥٦	مقتل الخليفة عثمان
٢٣ يونيو (حزيران) ٦٥٦	التخاب على للخلافة
ديسمبر (كانون الاول) ٦٥٦	موقعة الجمل
من مايو الى يوليو (ايار حتى تموز) ٦٥٦	معركة صفين

## شخصيات مشهورة

### المطالبون بالخلافة :

على ابن أبى طالب	تولى الخلافة فى المدينة
الزبير بن العوام	قتل فى موقعة الجمل
طلحة بن عبيد الله	قتل فى موقعة الجمل
معاوية بن أبى سفيان	أمير سوريا
عائشة أم المؤمنين	زوجة النبى
أبو موسى الأشعري	محارب مخضرم ، أمير الكوفة ، رفض الانضمام الى الحرب الاهلية
مالك بن الاشتر	متزمت متعصب ، وأحد العصاة الذين قتلوا عثمان وبات الآن من مؤيدى على
عمرو بن العاص	فاتح مصر ، أخرجه عثمان وبات الآن من أقوى أنصار معاوية
محمد بن أبى بكر	ابن الخليفة الأول ، وأحد القادة الذين تولوا قتل عثمان ، اختاره على أميراً على مصر







## الهرطقة والخلافات

« تكون الشرور الثابتة من اصطراع المطامح محصورة عادة في الأزمنة والبلاد التي يقوم فيها هذا الاصطراع لكن الخلاف الديني الذي نشأ بين محبي عل وخصومه، ظل يتجدد في كل عصر . . لكن هذه المحنة كانت من الضخامة بحيث هدأت بالافساد أكثر الفضائل صلابة . ولم يعد المرشح الظموح ، قانعا بالسلطان في الجزيرة العربية القاحلة ، اذ ان ممالك فارس وسوريا ومصر الوفرة الثراء لغت الارث الشروع للخلفاء وأمرء المؤمنين » .

جيبون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها.

\*\*\*

« لم يكن ثمة مؤمن صادق يشك في ان خليفة رسول الله هو الحاكم الشرعي للعالم بأسره ، لكن الخلاف في الرأي يتسع حول من هو الخليفة الشرعي » .

فريمان - تاريخ العرب

وصل عمرو بن العاص ، ممثلا معاوية الى معسكر الخليفة بعد وقف القتال يحمل فكرة الوصول الى اتفاق خطي ، وعندما شرع ممثل على في اعداد مسودة الاتفاق ، بدأه بقوله : « هذا ما اتفق عليه أمير المؤمنين و ٠٠٠ » ، ولكن عمرا احتج جهارا بأن عليا أمير على جيشه لا على جيش سوريا . وكانت أهم نقطة ضعف في قضية على ، هي عدم وجود اجراء رسمي لاختيار الخليفة . فلقد اختير أبو بكر وعمر وعثمان بموافقة غالبية أهل المدينة ، وتم اختيار على بنفس الاسلوب أيضا . ولكن ليس ثمة في القرآن الكريم أية آية أو في سنة الرسول أي حديث أو إشارة يوضحان شرعية هذا الاجراء ، ولهذا فعندما رفض عمرو بن العاص توقيع أية وثيقة تنص على أن عليا هو ٠٠ أمير المؤمنين ، اضطر ممثل على الى الازعان والقبول . وهكذا نص على أن الاتفاق تم بين على ومعاوية على أن ينزل الطرفان عند حكم الله عز وجل في كتابه ان وجد . فان لم يوجد فسنة رسوله الله العادلة الجامعة غير المفرقة . وأضاف ان على جميع المعنيين أن يرضوا بما يصدره المتقاضيان من حكم ، مع تعهد الحكمين بمراعاة العدل ، وقرر الاتفاق وقف القتال الى أن يصدر القاضيان حكمهما ، وقد رفض مالك الاشتهر رفضا باتا التوقيع على هذه الوثيقة .

ولعل من المضحك أن يجد على نفسه، وقد كان قبل يوم أو بضع يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر النهائي الكامل قد حرم من ثمرة نصره ، كما أجبر وهو الخليفة الشرعي المنتخب ، بإرادة الله ، على أن يقبل وضع المساواة مع معاوية بن أبي سفيان . وكان من سوء طالعها أيضا ، أن تكون هذه المناورة كلها ثمرة دهاء عمرو بن العاص ممثل معاوية في التحكيم ، وان يكون ممثلها هو فيه ، أبا موسى الاشعري الرجل الذي أعلن موقفه الحيادي جهارا . وكان أبو موسى على أي حال رجلا ذا روح تقيية ورعة وطبيعة عسكرية بسيطة ، لا معرفة له بشئون الجدل والنقاش ، ولا براعة في حلبة السياسة وكان هذا التصددع ثمرة الانضباط في جيش على ، اذ توقف هذا الجيش عن القتال عندما ارتفعت المصاحف على رءوس الرماح ، واذا أصر على اختيار قائده العجوز السابق الورع ممثلا له في هيئة التحكيم . ولكن هذا الافتقار الى الانضباط انما نشأ في الاصل عن موقف على نفسه ، اذ انه كان الى حد كبير مسئولاً عما وقع من فوضى

بإسماعه للعصاة بقتل عثمان ، وكان هذا القتل سبباً في اختفاء حالة القداسة التي كانت تحيط بمركز الخليفة حتى ذلك الحين . ومن المحتمل أن علياً لم يكن قادراً على انقاذ عثمان ، والعصاة مسيطرون على المدينة ، ولكنه لم يكن في حاجة إلى تعريض نفسه إلى مزيد من النقد باستخدامه قتل عثمان كتهمة محمد بن أبي بكر أميراً لمصر ، ومالك الأشتر وصحبه قادة في جيشه . وإذا ما ضربنا صفحا عن شخصيتي المتنافسين نرى من الصعب علينا أن نتجنب الاقتناع بأن ثمرة ما وقع كانت مفاجئة للإسلام والمسلمين ، ولو قلدر لجيش على أن يواصل حربه حتى النصر النهائي في صفين . لا تخفى بنو أمية في زوايا النسيان ، ولظل المسلمون كتلة واحدة غير مجزأة فقد أثبتت الأيام أن الخلاف بينهم وبين بني هاشم قد فرق الوحدة الإسلامية من قممها إلى قاعدتها ، وما زالت ثمرة هذا التصدع ماثلة أمامنا حتى يومنا هذا .



وعاد على بعد توقيع الاتفاق إلى الكوفة ، كما عاد معاوية بدوره إلى دمشق . وكانت الخسائر التي منى بها الفريقان في اليومين الأولين من القتال العنيف في صفين ثقيلة للغاية ، وارتفعت إشارات الحداد على كل بيت في كل من الكوفة ودمشق ، واشتد استياء أهل الكوفة من الحقيقة الواقعة ، وهي أن علياً قد هزم من الناحية السياسية أن لم يكن من الناحية العسكرية . وكان في مكنتهم أن يحتملوا خسارة مثل هذا العدد الضخم من الرجال لو أن النصر قد تحقق لهم ، حاملاً معه السلام . أما الآن فما زال كل شيء في أتون الانهيار وقد سمح الجنود لأنفسهم في خضم الحماس الذي أوجدته الظروف ، بأن يخلعوا بما حمله شعار « الحكم لله » من آثاره . أما الآن فقد تبين لهم أن التحكيم لا يعني سوى تقرير موضوع الخلافة وهل تكون لعلي أو لمعاوية ؟ وإذا تمت الخلافة لعلي فسيحكمهم بنو هاشم . أما إذا تمت لمعاوية فسيحكمهم بنو أمية . ولا يرى البدوي العادي أو الجندي كبير فرق بين هؤلاء أو أولئك . ولقد سمعوا من النبي وقرأوا في كتابهم أن المسلمين أخوة . ومع ذلك فقد غدت الامبراطورية العربية التي فتحوها بسيفهم مزرعة خاصة بقريش التي يحتكر قادتها مناصب الامارة في الامصار فيظلمون ويستغلون ويبتلعون أمة محمد . وهم لم يقتلوا عثمان إلا ليحطموا هذه الامبراطورية الدنيوية التي أقامتها قريش . وما يبحثون

عنه هو اقامة جمهورية دينية يتساوى فيها جميع المسلمين تنفيذا لكلمة الله (١) .

كان رجال الكوفة يتناقشون في مثل هذه المواضيع ، وهم في طريق عودتهم كاسفى البال الى قاعدتهم من صفين . وادى هذا الوضع الى انفصال نحو من اثني عشر ألفا من جيش علي ، وهم ثلث هذا الجيش تقريبا ، وخروجهم عنه اذ ظلوا يسرون في خط مواز لسيّر بقية الجيش . فلما وصل الجيش الى الكوفة ، رابطوا هم على بعد بضعة أميال منها في مكان يدعى حروراء . وراحوا يعربون عن ندمهم لانهم قبلوا التحكيم الذي لا يمكن أن يؤدي مهما كانت نتيجته ، الا الى ظهور طاغية جديد من طغاة قريش يحيط به جماعة من أقربائه الطامعين في الملك والجاه . وحزموا أمرهم على أن يعملوا لاقامة دولة دينية : الحكم فيها لله وحده . وأوفد على اليهم أحد كبار أنصاره وهو عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي . لاقناعهم

(١) لو صبح تحليل المؤلف للموقف على انه تقمة من العرب على سلطان قريش لتحتم أن يقف العرب في جيش معاوية عين هذا الموقف الذي وقفه العرب في جيش علي كما يدعى المؤلف ويبدو لي أن المؤلف يريد أن يتجاهل تأثير العوامل الشعبية التي كانت تلجح الى تحطيم الدولة الاسلامية ثارا منها لقومياتها التي ألغنت للعرب . فهو يصور هذه الدوافع الشعبية على انها دوافع هربية ، وأن القائمين بها هم البدو تقمة منهم على أهل الحضرة عامة وقريش خاصة . لكن الحقيقة كل الحقيقة انها كانت دوافع شعبية ينادى بها الشعبيون وأغلبهم من الفرس الذين وجدوا لهم في أرض الكوفة موطئا خصباً .

وأود أن أضيف الى هذه الدوافع الشعبية اثر العامل الشخصي في النزاع . فلقد كان علي ومعاوية على تباين تام . فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقربة ما ليس لغيره في اشيائهم قريش فكيف يراه لمعاوية الذي ينظر اليه على انه من الطلقاء اولاد الطلقاء الذين حاربوا الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وعادوه . ولم يدخلوا الاسلام الا كرها وهو يرى أن الناس قد بايوه خليفة على المسلمين وأن هذا حقه عاد اليه بعد أن سلبه اياه عثمان وأن معه نصف الامة بينما كان معاوية يرى نفسه عظيما من عظماء قريش لانه ابن شقيقها ابي سفيان ولأن النبي وخلفاءه الثلاثة قد وقفوا به قولوه اشارة الشام . وقد تقم على علي تماليه عليه ، وعزله اياه . ورأى أن حق علي في الخلافة قابل للمناقشة لأن الكثيرين من الصحابة رفضوا بيعته . ولأن قتلة عثمان هم الذين نذبوه للخلافة ثم آواهم في جيشه ولم يقتل منهم .

ومن هنا يتبين وجود الدوافع الشخصية في النزاع بالإضافة الى اثر العوامل الشعبية ، وليس للاسلام شأن به كما يحاول المؤلف أن يوحي الى قرانه بصورة خفية .

( العرب )

بالعودة الى الجيش . وقد رضى بعضهم بالعودة ولكن غالبيتهم رفضتها واختارت لها زميلا منها . وذهب على آخرها بنفسه الى حروراء حيث ناقش الناقمين ، وأقنع جلهم ولو مؤقتا بالعودة الى أهلهم فى الكوفة .

واجتمع الحكماء فى أزرع الواقعة فى شرق الاردن والتي تبعد ثلاثين ميلا الى الشمال الغربى من معان فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٥٨ أى بعد ستة أشهر من توقيع اتفاق صفين . وكان مع كل منهما أربعمائة رجل من جماعته . كما شهد التحكيم عدد من الصحابة وفضلاء القوم كمرقبين وكشهود بينهم عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وهما ولدا قتيل معركة الجمل والزبير وطلحة .

استهلت أعمال التحكيم باجتماع خاص عقده الحكماء عمرو بن العاص ممثلا معاوية وأبو موسى الأشعرى ممثلا عليا . ويمكن لنا أن نستخلص من الروايات المقتضية التى أوردها المؤرخون العرب الحقائق التالية . . . . . راح أبو موسى الجندى التقى الساذج المؤمن بالحياد يلحف على ضرورة الوحدة بين المسلمين ويؤكد مسئولية الحكمين فى وضع نهاية للحرب الاهلية ، وهى عواطف أیده عمرو فيها كل التأكيد ، وراحا بعد ذلك يبحثان فيما اذا لم يكن من الخير بالنظر الى العداء المستحكم بين علي ومعاوية أن يتفق الحكماء على خلعهما معا، واختيار خليفة جديد للمسلمين . واقترحت أسماء عدة، ولكن بعض الاعتراضات أليرت على كل اسم، وكانت كافية لاستبعاده . ويقال ان أبا موسى اقترح بعد ذلك خلع كل من علي ومعاوية . وترك أمر اختيار الخليفة شورى بين المسلمين دون أن يبين كما يقول المؤرخون العرب الطريقة التى يتم فيها هذا الاختيار . وسرعان ما أيد عمرو هذا الاقتراح الحكيم الذى تقدم به زميله . ويبدو من الواضح أن عمرو الداهية كان يحاول خداع رفيقه السليم النية ، مؤجلا دائما إبداء رأيه ، ومقدما زميله وهو متاهب لاغتنام فرصة أى خطأ قد يقع فيه .

وبعد أن اتفق الحكماء على خلع كل من علي ومعاوية ، والسماح للشعب باختيار خليفته الجديد ، خرجا من الخيمة التى كانا يعقدان الاجتماعات فيها الى المكان الذى كان الناس مجتمعين فيه يرتقبون النتيجة بأنفاس تكاد تنقطع لهفة على معرفتها وأعلن أبو موسى بصوت جهورى ان الحكمين قد اتفقا على قرار واحد ، وأيده عمرو فى قوله ثم تنحى جانبا . راجيا من أبى موسى بوصفه أكبرهما سنا وأرفعهما مقاما أن يتكلم أولا ، وخدع الرجل الطيب بما أبداه له عمرو من الاحترام والاجلال . اذ كان

ينظر الى الحياة نظرة بريئة من المكر • فانطلق بصوته الجمهورى يعلن ان الطريقة المثلى لاعادة السلام الى صفوف الساعين تتمثل فى خلق على معاوية • وسيكون من حق المسلمين أن يختاروا بعد ذلك من يجدونه صالحا للخلافة ، وأكد انه وافق على عزل من يمثله ، وهو على بن أبى طالب •

وتراجع أبو موسى ليحل محله عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه وقال : ان هذا قال ماقد سمعتم ، وخلق صاحبه وأنا أخلق صاحبه كما خلقه • وأثبت صاحبى معاوية فهو لى عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه •

وهكذا كسب عمرو بحيلة ماكره معيبة نقطة أخرى فى الصراع لمعاوية وأحاط أنصار على بأبى موسى يصيحون فى وجهه معربين عن سخطهم ونقمتهم ، فإرد عليهم الجندى الشيخ قائلا : «ماعسأى أفعل • لقد وعد بأن يعلن ماأعلنه ثم نكت بوعده» وانهال اللوم على الشيخ من كل جانب ففر الى مكة حيث قضى أيامه الاخيرة بعد عمر طويل صرفه فى الجهاد فى سبيل الله ورسوله فى التجهذ والعبادة وحياة النسيان •

ولم يؤد هذا التحكيم الشاذ الى أية نتيجة سوى توسيع شقة الخلاف والمزيد من توتر العلاقات ، فقد رفض على وأصحابه بالطبع نتيجة التحكيم ، التى لم تعد فى جوهرها أن تكون خدعة شفوية ضعيفة ، وإن دفعت معاوية فى دمشق الى اشهار رغبته فى الخلافة ، وحمله الناس على بيعته خليفة للمسلمين ، وأخذ المصلون فى مسجد الكوفة يلعنون بعد ذلك اليوم معاوية وعمرو بن العاص ورفاقهما ، بينما أخذ الناس فى مسجد دمشق بعد ذلك اليوم يحملون على على وعلى سليل رسول الله الحسن والحسين اللذين كانا قرة عين النبی محمد •



ولم تكد تعلن نتيجة التحكيم حتى عاد الخوارج فى الكوفة الى عصيانهم وأعلن هؤلاء تقززهم من هذا الاضطراب فى سبيل السلطة الدنيوية بين أمراء أعمتهم شهوات الدنيا وراحوا يشهرون أنهم لا يقبلون إلا حكم الله ، فقدأ شعارهم منذ ذلك اليوم «لا حكم الا لله» • وحاول على بما عرف عنه من صبر أن يتفاهم معهم عن طريق الاقتناع ولكن محاولاته باءت بالفشل وأخذوا بعد نحو من شهر من اعلان نتيجة التحكيم يتسللون من بيوتهم واحدا اثر آخر ، من قاعدتى الكوفة والبصرة ، ليلتقوا على

• موعد ضربوه وليختاروا أميرا لهم • وكانت غايتهم أن يقيموا مجتمعا ينفذ فيه حكم الله ، وان اتفقوا لادارة الاعمال اليومية على اختيار مجلس من الرجال الصالحين • وفضلت محاولة لهم للسيطرة على المدائن • فراحوا يمشون صعدا مع نهر دجلة الى أن وصلوا الى موقع يدعى النهروان على مقربة من مكان بغداد الحديثة حيث التقى أربعة آلاف منهم •

وقرر على الآن في شهر مارس (اذار) من عام ٦٥٨ حشد جيش جديد ينقل عن طريقه الحرب الى سوريا من جديد • ولكن الخوارج كانوا في هذه الآونة قد بدأوا يعتمدون على المناطق المجاورة • وأصبح من المتعذر أن يمضى على في تنفيذ خطته بالزحف على سوريا تاركا مؤخرته في العراق عرضة لاجتياح الهراطقة وأعمال سليلهم ولهذا توجه بجيشه أولا لحربهم ، فهزمهم بسهولة عند النهروان. لأن جيشه كان يفوقهم عددا بنسبة عشرة الى واحد • وقتل من الخوارج في المعركة نحو من ألفين • دون أن يخسر جيش على أية خسائر ، وكان الخوارج يهتفون «الجنة ، الجنة» وهم يندفعون بصدورهم لمقابلة رماح المسلمين •

• وعاد الجيش الى الكوفة بعد أن زال خطر حشد الخوارج في الكوفة • وكانت الغاية من العودة في الظاهر اعداد الترتيبات الاخيرة لغزو سوريا • ولكن لحق الفتور حماسة الناس لقضية على ابان فترة الانتظار الطويلة • وراح عدد كبير من الجنود يفرون من الجيش عائدين الى بيوتهم • ولم تعد خطب على ونداءاته تؤثر عليهم وتحملهم على الاستجابة وعندما رأى في النهاية ان الناس لا يلبيون نداءه قنع بقضاء الله وقدره • وتخلي عن فكرة الحملة كلها • وظل معاوية الحاكم المطلق الذي لا ينازعه أحد سلطانه في سوريا ، بينما ظل على يحكم العراق حيث يقض عليه الخوارج مضجعه ، وحيث فتر حب الجنود المزيفين له من أهل الكوفة والبصرة •

وكان على قد أوفد في غضون ذلك محمد بن أبى بكر ليتولى امارة مصر • وكانت صورة الخليفتين المتحاربين في سبيل الحكم قد حطمت أمام الناس مثالية الاسلام المقدسة واضعفت من احترامهم لسلطة الخليفة • وكان العرب في مصر منقسمين في ولائهم فبعضهم يؤيد عليا • والبعض الآخر يميل الى معاوية ويطالب بالثار من قتلة عثمان ولا ريب في ان عليا تنكب سبيل الحكمة ، عندما عين لامارة مصر في هذه الظروف أحد المتهمين بقتل عثمان • ومع ذلك لو أظهر محمد هذا شيئا من التعقل والفطنة لسارت الامور على خير ما يرام • ولكنه سارع الى البطش ، فأوفد

جنوده لعقاب كل من يشتبه في عطفهم على معاوية ، وهزم هؤلاء الجنود في معركة مع أشياع معاوية . وهكذا أثار الامير الجديد كراهية الشعب دون أن يوحى له باحترام السلطة .

وعندما أدرك على عجز محمد بن أبي بكر عن إعادة النظام الى البلاد دفعه يأسه الى ايفاد مالك بن الأشتر الشديد التعصب والقوى الشخصية والباسل الروح لتولى زمام الامارة في مصر . ولكنه ما كاد يعبر الحدود الى مصر حتى مات ميتة غامضة عند القلزم (السويس) ، وقيل ان رسولا من معاوية قد دس له السم في طعامه . وكان معاوية قد وصل في تلك الآونة الى فلسطين حيث حمل الناس على اعلانه خليفة للمسلمين في القدس .

وكان معاوية أكثر اهتماما بمصر منه بسيطرة على العراق وفارس . وكان يرى انه اذا وقفت مصر قوية وراء على بن أبي طالب ، فانها تصبح قاعدة له يستخدمها في غزو فلسطين وسوريا . يضاف الى هذا ان موارد مصر هي من الضخامة بحيث ان ايا من الخيفتين المتنافسين يضع يده عليها يكسب ميزة هائلة على خصمه واتاح سوء ادارة محمد بن أبي بكر للبلاد الفرصة المواتية لمعاوية . فعهد الى عمر بن العاص باحتلال مصر للمرة الثالثة على رأس قوة قوامها ستة آلاف جندي . وكان عمرو قد احتل مصر مرتين من الروم وها هو ذا يعد لاستخلاصها مرة ثالثة ولكن من اخوانه المسلمين .

ووصلت أنباء الغزو المتوقع الى محمد بن أبي بكر . فبعث وهو فزع الى على بن جراح السرعة يناشده ارسال المعونة السريعة . ودعا الخليفة الناس الى اجتماع عام في مسجد الكوفة . وقرأ عليهم رسالة أمير مصر ، ناشدهم جمع جيش في الأرض الفسيحة خارج الكوفة في الصباح التالي ليسير الى مصر . ولكن عندما مضى على في اليوم التالي الى مكان الاجتماع لتسجيل المتطوعين . لم يجد متطوعا واحدا يتقدم اليه وانتظر وحيدا بضع ساعات ثم عاد الخليفة البائس الى منزله . ودعا كبراء الكوفة لزيارته وتحدث اليهم بمراة عميقة والاسى يحز في نفسه ، برما بهذا التقاعس الواضح عن نصرة المسلمين له . وراح يعرب عن دهشته من أن تستمع الدهماء لمعاوية وتلبى نداءه عندما يدعوها الى القيام بحملتين أو ثلاث حملات في السنة . مع انه لا يعنى بها ولا يدفع لها دُعَا طيبا وان يتقاعسوا عن تلبية نداءه مع أنه يحسن معاملتهم . ولا ريب في أن عليا كان محقا في دهشته . فتقاعس الناس عن تأييده



، أمر يثير الحيرة حقاً ، فهو أحق بالخلافة من معاوية . وكان يبرزه في الاسلام ويفوقه علماً وتقياً ووعياً وميلاً الى التفاهم والعقل واجتناباً لسفك دماء المسلمين . ولكن كل هذه الفضائل كانت تفتقر كما يبدو الى ما يكملها من لمح العبقريّة ، ومن مغناطيسية القيادة وهي أمور يحتاجها القائد في تلك الايام الحاشدة بالجيشان رغم ما فيها من بطولات .

وكان عمرو بن العاص قد غزا مصر في غضون ذلك بستة آلاف رجل . ولم يكن في وسع محمد بن أبي بكر أن يحشد أكثر من ألفي رجل من مؤيدي علي ، قادهم بنفسه لمواجهة الغزاة ولكنهم هزموا وتفرقوا بدون قتال تقريباً مخلفينه وحده في الميدان ، وفر محمد ماشياً وحاول أن يجد له مأوى أميناً في قرية خربة ، ولكنهم سرعان ما عثروا عليه وجروه منها جراً . وكان أنصار معاوية ساحطين أشد السخط على محمد ابن أبي بكر اذ كان الرجل الاول فعلاً في مهاجمة عثمان الشهيد . وبعد ان أفرغوا جام نقيمتهم على ضحيتهم المسكينه بتعذيبه قطعوا رأسه وربطوا جثته بجلد حمار ثم ألقوا بها في نار مشتعلة . ووطد عمرو بن العاص أقدامه ثانية في مصر أميراً لها معترفاً بسيادة معاوية على انه أمير المؤمنين .

وهكذا أخذت قضية علي تسير نحو التدهور في كل مكان . فلقبت نشبت ثورة حتى في البصرة تأييداً لمعاوية . ولم تخمد الا بعد قتال محلي عنيف ، ورفعت جماعة من الخوارج راية الثورة في فارس ، لا تأييداً لمعاوية وإنما مطالبة بحكم الله . وكان الفرس آخر من اذعن قبل بضع سنوات لحكم العرب . وعلى الرغم من أن الفرس لم يكونوا من المسلمين الا أنهم أيدوا الخوارج في ثورتهم ضد الفاتحين ، ولم تخمد هذه الثورة الا بعد مشقة هائلة ، ولكن هذا الاخمد كان جزئياً ، وسرعان ما انفجرت الثورة من جديد في كرمان . ولقد سبق لي أن أوردت اسم زياد ووصفته بأنه من أكثر الاداريين كفاية . وكان زياد هو الشاهد الرابع في قضية الزنا التي اتهم فيها المغيرة بن شعبه . ولكنه عاد عن أداء الشهادة . وقد ولد زياد عن سمية وهي امرأة من الطائفة كانت زوجاً شرعية لمولى من الروم . ولكن الشبهات كانت تلوك سمعتها في مكة في الجاهلية . ولذا فقد ولد زياد وهو لا يعرف له أباً ، فاطلق الناس عليه اسم زياد بن أبيه . وقد عينه على الآن أميراً لفارس وكرمان . وسرعان ما أعاد النظام اليهما ، وأقام مركزه في

اصطخر ، مدينة برسيبوليس القديمة . حيث حكم منها الاقسام ، الجنوبية ، بشكل لا يقل كفاية عن حكم معاوية لسورية .

وثقلت موازين معاوية الآن بالنسبة الى موازين على . وتحول معاوية الى الهجوم ووقعت عدة غارات من سوريا في النصف الثاني من عام ٦٥٨ وفي عام ٦٥٩ هددت سيطرة على العراق نفسه . ووصلت بعض هذه الغارات الى عين التمر والانبار ، التي لا تبعد أكثر من (١٧٠) ميلا عن شمال الكوفة وغنم رجال معاوية الكثير من الغنائم وأخذوا عددا من الاسرى . ولم يستطع على اتخاذ أى اجراء مضاد لان رجال الكوفة كانوا راغبين عن القتال وقاد معاوية بنفسه غارة عبر بها الجزيرة من الرقة حتى الموصل دون أن يلقى أية مقاومة ، ووقع ما هو أسوأ من هذا . في عام ٦٦٠ فقد زحف جيش من سوريا على الحجاز ، واحتل مكة والمدينة واتجه الى اليمن أيضا . وارغم الناس ارغاما في كل مكان تحت وطأة التهديد بالسيف على البيعة لمعاوية . وتخلى عامل على في اليمن عن منصبه وفر الى الكوفة . ولكن لم يكن جيش الشام يعود الى دمشق ، حتى وصلت قوة من الكوفة تعد أربعة آلاف رجل وارغمت الاهلين على نقض بيعه معاوية والعودة لبيعة على ، ومع ذلك فقد أخذ ضعف على يتضح يوما بعد آخر .

لكن أسوأ النكبات كان لا يزال طى الغيب . فلقد سبق لي أن ذكرت ان عبد الله بن عباس ، ابن غم النبي وعلى ، هو أكثر الناس صلة بعلى ، وأقربهم الى ثقته وقد اختاره أميرا على البصرة . وحدث أن وجه اليه على سؤالاً عن بعض تصرفات شكوا الناس منها اثناء ادارته للبصرة . فاستاء عبد الله وفارق مركزه وترك البصرة متجها الى مكة . وانتقلت العدوى الى أهل على نفسه ، إذ تخلى عنه أخوه عقيسل بن أبى طالب والتحق بمعاوية .

وقد قدر لبنى أمية بعد سنوات طويلة أن يختفوا من الوجود تقريبا ، كما قدر لاتباع على وأحفاد العباس أن يحكموا لقرون عدة . ويوصف التاريخ عادة بأنه دعاية الفريق المنتصر أو الفريق الذى يبقى على الأقل . وكان بنو أمية قد اختفوا من عالم الوجود عندما اتبع للإمبراطورية العربية أن تصل الى تلك المرحلة من النضج التى تصبح فيها الامة مهتمة بشئون الماضى بحيث تخلف المؤرخين وتلهمهم . وأدت هذه الحقيقة الى أن يصور التاريخ العربى عامة عليا على انه قديس من

القديسين أو أنه على الأقل رجل يفوق معاوية ديناً وعلماً وخلقاً . وإذا ما قبلنا هذه التواريخ على علائها ، صعب علينا أن نفسر الأسباب التي دعت معظم الناس الى التخلي عن علي وتأيد معاوية . ونجد أنفسنا مرغمين على قبول أحد تفسيرين أولهما ان شخصيتي الرجلين قد صورتا على غير حقيقتهما . وثانيهما أن طبيعة البدوى العربى المتميزة بالعنف والجيشان لا تتأثر الا بالقوة . ونحن لا ننكر أن عليا كان تقياً ومخلصاً ، وكان ميالا الى قبول الحلول الوسط وتجنب سفك الدماء . ولكن هذه الصفات نفسها جعلته ميالا الى التردد والضعف وكانت شخصية معاوية الحازم وذا الكفاية وشخصية عمرو بن العاص القوية والمفتقرة الى الاستقامة أكثر تقبلا للناس فى ذلك العصر . ولا ريب فى أن الرجلين كانا يملكان القدرة الخفية على القيادة بينما لم يكن فى وسع علي أن يعمل شيئاً سوى المناقشة والرجاء .

وأدى تبادل الرسائل بين الخيفتين المتنافسين الى عقد نوع من أنواع الهدنة وذلك فى نهاية عام ٦٦٠ ، وتوقفت المناوشات الفعلية بينهما . وظل على مسيطرا على العراق وفارس بينما امتدت سيطرة معاوية الى سوريا ومصر . ولعل من الغريب أن الحد الذى فصلهما عن بعضهما كان عين الحد الذى فصل فى الماضى بين بيزنطة وفارس . وبات معاوية خليفة قيصر بينما لبس على لباس الأكاسرة .



وعلى الرغم من أن هذا الحل الدنيوى قد يكون مريضاً للحاكمين المتنافسين الا أنه لا يستطيع بأى حاله من الاحوال أن يرضى المسلمين الشديدى التعصب لاسلامهم فلقد فرق هذا الحل الامبراطورية . وأوقف متى الفتوحات العربية لا سيما وقد تحولت سيوف المسلمين لضرب المسلمين . ولعل ما هو أسوأ من هذا أن معاوية رغبة منه فى أن يكون مطلق الحرية فى مواجهة خصمه على ومضمون المؤخرة عقد اتفاقاً مع امبراطور الروم اقر فيه بدفع جزية سنوية الى الامبراطور . وإذا كان بعض المسلمين الصادقين قد قنعوا بالانسحاب من مثل هذه الصورة المحزنة وآثروا عليها العيش بهدوء فى التهجد والعبادة والدرس ، كما فعل أبو موسى الاشعري مثلاً ، فإن الخوارج كانوا من معدن أكثر صلابة وقرة ، وقد حزموا أمرهم الآن على انتهاء هذه الحصومات بالقوة .

وقد اجتمع ثلاثة من هؤلاء الخوارج فى مكة أواخر عام ٦٦٠

وكانوا يتبادلون الشكوى من هذا الوضع الذى وصل اليه الاسلام عندما اقترح أحدهم مخرجا ، وهو أن توضع نهاية للأمة الثلاثة المسئولين عما نزل بالمسلمين من نكبات . وتعهد كل واحد من هؤلاء الثلاثة بقتل الرجل الذى أوكل اليه قتله . وهكذا وعد عبد الرحمن بن ملجم بقتل علي ووعد البرك بن عبد الله التميمي بقتل معاوية وعمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص ، وتقرر أن تتم عملية القتل الثلاثية الاطراف بعد صلاة الجمعة في الرابع عشر من رمضان للسنة الأربعين من الهجرة الموافق للعشرين من يناير ( كانون الثاني ) عام ٦٦١ . وبعد أن تعاهد الرجال الثلاثة على تنفيذ القرار ، وغمس كل منهم سيفه في السهم خرج المتعصبون من مكة كل منهم في طريق لتنفيذ القرار . وفى اليوم المقرر شهد ابن بكر صلاة الظهر في جامع الفسطاط ، وهي صلاة يؤمها الامير في كل بلد اسلامي . وشد الخارجى على الرجل الذى يؤم المسلمين في الصلاة فقتله لتوّه . ولكن حدث في ذلك اليوم لحسن طالع عمرو بن العاص انه تخلف عن الصلاة لمرضه ، وعهد الى شخص آخر بأن يؤم الناس في الصلاة . وعندما ساقه الناس الى عمرو ، قال الخارجى له بكل جرأة . لقد كنت أنت المقصود بضربة سيفي . فرد عمرو . «أردت قتلي ، وأراد الله قتلك (١)» وأمر باعدامه على الفور . وفى دمشق أصاب سيف البرك معاوية بجراح ، ولكن الضربة لم تقتله (٢)

وعندما أذن المؤذن للصلاة في اليوم الموعد في الكوفة ، خرج على من منزله يقصد المسجد . وعندما مر ببابه فاجأه ابن ملجم بسيفه على رأسه فشق جمجمته واعتقل القاتل وأعدم ثم أحرقت جثته . وعاش على حتى عشية اليوم التالى ثم توفاه الله (٣)

---

(١) يبدو أن المؤلف قد أخطأ في فهم الرواية العربية إذ ذكرت كتب التاريخ العربى أن خاتمة بن حذافة صاحب شرطة عمرو بن العاص هو الذى قتل في ذلك اليوم إذ كان يؤم المسلمين نيابة عن عمرو ، ولذا فقد قيل ... أراد عمرا وإراد الله خاتمة .

(٢) تقول الروايات الاسلامية ان البرك قدم لمعاوية في ذلك اليوم فلم يخرج شد عليه السيف فوقع السيف في البيت وولج من الضربة . وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد .

(٣) تقول الروايات الاسلامية ان قتل على وقع ليلة الجمعة الخامس عشر من رمضان عند صلاة الصبح لا صلاة الظهر كما يقول المؤلف . وقد عاش رحمه الله بعد الضربة يومى السبت والاحد وتوفي ليلة الاحد السابع عشر من رمضان ، لا عشية اليوم التالى كما يقول المؤلف .

« العرب »

وقد أضافت الروايات لمسة عاطفية الى قصة هذه الجريمة الفظيعة .  
 خُفد قيل ان ابن ملجم عشق امرأة من الخوارج تدعى قطام ، قتل على  
 أباه وأخاه يوم النهروان فلما خطبها ابن ملجم ، طلبت مهرها ثلاثة  
 آلاف درهم وقتل على بن أبي طالب . وقد قال فيها الفرزدق شاعر بني  
 تميم ، التي ينتمى اليها كثيرون من الخوارج في الكوفة مخلدا ذكر  
 الجريمة .

فلم أر مهرا ساقه ذو سمحة كمهر قطام من فصيح وأعجم  
 ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم  
 فلا مهر أغلى من على وإن غلا ولافتك إلا دون فتك ابن ملجم (١)  
 كان على في الستين من عمره عندما قتل (٢) ، ولا يعرف على وجه  
 التحقيق المكان الذي دفن فيه (٣) ، ويقول البعض ان أتباعه دفنوه سرا  
 مخافة أن ينبش الخوارج عليه . وكان قد بنى في فتوة بفاطمة الزهراء  
 ابنة النبي . ولم يتزوج عليها حتى توفاه الله . وقد ولدت له الحسن  
 والحسين الطفلين اللذين كان رسول الله يحب أن يلعب معهما ويضحك ،  
 وقد توفيت فاطمة بعد وفاة النبي بمدة قصيرة فتزوج على بعدها عدة  
 نساء ، ولدن له أحد عشر ولدا وخمس عشرة ابنة . ويقول السيوطي  
 انه خلف عند وفاته تسع عشرة سرية بالاضافة الى زوجاته ولا ريب في

---

(١) يبدو ان المؤلف قد اخطأ فهم ما قصده الفرزدق . فالشاعر الربي الفرزدق  
 كان حزيناً على مقتل على لا فرحاً كما يحاول المؤلف أن يوحى لقراءه ، والمعروف أن  
 الفرزدق كان من المتهمين عند الخلفاء الامويين بالتشجيع لعلى وآله . وقد قال في مدحهم  
 عدة قصائد مشهورة .

( العرب )

(٢) يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء انه كان لعلى حين قتل ثلاث  
 وستون سنة ، وقيل أربع وستون وقيل خمس وستون ، وقيل سبع وخمسون ، وقيل  
 ثمان وخمسون .

(٣) قال أبو بكر بن عياش ، عمى قبر على ثلاثاً ينبشه الخوارج ، وقال شريك :  
 نقله أبنته الحسن الى المدينة ، وقال المبرد . . أول من حول من قبر الى قبر على رضي  
 الله عنه . وقال ابن عساكر . . لما قتل على رضي الله عنه ، حملوه ليدفنوه مع النبي  
 عليه الصلاة والسلام . فبينما هم في مسيرهم ليلاً اذ ند الجبل الذي هو عليه فلم يعرف  
 أحد أين ذهب ؟ ولذلك يقول أهل العراق : هو في السحاب وقال غيره : ان البعير وقع  
 في بلاد طيء ، فأخذوه فدفنوه .

( العرب )

أن عليا لطبيعته الدمثه اللطيفة لم يكن صالحا للعيش في الاوقات العصيبة .  
التي مر بها .



وهكذا حقق سيف ابن ملجم المسموم ما عجزت الجيوش العربية كلها عن تحقيقه اذ وحد الامبراطورية العربية تحت حكم خليفة واحد .  
على أى حال ، ماكاد على يقتل حتى سارع أهل الكوفة الى مبايعة ابنه البكر ، الحسن ، سبط رسول الله من ابنته فاطمة الزهراء وكان في السابعة والثلاثين من عمره عندما اغتيل أبوه . وتقول الروايات العربية انه كان يشبه الرسول قُبَيْ هَيْئته وتقاطيعه ، ولقد سبق لى أن تحدثت عن حب النبي الشديد لحفيديه . وكان هذا الحب موضوع الحديث في روايات كثيرة . وروى بعض شهود العيان ان النبي كان يحمل الحسن على عاتقه وهو يقول « اللهم انى أحبه فأحبه » وروى ان النبي أقبل ذات مرة وقد حمل الحسن على رقبته ، فلقبه رجل فقال : نعم الراكب ركبت يا غلام . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ونعم الراكب هو . وتقول رواية أخرى ان النبي كان يضع الحسن فى حبوته ويقول : « من أحبني فليحبه ، وليبلغ الشاهد الغائب » .

وقد ورث الحسن عن النبي كل فضائله ، دون أن يرث عنه عزمه واحتماله المكاره وشجاعته الادبية ، فلقد كان حليما ذا سكينه ووقار وحشمة وأنفة ، جوادا ممدوحا يكره الفتن والسيوف . تزوج كثيرا ، والاسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربعة فى آن واحد ، ولكنه لا يضع حدا للمرات التى يستطيع فيها المرء أن يطلق فيها نساءه ، ويقال ان الحسن تزوج فى حياته أكثر من تسعين مرة ، ليشبع رغبته فى التعرف الى أكبر عدد من النساء (١) . ولعل من الغريب اذا صدقت الروايات أن جميع أزواجه أحببته أشد الحب وظلن على الوفاء له والحديث عنه بالحيرة حتى بعد طلاقهن منه . وأقول على سبيل المقارنة ان النبي لم يطلق امرأة من نساؤه فى حياته مطلقا على الرغم من أن بعضهم كن مصدر تعب وازعاج له .

وكان الحسن متدينا ويقال بأنه حج الى مكة خمسا وعشرين مرة .

---

(١) اجمع المؤرخون على أن الحسين كان مزواجا مطلقا الا انهم لم يذكروا هذا العدد الضخم الذى اشار اليه المؤلف ، ولا ندري من أين جاء به .

• وانه كان يقطع المسافة بين مكة والمدينة والتي تبلغ نحواً من مائتين وخمسين ميلاً على قدميه لينال المزيد من الثواب جازاً ورامه خيوله • وكان محدثاً ساحراً ، وما سمعت عنه كلمة فحش قط ، وعندما أفحش له رجل في القول ذات يوم اكتفى بقوله أنه لن يرد عليه بنفس لهجته بل سيلقاه يوماً بين يدي الله والله شديد العقاب (١) •

ولم يكن معاوية ، ذلك الرجل الذي يضيع مثل هذه الفرصة ، فراح يعد جيشاً جديداً بكل ما لديه من طاقة على السرعة ، ليفزو به العراق • وعندما وصلت الأنباء الى الكوفة تقدم رجالها الى الحسن يعربون طائعين مختارين عن عزمهم على نصرته • بخلاف ما كانوا يعملون مع أبيه ، ولعل تأثرهم باغتيال أبيه ، أو عطفهم الطبيعي على أمير شاب وبرئ كالحسن كان الحافز لهم على استغفار عواطفهم بعض الوقت • وليس ثمة من ريب في أن الشعور بالمنافسة مع سوريا قد دفعهم أيضاً الى هذا الموقف الجديد • ولعل القاري يذكر انه عندما اجتمع جيشا العراق وسوريا مرة ابان العمليات الحربية في ارمينيا • تبين ان التعاون متعذر بينهما مما دفع الرتلين الى الافتراق ، لينصرف كل منهما الى عملياته الخاصة •

ولعل من التضليل أن نعبر عنهما بالنسبة الى هذه المرحلة في عام ٦٦١ بأهل سوريا وأهل العراق • فلم يكن الاختلاط حتى ذلك التاريخ قد جرى مع أهل البلاد وكان الجيشان حتى ذلك الحين ينتميان الى قبائل الجزيرة العربية ، على أي حال ، وقف جيش قوامه أربعون ألفاً على قدم الاستعداد في الكوفة • وبعث المسئولون عنه بقوة تفطية الى الشمال للحصول على المعلومات المتعلقة بتحركات جيش معاوية ، وللحيلولة دون تقدم هذا الجيش •

ولكن على الرغم من أن أنصار الحسن كانوا يستعدون لحوض

---

(١) اعتقد أن المؤلف قصد هنا ما روى من أن مروان بن الحكم وكان أميراً على الحجاز أيام معاوية • كان يسب علياً كل جمعة على المنبر • والحسن يسمع فلا يرد شيئاً ، ثم أرسل اليه يقول له : علي وعلي وعلي وبك وبك ، وما وجدت مثلك الا مثل البغلة يقال لها من أبوك فنقول : أمي الفرس ، فقال له الحسن ، ارجع اليه قتل له : إني والله لا أمحو عنك شيئاً مما قلت بأن أسبك ولكن موعدى وموعدك الله ، فان كنت صادقاً جزاك الله بصدقك ، وإن كنت كاذباً فالله أشد نعمة •

( العرب )

القتال - الا ان الحسن نفسه كان عازفا عن الدخول في معركة . وعندما عبره بعضهم بقولهم : يا عار المؤمنين قال . العار ولا النار . وقال في مرة أخرى انه تخلى عن مطامع الدنيا « ابتغاء وجه الله » وحقن دماء أمة محمد عليه الصلاة والسلام . وسواء أكان عزوف الحسن عن القتال راجعا الى جبن وضعف ، أو الى رغبة في حقن الدماء الا أن روحه هذه فشلت في التأثير على جنوده الذين تاهبوا لنصرته والدفاع عنه والذين أظهروا الآن بعض الأدلة على عصيانهم إرادته . ولا ريب في أن العرب الميالين الى العنف والقتال ، ما كانوا ليبرتاحوا لمثل هذه الروح البعيدة عن مطامع الدنيا والمتصفة بالوداعة واللين .

وكان الحسن نفسه هو الذي وضع حدا لهذه الازمة بالكتابة الى معاوية عارضا عليه التنازل شريطة أن يسمح له بنقل مائتي بيت مال الكوفة من أموال ، وإن يدفع له مال الخراج من فارس بقية حياته كتقاعد له . وتقول روايات أخرى انه اشترط أيضا العفو عن كل من نصر أباه عليا ضد معاوية (١) . وقد قبل هذا جميع الشروط التي طلبها الحسن فارتحل هذا مع أخيه الأصغر الحسين ، من الكوفة الى المدينة . وعلى الاثر دخل معاوية الكوفة وتلقى مبايعة أهلها ، واختفى الحسن منذ ذلك اليوم في صفحات التاريخ العربي الجياش بالاضطراب . أذ عاش في المدينة متقاعدا مع زوجاته وسراياه . ولكنه لم ينعم بالراحة الداخلية كما نعم بالراحة السياسية ، اذ توفي بعد ثمانى سنوات نتيجة سم دس اليه من إحدى زوجاته ، بسبب غيرة تسوية على الغالب ، ويقول أعداء الامويين أن معاوية أو ولده يزيد ، أقنعا المرأة بقتل الحسن . لكنني أرى أن هذه التهمة بعيدة عن العقل لان الحسن نفسه رفض منافسة

---

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف ببعض هذه الشروط . ولماذا أهمل شروطا أخرى. اذ يقول السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » ان الحسن بعث الى معاوية يذل له تسليم الامر اليه . على أن تكون الخلافة له من بعده . وعلى أن لا يطالب معاوية أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه . وعلى أن يقضي عنه ديونه ، فأجابته معاوية الى ما طلب فاصطلحا على ذلك فظهرت المسجرة النبوية في قوله صلى الله عليه وسلم « يصلح الله به بين فئتين من المسلمين » ونزل له من الخلافة . وقد استدلل البلقيني بنزوله من الخلافة التي هي أعظم المناصب على جواز النزول عن الوظائف . وكان نزوله عنها في سنة إحدى وأربعين في شهر ربيع الاول وقبيل الآخر . وقيل في جمادى الاولى .



معاوية على السلطان ولم يظهر أية إشارة الى ندمه على قراره لكن هذا الاتهام كان كافيا على أى حال ، لحمل أشياعه على الباسه نوب .  
الشهادة (١) .

### \*\*\*

يذكر القارئ ولا شك أن معاوية الخليفة الجديد الذى بايعه المسلمون جميعا هو نجل أبى سفيان ، وزوجته المنتقمة هند . وكان معاوية وأبوه قد حاربوا الرسول أشد الحرب ولم ينضما اليه الا عند فتح مكة . ولكن معاوية مالبث بعد أيام من اسلامه ان حارب الى جانب المسلمين فى حنين . وكان النبى جد تواق بعد فتح مكة لمصالحة زعمائها وقادتها . وجربا على هذه الخطة التى اختطها ، فقد اختار معاوية كاتما لسره ، وأخذ معه الى المدينة ، مما يشير الى أن الرجل كان فوق المستوى من ناحية تعليمه . ويقول أحد الرواة انه سمع محمدا يقول . . « اللهم هلم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب » . ولا ريب فى أن الشطر الاول من الدعاء قد تحقق اذ انه كان من أكثر الإداريين كفاية .

كان معاوية كما يصفه المؤرخون رجلا طويلا ، أبيض ، جميلا ، مهيبا ، ويروى أن عمر بن الخطاب كان ينظر اليه فيقول : « هذا كسرى العرب » . ولا ريب فى أن عمر كان يقصد ان معاوية مهيب فى طلعته كالاكاسرة ولكن نبوءته تحققت فعلا ، اذ أصبح أول حاكم.

---

(١) وقع المؤلف فى خطأ كبير فى استنتاجه بسبب خطأ كبير اقترفه فى سرد الحقائق . فهو يقول ان تسميم الحسن من احدى زوجاته كان ناجما من غيرة نسوية ، ثم راح ينفى ان المرأة قد فعلت ذلك بتحريض من معاوية أو ولده يزيد ، وذلك لان الحسن تنازل عن الخلافة راضيا ولم يكن له مطمع فيها .

ولو عاد المؤلف الى أحد الشروط التى اشترطها الحسن على معاوية لتنازله من الخلافة . وهو ان تكون الخلافة له بعد معاوية ، لتبين له خطأ استنتاجه باستبعاد التحريض ، وهو تحريض أيدته أكثر من رواية ، اذ يقول السيوطى ان زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث هى التى سمت زوجها بعد أن دس اليها يزيد بن معاوية أن تسمه ليتزوجها ، ففعلت ، فلما مات الحسن بعثت الى يزيد تسأله الوفاء بما وعدا . فقال .

أنا لم نرشدك للحسن ، أفترشاك لأنفسنا ؟

ومن هذا يتبين أن يزيد كان يخشى منافسة الحسن بعد وفاة أبيه معاوية وأن معاوية كان مرتبطا بوعده بالخلافة للحسن بعده . ومن هنا يتبين وجود الدافع الذى لم يستطع المؤلف قبوله .

( العرب )

«دينوى للعرب ، لا تقوم دعواه على احساس التفوق الدينى . وتقول رواية أخرى ان أحدهم قال : تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية ؟ ومع ذلك لم يكن معاوية ذلك الحاكم الطاغية المستبد المتعجرف ، بل كان أقل استبدادا برأيه من عمر بن الخطاب ، التقي الورع الذى كانت كلمته دائما هى العليا . وكان معاوية حاكما دينويا أكثر منه خليفة على المسلمين . ومع ذلك فلم يتوان عن اللجوء الى الدين دائما وباستمرار للحفاظ على حكمه . وكان دائما كما سيبدو فيما بعد نائب النشاط فى محاربة غير المسلمين . وليس ثمة من ينكر ان كبرياء العنصر العربى كانت قد أصبحت عاملا قويا فى الامبراطورية حتى منذ أيام عمر بن الخطاب . فلقد كان عمر هو الواضع لسياسة عزل الفاتحين العرب كطبقة عسكرية خاصة تعيش على ما ينتجه كدح الشعوب المحتلة . وكان عمر ايضا هو الذى قرر الا يباع عربى قط عبدا . ولا ريب فى أن هذه الكبرياء العربية ما كانت لتتفق بكل الاتفاق مع الاسلام الذى اشترط المساواة بين المسلمين . ومع ذلك فلقد كان الشعور الدينى طاغيا فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان طغيانا ظاهرا بحيث مضت المشاعر العنصرية دون أن يلحظها أحد . وكل ما يمكن قوله عن عهد معاوية ان المشاعر العربية القومية أصبحت أكثر نفوذا وأثرا من المشاعر الدينية المجردة ، ولكن هذا التبدل لم يكن كبيرا بعد ، بل كان محدودا . إذ كان التأثيران القومى والدينى يعملان عملهما منذ أيام أبى بكر ، وظلا يعملان كذلك أيام معاوية .

ولكن عروبة معاوية لم تكن ذات اتصال بالعلاقات مع الشعوب غير العربية أو الديانات غير الاسلامية فحسب ، بل اتصلت بما طرأ على الأوضاع الداخلية من تبدل أيضا . ولقد كان الخلفاء الاول يطاعون طاعة عمياء لمجرد انهم خلفاء الرسول . ولكن قلادة المنصب تأثرت تأثرا كبيرا بمقتل عثمان والحرب الاهلية بين على ومعاوية . وكان من الواضح ان معاوية اضحى خليفة لانه كان أقوى رجال عهده شخصية وأكثرهم كفاية فى ميدان القيادة . فعلى الرغم من ميل العرب الفطرى الى الفوضى ، إلا انهم كانوا دائما على استعداد للعمل تحت قيادة أى انسان يروونه أهلا للقيادة . ولم يكونوا قط على استعداد لتوفير الابهة أو الرتبة أو الامتيازات الوراثية أو الالقاب . ولكنهم اذا ما رأوا أمامهم رجلا حق الرجولة استكانوا له لا بدافع الخوف بل بدافع الاعجاب المقرون بالحماسة ولا ريب فى أن ولاهم لمعاوية كان من هذا الطراز .

واتبع معاوية بدوره سبيل الحاكم العربى الديموقراطى الذى .  
 يشبه شيخ القبيلة التقليدى فى كل شيء بوصفه الاول بين عدد من  
 الكبراء ليس الا . وكثيرا ما دهش أبناء الاجيال المتلاحقة الذين نشأوا  
 على توقع الميل الى الابهة والخطرسسة المعروفة عن الطغاة الشرقيين من  
 الطريقة التى كان الناس من أبناء الرعية يحدثون بها خليفتهم معاوية .  
 ويقول الرواة أنه ما لبث ان تبوأ منصب الخلافة حتى جاءه أحدهم  
 يقول . . « والله لتستقيم بنا يا معاوية أو لنقومنك » فتسائل معاوية .  
 « وبماذا ؟ » فقال الرجل « بالخشب » فرد معاوية وقد ابتسم « اذن  
 نستقيم » ولا ريب فى أن هذه الصراحة التى لا تخلو من المزاح رغم  
 قسوتها هى الطابع الذى يطبع أواسط الجزيرة العربية حتى يومنا  
 هذا . ولا ريب أيضا فى ان كل من تعامل مع عرب الجزيرة تعاملًا وثيقًا  
 يدرك أن الصورة التى رسمها المؤرخون العرب لبدو تلك الايام تنطبق  
 تمام الانطباق على بدو اليوم على الرغم من انقضاء ألف ومائتى عام .  
 ولعل مما يثير الاهتمام أيضا أن هذه الصراحة الجهرية تقف تمامًا على  
 النقيض من تصرفات أهل المدر فى سوريا ولبنان اليوم كما كانت فى  
 عهد الروم ، فالسورى المثقف يفوق أى انسان آخر دماثة ومجاملة  
 ولا ريب فى ان مجاملاته هذه تخجل الاوروبى لا سيما اذا كان يقدم  
 اليه منحنيًا معقدًا ليجلس عليه مرددًا أسئلته الكثر عن صحته وسعادته .  
 ولعل من المذهل حقًا أنه على الرغم من انقضاء اثنتى عشر قرنًا ما زال  
 السورىون يعرضون ما عرف عن الروم من مجاملة بينما يعرض البنو  
 ما عرف عن الفاتحين العرب من ديموقراطية جافة .  
 وكان استقبال صحابة رسول الله من مهاجرين وأنصار من المعمرين  
 لمعاوية عندما زار المدينة للمرة الاولى يعد بيعته فى منتهى الفثور والبرود .  
 ويرى انه قال لجماعة منهم جلسوا اليه فى المدينة . « تلقانى الناس  
 كلهم غيركم يا معشر الانصار » فقال له احدهم « لم يكن لنا دواب »  
 فرد معاوية وكان يعرف المدينة خير معرفة عندما كان كاتبًا لرسول الله  
 . . واين النواضح ؟ ( يعنى الابل السريعة المشى ) فقال الرجل « عقرناها  
 فى طلبك وطلبك أبىك يوم بدر » وليس فى وسع الانسان أن يتصور  
 رداً أقسى ولا أكثر استفزازًا من هذا الرد . ومضى الانصارى يواصل  
 حديثه وعلى محياه سيماء الألم « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لنا  
 « انكم سترون بعدى أثره ( يعنى مصيبة ) » فقال معاوية « فما أمركم »

قال الانصارى : « أمرنا أن نصبر » فرد معاوية وعلى وجهه - كما  
أصور - ابتسامة ... « إذن فاصبروا » .

وهكذا أفتح كبراء المدينة أنفسهم، وقد وجلبوها عاجزة عن الوقوف  
في وجه قوة معاوية العسكرية وأمام ذكائه اللامع ، بأن حكم معاوية باق  
الى أن يموت . وقد أعرب عن هذه الفكرة شاعر المدينة ( يعنى حسان بن  
ثابت ) بقوله :

ألا ابليخ معاوية بن حرب      أمير المؤمنين نبا كلامي  
فانا صابرون ومنظروكم      الى يوم التغابن والخصام

وروى أخيرا عن رجل عاصر معاوية من شيوخ العرب قوله : صحبت  
معاوية ، فما رأيت رجلا أثقل حلما ، ولا أبطأ جهلا ، ولا أبعد أناة منه .

ولعل أصدق شهادة على ديموقراطية معاوية جاءت من مؤرخ يوناني  
معاصر لعهد هو تيوفينس Theophanes إذ وصفه بأنه الوزير الاول  
للعرب ، لا الملك أو الإمبراطور . ولقد رأينا في عصرنا هذا عددا من  
الديكتاتوريين . ومع ذلك فاننا لم نر الا القليلين منهم ان وجدوا قادرين  
على الاجتماع الى شعوبهم ، والجلوس اليهم ، والدخول معهم في مناقشات  
صريحة على قدم المساواة ، لا مع الناس فحسب بل مع الخصوم السياسيين  
أيضا ، والرد على عباراتهم الساخرة التي تبلغ أحيانا حد الاساءة ، بروح  
مرحة هادئة . ولعل هذا هو السبب الذي جعل من معاوية الخليفة الوحيد  
الذي لم تقم في عهده أية ثورة أو أى عصيان منذ تبوأ الخلافة .

ولقد سبق لى أن ذكرت أن معاوية عين عمرو بن العاص ، أميرا لمصر  
قبل وفاة على وكان عمرو كما قلت أيضا صاحب الفضل فى فتح مصر .  
باقتراحه فتحها وتولييه عملية الفتح أيضا . ولكن عمرا لم يقدر له أن  
يعيش طويلا لينعم بشمار جهوده وكده . فلقد توفى عام ٦٦٣ . أى بعد  
سنتين من خلافة معاوية . ومن الصعب على المؤلف تقويم شخصية عمرو  
هذا ، وإن كان غزوه الناجح لمصر على رأس ثلاثة آلاف وخمسمائة من  
البدو ليس الا خير دليل على شجاعته وجراته . ويبدو لى أن ادارته  
اللاحقة لهذه البلاد المحتلة ، كانت أكثر تفتحا من خطة رئيسه عمر بن  
الخطاب . فلقد خصص نسبة معينة منتظمة من خراجها السنوى لاصلاح  
أجهزة الرى فى البلاد وتطويرها . كما عمل جهده لحماية الاقباط من  
ابتزاز الضرائب، وأعاد أيضا حفر قناة تيراجان التي كان روم القسطنطينية

قد أهملوها حتى سدتها الرمال . ويمكن بعمله هذا البواخر القادمة من البحر الأحمر من الإبحار حتى الفسطاط والنيل لتسير فيه حتى البحر المتوسط . وكانت له شهرة وافية في عالم السياسة والدبلوماسية منذ أيام سفارته مندوبا عن قريش الى نجاشي الحبشة ، حتى مناوراته الأخيرة . تأييدا لمعاوية على علي بن أبي طالب ، ومع ذلك فقد كان سلوكه في عملية التحكيم في أذرع خادعا . كما يشك في أنه كان فاسدا من الناحية المالية . ونحن نعرف أيضا أنه كان شاعرا ، وذلك من الأسطر النثرية القليلة المتميزة بالروح الشاعرية والتي كتبها الى عمر بن الخطاب يصف له فيها أرض مصر والحياة فيها . وثبتت الروايات الكثيرة عن ذكائه سرعة بديته . ولطف نكتته . ولعل أصدق وصف لشخصيته ، ورد على لسان شخص . كان على اتصال وثيق بجميع شخصيات تلك الايام المثيرة فقد أجمل تصويره لشخصية عمرو في العبارة المقتضبة التالية : لم أجد في حياتي رفيقا أرق من عمرو .

ويذكر القاري ولاشك أن العصاة كانوا يطالبون عثمان قبل قتله . وإثناء الحصار الذي فرضوه عليه بتسليمهم مروان المكروه الذي وجد الملجأ له في دار الخليفة . وقد فر مروان هذا بعد قتل عثمان بعد أن أصيب بجراح برفقة الزبير وطلحة الى البصرة حيث حارب عليا في معركة الجمل . ولجأ مروان الى حمى معاوية بعد انتصار علي في تلك المعركة . وعندما أنهى مقتل علي كل معارضة لمعاوية عين الخليفة المنتصر مروان المكروه هذا أميرا على المدينة كاجراء عقابي لمقتل عثمان . ولكن السلطان كان قد انتقل من المدينة الى الأبد . وان ظلت بقية الصحابة وذرائعهم تعيش فيها بعيدا عن التدخل في هذا الصراع المجنون . وكان بعضهم يقضي أيامه في التهجد والعبادة . وبعضهم في ترف الثراء الذي حققته لهم الفتوحات العظيمة وما ينطوي عليه هذا الترف من رخاء وملذات ، ونسى الناس تدريجا أيام بدر وأحد والردة البطولية .

واختار معاوية أول ما اختار لامارة الكوفة وقيادة جندها الجائشين . بالفتنة المغيرة بن شعبة أمير البصرة المغزول . ولقد كان هذا الفارس المغوار بطلا من أبطال الحروب في فارس ، وفقد احلى غينية في معركة اليرموك ، كما امتاز بالقامة الفارعة ، والرغبة في المغامرة والشعر الفاحم والعود الرياضي . وكان قد حكم الكوفة من قبل في أواخر عهد عمر ثم عزله عثمان ليفسح المجال لتعيين أحد الامويين خلفا له . وقد عرف عنه انه قليل الحياء ، لا يخجل من شيء متجلد العاطفة ، وافر الشجاعة كثير

«الدهاء واسع الحيلة . وقد بات الآن مسئولا عن الكوفة وأواسط العراق  
وشمال فارس ولم تكن مهمته بالهيئة أو المريحة ، ففي العراق يواصل  
«الخوارج تأمرهم لتحقيق هدفهم في الجمهورية الدينية ، واستأنف من  
الفتوحات في شمال فارس اندفاعه متخذاً من الكوفة قاعدة له .

ولكن زياد بن أبيه كان أبرز عمال معاوية ، وقد سبق لنا أن  
أشرنا إليه أكثر من مرة ، وكان زياد هذا أميراً لعل على جنوب فارس  
عندما رسم سيف بن ملجم النهاية لحياة سيدة ، ومع ذلك فقد كانت  
سيطرته كاملة في مركزه « اصطخر » الى الحد الذي مكنه من الاحتفاظ  
باستقلاله في حكم الامارة أكثر من عام بعد تولي معاوية الخلافة . ويذكر  
القاري أيضاً ان المغيرة بن شعبة نجا من الموت رجماً بتهمة الزنا في  
البصرة بفضل زياد بن أبيه الذي تراجع في اللحظة الأخيرة عن الشهادة  
ضده .

ولم ينس المغيرة جميل زياد فراح يعمل وسيطاً ليحصل له  
على عفو معاوية ، ومضى المغيرة بموافقة معاوية الى مدينة اصطخر التي  
كانت في يوم ما عاصمة كورش ودارا والتي يحكمها زياد الآن ، حيث  
استصحب زيادا معه الى دمشق بعد أن أعطاه الامان على حياته . ولم  
يكن الخليفة الجديد بالرجل الذي يكسب عداء مثل هذا الامير الذي  
أثبت كفاية منقطعة النظر في إدارته . ولذا فقد استقبله استقبالا  
ينطوي على الاكرام واعاده أميراً على ولايته .

وسرعان ما وقع حادث ضخم كل الضخامة . ويذكر القاري ان  
زيادا كان ابن سمية الجارية ذات السمعة المشبوهة في الطائف ومكة ،  
ولم يكن يعرف له أبا . وفجأة أعلن معاوية إعلاناً أثار فزع المتدينين  
وتقززهم . وهو ان زيادا هو ابن أبي سفيان والد معاوية من الجارية  
سمية . وانه أي زياد أخ له . وليس ثمة من شك في ان العلاقة  
اللاشرعية قامت بين أبي سفيان وسمية قبل تحول الرجل العجوز  
الى الاسلام . ولقد كان من المؤلف في صدر الاسلام ألا يحاسب  
المسلم على ما اقترفه من خطايا في عهد الجاهلية . ولكن بالإضافة الى  
الناحية الدينية لم يرض عدد من الامويين المتكبرين أن يضموا الى أسرهم  
شخصاً مشبوه الاصل والولادة . ولا ريب في ان اعتراف معاوية بعلاقة  
أبيه بامرأة مشبوهة الخلق ، كان عملاً بارعاً من أعمال السياسة وكسب  
الاعداء السياسيين . ولم يكن تقدير معاوية السياسي خاطئاً أو في غير

موضعه . فلقد أصبح زياد بن أبيه ، زياد بن أبي سفيان وأصبحت  
مصلحته مرتبطة ارتباطا وثيقا بحكم الأمويين . ولقد عينه معاوية الآن  
أميرا على البصرة وتمتد سلطاته لتشمل كل الأقسام الجنوبية من فارس .  
حتى نهر السند في الباكستان الحديثة . وظل المغيرة أميرا على الكوفة ،  
حتى مات ، فخلفه فيها زياد الذي أصبح يحكم الكوفة والبصرة . وأضحى  
صورة معاوية في حكمه للنصف الشرقي من الامبراطورية كله . ولقد  
أضفى على نفسه هالة الملك فأصبح يسير والحرص من أمامه وخلفه ،  
وأبواق الجند تعلن وصوله .

وكانت أمارتا البصرة والكوفة لا تزالان تعجان بالخلافات الداخلية .  
وواصل الخوارج تأمرهم . على الرغم من أن المغيرة أعدم ثلاثمائة منهم  
في يوم واحد ، ولكن المصدر الرئيسي للفتنة وما يحز من مرارات في  
نفوس اتباع معاوية وشيعة «على» الشهيد ظل باقيا . وعلى الرغم من أن  
زيادا كان حتى عهد قريب عاملا لعل ، إلا أنه كرس الآن جميع جهوده  
لنصرة الأمويين ويقال بأنه حدد فن الحكم باستعمال الدين بدون ضعف  
والشدة من غير عنف . ولكن لما كانت الروايات قد نقلت عنه أنه أحرق أحد  
اتباع على وهو على قيد الحياة ، فقد بات من الصعب علينا حقا أن  
نحدد ما عناء « بالشدة في غير عنف » .

وكان الاعتقال يتناول الأشخاص المتهمين بعدم الولاء فيسألهم عن  
رأيهم في علي وعثمان . وكان الموت جزاء الذين يجيبون بأن عليا رجل  
صالح ، وأن عهد عثمان اتسم بالظلم ، لأنهم جهرُوا برأيهم . وكانت  
الحظوة لدى معاوية ، تتطلب أن يشتم الإنسان عليا وأن يمدح عثمان  
الشهيد . وكانت الرحمة لا تعرف لها طريقا إلى قلب زياد عند حبسه  
للخوارج أو اعدامهم . وكان يساوى في معاملته هذه بين الخوارج وبين  
شيعة علي ، على الرغم من حصول الكثيرين من الذين يتمكنون من الوصول  
إلى معاوية لرفع ظلامتهم إليه ، على العفو من الخليفة .

وعلى الرغم من شدة الأساليب التي اتبعها زياد بن أبيه مع أهل  
الكوفة ، فإن السلوك القائم على الفتن والزيف الذي اتبعه الكوفيون  
مع علي الوديع المتسامح عندما كان حاكما لهم ، يوحى بأنهم كانوا  
يستحقون هذه الشدة التي طالما شكوا منها في المغيرة وزياد . فلقد  
ساد الاضطراب جميع أرجاء العراق الجنوبية والقسم الأكبر من فارس  
في عهد علي ، وكانت الطرق غير مأمونة ، والحدود معرضة لغزو الكفرة

• والمشركون • وما كاد زياد يتسلم الحكم ، ويوطد أقدامه فيه حتى • همدت الفتن ، واستقر الأمن واستتب النظام وعاد المسلمون يشقون • طريقهم تحت راياتهم الظافرة لفتح الهند وبلاد ما وراء النهر •

وتوحى سياسة العنف وعدم الملاينة التى اتبعها كل من معاوية وزياد بمنتهى البراعة والكفاية بأنهما حقا اخوان وان أبا سفيان لم يلد سياسيا عبقريا واحدا بل سياسيين عبقرين •

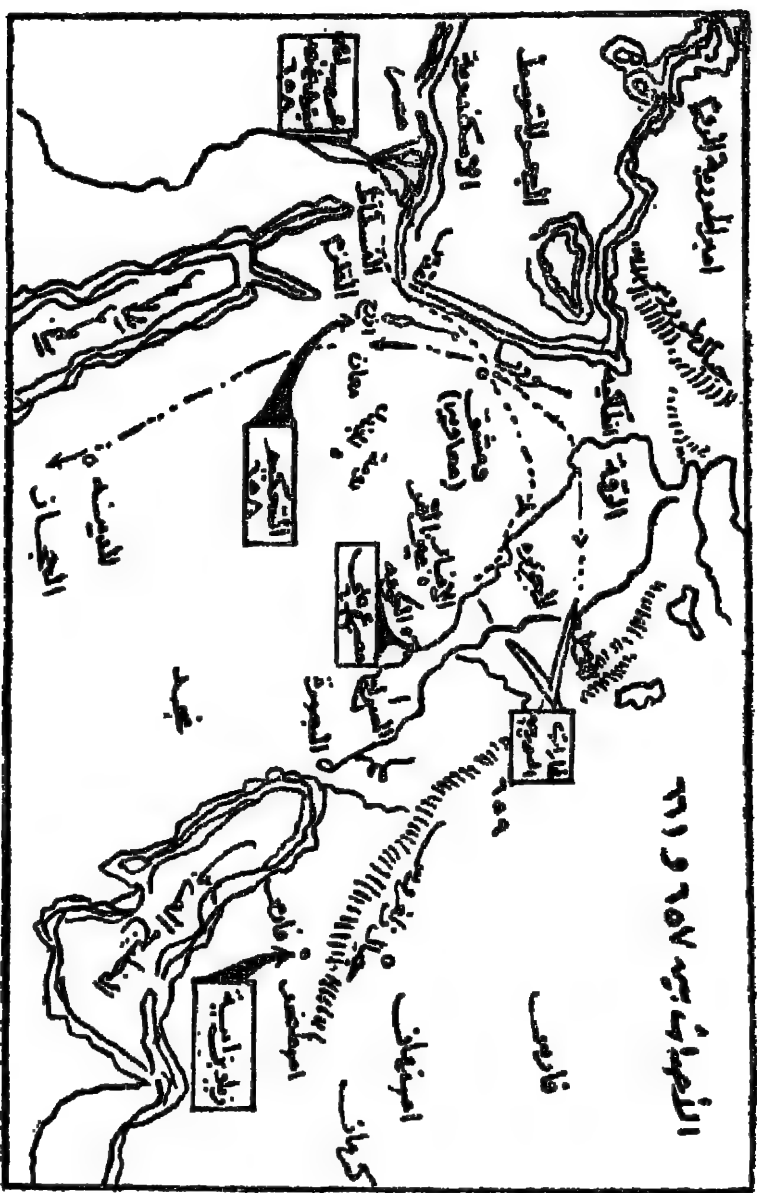
### تواريخ باوذة

انتصار على على الخوارج عند النهروان مارس ( آذار ) ٦٥٨  
عمرو بن العاص يستولى على مصر يوليو ( تموز ) ٦٥٨  
مقتل على بن أبى طالب ٢٠ يناير ( كانون الثانى ) ٦٦١  
تنازل الحسن عن الخلافة يوليو ( تموز ) ٦٦١

### شخصيات مشهورة

معاوية	خليفة المسلمين فى الشام
على بن أبى طالب	خليفة المسلمين فى الكوفة
عمرو بن العاص	أمير مصر
أبو موسى الاشعري	فاتح فارس
عبدالرحمن بن ملجم	قاتل على
الحسن بن على	سبط الرسول
المغيرة بن شعبة	أمير الكوفة ثانية فى عهد معاوية
زياد بن أبيه	أمير البصرة والكوفة فيما بعد
	وزياد بن أبى سفيان





## العودة إلى الفتح

« قد يكون من المعقول أن يعهد بالخلافة الى أكثر المسلمين صلاحا . وقد يكون من المعقول أن تكون وراثية في آل البيت ، أما أن تصبح وراثية في أسرة أشد أعداء النبي فهذا أمر لم يكن محمدا قد تصوره . » قل .

فريمان - تاريخ العرب -

\*\*\*

« كان الموقف يعرض صعوبات عدة ، عند ارتقاء معاوية سدة الخلافة . فلقد أدى مصرع عثمان الى تحطيم تلك الأسرة الدينية التي ربطت الخلفاء الأول الى الناس . وبات لزاما على معاوية أن يجد قاعدة جديدة تقوم عليها الامبراطورية . . وكان الحل الذي وجده هو التحول من الدولة الدينية الاسلامية الى الدولة العلمانية العربية . . ولم يكن معاوية دائم القيادة لقومه ولكنه كان بارعا في ادارتهم عن طريق الائتاع والكفاية الشخصية والمكانة »

الاستاذ بيرنارد لويس - العرب في التاريخ

## العودة الى الفتح

ما كادت الفتن تهدأ ، ويستتب الأمر لمعاوية فى الخلافة ، حتى استأنف العرب حروبهم لتوسيع حدود امبراطوريتهم . وكان معاوية اiban انصرافه الى الحرب الاهلية مع على ، قد عقد هدنة مع القسطنطينية ، وافق فيها على أن يدفع جزية سنوية لامبراطورها مقابل الحصول منه على عدد من الرهائن لضمان احترام الروم للهدنة . فلما استتب له الامر الآن اعاد الرهائن الى الروم واستأنف الحرب معهم .

يقوم سهل أضنه عند السفح الشرقى لجبال طوروس وقد قدر لهذا السهل أن يكون مسرح أحداث وحروب لا تنتهى عدة قرون ، تماما كوضع حدود الهند الشمالية الغربية ، اiban حكم الانجليز للهند . وتمتد الحدود من هذه المنطقة باتجاه الشمال الشرقى الى مرعش ومنها الى ملاطية فأرمينا وجورجيا والقفقاس . وكان المضيق الجبل المعروف منذ أقدم العصور ببوابة كيليكية ينتهى الى سهل طرسوس ولكن سهولة الدفاع عنه جعلت العرب يعزفون عن استخدامه لغزو بيزنطة . وقد نقل الينا الرواة ان معاوية ادراكا منه لهذا الواقع قد استخدم ملاطية كثغر أمامى متقدم للاغارة على أراضي الروم كما نقل الينا الرواة أيضا انه أعاد بناء مرعش وحصنها كل التحصين .

ويبدو أن معاوية أراد تفنيد ما يحيط بسمعته الدينية من شبهات يثيرها أشياع «على» وصحابة المدينة . ولذا فقد قضى العشرين سنة من حكمه أى بين عامى ٦٦١ و ٦٨٠ فى القيام بعمليات حربية لا يكمل منها ولا يمل ضد الروم . ويبدو أيضا أنه أراد التكفير عن الجزية التى دفعها اليهم فى سنوات انشغاله بالقتال مع اخوانه المسلمين . ولم يسترح العرب الى قر الاناضول القارص فى أيام الشتاء . ولذا كانوا يوقتون غزواتهم عادة فى الصيف ليعودوا فينسحبوا فى الخريف ، قبل حلول برد الشتاء القارص . وكان معاوية أيضا اول من فكر ببدل جهود حفظها لنا التاريخ لتنظيم وحدات عسكرية نظامية . ولا ريب فى أن القارىء يذكر أن العرب ظلوا منذ عهد النبى يحاربون على أساس قبلى ، اذ تؤلف كل قبيلة وحدة خاصة بها ، ويكون شيخ هذه القبيلة هو قائد هذه الوحدة . وكانت رواتب الجند تصرف من الغنائم التى تقع فى أيدي الجيوش عند الحملات العسكرية بعد ان يقتطع منها الخمس لارساله الى بيت المال فى المدينة.

• وكان عمر بن الخطاب أول من فكر في تنظيم دفع الرواتب للجنود على أساس ثابت ، ولكن قوائم مستحقيها ظلت تعتمد على الأسس القبلية .

وأدى وجود حدود ثابتة الى حد ما بين الامبراطورية العربية وامبراطورية الروم الى ضرورة وضع أساليب جديدة ومنظمة • وكان تأمين الحاميات للشغور والحصون عملية خطيرة ومتعبة . كما ان القائمين عليها كانوا يتطلبون رواتب أعلى من المعتاد . يضاف الى هذا ان الجنود لم يعودوا من العنصر العربي وحده • وبتنا نسمع الآن عن وحدات من خراسان أو عن نقل الخراسانيين مع أسرهم الى المناطق الجبلية في الشمال الغربي • ولعل هؤلاء الخراسانيين كانوا أكثر قدرة على احتمال الاشتهاء الباردة وأجواء المناطق الجبلية من العرب •

لكن العمليات لم تقتصر على أى حال على الغارات الصيفية الرتيبة . فلقد عقد الخليفة عزمه على مهاجمة القسطنطينية نفسها ، عاصمة امبراطورية الروم • ويذكر القارىء ، ولا شك ان معاوية منذ أصبح اميرا على سوريا فى عام ٦٣٩ أدرك القيمة الهائلة للقوة البحرية • وكان عمر ابن الخطاب بما عرف عنه من حرص وحذر قد رفض الموافقة على انشاء قوة بحرية ، ولكن عثمان أراد ان يقتنع بالاقترح ، وكانت نتيجة تنفيذه استيلاء معاوية على قبرص والانتصار على أسطول الروم في معركتين بحريتين هزم فيهما الاسطول هزيمة ماحقة تبدد شمله على الرهماء . وانتقلت السيادة البحرية فى المتوسط الشرقى الى أيدي العرب • وأبحر أسطول عربى ضخيم فى عام ٦٦٨ أو ٦٧٠ ، اذ أن التواريخ غامضة بالرغم من خطورة الاحداث ؛ يمتد عباب هذا البحر ويدخل مضائق الدردنيل دون معارضة • وهبط العرب الى البر على بعد سبعة أميال من مدينة القسطنطينية ، وزحفوا فورا يهاجمون عاصمة الامبراطورية •

• وكان العرب قد برعوا فى هذه الايام فى حروب الحصار وكانوا مجهزين بالمجانيق والمعدات الأخرى اللازمة لتحطيم الاسوار والابواب وقذف المدن المحاصرة • وقد تعلموا طريقة تشكيل المظلات الواقية بجمع الدروع بعضها الى بعض فوق الرموس لحماية الرجال من القذائف التى يطلقها المدافعون عن الاسوار ، كما تعلموا الابتكارات الأخرى الحديثة لمهاجمة الحصون • وعلى الرغم من اتقانهم لكل هذه الأساليب الا ان هذا الطراز من الحرب لم يكن من النوع الذى يبرزون فيه خصومهم ، ولقد سبق لنا أن رأينا أسوار بيزنطة تصمد أمام شجاعة الهون والمغول • وتمتنع على جيوش كسرى المنظمة وعملياتها الحربية الفعيلة • فلقد كانت

أبراجها وقلاعها شاهقة الارتفاع ، متينة البنيان . كما أن البيزنطيين لم يعودوا يشغلون أنفسهم في عمليات عسكرية في مناطق نائية ونصف معادية وإنما يدافعون عن آخر ما تبقى لهم، عن بلادهم ودينهم ونسائهم وأطفالهم . وظلت صفوف المهاجمين العرب تضرب روعسها يوما بعد آخر في أسوار المدينة العالية تماما كما يضرب الموج الهائج الصخور الشاهقة على ساحل جبلي فيتحطم عليها . ولكن يبدو أن النار الاغريقية المشهورة كانت السلاح الرئيسي الذي أعان المدافعين وأنزل الفزع بالمهاجمين . ولا ريب في أن شبكات المخابرات وأنظمتها لم تكن قد تطورت تطورا كبيرا في تلك الايام بالنسبة الى تطورهما الحال والاما استطاع الروم أن يحتفظوا بسر هذا السلاح الرهيب هذه القرون الطويلة وهو سلاح يتمثل في قاذفة للنار ، ظهرت لنا صور جديدة منها في عصرنا هذا في ميادين القتال .

وعجز العرب عن اقتحام أسوار المدينة العظيمة ، ولكنهم استطاعوا نهب المناطق المحيطة بها على الساحلين الآسيوي والأوربي وأحالتها الى قاع صفصف . فلما حل الخريف تخاوا عن خطتهم لاقتحام الاسوار وانسحبوا عنها الى جزيرة سيزيكوس الصغيرة في بحر مرمرة والتي تقع على بعد ثمانين ميلا من القسطنطينية . وظل العرب يحاصرون عاصمة الروم سبع سنوات متوالية ، ولكن جهودهم كلها ذهبت أدراج الرياح الى أن اضطرهم خسائرهم الفادحة في الرجال والسفن والمعدات الى التخلي عن المحاولة . وقد يكون من الاعجاز حقا أن يبرزنة التي بدت تلفظ أنفاسها الاخيرة في القرن السابع قد استطاعت أن تعمر سبعة قرون أخرى ، وأن تبقى رغم قدمها وشيخوختها الى ما بعد زوال هذه الامبراطورية العربية الجديدة التي كانت تقرر بجيوشها أبواب عاصمتها .

ولقد أغدقت أوروبا منذ عصر النهضة الحديثة اعجابها على الجمهورية الرومانية القديمة . وان كانت لم تنس أن تذكر بشيء من الاعجاب الامبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية فلقد غيرت المقاومة العنيدة التي أبدتها هذه الامبراطورية في آخر خط دفاعي لها في القرن السابع ، سير التاريخ الأوربي وقررت مصيره حتى أيامنا هذه . فلو سقطت القسطنطينية في أيدي العرب في عام ٦٧٠ لاجتاح هؤلاء اليونان وايطاليا وفرنسا ، ولما تمكنت قوة مساوية لقوتهم من الوقوف أمامهم ، ولم يقدر للقسطنطينية أن تسقط في أيدي المسلمين حتى عام ١٤٥٣ . عندما استولى عليها الاتراك العثمانيون وكانت أوروبا قد أفأقت في غضون ذلك من سبأتها في العصور الوسطى المظلمة . وبأنت قادرة على الصمود

صمودا ناجحا امامهم ، وان وصلت جحافلهم الى أبواب فيينا فى أكثر من مرة ، ويبدو أن المسيحية لم تقر بعد اقرارا كافيا بما للبيزنطيين عليها من دين .

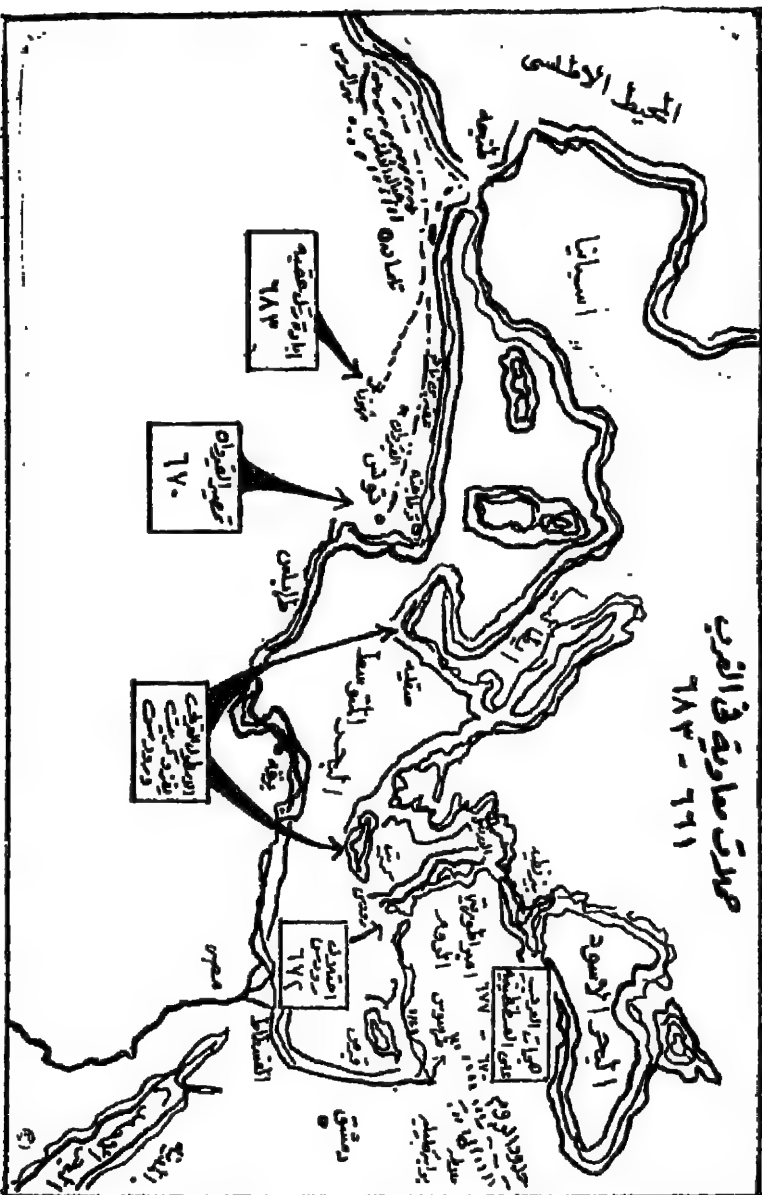
وأدى فشل معاوية فى هجومه العظيم على القسطنطينية الى انعاش المكانة الذاتية لامبراطورية الروم ، الى التخفيف من حدة الرعب الذى كان ينشره اسم العرب فى كل مكان . وقد قدر للحرب الاهلية أن يستعر أولها مرة ثانية بعد وفاة معاوية التى حدثت بعد فترة قصيرة من هذه الوقائع ، وذلك بين البطون المتنافسة من قريش كما قدر لوطاة القوة العربية المقاتلة ، ان تتحول من جديد عن الفتوحات الخارجية الى الصراع بين الاخوة والاشقاء .



لقد جانبنا السياق التاريخي المتزمت فى حديثنا عن العمليات العربية الحربية ضد القسطنطينية فى عهد معاوية . فلقد بدأت خلافة معاوية فى عام ٦٦١ واستمر حصار القسطنطينية من عام ٦٦٨ أو ٦٧٠ حتى عام ٦٧٧ تقريبا ، ثم توفى معاوية فى عام ٦٨٠ ، وأرى أن نعود الآن الى بداية عهده ، لندرس الحملات الفعالة الاخرى التى شنت ابان خلافته التى استطلت عشرين عاما .

واجه معاوية فى بداية حكمه المشكلة التى واجهت أكثر من مرة فى غضون الخمسين عاما المنصرمة واضعى الخطط السوقية البريطانية . وتمثل هذه المشكلة فى الصراع بين أنصار الجبهة الرئيسية وبين أنصار المارك الجانبية . أو الصراع بين خط العمل المباشر واللامباشر . ففي اصول السوقية والتبعية يميل الجندى دائما الى المغامرة بكل شئ فى الهجوم على الموقع الرئيسى للعدو ، لان احتلال هذا الموقع يؤدى الى انتهاء الحرب بضربة واحدة قاضية . ولكن لما كانت الحقيقة تنص على أن خسارة هذا الموقع ستعنى الكارثة بالنسبة الى العدو فان المفروض أن تكون مقاومته عنيفة الى حد اليأس ، يضاف الى هذا أن المهاجم اذا قام بكل شئ فى هجومه على هذا الموقع ، ثم لم يقدر له النجاح فانه قد لا يجد بعد ذلك القوة اللازمة للهجوم ثانية ، اذ أنه يفقد الحافز على هجومه ويضيع الامل بالنصر الى الأبد ، مع دفعه ثمنا باهظا من الخسائر . أما اذا اتبع السبيل الثانى ووضع قوة تغطية امام الموقع الرئيسى للعدو ، ثم حول جهوده الى الأجنحة والى عدة مشاريح فرعية . فانه يستطيع على المدى الطويل أن ينهك طاقة العدو على المقاومة . على أى حال ، لن يؤدى صد

77-78



فى من هذه العمليات الفرعية الى وقف الهجوم . وقد تؤدي هذه الهجمات التى يقصد منها سبر أغوار قوة العدو اذا نجحت الى استغلال ناجح لها . ويمكن الاستفادة من المزية التى تتحقق عن طريق اظهار نقاط الضعف عند العدو لتحطيمه .

وهكذا لو أن الجهود والدروع التى صرفت فى هذه الهجمات الجراف التى شنها العرب على أسوار القسطنطينية قد صرفت فى مكان آخر ، لكانت كافية لاحتلال إيطاليا وأسبانيا وفرنسا أيضا . وصحيح أن العرب قد تمكنوا من احتلال أسبانيا بعد نحو من أربعين عاما الا أن الحماسة الفطرية العربية كانت قد ضعفت فى ذلك الحين ، ولم يعد اسم العرب يرعب العالم ، أما فى عام ٦٦١ فان شهرتهم كانت لاتزال مرعبة ، ولم يكونوا قد هزموا بعد فى أية معركة ، ولو احتل العرب فى ذلك الحين إيطاليا وأسبانيا وفرنسا فان القسطنطينية ماكانت لتستطيع الصمود والبقاء .

\*\*\*

ويذكر القارىء أيضا أن عمرو بن العاص كان قد أوفد عندما احتل مصر أول مرة ابن اخته عقبة بن نافع الى الجنوب للاغارة على بلاد النوبة والسودان حيث لم يحقق الا نجاحا ضئيلا . وعندما ذهب عمرو الى مصر أميرا لها فى عهد معاوية فى يوليو ( تموز ) عام ٦٥٨ أخذ معه اليها عقبة ثانية . وكان هذا فارسا مغوارا وبطلا مقداما . لا يترك وسيلة الا واتبعها بحثا عن مغامرة جديدة تكون أكثر خطورة من سابقتها . وتوفى عمرو فى مصر عام ٦٦٣ ، ولكن عقبة ظل يلحف على السلاط ان تبعث به فى حملة تمكنه كما يقول الاصطلاح العسكرى الحديث من القيام بخدمة عسكرية فعلية ، ويبدو أن معاوية قد وافق أخيرا على تعيين عقبة قائدا للجيش فى شمال افريقيا ، وكان الروم لا يزالون يحتلون قرطاجنة بينما كانت حدود السيطرة العربية الفعلية تنتهى فى برقة ، وتقدم عقبة حتى وصل الى تونس التى تبعد نحو من ألف وخمسمائة ميل عن قاعدة العرب الاساسية فى الفسطاط . وكانت جيوش العرب قد وصلت الى هذه المنطقة فى المرة الماضية ، ولكن افتقارهم الى قاعدة أقرب من الفسطاط فى مصر كان يضطرهم فى كل مرة الى التخلي عن فتوحاتهم (١) . وقد

---

(١) يذكرنا هذا المد والجزر قبل توطيد اقدام الحكم العربى فى شمال افريقيا بصعوبة المواصلات التى عايناهما فيها ابان الحرب العالمية الثانية . فلقد اعتمد الجيش البريطانى كجيش عقبة على قاعدة مصر ، ثم تقدم الى برقة ليضعفه طول المواصلات مما شجع الالان على شن هجومهم المضاد واخراج الالان منها ، وتقدم رومل الى العلمين متخذًا من طرابلس قاعدة له لطالت مواصلاته وهزم لعين السبب ايضا . المؤلف



أدرك عقبة وكان محقا في ادراكه ، أن توطيد أقدام العرب في افريقيا ، لن يتم الا اذا أقيمت قاعدة عسكرية صالحة في المنطقة وفي وسع الارتال والسرائيا أن تخرج من قاعدة كهذه لغرض الاستقرار في المناطق المجاورة كما تكون هذه القاعدة مركزا لحكم اقليمي ثابت الدعائم .

واختار عقبة تحقيقا لهذه الغاية في عام ٦٧٠ منطقة صحراوية تقع الى الجنوب من قرطاجنة ، ورسم فيها مسجدا ومنزلا للأمير الحاكم ، وأقام حولها قاعدة للجيش وهكذا بنيت القيروان القاعدة الجديدة التي قدر لها أن تغدو فيما بعد مدينة عظيمة ومشهورة ، وتقع القاعدة الجديدة على بعد بضعة أميال من الساحل . ولهذا كانت بالنسبة الى العقل العربي أكثر صلاحا من قرطاجنة الواقعة على شواطئ البحر المتوسط والمعرضة دائما للغارات البحرية . وهكذا أصبحت القيروان قاعدة جديدة كالفسطاط والكوفة والبصرة تعتمد عليها الجيوش العربية في السيطرة على المناطق المجاورة .

وكان عقبة رجلا مستقيما فصيح القول محبوبا من رجاله نزيها شريفا، ولكنه كان يفتقر الى الكياسة والدبلوماسية، وكان البربر لا أفراد الحاميات البيزنطية المعزولة هنا وهناك هم المدافعون حقا عن افريقيا ، وكان هؤلاء الناس يظهرون استعدادهم لاعتناق الاسلام في كل مرة يظهر فيها العرب اقوياء . ولكن في كل مرة كان العرب ينسحبون أو يمضون في طريقهم ، يعدل البربر عن اسلامهم ويرتدون . ونحن نذكر أن النبي كان يلين مع المشركين ولكنه يقسو على المرتدين ويعتبرهم جديرين بالموت . وكان عقبة بعقله البسيط الساذج يرى هذا الرأي نفسه بالنسبة الى البربر ويبدي عزمه على عقاب المرتدين بالموت .

ولا تحدثنا السير والتواريخ عن الاسباب التي دعت معاوية الى عزل عقبة بعد انشائه القيروان ، والى اعادة الحاق برقة التي كانت قد غدت امارة قائمة بذاتها في عهده بمصر ، ولا يسعنا الا أن نفترض بأن بعض التقارير غير المرضية ، وصلت الى معاوية عن طريق عقبة في ادارة البلاد، وكان معاوية قد عين مسلمة بن مخلد أميرا لمصر . وقد أرسل هذا مولى له يدعى أبو المهاجر ليتسلم الزمام من عقبة . ومن المحتمل أن يكون عقبة الذي استنير قد رفض تسليم منصبه الى أبي المهاجر ، ومن المحتمل أيضا أن يكون معاوية نفسه هو الذي أصدر أوامره بعزل عقبة . وكل ما نعرفه أن أبا المهاجر ، أودع عقبة السجن عند وصوله ، ولا ريب في أن هذه التحول الفجائي من قائد عام الى سجين في القيود يشبه الى حد ما عمليات

## التطهير الشيوعية في عصرنا الحاضر . (١)

وقد دار الصراع كما قلت سابقا بين ثلاثة عناصر في شمال افريقيا .  
اولها الروم وثانيها البربر وثالثها العرب ، وكان كل منها يؤلف مجموعة  
قائمة بذاتها . ويقال ان اساليب عقبة الاستبدادية في الحكم اثارت البربر  
ودفعتهم الى التحالف مع الروم . فلما جاء أبو المهاجر ، اتبع سياسة  
التقرب اليهم والتحالف معهم ضد الروم ، وقد حقق في سياسته هذه  
نجاحا كبيرا ولاسيما في قضية كسيلة زعيم البربر الكبير . وتمكن  
أبو المهاجر بمساعدة البربر من احتلال القسم الأكبر من المنطقة المحيطة  
بقرطاجنة . دون أن يتمكن من احتلال المدينة نفسها التي استبسل الروم  
في الدفاع عنها . وعندما تأكد القائد العربي من سلامة مواصلاته بفضل  
تحالفه مع البربر راح يتقدم بقواته حتى وصل الى تلمسان القريبة من  
الحدود الحالية بين الجزائر والمغرب .

وهكذا تتضح لنا تمام الوضوح الصورة العامة للعمليات الحربية  
في شمال افريقيا في هذه الآونة . فلقد كان الروم يحتلون عدة نقاط  
على الساحل ويتلقون العون لها من القسطنطينية عن طريق البحر . ولم  
يكن في وسع هؤلاء أن يقاتلوا العرب في معركة مكشوفة الا اذا ضمنوا  
معاونة البربر لهم . وكان في وسع العرب عادة اذا بعثوا بجيش الى  
المنطقة أن ينتصروا على الروم والبربر معا في أية معركة . ولكن مشكلة  
العرب لم تكن في كسب المعارك ، بل في استتباب الأمن في البلاد .  
ويبدو أن عقبة قد فشل في حل هذه المشكلة . والمسافات طويلة للغاية  
في افريقيا بحيث عندما تضى الجيوش العربية قدما في زحفها الى

---

(١) تشبيه في منتهى السخف ، وليس له أى داع ، الا الرغبة الكارثية السائدة  
مئذ كثيرين باتهام الناس بالشيوعية . ولو كانت هناك شيوعية قبل معاوية بن أبى سفيان  
لا تورع المؤلف عن اتهامه بالشيوعية . ولا أدرى من أين جاء المؤلف بقصة « سوء  
ادارة » عقبة فليس في تواريخ العرب ما يدل على ذلك ، بل هناك ما يدل على العكس ،  
فقد روى الواقدى ما نصه : « وكان ابن نافع رجلا صالحا مستجاب الدعوة ، فدعا ربه  
فأذهب ذلك كله . حتى ان السباع لتحمل اولادها هاربة بها » ولا يمكن للرجل الصالح  
أن يتهم بسوء الإدارة ولعل التفسير الصحيح لمرور عقبة هو أن مسلمة بن مخلد ، أمير  
مصر الجديد أراد أن يمين مولاة أبا المهاجر في منصب كبير ، فلم يجد الا اماراة افريقيا  
التابعة له لمرور عقبة عنها وولى أبا المهاجر ، ولعل خير ما يؤيد هذا الاستنتاج عودة  
عقبة الى الشام وحابه لماوية من معاملة أبى المهاجر ، واعتذر معاوية ووعده بإعادته  
الى منصبه ، وهو وعد لم يتحقق لان معاوية توفي بعده بقليل .

( العرب )

الامام ، تتاح الفرصة للبربر للثورة فى مؤخرتها وقطع مواصلاتها ،  
ويبدو أن عقبة اتبع طريق العنف والغارات الثارية لمعالجة هذا الوضع  
بينما جاء خلفه أبو المهاجر فاتبع طريق التفاهم . والبربر شعبت عتيده  
ومازالوا حتى يومنا هذا وعلى الرغم من انقضاء ألف وثلاثمائة عام على  
أيام عقبة ، وأبى المهاجر ، يحتفظون بطابعهم الخاص ولغتهم . (١)

وكان عقبة قد عاد فى غضون ذلك الى دمشق ، وتوفى معاوية عام  
٦٨٠ ليخلفه ولده الطائش يزيد ، وقد أفتنع هذا باعادة عقبة الى اماره  
افريقيا واعاده اليها فى عام ٦٨١ . والثار عند العرب للاساءه أمر  
مستملح . وقد ذاق عقبة حلاوته بوضع الاصفاذ فى يدى أبى المهاجر ،  
وجره منها وراءه حيثما ذهب . وسرعان ما اختفى كسيلة زعيم البربر  
الذى تعاون مع أبى المهاجر ، فى بطن الصحراء بينما اتجه عقبة على رأس  
جيشه انسباقا منه وراء طبيعة المحاربة الى الغرب . فاجتاز منطقة  
الجزائر كلها ، ودخل منطقة المغرب (مراكش) التى كانت تعرف آنذاك  
باسمها الرومانى «موريتانيا» واحتل طنجة ، ولم تكفه فتوحاته هذه بل  
نزل مع الساحل المغربى على الاطلسى حتى وصل الى السوس التى تلتقى  
مع المحيط عند ميناء أغادير الحديث .

ومهما اتصف عقبة بالطرسه والبعد عن الكياسه فى الشئون  
السياسه الا ان مزاياه كجندى محارب تفرض الاحترام ، ويبدو أنه  
زحف مسافه الالف والخمسائة ميل من القيروان الى أغادير ، دون أن  
يجرؤ أحد على مقاومته ، ولا ريب فى أن هذه العمليه التى كانت تفتقر الى  
الموصلات المنظمه والى التموين والى القاعده العسكريه هى أقرب الى الفاره  
البدويه الضخمه منها الى الفتح الاقليمى ، لكن التوغل مسافه الالف

---

(١) يحاول المؤلف هنا جريا على المألوف الاستعماري اظهار الفرقه بين السرب  
والبربر فى المغرب العربى ، وهى فرقه غلداها الاستعمار القرنى طيله وجوده فى افكار  
المغرب الثلاثه ، ان حاول أن يجعل من البربر اقلية مميزه . وعلى الرغم من انصياع  
بعض الزعماء الاقليميين المرتبطين بالاستعمار الفرنسى الى رغبته وتعاونهم معه . كما  
تعاون الزعماء الاقطاعيون وممثلوا الرجعيه فى المشرق العربى مع زميله الاستعمار  
البريطانى الا أن جماهير البربر فى افريقيا كانت شديده الضراوه فى مقاومه الاستعمار  
كأخوانهم الاخرين يضاف الى هذا أن التاريخ اثبت أن البربر هم من العرب . وقد  
جاءوا من قبائل عربيه هاجرت الى الشمال الأفريقى قبل الاسلام بقرون طوال ، ولعل  
حللتهم من العرب هذه القرون قبل الفتح الاسلامى هى التى اوجدت الفروق اللغويه  
التي يشير اليها المؤلف -

( العرب )

وخمسمائة ميل في أرض مجهولة معادية لم يكن بالعمل المقتدر الى الشجاعة ، والاحتمال . وتقول الروايات ان عقبة ركب حصانه عندما وصل الى ساحل الاطلسي ومضى يخوض الماء ويقول وسيقه مشرع في يده «يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك » .

ويبدو ان النصر العظيم الذي حققه هذا القائد بمغامرته الجريئة ، قد جعلت منه انسانا مغرقا في الثقة بنفسه ، فقد شرع الآن في العودة الى الشرق ، وقد تولد لديه الانطباع بأنه قضى على كل مقاومة ، ولذا فقد جزأ جيشه الى عدة اوتال أخذت تدرع الارض نهبا وسلبا ، وغايتها فرض النظام على البلاد ، وهي مهمة كان من الواجب عليه أن يقوم بها قبل التوغل مثل هذه المسافة البعيدة . ويحتمل أن يكون افتقاره الى العطف على البربر قد جعل من المتعذر عليه الحصول على أية معلومات عن حركات البربر او أن يكون اعتداده المغالى بنفسه قد حمله على اهمال هذه الناحية .

ويكفي أن نقول ان البربر نصبوا للقوة الصغيرة التي كان يقودها بنفسه كميناً عند تهودا القريبة من مدينة بسكرة الحالية ، وذلك بقيادة كسيلة زعيم البربر ، وظل عقبة ورجاله يحاربون حتى قتلوا عن بكرة أبيهم ، وبينهم أيضاً أبو المهاجر المسكين ، الذي قتل وهو في أصفاده ؛ وقد حدثت هذه النكسة المفجعة في عام ٦٨٣ (١) .

وما كادت أنباء الكارثة تذايع ، حتى نشبت ثورة عامة اشترك فيها البربر في كل مكان واضطر العرب الى الجلاء عن جميع المناطق التي

---

(١) يتجاهل المؤلف هنا قصة تشير الى اخلاص العرب لقضيتهم وایمانهم بها برغم كل شيء فلقد ذكر المؤرخون العرب ان عقبة وصل الى تهودا على رأس ثغر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه . فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدموهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه . وكان في الجيش كبير في البربر اسمه كسيلة ، كان قد أسلم في أيام أبا المهاجر . فلما جاء عقبة ، وأساء الى أبي المهاجر ، استخف بكسيلة هذا وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر ( برغم ما لحقه من سوء ) أدلق الرجل فاني أخافه عليك منه ، فتهاون به عقبة . فلما رأى الروم قلة من مع عقبة ، راسلوا كسيلة في أن ينضم اليهم ، فقبل وجمع أهله وبنى معه . وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر ، حاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ، ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوه جميعا ، وكان في القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة لعقبة . فأراد القتال فلم يطمه الجيش . فاضطر الى مبارحة القيروان والسر الى برقة والمقام بها . أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الإنفال والدراري من المسلمين واستولى على افريقية .

( العرب )

فتحها عقبة وبينها القيروان أيضا • وعادت برقة الحد الفاصل للسيطرة العربية في افريقيا ، ولكن عقبة جعل من فتح العرب لافريقيا شيئا محتوما ، اذ أن التاريخ أقام الدليل المرة تلو المرة ، على أن مثل هذه النكسات لا تؤثر على قوة عسكرية مازالت في دور النمو والحيوية • فالتصميم على استعادة الهيبة التي تفقد في النكسات ، يجعل من إعادة الاحتلال أمرا حتميا •

### \*\*\*

سبق لي أن ذكرت أن الاسطول العربي في عهد معاوية ، أغار أكثر من مرة على جزيرة صقلية ، وتقول رواية غريبة أن المغيرين حملوا معهم ذات مرة • «أصناما» من الذهب والفضة مرسعة بالآلآء • ولعل من المهم أن نشير الى ماطراً على العقلية العربية من تغيير بأن نقول أن الخليفة بدلا من أن يحطم هذه الأوثان بعث بها الى الهند حيث ظن أن بيعها هناك قد يأتي له بثمن أفضل من أى مكان آخر •

واستولى أسطول عربي في عام ٦٧٢ على جزيرة رودوس وأمر الخليفة بإقامة جالية عربية في الجزيرة ، التي استعملها العرب قاعدة أمامية للهجوم على القسطنطينية ، وكذلك قاعدة تهاجم منها المراكب العربية تجارة الروم في البحار ، وظلت الجزيرة في أيدي العرب ثمانى سنوات ثم عادوا فتحلوا عنها بعد وفاة معاوية ، وشن العرب كذلك غارة على جزيرة كريت ، ولاريب في أنها كانت جزءا من العمليات الحربية ضد الروم •

وعلى الرغم من اتساع العمليات التي جرت في عهد معاوية في الغرب ، ومن عمق أهدافها إلا أن معظم مآحقته من تقدم كان موقوتا اذ ضاعت معظم المكاسب عند وفاته • ولاريب في أن هذه النكسات انما نجمت عن اتساع الميادين وعن فشل الحملة على القسطنطينية • ولو استخدمت القوة التي استنزقت في القسطنطينية في مكان آخر بعناية وحرص ، لكان في إمكان العرب أن يثبتوا أقدامهم في شمال افريقيا ، وكذلك كما سبق لي أن ذكرت في ايطاليا واسبانيا • ومع ذلك كان العرب البدائيون قد تمكنوا قبل عشرين عاما وفي خلافة عمر بن الخطاب من تحطيم امبراطوريتي الروم والفرس في ان واحد • وهكذا فإن التقدم على جميع الجبهات أصبح شيئا مألوا لديهم ، ولم يعد العرب في أيام معاوية قطعانا من البدو الألفاظ بل أصبحوا يحكمون امبراطورية ذات

حضارة ، لكن الحماس الطاغى الذى شهدته سنوات الفتح الاولى لم يعد يقودهم اما الى النصر أو الى الجنة .

وهناك سبب آخر أدى الى عدم الافادة من عمليات معاوية الحربية فى الغرب . فلقد أسفرت الغارات الكثر التى شنت فى عهده فى البر والبحر الى اضعاف كل مقاومة . فهما حدث من نكسات فى افريقيا ، فقد كان فى مكنة العرب أن يبعثوا بقوات جديدة وأن يستعيدوا كل مايفقدونه من أراض . ولو عاش معاوية أطول مما عاش لاحتفظ العرب برودس ولاحتلوا صقلية احتلالا نهائيا . ولكن قدر للعرب أن يعودوا الى التفرق بعد وفاته وإلى محاربة بعضهم بعضا فى حرب أهلية دامت اثني عشر عاما ، توقف ابانها كل توسع نحو الغرب ، وهكذا ضاعت ثمرة عمليات معاوية الحربية قبل أن يستأنف الهجوم فى عام ٦٩٠ .



واذا كانت عمليات معاوية الواسعة فى الغرب قد انتهت الى نتائج غير ملموسة فان هذا لا يصدق بالنسبة الى عملياته فى الشرق . فلقد كان له فى العراق قائدان عظيمان أولهما المغيرة بن شعبة ، القائد الخشن المتميز بالحيوية والشخصية القوية ، ولم يكتف كأمير للكوفة فى عهد معاوية بفرض الامن والاستقرار فى ذلك المجتمع الكثير الفوارق بل دفع جيوشه الى فتوحات جديدة فى شمال فارس . أما القائد الثانى فزياد بن أبيه الذى أصبح يدعى الآن زياد بن أبى سفيان ، وهو الامير الذى اختاره معاوية للبصرة والذى امتاز بالذكاء الذى يفوق ذكاء المغيرة ، وقد تولى زياد قيادة الجيوش العربية فى جنوب فارس ، وتعاون القائدان تعاونا وثيقا ورائعا ، ومات المغيرة عام ٦٧٠ ، وكان معاوية قد قضى نصف الوقت المقدر له خليفة على المسلمين ، وعندما اختار الخليفة زيادا لامارة الكوفة بالاضافة الى البصرة ، نقل هذا مقر قيادته اليها وأصبح مسئولا عن جميع العمليات فى فارس كلها .

وكان العرب قد وصلوا الى كرش ( هندكوش ) أيام خلافة عثمان . ولكن حكمهم فى تلك المنطقة التى أسماها العرب سجستان لم يستقر مطلقا ولكنهم عادوا الى التقدم شرقا فى عهد معاوية فوصلوا الى كابل التى حاصروها ، وتمكن العرب عن طريق مجساتيقهم من فتح ثغرة فى الاسوار ، اندفعوا منها يشنون هجوما على المدينة لاقتحامها ولكنهم فشلوا فى تحقيق غايتهم . وعندما طلع صباح اليوم التالى تشجع حماة المدينة بدحرهم للهجوم العربى فى اليوم السابق ، ففتحوا اخذ الابواب

وخرجوا منه يشنون هجوما مضادا على العرب يتقدمهم أحد الفيلة الذي أصابه فارس عربي بجراح . وقد فشل الهجوم المضاد واضطر حماة المدينة الى الانسحاب ، ولكن الفيل الجريح سقط فى بوابة المدينة مما أدى الى تعذر اغلاقها والى اقتحام العرب للمدينة فوق جثة الفيل ، وقد ثارت كابل مرتين فى عهد معاوية ، ولكن الثورة كانت تخمد فى كل مرة ، ويعود العرب الى تثبيت أقدامهم فيها ، وقد أقامت جاليات عربية فى أنحاء متفرقة من خراسان وسجستان ، كما جند الخراسانيون كمتطوعين للدفاع عن المضائق الجبلية فى جبال طوروس ضد الروم .

ومات زياد بن أبيه عام ٦٧٣ واختار معاوية ولده البالغ الخامسة والعشرين من سنه ، عبيد الله بن زياد أميرا على خراسان . وعبر عبد الله نهر سيحون فى عام ٦٧٤ على رأس قوة قوامها أربعة وعشرون ألفا ، حاصر بها مدينة بخارى التى كانت تحكمها خاتون زوجة خاقان الترك الكبير ، واضطرت خاتون الى مصالحة عبيد الله مقابل دفع الجزية ، ونقل عبيد الله فى عام ٦٧٦ أميرا على البصرة ، وخلفه فى اماره خراسان سعيد ابن عثمان بن عفان . ونقضت بخارى العهد وثار على العرب . ولكن سعيدا عاد فقطع نهر سيحون من جديد على رأس جيش أعاد احتلال المدينة لينتقل منها الى سمرقند ، ودارت معركة عنيفة خسر فيها سعيد إحدى عينيه ، ولكنه تمكن من اخضاع المدينة وفرض الجزية عليها .

وتخلص حكم العرب وراء النهر ابان فترة الحروب الاهلية التى تلت وفاة معاوية تماما كما حدث فى الغرب . ولكن العرب عادوا الى التوسع من جديد بعد انتهاء هذه الحروب ، وهكذا انتشر الاسلام الى تركستان واوزبكستان اللتين تؤلفان الآن جمهوريتين من جمهوريات الاتحاد السوفياتى ، وقد أثمرت هذه الفتوحات وجود نحو من عشرين مليوناً من المسلمين فى روسيا السوفياتية .

ووصل العرب فى الجنوب الى منطقة تقع حول البنة ولاهور (بانو ولاهور) وهى فى منتصف الطريق بين كابل وملتان (مولتان) واحتلوا فى الوقت نفسه قندهار ، وكانت سرية استطلاع عربية قد وصلت فى أيام خلافة عثمان بعد عبورها مكران الى حدود الهند ، ويبدو أن قائد السرية قد حمل صورة سيئة عن تلك البلاد اذ وصفها للخليفة عثمان الذى سأل عن أحوالها بقوله : «ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل . ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثر جاعوا » وأدى هذا الوصف الى تحريم عثمان على الجيوش العربية أى تقسم عبر صحراء مكران





التي يسميها العرب بلاد القيقان ، وعندما جاء معاوية ألغى ذلك الامر فوصلت جيوش العرب في امارة زياد بن أبيه الى السند والى دلتا النهر فيها . لكن فتح السند لم يكن قد كمل عندما توفي معاوية ، وقد قدر للحروب الاهلية العربية أن تضع نهاية لى توسع لعدة سنوات قادمة .

ويتبين من هذا ان السنوات العشرين التي قضاها معاوية خليفة المسلمين امتازت بالنشاط الحربى الواسع ، وكانت هذه الفترة أيضا مرحلة انتقالية ، ففي خلافتى أبى بكر وعمر لم يكن هنساك تخطيط عسكرى من مقر القيادة العليا فى المدينة . وصحيح ان الخليفة كان يوافق على كل زحف أو حركة الى الامام ، ولكنه لم يكن يرسم خطة هذه الحركة ، وكانت الجيوش وحدها أو القبائل فى كل منطقة من المناطق هى التى تضح مطالبة بالاندفاع والزحف . ولكن كثيرا ما كان الخليفة يرفض الموافقة على تقدم جديد يلحف بطلبه القادة المحليون ، يضاف الى هذا أن الخليفتين الأولين لم يكونا مرغبين مطلقا على تأمين المال أو السلاح اللازمين للحرب ، بل كانا يطلبان من الجيوش المحاربة أن تبعث لهما بالمال ، وكانت كل حملة من الحملات تؤمن من الغنائم مايكفى لاعداد الحملة المقبلة بالاضافة الى مبلغ محترم يرسل الى المدينة .

ولكن عندما جاء معاوية الى الحكم كان قد انقضى على وفاة النبى نحو ثلاثين عاما ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة من الصحابة الا نفر قليل طعن فى السن . وكان حماس الايام الاولى العنيف والعاطفى قد أخذ يسير فى طريق الذبول ، وأدى مصرع عثمان وماتبعه من حرب أهلية بين على ومعاوية الى الكثير من خيبة الامل . يضاف الى هذا ان جمع المال والرقيق والجوارى أدى الى انحلال فى الاخلاق وضعف فى النشاط والحيوية . وقد ترهل فرسان العرب الفارعو الاعواد والصلبو الشكيمة ، وأصبحت لمعظمهم كروش كبيرة ، وأضحى معاوية فى أخريات أيامه مترهلا بحيث وجد نفسه مضطرا الى الجلوس على المنبر عندما كان يخطب الناس .

ولقد كان وقع الفتوحات العظيمة هائلا الى الحد الذى دفع الفاتحين الى اجتياح كل ما أمامهم دون مقاومة ، ودون تنظيم أو رواتب أو خطط أو حتى أوامر . . ولاريب فى ان هذه الفتوحات تعتبر نذيرا للشعوب المتقدمة تقنيا فى عصرنا هذا والتي تعتمد فى الدفاع عن أنفسها على التقدم العلمى بدلا من المعنوية الانسانية ، أما وقد أقيمت الامبراطورية العظيمة ، فقد أصبحت فى حاجة ماسة الى التنظيم . ولم يكن عدد العرب

الأقحاح القادمين من الجزيرة العربية كافيا لاجتياح العالم ، وأصبح من الضروري تجنيد غير العرب ، كابناء خراسان مثلا للقتال في الغرب ، وتحتم استخدام نصارى الشام واقباط مصر في الأعمال الحكومية ، ونقل الهنود مع جواميسهم من السند الى دلتا الفرات ودجله . ونقل الفرس من مقاطعة فارس الى انطاكية ، ولم يكن في وسع امبراطورية متعددة الأجناس يدين رعاياها بديانات مختلفة أن تؤلف شعبا واحدا منسجما ومخلصا له معنوياته القوية كالشعب الذي اندفع من الجزيرة العربية قبل نحو من ربيع قرن .

وهنا أخذ معاوية على عاتقه مهمة تنظيم هذه الامبراطورية . ونحن نسمع في عهده لأول مرة عن وجود قوات للشرطة في الكوفة والبصرة ، مما يشير عادة الى وجود ادارة متحضرة ، وأصبح القضاء ومديرو الخزانة وقادة الشرطة يعينون الآن في الامصار تماما كما يعين الامراء ، ودشن معاوية في عهده أول خدمة للبريد . كما حاول تنظيم الشؤون المالية . وان لقي في هذا الامر صعوبة فائقة من جراء الحقيقة الواقعة وهي ان موظفي الخزانة في مصر كانوا يكتبون حساباتهم بالقبطية ، وفي سوريا بالاغريقية وفي المناطق الفارسية القديمة بالفارسية ، وغدت مشكلة اللغة فعلا مشكلة ملحة . ولعل من أهم الأسباب التي أدت الى نجاح زياد ابن أبيه في عمله كأمير للعراق تحمله عناء تعلم الفارسية . فلقد أصبح لزاما على العرب اذا أرادوا الاحتفاظ بالسيطرة المطلقة على شئون امبراطوريتهم العظيمة أن يتعلموا . لكن يبدو ظلوا ينظرون الى التعليم على أنه شيء مخنت للنساء لا للرجال ، فمثلهم العليا في الرجولة تتجسد في الضرب بالسيف والرمح ، وفي الجود ، واکرام الضيوف وإغاثة المحتاجين ، وكانوا يرددون دائما وهم على حق ، ان مزاياهم هذه هي التي فتحت هذه البلاد الشاسعة التي تؤلف الامبراطورية .

ولكن بينما كان الخليفة يواجه جميع هذه المشاكل كان عامة العرب يرفضون الاعتراف بان الاحتفاظ بالحماسة العنيفة التي حققت الفتوحات العظيمة بات متعذرا . وهكذا نرى عقبة بن نافع يندفع مسسافة ألف وخمسمائة ميل مجتاحا الشمال الافريقي كله ليصل الى ساحل المحيط ، فيندفع فيه بفرسه . وكان هذا القائد يرى متجاهلا أصول الدبلوماسية أو قواعد التنظيم أو الادارة والشؤون المالية ، ان مهمة العربي اعلاء كلمة الله ونشرها في عالم مشرك ، بقوة السيف ، أو سلطة الرمح ، مستخدما في مهمته هذه الجمال أو الخيل ، وظلت موجة المد الخارجى مندفعة عبر

نهر سيحون الى سهوب آسيا الوسطى وعبر المعرات الجبلية فى سلاسل هندوكوش الى الهند حاملة معها هتاف «الله أكبر» دون أن تدرك أن الزمن قد تغير ، وأن الحفاظ على الفتوحات التى تحققت يتطلب التنظيم والادارة والجهازين القضائى والمالى ، وقد أدى الافتقار الى مثل هذا الانساس التنظيمى الى ضياع هذه الفتوحات المرة تلو المرة ، دون أن تتوطد اقدام العرب فيها الا بعد أن تم لهم بناء الجهاز الحكومى الفعال .

وكان عهد معاوية فترة انتقال من ناحية أخرى أيضا ، ولعل القارىء يذكر أن الهدف الذى وضعه عمر بن الخطاب نصب عينه ، اقامة عنصر عربى متفوق متخصص فى الحكم والحرب يعيش منعزلا فى القواعد العسكرية الكبيرة التى أقيمت له فى مختلف الامصار بعيدا عن الاختلاط بالشعوب المحلية . وكان دور الشعوب المحتلة فى هذه الامبراطورية العربية العمل وتأمين الدخل اللازم لنفقة الحكومة ونفقات الجيوش العربية . وقد حظر عمر على العرب امتلاك الارض رغبة منه فى الحفاظ على هذا النظام (١) .

وعندما جاء معاوية الى الحكم فى عام ٦٦٠ ، اخذ النظام الذى وضعه عمر يسير فى طريق الزوال شيئا فشيئا ، فلقد شرع العرب فى تملك الاراضى الواسعة فى منطقة البصرة أو فى مناطق فارس . ولقد سبق لى أن أشرت الى أن عمرو بن العاص كان يملك مزرعة فى منطقة بئر السبع . ومن المحتمل أن يكون عدد العرب الذين استوطنوا مصر أقل منهم فى

---

(١) رسم المؤلف هنا صورة مضللة كل التزييل للحكم العربى فى عهد الخلفاء الراشدين اذ صور هذا الحكم تصويرا نازيا يمثل « النظام الجديد » الذى اختاره هتلر لأوربا فالعرب شعب سيد ومتفوق وواجب الشعوب المحتلة العمل لتأمين الغذاء والمال للشعب السيد وحكومته . حقا انها صورة مضللة كل التزييل ف عمر بن الخطاب سار فى حكمه كما يعترف المؤلف نفسه على هدى القرآن الكريم ، وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان متمسكا اشد التمسك بأحكامهما . والدين الإسلامى يقول صراحة ، ودون اية مواربة : « أن لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » ومن هنا يقدم ادعاء التفوق العنصرى ، وانما هناك تفوق فى التقوى والصلاح والتدين : وكان فى مكتة غير المسلمين من أبناء سورية أو العراق أو مصر أو فارس من غير العرب طبعاً أن يخلصوا من الجزية اذا اعتنقوا الإسلام وبذلك لا يبقى هناك تمييز للعرب عليهم . يضاف الى ذلك أن الجزية لم تكن تفرض على غير العرب بل على غير المسلمين . ومن هنا يتبين انها فرضت على القبائل العربية التى تدين بالنصرانية فى سورية والعراق كبنى تميم والخمين والفساسنة ، وعلى هذا تكون الصورة التى رسمها المؤلف مضللة كل التزييل .

( العرب )

أى مكان آخر ، نظرا لأن ما امتازت به منطقة الدلتا من رطوبة لا يتفق مع أحوالهم الصحية لكن عدد الاقباط الذين تحولوا الى الاسلام أخذ في التزايد ، مع مضي السنين ، وكان هؤلاء يصبحون بعد اسلامهم مساوين للعرب فاخذوا يحاوان ، تحقيقا لمطامحهم الاجتماعية ، أن يفدوا عربا في كل شيء ، الى أن أصبح اسم الاقباط لا يطلق الا على المسيحيين . ومن هنا يصح القول بأن فكرة العرب كعنصر حاكم فاتح أخذت تضعف في جميع أرجاء الامبراطورية شيئا فشيئا ، ولا سيما في الامبراطورية المختلفة الاجناس التى حكمها الخلفاء والسلاطين (١)



وعلى الرغم من الخدمات العظيمة التى حققها معاوية للعرب فانه فشل فشلا ذريعا فى اختيار خليفة صالح لهم يقبلونه جميعا . وكانت مسألة الخلافة من المشاكل المعقدة للغاية التى واجهت الاسلام منذ البداية ، وكان المبدأ الوحيد الذى أقرببه العرب الى حد ما فى البداية هو أن يختار الخليفة بإجماع أهل المدينة . لكن عاصمة الامبراطورية انتقلت الآن من المدينة الى دمشق ، وتحولت الاولى الى مجرد بلدة اقليمية ، وهكذا لم تعد السابقة الوحيدة المعروفة والمقبولة سهلة التطبيق .

وإذا كان ثمة من نظام معروف عند العرب ، فهو أن يختار الحاكم من أكثر اعضاء الاسرة الحاكمة كفاية ، فقد كانت هذه هى الطريقة المتبعة فى اختيار رأس القبيلة ، ولكنها كانت تؤدى أيضا وفى أحيان كثيرة الى خصومات وصدامات مسلحة ، يضاف الى هذا أن الصراع الدامى بين بنى هاشم وبنى أمية كان لا يزال فى أوجه ، بحيث أن أية محاولة لاختيار خليفة من قريش كلها كانت ستؤدى حتما الى حرب أهلية . وكان من الواضح أن اتباع الاسلوب العصرى فى انتخاب على مستوى الامة كلها مستحيل فى مجتمع تسوده الامية ويتفرق ابنؤه على مثل هذه المنطقة الواسعة . على أية حال ، اعتقد أن الانتخابات العامة لا تصلح للعرب حتى اليوم لأنهم انفراديو الشخصية لا يخضعون طوعية حتى لقرارات الاكثرية فالديمقراطية الغربية لا تصلح مطلقا كشكل من اشكال الحكم

---

(١) رسم المؤلف صورة مضللة هنا ، اذ اراد أن يظهر أن كل من اعتنق الاسلام كان بدافع الانتهاز والتقرب من الحاكمين والتساوى بهم وهو قول خطأ كل الخطأ اذ لو صح دافع الانتهاز ، لانتقل المسلمون على دينهم في البلاد التى خضعت لغير الاسلام ، أو لتحول جميع الاقباط الى مسلمين طيلة ثلاثة عشر قرنا من الحكم الاسلامى .  
( العرب )

لشعب يصبر على التمتع بحريته الشخصية بل تصالح للشعب المستعد للتضحية بجزء من حريته لمصلحة المجموع والنظام .

يضاف الى كل هذه التعقيدات ، أن معاوية كان يخشى ولا شك من أن يؤدي اختيار هاشمي للخلافة بعده ، الى أن يستهل هذا الهاشمي حكمه بإزالة كل مرشح محتمل من الامويين من الوجود . ولهذا رأى معاوية أن الاختيار يجب أن يظل محصورا في بنى أمية ، بشرط أن يظهر اختياره بأنه اختار أفضل مرشح من قريش ولكنه اختار بدلا من ذلك ولده يزيد المعروف بالطيش والتفكر للدين .

وكان لهذا الاختيار سيئات عدة من وجهة النظر العربية . وأول هذه السيئات أن هذا الاختيار ، وعدهم بحاكم عاجز ، إذ أن شخصية يزيد كانت معروفة لهم جميعا ، وثانية هذه السيئات أن اختيار يزيد يهدد العرب بإقامة نظام الملكية الوراثية وهو نظام يتناقض مع الروح العربية القديمة ومع الاحاسيس الدينية الاسلامية . وكان لعوامل الغيرة الجغرافية أثرها أيضا . فلقد نعت المدينة على الحكم بسبب نقل العاصمة الى دمشق . وكان فيها المرشحون الصالحون الذين يستطيعون إقامة مركز الخلافة في مدينة الرسول ثانية . وكان على في عهده القصير قد جعل من الكوفة عاصمة له وكانت هذه المدينة المتقلبة الجياشة بالفتن لا تزال تحلم بأن تصبح عاصمة الامبراطورية . وأخيرا كان المسلمون الصادقون الواعون لا يزالون يعتبرون الخليفة أمير المؤمنين والخليفة المقدس لرسول الله ، ولذا كانوا يطلبون منه أن يكون متفوقا على جميع المسلمين في دينه وتقواه ، وبدلا لهم اختيار شاب متلاف فاسق كيزيد ، نشأ في أحضان الترف وفي ربوع دمشق اللاهية شيئا يقرب من الكفر .

وكان معاوية مدركا كل الادراك للعقبات التي تقف في طريق ولده لتولى الخلافة ، فعزم على التغلب عليها بأقصى ما يستطيع من جهد ، وراح يتشاور سرا مع عماله في الامصار والاقاليم . ويحاول بما تسميه اليوم بوسائل الدعاية والاعلام تحسين سمعة يزيد عند عامة الناس ، وتحقيقا لهذه الغاية أوفده الى الجيش الذي يحاصر القسطنطينية رغبة منه في أن ينال فضل الاشتراك في الجهاد . وقدم معاوية في بعض الحالات رشواي نقدية لتخفيف حدة المعارضة لولاية يزيد ، وأخيرا صدرت التعليمات الى أمراء الامصار في عام ٦٧٦ بأن يؤلفوا وفودا كل في منطقته تصل الى دمشق لتطلب في الظاهر من الخليفة اختيار ولده وليا لعهد ، وعندما وصلت الوفود الى العاصمة ، وافق معاوية على تلبية طلبهم وأعلن ولده يزيد وليا لعهد .

وسرعان ما تبين أن المدينة ستكون أكثر مدن الامبراطورية معارضة -  
 لخلافة يزيد . فقرر معاوية تبعا لذلك أن يمضى بنفسه اليها ليضمن عن  
 طريق شخصيته ومكانته تحقيق النجاح في اختيار ولده لولاية العهد .  
 ووصل أخيرا الى المدينة تحيط به ثلة من الحرس تضم ألف فارس ،  
 وسرعان ما وجد أن قادة المعارضة أنفسهم يطعمون جميعا في الخلافة .  
 وكان الحسين بن علي أول هؤلاء ، إذ أن أخاه الحسن كان قد انتقل  
 الى رحمة الله . وكان هناك أيضا عبد الله بن الزبير الذي استشهد ابوه  
 في معركة الجمل بعد أن كان ينافس عليا على الخلافة وكان هنالك أيضا  
 عبد الرحمن النجل الأكبر الباقي على قيد الحياة لأبي بكر ، وكذلك  
 عبد الله بن عمر بن الخطاب . وماكاد معاوية يصل الى المدينة حتى كان  
 هؤلاء المعارضون جميعا يغادرونها الى مكة ، أما من تبقى من أهل المدينة  
 فيها فقد بايعوا يزيد .

وتلدرع معاوية برغبته في أداء العمرة فسافر الى مكة حيث حاول  
 أن يقنع الناس هناك بالوافقة علىبيعة يزيد . وعند ما اتصل بعبد الله  
 ابن عمر بن الخطاب ، رد هذا بأنه كان ثمة خلفاء قبل معاوية ، وكان  
 لكل منهم أبناء . لا يقلون فضلا عن أبناء معاوية ولكن آباءهم لم يختاروهم  
 لخلافتهم . وكان رد عبد الرحمن بن أبي بكر أكثر عنفا وشدة ، إذ  
 أعلن بصراحة معارضته لبيعة يزيد وذلك لأن اختيار الخليفة قضية تتطلب  
 أقرار عامة المسلمين . وكان عبد الله بن الزبير أشد عنفا في رفضه البيعة  
 ليزيد . واضطر الخليفة أخيرا الى العودة الى دمشق دون أن يأخذ  
 البيعة ليزيد من منافسيه . (١)

---

(١) اختصر المؤلف أشد الاختصار قصة بيعة يزيد وقد دفعه اختصاره هذا على  
 الغالب الى مخالفة الروايات الصحيحة . وأرى أن أسرد هنا الرواية مختصرة كما وردت  
 في التواريخ الاسلامية :

كان الفخري بن شعبة أول من اقترح بيعة يزيد ، إذ دخل على يزيد فقال : « لقد ذهب  
 ايمان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو اسنانهم وانما بقي  
 ابنائهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة . ولا أدري ما يمنع أمير  
 المؤمنين أن يقد لك البيعة ؟ قال يزيد : أو ترى ذلك يتم ؟ قال نعم . فأخبر يزيد آباءه  
 بما قال الفخري فاحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال : قد رأيت ما كان من سفك  
 الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف ، فاعتد له فإن حدث بك حادث كان  
 كهذا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . قال ومن لي بذلك ؟ قال أنصيك  
 أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصيرين أحد يخالفك . قال :  
 فأرجع الى عمك وتحدث مع من تثق به في ذلك وترى وترى .  
 وجاء ولد الكوفة الى دمشق أول من جاء ودين الولد لمعاوية بيعة يزيد فقال :

توفي معاوية عام ٦٨٠ ، وكان قد احتفظ لمدة تزيد على الخمسين

لا تجعلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجوا وتوى عزم معاوية على البيعة ليزيد وارسل الى زياد أمير البصرة ليستشيره ، فأشار عليه هذا بالتؤدة وعدم العجلة ، فقبل منه معاوية فلما مات زياد ، عزم معاوية على البيعة ليزيد ، فكتب الى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له : اني كبرت سنن ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الامة من بعدى وقد رايت ان اتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت ان انقطع أمرا دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك ، فقسام مروان في الناس فآخبرهم ، فقالوا : أصاب ووفق ، وقد أجبنا أن يتخير لنا فلا يالو ، فكتب مروان الى معاوية بذلك فأعاد اليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان ليهم فقال : ان أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يال ، وقد استخلف ابنه يزيد فقام عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقال : ما الخيال أردت لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل ، قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير فكتب مروان الى معاوية بذلك .

وتمكن معاوية من ضمان البيعة لولده من اهل العراق والشام ثم سار الى الحجاز في ألف فارس ، فلما دخل المدينة خطب الناس . فذكر يزيد فمدحه وقال : من أحق منه بالخلافة في فضله ومثله وموضعه وما أظن قوما بمتتهن حتى تصيبهم بوائق تجتأ اصولهم وقد انلوت ان اغنت النادر .

وكان المعارضون قد تحركوا المدينة الى مكة لخرج معاوية وقضي بها نسكه ثم جمعهم وكالوا قد اتفقوا على ان يكون الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية : قد علمتم سريتي فيكم وصلتى لأرحامكم وحملى ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت ان تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تمزلون وتأمرون وتحيون المال وتضمنونه لا يماوشكم في شيء من ذلك فقال ابن الزبير : نخيرك بين ثلاث خصال . قال أمرضها قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر ، قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر قال عبد الله وانه عهد الى رجل من قاصية قریش ليس من بنى أبيه فاستخلفه وان شئت قاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه قال معاوية : هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال : فاني أجببت ان اتقدم اليكم انه قد اعد من انذر ، اني كنت اخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رموس الناس فاحمل ذلك فاصفح قائي قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع اليه كلمة حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يقين رجل الا على نفسه ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرته فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق او تكذيب فليضرباه بسيطيهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبت بأمر دونهم ولا يتقضي الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبأيوا ليزيد فأيوا على اسم الله قبائع الناس وكانوا يتريصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب وراحته وانصرف الى المدينة ثم الى الشام وبروى ان ابن عمر قال لمعاوية أبابك على أن ادخل فيما تجتمع عليه الامة فوالله لو اجتمعت على جيش لدخلت معها .

( العرب )

عاما ببعض شعرات النبي وقلامة اظافره ، وعندما شعر بدنو اجله اوصى بأن تجعل في فمه وعينييه وأن يلبس عباءة كان رسول الله قد أعطاه اياها ثم قال : افعلوا ذلك وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين .



وهكذا انتهى عصر الفتوحات العربية العظيمة ، ففي أقل من خمسين عاما تمكن بدو الجزيرة العربية من أن يقيموا اعظم امبراطورية عرفها العالم آن ذاك ومن أعظم الامبراطوريات التي عرفها التاريخ . ولم تسبق لاية امبراطورية بمثل هذه الضخامة ، وذاك الاتساع ان أقيمت في مثل الوقت القصير باستثناء امبراطورية الاسكندر الكبير التي ما لبثت أن تملقت عند موته ، أما الامبراطورية العربية فقد قدر لها أن تعمّر وهي كاملة زهاء قرنين ونصف القرن وأن تطول مدة تقلصها زهاء سبعة قرون .

ولعل من الطريف أن نعقد مقارنة بينها وبين امبراطورية الاسكندر التي كانت تشغل تقريبا البلاد التي شغلتها امبراطورية العرب ، فهناك من ناحية واحدة على الأقل مفارقة غريبة كل الغرابة ، إذ أن امبراطورية الاسكندر مدينة بوجودها الى شخصية رجل واحد ، تعتبر فوق المستوى العادى للانسان . ولقد قيل من الناحية الاخرى : ان العرب أقاموا امبراطوريتهم لا بفضل قادتهم بل على الرغم منهم . (١)

وكانت الفتوح العربية فريدة في نوعها من ناحية أخرى فقبل ان تبدأ هذه الامبراطورية كانت الدولتان العظيمتان في العالم آن ذاك تنظران الى العرب نظرة الازدراء . ولقد عاشت اليمن فترة مستعمرة حبشية ثم عادت فأصبحت مستعمرة فارسية .

---

(١) انا لا افهم معنى هذا التعبير مطلقا ، ولا أستطيع أن اقبل هذه المقارنة على النحو الذي صيغت فيه فكما ان امبراطورية الاسكندر ، مدينة بوجودها الى شخصية رجل فرد هو الاسكندر فان الامبراطورية العربية مدينة بوجودها الى شخصية النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم اذ تمكن من توحيد العرب وجمع شملهم تحت راية الاسلام وأبدلهم بنور الايمان اشخاصا آخرين حملوا كلمة الله لينشروها في العالم . فكانت تلك الفتوح العظيمة التي لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل . ولعل الفرق الجوهرى الذى فات المؤلف أن يذكره ، هو ان امبراطورية الاسكندر انهارت فور موته لانه لم يحمل للعالم رسالة كرسالة محمد صلى الله عليه وسلم أما امبراطورية العرب فقد ظلت قرونا طويلة لانها اتصلت برسالة (محمد) وكانت تجسيدا لها ولم تضعف هذه الامبراطورية وتصب بالانهيار الا بعد ان ضعف الاسلام في قلوب المسلمين .  
( العرب )



وكان الاميران العربيان الوحيدان اللذان يستحقان حملَ هذا الاسم في الجاهلية خاضعين بدورهما لامبراطوريتي الروم والفرس ، ولم يكن العرب شأن يذكر في ميدان الحرب في أيام الجاهلية ، وكان الروم من الناحية الاخرى أشهر مقاتلين في تلك الايام . وترجع شهرتهم حتى الى الايام التي سبقت مجيء الاسكندر وفتوحه العظيمة . ولقد تطلب بناء الامبراطورية الرومانية قرونا طويلة من عمر الزمن ، وكانت فرنسا أقوى الدول الاوربية قبل مجيء نابليون بأمَد طويل . أما العرب فكانوا فريدين في هذه السرعة التي تشبه سرعة العواصف والتي سار فيها مد فتوحهم بادئا من لاشيء .

ولقد غيرت السنوات الخمسون التي انصرفت بين عامي ٦٣٠ و ٦٨٠ خريطة العالم حقًا . ولم يبق على هذه الخريطة من المعالم القديمة شيء . ولقد وصف البحر المتوسط في العهد القديمة بأنه حوض روماني ، اذ كان قلب امبراطورية الرومان ومركزها الحساس وكان الوسط الذي يرتحل فيه الرومان من مصر الى مصر ، ومن اقليم الى اقليم . وكان الساحل الشمالي لافريقية جزءا من العالم الذي يضم فرنسا واسبانيا وإيطاليا . وكان الشرق يبدأ عند الحدود الفاصلة بين رومة وفارس وهي الحدود التي تقوم الآن بين سورية والعراق . وجاءت الفتوح العربية فجزأت البحر المتوسط الى جزأين شمالي وجنوبي ، وعلى الرغم من أن بلدان الامبراطورية العربية لم تكن مأهولة بشعب واحد وعلى الرغم من أن الشمال الافريقي يختلف اليوم اختلافا كبيرا عن الجزيرة العربية ، فإن الفتوح العربية فرضت كمشكل ظاهري على الأقل طريقة الحياة نفسها على جميع البلاد الممتدة من فارس وحتى من الهند الى مراكش، وهي الطريقة التي ندعوها اليوم بالطريقة الشرقية . وقد يكون من الصعب علينا أن ندرك أن شعبا واحدا كان يسكن الجزائر ومراكش في قارة افريقية ، واسبانيا وإيطاليا ، في اوربا (١) .

---

(١) نحن نختلف مع المؤلف تمام الاختلاف في موضوع ما يقوم بين الجزيرة العربية والشمال الافريقي من فروق أو بباينات . فهو يصفها بأنها كبيرة للغاية ، ولكننا لا نرى انها تزيد بآية حال على الفروق التي تقوم بين اهل اسكتلندة مثلا وأهل ويلز أو بين اهل ولاية نيويورك وولاية شيكاغو أو بين بافاريا وبروسيا في ألمانيا فاللغة واحدة والمعادن واحدة تقريبا ، والتاريخ واحد الى حد كبير بالإضافة الى وسائل الدين والدعم والاماني والاهداف . وما قول المؤلف الا صورة من صور محاولات الاستعمار لايجاد الفرة بين أبناء الشعب العربي الواحد .

( العرب )

وهناك ظلال عدة من المعانى لكلمة « عظيم » الا اننا على العموم نربط بين هذه الصفة وبين شيء اكثر من مجرد الحجم ، ونحن نتحرى دائما عن المزايا الروحية ، او المعنوية التى فى انسان أو فى عمل نود ان نطلق عليه صفة العظمة ، وقد قدر للمسلمين بعد انتهاء الحروب الاهلية، ان يستأنفوا فتوحهم وأن يوطدوا أقدامهم فى الشمال الافريقى ثم يحتلوا اسبانيا ويغزوا فرنسا واطاليا ويسيطروا على مالطة وصقلية لكن هذه العمليات العسكرية لم تعد كما كانت عمليات عربية صرفة . فلقد أصبحت الامبراطورية متعددة الاجناس والعناصر . ولم تعد صفة العظمة تطلق على هذه العمليات ، لانها لم تعد مستوحاة من ذلك الاخلاص العاطفى العميق العنيف الذى رافق فتوح العرب فى الخمسين سنة الاولى

\*\*\*

### تواريخ بارزة

٦٦١	استتباب الامر لمعاوية
٦٦٣	وفاة عمرو بن العاص
٦٧٠	وفاة المغيرة بن شعبة
٦٧٠	انشاء مدينة القيروان على يدى عقبة بن نافع
٦٧٠	هجوم العرب على القسطنطينية
٦٧٢	احتلال رودس
٦٧٣	وفاة زياد بن أبيه
٦٧٤	حملة عبید الله بن زياد على بخارى
٦٧٦	تعيين عبید الله أميرا على البصرة
٦٧٦	اعلان ولاية العهد ليزيد
٦٧٧	العدول عن حصار القسطنطينية
٦٨٠	وفاة معاوية

### شخصيات مشهورة

خليفة المسلمين	معاوية بن أبى سفيان
فاتح شمالى افريقية حتى الاطلسى	عقبة بن نافع
أمير الكوفة وشمالى فارس	المغيرة بن شعبة
أمير البصرة وجنوبى فارس ، ثم أمير العراق وفارس كلها .	زياد بن أبيه

أمير خراسان ثم أمير البصرة  
أمير خراسان  
ابن معاوية وولى عهده

\* عبدالله بن زياد  
\* سعيد بن عثمان بن عفان  
يزيد  
الحسين بن على بن أبى طالب

منافسو يزيد على الخلافة

عبد الله بن الزبير  
عبد الرحمن بن أبى بكر  
عبد الله بن عمر بن الخطاب



ذیل



لن يستطيع انفسان أن ينكر أن الاحداث التى شرحتها فى هذا الكتاب قد بدلت تاريخ العالم ، ولقد اثرت أيضا تأثيرا عميقا على حياتنا وما زالت تؤثر مثل هذا التأثير حتى يومنا هذا . ولقد أدى اهمالنا لتاريخ هذه الاحداث الى الحيلولة دون تفهمنا ومن ثم دون معالجتنا معالجة حكيمة لعلاقتنا مع العرب خاصة ومع المسلمين عامة ، ولهذا فان من المجدى ان نلخص بعض العبر التى نستقيها من هذه الاحداث ومن رواية تاريخها .

تستمد الطريقة الاسلامية فى الحياة جذورها من مصدرين رئيسيين اولهما رسالة محمد نفسه ، والاخر عادات العرب فى القرن السابع ولعل اسهل طريقة نتبعها فى تحقيقنا هذا أن نبحث فى الموضوعات المختلفة وأن نتفحص كيف تأثر كل موضوع منها بهذين المصدرين اللذين ذكرتهما .

### العلاقات الاجتماعية :

يبدو لنا بصورة عامة أن النبى كان انسانا كريما ، ولقد أثر بعطفه على الفقراء والمحتاجين والضعفاء وبانصرافه عن المال وحبسه للأطفال وحرصه على النظافة وحنه الناس عليها على الطريقة الاسلامية فى الحياة تأثيرا كبيرا ، فهناك فى المجتمع العربى شعور بالرقه والحنان والعطف لا يفهمه المجتمع الأوروبى .

وكانت طريقة العرب فى الحياة فى القرن السابع من الناحية الأخرى قاسية قد تصل فى قسوتها حدود الفظاعة . وقد أدى الافتقار الى أى شكل من أشكال الحكم المركزى الى أن يتولى اقرباء المجنى عليه أو المجنى عليه نفسه عقاب الجناة ولعل الثارات الدموية أكثر أمثلة هذا الشكل من أشكال القضايا بروزا وظهورا . فلم تكن هناك شرطة أو قوانين أو قضاة يتولون معاقبة القتلة . ولهذا كان اقرباء القتيل يحاولون أن يثأروا بقتل القاتل فان تعذر عليهم الوصول اليه فيقتل أحد اقربائه . وينطبق القانون نفسه على الجنائيات الصغرى والجنح كالاصابات بالجراح أو بالضرب أو السرقات . وقد أدى هذا النظام من الثأر الى الكثير من الاعمال الوحشية الفظيعة كما سبق لنا أن رأينا فى أحداث هذا الكتاب .

• وقد اقامت معظم الدول الاسلامية منذ القرن السابع ، وفي مختلف العهود أنظمة قضائية فعالة ونظمت فرق الشرطة ، مما أفقد عمليات الثأر الشخصي ضرورتها ، ولكن فكرة الثأر لا تموت بسهولة ، وإذا شئنا التوسع في القول أمكننا القول بأن حق الثأر أو واجبه على الأصح قد بقى برغم جميع الاصلاحات الحديثة اذ أنه بات ، نتيجة جميع هذه الجذور القديمة ، مبدأ اخلاقيا يعترف به . ولعل هذه الناحية ، كما يبدو لى ، هى احدى نواحي التوجيه التى تختلف فيها المسيحية اختلافا بينا عن الاسلام ، فليس ثمة من توجيه للمسيحيين بأن يقابلوا الاساءة بالاساءة . أما فى الاسلام ، فان حق الثأر مشروع بل انه يعتبر فى بعض الحالات واجبا اخلاقيا (١) .

• وقد سبق لى ان قلت ان النبى كان فى حياته اكثر تأثرا باليهودية منه بالنصرانية (٢) يضاف الى هذا ، ان عرب القرن السابع كانوا ولا شك يعيشون فى الاوضاع الاجتماعية التى عاش فيها العبرانيون أيام العهد القديم « من التوراة » .

ولقد كان ابراهيم وهوسى النبيين المحترمين عندهم . وكان احترامهما يعادل ان لم يفق احترامهم لعيسى . والعهد القديم يضم الافكار التى آمن بها العرب كالعين بالعين والسن بالسن أو واجب قتل الكفرة والمشركين . وكانت محبة الجار وكراهية العدو قاعدتين اخلاقيتين مقبولتين عند العبرانيين القدامى وعند عرب القرن السابع للميلاد .

(١) لا ادرى من اين استقى المؤلف هذا الانطباع الخاطئ اذ من القواعد الاسلامية التى يعلمها المسلم منذ نعومة اظفاره الحض على مقابلة الاساءة بالاحسان لا بالاساءة كما يرمم المؤلف . والقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ملووان بالآيات والاحاديث التى تحض المسلمين على العفو والصفح ومقابلة الاساءة بالاحسان ولا حاجة بى الى تعدادها أو البحث فيها ، لان هذا المجال ليس مجالها . ومن الغصائل الكريمة التى يحض عليها الاسلام العفو عند المقدرة . وهو أعظم غروب العفو ، ومقابلة الاساءة بالاحسان .

(٢) اخطأ المؤلف أشد الخطأ فى قوله هذا . فالاسلام جاء مكملًا للرسالات السماوية ومبشرا ونذيرا . والمسيحية هى آخر هذه الرسالات قبل الاسلام ولذا لا يجوز القول بأن النبى كان اكثر تأثرا باليهودية منه بالنصرانية ، ولا سيما ان المسيحية نفسها تعتبر العهد القديم ( التوراة ) جزءا من اساسها الدينى . ولعل خطأ المؤلف يظهر أوضح ظهور فى قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا » الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين وراهبا « كما أن ما ورد فى القرآن الكريم عن عيسى بن مريم عليه السلام لا يقل ان لم يرد عما ورد من موسى أو ابراهيم عليهما السلام . فكلهم من الانبياء والمرسلين الذين يعلمهم الاسلام ويحترمهم كل احترام » ( العرب )



وقد أوحى المجتمع العربى فى القرن السابع للمسلمين أيضا بمشاعر قوية من الالتزام العائلى ، وهو رأى له حسناته وسيئاته وأن كان غربيا كل الغرابة على الغرب المعاصر . فعلى الاسر فى المجتمع الاسلامى أن تعنى دائما بالعجزة من رجالها وباليتامى والمعتوهين وحتى بالفاسدين والخائبيين .

ويختلف المجتمع الاسلامى فى هذه الناحية اختلافا بينا عن المجتمع الغربى الحديث الذى ينظر الى الاقارب عادة نظره الى معارف غير محبوبين والذى يترك العجزة أو المصابين عادة الى أقدارهم أو الى رعاية المؤسسات العامة . وإذا لم يكن المجتمع الاسلامى قائما على أساس الدولة التى تعنى بالخير العام للناس فإنه قائم على الاقل على نظام الأسرة التى تعنى بخير أفرادها ، التى ترعاهم حتى لو لم يكونوا يستحقون هذه الرعاية . لكن الوفاء للأسرة ينطوى على بعض السيئات اذ يفرى موظف الدولة على سرقتها أو على قبول الرشا ليؤمن مثلا لأطفاله تعليما صالحا أو ليضمن لأمه العجوز العناية الطبية اللازمة (١) .

وكان النبى ميالا الى النساء (٢) ولذا فقد سمح الاسلام لاتباعه بالزواج على الا تمعدى الريحات اربعا كما سمح باقتناء الجوارى ولما كان عدد الذكور يعادل عدد الاناث فى كل مجتمع فإن من المستحيل بحكم الواقع ان يتمكن غالبية الرجال من الزواج بأكثر من واحدة ، وإزاء هذا التسامح كان النبى صارما كل الصرامة فى عقاب العلاقات الجنسية غير المشروعة . فعقوبة الزنا عادة هى الموت . وهناك عقوبات أخرى وضعت للفرل غير المشروع والتهتك . ولا ريب فى أن هذا الاسترخاء الراهن فى العلاقات الجنسية فى العالم المسيحى يثير تفرد المسلمين الصالحين

---

(١) حقا انها فكرة فى منتهى السخف فالرشوة أو السرقة تملكان بأخلاق الموظف الشخصية لا بأى شيء آخر وإن كانت الدوافع المادية تترك الرا . ولكن المؤلف كما يبدو نسي أن هناك أموال الزكاة التى نص عليها الاسلام ، وأن هذه الاموال تنفق على المحتاجين والمساكين سواء اكانت العلاقات العائلية تفرض التزامها أم لا فرضها ولعل سخف رأى المؤلف يبدو من الحقيقة الواقعة وهى ان السرقات والرشا توجد حتى فى اكثر البلاد تنظيما لشئون اشتراكية الطب والتعليم ، ولا يخلو منهما أى مجتمع من المجتمعات مهما كان عظيما فى تقدمه .

( العرب )

(٢) سبق لى أن دحضت هذا الزعم الغربى المألوف فى تعليق سابق بينت فيه اسباب تعدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم .

( المغرب )

ورعهم . ومن هنا يتبين ان اتباع كلتا الديانتين ينظرون الى الآخرين نظرة الاتهام باللاخلقية فى الناحية الجنسية (١) .

### الحكم :

سبق لى أن بينت ان حقيقة جمع النبى بين السسلطتين المدنية والدينية ، قد أدت الى خلاف جوهري بين الدولتين الاسلامية والمسيحية ولقد ظل الحكام المسلمون طيلة التاريخ الاسلامى ، والى ما قبل اربعين عاما فقط يجمعون عادة بين هاتين السلطتين وقد أدى هذا النظام الى تجنب الصراع بين السلطتين ولكنه فى الوقت نفسه مكن الحاكم من ان يستخدم ضد خصومه السياسيين تلك العقوبات التى وضعها النبى للمرتدين ، ولعل من أعقد المشاكل التى تواجه غير المسلمين عند تفكيرهم بأوضاع البلاد الاسلامية ان النبى لجأ الى استخدام الاغتيال ضد أعدائه . ولما كان كل ما فعله النبى يعتبر سسنة صحيحة فان بعض الساسة يجدون المبرر للخلاص من خصومهم بهذا الاسلوب نفسه (٢) .

ولم يكن محمد كما رأينا نبى قومه فحسب بل كان حاكمهم أيضا وقد قضى القسم الاكبر من حياته فى صراع مريب سعيا وراء البقاء ، فى مختلف الميادين الاخلاقية والسياسية والعسكرية . وكان اتباعه يطيعونه فى مثل هذه الظروف الخطرة الرجاجة طاعة عمياء ، لانهم

---

(١) يبدو ان المؤلف لم يفهم حقيقة النص على تعدد الزوجات فى الاسلام ، فالدين لا يبيح هذا التمدد بصورة اطلاقية ، حرة من كل قيد أو التزام ، فهو يبيح للمسلمين الزواج بأربع بشرط العدل بين الزوجات فى كل شيء وهو يحدد الزواج بواحدة ان تعدل العدل وهو متعدد بالنسبة الى أغلبية الناس بحكم الفريضة والمأطفة . وقد أباح الاسلام هذا التعدد لمعالجة كثير من المشاكل الاجتماعية والحالات الجنسية الشاذة التى لا أريد الخوض فيها الآن . ولا اظن ان المؤلف يختلف معنا فى أن الزواج بأكثر من واحدة فى حالات مقيدة ومشروطة خير لمنفعة المجتمع وكيان الأسرة من العلاقات الجنسية غير المشروعة . اما بالنسبة الى الجوارى وهن الأسيرات فى أيام الحروب فان السماح بالعلاقات المشروعة منهن بالنسبة الى تلك الأيام أحفظ لسلامة المجتمع من تقييدها شرعا . لتنتقل الفرائز التى لا سبيل الى التحكم فيها حرة بصورة غير مشروعة . ( الحرب )

(٢) مفاظة واضحة من المؤلف اذ يتهم النبى (صلم) بسماحة بالاغتيال السياسى ناسيا أو متناسبا ، ان النبى كان «القاضى» الاكبر» للمسلمين فاذا كان قد أمر اتباعه بقتل هذا أو ذاك من المرتدين أو المشركين أو أعداء المسلمين فان أمره هذا حكم قضائى وتنفيذ لا يعتبر اغتيالا وانما هو ايقاع لعقوبة أو قصاص . ومن هنا لا يكون من حق الحاكم ان يقتل ما فعله رسول الله ولا سيما اذا لم يكن الحكم اسلاميا فى كل شيء .

( الحرب )

يعتقدون ان كل ما يقوله أو يفعله إنما هو من عند الله . وقد حاول خلفاؤه الأوائل ، كما سبق لنا أن رأينا ، كل ما في وسعهم لاتباع سنته سواء في أسلوب حكمه أو في طريقة حياته الخاصة ونتيجة لهذه السابقة الأولى . ظل الحكم الاسلامي مفردا كما كان الوضع في أيام النبي وخلفائه الأوائل (١) ولكن على الرغم من أن أبا بكر وعمر كانا حاكمين مفردين ، فإنهما لم يكونا من الطفاة المتكبرين الذين يعيشون في عزلة عن رعاياهم فلقد كان من السهل كل السهولة الوصول اليهما وكانا ديمقراطيين ينظران إلى الرعية نظرة الأب إلى أولاده . وعلى هذا فالحاكم الاسلامي مفرد ولكنه ممنوع من الاستبداد ، بتقليد قوى من مشاعر العطف والابوة .

وقد سبق لي أن اشرت إلى الصعوبات التي واجهها المسلمون في اختيار خلفاء رسول الله . ولم يكن العرب يعترفون قط بالوراثة أساسا كافيا للخلافة فهم عند اختيارهم لشيوخهم القبلين العاديين يراعون أن يكون الشيخ عادة أكثر أبناء الأسرة الحاكمة كفاية وقدرة . أما في اختيار الخليفة فقد اتبعوا الطريقة الطبيعية جدا في الاختيار ، وهي أن يكون أكثر المسلمين صلاحا للمنصب ، وقد روعيت هذه الطريقة ولو من ناحية نظرية في اختيار الخلفاء الأربعة الأوائل . وأدت صعوبة اختيار الأصلح في الواقع وما نجم عن هذه الطريقة من تهديد بالحرب الأهلية إلى اتباع طريقة اختيار البكر في الاسر الإسلامية الحاكمة الأخيرة لكن العرب على أية حال لم يقبلوا قط مبدأ خلافة الابن البكر لأبيه خلافة رتيبة (أوتوماتيكية) .

ولعل من الغريب أن لا سابقة لفكرة تولي مجموعات من الرجال الحكم سواء كانت هذه المجموعات وزارات أو برلمانات أو لجانا في التاريخ العربي ، ففكرة الحكم عندهم تتجسد دائما في رجل واحد . ومن الواجب أن يكون هذا الحاكم دائما متواضعا خيرا تقيا كريما ويسهل الوصول إليه . ولا يسمح العرب بظهور طفاة مستبدين متعجرفين ولكن السلطة التنفيذية يجب أن تكون على أية حال في يد رجل واحد . ويمكن تتبع جذور هذه التقاليد كلها والمودة بها إلى القرن السابع .

(١) لم يكن الحكم الاسلامي مفردا قط وإنما كان شورى دائما سواء في عهد النبي أو في عهد خلفائه الأوائل . ولم يكن النبي أو أبو بكر أو عمر يستأثرون بالقرارات التي تتناول الشؤون العسكرية أو السياسية أو القضائية وإنما يشاورون فيها أهل الشورى . ولذا لا يمكن أن نطلق على الحكم الاسلامي صفة « الاوتوقراطية » التي يطلقها المؤلف عليه .

( العرب )

وقد عملت الحكومات الغربية منذ عام ١٩١٨ وفى اوقات مختلفة  
جهد طاقتها لاقامة انظمة انتخابية ديمقراطية فى بلاد الشرق الاوسط  
ولكن الدساتير التى تنص على هذه الانظمة ما لبثت فى جميع الحالات أن  
انهارت لتقوم مقامها حكومات عسكرية ، وعلى المرء ألا يستغرب هذا  
لان الحكم المسكرى اقرب الى تقاليد العرب العريقة من نظم الديمقراطية  
الغربية . (١)

## الحرب :

كان العرب فى القرن السابع للميلاد يؤلفون شعبا محاربا للغاية  
ولكن اساليبهم فى القتال كانت بدائية ليس الا . وكانوا يعتمدون على  
روحهم الحربية وعلى شجاعاتهم الشخصية الفردية أكثر من اعتمادهم  
على علم الحرب وفنها . وقد عاشت هذه التقاليد حتى يومنا هذا  
وكثيرا ما كلفت المسلمين ثمنا غاليا فى الصراعات مع القتل المحترفين الذين  
يحاربون بقصد الفوز . فكل طفل مسلم ينشأ وقد امتلا عقله بقصص  
حياة الرسول وقصص الفتوح العربية التى تقوم على أساس الشجاعة  
الشخصية مع اهمال المهارة أو الفن ، وقد عاشت هذه القصص حتى  
يومنا هذا فى البلاد الاسلامية النائية وان كانت مطبقة اصلا فى الجزيرة  
العربية وحدها .

ومن واجبا أن ندرك أن الجيوش البيزنطية والفارسية كانت أعظم  
القوات العسكرية فى ذلك العهد ، وكان ضباط تلك الجيوش يدرسون  
المؤلفات عن التاريخ المسكرى وفنون الحرب ، وكانت لكل من الجيوش  
تقاليدها العسكرية الخاصة بها والتى تبلغ فى عمرها عدة قرون وكان  
سلاحها من أحدث الأسلحة تقنية . ولم تكن تنظر الى الشعوب المتخلفة  
كالشعب العربى الا بعين الزرارية والامتهان ، ولهذا فان الفتوح العربية

---

(١) ان هذه النظم الديمقراطية التى يتحدث عنها المؤلف والتى اقامها الغرب  
كما اعترف هو فى معظم بلاد الشرق الاوسط كانت صورة مزيفة للديمقراطية اذ انها  
كانت فى الواقع تجسيدا لديكتاتورية رأس المال والاقطاع وسيطرتهما على الحكم فالبرلمانات  
الرائقة التى خبرتها معظم البلاد العربية فى ظل النظام الديموقراطى المزيف لم تكن فى  
الواقع الا التجسيد المملى لحكم رأس المال والاقطاع المتعاونين مع الاستعمار والمربطين  
فى وجودهما ومصالحهما مع اذ ان معظم أعضاء هذه المجالس كانوا فى كل انتخاب يمثلون  
مصالح رأس المال المستغل والاقطاع التحكم . ولهذا فلا يمكن الحكم القائم على مثل هذه  
البرلمانات الرائقة ان يسمى بالحكم الديموقراطى .

( العرب )

العظيمة تنطوى على كثير من الدروس التي يجب علينا أن نتعلمها ، واحدها أن من الخطأ الاعتماد كلياً على التفوق التقني لكسب الحروب ، وكان الاجتهاد من الحروب قد نال من الفرس والروم ماناله ، بالإضافة الى مامتاز به هؤلاء من ادعاء وغرور واستخفاف بالآخرين . وكان الكثيرون من رعاياهم غير مخلصين لهم ، وكانوا يكرهون الحروب كما كان تشككهم في الفائدة منها قد حطم معنوياتهم ، أما العرب فكانوا على النقيض من ذلك ؛ بسطاء متحمسين وواغبين في الموت ، ونحن نميل الى تناسي أن هذه المزايا ، لا العلم ، هو الأساس في بناء الجندى .

وهناك التباس ضخم اليوم حول ما للعرب من قيمة عسكرية ، المعروف أن الفاتحين العرب الأوائل لم يقوموا بأية محاولة وإن قاموا فبمحاولات لا شأن لها لتحويل الشعوب المحتلة الى الاسلام . وكان اصراهم الوحيد هو أن تدفع هذه الشعوب الخاضعة ضرائب اضافية وقد هبطت الشعوب المهزومة من الناحية الاجتماعية الى مرتبة المواطنين من الدرجة الثانية على حد تعبير المصطلحات الحديثة . ولكن المسلمين لم يطلبوا اليهم اعتناق الاسلام . أما اذا تحولوا الى الاسلام على أية حال . فإن هؤلاء سرعان ما يصبحون أندادا للفاتحين ، ويفقدون قادرين على الاختلاط بهم والتزاوج معهم . ولا يمضى طويل وقت حتى يصبح هؤلاء « عرباً » ، حتى لو لم تكن هناك كما هي الحالة بالنسبة الى كثيرين منهم نقطة واحدة من الدم الغربى تسرى في عروقهم ، وهكذا أصبحت كلمتا العربى والمسلم مترادفتين وترمزان الى شيء واحد .

ومع ذلك هناك ولا ريب تشابه ظاهرى بين جميع الشعوب الناطقة بالعربية من حدود فارس حتى مراكش (١) . ومن واجبنا ألا نرد هذا التشابه الى الجذور العنصرية بل الى تأثير الثقافة والدين ، ولم ينطو قبول غير العرب مع العرب على أساس المساواة الاجتماعية على التحول الى الاسلام فحسب بل انطوى أيضاً على تبني اللغة العربية كلغة قومية للجميع مما أدى الى قيام أدب مشترك وتعليم مشترك أيضاً .

---

(١) أن تعبير « الشعوب الناطقة بالعربية » تعبير استعماري مكرر يقصد منه تجزئة الأمة العربية الواحدة الى مجموعة من الشعوب تشارك في لغة واحدة هي العربية مع أن الشعوب العربية القيمة بين فارس ومراكش شعب عربى واحد تؤلف اللغة المشتركة إحدى خصائصه بالإضافة الى الاشتراك في التقاليد والتاريخ والمعادن والواقع المادى وامانى المستقبل الواحد .

( العرب )

ولا تختلف العلاقة القائمة بين الشعوب الناطقة بالعربية اليوم عن تلك القائمة بين الشعوب الأوروبية . فقد يبدو لنا نحن البريطانيين أن اليونانيين أو النرويجيين غرباء عنا . كما أنهم غرباء بعضهم عن بعض ، ولكن بالنسبة الى الآسيويين تبدو شعوب أوربا وأمريكا الشمالية كلها متشابهة لأنها تشترك في تراث المسيحية المشترك . ومع ذلك فإن السلوك الذي يسلكه النرويجيون في أزمات الحياة يختلف عن سلوك اليونانيين ولا يكون التراث الدينى والثقافى المشترك بينهم حافزا قويا وكافيا لازالة الخصائص العنصرية لكل منهما . وهكذا فإن اطلاق تعبير العرب على جميع الشعوب التى تعيش بين فارس ومراكش يشبه الى حد ما اطلاق تعبير الاوربيين على مجموعة الشعوب التى تشترك في تراث دينى ثقافى واحد . وان اختلفت فى خصائصها العنصرية اختلافا كبيرا (١) .

وربما لا يكون البحث فى معنى كلمة عربى « أكاديميا » فحسب بل ينطوى أيضا على نواح سياسية مهمة . فلو هاجم بلد عربى بلدا عربيا آخر وغزاه فقد يدعى هذا البلد أن جميع العرب يمتون الى أمة واحدة وان عمله يجب أن يعتبر على هذا الأساس داخليا ومن شئون العرب المحليه لا حق للامم المتحدة ولا لاية منظمة غير عربية أخرى بالتدخل فيه ، أما اذا اعتبرنا من الناحية الاخرى أن العلاقات بين البلاد العربية تشبه تلك التى تقوم بين شعوب أوربا الغربية فإن غزو أى بلد عربى لبلد كآخر يصبح عدوانا دوليا يفترض من الامم المتحدة ان تحول دونه ، وهذا مثل آخر ولا ريب على علاقة التاريخ بالشئون الراهنة .

وتكشف قصة المحسين سنة الاولى من الفتوح العربية بعض المزايا الخاصة التى لاتزال تنطبق على حياة أبناء الجزيرة العربية اليوم، اذ أن هؤلاء ظلوا على حالهم لم يطرأ عليهم أى تبدل منذ أيام النبى ، فهم بما عرف عنهم من صلابه واستقلال ووفرة فى الفضائل العسكرية مازالوا يعتمدون على الشجاعة أكثر من اعتمادهم على العلم . ولو أتيت لهم المستويات نفسها فى التدريب والمعدات فقد يضاهون أعظم جنود فى

---

(١) تشبيه سخيف من المؤلف فالشعوب العربية من المحيط الى الخليج لا تشبه فى العلاقات القائمة بينها الشعوب الأوروبية كما يقول المؤلف ، وانما تشبه مايقوم بين الشعب الأوروبي الواحد كالألماني مثلا أو الإنجليزي من علاقات وارتباطات . وعرب الجزائر مثلا لا يختلفون عن عرب مصر أو عرب العراق الا كما يختلف البافاريون عن السكسونيين أو البروسيين أو كما يختلف أهل باريس من أهل نورماندى أو ديجون أو بريثانى .

العالم ، والاسلام أساساً دين الجندية اذ أنه انبثق عن هذا الشعب المحارب الصلب ومع ذلك فان الشعوب الباقية الناطقة بالعربية حتى يومنا هذا تختلف اختلافا جوهريا فى خصائصها العسكرية بحيث يستحيل التصميم بالنسبة اليهم كما يحاول البعض أن يفعلوا .

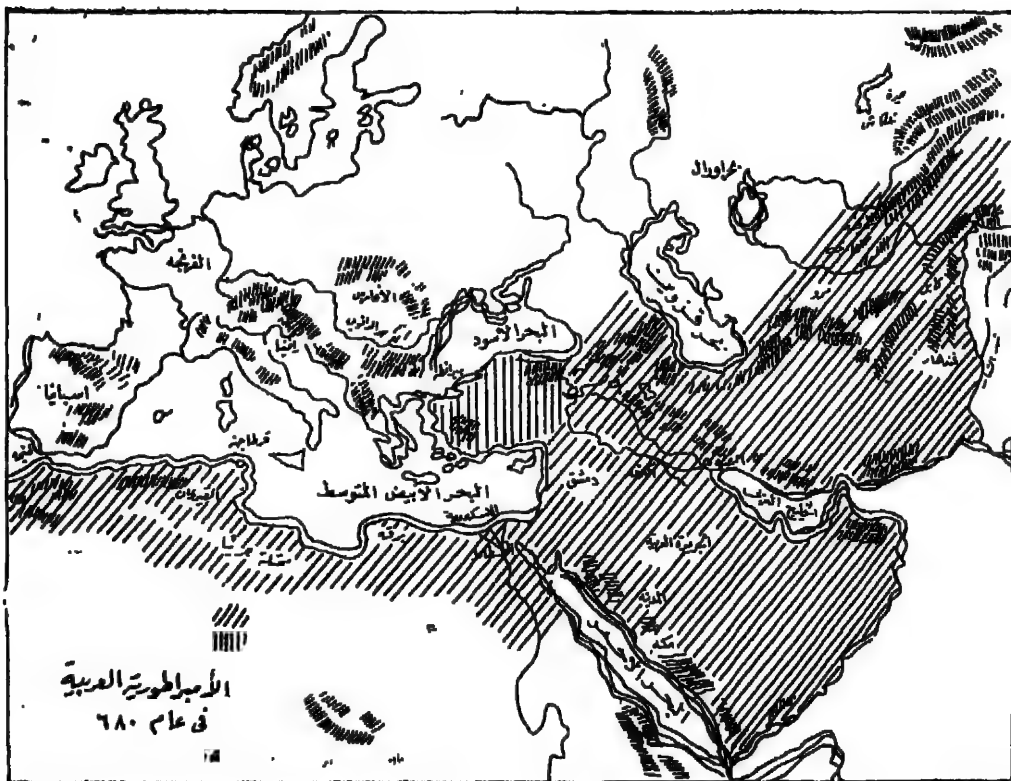
ومن خصائص ابن الجزيرة العربية البارزة أيضا صراحته ونظرته المستقيمة الى الحياة ، وحديثه بسيط ومباشر لا يتضمن التفخيم أو تعابير الكياسة المنمقة . فالعذر عدو بالنسبة اليه ، وهو يميل الى معاملته على مقاييس العنف البدنى ولا ريب فى أن السوريين واللبنانيين واليونانيين يختلفون عنه أوسع اختلاف اذ انهم يعتمدون على الادراك والمجاملة والدهاء وهم يميلون بدافع الغريزة الى الخلاص من أعدائهم بأساليب أكثر التواء من مجرد الضرب على الرأس بفأس أو بآلة حادة . ولما كانوا يعيشون فى عالم يمتاز بالفكر والادراك فانهم لا يميلون الى قبول أية حلول معدة وغير مصقولة بدلا من الحلول الصحيحة نظريا للمشاكل التى يواجهونها ، ولعل هذه الأمثلة القليلة كافية لايضاح هذه الخصائص العنصرية المختلفة أحيانا والمتعارضة تعارضا عموديا أحيانا أخرى والتى تميز الشعوب المختلفة التى تشترك فى لغة عربية واحدة ودين اسلامى واحد (١) .

وتستحق العلاقات بين الاسلام والمسيحية فى هذه الايام شيئا من التعليق . ولقد سبق للنبي أن أعلن أن اليهودية والمسيحية والاسلام ديانات ثلاث مرتبطة بعضها ببعض ولو درسنا كل واحدة منها على حدة لتبين لنا أن ما بينها من خلافات عميق كل العمق . ولكننا اذا قارناها مع الهندوكية البوذية أو الالحادية الشيعية فانها تبدو على سبيل المقارنة مترابطة بعضها مع بعض ، ولكن هناك كثيرين يعتبرون الاسلام والمسيحية دينين متنافسين أشد التنافس وانى لاعتقد أن هذا الرأى الخاطىء يستمد جذوره من الاسباب السياسية لا الدوافع الدينية .

ولقد سبق لى أن اوضحت أن الفساحطين العرب الأوائل اعتبروا بيزنطة عدوهم الرئيسى الاول . ولقد اتجهت حروب المسلمين فى الفتوح اللاحقة فى شمالى أفريقية والأندلس وفى الحروب الصليبية وغزو

---

(١) أنا لاأعتقد أن الأمثلة التى ضربها المؤلف كالملة لأنتاج أى انسان بوجودخلافات كالتى يشرح اليها المؤلف بين العرب الذين يصر على تسعيتهم بالشعوب الناطقة بالعربية ، لهم امثلة واجبة لاتنتوى على إية قوى اقتصادية ناهيك بما فيها من تضليل .





الأتراك العثمانيين للبلقان ومعاركهم الطويلة المستمرة مع روسيا القيصرية لمحاربة للمسيحيين ، أما الصراعات بين المسلمين والهندوس فى الهند فكانت على نطاق أضيق . كما أن المسلمين لم يشتركوا فى حروب ضد اليهود الا فيما ندر فى الماضى ، وفى الأربعين سنة الأخيرة فى فلسطين (١) .

ولا ريب فى ان هذه المنافسة الطويلة بين النصارى والمسلمين ترجع الى الاحداث السياسية العارضة والمصادفات الجغرافية أكثر من رجوعها الى خلافات دينية أساسية . أما وقد شرعت الالحادية المادية اليوم فى تحدى القيم الروحية فان فى وسع الديانتين الكبيرتين أن تشاركوا معا فى محاربة أولئك الذين ينكرون وجود الله كلية ، وانى لاعتقد بوجود مجال فسيح للتعاون بين الديانتين .



وقد عاد العالم الناطق بالعربية بعد أربعة قرون من حياة الظلام والنسيان الى مسرح التاريخ يؤدى دوره، وأرى أن من واجبنا ومن مصلحتنا أيضا أن ندرس دراسة متعمقة تاريخ هذه المجموعة من الأقوام وعقليتها ولا سيما أن لهذه المجموعة سجلا تاريخيا مملوءا بالامجاد والفضائل .

### تم الكتاب

---

(١) يحاول المؤلف هنا جريا على ما ألفناه من الاستعمار البريطانى طيلة وجوده فى فلسطين أن يصور النزاع فى فلسطين على أنه نزاع دينى بين العرب واليهود وهى الصورة التى ضللت العرب مدة طويلة وخدمت مصالح الاستعمار ومكنته من أن يقيم قاعدته اسرائيل فى قلب الوطن العربى مع أن مشكلة فلسطين مشكلة استعمارية لا طائفة ولا شأن للدين فيها ، لهنى صراع من أجل التحرر بين العرب والاستعمار الذى خلق اسرائيل ومازال يدعم وجودها حتى اليوم .

( العرب )



# الأحداث التاريخية

سنة

٥٧٠	ولادة النبي محمد
٥٧٠	عام الفيل وهجوم الاحباش على مكة
٥٧٤	احتلال الفرس لليمن
٥٨١	الروم يلقون دولة الفساسنة في الشام
٥٩٥	زواج النبي بخديجة
٦٠٢	كسرى الفرس يغزو امبراطورية الروم
٦٠٢	الفرس يلقون دولة المناذرة في الحيرة
٦١٠	هرقل يعلن امبراطورا
٦١٠	نزول الوحي على محمد
٦٢٢	هجرة النبي الى المدينة
٦٢٢	ابحار هرقل من القسطنطينية لتطويق مؤخرة الفرس
٦٢٤	معركة بدر
٦٢٥	معركة أحد
٦٢٧	حصار المدينة ومعركة الخندق
٦٢٨	اغتيال كسرى - الصلح بين الروم والفرس
٦٢٨	صلح الحديبية
٦٢٩	معركة مؤتة
٦٣٠	فتح مكة
٦٣٢	رفاة النبي
٦٣٣ - ٦٣٣	حروب الردة
٦٣٢	يزدجر يعتلي عرش الالكاسرة
٦٣٣	احتلال الحيرة
٦٣٤ - ٦٣٣	غزو فلسطين والأردن
٦٣٤	مسيرة خالد عبر الصحراء
٦٣٤	معركة بابل في العراق

٦٣٤	معركة اجنادين في فلسطين
٦٣٤	وفاة ابي بكر
٦٣٤	معركة اليرموك الاولى
٦٣٤	معركة الجسر في العراق
٦٣٥	فتح دمشق
٦٣٥	معركة البويب في العراق
٦٣٦	معركة اليرموك الثانية
٦٣٧	معركة القادسية
٦٣٨	احتلال المدائن
٦٣٩	تمصير الكوفة
٦٤٠	غزو مصر
٦٤١	موت هرقل
٦٤١	استسلام حصن بابلين
٦٤٢	فتح الاسكندرية
٦٤٢	معركة نهاوند
٦٤٤	اغتيال عمر بن الخطاب
٦٤٩	فتح قبرص
٦٥٢	موت يزيد جرد
٦٥٦	مقتل عثمان
٦٥٦	معركة الجمل
٦٥٧	معركة صفين
٦٦١	اغتيال علي
٦٧٠	تمصير القبروآن
٦٧٧- ٦٧٠	حصار القسطنطينية
٦٨٠	وفاة معاوية

# فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم العرب	٥
مقدمة	١١
ايضاح للمؤلف	١٩
الجاهلية	٢٣
قريش	٤٩
دلو البئر	٧٧
الردة	١٥٧
سوقية القرصان	١٨٧
بداية الانتصارات	٢١٥
المعركة تتأرجح	٢٢٧
اليرموك	٢٦١
القادسية والمدائن	٢٨٣
تثبيت الاقدام	٣١٣
بابل العظيمة	٣٣٩
استسلام مصر	٣٥٩
فتح الفتوح	٣٨١
أبو لؤلؤة	٤٠٤
عثمان	٤٢١
النار تحت الرماد	٤٤٧
الحكم لله	٤٦٩
الهرطقة والخلافات	٥٠١
العودة الى الفتح	٥٢٥
ذيل	٥٥٣
الاحداث التاريخية	٥٦٧



# هيئة قناة السويس

## مناقصة عامة

### بين مقاول القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية - الادارة الهندسية ( المشروعات ) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثين جنيها..

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس ( الادارة الهندسية ) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره خمسة آلاف جنيه ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور .













الدار القومية للطباعة والنشر

« فرع الساحل »



# THE GREAT AR CONQUEST

JOHN BAGOT GLUB

العدد ٨٤  
السنة ٦٥ فرش

